جامعة مؤتة
عمادة الدراسات العليا

السُّــور القرآنيّة ذوات الحــروف المقَطّعَـــة
في ضــوء نظــرية "نحــو النــصّ"

إعداد الطالب
أحمــد قاســم عقلــة الحجــايــا

إشراف
الأستاذ الدكتور عبد الفتاح الحموز

رســالــة مقدَّمــة إلــى عمــادة الدراسات العليــا
استكمالاً لمتطلبات الحصــول على درجــة الدكتوراه
في اللغــة والنحــو قســم اللغة العربية وآدابهــا

جامعة مؤتة، 2008 م

MUTAH UNIVERSITY | جامعة مؤتة

Deanship of Graduate Studies | عمادة الدراسات العليا

نموذج رقم (14)

قرار إجازة رسالة جامعية

تقرر إجازة الرسالة المقدمة من الطالب احمد قاسم الحجايا الموسومة بـــ:

السور القرآنية ذوات الحروف المقطعة في ضوء نظرية نحو النص

استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في **اللغة العربية.**

القسم: اللغة العربية.

	التوقيع	التاريخ	
أ.د. عبدالفتاح احمد الحموز		2008/08/24	مشرفاً ورئيسا
أ.د. محمود حسني مغالسة		2008/08/24	عضواً
أ.د. عبدالقادر مرعي الخليل		2008/08/24	عضواً
د. ماهر أحمد المبيضين		2008/08/24	عضواً

عميد الدراسات العليا

أ.د. حسام الدين المبيضين

جامعة مؤتة - عمادة الدراسات العليا

MUTAH-KARAK-JORDAN
Postal Code: 61710
TEL :03/2372380-99
Ext. 5328-5330
FAX:03/ 2375694
e-mail: dgs@mutah.edu.jo sedgs@mutah.edu.jo
http://www.mutah.edu.jo/gradest/derasat.htm

مؤته – الكرك – الاردن
الرمز البريدي :61710
تلفون :03/2372380-99
فرعي 5328-5330
فاكس 03/2 375694
البريد الالكتروني
الصفحة الإلكترونية

الشكر والتقدير

أتقدم بالشكر والتقدير لأستاذي الدكتور عبد الفتاح الحموز، لما أولاه لي من اهتمام ومتابعة في حلّه وترحاله، منذ أن آثرني بهذه الدراسة؛ عنواناً وموضوعاً ومنهجاً، إلى أن صارت ماثلة بين يديه، فكان نعم الأستاذ الجواد المعلّم المربي، وسأبقى مديناً له ما حييت، فجزاه الله عنّي خير الجزاء، كما أتقدم بالشكر والتقدير لأعضاء لجنة المناقشة الكرام، الذين تَكبّدوا وتحمّلوا العناء والعبء، لقراءة هذه الدراسة وتقويمها، وهم: الأستاذ الدكتور عبد القادر مرعي الخليل، والأستاذ الدكتور محمود حسني المغالسة، والدكتور ماهر المبيضين، وأتقدم بالشكر والتقدير لكل من ساهم في انجاز هذا العمل، أخوة وزملاء وأصدقاء، وكلّ من أفادني بمعلومة أو نصحني بنصيحة، فجزى الله عني الجميع خير الجزاء .

أحمد قاسم الحجايا

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
الشكر والتقدير	أ
فهرس المحتويات	ب
الملخص باللغة العربية	د
الملخص باللغة الإنجليزية	هـ
المقدمة	1
الفصل الأول: السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة ونحو النص	
1.1 نحو النص	23
1.1.1 تعريف النص	23
2.1.1 التماسك النصي	25
3.1.1 عناصر التماسك النصي	30
2.1 القرآن الكريم بوَصفه نصّاً	48
1.2.1 النص القرآني وحال العرب قبل الإسلام	55
2.2.1 سمات السور ذوات الحروف المقطعة	58
3.1 مواقف المفسرين واللغويين والنحاة من الحروف المقطّعة	62
1.3.1 مواقف اللغويين والنحاة من الحروف المقطعة	78
2.3.1 الحروف المقطعة والدراسة	82
الفصل الثاني: التحليل النصيّ لسورة البقرة	
1.2 سورة البقرة	91
1.1.2 نص السورة ونحو النص	91
2.1.2 المناسبة بين عنوان السورة ومضمونها	94
3.1.2 التحليل النصي لعنوان السورة بعد تفكيكه	95
4.1.2 دلالة الفعل(بقر) وتقليباته	99
5.1.2 الحروف المقطعة الثلاثة(الم)	112
6.1.2 عناصر التماسك النصي في سورة البقرو وعناصرها	122
7.1.2 المواضيع الرئيسة التي تناولتها سورة البقرة	169
8.1.2 المحور الموضوعي المركزي في سورة القرة	173
9.1.2 التناص بين سورة البقرة والسور ذوات الحروف المقطعة	183

2.2 السور ذوات الحروف (الم) 188
1.2.2 دلالة الحروف المقطعة في السور ذوات الحروف(الم) 189
2.2.2 عناصر التماسك النصي 195
3.2.2 الموضوعات الرئيسة التي تناولتها مجموعة سور (الم) 212
3.2 دلالات الحروف المقطعة (المص) 220
1.3.2 عناصر التماسك النصي في سورة الأعراف 222
الفصل الثالث: السـور ذوات الحـروف المقطعة(الر،المر،كهيعص، طه، يس)
1.3 السور ذوات الحروف (الر، المر) 246
1.1.3 دلالات الحروف المقطعة (الر، المر) 246
2.1.3 عناصر التماسك النصي 250
3.1.3 الوحدة الموضوعية للسور ذوات الحروف المقطعة (الر، المر) 271
2.3 التحليل النصي لسورة مريم 279
1.2.3 دلالة الحروف المقطعة 279
2.2.3 عناصر التماسك النصي في سورة مريم 281
3.2.3 الوحدة الموضوعية في السورة 299
3.3 التحليل النصي لسورتي طه ويس 311
1.3.3 سورة طه 311
1.1.3.3 الدلالات المتأولة للحرفين (طه) 311
2.1.3.3 عناصر التماسك النصي في سورة (طه) 314
2.3.3 سورة يس 322
1.2.3.3 دلالات الحروف المقطعة في سورة يس 322
2.2.3.3 عناصر التماسك النصي في سورة يس 323
الفصل الرابع: السور القرآنية ذوات الحروف (طسم، طس، حـم، ص، ق، ن)
1.4 السور القرآنية ذوات الحروف (طسم، طس) 331
1.1.4 دلالات الحروف المقطعة في هذه السور 332
2.1.4 عناصر التماسك النصي في هذه السور 332
3.1.4 الوحدة الموضوعية في سور طسم وطس 357
2.4 السور ذوات الحرفين (حم/الحواميم) 363
1.2.4 دلالة الحروف المقطعة في هذه السور 363
2.2.4 عناصر التماسك النصي في سور الحواميم 367

3.4 السور ذوات الحرف الواحد (ص، ق، ن) 386
1.3.4 دلالة الحروف المقطعة في هذه السور 386
2.3.4 عناصر التماسك النصي في هذه السور 391
3.3.4 الموضوعات التي تناولتها هذه السور والموضوع المحوري فيها 409
الفصل الخامس: المنهج الإحصائي وأثره في دلالة النصّ 413
خاتمة الدراسة ونتائجها 433
المصادر والمراجع 442

الملخص

السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة

في ضوء نظرية نحو النصّ

أحمد قاسم الحجايا

جامعة مؤتة/2008 م

تتناول هذه الدراسة بالدرس والتحليل، السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة في ضوء نظرية (نحو النصّ)، وقد جاءت الدراسة في خمسة فصول، تناول الفصل الأول موقف القدماء والمحدثين وأقوالهم في تأويل الحروف المقطّعة، ثم تمّ تعريف النصّ، وعناصر التماسك النصيّ فيه، وجاء الفصل الثاني في قسمين: الأول قُصِرَ على تحليل سورة البقرة وحدها، من حيث دلالات الحروف المقطّعة في هذه السورة وبيان عناصر التماسك النصي فيها، وخصّص القسم الثاني للحديث عن السور التي بدأت بـ (الم)، بالإضافة إلى سورة الأعراف (المص)، وبحث الفصل الثالث في السور التي بدأت بـ بالحروف (الر،المر، كهيعص، طـه،يس)، وتناول الفصل الرابع السور التي سمّيت بـ (الطواسين) أي التي استهلت بالحروف (طسم وطس)، وكذلك السور التي سمّيت بـ (الحواميم) أي التي بدأت بـ (حم)، وتناول أيضاً السور التي استهلت بحرف واحد (ص،ق،ن)، وجاء الفصل الخامس بعنوان المنهج الإحصائي وأثره في دلالة النصّ، وخرجت الدراسة بنتائج منها:

1- أكّدت الدراسة أنّ النصّ القرآني نصّ مفتوح ومستمر ومتواصل مع متلقيه، في كلّ زمان وفي كل مكان .

2- أظهرت الدراسة أنّ للعرب القدماء جهوداً متقدمة وإسهامات كبيرة في دراسة النصوص، وعلى تماس مع الدراسات الحديثة لها.

3- خرجت الدراسة بدلالات جديدة لبعض الحروف المقطّعة، نحو: دلالة حرف الألف على أفعال الأمر نحو: اعبد، استقم، اصبر ، وحرف (اللا)، على الملك، ودلالته على النفي الذي وقع في صدر الآية شهادة التوحيد (لا إله إلا هو)، كما عدّت الحروف المقطّعة واقعة بموقع المقسم به، بمعنى أنّها ليست حروف قسم .

Abstract

The 'Quranic surats'with 'separat letters '
***in the theory of Text syntaxt*.**

Ahmad Q. AL-Hajaya
Mu'tah University, 2008

This Study thoroughly analyzes, the Quran verses 'Quran sūrats' start with sperate letters in the syntax, this study contains five Chapters in which.

The first Chapter focused on the views and attitudes of the ancients and modern scholars, explaining the sperate letters, text definition, and the elements of textual coherence.

Chapter two sperat to two parts; the first consentrate on studies sūrat 'AL-Baqarah' only in terms of the significant indications in this sūrat.
Second Part was specified to talk about the sūrats that begin with 'Alef,Lam,Mim' and sūrat 'AL-a'araf' 'Alif,lam,sad'.

Chapter three discussed the sūrats start with (Alef,Lam,Raa), (Alef,Lam,Mim,Raa),(Kaf,Haa,Yaa,Ein,Sad),(Taha, Yassin).

Chapter four talk about " AL-Twaseen" wich began (Ta,Seen,Mim), (Ta,Seen).and sūrats start with 'Haa,mim' or so called 'AL-Hawamim sūrats' and other sūrats start with one letter,(Sad,Qaf,Noon).

Chapter five was under the title;' the statical Approach and it's effect in text Indication', and the study came out with the following resvlts;-

1.the Study emphasized that the Quranic text isopen and continuous with the recipients in all times and places.

2 the Study shows that ancients arabs have great participations and eff0rts in texts study and cope with modern studies.

3. the Study came out with new indication to some seperat letter; e.g Alef lettertive verbs, ALLam letter indicates, and it,s negative meaning in the onlyness verse (No God but He "Allah"), and they are not vow letters.

المقدمة

الحمد لله وحده الذي أنعم علينا بالإسلام ديناً قيماً، وبالقرآن الكريم نصّاً عليّـــا، هادياً للتي هي أقوم صراطاً سوياً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيّاً أميّـــاً، مبعوثـــاً رحمة للعالمين نجيّا، هادياً ومبشراً ونذيراً، فصلى الله عليه وســلم تــسليماً كثيــراً مباركاً، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ومن سار على طريقهم الــسّوي إلـــى يــوم الدين.

تبحث هذه الدراسة في واحد من أهم الموضوعات التي تناولهـــا الدّارســـون للنصّ القرآني الكريم، ألا وهو (السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة)، فقد لقيـــت هذه السور بشكل عام والحروف المقطعة التي استهلت بها بشكل خـــاص، اهتمامـــاً وعناية من المفسرين واللغويين القدماء، ولا تزال تلقى اهتماماً من قبـــل المفـــسرين واللغويين المحدثين، لكنّ أهميتها اقتصرت على تأويل هـــذه الحـــروف دون ربـــط الدلالات التي تحصلت لهم بمدلولاتها من نصوص السور، بقطع النظر عن بعـــض الآيات التي استدلّ بها قليل من المحدثين، على معنىً واحد من المعاني التي تأوّلوها للحروف المقطعة، ويبدو أنّ عدم ربط هذه الحروف بما قبلها أو بما يليها من آيات، أو ربطها بعنوان السورة نفسها، مردّه هو بعدّها حروفاً وليست جملة نواة، ومن هنا جاء سبب اختيار هذا الموضوع، وهو التعامل مع الحروف المقطّعة التي اســـتهلت بها السور ذوات الحروف المقطّعة، بوصف هذه الحروف جملة نواة، تـــرتبط بمـــا قبلها وبما يليها من آيات، وترتبط دلالياً بمدلول وأكثر من نصّ السورة، كما تـــرتبط بعنوان السورة ذاتها.

بلغت السور القرآنية التي استهلت بالحروف المقطّعة تسعاً وعـــشرين ســـورة، منها ست وعشرون سورة مكيّة وثلاث سور مدنية، وقد اتبعت الدراسة في تحليـــل هذه السور المنهج الوصفي التحليلي والمنهج الإحصائي، واستثمرت معطيات المنهج التفسيري، فأفادت منه في تحليل نصوصها، وعرضت لدلالات الحروف المقطّعـــة عند المفسرين واللغويين على اختلاف مذاهبهم، كما استفادت الدراسة مـــن ســـائر العلوم ومعطياتها- إلى جانب علم اللغة والنحو-فاغترفت من علم الـــنفس، وعلـــم الاجتماع، وعلم التفسير، وعلم الفقه، وعلم الأصول، وعلم المنطق، وعلم الفلـــسفة،

وعلم الكلام، وعلم الحساب، وعلم الجمال، وفي هذا السياق المعرفي الشمولي، أقـرّ سعيد بحيري بسعة هذا العلم قائلاً:"وقد اتسع علم لغة النصّ في الأساس بضمّه تلك القواعد والنماذج والاستراتيجيات المتاحة وتجاوزها إلى إمكانات أخرى، توافرت له من خلال الامتداد المعرفي واتساع الأفق والتداخل الصوري، ومكّنته نظرته الشمولية من تخطي الامتداد الأفقي إلى أبعاد دلالية وإشارية وإحالية وإيحائية، تستعصي على النظر المحدود، بل استعانت بما يدور فيما وراء اللغة في التحليل والتفسير، حين وضع في الاعتبار مستويات القرّاء وأحوالهم النفسية والاجتماعية، وتعدُّد القراءة، وأشكال التواصل، ودرجات الفهم والاستيعاب، وطرق التذكر والاستعادة، وإمكانات التأليف، وكيفيات الترابط الذهني..."([1]) .

جاءت الدراسة في خمسة فصول وخاتمة وثبت لمصادرها ومراجعها، وتقَدّمت موضوعات الفصل الأول مقدمةٌ للدراسة، أشارت إلى أهمية موضوع الدراسة عند القدماء والمحدثين، من حيث سبب اختيار موضوعها، والمنهج التحليلي الذي اتبعته، ثم عرضت لما اطّلعت عليه من دراسات قديمة وحديثة، قد تكلّم أصحابها عن الحروف المقطّعة، كما وقفت على ما يتصل بنظرية نحو النص، فأشارت في وقفة سريعة إلى جهود العرب القدماء، من مفسرين ودارسين لعلوم القرآن الكريم.

ثم تناولت الدراسة في فصلها الأول أيضاً، فعرضت لنحو النصّ من حيث: تعريف النصّ وذكر عناصر التماسك فيه وتوضيحها، وتحدثت الدراسة عن القرآن الكريم بوصفه نصّاً، فوقفت معرّفة ببنيته المنطوقة والمكتوبة، ثم وقفت وقفة عجلى، على حال العرب قبل الإسلام، ومن ثمَّ تحدثت عن سمات السور ذوات الحروف المقطّعة، وعرضت الدراسة لمواقف المفسرين واللغويين والنحاة من الحروف المقطّعة، وختمت بموقف الدراسة من الحروف المقطّعة.

وخصّت الدراسة في القسم الأول من الفصل الثاني سورة البقرة بالدراسة والتحليل بشكل مستقل، بوصف هذه السورة الشاملة لكلّ القرآن، فوقفت على نصّها

---

[1]- بحيري: سعيد، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات: 9، الشركة المصرية العالمية للنشر- لوجمان، الطبعة الاولى، 1997م.

محللاً له تحليلاً نحوياً نصيّاً، من عنوانه إلى حروفه الثلاثة المقطّعة، التي استهل بها، إلى شواهد من مكوناته؛ حروفاً وكلمات وجمل وفقرات، جاءت في مواضع متعددة من بنية النصّ، وذاكراً خلال تحليله، عناصر التماسك النصي في السورة النصّ، ثم وقفت على الموضوع المحوري الذي دار حوله نصّها، بالإضافة إلى الموضوعات الرئيسة فيه، وفي نهاية الفصل وقفت على عنصر التناص في سورة البقرة، من خلال شواهد من آياتها، تناصت السورةُ بها مع سائر السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة، بحسب ترتيب النزول، وتناصت هذه السور مع سورة البقرة بحسب ترتيب التلاوة أو المصحف.

أما القسم الثاني من الفصل الثاني فتحدث عن السور القرآنية ذوات الحروف (الم والمص)، فوقفت الدراسة محللّة لنصوص تلك السور بالطريقة نفسها، التي حللّنا بها نصّ سور البقرة، وجعلت الفصل الثالث في ثلاثة أقسام للسور ذوات الحروف (الر والمر، كهيعص، طه، يس)، القسم الأول للسور ذوات الحروف (الر والمر)، والقسم الثاني تناول سورة مريم، والقسم الثالث لسورتي طه ويس، وجاء الفصل الرابع في ثلاثة أقسام، تحدث القسم الأول عن السور التي سمّيت بـ (الطواسين) أي التي بدأت بالحروف (طسم وطس) والقسم الثاني عن السور التي سمّيت بـ (الحواميم)، أي التي بدأت بـ (حم)، والقسم الثالث عن السور ذوات الحرف الواحد (ص، ق، ن/القلم)، أمّا الفصل الخامس فتحدث عن المنهج الإحصائي وأثره في دلالة النصّ، ثم عرضت الدراسة بخاتمة مجملة عن الحروف المقطّعة بشكل خاص، ومن ثمّ سجلّت أهم ما خرجت به من نتائج .

وفي ضوء شمولية نحو النصّ ونظرته للنصّ المدروس، اقتضى منهج الدراسة تفعيل ثلاثة مستويات متداخلة فيما بينها دون انفصال وهي: المستوى النحوي، والمستوى الدلالي، والمستوى التداولي، ليكوّن كلّ مستوى منها إطاراً رحباً مستقلاً، ينداح في إطاره ما يتصل ويتعلق ويختص به مستوى منها بعينه، من معارف ومعطيات وأدوات تلك المناهج وهذه العلوم، واقتضى منهج الدراسة أن أقسّم السور في كل فصل إلى ثلاثة أقسام، ضم كل قسم مجموعة السور التي تماثلت في الحروف المقطّعة نوعاً وعدداً، وخصّت الدراسة سورة البقرة بقسم استقلّ بها؛

لأنها السورة التي تمثّل الكتاب (كلّه) بدليل الآية:" فأتوا بسورة من مثلــه"، وقولــه تعالى:" ذلك الكتاب"، إذ لم ترد الإشارة إلى لفظة الكتاب باسم الإشارة المفرد المذكر (ذلك)، الذي يحيل إليه إحالتين قبليّة وبعدية متطابقة، إلا في هذه السورة في قول الله تعالى:" ذلك الكتاب"، وقد نُعتت بفسطاط القرآن كذلك([1])، كما أنّ عنــوان الــسورة نفسه، والاستهلال بالحروف الثلاثة (الم)، يمثلان كــلّ الــدلالات اللفظيــة وغيــر اللفظية، التي تتصل بسائر السوَر بعدها؛ مطابقة وتضمناً والتزاماً، وإحاطــة بلفــظ جميع الأصوات ما بين الهمزة واللام، أو ما بين اللام والميم، أو قلْ ما بين الهمــزة والميم، وكان أهم سبب في دراستها مستقلة، هو اهتمام الدراسة بأول آية منها التــي شكلّتها (الم)، إذْ تعاملت الدراسة معها بصفتها الممثل الكلّي للحروف المقطّعة، التي استهلت بها سائر السور بعدها في ترتيب التلاوة، وبقطع النظر عــن عــدم تماثــل حروف استهلالية معها، فكانت سبباً رئيساً في زيادة عدد صفحات الفــصل الــذي دُرست فيه سورة البقرة، وباعتبار سورة البقرة أول سورة مدنية، فهي الرابط بــين السور المكيّة قبلها والمدنية بعدها، لذلك كلّه كان أمر دراستها بفصل مستقل معياراً في منهج الدراسة .

أمّا الدرسات السابقة للحروف المقطعة عند القدماء، فجــاءت خــلال تفاســير المفسرين لكتاب الله العزيز بشكل عام، وغالباً ما يتم الحديث عنها جميعا فــي أول حديثهم أو تفسيرهم أو إعرابهم للحروف المقطعة التي في أوائل ســورة البقــرة، إذ نجدهم يحيلون إليها عند حديثهم عن باقي الحروف التي تعترضهم في أوائــل بقيــة السور ذوات الحروف المقطّعة بجملة: "والقول فيها ما قيل في الحــروف المقطعــة التي في أوائل سورة البقرة، أو كما قال الطبري عن الحروف الخمسة التي استهلت بها سورة مريم:"... والقول في ذلك عندنا نظير القول في(الم) وسائر فواتح ســور القرآن التي افتتحت أوائلها بحروف المعجم، وقد ذكرنا ذلك فيما مضى قبل، فأغنى

---

[1]- انظر: الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علــوم القــرآن: 269/1 . ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم .

عن إعادته في هذا الموضع"([1])، ومنهم من وضع لها باباً خاصـــاً فـــي كتابـــه، أو تحدث عنها مع سائر فواتح السور في باب خصّه لها، كما فعل الزركشي والسيوطي وغيرهما في البرهان والاتقان، إلا أنّ دراسة قديمة قد خصّها صاحبها بفواتح سور القرآن الكريم كلّها، وهي دراسة ابن أبي الإصبع المصري ، في كتابه (الخواطر السوانح في أسرار الفواتح)، فقد تحدث فيه عن كلّ فواتح السور القرآنيـــة، ومنهـــا حديثه عن الحروف المقطّعة، ولعل أهم ما جاء عند ابن أبي الإصبع حديثـــه عـــن دلالات الحروف المتماثلة في أوائل السور، إذ أعطى دلالة شاملة لكـــل مجموعـــة تماثلت، فأعطى الحروف (الم) التي استهلت بها ست سور دلالة واحـــدة و(الـــــر) دلالة واحدة، ومجموعة (طسم وطس) دلالة واحدة، كما أعطى الحروف المتماثلة ـــ وإن لم ترد مع بعضها بعضها في أوائل السور ـــ دلالة واحدة نحو: العين الكـــاف في طه أعطاها دلالة العين من (كهيعص)، والصاد في سورة (ص) أعطاها دلالـــة الصاد في (كهيعص)، ويمكن أن نضيف أمراً هاماً جاء به ابن الإصبع، وهو إعطاء (الألف) من (الم) البقرة دلالات سيمائية، إشارية وإيحائية ورياضية، نحـــو إشـــارته إلى مسألة الأصل والفرع من خلال تأويله لهذه الحروف، وكذلك إشارته إلى بساطة الألف واستغنائها عن غيرها من الحروف، بل هي المكونة لها فـــي فـــي الأعـــم، كتركيب الأعداد من العدد (1)، وإشارته إلى أن الألف والعدد (1) إلى أنهما أول كلّ شيء، وربط بين الفاتحة والبقرة عن طريق (الألف) فهي أول لفظة (الحمد)، وهـــي

---

[1]– الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب، ، جامع البيان في تأويـــل القـــرآن، 142/18، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعـــة الأولـــى1420 – 2000م، وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، 135/6، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ، 1999، السمين الحلبي: شهاب الدين ابـــي العبـــاس بـــن يوسف بن محمد إبراهيم، الدر المصون، 3/2 ، تحقيق: علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت ـــ لبنان،ط/1، 1414هـــ، 1994م.

أول البقرة وأول الحروف المقطعة، كلّ هذه الإشارات تؤول في دلالتها إلى أن الله سبحانه وتعالى هو" الأول"([1]) .

أما الدراسات الحديثة للحروف المقطعة فهي على النحو الآتي:

1- دراسة عنتر الرويني الموسومة بـ (من إشراقات الحروف المقطّعة)، والإشراقات التي في دراسة الباحث، أشرقت بها أكثر كتب المفسرين من قبل، ولا سيما كتب تفاسير الصوفية وبعض منْ فسّر بالعقل من السنة والمعتزلة، لكنّ الباحث لم يشر من قريب أو بعيد إلى كتاب من كتب المفسرين، على الرغم من تطابق الإشراقات التي في دراسته مع المعاني التي وردت في كتب التفسير القديمة،

2-دراسة سعد عبد العال، الموسومة بـ (الهيروغليفية تفسّر القرآن الكريم؛ بما يسمّى الحروف المقطّعة)، إذ أعطى قسماً من هذه الحروف دلالة واحدة مرةً، عندما تطابقت الفواتح شكلاً ولفظاً، نحو: الم، الر، مستعيناً بدلالة الحرف من خلال الصورة المرسومة له بخطوط الهيروغليفية (المصرية القديمة)، فدلّ بدلالة الصورة على دلالة الحرف، وعبّر عن هذه الدلالة بجملة، شغل بها موقع الحرف، واستدلّ على دلالة الحروف بآية أو أكثر، لكنّه كان انتقائياً في الاستدلال على معنى الحرف أو الحروف، فلأجل الاستدلال على دلالة بعض الحروف المقطعة نحو حرف (ن)، جاء تأويله مخالفاً لظاهر الآية التي شكلّت مع (ن) الآية الأولى من سورة القلم، إذ أحال ضمير الرفع (الواو) من الفعل المضارع (يسطرون)، إلى اسم نقيض للمسند إليه من جملة يسطرون، المفهوم من دلالة المعطوف المقدّم على الفعل، (وما يسطرون)، إذا ما تأولنّا أن (ن) هو حرف مقتطع من اسم من أسماء الله الحسنى، و(والقلم) معطوف عليه، والمفعول به (ما) المقدّم الذي مثّل البؤرة الرئيسية معطوف على (القلم)، عندما وقعت في موقع المسند والمسند إليه أو الحامل والمحمول (يسطرون)، فدلالة القسم- كما

---

[1]- انظر: ابن أبي الأصبع: المصري، الخواطر السوانح في أسرار الفواتح،87،94، ت. حفني شرف، مطبعة الرسالة،1960م .

هو معلوم- تكون لعظيم، فلا توافق بين الفاعل (الواو) والمفعول (ما) المسطور) من جهة والاسم الذي أحال إليه الباحث ضمير الرفع (الواو) من يسطرون، إذ أحاله إلى المشركين (المدهنون) كما ذكر، ودلالة العظيم قد أشار إليها حرف (ن) بوقوعه موقع المقسم به، فلم يظهر حرف القسم، وكأنّ الحرف (ن) قد عمل عمل حرف القسم المحذوف، ودلّ على اسم من أسماء الله تعالى في آن واحد معاً، فالنظم والتركيب قضيا بعدم ذكر حرفين متتاليين؛ الأول حرف قسَم والثاني الاسم المقسم به، أما الواو من (وما)، فلعلها ليست حرف قسم كما ذهب إلى ذلك كثير من المفسرين، فقد تكون حرف عطف مشعراً بالقسم، من خلال نظم الجملة وتركيبها والسياق اللغوي، إذ هو أول لفظ نطق به وكُتِبَ بعد نطق حرف (ن) وكتابته أيضاً، وكأنّ عنصر المجاورة بين الحرفين (ن، و) قد ساهم في تأويل حرف الواو، على أنه حرف قسم عند بعض المتأولين، كما أنّ المعنى لا يستقيم مع ذكر حرف القسم.

3- دراسة الباحث عطية زاهدة الموسومة بـ (هكذا حدثني القرآن/فواتح السور والحروف السبعة)، إذ تحدث الباحث عن فواتح جميع السور متأوّلاً هذه الحروف بأنها مقتطعة من كلمات، ففي فاتحة سورة البقرة (الم)، تأوّل ثلاث كلمات للحروف الثلاثة، وخصّ هذه (الم) بإشارتها إلى الكتاب، قال:" الكتاب هو (الم)...وأن (الم) هي نفس (ذلك الكتاب)، وربط بين الآية الثانية والأولى من خلال تقدير أحد الضميرين الغائبين المذكر أو المؤنث بصيغة المفرد لهما، فقال:" ومن خلال اعتبارنا أنّ هناك مجالاً لتقدير ضمير المفرد الغائب، سواء المذكر أم المؤنث، بين الآيتين الأولى والثانية، أي على هذا النحو: "الم ـــ هي أو هو ـــ ذلك لكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين"، وهكذا فإنّه يبدو جلياً أنّ الآية الثانية هي شرح وتوضيح بل وتعريف بالأولى، ووجود اسم الإشارة "ذلك" يظهر أيضاً الارتباط، ويبين أنّ هناك مسألة تعريف، فاسم الإشارة يرد في الاستعمال اللغوي من أجل التعريف، إن "الم" هي تعريف بالكتاب، إنها تصفه

وتحدده"([1])، لقد اتضح من كلام الباحث أنّ (الم) مقصورة على الكتاب؛ أي على القرآن الكريم، بمعنى أن كل حرف لم يشر إلا إلى ما يخص القــرآن الكــريم لغته؛ لأنّها هدى وبشرى، ليستدل من خلال ما سبق، ومن خلال قول الله تعالى من آيتين من سورتي العنكبوت والنحل وهما قوله تعــالى:﴿ بَــلْ هُــوَ آيَــاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾، وقوله تعالى:﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين﴾([2])، ثم يتأول جملة يقترب بهــا من تقدير (الم) بقوله:"(إنه آيات بلسان مبين)، إلى هنا يمكن أن نكون قد اقتربنا من تقدير (الم)، فالألف من آيات، واللام من لسان، والميم من مبين، ويمكن أن نجمع هذه الكلمات بواحد من الأشكال التالية: 1- (آيات بلسان مبــين).....2- (آيات لسان مبين)..... 3- (آيات ولسان مبين)"، ثم استشهد على البيان والهدى والبشرى في الكتاب([3])، كما كثُرت الثنائيات المختصرة لحرفــي (حــم) فــي مجموعة سور الحواميم عند الباحث، وعدّ الواو بعدهما حرف قسم([4]).

إنّ أهم ما يمكن ملاحظته في تأويل هذه الكلمات الثلاث ــ كمــا يبــدو ــ أنّ الباحث رآه تأويلاً جديداً، أليست هذه الكلمات هي الكتاب (القرآن) نفــسه، بجملــة بعض المفسرين (إنّ هذا الكتاب هو من جنس الحروف التي يؤلفون منها كلامهــم)، واستشهد الباحث على تأويله تلك الكلمات الثلاثة، بآيات من خارج ســورة البقــرة، عند صرف النظر عن الآيات التي استشهد بها لتأويله (الم)، علــى بيــان وهــدى وبشرى من سورة البقرة، كما اكتفى بهذه الكلمات الثلاثة فقط، وهو يذهب ــ كمــا يقول ــ إلى الأخذ بالرأي العام الذي يعدّها اختصاراً لكلمات، وجاء تأويله لــ (الم) شارحاً لها بالآية الثانية ــ وبين الآيتين أحد الضميرين الغائبين المفردين مــذكراً أو مؤنثاً ــ بالكتاب، سيكون هو مدخل للقول بأن القرآن هو (الــم) ، إذ أخــذ بعــض المفسرين على من تأول هذا التأويل من قبل، وفي ضــوء تأويلــه، فــإنّ (الــم/آل عمران، الروم، العنكبوت، لقمان، السجدة) تختلف عن (الم/ البقرة)، فالألف أشارت

---

[1]- عطية: زاهده: هكذا حدثني القرآن،27،28.

[2]- سورة العنكبوت: الآية/49، سورة النحل: الآية/103.

[3]- انظر: عطية، هكذا حدثني القرآن (27-30).

[4]- انظر: المرجع نفسه (71-78).

إلى الكتاب في البقرة، لكنّها لم تشر إليه في آل عمران، وقد ورد في الآية الثالثة الواردة بعد أسماء الله الحسنى في الآية الثانية قبلها. ويمكن تسجيل ملاحظة أخرى، هي الجزم بدلالة الحرف المقطع، كما ظهر في تأويله لـ(الم/ آل عمران)، بأنّ كل حرف منها دال على اسم من أسماء الله الحسنى، واستدل على هذا التأويل بآية الكرسي في سورة البقرة، مما جعل تأويله محل نظر وإن كان مقبولاً وواردا لـ (الم/ آل عمران)، فبماذا اختلفت- في ضوء الاستشهاد بآية الكرسي- (الم/ البقرة عن الم/ آل عمران)؟، إذ إمكانية التأويل لهذه الحروف - في ضوء ما تحمله من معانٍ وطاقات تعبيرية هائلة- واردة لأي كلمة يعدّ أحد هذه الحروف اختصاراً لها، إذا ما انسجمت دلالتها أو نسبة منها، لتتعالق مع دلالة أخرى أو أكثر من دلالات النصّ، بقطع النظر عن موقع الكلمة المتأولة أو الدلالة التي تنسجم معها من بنية النصّ. فتأويل (الم/ البقرة) بالتأويل نفسه لـ (الم/ آل عمران) وارد كذلك، وآية الكرسي وغيرها من الآيات من سورة البقرة تعضده، وتشكيل (الم) الآية الأولى في هاتين السورتين وفي غيرهما من مجموعة (الم) تعضد ذلك أيضاً، ولم يستدل الباحث على دلالة (الم/ الروم) التي تأولها بجملة(إذا لقيتم مكة) بآية أو بكلمة من السورة نفسها، بل استدل لها بآيتين من سورة الأنفال وبآية من سورة محمد([1])، فالسورتان لم تستهلا بحروف مقطعة، كما عمد الباحث إلى الاستدلال بأرقام تاريخية في تأويل الفعل (غُلِبَتْ)، وهو أمر لم يثبت على الوجه الدقيق.

4- دراسة عبد الجبار حمد شرارة التي وسمها بـ (الحروف المقطّعة في القرآن الكريم)، خلت هذه الدراسة من رأي الباحث فيما يخص الحروف المقطعة، إنّما امتازت بجمع الآراء التي قيلت فيها من جهة، ومناقشتها وتحليلها من جهة ثانية، لكن يؤخذ على صاحبها أنّه يقدم أحياناً تأويلات المفسرين الشيعة على غيرهم، ويدلل على صحة ما ذهبوا إليه من تفاسير أهل السنة وتفاسير غيرهم، من خلال أسلوب انتقائي يخدم الرأي الذي لا يقبله أو الرأي الذي يقبله هو أو يرجّحه، ومن الأمثلة على نهجه هذا، ما ذكره استدلالاً على عدم تسليمه برأي

---

[1]- انظر: سورة الأنفال: الآيتان: 15،45، وسورة محمد: الآية:4.

الرازي وغيره الذي يوجب الوقف على لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى:" ومـــا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كلٌّ من عند ربنـــا "، إذ استدل برأي الشريف المرتضى، الذي عدّ لفظة (الراسخون) معطوفة على لفـظ الجلالة، أي: ... وما يعلم إلا الله وإلا الراسخون في العلم، وأنهم مـــع علمهـم يقولون آمنّا به، وكذلك استدلاله بكلام الـشريف المرتـضى، علـــى أن جملـــة (يقولون آمنا به)، في موقع الحال والمعنى أنهم يعلمونه قائلين: آمنّا به كل مـــن عند ربنا، واستدلاله أيضاً وابن تيمية على أنّ الذم في اتباع المتشابه، إنّما هـــو خاص بمن اتبعه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، فأمّا منْ تدبر المحكم والمتشابه كما أمره الله تعالى وطلب فهمه ومعرفة معناه، فلم يذمّه الله بل أمر بـــذلك ومـــدح عليه، كما ذكر أقوالاً متعددة نعتها بالأدلة القوية؛ ليصفح عن الأخذ برأي مـــن قال أنها من المتشابه، فيذهب مع الرأي الذي يرى أصحابه أنّ لها معنى محـــدداً ومغزى مقصوداً "([1]).

كما ردّ الباحث رأي من قال: إنّ هذه الحروف إنما هي رمـــوز، كـــلّ حـــرف يرمز إلى معنى، لكنّه ردّ بما ارتضاه بعض المفسرين ووجد له وجهـــاً واســـتعمالاً ونظيراً لما هو معروف عند العرب في شعرهم ونثرهم، ويظهر أنّ الواو هنا هـــي للاستئناف كما يبدو، فلم يأخذ الباحث ما اقتبسه من كلام الطبري على ظاهره، بـــل جعله بطريقة انتقائية، دليلاً يردُّ به على من قال بذلك الرأي، لكن كلام الطبـــري ـــ الذي اجتزأ منه الباحث ـــ لم يناقض رأي من قال بذاك الـــرأي"([2])، وفـــي نهايـــة الدراسة ذكر الباحث موقفه منها، فأخذ برأي من عدّها أسماءً للسور، واستدل بمـــا قاله الذّاهبون إليه من المفسرين واللغويين، وهو بهذا الرأي قد جـــزم بقسرية هـــذا الرأي المتأوّل لهذه الحروف، وهو اعتقاد لا يقرّ به البحث العلمي، دع عنـــك عـــدم وجود نصّ يحكم بقسرية ذلك ، ودع عنك أيضاً تعدد القراءات لهذه الحروف قـــديماً

---

[1]– شرارة: عبد الجبار حمد، الحروف المقطّعة في القرآن الكريم، 15–21، مكتـــب الإعـــلام الإسلامي، ط2، 1414هـ .

[2]– المرجع نفسه، 22.

وحديثاً، قد تتقدّم قراءة أو أكثر على قراءة أسماء السور، التي أقرّها عبد الجبار شراره حكماً .

5- دراسة سليمان عودة أبو صعيليك بعنوان (الحروف المقطّعة في القرآن الكريم؛ تفسيراً، لغة، إعراباً، ومذهباً)، وهي رسالة ماجستير أشرف عليها (محي الدين رمضان)، برز فيها الجهد الجمعي، فجاءت مقصورة على جمع قسم غير قليل، لآراء منْ تكلّم فيها مفسرين ولغويين ونحاة وأصحاب مذاهب، فحشد آراءهم حشداً دون ترجيح لرأي على آخر أو مناقشة له، وإنّما اكتفى باختيار أكثر من رأي كلّما عرض له عند أهل التفسير أو اللغة أو أصحاب المذاهب، ولعل أهمّ ما يُسجّل على صاحبها، ما أورده تحت عنوان: أول منْ فسّر الحروف المقطّعة، وهو قوله:" الرسول صلى الله عليه وسلّم أول من فسر الحروف المقطّعة "([1])، إذ لم يذكر لنا ذلك التفسير أو يحيله إحالةً؛ خارجية أو داخلية قبلية أو بعدية متناً أو هامشاً، ولم أجد في حدود العلم والاطلاع مَنْ أشار إلى ما ذكره أبو صعيليك، إلا حديثاً صحيحاً ظاهره ــ كما يبدو ــ يبين تفضّل الله على قارئ القرآن، ومقدار أجره له على كل حرف يقرؤه من حروفه، أمّا ما يمكن أنْ نتأولّه ــ دلالة سيميائية ــ من حديثه عليه الصلاة والسلام، هو أنّ كلّ حرف من حروف (الم) مقتطع من كلّمة، وقرينة هذا التأويل هي أنّ من أساليب العرب في كلامهم من يدل على الكلمة لفظاً ومعنىً، بالحرف أو بالحرفين نحو: فقلت لها قف فقالت: قاف.

6ـ دراسة محمد بدري عبد الجليل الموسومة بـ (براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور)، وجاءت في القسم الثاني من كتابه، إذ ذكر الباحث قسماً كثيراً من الأقوال والآراء التي قال بها المفسرون حول الحروف المقطّعة، فوقف عند بعض هذه الآراء دون أنْ يأخذ برأي منها أو يرجّح رأياً على آخر، بل مال إلى نقد كثير منها، أمّا رأيه فيها فوقع في الجزء الأخير من كتابه، نوجز له بقولنا:

---

[1]- أبو صعيليك: سليمان: الحروف المقطّعة في القرآن الكريم؛ تفسيراً، لغة، إعراباً، ومذهباً : 17.

إنّ الباحث لم يتجاوز بعض الدلالات المعجمية الواردة في معاجم اللغة، أو التي تأول لها كلمة اقتطع منها الحرف الذي استهلت به السورة، وهو تأويــل يجــزم بدلالة معجمية واحدة للحرف، فقد تأتي كلمة أخرى أو أكثر لم يتأولها الباحــث تنسجم ودلالة الحرف إذ اشتملت بنية الكلمة على الحرف المتقطع بقطع النظــر عن موقعه في بنية الكلمة، ويلاحظ أن الباحث اعتمد الدلالة المعجميــة لــبعض الحروف، فاعتمد على ذكر (كلمة) تضمنت بنيتها الحرف الــذي اســتهلت بــه السورة، نحو: الراء، الرؤية، البشارة، و (ن/النونة) تعني: الصواب من القــول، فاكتفى الباحث بهذه المعاني الواحدة تقريباً، فالباحث لم يدلل على جميع ما ذهب إليه، ولم يقدّم لنا جملة يحسن السكوت عليها لأي استهلال منها، لا سيما وهــو يتأولّ معاني يكاد يجزم بها لهذه الحروف، بل اكتفى بذكر بعض الشواهد علــى ما تأوّله، وقد أخذ صاحب الدراسة على بعض المفسرين تــأويلاتهم للحــروف المقطّعة، وهو يستعرض آراءهم ويناقشها، فقد أخذ على ابن أبي الإصبع مآخــذ كثيرة في تأويله لهذه الحروف، ولم يذكر ما جاء به الرجل من دلالات ســيمائية ومعانٍ للحروف المتماثلة بشكل عام، إذ تنبه للجانب النقدي لا الموضوعي وهو يناقش ما جاء به ابن أبي الإصبع من تأويل لهذه الحروف، ولا أدلّ على اتجاهه النقدي إلا قوله بحقّه:" وتلفع برداء الصمت إذ لم يبين لنا كيفية هذه الدلالة ([1])".

7ـــ دراسة (محمد عبد الجليل) الموسومة بـــ (فواتح حـــروف الفـــواتح). اقتــصر الباحث في كتابه هذا على دراسة الحروف المقطّعة فقط، كما اقتصر على منهج حسابي مخصوص أيضاً، هادفاً إلى كشف دلالتها؛ إمّا مجتمعة كلّها تحت دلالـــة واحدة، بعد أنّ أعمل فيها معطيات هذا المنهج الذي يفضي إلى نتيجة واحدة كما فعل، إذ فعّل أداة المنهج الحسابي الهندسي، التي أظهرت موقع الحرف في نظام (أبجد هـــوز) بطريقة هندسية على شكل جدول؛ ليصل إلى دلالة واحـــدة لهـــذه الحروف جامعة، وهي أنها تُشكّل اسم الله الأعظم (الله) .

---

[1]ـ يقصد دلالة حرف (ن) على ملك الموت والملكين، والكتاب والحساب والميزان والصراط والحوض، والجنة والنار.

8- دراسة محمد أحمد عبد الوهاب المليجي الموسومة بـ (الظواهر الإعجازية في فواتح السور القرآنية عند المفسرين والنحاة)، 1421هـ/2000م .

من خلال قراءة هذه الدراسة فإنني لم أجد شيئاً جديداً أضافه الباحث، بل اكتفى بنقل آراء المفسرين القدماء والمحدثين حولها، فجهده في هذه الدراسة انحصر في جمع ما قيل عن هذه الحروف عند المفسرين واللغويين القدماء والمحدثين .

ومن الدراسات الحديثة دراستان للباحث: محمد عادل القلقيلي، يمكن عدّهما من أهم الدراسات السابقة التي عثرت عليها أخيراً وهما:

9ـ السور القرآنية ذوات الحروف (ن، ص، ق، يس): تناول الباحث الجانب الموضوعي في كل سورة منها، وربط موضوع السورة بالحروف المقطّعة التي استهلت بها كلّ سورة من هذه السور، فموضوع الصراط المستقيم عدّه موضوعاً رئيساً لسورة (ص) مثلاً، وأدخل فيه كلمات من السورة ذاتها، قد جاء الحرف التي استهلت به كلّ سورة، صوتاً رئيساً في بنية بعض الكلمات، ولا سيما التي اقتطع منها الحرف، أو الكلمات التي جاء فيها تأويل عند المفسرين نحو كلمة: الخصام، على أنّها دلالة من دلالات حرف (الصاد)، وكذلك تأويل حرف النون على أنّه فعل فيه معنى النعمة، أو النور.

10ـ دراسة للباحث: القلقيلي، الموسومة بـ (نظرات جديدة في القرآن المعجز)، اعتمد الباحث طريقة التقليب للحروف المقطّعة (الم) فقط، وهي الحروف التي جاءت في ست سور، على أنها أسماء نحو: (الأمل، الألم،...) وعلى أنّ بعضها أفعال نحو: مال، لام...)، وهي الطريقة التي سلكتها هذه الدرسة، بالإضافة إلى أنّها أفعال جاءت في صيغتي الماضي والأمر، سواء أكان للحرف الواحد من الحروف الثلاث أم عدّ الحروف الثلاثة فعلاً واحداً على (أفعل: ألَمَ، وفعّل: لمّ، وفعّل: ألمّ) .

يتضح لنا أنّ الدلالة أو الدلالات التي تحصلت لكثير من المتأوّلين للحروف المقطعة، لم تربط مع دلالة لفظية أو غير لفظية، قد تضمنتها كلمة أو آية من السورة، كما أنّ الدلالة أو الدلالات التي تحصّلت تأويلاً لمتأوّل ما، لم تؤيد بآية أو أكثر، سواء أكانت من خلال السورة النصّ أم من خلال السور النصّ ـ إذ لم أجد

إشارة لذلك فيما سبق ـــ وإنْ وُجِدَ فهو مقصود لذات الحرف الذي شكّل الآية بنفسه أو مع غيره، أو لذات الحروف التي شكلت الآية الأولى، لا إلى الفقــرة أو البنيــة الصغرى في النص، ولا إلى النصّ ببنيته الكبرى، وهذا يتناقض مع نظـــرة نحـــو النصّ إلى النصّ، ولعل المعاني التي قيلت كلّها كان سببها تعدد القراءات وتنوعهـــا أفقية أو رأسية من ناحية، وانديــاح هذه المعاني وتمددها في بنيتـــي الـــنصّ الأفقيـــة والعمودية من ناحية أخرى، فقد يستطيع القارئ أنْ يستدل على أي معنى من تلـــك المعاني من النص نفسه، ولم يفت المفسرين القول بأنّ القرآن كلّه كالكلمة الواحـــدة، وأنّ كلماته آخذ بعضها بأعناق بعض، كما أكّدوا على أولوية وأهمية وفاعلية تفسير القرآن بالقرآن، فمثّل هذا النهج جاء عند البقاعي في نظم الدرر، والـــسيوطي فـــي تناسق السور وعند غيرهما من القدماء، ممن له إسهامات متقدمة قد وقفنـــا عليهـــا سابقاً، فيما يتصل بنظرية نحو النص...ألخ .

أما ما يمكن أنْ يعد من الدراسات السابقة عند القدماء، مساهمتهم المبكرة فـــي الاتّجاه الجديد في دراسة النصوص، وهذا الاتجاه هو نحـــو الـــنصّ؛ فمـــن خـــلال الاطّلاع على بعض مؤلفات القدماء فقد بدا أنّ جذوراً لهذه النظرية قد بُـــذِرت فـــي بعض مؤلفات المفسرين والدارسين للقرآن الكريم وعلومه، على الرغم من أنّ هـــذه الجهود المتقدمة، لم تتبلور بشكليها النظـــري المجرد والعملي التطبيقي، لكنّها تعـــدّ جهوداً متقدمة في نظرتهم للنصّالمدروس، إذ شكلّت جذوراً راســـخة منـــذ القـــدم، اتصلت بها جهود المحدثين بوعي منهم أو دون وعي، أو عن قصد أو دون قـــصد، وهذه الجهود المتقدّمة تمثلت في بعض المصطلحات لفظاً أو معنى، التي جاءت بها نظرية نحو النصّ نحو: جملة (آخذ أعناقها بأعناق بعض) وكأنهم يقصدون مصطلح (السبك)، وجملة (ووجه الارتباط) وكأنهم يقـــصدون (التعـــالق)، وجملـــة (ووجـــه المناسبة) وكأنهم يقصدون (الحبك)، أو من خلال دراستهم للعناصر الشكلية والدلالية التي يندرج بعضها تحت المستوى التركيبي، وبعضها تحت المستوى الدلالي، نحو: الحذف، التكرار، الضمائر...وبعضها تحت المستوى التداولي نحو: ســـياق الحـــال، فعدّ كلّ جزء يمثّل مستوى من هذه المستويات منهجاً مستقلاً خاصاً بدارس أو مفسّر من الدارسين والمفسرين للقرآن الكريم، وبمعنى آخر أنّ هذه الجـــذور لـــم تتبلـــور

لتشكل نظرية متكاملة كما هي الحال التي وصلت إليه في العصر الحديث، لكنّ السبق حاصل في بعض ما ينضوي تحتها عند القدماء، وذلك من خلال بعض العبارات التي تمثّل جوهر هذه النظرية وهو نظرتها للنصّ المدروس من حيث إنه ذو بنية كليّة كبرى، متعالقة ومتعانقة كلماته وبناه الصغرى والكبرى، تحقيقاً لبنيته الكليّة الكبرى التي نشدها علماء النصّ المحدثون، وهذا الجوهر الذي نصّ عليه القدماء، تمثّلة أيما تمثيل عبارتهم المشهورة بشأنّ النصّ القرآني الذي تمثّله سوره المائة والأربع عشرة، وهي: (والقرآن الكريم كلّه كالكلمة الواحدة)، فما كان لهذه العبارة أن يُنصّ عليها وتوثّق حتى وصلتنا، إلا بعد أن ثبُت وتقرّر– إمّا استقراءً أو ملاحظة– لدى قائليها أنّ مقاصد بنى النصّ القرآني بآياته وسوره، تؤول إلى قصدية واحدة، ولتحقيق هذه القصدية ترابطت وتعالقت بني النصّ أفقياً وعمودياً من خلال مجموعة من عناصر التماسك، التي كفلت لكلمات النصّ القرآني أنْ تأخذ أعناقها بأعناق بعض، فوقف كثير من القدماء المفسرين واللغويين، على عناصر التماسك النصيّ أو على قسم منها في ثنايا مؤلفاتهم، فتحدثوا عن الفصل والوصل، والإجمال والتفصيل، والمتشابه اللفظي والمتشابه المعنوي، كما اتصل بعبارتهم المشهورة السابقة، أحد الموضوعات التي تنتمي لإحدى الأسس والقواعد، التي اعتمدها نحو النصّ في ترابط النصّ وتماسكه على المستوى الأفقي والرأسي، ألا وهي المناسبة بين الآيات والسور القرآنية، مما يؤكد أنهم أدركوا أهمية عدم اجتزاء الجمل أو عزلها عند التحليل، بقصد الربط بينها خلال جميع مستويات التحليل، فكم طالعتنا آية وآيات فسّرها المفسرون متقدمة أو متأخرة بحسب موضعها من السور، فعندما تكررت لفظاً أو معنىً، في آيات من سور لاحقة لمتقدمة أو متقدمة للاحقة، نجد المفسرين يذكرونها معاً أو يشيرون إليها؛ إدراكاً منهم بأهمية تعالق بنى النصّ على مستوى الدلالات، وهو التعالق الذي جعله علماء النصّ من أهم عناصر التماسك النصيّ، وهذا الربط متحقق عند القدماء كذلك من خلال دراستهم لأسباب النزول وللمناسبة بين الآيات والسور، ودراستهم لعلاقة السبب والمسبب والنتيجة وغيرها من علاقات التلازم الذهني، وهذا بيّن عند البقاعي والرازي والألوسي وابن عاشور وغيرهم، وقد ذكر الزركشي ذلك قائلاً:"...واعلم أنّ المناسبة علم شريف، تحزَرُ به

العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول، والمناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يناسب فلاناً، أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب الذى هو القريب المتصل، كالأخوين وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما وهو القرابة، ومنه المناسبة في العلة في باب القياس: الوصفُ المقاربُ للحكم؛ لأنّه إذا حصلت مقاربتُه له، ظنّ عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم؛ ولهذا قيل المناسبة أمر معقول؛ إذا عرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآى وخواتمها، ومرجعها- والله أعلم- إلى معنى ما رابط بينهما عام أو خاص، عقلي أو حسى أو خيالي، وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه، أو التلازم الخارجي، كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر"([1]). وبيّن كذلك فائدة هذا العلم بقوله:"وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء...وفوائده غزيرة، قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين: "ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني، علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه"([2]). وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام:" المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام، أنّ يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإنّ وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر"([3]) .

إنّ هذه النظرة الشمولية في دراسة النصّ القرآني، قد وجدت لها جذوراً حيّة راسخة، رغم تقدّم العهد الذي قيلت فيه، فهذا الرازي في مفاتيح الغيب ينصّ على ذلك وهو يفسرِ سورة البقرة، فقال:" ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي

---

[1]- الزركشي: البرهان:1/ 35.

[2]- المرجع نفسه:1/ 36، السيوطي: الاتقان: 322/3 وما بعدها، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث العربي .

[3]- المرجع نفسه:1/ 37.

بدائع ترتيبها، علم أنّ القرآن كما أنّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته ولعلّ الذين قالوا: إنّه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أنّي رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متنبهين لهذه الأمور"([1]).

ومن إسهامات العرب القدماء الهامة في هذا السياق الشمولي المتماسك، مساهمة عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه (دلائل الإعجاز)، تلك المساهمة التي ارتقت عند المحدثين مرتقى عظيماً، فسمّى كثر منهم هذا المرتقى الفذّ، الذي أُودعه الجرجاني في كتابه، بـ (نظرية النظم)، ونصّوا على هذا الاسم في مؤلفاتهم، وجوهر هذه النظرية التي اهتمت بنظم الكلام، هو تحقيق النظم للكلام، فاشترط صاحبها لتحقيقه شرطاً واحداً عماده المبنى والمعنى دون تفضيل لأي منهما على الآخر، فوضع الكلام منظوماً تبعاً لمعاني النحو، كان شرطاً فيها قد نصّ عليه صاحب النظرية نفسه، فلعل هذه النظرية بحديثها عن نظم الكلام وشروط وضعه حيث تقتضي معاني النحو، تقابل نظرية (نحو النص)، إذا ما تأوّلنا مصطلح (النظم) بمصطلح النصّ، ومعاني النحو بالنحو، فبدلاً من القول بـ (نحو النظم) قالوا بـ (نحو النصّ) ولو بنسبة منه كما يبدو، ويبدو أنّ ترابط النصّ وتماسكه وتعالقه، قد تم تأطيره بنظرية النظم عند الجرجاني، وإن لم يصرّح بمصطلح نظرية، وإنما وجبت بأن جعل النظم؛ تركيباً ومعنىً، هو مناط الإعجاز للنص القرآني، فجعل الألفاظ تراكيب منظومة لمعاني مستحضرة مقصودة، فوضع عنواناً لم يفاضل فيه بين المبنى والمعنى كما هو بيّن في كتابه، وإنما انضما معاً ليكونا (المبنى والمعنى) دلائل الإعجاز لا أحدهما دليل الإعجاز أو دلائل الإعجاز([2]).

---

[1]- الرازي: أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين المتوفي 660 هـ، مفاتيح الغيب: 139/7. ، الطبعة الثانية ، دار الفكر.

[2]- انظر: الجرجاني: عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد (ت:471هـ)، دلائل الإعجاز:43-65، 259 وما بعدها، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي-القاهرة، ط5، 1424هـ-2004م.

ومن إسهامات العرب القدماء في هذه النظرية النصيّة الشمولية، ولا سيما في الجانب الدلالي السيميائي منها، الذي جادت به نظرية السيميائيات أو العلامات، تلك المساهمة التي جاء بها (ابن البنّاء المراكشي) في كتابه (عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل)، إذ جاء بدلالات غير ملفوظة من خلال كتابة الحروف الثلاثة (الألف والواو والياء)، أو حذفها في الكتاب العزيز، أو منة خلال دلالة الفصل والوصل لبعض الحروف، وسنشير إلى قسم منها في ثنايا هذه الدراسة، لكنّ لا بد من الإشارة إلى بعض ما جاء عند ابن البناء المراكشي؛ ليتبيّن القارئ حقيقة مدى مساهمته في هذه النظرية، من خلال الدلالات السيميائية التي قرأها من من رسم الحروف أو من حذفها، فمن ذلك دلالة الرسم للحرف المذكور ودلالة الحذف له أيضاً، قال:" وكذلك حذفت الألف من (بِسمِ اللَهِ) تنبيها على علوه في أول رتبة الأسماء وانفراده، وأن عنه انفصلت الأسماء" فهو كليها" يدلك عليه إضافته إلى اسم الله الذي هو جامع الأسماء كلها وأولها. ولذلك لم يتسم بهذا الاسم غير الله. قال الله تعالى: (هَل تَعلَمُ لَهُ سَمِيّا) وسائر أسماء الله ظهرت التسمية بها في المخلوقات، فأظهر ألف الاسم معها تنبيها على ظهور التسمية في الوجود.

وحذف الألف الذي قبل الهاء من اسم (اللَهَ) وأظهر التي مع اللام من أوله دلالة على أنه الظاهر من جهة التعريف والبيان والباطن من جهة الإدراك والعيان.

وكذلك: ﴿يا عبادي الَّذيَنَ أسرَفوا﴾، ثبت الضمير وحرف النداء في الخط، فإنه دعاهم من مقام إسلامهم وحضرة أعمالهم إلى مقام إحسانهم وحضرة آمالهم، ويدلك عليه قوله تعالى عن المؤمن:﴿لا جَرمَ أنّما تدعونَنَي إليهِ لَيسَ لَهُ دَعوَةٌ في الدُنيا وَلا في الآخِرَة﴾، فوصل أنما في النفي وفصل في الإثبات لانفصاله عن دعوة الحق.

وكذلك حذف اللام من بعض الأسماء نحو الياء من (الليل)، قال:" وكذلك لام التعريف المدغمة في اللفظ في مثلها أو في غيرها لما أتت للتعريف وشأن المعرف أن يكون أبين وأظهر لا أخفى وأستر أظهرت في الخط ووصلت بالكلمة؛ لأنها صارت جزءا منها من حيث هي معرفة بها هذا هو الأصل، وقد حذفت حيث يخفى معنى الكلمة مثل " اليل " فإنه معنى ظلم لا يوضح الأشياء بل يسترها ويخفيها

وكونه واحدا إما " لجزئي وإما للجنس " فأخفى حرف تعريفه مثله، فإن تعين الجزئي بالتأنيث رجع إلى الأصل.

وكذلك مساهمة (السكاكي) في كتابه مفتاح العلوم، من الأهمية بمكان، إذْ أوشك على تكوين وحدة لسانية واحدة، وأوجز سعد مصلوح مساهمة السكاكي بقوله:" ويكاد كتاب "مفتاح العلوم" للإمام السكاكي يكون نسيج وحده في الجمع بين مستويات البحث اللساني جمعاً على وجه التدرج واللزوم، بادئاً بالصوتيات ومثنياً ببناء الكلمة، فالنحو المقامي، مقرراً تضافر هذه المستويات في تشكيل علم الأدب"([1]) .

وكذلك مساهمة ابن عاشور من خلال كتابه (التحرير والتنوير)، ومساهمة البقاعي في كتابه (نظم الدرر في تناسق الآيات والسور)، فالبقاعي اعتمد الربط الدلالي في تماسك النصّ وهو الربط الذي عوّل عليه علماء النصّ المحدثون ولا سيما (فندايك)، في تحقيق تماسك النصّ، وتظهر عناصر الربط والتماسك الدلالي عند البقاعي، من خلال كلامه عن وجه الارتباط بين السورة والسورة، وآخر السورة بأول السورة التالية لها، ومن خلال حديثه عن المناسبة بين الآيات ووجه الارتباط فيما بينها، ومن الأمثلة التي تؤكد مساهمة البقاعي في هذه النظرية، أنّه لم يكتفِ بالربط اللفظي لسورة يونس بالسور التي قبلها، بل ربط الآية الثانية من السورة بسورتي براءة والأنفال ربطاً موضوعياً ـــ وهو ينقل كلاماً للإمام أبي جعفر بن الزبير ـــ من خلال المضامين التي اشتملت عليهما سورتا براءة والأنفال في آيات كثيرة منهما، فقال:"...وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير:لما تضمنت سورة براءة قوله تعالى:﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله﴾، وقوله:﴿ عفا الله عنك لما أذنت لهم﴾، وقوله:﴿ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾، وقوله تعالى:﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم﴾([2])، إلى آخر السورة، إلى ما تخلل أثناء آي هذه السورة الكريمة، مما شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بتخصيصه

---

[1]– مصلوح: سعد، من نحو الجملة إلى نحو النص، الكتاب التذكاري بقسم اللغة العربية، إعداد، وديعة طه نجم، وعبده بدوي، 428. .

[2]– سورة التوبة: الآيات على الترتيب: 40، 43، 61 .

بمزايا السبق والقرب والاختصاص والملاطفة في الخطاب، ووصفه بالرأفة والرحمة، هذا ما انطوت هي والأنفال عليه، من قهره أعداءه وتأييده ونصره عليهم وظهور دينه وعلو دعوته وإعلاء كلمته، إلى غير هذا من نعم الله سبحانه عليه، وكان ذلك كله مظنة لتعجب المرتاب وتوقف الشاك، ومثيراً لتحرك ساكن الحسد من العدو العظيم ما منحه عليه السلام، قال تعالى: "أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس" إلى قوله: "لساحر مبين"([1]) .

وسنشير خلال فصول الدراسة وما يندرج تحتها من عنوانات رئيسة أو فرعية، إلى مدى إسهام القدماء في هذا العلم، فما ذكرت في هذا التمهيد حول إسهامهم في هذا العلم، ما هو إلا إشارة اقتضبت منّا الوقوف عندها، ونحن نتكلم عن عناصر التماسك النصي، التي عوّل عليها علماء النصّ في ترابط النصّ وتماسكه .

ولم تقف الإسهامات العربية عند المفسرين ودارسي علوم القرآن فحسب، بل كان للنحاة العرب إسهامات جادة تتصل بهذه النظرية اتصالاً وثيقاً، إذ وقف الباحث (فيصل إبراهيم صفا)، على قسم من العبارات والإشارات التي تتصل بـ (نحو النص)، وذلك من خلال بحثه الذي وسمه بـ (نحو النصّ في النحو العربي/ دراسة في مجموعة من العبارات النحوية الشارحة)، لكنّ الباحث كان محترزاً من اعتبار هذه العبارات الشارحة تمثل التفاتاً من النحو العربي إلى نحو النص، وإنّما يؤسس عليه له، قال:" وليس من هدف هذه الدراسة ـ كما قد يُظَنُّ ـ التوصل إلى أن النحو العربي التفت إلى (نحو النص)، وإنّما يهدف إلى إثبات الحاجة إلى استخلاص ما تضمنه هذا النحو من إشارات تسلك قواعد وأحكاماً يمكن أن يؤسس عليها بناء (نحو نصّ العربية)([2])، ومن الإشارات والعبارات التي جاء بها الباحث ليؤكد على إسهامات النحاة العرب في نحو النص، الإشارات التي تحيل إلى السياق المقالي، وإلى المقامي وإلى النفسي وإلى الاجتماعي وإلى الديني، ومنها الإحالة على سياق

---

[1]–سورة يونس: الآية: 2، وانظر البقاعي: نظم الدرر: 345/5. دار الكتب العلمية/ بيروت– لبنان، خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه، عبد الرزاق غالب المهدي .

[2]– صفا: فيصل إبراهيم: نحو النصّ في النحو العربي: دراسة في مجموعة من العبارات النحوية الشارحة، 79، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع: 92: ص:23، 2005م.

المقام العقلي، وعلى سياق مقام الغرض، وعلى سياق مقام القصّ أو السـرد، كمـا تحدث عن إحالات الضمائر الخارجية التي تحيل إلى شخوص خارج النصّ .

الفصل الأول

السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة ونحو النصّ

من النظريات التي مثّلت اتّجاهاً معاصراً وجديداً في دراسة وتحليل النصوص، نظرية نحـــو النصّ، إذ لقيت قبولاً من دارسي العربية في الغرب والشرق، فطفقت هذه النظرية تخصف نصوص اللغة العربية شعرها ونثرها دراسة وتطبيقا، فطُبِّقَــت مناهجها وقواعدها وشروطها على أركان الأدب وديوان العرب، إذ نجد عدداً مــن العرب المحدثين قد اعتمدها في تحليل النصوص، فراحوا يفتشون عــن قواعــدها ومعاييرها في النص العربي وشروطها، حتى وصل الأمر إلى إطلاق الحكم علـــى أي نص موضع التحليل بأنّ ذلك النص (نص أو لا نص)، اســتناداً مــن صـــاحب الحكم في حكمه، على قواعد ومعايير وشروط متعددة ومتنوعة، سنتحدث عنها فـــي موضعها من الدراسة، وقد وُصِفَت تلك القواعد بالاختيارية لاستخراجها من الــنصّ نفسه، وصفة الاختيارية تلك تأتت لها من المستوى الدلالي الرحب، الذي تتفيأ فـــي ظلاله دلالة اللفظ تمدداً وتبدلاً؛ معجماً أم تركيباً وعلامة، سواء أكان اللفــظ الــدّال حرفاً من حروف المباني أم المعاني، أم كلمة أم جملة أم أكبر منها، ويفــسح أيــضاً المستوى التداولي للّفظ اللغوي أن يمارس حرية أكثر رحابة في عوالمه الأخــرى، وهذه الحرية لا تسمح للّفظ بأن يتمرد خارج عوالمه الأخرى، إذ إنّ حرّيّته محكومة منضبطة عرفاً واستعمالاً، وهو يقيم للمتلقي دوراً لا يقل عن دور المبدع نفسه، فعُدّ المتلقي (المرسل إليه) ركناً ثالثاً من أركان العملية التواصلية، مع الركنين الآخــرين المُرسِل والرسالة، فيأتي اللفظ بنية وتركيباً ودلالة في هذا المستوى ـــ بصفته حــدثاً كلامياً مباشراً أو غير مباشر، سياقاً داخلياً أو خارجياً ـــ ليبرز العــوالم المعروفــة المشتركة بين المتكلم والمتلقي، على اختلاف نوع الرسالة كماً وكيفاً، لذلك كلّه كان نحو النصّ بنظرته للنصّ هو النحو القادر على وصف وتحليل هذه الوحدة الكبرى، لا الأنحاء الأخرى: نحو الجملة، النحو التحويلي والتوليدي، إذ عُدّت كلّهــا أنحــاء جملة، وبوصف القرآن الكريم نصّاً ذا بنية كليّة كبرى، وسنتناول هذا الفصل ضمن ثلاثة عناوين: الأول تعريف بنحو النصّ الذي يعد أحد فروع علم لغة النصّ، ونذكر

فيه تعريف النصّ ومفهوم التماسك النصي وعناصره، والثاني نتحدث فيه عن القرآن الكريم بوصفه نصّاً فنعرّفه ونعرّف ببنيته المكتوبة والشفوية، ونتحدث فيه عن حال العرب قبل الإسلام من خلال جانبين مهمين هما: الجانب الديني والجانب الثقافي، كما نتحدث فيه عن سمات السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة، والثالث نتحدث فيه عن مواقف المفسرين واللغويين والنحاة من الحروف المقطّعة.

1.1 نحو النّص.

1.1.1 تعريف النصّ:

لم يجمع علماء النصّ على تعريف يُعْـرَفُ به النصّ على وجه الدقة، فكان الاختلاف أو عدم الاتفاق على تعريف مجمع عليه للنص قاسماً مشتركاً بينه وبين تعريف الجملة، إذْ لقي تعريف الأخير اختلافاً بين اللغويين من قبل، لذلك يقرّر سعيد بحيري نافياً "وجود تعريف معترف به من قبل عدد مقبول من الباحثين من اتجاهات علم لغة النص بشكل مطلق"([1])، ويخلص إلى " أن مسألة وجود تعريف جامع مانع للنص، مسألة غير منطقية من جهة التصوُّر اللُّغوي، ويؤكد ذلك الاختلاف بين علماء اللغة الذين ينتمون إلى مدارس لُغوية مختلفة حول حدود المصطلحات التي ترتكز عليها بحوثهم... ويحاول الوصول إلى تعريف يضم أكبر عدد من الملامح الفارقة للنص، لكنّه لم يبرح حتى يعاود القول بتشعب تعريفات النص، فيقرّ بعدم وجود تعريف دقيق له، عازياً هذا التشعّب إلى تعدد الأشكال النصية بجانبيها الكمي والكيفي، وزاد عليها جوانب أخرى وصفها باللامنظورة"([2]).

فمن تعريفات النصّ التي ذكرها (بحيري) تعريف (هارتمان)، إذ حدّه بأنه:"علامة لغوية أصيلة تبرز الجانب الاتصالي والسيميائي"([3])، وحدّه (فاينريش) بأنه:" تكوين حتمي يحدد بعضه بعضاً، إذ تستلزم عناصره بعضها بعضا لفهم الكلّ"، ويوضح (فاينريش) كيفية ترابط جمل النصّ داخل بنيته:" وحده كليّة مترابطة

---

[1]- بحيري: علم لغة النصّ :101.

[2]- انظر: المرجع نفسه: ص3، وص100 وما بعدها .

[3]- المرجع نفسه،107.

الأجزاء، فالجمل يتبع بعضها بعضاً وفقاً لنظام سديد، بحيث تسهم كلّ جملة في فهم الجملة التي تليها فهماً معقولاً، كما تسهم الجملة التالية من ناحية أخرى في فهم الجمل السابقة عليها فهماً أفضل"([1])، ومنهم منْ ميّزه ـ بعدّه نصّاً ـ إذا توافرت له عدة شروط ومعايير له، كما فعل (دي بوجراند)، فحدّه بأنه " حدث تواصلي يلزم لكونه نصاً أن تتوفر له سبعة معايير للنصية مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلف واحد من هذه المعايير: (السبك، الحبك، القصد، القبول، الإعلام، المقامية، التناص)، وعُدّ هذا التعريف من التعريفات الجامعة، فارتضاه الفقي لمراعاته: المرسل والمستقبل والسياق والنواحي الشكلية والدلالية "([2]). أمّا (برينكر) و(إيزنبرج) و(شتاينتز) فحدّوه بأنّه:" تتابع مترابط من الجمل، ويستنتج من ذلك أنّ الجملة بوصفها جزءاً صغيراً ترمز إلى النصّ، ويمكن تحديد هذا الجزء بوضع نقطة أو علامة استفهام، أو علامة تعجب، ثم يمكن بعد ذلك وصفها على أنّها وحدة مستقلة"([3]).

وعبّر (كالماير) عن رؤية (هاينة وفيهفيجر) في تكوين النصّ استناداً إلى مصطلح (النظائر) ـ باعتباره سلاسل تسهم في تناسق النصّ وتعالقه وفهمه، مثل سلسلة النظائر من الأسماء والضمائر وأسماء الإشارة، التي تحيل إلى الأسماء نفسها، أو تشكل سلسلة من المصاحبات المعجمية:" بسبب هذا الدور الهام للنظائر في تكوين النصّ وفي فهمه، وضع هذا المفهوم في كثير من الدراسات أساساً لتعريفات النصّ ذات الصبغة الدلالية ... يمكن تعريف النصّ دلالياً أنّه: التركيب المكون من واحد إلى (س) من مستويات النظائر، حيث يتوقف عددها على عدد السمات المهيمنة في النصّ"([4]).

---

[1]- بحيري: علم لغة النص،107، وعفيفي، أحمد عفيفي، نحو النصّ/ اتجاه جديد في الدرس النحوي،24.

[2]- دي بوجراند: روبرت دي، النص والخطاب والإجراء، وانظر: الفقي، صبحي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق،34/1،33.

[3]- شبلنر: برند، علم اللغة والدراسات الأدبية، 188.

[4]- هاينة وفيهفيجر: مدخل إلى علم اللغة النصي،14، ترجمة/فالح بن شبيب العجمي.

أمّا سعد مصلوح فقد اعتمد تعريفاً من شأنه عدّ النصّ، ليس سوى مجموعة من الجمل بقوله:" أمّا النصّ فليس إلا سلسلة من الجمل، كلّ منها يفيد السامع فائدة يحسن السكوت عليها، وهو مجرد حاصل جمع للجمل، أو لنماذج من الجمل الداخلة في تشكيله"([1])، وعلّق أحمد عفيفي على هذا التعريف بقوله:" فقد فقدت الجمل ـ داخل هذا التعريف ـ خاصية الاتصال، أو خاصيّة ارتباطها بسياق خطابي"([2])، أمّا محمد حماسه فوضع شروطاً لحصول النصّ بقوله:" لا يصبح النصّ نَصّاً إلا إذا كان رسالة لغوية تشغل حيزاً معيناً، فيها جدلية محكمة مضفورة من المفردات والبنية النحوية، وهذه الجدلية المضفورة تؤلف سياقاً خاصاً بالنص نفسه، ينبثّ في المرسلة اللغوية كلّها"([3]).

وفي ضوء ما تقدّم من تعريفات للنصّ فإنّ عفيفي يخلص إلى أنّ تعدد هذه التعريفات للنصّ تقرّبه من ملامحه فقال:" بعض تعريفات تعتمد على مكوناته الجملية وتتابعها، وبعضها يضيف إلى تلك الجمل الترابط، وبعض ثالث يعتمد على التواصل النصي والسياق، وبعض رابع يعتمد على الإنتاجية الأدبية أو فعل الكتابة، وبعض خامس يعتمد على جملة المقاربات المختلفة والمواصفات التي تجعل الملفوظ نصاً، فيكون لدينا حصيلة كبرى من التعريفات التي تقربنا من ملامحه"([4]).

2.1.1 التماسك النّصيّ:

يمثّل هذا المصطلح الهدف المنشود، الذي نشده وينشده علماء نحو النص للحكم على نص ما بالنصيّة، فمن علماء النصّ المحدثين الذين درسوا النصّ واهتموا به ترابطاً وانسجاماً (هاليدي ورقية حسن)، من خلال كتابهما " المعنون بـ (Cohesionin English/ الاتساق في اللغة الإنجليزية)... خصص المدخل لتحديد بعض

1- مصلوح: من نحو الجملة إلى نحو النص، 407.

2- عفيفي، نحو النصّ/ اتجاه جديد في الدرس النحوي، 24.

3- حماسة، محمد عبد اللطيف، منهج في التحليل النصي للقصيدة، مجلة فصول، مج/ 15، 1996، 108.

4- عفيفي، نحو النصّ/ اتجاه جديد في الدرس النحوي: 21.

المفاهيم مثل: النصّ، والنصية، والاتساق الخ، وخصصت ستة فصول لبحث مظاهر الاتساق التالية: الإحالة، الاستبدال، الحذف، الوصل، الاتساق المعجمي ومعنى الاتساق... تشكّل كل متتالية من الجمل ــ كما ذهب إلى ذلك هاليداي ورقية حسن ــ نصّاً، شريطة أن تكون بين هذه الجمل علاقات، أو على الأصح بين بعض عناصر هذه الجمل علاقات، تتم هذه العلاقات بين عنصر وبين متتالية برمّتها سابقة أو لاحقة، يسمي الباحثان تعلق عنصر بما سبقه علاقة قَبْلية، وتعلقه بما يلحقه علاقة بَعْدية... وإذا كان النص يتكون من جمل، فإنه " يختلف عنها نوعياً "، إنّ النص وحدة دلالية، وليست الجمل إلا الوسيلة التي يتحقق بها النص، أضف إلى هذا أن كل نص يتوفر على خاصية كونه نصاً يمكن أن يطلق عليها "النصية"، وهذا ما يميزه عما ليس نصاً، فلكي تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، بحيث تساهم هذه الوسائل في وحدته الشاملة... إنّ الاتساق مفهوم دلالي، إنّه يحيل إلى العلاقات المعنوية القائمة داخل النصّ، والتي تحدده كنص"([1]).

ويجمل أبو خرمة وجهة نظر الباحِثَين في تشكل النصّ وتماسكه بقوله:" تقوم وجهة نظر أ.ي هاليداي ورقية حسن، في كيفية تشكل النصّ، على إيمانهما العميق بأنّ نحو النص، ما هو سوى دراسة الاعتبارات اللغوية الخمسة الرابطة بين جمل لغوية في متتالية خطية، وهذه الاعتبارات هي: الإحالة، الاستبدال، الحذف، الوصل، الاتساق المعجمي التكراري والاتساق المعجمي التضامي"([2]).

ومن هؤلاء أيضاً (فنديك)، فقد ذهب إلى البحث عن كلّ ما يجعل النصّ كلاً موحداً ذا بنية كليّة كبرى بتماسكه وترابطه، من خلال بحثه عن قيود لم تتصف بالمعيارية، فعمد إلى " استخراج قوانين اختيارية من النص نفسه، فعثر على تلك

---

[1]- انظر: هاليداي و حسن، رقية، الاتساق في اللغة الإنجليزية، 4،2، نقلاً عن: خطابي، محمد خطابي، لسانيات النصّ / مدخل إلى انسجام الخطاب، 15،13،11، المركز الثقافي العربي ــ الدار البيضاء ط/1، 1991م .

[2]- أبو خرمة: عمر، نحو النص/ نقد النظرية وبناء أخرى، سورة البقرة نموذجاً،82،81، 83، عالم الكتب الحديث، اربد ــ الأردن، 2004م.

الحرية في قوانين الدلالة التي تتصف بالديناميكية والتغير، وأدخل عملية التواصل والسياق وعناصر تداولية أخرى كثيرة لفهم النص وتفسيره"([1])، وقد توالت الدراسات النصيّة تزيد قواعد تسهم في فهم النص وتماسكه، فتآزرت مع المقولات والقواعد اللغوية القديمة، إذ أشار بعض القدماء؛ مفسرين ولغويين إلى بعضها ضمنياً كما أسلفنا.

ومن هؤلاء أيضاً (دي بوجراند) إذ اقترح سبعة معايير أساساً لهذا الحكم وهي بنصّه: " وأنا اقترح المعايير التالية لجعل النصيّة أساساً مشروعاً لإيجاد النصوص واستعمالها: السبك، الالتحام، القصد، القبول، رعاية الموقف، التناص، الإعلامية"([2])، ولم تكن تلك المعايير هي الحد النهائي أو نهاية الغاية لهذا الحكم عند علماء آخرين، بل إن منهم من ترك الباب مفتوحاً لطرح معايير أخرى، وهذه المرونة جلبها النصّ الذي سمح لقارئه أو محلّله، أن يستنبط منه قواعد يمكن وضعها إلى جانب ما وُضِعَ من قواعد ومعايير للحكم على نصٍّ ما بالنصية، ما دامت هذه القواعد اختيارية، بل وأورد صلاح فضل قولاً لـ (فندايك)، يصوّر مدى المرونة التي منحها نحو النصّ للمتلقي، في تحديد البنية الكبرى المتعلقة أصلاً بالتماسك الكلي للنصّ، وذلك بفعل ولوج التماسك في دائرة فهم المتلقي فقال:" وإذا كانت البنية الكبرى للنصّ ذات طبيعة دلالية، وكانت متعلِّقة ومشروطة بمدى التماسك الكلي للنص، فإنّ الذي يحدّد إطارها نتيجة لذلك هو المتلقي؛ لأنّ مفهوم التماسك ينتمي إلى مجال الفهم والتفسير الذي يضفيه القارئ على النصّ "([3]). ويظهر أنّ ما وراء هذه المرونة في اختيار القواعد وتطبيقها، هو محاولة من علماء النص ما وسعتهم المحاولة في الكشف عن قواعد أكثر تسهم في تماسك النص، وهذه المرونة تجعلنا نتساءل عن وجود قواعد كلية محددة تضبط النص فتحكم له بالنصية، دون اعتبار أن لكلّ نصّ قواعد خاصة، إذ قد يشترك نص ما مع غيره من النصوص بقواعد معروفة، وقد لا تتحقق بعضها في نصّ ما، وفي ضوء إمكانية

---

[1]- بحيري: علم لغة النص: 219، 220.

[2]- دي بوجراند : النصّ والخطاب والإجراء ، ترجمة: تمام حسان :103-107 .

[3]- فضل: بلاغة الخطاب وعلم النصّ: 336،337 .

زيادة قواعد عند كل قراءة لنصّ ما استناداً إلى حرية قواعد نحو النصّ، فهل من معايير وقواعد يمكن اعتبارها للتفاضل بين النصوص؟ وفي هذا السياق الخاص بتماسك النصّ، :" يرى الباحثون أنّ المشكلة الأساسية التي تقوم عند مواجهة مفهوم تماسك النصّ تنبثق من طبيعة النصّ ذاته، إذ تنصب عليه بحوث متعددة الاختصاصات والتوجُّهات مما يجعل تحديد مفهوم عام للتماسك أمراً عسيراً "([1]).

ويبدو أنّ بعض المصطلحات مثل: البراجماتية، وعبر لغوي، والقصدية، والإعلامية، والإحالة، والتناص، وغيرها، قد عُدّت من ضمن القواعد والمعايير، التي استخرجوها من بنية النصّ التركيبية والدلالية، لتسهم مع عناصر التماسك ووسائل الربط التي اعتبرت في أنحاء الجملة مثل: الحذف، وأدوات الربط، والفصل والوصل، والتقديم والتأخير، لتتآزر في تحقيق بنية النصّ الكلّية الكبرى، ولترأب أيّ صدع قد يطرأ على بنيته تركيباً أو معنى، وتُمكّن المتلقي من أن يظفر بالمعنى الدلالي أيضاً، وهي عناصر تحدّث عنها القدماء، ولم يمنع الاتجاه الحديث من زيادة غيرها في تحليل النصوص وشرحها؛ إذ إنّ نحو النصّ لا يلجأ إلى قواعد سابقة يفرضها على النصّ، (فهاليداي ورقية حسن وفندايك ودي بوجراند) وكلّ علماء النص، قد أقروا بحرية القواعد النصية، ولا سيما الدّلاليّة منها، وزادوا من خلال وظيفة اللغة الاجتماعية مستوى آخر، يضاف إلى مستويات اللغة المعروفة تصنيفاً وتحليلاً؛ النحوي والصوتي والصرفي والدلالي، مستوى ما كان معتبراً اعتبار أحد منها، ألا وهو المستوى التداولي فكان له مساهمة فعلية في تحقيق تماسك النصّ خلال تشكّل أبنيته، من خلال اهتمامه بالجو العام الذي يحيط بالمتكلّم والمتلقي وظروف كل منهما ومكانه وزمانه ومعارفه وأعرافه، فليس ما اعتبره هذا المستوى مسّاً منه في طبيعة النصّ الدلالية، التي تنحاز إلى تماسك النصّ أكثر من غيرها، وفي هذا السياق يشير صلاح فضل، موضحاً طبيعة هذا الانحياز عند علماء النصّ:" إنّ التماسك اللازم للنص ذو طبيعة دلالية، مهما تدخلت فيه العمليات التداولية، وهذا التماسك ـ بالإضافة إلى ذلك ـ يتميّز بخاصية " خطيّة "، أي أنه يتصل بالعلاقات

[1]– فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص: 340.

بين الوحدات التعبيرية المتجاورة داخل المتتالية النصيّة، فالتماسك يتحدد على مستوى الدلالات عندما تكون العلاقات قائمة بين المفاهيم والذوات، والمشابهات والمفارقات في المجال التصوّري، كما يتحدد أيضاً على مستوى المدلولات أو ما تشير إليه النصوص من وقائع وحالات... ويؤكد في موضع آخر على نسخ التماسك ضمن المجال التصوّري... أمّا علماء النصّ فإنهم...يولون التماسك عناية قصوى، ويتجاوزون في شرحهم له تلك المرحلة الحدسية، فيذكرون: أنّه خاصية دلالية للخطاب، تعتمد على فهم كل جملة مكونة للنصّ في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى"([1])، ويلاحظ أنّ جملة (أو ما تشير إليه النصوص من وقائع وحالات) المنقولة عنه، التي عطفها على جملة (مستوى المدلولات)، تنبئ عن مساهمة تداولية، ويظهر مما ذكره من عناصر التماسك النصي، نحو: الإحالة الذاتية المتطابقة، من خلال ذكره للفظتي: المفاهيم والذوات، وعنصر التكرار لفظاً ومعنى وهو يذكر: المشابهات، وعنصر التضاد وهو يذكر: المفارقات، فهي كلّها داخلة ضمن الإطار العام لمستويات التحليل، الذي يشمل العلاقات الدلالية والنحوية والتداولية، ويضيف صلاح فضل محدداً شرط التماسك للمتتالية النصيّة، ومحدداً أيضاً خصائص النص بفكرة النسبية تفسيراً:" وتصبح المتتالية النصيّة متماسكة دلالياً عندما تقبل كلّ جملة فيها التفسير والتأويل في خط داخلي، يعتبر امتداداً بالنسبة لتفسير غيرها من العبارات الماثلة في المتتالية، أو من الجمل المحددة المتضمنة فيها، ومن هنا فإنّ مفهوم النص تتحدد خصائصه بفكرة " التفسير النسبي"؛ أي تفسير بعض أجزائه بالنسبة إلى مجموعها المنتظم كلياً "([2])، ونلاحظ أنّه لا يزال يسرد عناصر التماسك النصيّ وهو يتحدث عن تماسك المتتالية النصية ومفهوم النصّ نفسه، إذ يركز على الترابط بين المتتاليات، المتحققة من خلال العلاقات الدلالية والنحوية، ومسألة "التفكير النسبي"، باعتباره رابطاً دلالياً، وهو مصطلح "التضمن أو التضمين "، وقد سبق الآمدي المحدثين إلى هذه الفكرة، وهو

---

[1]– فضل: بلاغة الخطاب وعلم النصّ: 328، 329، 340، 341 .

[2]– المرجع نفسه: 329 .

يقسم مدلولات اللفظ إلى لفظية وغير لفظية بقوله:" اللفظية: إما أن تعتبر بالنسبة إلى كمال المعنى الموضوع له اللفظ، أو إلى بعضه: فالأول: دلالة المطابقة، كدلالة لفظ الإنسان على معناه، والثاني: دلالة التضمن، كدلالة لفظ الإنسان على ما في معناه من الحيوان، أو الناطق، والمطابقة أعم من التضمن، لجواز أن يكون المدلول بسيطاً لا جزء له"([1])، ويظهر أنّها الفكرة التي قصدها المفسرون واعتمدوا عليها من خلال كلامهم عن "تفسير القرآن بالقرآن" وحديثهم عن مصطلحي" الإجمال والتفصيل "، ولا أدلّ على فكرة هذه النسبية تصريحاً وتطبيقاً ـ بالإضافة إلى ذلك ـ ما ذكره المفسرون من تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم الظلم بالشرك، في قوله تعالى:﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾([2])، قال بعض أصحابه: أيّنا يا رسول الله لم يظلم نفسه، فسّره بقوله تعالى:﴿إنّ الشرك لظلم عظيم﴾([3]).

3.1.1 عناصر التماسك النصيّ

تمثّل عناصر التماسك النصي مجموعة الأدوات والروابط والعلاقات النحوية الشكلية، والروابط والعلاقات الدلالية والروابط والعلاقات التداولية، ونعـرّف بهذه المعايير أو العناصر التي تؤدي إلى التماسك النصي أولاً، ونرجئ التعريف بمعياري السبك والحبك أو الالتحام، إلى نهاية هذه المعايير؛ لأهميتهما أكثر من غيرهما في تماسك النصّ، وللحديث عن العناصر التي تنتمي إليهما بالتفصيل كذلك، وهذ المعايير هي على النحو التالي:

القصد: يتعلق قبول النصّ في موقف المتلقي منه، ومدى قبوله منه في الأساس، راجع إلى الدور الذي يبذله المبدع في النصّ بحيث يكون مقبولاً لدى المتلقي، بل ويتفاعل معه ويحكم عليه، وفي هذا السياق يقول (دي بوجراند):" وهو يتضمن موقف منشئ النصّ من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصّاً

---

[1]– الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام ،15/1، ت/ عبد الرزاق عفيفي .

[2] – سورة الأنعام: الآية/82.

[3] – سورة لقمان: الآية/13، وانظر: الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، 495/11، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 30/7.

يتمتع بالسبك والالتحام، وإنّ مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة للوصول إلى غاية بعينها"([1]). كما أكّد (فانديك) دور نحو النص في قبول تلك المعاني، بقوله:" وإحدى الوظائف المهمة للنحو، إنه قادر على تحديد أيّ العبارات يكون مقبولاً أو غير مقبول"([2]).

القبول: "وهو يتضمن موقف مستقبل النص إزاء كون صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة، من حيث هي نص ذو سبك والتحام، وللقبول أيضا مدى من التغاضي في حالات تؤدي فيها المواقف إلى ارتباك، أو حيث لا توجد شركة في الغايات بين المستقبل والمنتج"([3]) .

رعاية الموقف (المقامية): وهي تتضمن العوامل التي تجعل النص مرتبطاً بموقف سائد يمكن استرجاعه ويأتي النص في صورة عمل يمكن له أن يراقب الموقف وأن يغيّره، وقد لا يوجد إلا القليل من الوساطة في عناصر الموقف، كما في حالة الاتصال بالمواجهة في شأن أمور تخضع للإدراك المباشر، وربما توجد وساطة جوهرية كما في قراءة نص قديم ذي طبيعة أدبية يدور حول أمور تنتمي إلى عالم آخر، إنّ مدى رعاية الموقف يشير دائماً إلى دور طرفي الاتصال على الأقل، ولكن قد لا يدخل هذان الطرفان إلى بؤرة الانتباه بوصفهما شخصين"([4])، ونرجئ الحديث عنه إلى المستوى التداولي.

التناص:

عدّ علماء النصّ عنصر التناص أحد المعايير النصيّة السبعة التي تحكم للنصّ بالنصيّة، ولتحقق هذا المعيار في النصّ القرآني الكريم، فقد ارتأيت أن أتحدث عنه بعد الانتهاء من تحليل كل مجموعة من السّور، لذا سأقف معرّفاً بمفهومه فقط ، تاركاً التمثيل له حسب موضع كل سورة من الدراسة .

---

[1]- بوجراند: النص والخطاب والاجراء/103.

[2]- فندايك: النص والسياق: 2 وما بعدها، وانظر: عفيفي: نحو النص، 88.

[3]- بوجراند: النص والخطاب والاجراء،104.

[4]- المرجع نفسه، 105.

تعددت تعريفات (التناص) لدى كثير من اللغويين والأدباء ، فعرّفه (دي بوجراند) بأنه: " يتضمن العلاقات بين نص ما ونصوص أخرى مرتبطة به وقعت في حدود تجربة سابقة، سواء بوساطة أم بغير وساطة "([1]). وجعل صلاح فضل مفهومه :" أن يمثّل النص عملية استبدال من نصوص أخرى"([2]) .

الإعلامية: وهي العامل المؤثر بالنسبة لعدم الجزم في الحكم على الوقائع النصيّة، أو الوقائع في عالم نصيّ في مقابلة البدائل الممكنة، فالإعلامية تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل، وعند الاختيار الفعلي لبديل من خارج الاحتمال، ومع ذلك نجد لكل نصّ إعلامية صغرى على الأقل تقوم وقائعها في مقابل عدم الوقائع"([3]).

السادس والسابع: السبك والحبك.

من أهم المعايير التي ألحّ عليها علماء النصّ لتحقيق التماسك النصي، من بين المعايير السبعة التي ذكرها (دي بوجرا ند)، معياران أساسيان يشكلان ثنائية ذات اتصال وثيق بالنصّ، وهما معيارا (السبك والحبك)، وقد خصّ (دي بوجراند) هذين المعيارين بهذه الصلة الوثيقة من بين باقي المعايير السبعة، التي اقترحها لنصيّة النص بقوله:"ومن هذه المعايير السبعة، معياران تبدو لهما صلة وثيقة بالنص:(السبك والالتحام)"([4])، وهما بذلك يكوّنان "خاصية مفهومية في حقل علم لغة النصّ وتحليل الخطاب، يربط السبك بين عناصر سطح النصّ، ويكمن الحبك بين عالمه النصي؛ أي أنهما يشيران إلى كيفية تكيف العناصر التي تكون النص بعضها مع بعض وصنع المعنى"([5])، وقد استعمل بعض علماء النص مصطلح الترابط أو الربط النحوي بدلاً من السبك، ومصطلح الحبك بدلاً من التماسك الدلالي، وبقطع النظر عن التبادل بين المسميات لكل معيار من المعيارين، فإنهما أيّ عنصري

---

[1]- دي بوجراند: النص والخطاب والاجراء: 104.

[2]- فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص/ 229 .

[3]- دي بوجراند: النص والخطاب والاجراء: 105.

[4]- المرجع نفسه: 106.

[5]- العبد: محمد، حبك النص "منظورات من التراث العربي: مجلة الدراسات اللغوية مج 3 ، ع2، 2001م / ص: 128 .

(السبك والحبك)" يتصلان بالتماسك النصي داخل النص، ويرتبطان بالروابط الشكلية والدلالية، ولهما أدوات وأنواع وطبيعة وأهداف "([1]).

وفي سياق هذا الترابط والانسجام يبيّن (رولان بارت) بطريقة علائقية كيفية الترابط بين الكلمات بقوله:" إنّ تناسق اللغة الكلاسيكية (نثراً وشعراً) هو علائقي؛ أيّ أن الكلمات تتضاءل إلى أقصى مدى لتبرز الروابط اللغوية، وليس فيها كلمة كثيفة بذاتها، فالكلمة لا تكاد تكون علامةً على شيء، إنّها التُّكأةُ لعلاقة، ولا تغوص على عمق الحقيقة الداخلية المتصلة بغايتها اتصالاً جوهرياً، فما أن تلفظ كلمة حتى تتطلع نحو كلمات أخرى، بحيث تشكل سلسلة سطحية المقاصد...ويعلق المترجم ــ في الحاشية ــ على ما ذكره (بارت) بقوله:" يعبّر عن هذه الحالة النقد القديم " بالكلمات الآخذ بعضها برقاب بعض "([2])، ويرى سعد مصلوح أنّ مصطلح السبك مختص:" بالوسائل التي تحقق بها خاصية الاستمرارية في ظاهر النصّ (text surface)، ونعني بظاهر النصّ الأحداث اللغوية التي ننطق بها أو نسمعها في تعاقبها الزمني، والتي نخطّها أو نراها بما هي كم متصل على صفحة الورق، وهذه الأحداث أو المكونات، ينتظم بعضها مع بعض تبعاً للمباني النحوية، ولكنّها لا تشكل نصاً إلا إذا تحقق لها من وسائل السبك، ما يجعل النصّ محتفظاً بكينونته واستمراريته، ويجمع هذه الوسائل مصطلح عام هو مصطلح الاعتماد النحوي (grammatical dependency)([3])، ويفهم مما سبق أنّ عناصر التماسك النصيّ، متحققة من خلال هذين المعيارين المتصلين بالنصّ اتصالاً مباشراً، ومتحققين في بنيته الأفقية والرأسية، لذا سنشرع في دراستها وتحليلها، وربط كل عنصر منها بالمستوى اللغوي وغير اللغوي الذي ينتمي إليه كل عنصر، إذ إن منها ما يعد عنصرا نحوياً أو دلالياً أو تداولياً.

---

[1]- الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق 42/1 .

[2]- بارت: رولان، الكتابة في درجة الصفر، 59، ترجمة: محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، ط2002/1 .

[3]- مصلوح: نحو أجرومية للنصّ الشعري، وانظر : دي بوجراند: النصّ والخطاب والإجراء: 301 ، 302. 340، 352 .

ويقصد بالسبك الروابط الشكلية التي تؤدي إلى ترابط النصّ على مستواه الأفقي، وهي روابط تنتمي إلى المستوى النحوي، ويتصل به المعاني النحوية الوظيفية التي تؤديها المفردات بحسب الموقع الذي تشغله في التركيب، ويمكن وضع هذه الروابط الشكلية تحت عنوان العناصر والعلاقات النحوية التالية:

الصفة: ورغم كونها فضلة، إلا أنّ ذكرها للموصوف في بعض التراكيب يعد ركناً أساسياً لها، ويبدو هذا في جملة: "عجلاً جسداً له خوار "، ولم يقل: عجلاً له خوار فقط، تأكيداً على أنّ لا روح فيه .

البدل: يمثّل البدل رابطاً دلالياً من حيث كون البدل هو عين المبدل منه، وفي العلاقة بين البدل والمبدل منه، يقول الفقي:" فمن المعروف أنّ البدل هو المبدل منه في المعنى غالباً، ولشدة هذا التماسك بينهما دلالة، استغنى عن الأداة اللفظية الرابطة، فالرابط بين البدل والمبدل منه دلالي، والبدل يحقق التماسك على مستوى الآية الواحدة ...وكذا يحققه على مستوى أكثر من آية "([1]).

ويعد الحبك أو (الالتحام) من أهم الروابط والعلاقات التي تؤدي إلى تماسك النصّ ويشتمل على العناصر الآتية:

أولاً- عنصر الإحالة أو المرجعية:

تقسم الإحالة عند علماء النصّ إلى قسمن: إحالة داخلية وإحالة خارجية وهما على النحو التالي:

1- **الإحالة الداخلية:** وهي روابط بين الألفاظ في الجمل، أو بين الجمل فيما بينها، وتقسم إلى قسمين :

أ ــ قبلية: وهي ما تحيل إليه الضمائر أو أسماء الإشارة أو غيرها إلى أسماء متقدمة عليها، أي أن الاسم المحال إليه قد ورد ذكره في النص قبل المحيل له.

ب ــ بعدية: وهي ما تحيل إليه الضمائر أو أسماء الإشارة إلى مذكور بعدها في النص، بمعنى أن الاسم المحال عليه قد وقع بعد الضمير أو اسم الإشارة، ومن

---

[1]- الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، 274/1.

خلال ما ذكرناه من أمثلة على هذا النوع من الإحالة أثناء تحليل السور القرآنية، بدا وكأن هذا النوع أقل من الإحالة القبلية .

2ـ **الإحالة الخارجية**: وتسمّى أيضاً بالإحالة المقامية، وتتحقق إذا أحال أحد الضمائر أو أحد أسماء الإشارة إحالة إلى خارج النص، وتساهم الإحالة المقامية في خلق النص لكونها تربط اللغة بسياق المقام إلا أنها لا تساهم في اتساقه بشكل مباشر"([1]) .

ثانياً: الاتساق المعجمي.

ويشمل التكرار اللفظي والتكرار المعنوي: ونقصد بالأول تكرار اللفظ نفسه سواء أكان لكلمة بعينها أو لجملة بعيها، أما التكرار المعنوي فنقصد به المعنى الواحد، فقد ترد كلمة أو جملة تحمل دلالة معينة أو أكثر، لكنّها لم تكرر بلفظها كرة أخرى، بل يُكرّر معناها في كلمة أخرى أو في أكثر من كلمة أيضاً، أو يُكرّر معناها في جملة أخرى أو أكثر .

ثالثاً: التضام:

يعدّ التضام من عناصر التماسك النصيّ الخاص في المستوى المعجمي، وهو يعني " توارد زوج من الكلمات بالفعل أو بالقوة نظراً لارتباطهما بحكم هذه العلاقة أو تلك"، وتتنوع العلاقات الحاكمة لعنصر التضام وتشمل:

أ- التضاد:" كلّما كان التضاد حاداً (غير متدرج) كان أكثر قدرة على الربط النصيّ، ومن الأمثلة: الميت والحي، الذكروالأنثى، ومنه التضاد العكسي، كالتضاد بين الفعلين: باع واشترى، والفعلين: ربح وخسر، ومنه التضاد الاتجاهي نحو: أعلى /أسفل، فوق، يأتي/يذهب ([2]).

ب- التنافر:"وهو مرتبط بفكرة النفي مثل التضاد، نحو: خروف/فرس، قط/كلب، ومرتبط بالرتبة نحو: ملازم/ رائد، مقدم... وبالألوان نحو: أحمر/ أخضر،أصفر، وبالزمن: فصل/شهر/عام([3]).

---

[1]- خطابي: لسانيات النص: 17.

[2]- عفيفي: نحو النص/ 112،113.

[3]- المرجع نفسه: 112،113.

ج- علاقة الجزء بالكل: وذلك نحو علاقة الآية بالسورة وعلاقة السورة بالقرآن .

ويلاحظ أنّ العلاقات التي تحكم عنصر التماسك (التضام) إنما هي ألفاظ تتصل ببعضها ضمن نظرية الحقول الدلالية([1]) .

رابعاً: التخصيص.

يفيد التخصيص التوضيح والتبيين، ويؤدي هذا العنصر الدلالي مواقع بعض الكلمات من الجملة، فيتقدم لفظ على لفظ أو يتأخر لأداء معنى التخصيص، ويتأخر لفظ ومكانه التقديم لإفادة هذا المعنى، كما تأتي ألفاظ تفيد من حيث نوعها أو صنفها من الجمل لإفادة هذا العنصر الدلالي نحو:(عنده) من الآية:" إنّ الله عنده علم الساعة".

إنّ لفظة (الحمد) معرفة ومقدمة على لفظ الجلالة (لله)، التي استهلت بها سورة الفاتحة بعد البسملة، قد أفادت ـــ كما يبدو ـــ معنى التخصيص أو الاختصاص، أيّ أنّ المختص بالحمد هو الله سبحانه وتعالى، فأدّت (أل) التعريف أولاً هذا المعنى وعضده التقديم للفظة (الحمد) .

خامساً:السببية (التعليل).

وهذا العنصر الدلالي عُرف بعلاقة الملابسة أوالسبب والنتيجة، وهي علاقة تؤدي إلى ترابط النص في مستواه الأفقي والعمودي.

سادساً: المناسبة.

اهتم القدماء والمحدثون بالمناسبة كأحد العناصر الدلالية التي تؤدي دوراً في تماسك النصّ وترابطه، فدرسوا المناسبة بين عنوان النص ومضمونه والمناسبة بين الجمل، واهتم المفسرون بدراسة المناسبة بين الآيات، والمناسبة بين أول السورة وخاتمتها، وخاتمة السورة التي قبلها وأول السورة التالية لها.

سابعاً: الفصل والوصل .

الفصل والوصل من الموضوعات التي اهتم بهما المفسرون واللغويون القدماء والمحدثون على حدّ سواء، فقد ذكر بعض القدماء أنّ البلاغة هي معرفة الفصل

---

[1]- انظر:عمر: أحمد مختار، علم الدلالة: 102 وما بعدها .

والوصل، وعدهما كثير من الدارسين للنصوص الشعرية أو النثرية من عناصر التماسك النصي، ولهما حضورهما أيضاً في نحو النصّ، فاقتضى الحديث عن دورهما في النظم، وذلك بما يسهما به في تماسك النصّ، فهما حدث لساني متأصل في ذهن ابن اللغة، من هنا تبدو أهمية الفصل والوصل في " أن عدم مراعاة الفصل والوصل يؤثر في النظم"([1])، ويتصل بهذا الموضوع علامات مكتوبة بين آيات الكتاب العزيز، تمنع الفصل وتشترط الوصل، أو تمنع الوصل وتشترط الفصل، أو تجوّز الفصل والوصل نحو: (صلى) لإيثار الوصل، و(ج) لجواز الفصل أوالوصل، (قف) لاشتراط الوقف، ويتصل بموضوع الفصل والوصل الفاصلة القرآنية، فهي علامة من علامات النظم قد يقف عندها القارئ أو لا يقف، شأنها شأن العلامات التي تفصل ـــ شكلاً ـــ بين الجمل، كعلامات الترقيم، أو قرينة كقرائن السجع والقوافي في الشعر.

ثامناً: الجمل المفسِّرة.

الجمل المفسرّة هي أحد العناصر التي تؤدي إلى تماسك النصّ وترابطه، سواء أكان هذا الدور على مستوى الجملة أم على مستوى النصّ، وتتعدد أدوات الجمل التفسيرية، فمنها ما يبدأ بالأداة (أن)، أو بالتمييز أو بالعطف أو بالبدل أو بالتوكيد . تاسعاً:التعريف والتنكير.

اعتبر التعريف والتنكير من عناصر الربط في التركيب وفي الدلالة، توضيحاً وتبييناً أو تخصيصاً أو إبلاغاً أو تعميماً، وبيّن (بوجراند) دور التعريف في التماسك النصي بقوله:" بأنه وضع للعناصر الداخلة في عالم النصّ إذ تكون وظيفة كلّ منها لا تحتمل الجدل في سياق الموقف، ومعنى أن تحدد الوضع باسم علم مثلاً، أو بصفة هي معرفة أنك تقول للسامع أو للقارئ: إن المحتوى المفهومي المضبوط ينبغي أن يكون سهل الاستحضار على أساس المساحات المعلومية المنشطة بالفعل، أما عناصر النكرات فتتطلب من ناحية ثانية تنشيطا لمساحات معلومية أخرى"([2]).

---

[1]- خطابي: لسانيات النصّ، 99، وانظر ما قبل هذه الصفحة وما بعدها .

[2]- دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء/ 310.

العناصر والعلاقات المشتركة بين المستويين النحوي والدلالي.

العطف: تعددت أدوات الربط التي تتصل بمصطلح العطف، لكنّ الجامع لها هو الترابط بين الألفاظ والجمل والفقرات، فمنها ما يدلّ على الاشتراك في الفعل أو الصفات أو في الحكم، وفي هذا السياق يقول بوجراند:" ويمن للرابطة وهي تشمل مطلق الجمع وأداة التخيير وأداة الاستدراك وأداة التبعية، أن تقع بين المكونات من أحجام مختلفة، وينبغي للأداة التي تقتّر للتعويض أن تكون لمطلق الجمع؛ لأنّ العلاقة بين العناصر في النصّ علاقة تجمعية في العادة" ([1]).

الحذف:

قد يحذف أحد عناصر التركيب سواء أكان ركناً أساسياً أم غير أساسي، وغالباً ما يكون الحذف بدليل أو بوجود قرينة، وفي هذا السياق يذكر محمد حماسة:" ... وذلك لا يتم إلا إذا كان الباقي في بناء الجملة بعد الحذف مغنياً في الدلالة كافياً في أداء المعنى، وقد يحذف أحد العناصر؛ لأنّ هناك قرائن معنوية أو مقالية تومئ إليه وتدل عليه، ويكون في حذفه معنى لا يوجد في ذكره"([2]).

ولم يكن الحذف للمبنى وارداً عند المتكلم أو الكاتب، إلا وتقديره وإدراكه متحصل عند المتلقي، لكن حذفه أولى من ذكره، وعندما يكون الذكر أولى من الحذف خوفاً من اللبس، فإن المتكلم أو الكاتب سيلجأ إليه لا مناص، ولعل قول الشاعر يبيّن قيمة المنطوق والمحذوف:

إذا نطقت جاءت بكل مليح وإذا صمتت جاءت بكل مليح

فإذا كان اللفظ ينطق به حيناً ولا ينطق به حيناً آخر، فإن المعنى لا ينطق به النصّ إلا من خلال بنيته، سواء أكان ظاهراً أم متأوَّلاً، بل يفهمه المتلقي المتفاعل مع النصّ من خلال البنية التي تكتنزه؛ تركيباً؛ لفظاً أو خطاً تركيباً ودلالة وتداولاً، فالمليح الأول يخص اللفظ والمعنى بينما المليح الثاني خاص بالمعنى، وكأن الصمت علامة بل أبلغ علامة في موقف ما... فالحذف حقق أيضاً شرطاً هاماً من شروط

---

[1]– بوجراند: النص والخطاب والإجراء ، 157.

[2]– حماسة: محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربية،208. وانظر عفيفي/ نحو النص/125.

النص وهو الاقتصاد، فجاء للاختصار بدلالة الكلام قبله أو بعده عليه، ويقول طاهر حمودة:"...فكان الحذف ناتجاً عن أن المعنى المفهوم في كلّ موضع زائد على عناصر اللفظ المذكورة"([1])، ويشير (دي بوجراند) إلى حذف العناصر من البنية السطحية بقوله:" والحذف هو استبعاد العبارات السطحية التي يمكن لمتحواها المفهومي أن يقوم في الذهن، أو أن يوسع أو أن يعدل بواسطة العبارات الناقصة"([2]).

التكرار: يعدّ هذا العنصر محوراً رئيساً لاشتراكه مع الروابط الشكلية والدلالية والتداولية جميعها، فالتكرار باللفظ أو بالمعنى يحقق تعالقاً بين لفظين أو جملتين أو فقرتين أو قصتين، وذلك من خلال المعنى النحوي الوظيفي الذي تؤديه الألفاظ والتراكيب، وهو داخل في الحقل الاستعمالي العرفي عند العرب كذلك، مما يعني أنّ ما وراء هذا الأسلوب التداولي دلالات غير لفظية مقصودة لذاتها، ولعل ما ذكرته من اشتراكه في كافة مستويات التحليل النصيّ، وما يسهم به من ترابط في النصّ، وما يقدّمه من دلالات علامتيّة، قد تضمنه كلام الزركشي عنه بقوله:"...هو محاسن أساليب الفصاحة لاسيما إذا تعلق بعضه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها إذ أبهمت بشئ إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه كررته توكيدا وكأنها تقيم تكراره مقام المقسم عليه، أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء وإنما نزل القرآن بلسانهم وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض وبهذا المَسلَك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة، وعلى ذلك يحتمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد؛ لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة، وكلُّها داعيةٌ الى الشهوات، ولا يقمع ذلك الا تَكرارُ المواعظ والقوارع "([3]).

---

[1]- سليمان: طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، 23، الدار الجامعية للطباعة والنشر – الاسكندرية:1983م .

[2]- بوجراند: النص والخطاب والإجراء، 301.

[3]- الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 9/3.

وأشكال التكرار وصوره متعددة، فالحرف الذي تستهل به السورة، يتكرّر أكثر من غيره من الحروف، ويظهر كثرته تلك كثرة الكلمات التي ترد في نصّ السورة، أكثر من غيرها، وقد تنبّه القدماء إلى تكرار الحروف المقطّعة التي استهلت بها السور ذوات الحروف المقطّعة، وقالوا بأن السورة كلّها قد بُنيت على الحرف الذي استهلت به السورة، فمن ذلك قول الزركشي :" وتأمل السورة التى اجتمعت على الحروف المفردة كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف فمن ذلك ق والقرآن المجيد فإن السورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن ومن ذكر الخلق وتكرار القول ومراجعته مرارا والقرب من ابن آدم وتلقى الملكين وقول العتيد وذكر الرقيب وذكر السابق والقرين والإلقاء في جهنم والتقدم بالوعد وذكر المتقين وذكر القلب والقرن والتنقيب في البلاد وذكر القتل مرتين وتشقق الأرض وإلقاء الرواسى فيها وبسوق النخل والرزق وذكر القوم وخوف الوعيد وغير ذلك وسر آخر وهو أن كل معاني السورة مناسب لما في حرف القاف من الشدة والجهر والقلقلة والانفتاح"([1])، وأوضح السيوطي هدف تكرار بعض الكلمات والآي في النص القرآني بقوله:"... وذلك للتذكر والموعظة أو التعظيم لشأن المكرر"([2]).

أمّا علماء النصّ المحدثون فرأوا أنه:" شكل من أشكال التماسك المعجمي التي تطلب إعادة عنصر معجمي أو وجود مرادف له أو شبه مرادف، ويطلق البعض على هذه الوسيلة "الإحالة التكرارية" وتتمثّل في تكرار عدد من الألفاظ في بداية كلّ جملة من جمل النصّ قصد التأكيد، وهذا التكرار في ظاهر النص يصنع ترابطاً بين أجزاء النص بشكل واضح، ويوضح (دي بوجراند) وظيفة التكرار في النصّ وأهميته بأنّه:" يهدف إلى تدعيم التماسك النصي... وتحقيق العلاقة المتبادلة بين العناصر المكونة للنصّ "([3]).

---

[1]– الزركشي: البرهان في علوم القرآن،196/1.

[2]– السيوطي: الاتقان في علوم القرآن،35/1.

[3]– بوجراند: النص والخطاب والإجراء:59،45.

الاستبدال. هو صورة من صور التماسك النصي التي تتم في المستوى النحوي المعجمي بين كلمات وعبارات، على أنّ معظم حالات الاستبدال النصيّ قبلية؛ أي علاقة بين عنصر متأخر وعنصر متقدم"([1]) .

العلاقات والعناصر التداولية:

ويقصد بهذه العلاقات والعناصر التي ضمن المستوى التداولي للغة، العلاقات التي من خلالها نحدد معاني الكلمات ضمن مقام إخباري أو اتصالي معين، يفهم من خلاله المتلقي قصد المبدع، وهذا يعني:"أنّ التداولية تدرس اللغة باعتبارها نظام اتصال، أي أنها تدرس اللغة دراسة وظيفية، فتجمع إلى جانب النحو، وهو الذي يمثل الدراسة الشكلية للغة، التداولية، وهي التي تمثل الجانب الوظيفي للغة"([2]).

أولاً: السياق: المقام والمقال.

يؤدي السياق دوراً فعالاً في تأويل الخطاب، ويبرز دوره الكبير في حصر مجال التأويلات الممكنة ويدعم التأويل المقصود"([3])، ويشمل السياق الأركان والعناصر التالية: المتكلم والمستمع والقارئ، والزمان والمكان). فالسياق الذي قيل فيه النصّ يسهم في دلالات يدركها المتلقي، بحسب سياق الحال أو مناسبة الكلام، فيشمل: ظروف المتلقي، ثقافته، زمانه مكانه، وسائل إقناعه حتّى بتحديه، فللسياق إذن دور مهم في تحديد معنى دون معنى آخر، إذا ما تعددت دلالات اللفظة الواحدة، ويذكر الجنابي فائدة السياق من خلال تعدد دلالات اللفظ الواحد قال:" إذا تعدد معنى الكلمة، تعددت بالتالي احتمالات القصد منها. وتعدد احتمالات القصد يقود إلى تعدد المعنى. ويقوم السياق بوضع الكلمة في موقعها داخل التركيب اللغوي بتحديد دلالة الكلمة تحديدا دقيقا مهما تعددت معانيها ويصرف ما يُدّعَى من التباس أو إبهام أو غموض في الدلالة بسبب هذه الظواهر([4])، وحول تحديد السياق لدلالة

1- عفيفي: نحو النصّ:/122.

2- حسنين: صلاح الدين صالح، الدلالة والنحو، 187، ط1، مكتبة الآداب.

3- خطابي: لسانيات النصّ:52.

4- الجنابي: أحمد نصيف، ظاهرة المشترك اللفظي ومشكلة غموض الدلالة 361، 398. مجلة المجمع العلمي العراقي مج 35، ج 4، محرم 1405 هـ تشرين الأول سنة 1984م .

هذه الظواهر، يقول (فندريس): " الذي يعيِّن قيمة الكلمة في كل الحالات التي ناقشناها إنما هو السياق، إذ إنّ الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جوٍّ يحدد معناها تحديداً مؤقتا. والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي بوسعها أن تدلّ عليها"([1]).

ثانياً: الزمان والمكان.

ونقصد بهما الزمان الذي حدثت به القصص التي أوردها النص القرآني، وكذلك الأماكن الشاهدة على وقوع الحدث، فالأحداث التي أخبر النصّ القرآني بوقوعها في الزمن المستقبل (الآتي)، تدل على تعالي النص القرآني على حدود الزمان وحدود المكان، ويتصل بهذا الزمن النحوي دلالة الزمن وقيمته، في الأفعال التي ذكرت في القصص القرآني وما دار فيه من أحداث في الزمن الماضي، ويتصل به أيضاً، الأفعال التي تتحدث عن الوقائع والأحداث في الزمن المستقبل المتعلقة بالأمور والموضوعات الغيبية، مثل البعث واليوم الآخر والثواب والعقاب التي تحدّث عنها النصّ القرآني.

وفي سياق هذا التعالي يقول عبد المطلب زيد:" يمثل التّماس الزمني أول ضرب من ضروب التّماس في القصص القرآني، وهو ضرب ينعم بحركة وحركية أكثر من غيره، إذ يتجاوز حدود اللحظة الحاضرة إلى استدعاء أزمنة غيبية ماضية كانت أو مستقبلية، فقد اخترق القرآن الكريم حاجز الزمن للإخبار عن بعض الأحداث المستقبلية سواء ما يرتبط منها بالمستقبل القريب .. أو ما يرتبط من تلك الأحداث والأنباء الغيبية بالمستقبل البعيد"([2]).

ثالثاً: معرفة العوالم الممكنة.

يوضح لنا (فانديك) مفهوم (العالم الممكن) بقوله:" هو على وجه أكثر تخصيصاً "أمر من الأمور" ممكن أن تحصل فيه مجموعة من القضايا مستوفاة على التمام، وبالعكس فإنّ قضية ما يمكن، حسب ذلك، أن تتحدد في غالب الأحوال على أنها

---

[1]- فندريس: اللغة، 231، ترجمة الدواخلي والقصاص، مكتبة الأنجلو المصرية -1950م.

[2]- زيد: عبد المطلب، صيغ التماس في القص القرآني،337، عالم الفكر: 35، ع4، 2007م،

حاصلة في مجموعة من العوالم الممكنة أعني مجموعة العوالم الممكنة التي تكــون فيها تلك القضية مستوفاة على التمام، ولنلاحظ أن مصطلح العالم الممكن لا ينبغــي أن نماثله مع أفكارنا البديهية عن عالمنا (نحن)، وواقعنا بل ينبغي أن نعتبــره بنــاء مجرداً للنظرية السيمناطيقية (أي نموذج عقلي نظري)، وذلك أن عالمنا الواقعي هو بالضبط عنصر واحد من مجموعة العوالم الممكنة"([1])، ويتضمن هذا العنــصر مــا يعرف بالمعارف المشتركة بين المبدع والمتلقي، أو الرصيد الثقــافي والاجتمــاعي والعرفي المشترك بينهما، ويمكن أن يُعَدّ أسباب النزول أو مناسبته، من ضمن هــذه الأبواب المعرفية، ومن الآيات التي تتصل بما يمكن عدّه من باب معرفة العوالم، ما ذكره القرطبي في تفسيره لقوله تعالى:" الذي خلقكم)، قال القرطبي في قوله تعالى: (الذي خلقكم) خص تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته إذ كانت العرب مقرة بــأن الله خلقها، فذكر ذلك حجة عليهم وتقريعا لهم"([2])، ويتصل بمعرفة العــوالم أيــضاً، ذكر القصص، ومخاطبة العقل لدى المتلقين المنكرين، وذكــر المخلوقــات الماثلــة أمامهم، وتذكيرهم بثبات نظام الكون، ومخاطبتهم بشتى وسائل الإقناع التي تحملهــم على الإيمان، كالمعجزات وتقديم الأدلة الدامغة وإقامة الحجج والبراهين والتحــدي على ما أنكروه، ومعاقبتهم بسبب كفرهم بالعذاب العاجل، ويتصل بالمستوى التداولي أيضاً ضرب الأمثال، لما لها أهمية عند العرب في تداولها بيــنهم كإحــدى قنــوات الاتصال اللغوي الاجتماعي، قال محمد المكي الناصري:" وقد كانــت الأمثــال ولا تزال في جميع اللغات وعند جميع الأمم لها من التأثير في الإقناع ما جعل استعمالها شائعاً ذائعاً، ولا سيما عند العرب، فنزل القرآن بلسان عربي مبين، وجــرى علــى مألوف استعمالهم في ضرب الأمثال، غير أنّ الأمثال القرآنية تختلف عن الأمثــال الأخرى التي عرفها العرب والعجم، بروْعتها وإعجازها، وكونها على غيــر نمــط سابق، ومن هنا وقعها مختلف باختلاف من يسمعها، فالمؤمن الذي خالطت بــشاشة

---

[1]– فان دايك: تيون فانديك، النص والسياق/ استقصاء البحث الدلالي والتداولي، 52، ترجمة/ عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق– المغرب – الدار البيضاء،2000.

[2]– القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري،(600 – 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، 226/1، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان 1405 هـ – 1985م .

الإيمان يدرك مغزاها، ويزداد بوساطتها بصيرة ونوراً، والكافر الذي أطبقت عليه ظلمة الكفر يقبلها بالتجاهل والتساؤل، الذي لا يقصد من ورائه الرغبة في المعرفة، وإنّما تساؤل المنكر الممعن في الإنكار والاستهزاء:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسِقِينَ ﴾([1])، ورغماً عن أن "البعوضة" في الظاهر عند الناس تعتبر كائناً حقيراً تافهاً قد يستغرب ضرب المثل بمثله، فإنّ الآية أشارت إلى أنّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً به، ما دام الغرض من ضرب الأمثال هو مزيد الكشف والإيضاح للسامعين، ولذلك ضرب الله المثل بالنمل والعنكبوت في آيات أخرى"([2]).

ويضيف:"على أنّ العصور التالية منذ نزول القرآن حتى الآن، قد أثبتت ما لهذا الكائن الحقير لصغير (البعوضة) من خورة وقوة وتأثير في الفتك والتخريب والتدمير، فقد أثبتت الدراسات الطبيّة أنّ فعل هذا الكائن بالإنسان، يفوق فعل الطاعون والطوفان، ولذلك جنّدت الدول لحربه ومقاومته كل ما في الإمكان، واتّضح الان لذوي الفكر المستنير حكمة ذكره في القرآن"([3]) .

ومما جاء ضمن المعارف العامة عنوان أول سورة من السور ذوات الحروف المقطّعة (البقرة)، والبقرة من المعارف المعلومة لليهود، فجاءت التسمية تذكيراً وتعريضاً باليهود الذي يسكنون المدينة، إذا ما علمنا أنّ سورة البقرة هي أول سورة مدنية بحسب ترتيب النزول، وقصة البقرة معروفة لديهم، وكذلك عنوان سورة (القلم) واستهلالها بحرف (ن) الدّال بصورته ــ كأيقونة ــ على دواة الحبر، فقد قال كثير من المفسرين بهذه الدلالة السيمائية الأيقونية، فالعناوين والشعارات ولغة الصورة وإشارات المرور وغيرها من وسائل الاتصال اللغوية الدلالية والإبلاغية والإخبارية، يمكن عدّها نصوصاً كاملة، وهي من أقصر النصوص وأسرعها في

---

[1]– سورة البقرة: الاية/26.

[2]– الناصري: محمد المكي: التيسير في أحاديث التفسير: 31،30/1 . الطبعة الأولى/ دار الغرب الاسلامي، بيروت – لبنان.

[3]– المرجع نفسه/ 31/1.

تواصل الأفراد والجماعات، وفي سياق التواصل الإخباري بكلمة أو بجملة أو بجملتين باعتبارها شواهد لنصوص كاملة لا جملة أو جملتين، أكدّه عبد الفتاح الحموز بما جاء في دراسته من شواهد فصيحة تعدّ تُكأة للانزياح، فقال:" ويمكن أنْ يُعدَّ ما في هذا البحث من شواهد فصيحة نصوصاً كاملة، لا جملة أو جملتين إذا ما توهمنا ما بين المتكلم والمتلقي من تواصل إخباري، أو ما بين المؤلف والناقد؛ لأنّ المتكلّم يجب أن يحيل المتلقي، أو السامع إلى شيء يتبيّنُهُ، ويتعرَّفُهُ فضلاً عمَّا يمكن أن يكون للظروف الخارجية الاجتماعية، وغيره، وعمَّا يُمكن أن يكون له وشيج من العلوم الأخرى من أثرٍ، وهي مسألة تَتَبَدَّى بوضوحٍ وجلاءٍ تامَّين في الآيات القرآنية والشواهد الفصيحة نثرها وشعرها؛ لأنَّها منتزعة من سور قرآنية كاملة، أو من قصائد شعرية أو خطب أو رسائل كاملة وغيرها... والقول نفسه في الأمثال العربية والتوقعات والإنذارات والشعارات والعناوين وغيرها من حيث دراستها على أنّها نصوصٌ كاملة"([1])، بحسب ما اكتسبوه في عالمهم من معارف وعلوم، فكل جماعة بما عرفت واكتسبت في عالمها من وسائل اتصال رهينة، وقد تكتسب وتتعلم الأفراد والجماعات ما يهمهم في عالم غير عالمهم، ما عند أفراد وجماعة ومجتمعات العالم الآخر، إذا ما كانوا بحاجة إلى تلك المعارف والعلوم لأجل التواصل مع غيرهم، ولعل ما يتصل بالتداولية في الجانب اللغوي الاستعمالي للغة، ما جاء عند بنت الشاطىء عائشة عبد الرحمن في كتابها، (الإعجاز البياني للقرآن الكريم)، في الفصل الذي خصتّه لمسائل ابن الأزرق وابن عباس، فكل الألفاظ التي كان ابن الأزرق، يتساءل عنها، قد استدل ابن عباس بأنها معروفة عند العرب، من خلال الأبيات الشعرية التي استشهد بها وأوردتها بنت الشاطىء في كتابها([2]).

---

[1]- الحموز: عبد الفتاح، انزياح اللسان العربي الفصيح والمعنى، 8،9، دار عمار – عمان، ط/1، 1428هـ – 2008م .

[2]-انظر: بنت الشاطى، عائشة عبد الرحمن/ الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق/ القسم الثاني/309 وما بعدها، دار المعارف، ط/3.

ثالثاً: نظرية الأفعال الكلامية.

أسس لهذه النظرية وطورها عالمان لا صلة لهما من حيث تخصصهما باللغة وأفعالها، فقد أسس لها (أوستن J.L-Austin)، وطورها نضجاً وضبطاً تلميذه (سيرل J.R-Searle) وهما من فلاسفة أكسفورد ([1])، وقد انتهى تقسيم الأفعال عند (سيرل) إلى أربعة أقسام، بدلاً من ثلاثة عند (أوستن)، وهي: الفعل اللفظي ويشتمل على قسمين؛ الأول: الفعل النطقي والثاني: الفعل القضوي، والقسم الثالث: الفعل الإنجازي، والقسم الرابع: الفعل التأثيري ولم يهتم به؛ لأنه ليس شرطاً لغيره، لذا وقع الاهتمام بالفعل الإنجازي بصفته المتمم للفعل القضوي الذي يمثل (القضية: المحتوى المشترك)، فهذا المحتوى يتضمن قصداً لا يتحقق إلا في إطار كلامي مركب أساسه الفعل الإنجازي، لذلك تنوعت أصنافه فضبطت بأسس منهجية أهمها: الغرض الإنجازي، اتجاه المطابقة، شرط الإخلاص، وبناءً على هذه الأسس تم التمييز بين صنفين من الأفعال فقط هما: الأفعال الإنجازية المباشرة، والأفعال الإنجازية غير المباشرة، ولعل معيار القوة الإنجازية المتحققة للفعل؛ لفظاً ومقاماً وإدراكاً بين المتكلم والسامع، هو ما يميز صنفاً من صنف .

وقد سبق الغزالي هذين الفيلسوفين ـــ في الفصل الثالث من كتابه (المستصفى) ـــ إلى وضع بذور لنظرية الأفعال الكلامية، قال:"من السوابق في أحكام المعاني المؤلفة قد نظرنا في مجرد اللفظ ثم في مجرد المعنى ، فننظر الآن في تأليف المعنى على وجه يتطرق إليه التصديق والتكذيب، كقولنا مثلا: العالم حادث والباري تعالى قديم، فإن هذا يرجع إلى تأليف القوة المفكرة بين معرفتين لذاتين مفردتين بنسبة إحداهما إلى الأخرى، إما بالإثبات كقولك العالم حادث أو بالسلب كقولك العالم ليس بقديم؛ وقد التأم هذا من جزأين يسمي النحويون أحدهما مبتدأ والآخر خبراً، ويسمي المتكلمون أحدهما وصفاً والآخر موصوفاً، ويسمي المنطقيون أحدهما موضوعاً والآخر محمولاً، ويسمي الفقهاء أحدهما حكما والآخر محكوما عليه،

[1]- انظر: نحلة، محمود: نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية، 159.

ويسمى المجموع قضية([1])، ويقصد بالفعل الإنجازي: الفعل الذي يعبّر عن قصد المتكلّم بالعبارة كأن يُخْبِرَ أو يَسألَ أو يَعِدَ أو يُنذرَ أو يُوعدَ، ويواكبه فعل التأثير الكلامي؛ أي الأثر الذي يُخَلِّفَهُ التلفظ بالعبارة لدى المخاطَب، كأن يستبشر أو يرعب أو ينفعل أو يطرب أو يغضب...ويضيف: الأفعال الإنجازية: وهي أفعال يتحقق محتواها القضوي إذا توافرت شروط إنجازها حين التلفظ بها "([2]).

ويقصد بالفعل القضوي: التركيب الذي يمثّل القضية التي نتحدث عنها، وهذا التركيب ــ كما يبدو ــ يشمل المسند والمسند إليه أو الحامل والمحمول أو الموضوع والمحمول، وهذا يعني أنّ المحتوى القضوي الذي يمثّل القضية، يتألف من ركنين أساسين يُسند أحدهما إلى الآخر، وفي هذا السياق يقول صلاح الدين حسنين:"الفعل القضوي: ينقسم إلى فعلين فرعيين اثنيين: الفعل الإحالي والفعل الحملي، ويتم إنجاز الفعل القضوي بشقيه حين يُسنِدُ إلى ذات ما خاصية ما، كما في: شوقي شاعر"([3]) .

لقد تبيّن لنا مما سبق أنّ التماسك النصي ممثلاً بعنصريه (السبك والحبك) هو أهم ما يحقق نصيّة النصّ ــ كما يذكر الفقي ــ فهو:" أهم عناصر الموضوع، بمعنى أنّ التحليل النصي يعتمد أساساً على التماسك في تحقيق النصية من عدمه، فالتماسك يهتم بالعلاقات بين أجزاء الجملة، وأيضاً بالعلاقات بين جمل النصّ، وبين فقراته، بل بين النصوص المكونة للكتاب، مثل السور المكونة للقرآن الكريم، ويهتم أيضاً بالعلاقات بين النصّ وما يحيط به، ومن ثم يحيط التماسك بالنص كاملاً، داخلياً وخارجياً، بمعنى آخر نجد أن السياق والمتلقي والتواصل...وغيرهم، يمثلون العوامل المساعدة في تحقيق التماسك وفك شفرة النص"([4]).

---

[1]- الغزالي: المستصفى: 1/ 65،66، تصوير دار صادر – بيروت .

[2]– حسنين: الدلالة والنحو، 212،213 .

[3]– المرجع نفسه، 212 .

[4]– الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، 97/1 .

2.1 القرآن الكريم بوصفه نصّاً.

أ ــ بنية النصّ القرآني:

إنّ القرآن الكريم بوصفه نصّاً مكتوباً وصلنا محفوظاً من الله سبحانه وتعالى هو: كلام الله سبحانه وتعالى المنزّل على نبيّه محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلّم، بواسطة الوحي جبريل عليه السلام المتعبد بتلاوته المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة النّاس الموجود بين دفتي المصحف .

ويصف عبد الله دَراز بنيته بقوله:" يقع القرآن الكريم الذي بين أيدينا اليوم في مجلّد واحد، ويتكون في طبعته العاديّة من حوالي خمسمائة صفحة (بكل منها 15 سطراً) وينقسم إلى (114) سورة مختلفة الأطوال، فبعد الفاتحة المكونة من خمسة سطور تتدرج السور في ترتيبها بوجه عام حسب طولها، فالسور الطويلة في البداية ثم المتوسطة ثم القصيرة (وبعضها لا يتعدى السطر الواحد)، وتكثر علامات التشكيل والعلامات الصوتية والإملائية وعلامات الوقف؛ لترشد القارئ في نطقه ووقفاته، ولم يكن القرآن على هذه الهيئة في حياة الرسول، فإنّ النصّ مطابقاً لما أملاه الرسول لكتبة الوحي، فإنّ الشكل الخارجي قد طرأ عليه تغيير كبير، إذ لم يكن هناك ما تطلق عليه كتاباً أو مجلداً ... غير أنّ النصّ القرآني لم يقتصر على كونه "قرآناً" أو مجموعة من الآيات التي تتلى أو تقرأ، وتحفظ في الصدور، وإنّما كان أيضاً " كتاباً " مدوناً بالمداد، فهاتان الصورتان تتضافران وتصحح كلّ منهما الأخرى، ولهذا كان الرسول كلّما جاءه الوحي وتلاه على الحاضرين أملاه من فوره على كتبة الوحي ليدونوه على أيّ شيء كان في متناول أيديهم، مثل الورق أو الخشب أو قطع الجلد أو صفائح الحجارة وكسر الأكتاف...الخ "([1]) .

ويؤكد الكاتب الفرنسي (موريس بوكاي) حقيقة النصّ القرآني وحضوره بقوله:" وثمة فرق أساسي بين المسيحية والإسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة، ذلك هو غياب النصّ الموحى به ــ والمحدد في الوقت نفسه ــ عند المسيحية، بينما

---

[1]– دَراز: محمد عبد الله، مدخل إلى القرآن الكريم/ عرض تاريخي وتحليل مقارن، 33،34، ترجمة: محمد عبد العظيم علي، مراجعة: السّيد محمد بدوي. دار القلم ــ الكويت، 1404 هــ، 1984م .

يملك الإسلام القرآن الذي يحقق هذا التعريف...ويضيف: إنّ القرآن هو نصّ الوحي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من سيد الملائكة جبريل، لأنه قد كتب في الحال، ثم حفظه المؤمنون عن ظهر قلب، وكانوا يردّدونه أثناء صلواتهم، وبخاصة طيلة شهر رمضان، وقد رتب محمد صلى الله عليه وسلم آياته في سور، جمعت مباشرة عقب وفاته، وألفت في عهد الخليفة عثمان (23-35هـ) الكتاب الذي هو بين أيدينا. وخلافاً لما جرى في الإسلام، فإنّ الوحي المسيحي انبنى على شهادات إنسانية متعددة وغير مباشرة، لأننا لا نملك أية شهادة من شاهد عاين حياة المسيح، خلافاً لما يتصوره كثير من المسيحيين ... وهكذا تجدها مطروحة مسألة أصالة نصوص الوحي المسيحي والإسلامي ... وقد لوحظ مع تطور المعرفة، وجود اختلافات بين نص التوراة والعلم، فتقرر عدم المقابلة بينهما، ويجب الاعتراف أنّه بهذه الطريقة برز في أيامنا وضع خطير، هو تصادم العلماء وشراح التوراة، لأنه لا يمكن القبول في الواقع، بأن يكون الوحي الإلهي متكلماً عن شيء غير صحيح "([1]).

وفي سياق بنية النصّ القرآني المكتوبة والشفوية، لم يفرّق (حسين نصر) بين النصّ الذي يصل للمتلقي مدوناً، وبين النصّ الذي يصل مشافهة، فعدّ حفظ النصوص مشافهة منعشة للذاكرة الأدبية، مما يجعله يؤثر الرواية الشفهية على المدونة، في تحديد مكانة الشيوخ المدرسين، كما عدّها معياراً في تمييز تلميذ على تلميذ آخر، فقال:" نزل القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلّم في صورة شفهية قبل أن يتحول إلى نصّ مكتوب، وكانت أول كلمة من التنزيل هي "اقرأ"، وقد ردّد النبي صلى الله عليه وسلّم الآيات الأولى من القرآن الكريم كما سمعها، ومنذ نزوله على النبي صلى الله عليه وسلّم ظل القرآن الكريم يحفظ في الصدور ولم يُقرأ من صحف مكتوبة إلا في فترة متأخرة، وحتّى يومنا هذا يسمع القرآن مشافهة ويُتلى من الذاكرة إلى جانب كتابته في المصاحف. والقرآن الكريم هو " سيّد الكتب " وأول

[1]- بوكاي: موريس، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم،18،19،157، المكتب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ط/3، 1411هـ/1990م .

نص مكتوب في تاريخ الإسلام، وقد كان لحفظه في الصدور، ولاعتماد العرب على الذاكرة في نقل المعرفة أثر كبير في الحياة العقلية الإسلامية وفي نظام التعليم الإسلامي، ولا شك أن الاهتمام بحفظ القرآن قد أنعش الذاكرة الشعرية والنثرية للشعوب الإسلامية، وضاعف من أهمية الرواية الشفهية وكان له أثر في تحديد مكانة الكتاب في الثقافة الإسلامية، وبسبب نزول القرآن، ولأسباب أخرى متصلة بالنظام التعليمي الإسلامي، كانت الرواية الشفهية التي تعتمد على الذاكرة وعاء لنقل المعرفة يقف جنبا إلى جنب مع النصوص المدونة في الكتب، والتي تمثل مختلف المذاهب الفكرية، وكانت حلقة الوصل بين الأستاذ وطلابه، ولم تكن تلك الكتب مجرد نصوص مكتوبة ولا مجرد حبر على ورق، وإنما كانت تصاحبها دروس شفهية يلقيها الأستاذ على طلابه فتستوعبها ذاكرتهم، وقد لعبت الرواية الشفهية دورا مهما في تحديد الكتب التي تلقى على الطلاب في حلقات الدرس وفي تحديد مكانة الشيوخ الجديرين بالتدريس، وكانت في الوقت نفسه معياراً يساعد في تمييز تلميذ على آخر على أساس قربه من الشيخ وفهمه لما يقول"([1]).

أما ما يتصل بلغة القرآن الكريم، فقد نصّت آيات كثيرة من كتاب الله العزيز على نزول القرآن الكريم باللغة العربية، وجلّها من السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة، قال الله عزّ وجل:﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾([2])، إنّ التصريح بلغة القرآن العربية هي حجة داحضة على من جعل (الصَّرْفَة*) سبباً في عدم القدرة على الإتيان بسورة من مثله، فليس هذا التحدي ملاذاً يتوارى وراءه، مَنْ قالوا عن وقوع هذا التحدي، فهي حجة واهية، ما دامت مادته اللغوية التي تألفت منها

---

[1]– نصر: سيد حسين: الرواية الشفهية والكتاب في التعليم الإسلامي،49،50، ضمن مجموعة أبحاث (الكتاب في العالم الإسلامي/ لـ (جورج عطية)، ترجمة: عبد الستار الحلوجي، عالم المعرفة، ع/297، اكتوبر/ سنة 2003م .

[2]– سورة يوسف، الآية: 2، وانظر السور:الرعد/37، النحل/103، طه/113، الشعراء/ 195، الزمر/28، فصلت/3، 44، الشورى/7، الزخرف/3، الأحقاف/12.

(*) الصَّرْفة: أي إن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم، وكان مقدوراً لهم، لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات .

نصوص القرآن الكريم، هي المادة نفسها التي نظَم ويَنْظم بها المتحدون كلامَهم من شعر ونثر، ويتواصلون بها مع غيرهم من أبناء بيئتهم في أحاديثهم اليومية، ومع مَنْ تعلّمها أيضاً من أبناء اللغات الأخرى، أو يرومها في أيّ زمن وفي أيّ مكان، وكفانا الباقلاني قولاً ببطلانها بقوله: "ومما يبطل القول بالصرْفَة، أنّه لو كانت المعارضة ممكنة ــ وإنما منع منها الصَّرفة ــ لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضلا على غيره في نفسه، وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم: أنّ الكل قادرون على الإتيان بمثله، وإنّما يتأخرون عنه؛ لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به، ولا بأعجب من قول فريق منهم: إنّه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى في هذا الباب، وإنّه يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حد واحد."([1]).

إن اللغة العربية التي شرفت بأن شكّلت نصّه، لا حجّة عليها ممن اتهمها بالقصور، عن الوفاء بمتطلباتها في ضوء هذه الثورة المعلوماتية التي نشهدها في عصر الحداثة وما بعدها، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهي لغة القرآن الكريم، التي شُرِّفت فنزلت به على سبعة أحرف عرفها اللسان العربي، فدوّن ما دوّن بحروفها من تراث، وما زالت هي نفسها أداة التواصل بين ناطقيها من جهة، ومع غيرهم ممن تعلمّها من ناطقي اللغات الأخرى أو يروم تعلمّها أيضاً. جاء في كتاب الإحكام:" واللغة العربية لغة الكتاب والسنة أسلوباً ومنهجاً، ومقصداً ومغزىً، فهي الطريق إلى فهمهما والعمدة في إدراك أسرارهما وعليها يتوقف معرفة كثير من وجوه إعجاز القران، فلذا عني العلماء بحفظها في جوانبها المختلفة بشتى الوسائل وتوسعوا في تدوين قواعدها، وبدأوا يضعون قواعد أصول الفقه"([2]) .

فاللغة العربية هي لغة التواصل والتفاهم والخطاب بين العرب، قبل نزول القرآن وأثناء نزوله وبعد نزوله وما زالت حاضرة وافية بمتطلباتها إلى يومنا هذا،

1- الباقلاني: أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن،31،30، ت. السيد أحمد صقر، وانظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 95/2،93،94 .

[2]- الآمدي: علي بن محمد، الإحكام في أصول الأحكام، مقدمة المحقق: عبد الرزاق عفيفي،4/1.

فهي إذن الحاكم النزيه الناطق بالقول الفصل في دلالة الحرف والكلمة، وفي تفسير آي الذكر الحكيم، فليس أقدر على ذاك ولا أوفى له، من لغة سواها بمبناها ومعناها، في تفسير آياته ولا سيما الحروف المقطّعة التي استهلت بها تسعٌ وعشرون سورة من سوره عربية المبنى والمعنى، ولا خطوط الهيروغليفية (المصرية القديمة) التي ادعّى سعد عبد المطلب العال من قدرتها وحدها ـ ربما تقديساً لها كما يوحي عنوان كتابه ـ على تفسير الحروف المقطّعة، إذ عنونه بـ (الهيروغليفية تفسّر القرآن الكريم/ بما سمي بالحروف المقطّعة)، وقول (بودرع) يكفينا ردّاً عليه فقال: "وإنّ اللغة التي ينبغي أن تعدّ مرجعاً في تفسير القرآن الكريم واستنباط الأحكام منه، هي اللغة التي كانت متداولة في عصر التنزيل، دون الالتفات إلى اللغة الحادثة، وما طرأ عليها في العصور التالية، من تطّور في دلالات الألفاظ، مما لا ينبغي تحكيمه في فهم القرآن الكريم، وبعيد عن الرواسب الفكرية التي يحملها المفسّر فيسقطها على القرآن، بما يخرِج النّص عن بلاغته وأصالته "([1])، وهي بسبيل خلود القرآن وإعجازه، لا خوف عليها من الانزواء في الاستعمال، إذا ما ترفّع أحدهم بترك التواصل بها، أو بتواصله بغيرها من اللغات مع غيره، مفتخراً بقدرته على التواصل بلغة عصرية وحداثية، تَفْضُلُ اللغة العربية على حسب رأيه، أو استجابة للحداثة الفكرية لا الفنية، وإما رغبة في التمدّن والتقليد والمحاكاة، فهي العربية التي وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ولم تضق بهما ألبتة، لكنّ إثبات نصيّة النصّ القرآني تحليلاً وتماسكاً، تتطلب من الدارس المحلّل لنصوصه في ضوء نظرية (نحو النصّ)، إثبات هذه النصيّة من خلال استخدام وتطبيق وتحليل وتحديد عناصر التماسك النصيّ؛ نحواً ودلالة وتداولاً، من خلال هذه النظرية الشمولية، التي جاد ببعض قواعدها، فكر الدارسين من مفسرين ولغويين وقرّاء لنصوص القرآن الكريم وعلومه، ومن خلال ما جادت به المعرفة الإنسانية في هذا العصر عند علماء النصّ من غربيين وشرقيين .

1- بودرع: محمد، منهج السياق في فهم النص: مجلة الأمة : ع 111 ،ص36.

ومما يتصل بالنصّ القرآني من حيث عالميته وعلميته، فيمكن القول أنّ أمر التدبر لآيات القرآن الكريم قد نصّ عليه القرآنُ، من غير قيد لهذا التدبر بأن يكون على وفق منهجية بعينها، أو من قارئ أو مستمع مخصوصين، ثقافياً أو اجتماعياً أو دينياً، وغير محصورين بأي قيد زماني أو مكاني كذلك، فهو نصّ عالميّ شموليّ مقدّس، غير مكلّف بتدبره من يؤمن به فقط، بل أشرك سبحانه وتعالى البشر جميعاً في هذه العملية التواصلية يتفاعلون معها ليتأثروا بها، لما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة، ومن غير المعقول والمقبول أن يشرك الله تعالى المُبَلَّغين به على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام بهذه الرسالة التواصلية، حتى تثبُت لديهم إمكانية هذا التواصل، فالنصّ القرآني في ضوء إحكامه وتفصيله وتحديه، وفي ضوء سائر العلوم التي أشارت إليها آيات الكتاب العزيز، استئناساً بما جاء من مفردات تندرج تحت مادة (علم)، كالإخبار بما جاء من العلم لأنبيائه، أو بما خصّ به سبحانه وتعالى بعض خلقه، أو بما أنعم منه به على سائر خلقه، أو بتفضيله ذوي العلم على غيرهم، أو بما تكّشف من علوم ومعارف إنسانية ألمح إليها، إنّما يدلّ على تنوع هذه العلوم في النصّ القرآني، وإمكانية الاستفادة منها والإفادة بها أيضاً، فلا تتحصل واحدة من ذانيك أو كليهما لأحد، دون تدبّر آيات الكتاب العزيز، ولا يعني أمر تحصيل واحدة منهما أو كليهما، إنّما هو مرهون بمستوى ثقافي لدى من رام تدبر آياته، فالكون وما فيه من آيات، كافية لأمي تَفَكّر فيها، فعلم علم اليقين أنّ خالقها هو الله وحده العليم الحكيم فآمن به وحده، وفي المقابل لم تكن آية من آيات الكون حاملة ذا علم، على أنْ يكون مثل ذاك الأمي، فجهل مع علمه وإيمانه بأنّ خالقه هو نفسه وخالق الأمي وخالق السماوات والأرض، إنّما هو الله وحده فكفر، فعلوم الكتاب العزيز ليست حكراً على عالم أو متعلّم دون أمي لا يقرأ ولا يكتب، وليست مقصورة في علم دون علم من شتى أنواع العلوم والمعارف، فعلوم الكتاب يستطيع أن يغترف منها كلّ حسب ميوله ونزوعه المعرفي، فمهما أوتي الإنسان من علم من سائر أصناف العلم والمعرفة، يظلّ علماً قليلاً كافياً أنعم الله به عليه، وفي سياق هذه النعمة العلمية التي أنعم الله بها على خلقه، وفي سياق الآيات التالية التي تتحدث عنها أيضاً، ندرك ذاك العلم القليل الذي أوتي إلينا من ظاهر الآية الخامسة والثمانين

من سورة الإسراء من بين هذه الآيات، قال الله تعالى:﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا﴾([1]) .

وفي سياق هذه الشمولية المعرفية والعلمية لكتاب الله العزيز يتساءل السامرائي متعجباً:"... أهو كتاب لغة أم كتاب أدب أم كتاب تشريع أم كتاب اقتصاد أم كتاب تربية أم كتاب تاريخ أم كتاب اجتماع أم كتاب سياسة أم كتاب عقائد أم هو كل ذلك وفوق ذلك؟! عجيب أمر هذا الكتاب! يراه الأديب معجزاً ويراه اللغوي معجزاً، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزاً، ويراه علماء الاقتصاد معجزاً ويراه المربون معجزاً، ويراه علماء النفس والمَعنيون بالدراسات النفسية معجزاً، ويراه علماء الاجتماع، ويراه المصلحون معجزاً، ويراه كل راسخٍ في علمه معجزاً"([2])، هذا اللفظ (العلم) الذي ورد في النصّ القرآني ثمانية وعشرون مرة، يوحي بدلالة التزام تنسجم وتتعالق مع مسألتين راسختين، تمثلان دلالتين من دلالات الحروف المقطّعة، قال الله تعالى:﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾([3])، وقول الله تعالى:﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾([4]) .

وفي هذا السياق يؤكد الكاتب الفرنسي (موريس بوكاي) تفوق وتفرد النصّ القرآني على سواه من النصوص الدينية، من خلال الجملة التي صدّرها عن تدوين القرآن بقوله:"إنّ لأصالة نصّ القرآن مكانة منفردة بين كتب الوحي، لا ينازعه فيها العهد القديم ولا الجديد، فقد سبق وراجعنا ... التعديلات التي طرأت على العهد القديم والأناجيل، قبل أن تصلنا على ما هي عليه الآن، أمّا القرآن فليس الأمر بالنسبة إليه كذلك؛ لأنّه دوّن في عهد الرسول بالذات"([5]) .

1- سورة الإسراء: الآية/ 82 وانظر: الآيات (83- 89) .

[1]- السامرائي: فاضل صالح، التعبير القرآني/ دراسات بيانية في الأسلوب القرآني/20، دار عمار، ط/4، 1427هـ- 2006م .

[3]- سورة الإسراء: الآية/85.

4- سورة الإسراء : الآية/105.

[5]- بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، 157.

فنحن نتعامل مع نصّ منفتح ومستمر ومتواصل وخالد، إذ إنّ إمكانية التأويل لبنيته وبناه؛ حروفه وألفاظه وتراكيبه، لا تزال واردة بحكم سلطته، رغم طول العهد بيننا وبين زمن نزوله، فكم قيل في تأويل كثير من مكونات بنيته، ولا أدلّ على كثرة التأويل تلك، من حيث عدم البت والقطع بتأويل متفق أو متواضع عليه، فكلّ ما في النصّ له علاقه تتجاذب وتتعالق فتتماسك؛ لأجل قصدية النصّ الكبرى، فالدلالات المتعددة في النصّ، ما هي إلا دلالات مقصودة لدلالة كبرى مقصودة تجمع دلالات النصّ المنداحة في فضائه الواسع، تلك الدلالات التي أو المعاني التي كانت تدور في ذهن المبدع، فانطلق بها أولاً بأن اختار عنواناً ينسجم مع دلالة النصّ وهو في بنيته الكليّة الكبرى، ولعل المقولة الشائعة (الكتاب يقرأ من عنوانه) خير قرينة ــ إنّ لم ترتقِ إلى مستوى الدليل ــ على الانسجام التام بين عنوان النص ومضمونه .

1.2.1 النص القرآني وحال العرب قبل الإسلام.

انصبّ الاهتمام على جانبين رئيسين في حياة العرب قبل الإسلام، وهما الجانب الديني المتناقض مع الدين الذي ارتضاه القرآن، المتمثل في عبادة الأصنام التي رأوا في إشراكها مع عبادة الله أنها تقرّبهم من الله زلفى، وهو جانب قد رسخ في عقولهم وعقيدتهم، حتى وصل الأمر إلى أن يقسم بها، وهي لا تضر ولا تنفع، لكنه ألف أباه عليها ولو كان أبوه لا يعقل، تلك هي الثقافة التي ربي عليها: التسليم لنصّ عرفي جاهلي قسريّ، قصدُه التبعية المطلقة، فلن يشرك التابع المتبوع له في التواصل معه، بل هو جزء من النصّ ذاته يسكنه ويحركه ويستبدله متى شاء، فهو الآمر الناهي الملقى عليه مسؤولية القبيلة، وحامل لوائها ومفتخر لها حتى لو أقدم أحد أفرادها على ارتكاب فعل جرمي يحقق ذاك الغرض، وهو نصّ متوارث ومقدس مع سكونه، العبث به مرفوض ولو لتعديله ليتحرك، تلك الثقافة والعقلية، التي قَتلَ وأداً ــ في ضوئها المظلم الضّال عددٌ من بنات القبيلة في التراب .

وفي السياق العقلي المركوز في طباع العرب قبل الإسلام، وما جاء في طباع غيرهم من الأمم التي جانبت الصواب، يفهم من كلام شتراوس التالي، أنّ شعوب

العالم ذوي جينات واحدة، ولا عبرة لمن له امتيازات اجتماعية مثل تعدد الزوجات عند الزعماء والشيوخ كما يرى، أو ما وقع من جنايات وآثام كوأد الأطفال فاستثار احتجاجه، فإنّها خالية من أي معنى ومفتقدة لأي مغزى، فهي سخيفة آثمة، فكان لزاماً لذلك بلورة علم مبكراً كشف دوافعها، فقال:"... وكان من اللازم أنْ يتبلور علم جديد، في حوالي عام 1950م، تحت اسم وراثيات الأقوام، حتى تعود كلّ هذه العادات التي طُرحت جانباً، بوصفها سخيفة أو آثمة، فتتّخذ بالنسبة لنا معنى يكشف عن مبرّراتها ومسوّغاتها"([1]).

كما دعا في موضع آخر البشر ــ إلى جانب محاربة العنصرية المفترضة لديهم علماً ــ إلى نشر المعرفة وتنمية التواصل التي من شأنهما العودة بهم إلى عالمهم الواحد، الذي جمعهم قبل آلاف السينين، قال:"هناك سبب أخير يدعو النّاس إلى التردد لا في مكافحة الأحكام العنصرية، بالطبع ــ إذ إن علمه قد ساهم ما فيه الكفاية بهذه المكافحة ــ بل في اعتقاد ما يطلب منه غالباً اعتقاده، من أن نشر المعرفة وتنمية التواصل بين البشر، من شأنهما أن يفلحا يوماً من الأيام في جعل هؤلاء البشر يعيشون حياة ملؤها التفاهم والوئام، وفي ظلّ التقبّل والاحترام لتنوعهم"([2]) .

والجانب الآخر الجانب الثقافي المتماثل مع ما جاء به القرآن لغة؛ لفظاً ودلالة، والمتمثل في التنافس فيما بينهم في التصرف في فنون القول؛ شعراً ونثراً، حتى أخذ هذا الجانب قسماً لا يقلّ عن القسم الذي أخذه الجانب الديني، فعقدت الأسواق لإلقاء الشعر وإبراز المواهب، وعلّقت الأشعار على الكعبة، بلْه العادات الاجتماعية المتمثلة في العصبية القبلية والغزوات ووأد البنات دون ذنب، والتفاؤل والتشاؤم برؤية طائر أو ظاهرة طبيعية لا تقدّم ولا تؤخر، ولا تضر ولا تنفع .

---

[1]- شتراوس: كلود ليفي، مقالات في الأناسة/235، اختارها ونقلها إلى العربية، حسن قبيسي، بإشراف فؤاد زكريا، سلسلة الفكر المعاصر، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت، ط/2، 2005 م .

[2]- المرجع نفسه، 253،254.

فإذا كان الحال كما ذكرنا ــ بعضه ــ هكذا قبل مجيء الوحي، أليس غريباً أو عجيباً أن تأتي السور ذوات الحروف المقطّعة بشكل خاص، والسور المكيّة بشكل عام، متحدثة ومهتمة ومركزة على الجانب العقائدي، وافرة غنية بالدلائل والمعجزات، ومتحدية ومحاججة للمشركين، ليس لأجل التحدي أو هادفة إليه، بقدر إقامة الحجة وطلب الدليل والبرهان على دعواهم، مقابل البراهين والأدلة والحجج التي جاء بها النص القرآني، فكلّ ما جاء من آيات، وما جاءت بعدها من آيات في القرآن الكريم، بحروف وكلمات ودلالات ليست غريبة عنهم، بل إنّ الأهم من ذلك كلّه هو هذا النبي عليه السلام، المبعوث منهم وفيهم؛ لئلا يكون لهم حجة في الإنكار بل هو حجة عليهم. ولعل أبرز ما يمكن تسجيله في هذا السياق، هو الأثر النفسي الذي أحدثه القرآن الكريم بدعوته إلى ربّ واحد وهذا ما لم يَرُقْ؛ لهم إذ ما زالوا عاكفين على دين آبائهم وأجدادهم، وكذلك الأثر النفسي الذي تركه في نفوسهم الخاص بالجانب الثقافي الذي يفخرون به، إذ أثّر النصّ القرآن من خلال تعاليه على أدبهم؛ فصاحةً و نظماً، باختيار ألفاظه وتنويعه لها، وطريقة نظمه وتحديه لهم بها أيضاً، فأين قيمة ما قالوا وعلّقوا ؟ وما موقفهم من أنفسهم ومن بعضهم بعضاً ؟ وهم مدركون في أنفسهم وفيما بينهم، بأن نظم القرآن: ألفاظه و أسلوبه وفصاحته وتركيبه حجة عليهم، ليشهدوا بوحدانية منزلّه وصدق المُنَزّل عليه المُبَلِّغ له، في الجانب اللغوي لا من الجانب الديني؟ بمعنى أن يكون إقرارهم للغة القرآن؛ لفظاً ونظماً ودلالةً وتداولاً حجة لأن يقروا بأنّه من لدن إله واحد عليم خبير، فمنطق الأشياء يقرّ بأنه إذا ما أراد شخص ما أن يحرك ويفعّل ويؤثّر في شخص ما، أو أن يحدث أمراً هاما عند شخص، فإنّ عليه التوجه إلى الجانب أو الموضوع الذي يعطيه جلّ اهتمامه ومحط فخره واعتزازه، فكان الجانب الديني واللغوي أعظم تأثيراً في حياة العرب قبل الإسلام من أي جانب آخر، فأراد الله تعالى الخير والفلاح لهذه الأمة، وإخراجها من التيه الداخلة به، ليثني ــ بكتابه العزيز وبرسوله المنزل عليه هذا الكتاب، متلقين وأجيالاً منهم عكفوا على نصّ مظلم ورثوه من أسلافهم، إلى عدل ونور ورحمة، بنصّ إلهي بديلاً عن ذاك النصّ، وبلسان نبي عرفوه بالصادق الأمين محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وقبل أنْ أترك الحديث عن الحال التي كان العرب عليها في جاهليتهم، أذكّر بأنّ هذا الحال قد أبان عنها النصّ القرآني بكلّ وضوح، وقد أشار إلى هذا الحال بجانبيه الخلقي والاجتماعي، عبد الله دَراز، أمّا العقائدي؛ فبان لنا من خلال اتّخاذهم أصناماً يعبدونها من دون الله تقربهم زلفى إليه كما يعتقدون، :" وأمّا الجانب الخلقي والاجتماعي فلم يكن أسعد من ذلك حالاً، فوأد الأطفال والبغاء وزنا المحارم، وابتزاز المهور وإرث نساء الأقارب كرهاً وظلم اليتامى، والجشع وإهمال الفقراء وازدراء الضعفاء، كان هو الطابع الغالب، بل إنّ المروءة العربية المشهورة كان القرآن يعتبرها عاطفة في غير موضعها، ملطخة بالرذيلة والفساد، إن لم تكن الفساد بعينه؛ فلم يكن منها سوى الإسراف والمباهاة، وباختصار كانت حياتهم حياة (الضلال المبين)، وزمانهم زمن " الجاهلية الأولى"([1]).

2.2.1 سمات السور ذوات الحروف المقطّعة:

إنّ النص القرآني الممثل بالسور القرآنية التي ا ستهلت بالحروف المقطّعة بشكل خاص، هو ضمن النصّ الكامل للقرآن الكريم، فقد شكلّت هذه السور قسماً كبيراً من بنية النصّ القرآني المكتوبة؛ إذ شكلّت سورتا البقرة وآل عمران كلاهما، أربعة أجزاء إلا أربعة وعشرين آية من سورة النساء انضمت مع الجزء الرابع، وكذلك كثرة من ألّف في علوم القرآن، فوضع لحروف وألفاظ وتراكيب بعينها مؤلفات خاصة، حملت عنوانات للمتشابه والمشكل والغريب، نحو: مشكل إعراب القرآن، ومتشابه القرآن، وغريب القرآن وغيرها من الكتب، وجَمْعُ هذه السور في هذه المجموعات، إمّا هو لجمع الموضوعات الرئيسية التي تعد أبنية كبرى وصغرى، وتشكّل وحدات موضوعية محورية واحدة بين تلك السور، وللوقوف على المحور الرئيس العام لهذه السور، الذي يمكن أنْ نعدَّه الموضوع المحوري المركزي الذي تقصده تلك البنى الصغرى والكبرى للنصّ، فتجتمع ضمن إطاره العام، وباعتباره المحور الذي يمثّل الوحدة الموضوعية الكبرى، التي يمكن عدّها من جانب آخر، جوهر بنية النصّ الكلّية الكبرى.

---

[1]– دَراز: مدخل إلى القرآن الكريم، 131،130.

عند النظر في أغلب السور المستهلة بالحروف المقطّعة، فإنّ ثمة تركيباً سطحياً ملحوظاً يستوقفنا عند الآية التالية لها، وهو التنويه بالقرآن الكريم، سواء أكان هـذا التنويه يشكل الآية الثانية أو الثالثة، أم شكّل مع الحروف المقطّعة قبله آية، وصـفاً له، أو لكيفية نزوله أو وحيه، أو تنزيهاً له أو قسماً به أو إنذارا أو تبليغاً لـه مـن متلقيه الأول ومن متلقيه الثاني، فمن السور ذوات الحروف المقطعة التي تحقق فيها هذا التركيب: البقرة، آل عمران، الأعراف يونس، هود، ص، ق، يوسف، طه، يس، الحواميم، الطواسين، إبراهيم، الحجر، كما نجد في بعض الـسور ذوات الحـروف المقطّعة، وفي غيرها من سور القرآن الكريم، مواضع تنّوه بالقرآن الكريم، وذلـك من التحدّي بسورة من مثله، أو بعشر سور مثله، كما نجد أن هذه التنويهات بـشكل عام قد جاءت في أول السور أو في وسطها أو في آخرها، كما نجـد تطابقـاً فـي المعنى المستشف من ذكر القرآن أو أحد أسمائه؛ الكتاب أو الفرقان، أو مسمّى آيـة أو سورة من سوره كما في (أم الكتاب)، بله التطابق اللفظي الكلي أو الجزئي فـي آيات كثيرة في جميع سور القرآن، وهذا يدلنا علـى مـدى التماسـك والانـسجام والترابط، لفظاً ومعنى وسياقاً في هذه السور بشكل خاص وفي النص القرآني بشكل عام، وللوقوف على التراكيب التي تلت الحروف المقطّعة والتـي تتـضمن تنويهـاً بالقرآن الكريم، نذكر هذه التراكيب؛ لرصد العلاقة بين هذه الحروف والقرآن الكريم من جهة، وعلاقة القرآن بمُنَزّله والمنزل عليه، فسأذكر هذه الآيـات علـى النحـو التالي:

قال الله تعالى:﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾([1])،

قال الله تعالى:﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾([2]).

قال الله تعالى:﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾([3]).

---

[1]– سورة يونس: الآية/1.

[2]– سورة يوسف: الآية/1.

[3]– سورة الرعد: الآية/1.

﴿الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآَنٍ مُبِينٍ ﴾([1]).
﴿ طسم (1) تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾([2]) .
﴿ طس تِلْكَ آَيَاتُ الْقُرْآَنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ([3]).
﴿ طسم (1) تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ([4]) .
الم (1) تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ([5]) .

بلغ عدد السور التي ورد فيها اسم الإشارة تسع سور مع سورة البقرة، ويلاحظ أنّ اسم الإشارة الوارد فيها هو (تلك)، والمشار إليه واحد هو (آيات) وقد وقع بعد اسم الإشارة، والمضاف إليه هو لفظة (الكتاب) ما خلا المضاف إليه في سورة النمل، إذ استبدلت لفظة الكتاب بلفظة (القرآن)، وجاءت لفظة (الحكيم) صفة للفظة الكتاب في سورتي يونس ولقمان، وجاءت لفظة (المبين) صفة للكتاب في ثلاث سور هي (يوسف، الشعراء، القصص)، وثبت الوصف (مبين) مع تبادل الموصوفين، وهما لفظتا (قرآن و كتاب)، إذ عطفت لفظة (قرآن مبين) على لفظة الكتاب في قوله تعالى:" تلك آيات الكتاب وقرآن مبين " في سورة الحجر، وعطفت لفظة (كتاب مبين) على لفظة القرآن في قوله تعالى:" تلك آيات القرآن وكتاب مبين " في سورة النمل .

أمّا السور التي خلت من اسم الإشارة بعد ذكر الحروف المقطعة، فقد جاء في موقع اسم الإشارة الاسمان الظاهران وهما (الكتاب أو القرآن) أو جملة (تنزيل الكتاب)، أما السورة التي استهلت بالحروف المقطعة الثلاثة (الم)، وجاء التنويه فيها بالقرآن الكريم في الآية الثالثة، فهي سورة آل عمران، قال الله تعالى:﴿الم* اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ* نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ

---

[1]– سورة الحجر: الآية/1.
[2]– سورة الشعراء: الآيتان/1،2.
[3]– سورة النمل: الآية/1.
[4]– سورة القصص: الآيتان/1،2..
[5]– سورة لقمان: الآيتان/1،2.

التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾([1])، ولقد ذكرنا بعض دلالات الحروف المقطّعة (الم) في سورة البقرة، ويبدو أنّ بعض المعاني التي تم تأويلها لبعض هذه الحروف، قد أبانت عنها الآية الثانية من هذه السورة، وكذلك تطابق ألفاظ من هذه الآية مع تفسير ابن عباس بشكل خاص وبعض تأويلات المفسرين بشكل عام، ويبدو أيضاً أنّ هذه التأويلات التي تربط الآية الثانية بالأولى، والثالثة بالثانية، والثالثة بالأولى، تتماشى من حيث كون الآية الثانية هي تفسير للآية الأولى، استناداً إلى تفسير القرآن بالقرآن، فكما الألف دالّة في شكلها الأيقوني وهو السطر القائم المعتدل، فنفي الريب نفي لدلالة أيّ لفظ يدخل ضمن الحقل الدلالي للفظة (الريب)، فأيّ ريب يعني عدم الوضوح، والواضح البيّن علامة من علامات أيّ شيء يتصف بالاستقامة، وهذا يرتبط ارتباطاً من خلال المعنى المتأوّل للألف ونفي الريب، مع ظاهر اللفظ وعمقه لصفة المستقيم الموصوف بها الصراط، الذي دعا المتلقي ربّه الهداية إليه، وهو غير الصراطين اللذين دخلهما الريب (الشك ومنه الوهم، الظن) .

أما السور التي لم يرد فيها بعد الحروف المقطّعة ما يشير أو ينوه بالقرآن الكريم مع الحروف المقطعة في الآية الأولى، أو بعدها في موضع قريب منها في الآية الثانية أو الثالثة، فبلغت ثلاث سور هي: مريم ، العنكبوت ، الروم، وجاء التنويه بالقرآن الكريم في متن هذه السور، قال تعالى:﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾([2])، فالضمير في (يسرناه) و (به) من الآية، يحيلان إحالة ذاتية متطابقة إلى القرآن الكريم، وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُبْطِلُونَ﴾([3])، وقال تعالى:﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾([4]) .

---

[1]– سورة آل عمران: الآيات،1–3 .

[2]– سورة مريم: الاية/ 97 .

[3]– سورة الروم، الاية/ 85.

[4]– سورة العنكبوت، الاية/ 45 .

فمن خلال الوقوف على سمات السور ذوات الحروف المقطّعة، يبدو أن كلّ سورة تكاد تختص بميزة لها عن السورة الأخرى، فسورة البقرة تفردت بأن الآية الثانية منها، استهلت باسم إشارة لم يرد في أيّ سورة أخرى من بين تلك السور، فلم يأتِ اسم الإشارة (ذلك) إلا في سورة البقرة وذكر مرة واحدة .

3.1 مواقف المفسرين واللغويين والنحاة من الحروف المقطّعة.

أ ـ مواقف المفسرين من الحروف المقطّعة.

انقسمت تفاسير أهل السنة للقرآن الكريم على قسمين: قسم عرف بالتفسير بالمأثور، وقسم عرف بالتفسير بالرأي، وليس من هدف الدراسة التفصيل في هذين القسمين إيجاباً وسلباً، بقدر ما تهدف إلى الوقوف على معرفة بعض أصحابهما ومواقفهما من الحروف المقطّعة، من حيث وجوب التكلّم عنها أو عدمه، ففريق ذهب إلى وجوب الكلام عنها، وفريق آخر ذهب إلى عدم جواز ذلك، لذا لجأ كلّ فريق إلى الاستشهاد بالآيات والأحاديث والمعقولات لتعزيز مواقفهم، قال الرازي:" للناس في قوله تعالى: "الم" وما يجري مجراه من الفواتح قولان: أحدهما: أنّ هذا علم مستور وسرّ محجوب استأثر الله تبارك وتعالى به، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لله في كل كتاب سرّ وسرّه في القرآن أوائل السور، وقال علي رضي الله عنه: إنّ لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي...وسئل الشعبي عن هذه الحروف فقال: سر الله فلا تطلبوه، وروى أبو ظبيان عن ابن عباس قال: عجزت العلماء عن إدراكها، وقال الحسين بن الفضل: هو من المتشابه، واعلم أنّ المتكلمين أنكروا هذا القول، وقالوا لا يجوز أن يرد في كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوماً للخلق، واحتجوا عليه بالآيات والأخبار والمعقول"([1]).

أما موقف الفريق الأول الذي رأى ضرورة التفكير فيها والوقوف على معانيها، فيمثّله الجمهور من العلماء:" بل يجب أن يتكلم فيها وتلتمس الفوائد التي تحتها

---

[1]- الرازي: مفاتيح الغيب : 3/1،4. دار الفكر:1410هـ، 1990م.

والمعاني التي تتخرج عليها"([1])، وقد تعددت آراؤهم فيها، وكان مرجعهم حول الكلام فيها الاستدلال بعددٍ من الآيات والأحاديث والمعقول وما جاء على لسان العرب من نثر أو شعر([2])، أمّا موقف الفريق الذي لم يتكلّم فيها فذكره الرازي من خلال ما جاء عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم من أقوال كالتي ذكرها الرازي آنفاً، دع عنك تحرج بعض الصحابة عن القول بمعنى كلمة من كلمات القرآن عن طريق التأويل عن الأخبار التي نقلتها إلينا بعض كتب القدماء .

وكما كان الخلاف قائماً في الكلام عنها، كان التباين قائماً بين منْ تكلّم في دلالتها من الفريق الأول؛ إذْ تعددت تأويلاتهم التي وصلت إلى أكثر من عشرين قولاً فيها، فقد أورد أغلب المفسرين كلّ ما قيل في معناها الفوقي والتحتي، فمن المفسرين القدماء الذين أوردوا ذلك ونصّوا على أسماء منْ تكلّم بها أيضاً، الطبري في جامع البيان في تأويل القرآن، ومن المفسرين المحدثين الذين أوردوا ذلك أيضاً ابن عاشور في التحرير والتنوير([3])، فقد أورد الطبري أكثر من رواية في معانيها نسبها لابن عباس في هذا النوع أيضاً، فقال: هو قَسَم أقسمَ الله به، وهو من أسماء الله" عن أبي الضُّحَى، عن ابن عباس:"ألم" قال: أنا الله أعلم...قال: حدثنا شعبة، قال: سألت السُدّي عن"حم" و"طسم" و"ألم"، فقال: قال ابن عباس: هو اسْم الله الأعظم...وعن أبي صالح، عن ابن عباس وعن مُرّة الهمداني، عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم: " الم " قال : أما "الم" فهو حَرف اشتُقّ من حروف هجاء أسماء الله جل ثناؤه، كما ذكر الطبري أكثر من رواية لمنْ تحدّث عنها تحت هذا النوع، فمنها قول سعيد بن جبير، قال: قوله:"الم"، قال: أنا الله أعلم، وقول الشعبي قال: فواتح السور من أسماء الله،

1- ابن عطية، المحرر الوجيز: 95/1، ت. المجلس العلمي بفاس، وانظر: أبو حيان: محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي (654-754هـ)، البحر المحيط، 60/1، وما بعدها، دار الفكر/1426-2005م.

2- انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، 3/1،4، ط 2.

3- انظر: الطبري: جامع البيان: 205/1-224، ابن عاشور: التحرير والتنوير: 207/1 وما بعدها، الدار التونسية للنشر/1984.

وأقوال أخرى منها: أنها رموز لأسماء الله تعالى وأسماء الرسول صلى الله عليه وسلم والملائكة"([1])، وذكر ابن عاشور قول علي رضي الله عنه تحت هذا النوع بقوله:"علم استأثر الله تعالى به ونسب هذا إلى الخلفاء الأربعة في روايات ضعيفة، ولعلهم يثبتون إطلاع الله على المقصود منها رسوله صلى الله عليه وسلم وقاله الشعبي وسفيان"([2])، وقال بعضهم:هي حُرُوف مقطّعةٌ من أسماء وأفعالٍ، كلُّ حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر، أي أنّ كل حرف يرمز إلى كلمة فنحو: (الم) أنا الله أعلم، و" المر" أنا الله أرى، و"المص" أنا الله أفصل، وقال أبو حيان:" وقيل: حروف تدل على ثناء أثنى الله به على نفسه، وقال ابن عباس: "الم" أنا الله أعلم، والر أنا الله أرى، و"المص" أنا الله أفصل. وروي عن سعيد بن جبير مثل ذلك. وروي عن ابن عباس أنّ: الألف: من الله، واللام: من جبريل، والميم: من محمد صلى الله عليه وسلم ويشار إلى أنّ هذه الدراسة ستهتم ببعض تفاسير أهل السنة المدونة التي عدّت تفاسيرهم تفاسير محمودة، كما عدّ بعض أصحابها رؤوساً في التفسير، بحسب قول السيوطي في طبقاته بحق الطبري:" رأس المفسرين على الإطلاق، أحد الأئمة، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب الله، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، ناسخها ومنسوخها، عالماً بأحوال الصحابة والتابعين، بصيراً بأيام الناس وأخبارهم ([3])".

وذكر السيوطي أربع طبقات للمفسرين، جاعلاً القسمين الأولين منهما مناط التسمية، الأول: المفسرون من السلف والصحابة والتابعين وأتباع التابعين.

الثاني: المفسرون من المحدثين، وهم الذين صنفوا التفاسير مُسْنَدَةً مُورِداً فيها أقوال الصحابة والتابعين بالإسناد، وترجم لأصحاب القسمين الأولين في طبقات الفقهاء .

---

[1]- انظر : الطبري: جامع البيان: 1/205-208.

[2]- ابن عاشور: التحرير والتنوير: 1/206،207،

[3]- السيوطي: طبقات المفسرين: 82 . دار الكتب العلمية . بيروت- لبنان. ط1/1403 هـ، 1983م. مراجعة وضبط/ لجنة من العلماء بإشراف الناشر.

الثالث: بقية المفسرين من علماء أهل السنة، الذين ضموا إلى التفسير التأويل والكلام على معاني القرآن، وأحكامه، وإعرابه وغير ذلك، وهو الذي الاعتناء به في هذا الزمان أكثر .

الرابع: مَن صنّف تفسيراً من المبتدعة، كالمعتزلة والشيعة وأضرابهم .

وخصّ السيوطي أصحاب القسمين الأولين تسميتهم بالمفسرين فقال:"والذي يستحق أن يسمى من هؤلاء، القسم الأول، ثم الثاني، على أنّ الأكثر في هذا القسم نَقَلَة، وأما الثالث فمُؤَوِّلَة؛ ولهذا يسمون كتبهم غالباً بالتأويل . ولم أستوفِ أهل القسم الرابع، وإنما ذكرت منهم المشاهير كالزمخشري، والرماني، والجبائي وأشباههم"([1]).

وقد أخذ الطبري بالرأي الجامع لكل الأقوال، مستثنياً رأي منْ تأوّل من أهل العربية أن هذه الحروف ذلك الكتاب، قال:" والصوابُ في تأويل ذلك عندي: أنّ كلّ حرف منه يحوي ما قاله الربيع، وما قاله سائر المفسرين غيرُه فيه ــ سوى ما ذكرتُ من القول عَمَّن ذكرتُ عنه من أهل العربية: أنهّ كان يوجِّه تأويلَ ذلك إلى أنّه حروف هجاء، استُغني بذكر ما ذُكر منه في مفاتيح السور، عن ذكر تتمة الثمانية والعشرين حرفًا من حروف المعجم، بتأويل: أنّ هذه الحروف ذلك الكتاب، مجموعة، لا ريب فيه ــ فإنّه قول خطأ فاسدٌ، لخروجه عن أقوال جميع الصحابة والتابعين وَمن بَعدَهم من الخالفين منْ أهل التفسير والتأويل"([2]).

وتعرضت كتب الصوفية للحروف المقطّعة أثناء تفسير أصحابها لبعض آي القرآن الكريم، إذ إنّ التفسير الصوفي جاء مقتضباً، وجاء بعضه منثوراً ومبعثراً في مراجع أهل الصوفية الكبرى، وقد خصت به آيات منتقاة، كما أنّ التفسير الصوفي حافل بالباطن والنزعات التي يبرأ منها دين الله وكتابه العزيز، كما جاء في تفسير

---

[1]- ومنها أيضاً: معالم التنزيل للبغوي، والمحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي، واشهر كتب التفسير بالرأي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود.

[2]- الطبري: جامع البيان : 217/1 .

المنار، وهو يتحدث عن تفسير ابن عربي، ولا أريد أنْ أمضي حاشداً لما قيل في جَـنْب بعض تفاسير أهل التصوف ولم أكنْ هادفاً إليه أيضاً، وإنما اقتضت طريقتهم في التفسير ذلك، قال السيوطي:" وأما الذين أخطأوا في الدليل لا في المدلول، كمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء، يفسرون القرآن بمعان صحيحة في نفسها، لكنّ القرآن لا يدل عليها، مثل كثير مما ذكره السلمي في الحقائق..."([1])، ولعل الذي دفع مَنْ طعن في التفسير الصوفي، هو بسبب دعوى الوجود في كل ما ينتهي إليه تفسيرهم الباطن لآي القرآن الكريم، ولا أدلّ على ذلك من كثرة تأويلات (ابن عربي/ت: 638) ــ الذي يعدّ شيخ الصوفية ــ للحروف المقطعة واستطراده في شرحها وتفسيرها، ففي كلّ شرح وتفسير يخرج من تأويل إلى تأويل، إلى أن ينتهي بالقارئ في سلسلة من التأويلات، كما أنّ ما سمّي بالشطحات الصوفية بارزة في كلام ابن عربي، سواء أكان مصطلحاً ظاهراً نحو: الحضور، أهل الكشف، طريق الأسرار، طريق الأذن، الوجود، الذات الحضرة الإلهية، أم ما يحدّ له من تفسير لها فيقف عنده، وللتمثيل لا للحصر نورد بعض بعض كلام ابن عربي الذي يؤكد على تلقيه فيضاً من الوجدانيات من سحائب الغيب الإلهي، قال:" فلنتكلم على (الم) البقرة التي هي أول سورة مبهمة في القرآن، كلاماً مختصراً من طريق الأسرار، وربما الحق بذلك الآيات التي تليها، وإن كان ذلك ليس من الباب، ولكن فعلته عن أمر ربي الذي عهدته، فلا أتكلم إلا على طريق الإذن، كما أني سأقف عندما يحد لي، فإنّ تأليفنا هذا وغيره لا يجري مجرى التواليف، ولا نجري نحن فيه مجرى المؤلفين، فإن كل مؤلف إنما هو تحت اختياره، وإن كان مجبوراً في اختياره، أو تحت العلم الذي يبثه خاصة، فيلقى ما يشاء ويمسك ما يشاء، أو يلقي ما يعطيه العلم وتحكم عليه المسألة التي هو بصددها حتى تبرز حقيقتها، ونحن في تواليفنا لسنا كذلك، إنّما هي قلوب عاكفة على باب الحضرة الإلهية، مراقبة لما ينفتح له الباب فقيرة خالية من كل علم"([2]).

---

[1]– السيوطي: الاتقان: 180/4.

[2]– ابن عربي: الفتوحات المكية: 59/1.

ويقتضي المقام هنا أنْ اقتبس كثيراً من كلام ابن عربي عن فاتحة سورة البقرة (الم)؛ لنقف على مدى الغوص والتعمق في كل ما يلمح به التأويل الباطن ودعاوى وحدة الوجود، قال: "الألف من الم إشارة إلى التوحيد، والميم للملك الذي لا يهلك، واللام بينهما واسطة؛ لتكون رابطة بينهما، فانظر إلى السطر الذي يقع عليه الخط من اللام، فتجد الألف إليه ينتهي أصلها، وتجد الميم منه يبتدئ نشوها، ثم تنزل من أحسن تقويم، وهو السطر إلى أسفل سافلين منتهى تعريق الميم، قال تعالى:" لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين([1])، ونزول الألف إلى السطر، مثل قوله: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا، وهو أول عالم التركيب؛ لأنّه سماء آدم عليه السلام، ويليه فلك النار، فلذلك نزل إلى أول السطر، فإنّه نزل من مقام الأحدية إلى مقام إيجاد الخليقة، نزول تقديس وتنزيه، لا نزول تمثيل وتشبيه، وكانت اللام واسطة، وهي نائبة مناب المكون والكون، فهي القدرة التي عنها وجد العالم، فأشبهت الألف في النزول إلى أول السطر، ولما كانت ممتزجة من المكون والكون، فإنّه لا يتصف بالقدرة على نفسه، إنّما هو قادر على خلقه، فكان وجه القدرة مصروفاً إلى الخلق، ولهذا لا يثبت للخالق إلا بالخلق، فلابد من تعلقها بهم علواً وسفلاً، ولما كانت حقيقتها لا تتم بالوصول إلى السطر، فتكون والألف على مرتبة واحدة، طلبت بحقيقتها النزول تحت السطر أو على السطر، كما نزل الميم، فنزلت إلى إيجاد الميم، ولم يتمكن أن تنزل على صورة الميم، فكان لا يوجد عنها أبداً إلا الميم، فنزلت نصف دائرة حتى بلغت إلى السطر من غير الجهة التي نزلت منها، فصارت نصف فلك محسوس يطلب نصف فلك معقول، فكان منهما فلك دائر، فتكوّن العالم كله من أوله إلى آخره في ستة أيام، أجناساً من أول يوم الأحد إلى آخر يوم الجمعة، وبقي يوم السبت للانتقالات من حال إلى حال ومن مقام إلى مقام، والاستحالات من كون إلى كون ثابت على ذلك لا يزول ولا يتغير، ولذلك كان الوالي على هذا اليوم البرد واليبس، وهو من الكواكب زحل، فصار (الم) وحده فلكاً محيطاً، من دار به علم الذات والصفات والأفعال والمفعولات...فالألف ذات واحدة

---

[1]– سورة: التين: الآية/5 .

لا يصح فيها اتصال شيء من الحروف إذا وقعت أولاً في الخط، فهي الصراط المستقيم الذي سألته النفس في قولها اهدنا الصراط المستقيم، صراط التنزيه والتوحيد، فلمّا أمن على دعائها ربها، الذي هو الكلمة الذي أمرت بالرجوع إليه في سورة الفجر، قبل تعالى تأمينه على دعائها، فأظهر الألف من (الم) عقيب ولا الضالين، وأخفى آمين؛ لأنّه غيب من عالم الملكوت...وتقرر أنّ الألف هي ذات الكلمة، واللام ذات عين الصفة، والميم عين الفعل، وسرهم الخفي هو الموجد إياهم"([1]).

وأورد ابن عاشور رأياً جزم به ابن عربي، وهو قوله:" إنّ هاته الحروف المقطعة في أوائل السور أسماء للملائكة، وأنها إذا تليت كانت كالنداء لملائكتها، فتصغي أصحاب تلك الأسماء إلى ما يقوله التالي بعد النطق بها، فيقولون صدقت إن كان ما بعدها خبر، ويقولون هذا مؤمن حقاً نطق حقاً وأخبر بحق فيستغفرون له، وهذا لم يقله غيره وهو دعوى"([2]).

وكما هو ظاهر بيّن من كلام ابن عربي اتصاله بالذات الإلهية، فما قاله ليس متأتياً متأولاً عن طريق العقل، بل من نظرية الوجود عنده، وقد غلّب صبحي الصالح الشطحات على تفاسير الصوفية بقوله:" ويغلب على تفاسير المتصوفة الشطحات التي تبعدهم عن النسق القرآني، وتجعل كلامهم غامضاً إلا على المشتغل بالشؤون الروحية، الذي تعلم أساليب المتصوفة ومرن عليها...فالتذوق الوجداني القائم على ضرب من الحدس النفسي هو الذي يسود هذه الشروح، ولذلك تكثر فيه العبارات الغامضة التي ليس وراءها طائل، والدين لا يؤخذ من ذوق المتذوقين، ولا وجد المتواجدين"([3])، ولعل هذا الحكم الذي ـ كما يبدو ـ حكم به على تفاسير الصوفية، خاصّ في هذا الجانب الوجداني وحده، عندما يتنزل على الصوفي ما

---

[1]- ابن عربي : الفتوحات المكية: 1 / 61،62.

[2]– انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، 1/ 207،208، وابن عربي: الفتوحات المكية: 2/ 448.

[3]– الصالح: صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، 295،296، ط 2005/26، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان .

يتنزل من غياهب السحب الإلهية وهو في لحظات الحضرة الإلهية، إذ وجدنا عند ــ بعض المفسرين الصوفيين ــ تفاسير تتفق مع تفاسير أهل السنّة، وكذلك الآيات التي فسروها كلّها ليست كذلك، إلا ما جاء من مصطلحات مقرونة معها تدلّ في الأخــذه عليهم والطعن بتفاسيرهم، إذ لم نجد تلك التأويلات عند القشيري فــي أول تفــسيره لآية البقرة، ولم نجده قد أطال كما أطال ابن عربي أيضا([1]) .

ومن تفاسير الصوفية للحــروف المقطّعــة، مــا جــاء فــي تفــسير ســهل التستري:ت/283هــ، لــ (الم) قال سهل: "الم ذَلِكَ الكتاب" الألف الله، واللام العبد، والميم محمد صلى الله عليه وسلم، كي يتصل العبد بمولاه من مكان توحيده واقتدائه بنبيه"([2]) .

أمّا القشيري في تفسيره للحرف الواحد من الحروف المقطّعة أو للحروف كلّها فمتعدد، إذ يذكر مرة المعنى نفسه للحرف الذي يتكرر، ومرة أخــرى يــضع لكــل حرف منها معنى آخر، كما جاء لها بمعان ســيميائية؛ إشــارية ورمزيــة، فقــال:" والألِف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف في الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه، واستغنائه عن الجميع، ويقال يتذكر العبد المخلص مِــنْ حالة الألف تَقَدُّسَ الحق سبحانه وتعالى عن التخصص بالمكان؛ فإن سائر الحــروف لها محل من الحلقْ أو الشفة أو اللسان إلى غيره من المدارج غيــر الألــف فإنهــا هوائية، لا تضاف إلى محل، ويقال الإشارة منها إلى انفراد العبد لله سبحانه وتعالى، فيكون كالألف لا يتصل بحــرف، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتــصاب بــين يديه، ويقال يطالب العبد في سره، عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى، وعند مخاطبته باللام بلِيْن جانبه في (مَراعاة) حقه، وعند سماع الميم بموافقة أمــره فيما يكلفه، ويقال اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألــف باســتواء

---

[1]– انظر: القشيري : لطائف الإشارات، 54/1 ، ت: ابراهيم بسيوني.

[2]– التستري: أبو محمد سهل بن عبد الله، تفــسير التــستري: 25/1، علــق عليــه ووضــع حواشيه/محمد باسل عيون السود، منشورات محمد علي بيــضون، دار الكتــب العلميــة، بيروت– لبنان، ط/1423،1هـــ–2002 م .

القامة، والتميز عن الاتصال بشيء من أضرابها من الحروف، فجعل لهـا صـدر الكتاب، إشارة إلى أن من تجرَّد عن الاتصال بالأمثال والأشغال، حَظِـي بالرتبـة العليا، وفاز بالدرجة القصوى، وصلح للتخاطب بالحروف المنفردة، التي هي غيـر مركبة، على سنة الأحباب في ستر الحال، وإخفاء الأمر على الأجنبي من القـصة، قال شاعرهم:

قلت لها قفي قالت قاف   لا تحسبي أنَّا نسينا الإيجاف

ولم يقل وقفت ستراً على الرقيب، ولم يقل لا أقف مراعاة لقلب الحبيب، بل: قالـت قاف، ويقال تكثر العبارات للعموم والرموز والإشارات للخصوص، أسْمَعَ موسـى كلامَه في ألف موطن، وقال لنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم:أَلِـفْ، وقـال عليـه السلام:"أوتيتُ جوامعَ الكلِم فاختُصِرَ لي الكلامُ اختصارًا"([1]) .

ويبدو أنّ القشيري قد تعامل مع بعض الحروف المقطعة، على أنها أسـماء لله عز وجل، أكثر من تعامله مع أي معنى آخر لها، ويظهر هذا في تفسيره لــ (الـم) من سورة آل عمران، بقوله: " أشار بقوله ألف إلى قيامـه بكفايتـك علـى عمـوم أحوالك، فأنت في أسر الغفلة لا تهتدي إلى صلاحك ورشدك، وهو مجرٍ ما يجبرك، وكافٍ بما ينصرك، فبغير سؤالك بل بغير علمك بحالك يكفيك من حيث لا تـشعر، ويعطيك من غير أن تطلب، والإشارة من اللام إلى لطفه بك في خفيِّ السرِّ، حتـى إنه لا يظهر عليك محل المنة فيما يثبتك فيه، والإشارة من الميم؛ لموافقـة جريـان التقدير بمتعلقات الطِّلْبَةِ من الأولياء، فلا يتحرك في العالم شيء، ولا تظهـر ذرة إلا وهو بمحل الرضا منهم...وصفّى الأسرار عن المعتادات والمعهودات، يَـرِدُ هـذا الاسم وهو قوله:" الله" على قلب مقدَّسٍ من كل غَيْرٍ، وسِرٍّ مصفًّى عن كـل كيـف؛ فقال:" الم اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ "، فهو الذي لا يلهو فيشتغل عنك، ولا يسهو فتبقى عنه، فهو على عموم أحوالك رقيبُ سِـرِّك؛ إنْ خلـوتَ فهـو رقيبـك، وإن توسطت الخَلْقَ فهو رقيبك، وفي الجملـة – كيفمـا دارت بـك الأحـوال – فهـو

[1]– القشيري : لطائف الإشارات 53/1،54.

حبيبك"([1]). ويمكن أن نسجّل ملاحظة منهجية تخصّ العلاقة بين ما جاء من دلالات في هذه الدراسة، بفعل استفادتها من نظرية العلامات أو السيميائيات، وما جاء من أقوال للصوفية بشكل خاص، فبكثير من أقوالهم وتأويلاتهم، قد مثّل ما جاءت به نظرية العلامات أو السيميائيات من دلالات.

ويبدو أنّ تفاسير الصوفية ليست كلّها محل نقد ومعارضة كما يظهر لي، بل إنّ تفاسيرهم لبعض آيات القرآن، ولا سيما الحروف المقطّعة، قد تماثلت مع بعض تفاسير أهل السنة متقدمين ومتأخرين، وبقطع النظر عما إذا كانوا مسبوقين في تفسيرهم لها أم سابقين، ولا سيما ما جاء عند القشيري وغيره، وكذلك تماثلت تفاسير أهل السنة التي عدّت تفاسيرهم من التفاسير المحمودة، فقد جاء في تفسير الرازي بعض المصطلحات خاصة بأهل التصوف مفسرين وغير مفسرين، ومن ذلك تفسيره للحروف المقطّعة الثلاثة (طسم) التي استهلت بها سورة الشعراء فقال:" الطاء إشارة إلى طرب قلوب العارفين، والسين سرور المحبين، والميم مناجاة المريدين"([2])، وليس كل ما جاء به ابن عربي من تفسير لهذه الحروف وغيرها، مخالفاً لما جاء به غيره من مفسري السنة ايضاً، ولا سيما منْ فسّر منهم بالمعقول، فقد ورد في القول العشرين من تفسير الرازي لهذه الحروف، ما يماثل جزئياً لفظاً أو معنىً ما جاء عند ابن عربي، قال الفخر الرازي: " الألف إشارة إلى ما لا بدّ منه من الاستقامة في أول الأمر، وهو رعاية الشريعة، قال تعالى:﴿ إِن الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ واللام إشارة إلى الانحناء الحاصل عند المجاهدات، وهو رعاية الطريقة، قال الله تعالى:﴿والذين جاهدوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾([3])، والميم إشارة إلى أن يصير العبد في مقام المحبة، كالدائرة التي يكون نهايتها عين بدايتها وبدايتها عين نهايتها، وذلك إنما يكون بالفناء في الله تعالى بالكلية، وهو مقام الحقيقة"([4])، كما تشابهت بعض الدراسات الحديثة التي تحدثت عن الحروف المقطّعة، مع تفاسير

---

[1]- المرجع نفسه، 218/1.

[2]- الرازي: مفاتيح الغيب: مجلد/12، ج118/24.

3- سورة :العنكبوت : الاية 69.

[4]- الرازي: مفاتيح الغيب،8/1،9، والآية من سورة فصلت: 30 .

الصوفية، كما في دراسة الباحث (عنتر الرويني) الموسومة بـ (من إشراقات الحروف المقطّعة).

ولم تكن تفاسير الشيعة على اختلاف مذاهب المفسرين منهم أحسن حالاً من تفاسير الصوفية، ولا سيما تلك التفاسير التي ظهر فيها توظيف مذهب التشيع واضحاً فيها، إذ " نشطوا في تفسير القرآن تفسيراً مذهبياً أو سياسياً ، وقد توسعوا في ذلك، وصارت لهم تفاسير خاصة، وغالى بعضهم في هذا المجال مغالاة سيئة"([1])، فأثر التشيع قد ظهر وبان في تفاسيرهم، مع توظيفهم للحروف المقطعة، فالجملة التي ركّبوها من الحروف المقّطعة بعد حذف المكرّر منها، لدليل كافٍ على هذا التوظيف وأثره في تفاسيرهم، وهذه الجملة يجمعها قولهم: "صراط عليّ حق نمسكه "، وذكر النيسابوري في تفسيره هذا التركيب واستغربه، ووصفه بالمتكلَّف أيضاً قال: "سمعت بعض الشيعة يقول:هذه الفواتح إذا حذف منها المكررات، يبقى ما يمكن أن تُرَكَّبَ منه (على صراط حق نمسكه)، وهذا غريب مع أنه متكلف فلهذا أوردته"([2])، وعدّ الألوسي هذا الجمع من طرائفهم، وردّ عليه استئناساً لأهل السنة فقال: "ومن الظرائف أنّ بعض الشيعة استأنس بهذه الحروف لخلافة الأمير علي كرم الله تعالى وجهه، فإنّه إذا حذف منها المكرّر يبقى ما يمكن أنْ يخرج من (صراط على حق نمسكه)، ولك أيّها السنيّ أنْ تستأنس بها لما أنت عليه، فإنه بعد الحذف يبقى ما يمكن أنْ يخرج منه ما يكون خطاباً للشيعي وتذكيراً له بما ورد في حق الأصحاب رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وهو (طرق سمعك النصيحة)، وهذا مثل ما ذكروه حرفاً بحرف، وإن شئت قلت (صح طريقك مع السنة) ولعله أولى وألطف، وبالجملة عجائب هذه الفواتح لا تنفد ولا يحصرها العَدّ"([3]).

1- العك:خالد عبد الرحمن: أصول التفسير وقواعده:249، دار النفائس: ط3، 1414هـ، 1994م.

2- النيسابوري: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمّي، ت/ 728هـ، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان:133/1. الزركلي، الأعلام: 99/6.

3- الألوسي: روح المعاني: 104/1، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان. ودار الفكر العربي .

ومن تأويلاتهم التي وظّفوها أيضاً ما جاء في تفسير الطبرسي، الذي أورده الذهبي في كتابه بقوله: " ولما كان الطبرسي يقول بالرجعة، فإنّا نراه عندما فسّر قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾([1])، يقول ما نصّه: واستدلّ قوم من أصحابنا بهذه الآية على جواز الرجعة، وقول من قال: إنّ الرجعة لا تجوز إلا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ليكون معجزة له ودلالة على نبوته باطل؛ لأنّ عندنا بل عند أكثر الأمة يجوز إظهار المعجزات على أيدي الأئمة والأولياء، والأدلة على ذلك مذكورة في كتب الأصول"([2]). كما يدين الطبرسي برجعة المهدي والقول بمبدأ التقية، وقد ظهر هذان الاعتقادان الأيدولوجيان، في تفسير الطبرسي لبعض الآيات التي وردت في بعض السور ذوات الحروف المقطعة، والقول بما قال به أصحابه، ويؤيد اعتقاده الأول تفسيره لقول الله تعالى:﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ"([3])، فقال :"أنّ ابن مسعود وجماعة من الصحابة، فسّروا الغيب بما غاب عن العباد علمُه، ثم قال: وهذا أولى لعمومه، ويدخل فيه ما رواه أصحابنا من زمان غيبة المهدي ووقت خروجه"([4]). مستثمراً تفسير ابن مسعود وغيره من الصحابة، للغيب فجعله غيباً مطلقاً عاماً، بأنّ جعل غياب المهدي من جملة ما غاب عن العباد، وقد أورد الطبري في تفسيره قول ابن مسعود وهو:" عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم،"بالغيب": أما الغيْبُ فما غابَ عن العباد من أمر الجنة وأمرِ النار، وما ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن. لم يكن تصديقهُم بذلك ــ يعني

1- سورة البقرة: الآية:56 .

2- انظر: الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن بن الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن:242/1، تصحيح وتحقيق وتعليق/ السيد هاشم الرسولي المحلاتي و السيد فضل الله اليزدي الطباطبائي، دار المعرفة للطباعة والنشر. الطبعة الأولى: 1406هـ، 1986، وانظر: الذهبي، محمد حسين: التفسير والمفسرون :2/ 110،111.

3- سورة البقرة: الآية: 3، .

4- الطبرسي: مجمع البيان، 17/1، وانظر الذهبي: التفسير والمفسرون ، 111/2 .

المؤمنين من العرب ـــ من قبَل أصلّ كتابٍ أو علْم كان عندَهم. "([1]). ويؤيد قوله في الثاني تفسيره لقول الله تعالى:﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّـــهُ نَفْـــسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾([2]). ففي تفسيره لبعض الآية" إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِـــنْهُمْ تُقَـــاةً"، نجـــد الطبرسي يجعل التقية جائزة ومطلقة كذلك في الدين وفي كلّ الأحوال، موافقاً لمـــا قاله أصحابه، فليس أمرها مقصوراً على مخافة الانسان على نفسه من غير أنّ يعتقد ذلك بقلبه، بل بلسانه حسب، فقال:" والمعنى: إلا أنْ يكون الكفار غالبين والمؤمنون مغلوبين، فيخافهم المؤمن إنْ لم يظهر موافقتهم ولم يحسن العشرة معهم، فعند ذلـــك يجوز إظهار مودتهم بلسانه، ومداراتهم تقية منهم ودفعاً عن نفسه من غير أنْ يعتقد ذلك، وفي هذه الآية دلالة على أنّ التقية جائزة في الدين عند الخوف على الـــنفس، وقال أصحابنا: إنها جائزة في الأحوال كلّها عند الضرورة، وربمـــا وجبـــت فيهـــا لضرب من اللطف والاستصلاح، وليس تجوز في من الأفعال في قتل المـــؤمن، ولا فيما يعلم أو يغلب على الظن أنّه اسفتساد في الدين"([3])، وأفاض كثيراً فـــي تفـــسيره لهذا المبدأ، فمن رام الوقوف على ما قاله بشأنها، فليرجع إليه فـــي موضـــعه مـــن تفسيره .

ومن تأويلات المفسرين الشيعة للحروف المقطّعة التي وظّفوها لمذهبهم أيضاً، ما جاء في تفسير الكازراني المسمّى (مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار)، فقال:"اعلم أن أصل تركيب مقطعات السور من غير ملاحظة ما تكرر منها أربع عـــشرة، بعـــدد المعصومين الأربعة عشر النبي وفاطمـــة والأئمـــة الأثنـــي...وفـــي تأويلـــه لـــــ (كهيعص)...وأما (كهيعص) فمعناه أنا الكافي الهادي، والـــوالي العـــالم الـــصادق الوعد...وأضاف:" أقول تأويل هذا: ما ورد عنه عليه السلام أيضاً أنه قال: أي كاف لشيعتنا، هاد لهم وليٌّ لهم، وَعْدُه حق، يبلغ بهم المنزلة التي وَعَدَهُم إيّاها في بطـــن القرآن، وما في الاحتجاج والمناقب وإكمال الدين عن سعد بن عبد الله عن الحجـــة

---

[1]– الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ، 236/1 .

[2]– سورة آل عمران:الآية: 28 .

[3]– الطبرسي: مجمع البيان، 183/1، وانظر الذهبي: التفسير والمفسرون ، 112/2 .

القائم عليه السلام، أنه سأل عن تأويل (كهيعص) فقال: إنّ هذه الحروف من أنباء الغيب أطلع الله عبده زكريا، ثم فصّلها على محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أنّ زكريا سأل ربه أن يعلمه بأسماء الخمسة، فأهبط الله عليه جبريل عليه السلام فعلّمه إياها، فكان زكريا إذا ذكر محمداً وعلياً وفاطمة والحسن سرى عنه همه وأنجلى كربه، وإذا ذكر الحسين خنقته العبرة ووقعت عليه البهرة، فقال ذات يوم: إلهي ما بالي إذا ذكرت الحسين تدمع عيني وتثور زفرتي ؟ فأنباه تبارك وتعالى عن قصته فقال: كهيعص، فالكاف أسك كربلاء، والهاء هلاك العترة والياء يزيد لعنه الله..وهو ظالم الحسين، والعين عطشه، والصاد صبره، فلما سمع بذلك زكريا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام، ومنع الناس من الدخول عليه"([1]).

إنّ أهم ما دارت عليه تفاسير الشيعة للحروف المقطّعة من حيث دلالتها، دون الالتفات إلى استثمارها في الجانب المذهبي، فقد توافقت مع دلالاتها عند بعض المفسرين من أصحاب المذاهب الأخرى، إذ أوّلها بعض المفسرين من الشيعة، بأنها حروف مقتطعة من أسماء الله الحسنى، سواء أكان هذا التأويل مصرّحاً به أم غير مصرّح به، نحو: (كهيعص) فمعناه أنا الكافي الهادي، والوالي العالم الصادق الوعد، أو تأويل بعضهم لها، بأنّها من كلمات مقتطعة نحو: كربلاء، هلاك العترة، يزيد، عطشه، صبره، ويلاحظ في التأويلين أنّ هذه الحروف قد وقعت في أول الكلمة، بقطع النظر عن (ال التعريف) في أسماء الله الحسنى، ففي إجماع المفسرين ــ على اختلاف مذاهبهم ــ على أنّ هذه الحروف هي حروف مقتطعة من كلمات، وهو أجماع غير ظاهر ألبتة، الذي تأوّلناه لهم، قياساً على قراءة واحدة لهم من قراءات بعضهم المتعددة للحروف المقطّعة، قرينة قوية لهذا التأويل، وفي هذا السياق الدّلالي التأويلي، فليس هنا ما يمنع من تأويل لم يجعل حرفاً من الحروف المقطعة الحرفَ الأول من كلمة قد تُأوّل تأويلاً آخر، لكنّه غير متعارض مع أيّ تأويل قد قبله العقل أو قد يقبل غيره، ولم أجد واحداً من المفسّرين، من اشترط بأنّ يكون الحرف الأول من أي كلمة متأولة، واحداً من الحروف المقطّعة .

[1]– انظر: الذهبي، التفسير والمفسرون:2/72،73.

أمّا تفاسير المعتزلة فإنّ الطابع الذي يُميّزها عن غيرها من التفاسير، هو اعتمادهم العقل مرجعاً استراتيجياً في التفسير، مقدماً على غيره من المراجع والوسائل، في كشف ما يحوم حوله اللفظ مفرداً أو مركباً، ولم يكن هذا السبيل مأخذاً لطعن تفاسير بعضهم، إذ عُدّ قسماً من تفاسيرهم من التفاسير المحمودة، واستشهد بها كثير من المفسرين الذين فسّروا بالمأثور أو بالرأي، وفي مقابل هذا المدح لهم والأخذ عنهم، فقد أُخِذَ على بعض أصحاب هذه التفاسير الدّس مع حسن العبارة، ولجوء بعضهم إلى طريقة أهل التصوف في التفسير[1]، ويتلّخص موقفهم من تفسير القرآن، بأنهم أقاموا تفسيرهم له على أصولهم الخمسة المعروفة وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه الأصول الخمسة هي المعايير المشروطة مجتمعة مكتملة، حتى يستحق منْ تجتمع لديه القول بأنّه معتزلي، قال أبو الحسن الخياط :" وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزليتن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا كملت هذه الخصال فهو معتزلي"[2].

أمّا أهم نتائج المعرفة العقلية عند المعتزلة، فيوجزها لنا (حسن لحساسنة) بقوله:" إنّ أهم ما انتهى إليه العقل الاعتزالي هو اعتمادهم على حجج العقل وسلطانه، وتعويلهم على مبادئه وآلياته، ولذلك سمّى كثير من العلماء العقل (أم الأصول)، فاعتماد العقل أساساً للمعرفة جعل الفكر الاعتزالي ينحو منحى معرفياً مغايراً لما عليه أهل السنة والجماعة، وأوصلهم هذا الاتجاه إلى نتائج منها: القول بأنّ الحسن والقبح عقليان، واعتماد العقل ميزاناً للنقد ومعياراً للحقيقة ... وتفسير نصوص الوحي على أساس قانون العقل ومبادئه، ولمّا كان سلطان الوحي قاهراً بسنده القطعي فإنّ المعتزلة لجأوا إلى تأويل النصوص حتى توافق مقتضيات العقول، ولا يمكن أن يخالف النقل ما جاء به العقل، وما أتى به الوحي إمّا أنْ يكون

---

[1]– السيوطي: جلال الدين بن عبد الرحمن، الاتقان في علوم القرآن: 179/180/4. ت/محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث.

[2]– الذهبي: التفسير والمفسرون: 370/1.

واجباً بالعقل أو جائزاً، فلم يرد الشرع إلا بما أوجبه العقل ودلّ عليه أو جوّزه ونصّ عليه، ولم يردّ بما حظره ومنعه، أو أبطله"([1])، وللتدليل على تجلي المذهب الاعتزالي في تفاسير المعتزلة، نذكر تفسير بعض الآيات القرآنية لدى بعض مفسريهم، الذين أظهروا التعصب لمذهبهم الاعتزالي، بما يؤكد على أصوله الخمسة السابقة، وتحويل بعض تفاسيرهم لآيات الكتاب العزيز، ضد مخالفيهم من أهل السنة والجماعة.

إنّ أهم تفاسير المعتزلة للقرآن، تفسير (الكشاف) للزمخشري، وهو التفسير الذي يُعَدُّ تفسيراً مكتملاً للقرآن، وشاملاً للفكر الاعتزالي المتصل بالقرآن الكريم، باعتباره أصل العقيدة ومعتمد ما يتشعب عنها من آراء وأفكار([2])، ورغم أنه يخالف ما عليه أهل خصومه، إلا أنّ تفسير الكشاف قد لقي مدحاً منهم وأخذوا عنه، كما مَدَحَ الجانب اللغوي والأدبي فيه علماء التاريخ وعلم الاجتماع، وعلى رأسهم صاحب المقدمة، لما فيه من كشف لبلاغة القرآن وثروته البيانية، وتأثر به بعض المفسرين من أهل السنة([3]).

أمّا موقفهم من تفسير الحروف المقطّعة، فظاهر كلام الزمخشري أنّه عدّها أسماءً للسور، وهو يجيب عن وقوعها فواتح للسور بهذا الشكل المقطّع فقال:" فإن قلت: قد تبين أنها أسماء لحروف المعجم، وأنها من قبيل المعربة، وأن سكون أعجازها عند الهجاء لأجل الوقف، فما وجه وقوعها على هذه الصورة فواتح للسور؟ قلت: فيه أوجه: أحدها وعليه إطباق الأكثر: أنّها أسماء السور"([4])، وكذلك كان موقف القاضي عبد الجبار، إذْ يذكر في مقدمة كتابه (متشابه القرآن) موقفه منها، فلم يجعلها من المتشابه، وأخذ برأي الحسن البصري فيها، وهي أنّها أسماء

---

[1]- موسى: حسن لحساسنة، الحاكمية في الفكر الإسلامي، كتاب الأمة: ص/131،132 ، ع/118، ط1، 1428 هـ/ 2007 م .

[2]- الذهبي: التفسير والمفسرون، 433/1 .

[3]- انظر: ابن خلدون: المقدمة،936/3، ت/ علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة، دار نهضة مصر، 2006م، والذهبي: التفسير والمفسرون:1/ 467،469 .

[4]- الزمخشري: الكشاف، 11/1.

للسور قال:" فأمّا قوله عزّ وجل في فواتح السور، وذلك مثل (المص) و(الم) إلى ما شاكله، فليس من المتشابه، وقد أراد عزّ وجل به ما إذا علمه المكلّف كان صلاحاً له، وأحسن ما قيل فيه ما روى عن الحسن وغيره من أنّه عزّ وجل أراد أن يجعله اسماً للسور، وإثبات الكلمة اسماً للسورة، والقصد بها إلى ذلك مما يحسن في الحكمة، كما يحسن من سائر من عرف شيئاً وفصل بينه وبين غيره أن يجعل له اسماً ليميزه به عن غيره"([1]).

وقد أشاد كثير من المفسرين واللغويين بالنتائج اللغوية التي توصل إليها الزمخشري، من خلال دراسته للحروف الأربعة عشرة، التي استخلصت من سائر الحروف المقطعة بعد حذف المكرر منها، مثبتاً بنصفية وصفة ومخارج هذه الحروف، معنى الإحاطة والشمول بسائر الصفات والمخارج لكل الحروف الأبجدية العربية، التي تألف منها النصّ القرآني وتألفت منها لغة العرب شعراً ونثراً، وقد ألمح الزمخشري إلى هذا المعنى وهو يبتدأ بتفسيرها فقال:"...ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته. وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته ، فكأنّ الله عزّ اسمه عدّد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم ، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم "([2]).

1.3.1 موقف اللغويين والنحاة من الحروف المقطّعة.

لم تجد هذه الحروف إجماعاً من اللغويين والنحاة أيضاً، فتعددت توجيهاتهم لها بناءً وإعراباً؛ مبتدأً، وخبراً، ومفعولاً به، وقَسَماً، جملةً لها محل من الإعراب ولا محل لها من الإعراب، ويبدو لي أنّ مردّ عدم الإجماع بينهم على إعرابها وبنائها، متأتٍ من القاعدة التي تنصّ على أنّ الإعراب فرع المعنى، لذلك تعددت مواقفهم منها؛ فتباينت مواقفهم في إعرابها، فوصلت إلى أكثر من خمسة أوجه وردّ بعضهم

---

[1]- الهمذاني: عبد الجبار، متشابه القرآن، 16/1،17، ت/ عدنان محمد زرزور .

[2]- الزمخشري: الكشاف، 30/1 .

رأي بعض فيها، قال الطبري: "وأمّا أهل العربية، فإنّهم اختلفوا في معنى ذلك، فقال بعضهم: هي حروف من حُرُوف المعجم، استُغْنِيَ بذكر ما ذُكر منها في أوائل السور عن ذكر بَواقيها، التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفًا؛ كما استغنى المُخبرُ عمن أخبرَ عنه، أنّه في حروف المعجم الثمانية والعشرين حرفًا بذكر " أ ب ت ث"، عن ذكر بواقي حروفها التي هي تتمة الثمانية والعشرين، قال: ولذلك رُفع (ذَلِكَ الْكِتَابُ)؛ لأنّ معنى الكلام: الألف واللام والميم من الحروف المقطعة، ذلك الكتابُ الذي أنزلته إليك مجموعًا لا ريب فيه... وردّ الطبري هذا الرأي... بقوله: " فكفى دلالة على خطئه، شهادةُ الحجة عليه بالخطأ، مع إبطال قائل ذلك قولَه الذي حكيناه عنه ـ إذ صار إلى البيان عن رفع"ذلك الكتاب" ـ بقوله مرّة إنه مرفوعٌ كلّ واحد منهما بصاحبه، ومرة أخرى أنه مرفوعٌ بالرّاجع من ذكره في قوله: " لا ريب فيه " ومرة بقوله: "هدى للمتقين"، وذلك تركٌ منه لقوله: إن " الم" رافعةٌ " ذلك الكتاب "، وخروجٌ من القول الذي ادّعاه في تأويل" ألم ذلك الكتاب"، وأنّ تأويل ذلك:هذه الحروف ذلك الكتاب "([1]) .

من أوائل النحاة الذين تعرّضوا للحروف المقطّعة سيبويه، فتحدث عنها في باب خاص باسم (فواتح السور)، فذهب إلى أنها أسماء للسور([2]). وقد أورد ابن عاشور ما للغويين وللنحويين من رأي فيها، ومن ذلك قوله:" أنّ هاته الحروف أقسم الله تعالى بها كما أقسم بالقلم، تنويهاً بها لأن مسمياتها تألفت منها أسماء الله تعالى وأصول التخاطب والعلوم قاله الأخفش...وأنّها سِيقَت مساق التهجي مسرودة على نمط التعديد في التهجية، تبكيتاً للمشركين وإيقاظاً لنظرهم، في أنّ هذا الكتاب المتلو عليهم وقد تُحِدّوا بالإتيان بسورة مثله، هو كلام مؤلف من عين حروف كلامهم كأنّه يغريهم بمحاولة المعارضة ويستأنس لأنفسهم بالشروع في ذلك بتهجي الحروف ومعالجة النطق تعريضاً بهم بمعاملتهم معاملة من لم يعرف تقاطيع اللغة، فيلقنها كتهجي الصبيان في أول تعلمهم بالكتّاب حتى يكون عجزهم عن المعارضة بعد هذه

---

[1]– الطبري: جامع البيان:221/1،209.

[2]– سيبويه: أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب: 256/3، ت/ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي– القاهرة ، ط/3، 1408هـ–1988م.

المحاولة عجزاً لا معذرة لهم فيه، وقد ذهب إلى هذا القول المبرد وقطرب والفراء، وقد أخذ الزمخشري بهذا القول كما أخذ به ابن عاشور فقال:" وهذا القول من القوة والخلاقة بالقبول بمنزل"([1])، ومن النحاة من ذهب إلى أنّها حروف تنبيه؛ لتنبيه السامع مثل النداء، وقد ذهب إلى ذلك ثعلب والأخفش وأبو عبيدة، أن الكفار كانوا يُعرضون عن سماع القرآن فقالوا:" لا تسمعوا لهذا القرآن والغَوْا فيه"([2])، فأوردت لهم هذه الحروف ليقبلوا على طلب فهم المراد منها فيقع إليهم ما يتلوها بلا قَصد، قاله قُطرب وهو قريب من قولهم بأنّها للتنبيه، وذكر أبو حيان أنّ قوماً قالوا: " إنّ المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة، نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم، فيستمعون القرآن بعدها فتجب عليهم الحجة "([3]).

أما من حيث موقعها من الإعراب فقد تعددت مواقفهم أيضاً، فمنهم منْ لم يجعل لها محلاً من الإعراب، استناداً إلى تفسيرها بالمتشابه، وجعلها أسماءً للسور، ومنهم منْ جعل لها محلاً من الإعراب فتعددت وجوهه فيها، وقد أورد الزمخشري الوجهين وعلّل لكل منهما، قال:" فإن قلت: هل لهذه الفواتح محل من الإعراب ؟ قلت: نعم لها محل فيمن جعلها أسماء للسور؛ لأنها عنده كسائر الأسماء الأعلام. فإن قلت: ما محلها ؟ قلت: يحتمل الأوجه الثلاثة، إما الرفع: فعلى الابتداء، وإما النصب والجرّ، فلما مرّ من صحة القسم بها وكونها بمنزلة: الله والله على اللغتين. ومن لم يجعلها أسماء للسور، لم يتصوّر أن يكون لها محل في مذهبه، كما لا محل للجمل المبتدأ وللمفردات المعدّدة "([4])، ومنهم من جعلها خبراً على تقدير هذه (الم)، ومفعولاً به بفعل محذوف تقديره اقرأ الم، وقد ذكر أبو حيان هذه الوجوه للمعربين بقوله:" وقد تكلم المعربون على هذه الحروف فقالوا: لم تعرب حروف التهجي لأنها أسماء ما يلفظ، فهي كالأصوات فلا تعرب إلا إذا أخبرت عنها أو عطفتها فإنّك تعربها، ويحتمل محلها الرفع على المبتدأ، أو على إضمار المبتدأ، والنصب بإضمار

---

[1]- الزمخشري: الكشاف، 28/1،29، ابن عاشور: التحرير والتنوير، 58/1 .

[2]- سورة فصلت، الآية:26 .

[3]- أبو حيان: البحر المحيط: 58/1.

[4]- الزمخشري: الكشاف 31/1 .

فعل، والجر على إضمار حرف القسم، هذا إذا جعلناها اسماً للسور، وأما إذا لم تكن اسماً للسور فلا محل لها، لأنّها إذ ذاك كحروف المعجم أوردت مفردة من غير عامل فاقتضت أن تكون مستكنة كأسماء الأعداد، أو ردّتها لمجرد العدد بغير عطف، وقد تكلم النحويون على هذه الحروف على أنها أسماء السور، وتكلموا على ما يمكن إعرابه منها وما لا يمكن ، وعلى ما إذا أعرب فمنه ما يمنع الصرف، ومنه ما لا يمنع الصرف"([1])، وذكر السمين الحلبي الأوجه الستة في إعرابها وهي :الرفع على الابتداء، والخبر ، والنصب على المفعولية بإضمار الفعل، والنصب على القسم بعد حذف فعل القسم ، والجر على حذف حرف القسم أيضاً([2]) .

وقد وقف الزمخشري على الخصائص الدقيقة لهذه الحروف الأربعة عشر بعد حذف المكرر منها فقال:" واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء. وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء ... ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف... ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته"([3]) .

وذهب ابن فارس (329-369هـ)، إلى الأخذ بكل ما قيل فيها قال:" وأقرب القول فِي ذَلِكَ وأجمعه قول بعض علمائنا: إن أولى الأمور أن تُجعل هَذِهِ التأويلات كلّها تأويلاً فيقال: إن الله جلّ وعزّ افتتح السور بهذه الحروف إرادةً منه الدلالة بكل حرف منها عَلَى معان كثيرة لا عَلَى معنىً واحد"([4]).

إنّ أهم نتيجة يمكن أنْ نسجلّها بعد أنْ عرضنا لبعض آراء بعض المفسرين واللغويين والنحاة على اختلاف مذاهبهم، هي أنْ تلك الحروف المقطّعة كانت قاسماً مشتركاً في عدم الإجماع عليها، وإنْ تماثلت قراءات بعضها لدى المتلقين قديماً

---

[1] - أبو حيان : البحر المحيط: 60/1.

[2]- السمين الحلبي: الدر المصون : 81/1 .

[3]- الزمخشري: الكشاف: 29/1، 30. وانظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم،159/1 .

[4]- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، الصاحبي في اللغة، 128، ت/عمر فاروق الطباع، دار المعارف – بيروت،ط/1، 1414هـ-1993م .

وحديثاً، باستثناء منْ وافق منهم الآخر بنصّه على ذلك، فالمتمعن للأقوال أو للمعاني التي تعددت للحروف المقطعة، في مؤلفات المفسرين واللغويين والقرّاء، ربما أدرك أنّ سبب هذا التعدد من وجهة نظر نحو النص، هو عدم تجاوز بعضهم البنية السطحية لهذه الحروف إلى بنيتها العميقة، فمنهم من اكتفى بالدلالة السطحية على مستوى الآية الواحدة، التي شكّلتها الحروف المقطعة، وهو بذلك عمد إلى اجتزاء الآية وعزلها عن الآية الأخيرة من السورة السابقة عليها، ولعلّ من نحا هذا النحو في التعامل مع هذه الحروف، لم يتجاوز أيضاً المستوى الأفقي للآية نفسها، وهذا ينطبق على تعاملهم مع السور ذوات الحروف المقطعة جمعيها، أما منْ قرأ هذه الحروف قراءة عميقة، فقد تعامل معها دلالياً، إذ عثر مفسر أو قارئ أو لغوي على معنى أو أكثر، ربما تأوله أحدهم من خلال تعدد منهجية التحليل وانفتاح النصّ وإمكانية التأويل، لكنّ هذا التعامل ـــ كما يبدوـــ هو تعامل محدود انحصر ضمن نص واحد؛ أي في سورة واحدة، ومنحصر في معنى وحيد أيضاً، إذ لم يتجاوز ذلك المعنى تلك الرقعة، بمعنى عدم ربط دلالة حرف أو أكثر في مطلع سورة منها، مع دلالة حرف أو أكثر في سورة منها أو مع سائر تلك السور، كما أنّ بعض القراءات لهذه الحروف قد عَزَلَتْ دلالة الحرف أو الحروف عن ارتباطها بما بعدها من مدلولات جاءت في نصوص السور نفسها .

2.3.1 الحروف المقطّعة وهذه الدراسة .

ذكر كثير من العلماء القدماء والمحدثين، أنّ هذه الحروف هي حروف هجاء، وهي أربعة عشر حرفاً بعد حذف المكرر منها، فهي إذن نصف حروف الهجاء العربية، مستثنيين برأيهم هذا، حرفَ الألف من هذه الحروف، إذْ إنّ جلّ آراء الدّارسين المحدثين للأصوات العربية تذهب إلى اعتبار الألف حركتي فتح، مؤكدين رأيهم بنتائج علمية من خلال أجهزة صوتية وتشريحية حديثة، وهذه الآراء سبق إليها بطريقة صوتية تجريدية ابن جني(ت/392هـ)، في كتابه سرّ صناعة الإعراب، إذ قال:"إنّك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه، وذلك نحو فتحة عين عمَر، فإنّك إنْ اشبعتها حدثت بعدها ألف فقلت:

عامر"([1])، وباعتبار حرف الألف صوتاً زائداً لعدد الحروف، ليصبح عددها تسعة وعشرين صوتاً، ملفوظاً ومكتوباً على السطر كما تظهره الكتابة الصوتية، فإنّ هذه الزيادة علامة بعددها على عدد السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة، ودالّة أيضاً على عدد الأصوات الهجائية العربية، التي تتفق بالرمز الكتابي المرسوم على السطر حرفاً لا حركة، إذ هو الذي يمثّل ويبرز الجهد المبذول لإنتاج أيّ حرف منها نطقاً، فكما كانت نصف الحروف الهجائية ـــ من غير تكرار حرف منها ـــ علامة دالّة بظاهرها وعددها على عدد الحروف الهجائية العربية التي تكتب على السطر، وعلامة دالّة على جنس المادة اللغوية التي تشكل بنية الكلمات في النصّ القرآني، من عنوانه حتى آخر كلمة منه، فهذه المادة صوتاً منطوقاً ورمزاً مكتوباً وكلمة وجملة ونصوصاً ونصاً؛ تفكيكاً وتركيباً ونظماً وأسلوباً ودلالة وتداولاً، هي المادة اللغوية عينها، التي يتواصل بها العرب، قبل أنْ يظهر من بنية النصّ القرآني بارق لغوي منها، فكانت لغتهم هي لغة التنزيل، التي شُرّفت بنزول النصّ القرآني الكريم بها، فمنْ قال إنها حروف تهجٍ، فقد أصاب ظاهر اللفظ في مستواه الأفقي، إذ إنّ هذا القول لا التأويل، متأتٍ من أول لفظ أوحي به إليه عليه الصلاة والسلام وأمر بتنفيذه وهو (اقرأ)، فهو لفظ من أربعة حروف هجاء هي من واقع اللغة الاستعمالي ورصيدها الثقافي، وحروف هذا الفعل قد جاءت مقطّعة في مستهل كثير من هذه السور، المعروف والمستعمل من قبل المنزل عليه والمبعوث إليهم، وهو متأتٍ ومفهوم أيضاً من أول حرف (ن)، فهذه الأقوال والتأويلات للحروف المقطّعة، لم تتعدّ ظاهر اللفظ، فهي لا تقدّم معنىً في ذاتها أو بتضامّها وترابطها مع غيرها من ألفاظ في الآية التي بعدها، أو بتضامها مع الألفاظ التي شكّلت معها آية واحدة، ولعل المعنى الإشاري الذي نتأوله منْ كونها علامة، أولى من تأويلها بأنها حروف هجاء للسبب السابق، وهذا المعنى الإشاري الذي نتأوله لا يفيد أيضاً في دلالة النصّ، إنمّا يشير بها إلى إعجاز هذا الكتاب سورة وسوراً، وارتباط الحروف المقطّعة بما قبلها

---

[1]ـــ ابن جني، أبو الفتح عثمان: سر صناعة الإعراب، ت/ حسن هنداوي،1985.

أو ارتباطها بما بعدها، إلا بتأويلها بجملة تعدّ بحسب مصطلحات نحو النصّ جملة نواة أو مفتاحاً للنصّ .

أمّا منْ قال إنّها حروف تنبيه جيء بها للفت ذهن النبي عليه السلام إلى ما سيلقيه الوحي إليه، فهو تأويل مردود كما يبدو، فالرسول صلى الله عليه وسلّم متهيئ لتلقى الوحي، بقرينة تعدد أنواع الفواتح الأخرى غير الحروف المقطّعة، إذ لم يثبت تنبيهه بما سيلقى عليه بنصّ صريح إلا في آيتين كما يبدو من ظاهرهما، الأولى: في سورة المزمل قال تعالى:﴿ إنّا سنلقي عليك قولاً ثقيلا﴾([1])، والأخرى: في سورة القيامة،قال تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ*إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ*ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾([2])، فلو كان هذا التأويل ـ كما يبدو ـ قاطعاً عند منْ تأولّه، لكان الافتتاح بها في مستهل كلّ سورة وارداً، فالإشارة إلى أن هذه الحروف هي من باب التنبيه أو النداء أو حروف الخطاب مضارعة لأساليب العرب في افتتاحياتهم .

أمّا من قال أنّها حروف قسم: فالظاهر أنّه استدلّ عليها تأويلاً، بعدّه حرف الواو بعد بعض الحروف الاستهلالية حرف قسم، ويظهر أنّ اعتبار هذه الحروف مشعرة بالقسم ودالة على التنبيه، كان بحسب موقعها وكميتها وأنها حروف خطاب كذلك، وتأويلها على أنها أفعال أمر دال على الخطاب أيضاً.

أمّا من حيث موقع الحروف المقطّعة، فإنّ البناء الذي شُغِلَ به الموضع المتقدم، من أبنية نصوص تسع وعشرين سورة قرآنية، قد مثّله صوتٌ أو أكثر؛ لُفِظُ كلُّ صوتٍ نطقاً ثلاثة مرات، ورُمِزَ لكل منها، بحرف واحد كتابةً، ورُسِمَ أيقونة، ليحقق في كافة ضروبه كلّ ما يتعلق به، فلُفِظَ وكُتِبُ ورُسِمَ ليدلّ، فتحقق له كلّ ذلك بالجهد المبذول لإنتاجه وبالحيّز المكاني الذي احتله، وبالشكل الكتابي الذي رُسِم له، وبالفاصلة التي شكلّها هو وحده أو مع غيره من الألفاظ، وبدلالته تعالقاً وترابطاً مع ما بعده أو مع ما قبله من ألفاظ وتراكيب، في أبنية السورة الواحدة أفقياً وعمودياً،

---

[1]- سورة المزمل: الآية/ 5.

[2]- سورة: القيامة ،الآيات (16-19).

وفي أبنية نصّ السور كلّها، فهذا البناء (الدّال) الصوتي اللفظـي الكتـابي، الـذي افتُتِحَت به سور النصّ ففاق غيره من النصوص كماً وكيفاً، لبراعة نصيّة، برعـت بها تسعٌ وعشرون سورة قرآنية، شَهِدَت لها بها ألفاظها وتراكيبها بنظمها وتماسكها، استهلالاً فريداً متفرداً أسلوباً؛ بحرف وحرفين وثلاثة حـروف وأربعـة حـروف وخمسة حروف، فشكّل بعضها الآيةَ الأولى من السورة، وانضم بعضها مع ما بعدها من كلمات في تشكيلها، وشكّل بعضها آيتين متقدمتين من السورة أيضاً، وتضارعت الألفاظ التي تلت الحروف المقطّعة في هذه السور مع بعـضها بعـضاً، تـضارعاً متماثلاً في غالب تراكيبها نظماً ودلالة، ومختلفاً بتنوعه وتعدده، كماً وكيفاً وشـكلاً ونطقاً وكتابة وصفة ومخرجاً وقراءة، لتشكل مع خمس وثمانين سورة قرآنية النصّ القرآني الكامل الظاهر المعلن المنفتح المتواصل المستمر المتماسك .

وإذا ما كان للفظ اللغوي وضروب إنتاجه بأشكالها المرسومة المتنوعة، دلالات ذاتية يجود بها أيّ ضرب من ضروبه مع شكل منها، فإنّه هو الدافع للتفكير بدلالـة من شكله المرسوم؛ إذ اللفظ باعتباره كلمةً أو كلمات، إنما هو معقل الفكـر الـذي يحتضن جماً غنياً من الدلالات؛ رمزاً مرسوماً أو صوتاً منطوقاً أو علامة أو تركيباً أو سياقاً، فما تعدّد القراءات للحروف المقطّعة منذ نزول النصّ القرآني إلـى الآن، إلا دليلٌ على اكتنازها هذا الجمّ من الدلالات بنوعيها اللفظية وغير اللفظية، وفي هذا السياق الدلالي لهذه الحروف التي ذكرناها لقرّاء النصّ القرآني، قال لطفـي عبـد البديع:" فالكلمات " معاقل الفكر، والفكر لا يبحث عن التغيير؛ لأنّ للكلمة قدرة ذاتية على الدلالة؛ وعلى اللفظة والعبارة ينعقد وجودُ الفِكْر في العالم المحـسوس، وهمـا بمثابة شِعاره وجسده؛ وقد صَحّ وجود ما يعرف عند النفسيين بالتصوُّر اللغـوي، أو التطور اللفظي الذي يشبه أن يكون تجربة داخلية مركزية، أخص خصائصها كونها لفظية يصير بها الصوت المسوع حقيقة من حقائق اللغة." فاللفظ لا ينفـصل عـن المعنى، والدلالة لا تَنعزِل عن الدّالّ؛ لأنّ تعقُّل المعاني قلَّما ينفَكُّ عن تخيُّل الألفاظ، وكأن المفكر في المعاني يُناجي نفسَه بألفاظ مخيّلة، ولو أراد تجريدها عنـه أشْـكلِ

عليه الأمر"([1])، وفي سياق التحليل الفنمنولوجي المتعدد للفظ؛ لفظاً وموقعاً وخطّاً ورسماً، يشير لطفي عبد البديع أيضاً إلى الوجوه التي يكشفها التحليل الفنمنولوجيّ للدلالة والكلام بقوله:" فالتحليل الفنمنولوجيّ للدلالة والكلام يكشف عن وجوه معقّدة من العلاقات تتداخل معها أطرافُ الكلام، بحيث لا تقتصر وظائف اللغة على كونها طاقات للعلامة اللغوية المحسوسة، وإنّما تصيّر قوى لوحدة كبرى تحتضن التعبير والتمثيل والنداء جميعاً، وتضم القائل والمخاطَب"([2]).

لقد أولى علماء النصّ الجملة الأولى عناية واهتماماً كبيرين في التحليل، فهي مفتاح النص أو بابه، ولقد ذكر حازم القرطاجني في منهاج البلغاء ما نصّه: "واعتنوا باستفتاحات الفصول واجتهدوا في أن يهيئوها بهيئات تحسن بها مواقعها في النفوس، وتوقظ نشاطها لتلقى ما يتبعها وما بها، وصدَّروها بالأقاويل الدالة على الهيئات، التي من شأن النفوس أن تتهيأ بها عند الانفعالات والتأثرات لأمور سارة أو فاجعة أو شاجية بحسب ما يليق من غرض الكلام من ذلك "([3])، فهل الاهتمام باستفتاح النصّ، نابع من أهمية الاستهلال وأثره في دلالة النصّ، استناداً إلى عبء المعنى التراكمي الذي تنهض به الجملة الأولى من النصّ ؟ فكان للفظ ـ نطقاً وكتابة واستهلالاً وتداولاً ـ دور نحوي وظيفي، أدّاه بموقعه وببنيته التركيبية وما تكتنزه حروفه من دلالات لفظية وغير لفظية، على الوجه الذي تقرّه نظرية نحو النصّ، أم أنّ الأمر مقتصر على موضع اللفظ دون المعنى النحوي الوظيفي، فيكون الدور للموقع وحده ـ وهو مشغول باللفظ ـ أهمية نظمية أسلوبية إعجازية، أم أنّ اللفظ؛ موضعاً ونظماً ومعنىً، متكاتف لتحقيق المعنى الذي تخلل بنى النصّ؛ حرفاً وكلمة وجملة وفقرات، كتلك الفطرة التي فطرها الجرجاني في دلائله، فكان النظم

---

[1]– عبد البديع: لطفي، التركيب اللغوي للأدب/ بحث في فلسفة اللُّغة والاستِّطيقيا: 50، الشركة المصرية العالمية للنشر– لونجمن، 1997، مكتبة لبنان/ناشرون. وما بين علامتي التنصيص من الاقتباس نقلها عن المرجع نفسه وهو لـ(السيّد علي من كتابه: شرح مطالع الأنوار/ص84 .

[2]– المرجع نفسه:50.

[3]- القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء ص296.

عنده هو مناط الإعجاز، فتمثّل النظم وتحقق في دلائل الإعجاز، عبر موضوعات تحدثّ عنها الجرجاني في كتابه، فمنها الوصل والفصل، والتكرار، والحذف، والتقديم والتأخير، والحصر، كما تحدث عن الوظائف والعلاقات النحوية، أو التي عُرفت بمعاني النحو، من خلال علاقة الإسناد والفعل والمفعول به، كما ألمح إلى المستوى التداولي، من خلال ردّه على من قالوا بـ (الصرّفة)([1]) .

وفي ضوء المستوى التداولي، فإنّ المتلقي الثاني بحكم معرفته للعوالم وللمعارف اللغوية الاستعمالية والاجتماعية، التي جاء بها النصّ لئلا تكون حجة للمتلقي في عدم تواصله، فلا مندوحة للمتلقي عن التواصل، فالمعارف والخبرات والسياق، هي عوالم يدرك المتلقي قيمتها في النصّ وما ترمز إليه، وإنْ كان لا يرتقي في إدراكها ومعرفتها إلى مستوى الإدراك والمعرفة الكليّة الشاملة لها، إذ لو كان ذلك لما تعددت القراءات عند قارئ واحد أو عند قرّاء كُثر، تنبئ وتؤكد على انفتاح النصّ وإمكانية التأويل فيه، مما يدلّ على وجود سلطة للنصّ تتعالى على سلطة المتلقي وإنْ ارتقت مرتقىً عالياً، ومع تعالي سلطة النصّ فإنّ النصّ لا يمنع المتلقي من أنْ يتفاعل معه، بل إنّ التأويل الذي يمارسه المتلقي، هو منحه من النصّ للمتلقي تشجّعه على تفاعله مع النصّ واستمرار العملية التواصلية، ويعضد هذا التفاعل والتواصل، معرفة العوالم عند باث النصّ المُبَلِّغ له وعند متلقيّه، وهذه العوالم تمثلها التداولية التي تشكل رصيداً مشتركاً بين أطراف العملية الاتصالية الثلاثة:1- البّاث (جبريل عليه السلام)، 2-النصّ الظاهر المكتوب (القرآن الكريم)، 3- (المتلقي الأول، الرسول عليه الصلاة والسلام)، ومن ثمّ يتحول المتلقي الأول إلى 1- مُرْسِل، 2- الرسالة (القرآن الكريم)، 3- (المتلقي: العرب)، فأركان العملية التواصلية مكتملة في الحالتين .

لقد استمرت هذه الإستراتيجية في الاستهلال بالحروف المقطّعة، خلال الفترة التي قضاها عليه الصلاة والسلام والوحي يتنزل عليه في مكة، وكانت هذه الإستراتيجية مستمرة في افتتاحية نص هذه السور وهي تتنزل تباعاً لبعضها، ولقد

---

[1]- الجرجاني: دلائل الاعجاز/ 611وما بعدها.

غُيّرت هذه الإستراتيجية في افتتاحية سور مكية أخرى لمقام ما، لكن ما يلفت الانتباه هو توالي سور عرفت باسم الحواميم وهي الأكثر إذ جاءت متوالية وقد استهلت بحرفين وقعا نفسهما (حم) في بدايتها، ثم الأقل منها وهي ما سميت بالطواسين، طسم، ثم قسم من السور المكية والمدنية بدأت بـ (الم)، و(الـر)، كما تميزت مجموعة (الر) بأنها سمت بأسماء عدد من الرسل عليهم السلام ما عدا سورة الحجر،س وقد وضحنا ذلك في موضعه من الدراسة .

وبالنظر إلى الحروف المقطعّة في أوائل السور من جانب سيميائي ـ ومن غير جزم في دلالتها على الإطلاق، وفي ضوء نظرية نحو النص وحريته واستفادته من سائر العلوم، وما يقدمه النصّ سابقاً أو لاحقاً من معنى يعضد موقفنا من الحروف المقطعة ـ يظهر أنّ التعامل معها من حيث هي علامات، هو الأجدر أولاً في الوقوف على ما ترمز أو تشير إليه أو تلمح أو تصرّح به، من معنى أو معان متعددة، قد نرصدها علامة وتأويلاً من تلك المعاني التي يرتبط بنسبة منها معنى أو أكثر من المعاني المتأولة؛ بنية أو تراكيباً أو سياقاً ـ لفظاً أو معنىً، والنظريات الحديثة التي أحسنت صنعاً في اعتماد هذه العلامات خدمة للمستوى الدلالي، قد فتحت الباب من جديد للمتلقي، علماً بأنّ النصّ القرآني لم يكن من قبل موصداً أما م المتلقي لئلا يتواصل معه على مرور الزمان وتغيّر المكان وتعدد المعارف وتنوعها، فهو نصّ مستمر متواصل مفتوح، أتاحت سلطته وسلطة متلقيه وباثه، الحرية للمتلقي بالتأويل، لكنه لم ولن يكتفي بتأويله مُحللٌ مُؤَوِّلٌ له، وإنْ ظنّ تأويله قولاً فصلاً فيه، ولا سيما في تأويل الحروف المقطعّة، إلا في حدود ما يقع عليه من معنى لها، أيّ من غير المعاني الأولية أو السطحية، فهيهات أن يجد ذاك المُحَـلِّلُ ما يغبطه من لّذة النصّ، فتلك سلطة النصّ وفضاؤه الواسع على امتداد مستوييه الأفقي والرأسي، قال الله تعالى:"ما نفدت كلمات الله "، وفي سياق هذه اللذة يصرّح (بارت) قائلاً:إنّ لذّة الجملة لذّة ثقافية جداً، وإنّ هذه الصناعة التي ابتدعها البلاغيون، والقواعديون، واللسانيون، والأساتذة، والكتاب، والأدباء، إنّ هذه الصناعة لتقوم على الإيماء بشكل يشبه اللعب إلى حد ما، قد نلعب بشيء استثنائي، وتكون اللسانيات قد أشارت إلى موضع المفارقة فيه جيداً: إنه مبني بتغيير، ومع

ذلك، فإنّه متجدد إلى ما لا نهاية: إنّه شيء يشبه لعبة الشطرنج. اللهم إلا إذا كانت الجملة جسداً بالنسبة إلى بعض المنحرفين؟ ... ومع ذلك فإنّ مكان اللذّة في نظرية النصّ ليس مؤكداً، ولكن سيأتي يوم، نشعر فيه بضرورة الإسراع بفتح النظرية قليلاً، وينقل الخطاب، واللهجة التي تتكرّر، وتتقوّى، لنعطيها هزّة السؤال، ألا إنّ اللذّة هي هذا السؤال، غير أنّ اللذّة، لأنّها اسم بذيء وسافل (من ذا الذي يقول عن نفسه اليوم إنه شهواني من غير ضحك؟)، ألا تستطيع أن تعيق عودة النصّ إلى الأخلاق، وإلى الحقيقة: أعني إلى أخلاق الحقيقة، إنّ هذا لأمر غير مباشر، إنّه " انزلاقي "إذا جاز القول، وإنّ نظرية النصّ، من غيره، ستعود كما كانت: نظماً مركزياً، وفلسفة المعنى...إنّ لذّة النصّ، هي إنها القيمة المنتقلة إلى قيمة الدال الفاخر"([1]) .

فهذه الحروف ذوات قيم تعبيرية هائلة، دع عنك الألفاظ المتكررة على امتداد النصّ، معنىً معجمياً وتركيبياً وسياقياً، ومن غير أنْ تلحظ تعارضاً أو شططاً بين معنى وآخر، فعندما تتكرر القصة، نجد النصّ يأخذنا إلى تركيب جديد في كل مرة، يتحدث عنها من خلال جوانب متعددة، مراعاة للمتلقي تنشيطاً واستدراجاً من جهة، فإذا بنا نقف على الدّلالة نفسها في كل تركيب طال أم قصر من زاوية أخرى، وإيحاءً وإشارةً إلى إعجازه؛ لأنّ يراعى هذا الأسلوب من جهة ثانية، أوليس الأسلوب إذن علامة؟!، فما علاقة آيات التحدي بنوعية الاستهلال؟ وما علاقة أصوات الهمزة واللام والميم ــ صفة ومخرجاً ــ بتلك الآيات وعلاقة سائر هذه الحروف كذلك، وما علاقة مسألة النصفية لهذه الحروف بعد حذف المكرر منها ؟ وما علاقة كل ذلك مع قوله تعالى:" ما نفدت كلمات الله "([2])، وما علاقة كلّ ذلك مع لفظة (كلّ العمومية وما المصدرية)؟، فالإحاطة والشمول التي تنبئ عنهما هذه الآية وهاتان اللفظتان، تنسجمان مع ما تضمنته هذه الحروف بقيمها التعبيرية والدلالية الهائلة، وما علاقة " لا ريب فيه" بالصراط المستقيم وبالألف واللام والميم؟! ألا

---

[1]- بارت: رولان، لذّة النص، ،90،91، 110،111، ترجمة: منذر عياشي، دار لوسي ــ باريس، 1992 .

[2]- سورة لقمان: الآية/27.

يميل ويعوج الإنسان في كلامه، وما نتيجة من يميل عن الحق ونهايته، إذا ما أدرك المتكلم والمخاطب، أنّ السياق والمقام يقتضي أنْ يقول المتكلم الحق وهو يقصده، فيفهمه المخاطب كما أراده المتكلم، من غير تأويل لا يقره المخاطب والمتكلم، ولا تقرّه معارف وخبرات الطرفين؛ المرسِل والمتلقي، وأنْ يدرك المتكلم أيضاً بأنّ المخاطب يعرف الحق والقصد، ولا يقرّ غيرهما كما لا تقرّ العوالم الدالّة (الآيات: الكون ونظامه)، غير ما أقرّه المخاطب، فلا مندوحة لطرفي عملية التواصل – بفعل النصّ وحده؛ سلطته ولغته وسياقه وعوالمه ومبلّغه ودلائله وبراهينه وتحديه، غير التسليم لقصديّة النصّ وصدقه واستقامته، فلا مجال للشك وللريب فيه، فقد أخضع المتلقي لسلطته مبكراً، ولو أعطاه حرية التأويل في ظلها، فأكد على هذه السلطة وفاعليتها الديناميكية في فضائه الواسع المنفتح، إذ نجد النصّ يذكر: خلق الإنسان منذ البداية ، فمن يخلقه ومن يميته ومن يبعثه ومنْ يحاسبه، ومنْ يقدر على أنْ يحدث شيئاً مضاداً أو مغايراً غير ما هو ثابت، من شأنه التغيير في خلقه أو يؤجل لحظة من حياته أو أنْ لا يبعثه ليحاسبه، ومنْ يقدر على أنْ يحدث في حياته ورزقه غير ما هو مكتوب ومقرر له.

الفصل الثاني

التحليل النصيّ لسورة البقرة والسور ذوات الحروف المقطعة (الـم، المص)

1.2 سورة البقرة

1.1.2 نصّ السورة ونحو النصّ:

تعمد هذه الدراسة إلى دراسة نص سورة البقرة دراسة مستقلة عن سائر نصوص السور ذوات الحروف المقطّعة الأخرى، بوصفها نصّاً منجزاً ذا وحدة كليّة كبرى، شكلتها بنيتا النصّ الصغرى والكبرى، متمثلتان في جمل (آيات) تعالقت مع بعضها بعض، في مستواها النصّ الأفقي (الخطي)، وتعالقت فيما بينها بروابط ملفوظة أو مقدرة، يكشف عنها تحليل النصّ، في مستوى النصّ العمودي أو الرأسي، ومن ثمّ عدّت جميع هذه السور نصاً منجزاً ذا وحدة موضوعية كبرى، تعالقت هذه السور فيما بينها، بقواعد وقوانين نحوية ودلالية وتداولية قابلة للتغيرّ الكيفي، فشكلّت بهذا التعالق والتواصل والترابط ما أطلق عليه مصطلح (الآجرومية) بحسب مصطلحات نحو النص، وهي:" الوحدة الأساسية الموسّعة للوصف النحوي،، المتضمنة قواعد كليّة تحكم بنية المعنى الكلّي للنصّ وتحدد معناه، وهي وحدة لا تستوجب تحولاً كمياً في المعايير ـــ كما يظن ذلك لأول وهلة من لفظة موسّعة ـــ بل إلى تغيّر كيفي ديناميكي، وهذا التغير الكيفي الحرّ عند (فندايك)، المنضبط بقوانين الدلالة الدينامية، والقواعد العرفية القابلة للتغير أيضاً، قد تحقق بكلّ وضوح في تعدد القراءات للحروف المقطّعة؛ إذْ لمّا كان الانصراف متجهاً إلى تحديد المعنى الكلي للنصّ، من خلال قوانين الدلالة الدينامية، فلم تعرْ الدلالة الكليّة للنصّ مجموع المعاني الجزئيّة للجمل التي تكونه، فتجاوزتها إلى النظام العام الذي يحكم حركة النصّ"([1])، أيّ أنّ الاهتمام انصب إلى الدلالة الكليّة الكبرى؛ أي (معنى النص)، التي تضمنتها الحروف المقطّعة، لكنّها لم تظهر في الشكل الهيكلي التجريدي

---

[1]– بحيري:علم لغة النص، 218 .

للحروف، بل من خلال المقابلة بين مفهومي بنى النصّ الصغرى وبنى النصّ الكبرى، التي شكّلت ـ بقطع النظر عن كميتهما ـ البنية الكلية الكبرى للنصّ، بمعنى أدق رصد الدلالات المتعالقة في البنيتين على امتداد النصّ أفقياً وراسياً.

تجمع كتب التفاسير على أنّ سورة البقرة، هي أول سورة نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المدينة، لذلك اكتسبت صفتها المكانية تلك من المدينة (يثرب) فسمّيت سورة مدنية، كما اكتسبت السور المكية صفتها من نزولها في مكة، وهذا الرأي هو الرأي الراجح عند أغلب المفسرين، بقطع النظر عن بعض الآيات التي نزلت بمكة ووضعت ـ توقيفاً ـ في سورة مدنية، أو التي نزلت بالمدنية ووضعت في سورة مكية، وقد أفاضت كتب التفسير وعلوم القرآن قديمها وحديثها، بالحديث عن القرآن المكي والمدني والفصل بينهما من خلال عدة معايير وخصائص، إذ جزم أحد مصنّفيها بعدم البت في معرفة المكي من المدني([1]) .

إنّ ما يهمّنا هو معرفة الموضوعات التي اهتمت بها السور القرآنية ذوات الحروف المقطعة، وهي كلّها مكيّة ما خلا ثلاث سور، هي سورة البقرة وآل عمران والرعد، ويهمّنا كذلك معرفة ما إذا كان حدث تغيّر في أسلوب النص القرآني بعد الهجرة من مكة إلى المدينة، سواء أكان تغيراً كيفياً في مضمون السور التي استهلت بحروف مقطعة، أم كان تغيّراً كمياً في عدد آيات السورة المدنية، والوقوف مع هذا التغير ـ إن ثبت في ركنيه الكمي والكيفي أو في أحدهما ـ على الوحدة الموضوعية للسور ذوات الحروف المقطّعة؛ لمعرفة إذا ما كان النص القرآني، قد أبقى على وجودها قاسماً مشتركاً بين النصين المكي والمدني أم لا، وذلك من خلال رصد العلاقة الموضوعية بين السور المكية والمدنية، ومن خلال معرفة التراكيب المحورية التي تماثلت في تلك السور، والوقوف على مسألة التماثل بينها، بسبب استهلال النصين بالحروف المقطّعة، بعدّه قيداً لهما، وتحييد القيدين الزماني والمكاني، أو اعتبار قيمة للقيدين معاً أو قيداً منهما، في تماثل النصين؛ إذ نجد من جعل الاستهلال بالحروف المقطّعة الثلاثة (الم)، التي استهلت بها سورة

---

[1]- أبو زيد ، نصر حامد: مفهوم النص ؛ دراسة في علوم القرآن ،75 وما بعدها .

البقرة، سبباً لقرب زمن الهجرة من مكة إلى المدينة، كما جاء عند ابن عاشور في تفسيره (التحرير والتنوير)، وهو يتحدث عن معاني الحروف المقطّعة في القول الرابع عشر بقوله:"...ووجه تخصيص بعض تلك الحروف بالتهجي دون بعض، وتكرير بعضها لأمر لا نعلمه، ولعلّه لمراعاة فصاحة الكلام، ويؤيده أن معظم مواقع هذه الحروف في أوائل السور المكية عدا البقرة وآل عمران؛ لأنهما نزلتا بقرب عهد الهجرة من مكة وأن قصد التحدي في القرآن النازل بمكة قصد أولي، ويؤيده أيضاً الحروف التي أسماؤها مختومة بألف ممدودة مثل الياء والهاء والراء والطاء والحاء، قرئت فواتح السور مقصودة على الطريقة التي يتهجى بها للصبيان في الكتّاب طلباً للخفة"([1])، والتأكيد على أن بدء النزول بالقرآن خارج مكة، هو نفسه كما كان في مكة، وذلك باعتبار أن أول سورة استهلت بحرف مقطع هي سورة القلم وهي مكية، لذا كانت موجهة من حيث استهلالها وموضوعها ومناسبتها إلى العرب، ولا سيما المشركون الذي قالوا بجنون النبي عليه السلام من جهة، فبدأت بهذا النوع من الاستهلال، تثبيتا له عليه الصلاة السلام من جهة أخرى، لكن الإشارة إلى هذا التثبيت جاءت في الآية الثالثة لا في السابقتين عليها، فاقتضى النظم إعجازاً وتواصلاً وتذكيراً ولفتاً، إلى أن يتماثل أول نصّ مدني موّجّه في بيئة جديدة، فيها يهود ومشركون مع أول نص مكي بدأ بحرف مقطع، أم أنّ الاعتبار كان منصباً على آخر سورة نزلت في مكة ـ بقطع النظر عن الاختلاف حولها ـ الروم أو العنكبوت فكلتاهما استهلت بحروف مقطعة وماثلتا سورة البقرة في استهلالهما، فالسور القرآنية: البقرة والروم والعنكبوت بدأت بـ (الم)، وقبل تلك السور بدأت سورة لقمان والسجدة بـ (الم) وهما سورتان مكيتان، ثم نزلت سورة آل عمران في المرتبة الثالثة من السور المدنية بعد سورة الأنفال وماثلت سورة البقرة فبدأت بـ (الم)، ثم نزلت سورة الرعد وهي السورة العاشرة في ترتيب نزول للقرآن الذي بالمدنية، وهي خاتمة السور ذوات الحروف المقطعة، وبدأت بـ (المر)، أم أنّ الاعتبار كان لأول ما نزل في مكة من هذه السور ذوات الحروف

---

[1]- ابن عاشور: التحرير والتنوير، 213/1 .

المقطعة وهي سورة (القلم)، ولآخر سورتين من القرآن المكي (الروم والعنكبوت) أيضاً؛ ليكون الاستهلال إشارة وإيحاءً إلى كتاب واحد متماسك مترابط متواصل في نصّيه المكي والمدني، سواء أكان نزوله في مكة متقدماً أم متأخراً، أم كان نزوله في المدينة متقدماً أم متأخراً أيضاً، وسنقف على هذا التماسك والترابط والتواصل بين المكي والمدني، من خلال سورة البقرة وغيرها من السور ذوات الحروف المقطعة، ونحن نحلّلها تحليلاً نحوياً نصياً يشترط هذا التماسك ويهدف إليه .

2.1.2 المناسبة بين عنوان السورة ومضمونها:

لم تغب المناسبة عن بال العرب القدماء الذين درسوا النص القرآني، تفسيرا وعلوما ولغة وأدباً، فأدركوا أهميتها وعرفوا أثرها في النصّ، سواء أكان هذا التناسب بين عنوان السورة ومضمونها بشكل عام، أم بين العنوان وقصة أو أكثر في النصّ، وعدّ النصيّون المحدثون المناسبة عنصراً مهماً من عناصر التماسك النصي، باعتبارها رابطاً دلالياً يحيل إلى العنوان إحالة قبلية ويحيل إليها هو إحالة بعدية، أو رابطاً بين العنوان وحدث أو أكثر، فيه معنى من المعاني التي دلّ عليه أو أشار إليه العنوان، فيحيلان (العنوان والمعنى) إلى بعضهما إحالة قبلية وبعدية .

إنّ أول عنصر من عناصر التماسك النصيّ في سورة البقرة، هو المناسبة لفظاً ومعنىً، بين اسم السورة أو عنوانها وبين إمكانية الإحالة إليه، إحالة بعدية له (لاحقة) في بنية النصّ وإحالة قبلية إليه، بما تضمنه النص من ألفاظ ومعان تحقق هذه الإحالات، ولقد عنونت السورة باسم (البقرة)؛ معرفاً بالألف واللام مفرداً مؤنثاً، وورد هذا الاسم أكثر من مرة في متن السورة، إلا أنه جاء في كلّ مرة تكرّر فيها نكرة مفرداً مؤنثاً بلفظه، وأحيلتْ إليه ضمائر متعددة قبلية وبعدية، فقارب لفظ (بقرة) والإحالة إليه أكثر من ثلاث عشرة مرّة، فورد ذكر البقرة بضروب لغوية شتّى؛ ألفاظاً مفردة ومركبة إحدى عشرة مرة، وذُكِرَ مرّة واحدة معرفاً وبصيغة الجمع (البقر)، لكنّه تعريف يدل على مطلق الجمع والجنس، وقد جاء في الآية قبل الأخيرة من الفقرة التي شكّلها مجموع الآيات التي عرضت لقصة البقرة، وهذه

الآيات هي قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾([1]) .

واستناداً إلى الدلالة المعجمية لهذه الحروف ودلالتي (التضمن والالتزام) الذهنيتين التي اتكأ عليهما النصيّون في ترابط النصّ وتماسكه، فإنّ عنوان السورة باسم (البقرة)، الحيوان المعروف، اقتضى حضورها في النصّ بصورة واضحة معروفة معرّفة، كما أنبأ عن هذا التعريف أداته التي سبقت لفظة (بقرة)، وقد أوجدتها مجموعة من الآيات القاطعة بوصفها تعريفاً وتمييزاً لها عن غيرها من البقر، لتنضم مع غيرها من الآيات في بنية النصّ، في التأكيد على الموضوعات المحورية التي تحدثت عنها سورة البقرة، إذ إنّ الإحياء للميت تأكيد على حقيقة البعث وعلى علم الله ، ومنه كيفية البعث وكيفية الحياة وكيفية الإماتة للميت، كما أنّ إظهار ما كتمه قوم موسى فأخرجه سبحانه وتعالى، تأكيد على علم الله الذي لم يُحط بشيء منه أحد من الخلق إلا بمشيئته سبحانه، العلم الذي أحاط بما كتمه الإنسان أو بما أسّره، تحدثت به نفسه أو وسوست، فأخرجه عزّ وجلّ ظاهراً سواء أكان المكتوم قد مضى زمنه أم ما زال، تعالياً للنصّ القرآني على الزمان والمكان قال تعالى: ﴿والله مخرجِ ما كنتم تكتمون﴾([2]) .

3.1.2 التحليل النصي لعنوان السورة بعد تفكيكه:

لرصد عناصر التماسك النصيّ في هذه السورة، وربط العنوان بنصّ السورة دلالياً، فلا بدّ من تفكيك العنوان نفسه والوقوف معه وقفة تحليلية نصيّة، إذ أشرنا فيما سبق إلى أهمية العنوان في التحليل النصي، وكذلك دور الجملة الأولى التي عدّها كثير من علماء النص بأنّها هي مفتاحه، ولقد أشار القدماء إلى دور البدايات الاستهلالية وأهميتها في النثر والشعر، وأطلقوا على هذه البدايات مصطلحاً عرف بـ (براعة الاستهلال)، وقدّ عرّف الجرجاني هذا المصلح في تعريفاته بقوله:"هي أن يشير المصنف في ابتداء تأليفه، قبل الشروع في المسائل، بعبارة تدل على

---

[1]– سورة البقرة: الاية/ 67، وانظر: الآيات (68–74).

[2]– سورة البقرة : الآية/72 .

المرتب عليه إجمالاً، وهي كون ابتداء الكلام مناسباً للمقصود، وهي تقع في ديباجات الكتب كثيراً."([1])، وذكر حازم القرطاجني في منهاج البلغاء ما نصّه: "واعتنوا باستفتاحات الفصول واجتهدوا في أنّ يهيئوها بهيئات تحسن بها مواقعها في النفوس، وتوقظ نشاطها لتلقى ما يتبعها وما بها، وصدّروها بالأقاويل الدّالة على الهيئات، التي من شأن النفوس أن تتهيأ بها عند الانفعالات والتأثرات، لأمور سارة أو فاجعة أو شاجية، بحسب ما يليق من غرض الكلام من ذلك "([2])، ولا أريد أن أسهب في الحديث عن أسماء السور القرآنية، من حيث القول إنها توقيفية أو توفيقية وذكر الآراء التي قيلت فيها، إذ إن هذا الموضوع ليس من غاية هذه الدراسة بالمقام الأول، لذا فإنني أذهب مع الرأي ـ وهو الراجح ـ القائل بأنها توقيفية، لكن لا بد ـ وخضوعاً لمنهج نحو النصّ ـ من الوقوف على اسم السورة لمعرفة ارتباطه بالنص بشكل عام، ومعرفة الدلالة التي يحملها هذا العنوان سواء أكانت تلك الدلالة جزئية أم عامة، أي الوقوف على المعاني الجزئية التي يحملها العنوان، وربطها بدلالة بعض الألفاظ لفظاً أو معنىً، أو بدلالة آية أو فقرة في بنيتي النص الأفقية أو العمودية، وللوصول إلى هذه الغاية، فأول إجراء لتحليل النصّ، هو تفكيك العنوان إلى أصغر وحداته الفونيمية والموروفيمية، ومن ثَمّ إعادة بنيته التي كان عليها قبل تفكيكه؛ وذلك بقصد رصد أيّ معنى اُكْتنِزَ في فونيماته ومورفيماته؛ ألفاظه أو جمله أو فقراته أو من خلال السياق العام للنصّ .

شكّل عنوان السورة (البقرة) بمكوناته، الصوتية والصرفية، والفعلية المجرّدة، من أل التعريف وهاء التأنيث، مورفيماً يدلّ على حيوان أليف مؤنث مفرد، مكّون من مورفيم: أل التعريف، وفونيم الباء، والقاف، والراء، وتاء التأنيث، ويتبع كل فونيم (حركة)، وكوّن مورفيم (أل) التعريف مع الفونيمات والألفونات مجتمعة أربعة

---

[1]- الجرجاني: علي بن محمد بن علي الجرجاني (740ـ 816هـ) ، التعريفات: 63، دار الريان للتراث، ت/ إبراهيم الأبياري، 1403هـ .

[2] - القرطاجني: منهاج البلغاء ص296.

مقاطع صوتية عند الوقف على تاء التأنيث وهي على الشكل التالي:

أل بَ ، قَ ، رَةْ

ص ح ص ص ح ، ص ح ، ص ح ص

إنّ أهم ما نتكئ عليه من العنوان، هو الوقوف بالتحليل على البنية المكونة لـه؛ صوتاً وصرفاً ونحواً ودلالة، وهي (أل التعريف) والفعل (بَقَـرَ) وتقلباتـه الـستة وأبنيتها الثلاثية ومزيدها بالمقام الأول، بعد أخذه من العنوان الذي فككنـاه، وربـط معاني هذا الفعل ومعاني متقلباته ومزيدها، بما في النصّ من معان وأحداث زمانـاً ومكاناً ومناسبة، وربط تلك المعاني مع المعنى المناسب للحروف المقطعة (ألـم) التي استهلت بها سورة البقرة، وربطه مع قصة البقرة التي سميت السورة باسمها.

ـ (أل التعريف): لقد أدّت (أل التعريف) وظيفة تصريفية بحتة، وهي نقل الاسم من حالة التنكير إلى التعريف، كما أدّت إلى تخصيص بقرة من بين البقر الـذي تـشابه على بني إسرائيل بحسب زعمهم، والهاء دلّت على المفرد منه ، وبهذا التخـصيص تعد (أل) التعريفية عنصر إحالة أفاد التعريف لا التنكير، فهو يحيل إحالـة بعديـة متطابقة، إلى البقرة التي خصصت بالوصف في الآيات التي تحدثت عنهـا، وهـي بهذه الإحالة أغنت عن اسم إشارة يحيل الإحالة نفسها التي أحالتها، إذ يمكن تـأول اسم الإشارة بجملة: هذه البقرة، أو هذه بقرة بني إسرائيل، ومن المفسرين منْ يؤوّل جملة لعنوان كل سورة يذكر فيها حدثاً بارزاً، فيقولون: السورة التـي تـذكر فيهـا البقرة ...الخ، وقد أعمل ابن القيم دلالة الإشارة في (مصدقاً) من قول الله تعـالى:" وهو الحق مصدقاً "([1])، ومن قوله تعالى: " والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه "([2])، وأنبأ عن الإشارة الألف واللام فقال:"... وهو أنْ يكـون مصدقاً ههنا حالاً يعمل فيها ما دلّت عليه الإشارة المنبئة عنها الألـف والـلام؛ لأنّ الألف واللام قد تنبئ عما تنبئ عنه أسماء الإشارة، وحكى سـيبويه: لمـن الـدار مفتوحاً بابها ، فقولك: مفتوحاً بابها حال لا يعمل فيها الاستقرار الـذي يتعلـق بـه

---

[1]- سورة البقرة: الآية 91.

[2]- سورة فاطر: الآية:31.

(لمن)؛ لأنّ ذلك خلاف المعنى المقصود، وتصحيح المعنى، لمن هذا الدار مفتوحاً بابها، فقد استغنى بذكر الألف اللام وعلم المخاط ب أنه مشير، وتنبه المخاطب بالإشارة إلى النظر، وصار ذلك المعنى المنبه عليه عاملاً في الحال، وكذلك قوله:" هو الحق مصدقاً "، كأنه يقول: ذلك هو الحق مصدقاً، لأنّ الحق قديم ومعروف بالعقول والكتب المتقدمة...ومما أغنت فيه الألف واللام عن الإشارة قولهم: اليوم قمت، والساعة جئت، والليلة فعلت، والآن قعدت، اكتفيت بالألف واللام عن أسماء الإشارة "([1]).

فمن خلال ما سبق يتبين لنا أهمية التعريف والتنكير وأثرها في العملية التواصلية، فالتعريف يخصّ ما قد تمّ معرفته بناءً على المعلومات السابقة، كما هو الحال في معرفة اليهود للبقرة وقصتها، فجاء عنوان السورة معرفاً (البقرة)، وهذا التعريف إلى جانب كونه وسيلة لغوية، فهو في الوقت نفسه وسيلة تداولية بحكم معرفة المخاطب به، أمّا التنكير لاسم السورة في متنها، فكان مقتضياً له؛ لأنّ التعريف بالبقرة التي أمر بذبحها، قد عُرّفت في الآيات التي جاءت بعد ذكر اسم السورة وهو نكرة (بقرة)، وأدرك المحدثون من علماء النصّ الغربيين هذه القيمة لوسائل التعريف والتنكير، ويجملها (هاينه) بقوله:" تحتل مشكلة توجيه الاتصال بواسطة الوسائل النحوية مركز الجوهر في نموذج دراسة النص لدى (فاينريش)، إذ تؤدي الأشكال المختلفة للتعريف ومورفيمات الصيغة بشكل خاص تبعاً لفاينريش وظيفة الإشارات إلى توجيه استقبال كليات النص لدى السامع، حيث يبلغ المتلقي بواسطتها بالطريقة التي يجب عليه اتّباعها في ملاحظة روابط معينة داخل النصوص، وتشير أداة التعريف حسب هذا الإسهام إلى ما يسمّى "المعلومات السابقة"، بينما تعد أداة التنكير إشارة إلى "معلومات لاحقة"؛ أي الوحدات اللغوية، التي لم يوضحها المتكلّم بعد"([2]) .

---

[1]- ابن القيم : بدائع الفوائد، ت:سيد عمران وعامر صلاح ، 339/2،340 .

[2]- هاينه وفيهفيجر: ديتر، مدخل إلى علم اللغة النصي،28،29، ترجمة: فالح بن شبيب العجمي، النشر العلمي والمطابع ـــ جامعة الملك سعود .

وسورة البقرة ــ كما يذكر المفسرون ــ هي خطاب لليهود، وقصة البقرة قديمة ومعروفة، والإشارة إليها بالعنوان اسماً معرفاً، منسجم مع سياق السورة في توجيه الخطاب لليهود، كما أنه منسجم مع المكان والزمان الذي نزلت فيهما السورة، إذ إنّ اليهود كانوا يسكنون المدينة، وفي تذكيرهم بقصة البقرة، دعوة لاتباع محمد عليه الصلاة والسلام وما جاء به، وهي الدعوة نفسها التي جاء بها جميع الأنبياء عليهم السلام من قبله، وما ذكرُ قصة البقرة إلا تعالي من النصّ القرآني على حدود الزمان والمكان، فباب التوبة واتّباع الحق الذي جاء به الأنبياء والرسل دون ريب، ما زال مفتوحاً ومستمراً إلى أنْ يشاء الله، ويظهر أنّ إنباء الألف واللام عن دلالة الإشارة، كانت في الإحالة للاسم بعدهما إحالة بعدية، وقد تمثّلت في عنوان السورة بعدهما أولاً، وفي نصّ السورة التي أبانت عنها الآيات التي تحدثت عن قصة البقرة ثانياً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ الألف واللام أنبأت عن دلالة اسم الإشارة في العمل، إذا ما عدّ اسم الإشارة مبتدأ محذوفاً ويعمل الرفع في الخبر، وهو الاسم المحال إليه، فعمل عمل ما دلّت عليه الإشارة في (مصدقاً) عندما عدّه ابن القيم حالاً، فكما أنبأت الألف واللام عن الإحالة، أنبأت كذلك عن العمل الدّال عليه اسم الإشارة .

4.1.2 دلالة الفعل (بقر) وتقليباته:

جاء في كتاب الأفعال:" و(بقَر) البطن والشيء بقْراً شقّه، والشيء وسّعه، و(بقِر) بقَراً، حسِر بصره فلا يكاد يبصر، و(بيقر) الرجل عدا منكساً رأسه خاضعاً، وأيضاً خرج من بلد إلى بلد، وأيضا أعيا، وأيضاً أتى العراق، وأيضاً فسد أمره، والفرس راوح بين رجليه في القيام، وأيضاً لم يصنع في الحاجة شيئاً "([1]) .

وقال ابن منظور: "(بقر) البَقَرُ اسم جنس، ابن سيده: البَقَرَةُ من الأهلي والوحشي يكون للمذكر والمؤنث ويقع على الذكر والأنثى...وقال الأصمعي بَقَّرَ القومُ ما حولهم أي حفروا واتخذوا الركايا، والتبقّر التوسع في العلم والمال وكان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي الباقر رضوان الله عليهم ؛ لأنه بقر العلمَ

---

[1]– ابن القطّاع : الأفعال: 85/1، 1121، 113 .

وعرف أصله واستنبط فرعه وتَبقَّر في العلم ... وبَيْقَرَ الرجلُ هاجر من أرض إلى أرض وبَيْقَرَ خرج إلى حيث لا يَدْرِي وبَيْقَرَ نزل الحَضَرَ وأقام هناك وترك قومه بالبادية ... وبَيْقَرَ خرج من بلد إلى بلد، وبَيْقَر إذا شك وبَيْقَرَ إذا حَرَصَ على جمع المال ومنعه وبَيْقَر إذا مات، وأصلُ البَيْقَرَة الفساد، وبَيْقَرَ الرجل في ماله إذا أسرع فيه وأفسده وروى عمرو عن أبيه البَيْقَرَة كثرة المتاع والمال"([1]).

وتبدو المناسبة بين عنوان السورة ومكان نزولها وزمانه، منسجمة مع الدلالات المعجمية التي ذكرنا للفعل (بقر) وتقلباته، فذكر قصة البقرة ومناسبة ذكر الآيات التي تحدثت عنها، وما تضمنته من علم الله بما كتمه بنو إسرائيل فأخرجه الله عزّ وجل، وما جاء في كتب التفسير من شرح وتفسير لقصة البقرة، وذكر المال الذي كان سبباً في القتل، مرتبط نسبياً مع أحد دلالات الفعل (بيقر) وهو قوله: وبَيْقَرَ الرجل في ماله إذا أسرع فيه وأفسده، والمال الذي دُفِعَ ثمناً للبقرة، مرتبط نسبياً بدلالة أخرى للفعل (بيقر) وهو: وبَيْقَرَ إذا حَرَصَ على جمع المال، وما تخلل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من أحداث، من مكة إلى المدينة بارزة ومنسجمة ومترابطة، مع ما دلّت عليه دلالة الفعل وأبنيته: فعَل وفعِل وفيْعل عند ابن منظور وابن القطّاع وغيرهما من أصحاب المعاجم اللغوية .

وتشير لنا دلالة الفعل (برق) من تقاليب (بقر)، إلى ما تعرض له عليه الصلاة والسلام من تهديد ووعيد ، قال في اللسان:" وبرَق الرَّجل ورعَد يرعُد إذا تهدّد، قال ابن أحمر:

يا جَلَّ ما بَعُدَتْ عليكَ بِلادُنا وطِلابُنا فابْرُقْ بأَرْضِكَ وارْعُدِ

وتبدو علاقة الدهشة والحيرة متعالقة مع تقليبات الفعل (بقر)، قال ابن منظور:" وبرَق الرجل وأبرَق تهدَّد وأوْعد، وهو من ذلك كأنه أراه مَخيلةَ الأذى كما يُري البرقُ مخيلةَ المطَر...وبَرِقَ بصرُه بَرَقاً وبرَق يبرُق بُرُوقاً الأخيرة عن اللحياني دَهِشَ فلم يبصر وقيل تحيَّر فلم يَطْرِفْ "([2]). فالحيرة والدهشة اللتان في

---

[1]– ابن منظور، لسان العرب (بقر) .

[2]- ابن منظور: لسان العرب ، (برق) .

مادة هذين الفعلين (بقر، و برق)، قد انسجمتا مع حادثة الهجرة واسم السورة، فالأولى حيرة المشركين ودهشتهم عندما رأوا علي بن أبي طالب في منام النبي عليه الصلاة والسلام عندما هموا بقتله، وهم مطمئنون كلّ الاطمئنان إلى ذلك، والحيرة والدهشة تناغمتا مع قصة البقرة، فالصورة وإن لم تكن حاضرة في الحادثتين للمتلقي، فإنّ المقام يؤكد على الحيرة والدهشة، فهما في ذهن المتلقي وهو يقرأ قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾([1])، فكان ما كان من بعثه وتعريف بني إسرائيل بقاتله ثم موته، ولربما ناسب وصف البقرة التي قال فيها عز وجل: " تسر الناظرين " المعنى الذي أورده ابن منظور:" وبرّقت إذا تعرّضت وتحسّنت وقيل أظْهرته على عمْد، قال رؤبة: يَخْدَعْنَ بالتبْريق والتأنُّث، وامرأة برّاقة وإبْريق تفعل ذلك اللحياني امرأة إبريق إذا كانت برّاقة ورعَدت المرأة وبرقَت أي تزيّنت"([2]).

أمّا ما جاء من معانٍ للفعل (ربق) فهي محيط ما تتحدث عنه دلالة الفعل (بقر) وتقلباته الستة، فقد جاء في لسان العرب: " الرِّبْقُ الخَيْط الواحدة رِبْقة ابن سيده الرِّبْقةُ والرِّبْقةُ الأخيرة عن اللحياني والرِّبْقُ بالكسر كل ذلك الحبْلُ والحَلْقةُ تشدّ بها الغنم الصغار لئلا تَرْضَع والجمع أرْباقٌ ورِباقٌ ورِبَقٌ ... وأخرج رِبقةَ الإسلام من عُنقه فارَق الجماعة ويروى عن حذيفة مَن فارَق الجماعةَ قِيدَ شِبْر فقد خَلَع رِبقةَ الإسلام من عُنقه، الرِّبقة في الأَصل عُروة في حَبْل تُجعل في عُنق البهيمة أَو يدها تُمسكها فاستعارها للإسلام يعني ما يَشدّ المسلم به نفسَه من عُرى الإسلام أي حدوده وأَحكامه وأوامره ونواهيه، قال شمر قال يحيى بن آدم أَراد بربقة الإسلام عَقْد الإسلام قال ومعنى مُفارقة الجماعة تَركُ السُّنة واتِّباع البِدْعة "([3]) .

ولعلّ هذا المعنى هو أقرب المعاني التي يمكن جعله حلقة الوصل بين آخر سورة الفاتحة وأول آيتين من سورة البقرة بشكل خاص، وسياق السورة بشكل عام،

---

[1]- سورة البقرة : الآيات : 72،73،

[2]- ابن منظور : لسان العرب : (برق) .

[3]- ابن منظور : لسان العرب : (ربق) .

ولا سيما إذا ما وجدنا من المفسرين من فسّر الصراط المستقيم بـ (دين الإسلام)، ويؤيد هذا التعالق، استعارة هذا اللفظ وإضافته مصدراً للإسلام في الحديث النبوي الذي أوردته كتب عدّة ، فقد جاء في السنن الكبرى للنسائي ما نصّه:" أخبرنا محمد بن يحيى المروزي...عن أبي هريرة قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر وهو مؤمن وذكر رابعة فنسيتها فإذا فعل ذلك خلع ربقة الإسلام من عنقه فإن تاب تاب الله عليه"([1]) .

ولعل ما يعزّز الذي ذكرنا ما جاء في القرآن الكريم من آيات ـ بقطع النظر عن موقعها في هذه السورة أو غيرها من السور ذوات الحروف المقطّعة ـ في القرآن الكريم ، فقد قال عزّ شأنه في سورة آل عمران:﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾([2])، وهذا يعزّز من تماسك السور ذوات الحروف المقطّعة.

وفي ضوء ما جاء من معانٍ للفعل (قرب) ـ أحد تقلبات الفعل بقَر ـ فإنها تساعد في الربط بين معنى أو أكثر، من معاني الفعل بقر وسائر تقلباته لفظاً أو معنى، فمن المعاني التي جاءت في لسان العرب:" القُرْبُ نقيضُ البُعْدِ قَرُبَ الشيءُ بالضم يَقْرُبُ قُرْباً وقُرْباناً وقِرْباناً أي دَنا فهو قريبٌ الواحد والاثنان والجميع في ذلك سواء، قوله تعالى :" ولو تَرَى إِذ فَزِعُوا فلا فَوْتَ وأُخِذُوا من مكانٍ قريبٍ "، جاءَ في التفسير أُخِذُوا من تحتِ أَقدامهم ، وقوله تعالى:"وما يُدْرِيكَ لعلَّ الساعةَ قريبٌ" ذَكَّر قريباً؛ لأَنّ تأْنيثَ الساعةِ غيرُ حقيقيّ وقد يجوز أَن يُذَكَّر؛ لأَنّ الساعةَ في معنى البعث، قوله تعالى:﴿واستمع يوم يُنادي المنادي من مكانٍ قريبٍ ﴾([3])، أي يُنادي

---

[1]- النسائي: السنن الكبرى: 326/4،327. ت: عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن. وانظر: البيهقي: السنن الكبرى : 157/8.

[2]- سورة آل عمران : الآيتان : 18،19.

[3]- سورة: ق ، الآية :41.

بالحَشْرِ من مكانٍ قريب وهي الصخرة التي في بيت المَقْدِس ويقال إنها في وسط الأرض([1]).

ويمكن ربط معنى الفعل المزيد من (قرب) وهو (تقرّب) الذي أورده ابن منظور قال: " وتَقَرَّبَ إلى الله بشيءٍ أي طَلَبَ به القُرْبَةَ عنده تعالى، والقُرْبانُ جَلِيسُ الملك وخاصَّتُه لقُرْبِه منه وهو وأحد القَرابين، تقول فلانٌ من قُرْبان الأمير ومن بُعْدانِه، وقَرابينُ المَلِكِ وُزَراؤُه وجُلساؤُه وخاصَّتُه، وفي التنزيل العزيز:﴿ إن الله عَهِدَ إلينا أن لا نُؤْمِن لرسولٍ حتى يأْتِيَنا بقُرْبانٍ تأْكُلُه النارُ ﴾([2]).

ويمكن ربط معنى مصدر الفعل على وزن التفعيل (التقريب) الذي أورده الجرجاني في تعريفاته كما ربطه بعنوان السورة ضمنياً، وهو يتحدث عن المقدمات، مع الدليل الذي ألزم الله سبحانه وتعالى به بني إسرائيل في قصة البقرة، وهذا الدليل ـــ كما يبدوـــ هو الوصف المتعدد الذي قطع به قوله تعالى على لسان بني إسرائيل، فقال تعالى:﴿ الآن جئت بالحق﴾، إذ ذكر الجرجاني معنى هذا المصدر بقوله:" التقريب: هو سوق الدليل على وجه يستلزم المطلوب، فإذا كان المطلوب غير لازم، واللازم غير مطلوب، لا يتم التقريب، وسوق المقدمات على وجهٍ يفيد المطلوب...والقرب المصطلح، هو قرب العبد من الله تعالى بكل ما تعطيه السعادة، لا قرب الحق من العبد، فإنه من حيث دلالة قوله تعالى:﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ قرب عام، سواء كان العبد سعيداً أم شقياً"([3]).

ويمكن ربط (فعيل) الدّال بصيغته على الثبوت مع دلالة الفعل (قرُب) المعجمية، إذ إنّ (فعُل) هو البناء الأكثر تخصيصاً لثبوت الصفة في الموصوف، بقرينة ثبوت حركة عينه في الماضي والمضارع، بخلاف اطّرادها اختلافاً في عيني (فَعَلَ وفَعِلَ) ماضياً ومضارعاً، بقطع النظر عن ثباتها في أفعال قليلة منهما، عدّها اللغويون خارجة عن القياس، كما تعالقت دلالة الفعل والصفة (قريب) الواقعة محمولاً أو مسنداً إليه (الخبر)، في قوله تعالى:" وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ

---

[1]– ابن منظور : لسان العرب (قرب) .

[2]– سورة آل عمران : الآية 183.

[3]– الجرجاني:التعريفات : 223.

أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ"([1])، مع دلالة الهمزة نحوياً وهي تشير إلى القريب والبعيد([2]) .

ويمكن كذلك ربط معنى الفعل (قبر) مع ما جاء في سورة البقرة من آيات، تتحدث عن كيفية دفن الميت ومواراته التراب، وما فيه من إكرام له، قال ابن منظور:"(قبر) وقَبَره يَقْبِره ويَقْبُره دفنه وأَقْبره جعل له قبراً وأَقْبَرَ إذا أمر إنساناً بحفر قبر ... القبر مما أُكرم به المسلم، وفي الصحاح مما أُكرم به بنو آدم ... وأَقْبره جعل له قبراً يُوارَى فيه ويدفن فيه وأقبرته أمرت بأن يُقْبَر وأَقْبَر القومَ قتيلَهم أعطاهم إياه يَقْبُرونه".

ويمكن أنْ نربط ما جاء من معنى للقتل في هذا الفعل، مع الآية التي تتحدث عن قتل اليهود والكفار لأنبياء الله عزّ وجل ، قال تعالى: " فلم تقتلون أنبياء الله من قبل "([3])، وقد أشار البقاعي إلى حادثة الهجرة وهو يؤكد على انفتاحية الزمن للفعل المضارع بالاستمرار، قال في نظم الدرر:"قال أبو حيان وغيره في قوله تعالى في سورة الحج "إن الذين كفروا ويصدون"([4])، المضارع قد لا يلحظ فيه زمان معين من حال أو استقبال، فيدل إذ ذاك على الاستمرار، وهذا مما لا محيد عنه، وإلا لم يشملْ هذا في هذه السورة المدنية من تخلق به قبل الهجرة وقوله تعالى:﴿ فلم تقتلون أنبياء الله من قبل﴾، قاطع في ذلك"([5]) .

ويمكن ربط معنى الفعل (رقب) ومعاني مزيده، بما جاء من معانٍ متأولة من الحروف الثلاثة التي استهلت بها سورة البقرة، وهي متأولة بأنها إشارة إلى أسماء

---

[1]– سورة البقرة : الآية/186.

[2]– انظر: ابن هشام، الإمام جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد ابن هشام الأنصاري، ت/761هـ، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، 35/1وما بعدها، تقديم: حسن حمد، إشراف: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط/1، 1418هـ – 1998م.

[3]– سورة البقرة : الآية 91.

[4]– سورة الحج: الآية 25.

[5]– البقاعي: نظم الدرر:10/1 .

الله الحسنى، كما يمكن ربط ما جاء له من معانٍ في معاجم اللغة بالأحداث التي وقعت قبل الهجرة من مكة إلى المدينة، وكيفيّة حفظ الله سبحانه وتعالى لنبيه ولصاحبه، قال ابن منظور:"(رقب) في أسماءِ اللّه تعالى الرَّقيبُ وهو الحافظُ الذي لا يَغيبُ عنه شيءٌ فَعِيلٌ بمعنى فاعلٍ وفي الحديث ارْقُبُوا مُحَمَّداً في أَهلِ بيته؛ أي احفَظُوه فيهم، وفي الحديث ما من نَبيٍّ إلاَّ أُعْطِيَ سبعةَ نُجَباءَ رُقَباءَ أَي حَفَظَة يكونون معه والرَّقيبُ الحَفِيظُ ورَقَبَه يَرْقُبُه رِقْبةً ورِقْباناً بالكسر فيهما ورُقُوباً وتَرَقَّبَه وارْتَقَبَه انْتَظَرَه ورَصَدَه والتَّرَقُّبُ الانتظار وكذلك الارْتِقابُ وقوله تعالى:﴿ ولم تَرْقُبْ قَوْلي﴾، معناه لم تَنْتَظِرْ قولي والتَّرَقُّبُ تَنَظُّرُ وتَوَقُّعُ شيءٍ ...ورَقَبَ الشيءَ يَرْقُبُه وراقَبَه مُراقَبةً ورِقاباً حَرَسَه حكاه ابن الأَعرابي ... وراقبَ اللّهَ تعالى في أَمرِه أَي خافَه﴾([1]) .

أمّا البقرة فَعُرِّفتْ لقوم موسى عليه السلام في أول آية بعد الآية التي اشتملت على الأمر بذبح (بقرة)، إذ لم يكن قيداً ذبحُ بقرة موصوفة معروفة لمعرفة قاتل القتيل أول الأمر، فجاء الأمر لهم بذبح بقرة أيِّ بقرة، فالغاية والهدف والنتيجة متأتية حاصلة من أيّ بقرة، ليثبت لهم أنّه يعلم الغيب والشهادة، وقدرته على بعث الميت وإماتته، وصدق رسوله ورسالته ودعوته إلى إله واحد، ولم يرد الله أنْ يضيّق عليهم بالبحث عنها وتأمين ثمنها فأمرهم بذبح أيّ بقرة، ولعل في عدم التعريف بها جاء لغرض ابلاغي؛ وهو حتى لا يكون لقوم موسى عليه السلام حجة لهم عليه في معرفتها، على أنّ في التعريف بها وحدها دون غيرها من البقر سرّاً وسحراً من موسى عله السلام ، فعلى لسانهم قال تعالى:﴿ إنّ البقر تشابه علينا﴾، فكيف لو عرّفت من قبل أن يسألوا عن علاماتها، فهي حجج طالما واجهوا بها معجزات موسى عليه السلام، والله تبارك وتعالى قادر على أنْ يحقّق لهم الذي طلبوه من نبيهم، بأي فعل يفعله سيدنا موسى عليه السلام يأمره به الله عزّ وجلّ ، كما إنّ إسناد فعلي (الذبح والضرب) لقوم موسى لا له عليه السلام، جاءا ليقطعا عليهم اتهامه عليه السلام، بأن ما سيفعله من ذبح وضرب في حال إسناد الفعلين له

---

[1]- سورة طه: الآية/94، ابن منظور : لسان العرب: (رقب) .

سحر منه أيضاً، وإسناد فعل المضارع (يأمركم) الذي يفيد معنى الأمـــر، والفعـــل الماضي (فقلنا) وفعل الأمر (اضربوه) لله عز وجلّ، دلالة موحية ومشيرة إلى أنّ ما سيترتب على فعل الأمر بذبح البقرة، هي أفعال دالة على أنها منه تبارك وتعـــالى، ويظهر أن إسناد الفعل (فافعلوا) على مستوى الآية الأفقي ودلالته السطحية من قوله تعالى:" فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ"، لسيدنا موسى عليه السلام، بكونه المتكلّم معهم مباشرة، والقريب الشاهد على القبول أو الرفض منهم، وعلى ظهور الحقيقة من الحق وحـــده سبحانه وتعالى حجة عليهم، فما قاله لهم من وصف البقرة إلزام لهم بفعل الذبح دون تراخ أو مماطلة، لكن الله عز وجل عليم بكفرهم وجدالهم وكثرة أســئلتهم، ضـــيّق عليهم فبيّن أنّ البقرة التي يعرفونها ويتساءلون عن صفاتها حجة عليهم، فلّمـــا لـــم ينصاعوا للأمر لم يعاقبهم مباشرة، بل لجأ إلى استدراجهم حتى لم يبق سؤال يفيـــد في تعريفها إلا وسألوه وأجابهم عنه، فلم تبق كذلك حجـــة عنـــدهم لعـــدم ذبحهـــا، وملزمون أيضاً بفعل أيّ فعل يأمرهم به عزّ وجل في أمرها وأمر القتيل، إذ الموقف والمقام والمقال، والظروف المحيطـــة بـــالمتكلّم والمخاطـــب والـــسامع، وأسـلوب الاستدراج وطريقة الحوار وما تضمنه من معلومات صادقة تشير وتوحي للمخاطب وللسامع بمعرفة أمر القتيل، ملزمة كلّها لهم أيضاً أن يقوموا بفعل الذبح والـــضرب، فلا مناص من فعل الفعلين اللذين يؤمران بهما ولو جنحوا على عـــدم القيـــام بـــه، بدليل:" فذبحوها وما كادوا يفعلون "، فحق عليهم العذاب بكفرهم، لكن على مستواها العمودي ودلالتها العميقة وسياق القصة، فإنّ الفعل (فافعلوا) هو مسند إلى الله عـــزّ وجل، وكأن قبل الفعل حَذْفَ فعلٍ يمكن تأوله: وهو: (ويقول) فافعلوا ما تـــؤمرون، وذلك بدلالة الفعل يأمركم الوارد في بداية القصة، وبدلالة الفعلين: قال، و يقول من الآية نفسها وهو قوله تعالى:﴿... قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَـوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾، ويظهر من فعل الأمر (فافعلوا) إشارات دالة على أن لا فائدة من السؤال عن وصف البقرة وعلاماتها، فهو عليم بها، فأمرهم بذبحها فـــي أول فعل جاء رداً على طلبهم من نبيهم، فعدلوا عن هدفهم الأول قـــصداً، فتناســـوا معرفة القاتل واهتموا بمعرفة بقرة أمروا بذبحها، لا يقدم تعريفها ولا يـــؤخر فـــي تحقيق هدفهم الأول، ولم يؤمروا بذبح بقرة معروفة، فراحوا يكثرون الأسئلة وكأنهم

يختبرون وجود الله وعلمه وصدق نبيهم ورسالته، فما دلالة الفعل قال المستغرقة في الماضي؟، ألا يشير إلى وجود القائل وتدبيره لهذا الكون من قبل ومن بعد، وإلى علم الله بما هو كائن وما يكون وما سيكون وما لا سيكون، فعلم ما كتمه قوم موسى وأعلمهم ما لا يعلمونه (قاتل القتيل)! ومع ذلك لم يكفوا عن طرح الأسئلة، إلا بعد أن أبان عزّ وجل عن البقرة فأفصح عنها وصفاً وصفةً، حتى لم يبق اللهُ تعالى لهم علامة في البقرة يسألون عنها، فما كان منهم إلا قوله تعالى على لسانهم:" الآن جئت بالحق"، وفيه إشارة إلى أنهم عرفوها من أول وصف، بدليل أنهم ذبحوها على مضض، وما كادوا يفعلون، وكأنهم مدركون أنّ نتيجة فعلي الذبح والضرب المسندين لقوم موسى، لدليل على صدق ما جاء به نبيهم، من التوحيد والإيمان بالبعث وصدقه وصدق رسالته، فذبحها حجة عليهم بإظهار موسى ومن تبعه على الكافرين من قومه، وبكثرة أسئلتهم تلك عنها، وإجابته عز وجل عنها، وأمرهم بالأفعال مقابلها، فقد ضيقوا على أنفسهم، وهذا التضييق ــ كما يبدو ــ لم يتأت فقط بالبحث عن البقرة أو عن صاحبها أو بدفع ثمنها، بل بتراخيهم حتى أوشكوا أن لا يفعلوا فعل الذبح، وذهب الطبري إلى قبول التأويلين لفعل الذبح، الذي لم يكد أن يُسْنَدَ إليهم، قال:" ...والصواب من التأويل عندنا، أن القوم لم يكادوا يفعلون ما أمرهم الله به من ذبح البقرة، للخلتين كلتيهما: إحداهما غلاء ثمنها، مع ما ذكر لنا من صغر خطرها وقلة قيمتها؛ والأخرى خوف عظيم الفضيحة على أنفسهم، بإظهار الله نبيه موسى صلوات الله عليه وأتباعه – على قاتله"([1]).

وقد دلّ على توقع عدم إسناده إليهم دليلان: أنّ هذا الحدث أو الفعل (فذبحوها)، بصيغته الماضوية وبوقوعه نتيجة نهائية في آخر الحوار، ومجيئه مسبوقاً بفاء التعقيب، التي دلّت على انتهاء كلّ الأوصاف والصفات التي عُدت حقاً لذبح بقرة بعينها دون سائر البقر، دون أنْ يكون لها مبررات أو دواعٍ لذكرها، لدلالة بهذا التراخي والمماطلة على عدول قوم موسى عن فعل الذبح، والدليل الثاني: أنّ الفعل (فذبحوها)، قد أُستبدل بفعل يدلّ ويعبّر ببنيته الصوتية وهو الحدث (يفعلون) الدال

---

[1]-الطبري: جامع البيان، 220/2 .

على الحدوث له فعلاً، بنسبة أكثر من حدوث الفعل المستبدل (فذبحوها)، فكأن هذا الحدوث يضارع صيغة (العدول)، وعضد هذا أيضاً صيغة الحدث نفسه الحالية (المضارع)، أو الزمن النحوي لـ (يفعلون) فكان أقرب في الوقوع من الفعل الماضي (فذبحوها)، كما أنّ استعمال الفعل (كاد) بشكل خاص الدّال بصيغته وزمنه، يعضد توقع عدول قوم موسى عن القيام بفعل الذبح، فكأن المفهوم من هذا التركيب لجملة (يفعلون) ــ دون الالتفات إلى حرف النفي الذي أثبت وقوع فعل الذبح، إذ لم ينفِ توقع العدول عنه ــ فالتركيب يوحي إلى تقريب هذا العدول، وهذا التقريب في عدول قوم موسى عن فعل الذبح، يوحي به التركيب في الأصل من كاد المثبتة والفعل بصيغة المضارع نحو: وكادوا أن يذبحوها، أي لم يذبحوها، ويوحي هذا التركيب (وما كادوا يفعلون)، بأنّ فعل الذبح الذي لم يكادوا يفعلوه ليس له قيمة، وهو ــ كما يظهر ــ يحمل القيمة نفسها التي نمنحها في عرفنا اللغوي الاستعمالي، لمنْ نطلب منه القيام بفعل ما، لكنّه لم يكن الاهتمام به لدى المأمور بفعله، بمستوى الاهتمام من الآمر به، فيبدي الأخير امتعاضه وعدم رضاه من تلبية الفعل، على الرغم من تنفيذه من قبل المأمور به، فكأنّ تنفيذه وعدمه سواء، ومعيار هذه المساواة بين تأدية الفعل وعدمه في عرفنا اللغوي الاستعمالي، هو التباطؤ والمماطلة، فعدم وقوع الفعل (فذبحوها) عقب فعل الأمر (يأمركم) ليس استجابة مباشرة كما يريد المخاطِب، بدلالة صيغة المضارع على الفرع منه وهو الأمر، وزمنه النحوي الحاضر، وكأنه يأمرهم الآن في الحال، بقرينة فعل الأمر (فافعلوا) المُستَبْدَلُ بالفعل المضارع (يأمركم)، بدلالة القرينة اللفظية للفعل (تؤمرون) بعده، التي اشتملت بنيته الصوتية على مادة الفعل (يأمركم)، فكأن التركيب (فافعلوا ما تؤمرون) بديلاً عن صيغة الأمر من الفعل (يأمركم)، كما أنّ وجود مادة الفعل الدالة على الحدث (فافعلوا)، لخير دليل على التأكيد على فعل الذبح دون إبطاء أو تراخ، لكنّه أُسند إلى موسى عليه السلام رحمة بقومه، إذْ لو كان مسنداً إلى لفظ الجلالة ولم يمتثل إليه قوم موسى، لوقع العذاب عقبه مباشرة، فأفعال الأمر التي أُمر بفعلها الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، مسندة للفظ الجلالة تبارك وتعالى، فهم المتقون المؤمنون، فلا وارد عندهم عليهم الصلاة والسلام، تأخير تنفيذ أيّ فعل يؤمرون به،

وللتمثيل لا للحصر، نذكر من هذه الأفعال التي أُمِرَ بفعلها موسى عليه السلام (إخلع نعليك، وأخرج يديك، فقلنا اضرب، ألقِ عصاك، خـذها ولا تخـف، اذهـب إلـى فرعون، فقولا له، فافرق بيننا، وهو مسند لفظاً إلى موسى ومعنىً إلى لفظ الجلالة، واتلُ عليهم، ولكن انظر، فخذ ما آتيتك، فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ...الخ) ([1]).

فنتيجته الحدث (فذبحوها)، هي آيات لا يريدون أن يعقلونهـا، فهـي بـراهين وآيات وعلامات، دالّة على وحدانية الله القدير اللطيف الخالق العليم المحيي المميت، ودليل على صدق الرسول والرسالة، وهذا ما أنكره وكذّبه قوم موسى عليه السـلام وكتموه، إلا أنه سبحانه وتعالى أخرجه بهذه القصة التي خشعت لها الحجارة، فقـد أحيا الميت وأنطقه أمامهم ثم أماته، علّهم يعقلون فيؤمنون بـالله وحـده ويتبعـون رسوله، فَبَعْثُ الميت وموته، من الأفعال التي له وحده تبارك وتعالى، وهي أحـداث في علم الغيب، فأثبت سبحانه وتعالى بها حقيقة البعث التي كفروا بها، وقد فضل الله بني إسرائيل على العالمين، بأنْ أدركوا تلك الأفعال، ووقفوا على نتائج أفعال أمروا هم بفعلها أيضاً، وأدركوا أيضاً نتائجها، فتفضّل الله عليهم بعلمه الذي لم يحط أحـد بشيء منه إلا بمشيئته تعالى، فأي إله أرحم وألطف وأعلم وأقدر، من الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن الرحيم، مالك الملك، الرقيب اللطيف الحي القيوم العزيز العليم .

كما أنّ فعل الأمر (ادع) الذي أسند إلى سيدنا موسى عليه السلام، يـشير إلـى توقعهم باستجابة الله عز وجل لنبيه، وهو في سياق واحد مع الفعل قبله، إذ لم ينتهوا عن أمرهم نبيهم مرة واحدة بفعل الدعاء هذا، فأمروه به نفسه مـرتين بعـده لفظـاً وصيغة، فانصرفوا إلى اتهام موسى عليه السلام بسخريته مـنهم، قبـل أن يـسألوا عنها، ولم يسألوا عن سبب ذبحها، فهم من أراد معرفة قاتل القتيل من موسى عليـه السلام، فلّما لم يكن من سبيل لهم إلى هذا السؤال، طلبوا وصفاً للبقرة علّه يمـنعهم من فعل الذبح ــ كما يبدو ــ وهو معرفة ما لا فائدة في معرفته فوصفها لا يقدم ولا يؤخر، فلمّا تبين لهم ما تبين ، أظهروا ما كتموه وهو قوله تعالى ــ والله أعلـم ــ :

---

[1]- ينظر هذه الأفعال وغيرها في سورة القصص، والسور التي تحدثت عن قصة موسى عليه السلام، مع فرعون .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾([1]) .

فالفاء من الفعل (فافعلوا)، للتعقيب، فأدّت معنىً وظيفياً مفهوماً من الكلام قبلها (وصف البقرة الأول) وكأنّها قد قطعت بوصفها كما يبدو، بقرينة مادة الحدث (فعل الأمر مسبوقاً بالفاء)، فقال: (فافعلوا) بدلاً من (فاذبحوا)، وهذا المعنى الوظيفي هو التعليل اللازم من دلالة اللفظ من غير أنْ يصرّح به اللفظ نفسه، ولعل هذا التعليل هو من القسم الأول من الأقسام الستة، التي أوردها ابن حزم على:"ما يدل على العليّة بالتنبيه والإيماء، وذلك بأن يكون التعليل لازماً من مدلول اللفظ وضعاً، لا أن يكون اللفظ دالاً بوضعه على التعليل، وهو ستة أقسام، الأول: ترتيب الحكم على الموصوف بفاء التعقيب والتسبيب في كلام الله أو رسوله أو الراوي عن الرسول"([2])، ويتصل بدلالة اللفظ غير اللفظية تعليل الألوسي لاسم السورة، بافتتاحها بالمبهم ثم تعقيبه بالواضح فيه، أتم مناسبة لقصة البقرة التي سميت السورة بها " وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارأتم فِيهَا والله مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ"([3]). كما أنّ فعل الذبح للبقرة المؤكّد بأن قبله وبصيغة المضارع الدال بذاته على الأمر في قوله تعالى:" إن الله يأمركم أنْ تذبحوا بقرة "، لهو إشارة وعلامة على أنّ من وراء هذين التأكيدين لفعل الذبح خطباً وأمراً جَلَلَيْن، كما أنّ النتيجة التي وراءهما غير معروفة لموسى عليه السلام، لكنّه على يقين بكل ما يؤمر وبما سيتحقق، فالله هو مخرج ما كتموا، كما أن فعل الضرب، لم يقله لهم سيدنا موسى عليه السلام ، بل جاء دون توسط بخلاف الأفعال السابقة بدليل: إنه يقول، إن الله يأمركم، إذ قال: " فقلنا اضربوه ببعضها، والله مخرج ما كنتم تكتمون " .

---

[1]– سورة البقرة : الآيات 55-56.

[2]– ابن حزم: الإحكام في أصول القرآن:338 .

[3]– الألوسي: روح المعاني: 103/1. دار إحياء التراث العربي. مصر: درب الأتراك .

إنّ المعنى الذي يمكن رصده في هذه القصة ينسجم مع دلالـــة الفعـل (بقــر) ومصدره، وهو علم الله بالذي كتمه بنو إسرائيل، وعلمه الذي أحيا الميت وأنطقـــه، فأي علم يجاري علم الله تعالى، وهذا المعنى مترابط ومتماسك لفظاً ودلالـــةً، مــع تفسير ابن عباس لـــ (ألم) بقوله :" أنا الله أعلم "، ومتعانق مترابط متسق متماســك، مع تفسير منْ يذهب إلى أنّ الحروف المقطّعة هي أحرف مقتطعة مـــن أســـماء الله الحسنى، فهي في حقل دلالي واحد: علماً وقدرة ورحمة وسعة ... ومعنـــى علـــيم أيضاً مفهوم من قوله تعالى:" وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ". وجاء فـــي التعريفـــات للجرجاني:" أنّ اسم الله عز وجل علم دالٌّ على الإله الحق دلالـــةً جامعـــةً لمعـــاني الأسماء الحسنى كلها"([1]) .

وهذه الآيات التي تتحدث عن قصة البقرة متعالقة مترابطة متماسكة، مع الآيات التي تتحدث عن المؤمنين وصفاتهم، وأول صفة لهم جاءت في الآيـــة الثالثـــة مـــن السورة، قال تعالى:" الذين يؤمنون بالغيب"، ومع نفي الريب عن كلّ ما جـــاء بـــه القرآن الكريم وحدّث به الرسل والأنبياء ، فالله واحد لا شريك له، عليم بمـــا هـــو للعباد من خير وشر، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يحيي ويميت ويبعث من في القبور، وإذا ما مضينا في التدليل على تماسك دلالات الأفعال التي هي مـــن تقاليب الفعل (بقر)، فإننا سنجد هذا التماسك بين تلك الأفعال وآيات متفرقة في بنيـــة نصّ السورة، موحية أو مشيرة إلى تناغم واتساق وانسجام دلالة هذه الأفعـــال مـــع زمن نزول السورة ومكانها، ومع الأحداث التي سبقت نزولها في مكـــة والمدينـــة، متماسكة مع العلامة التي يمكن رصدها دلالياً وتداولياً من ذكر قصة البقـــرة، إذ إنّ في المدينة اليهود، والخطاب القرآني في هذه السورة موجه إليهم، أكثر ممـــا هـــو موجه إلى غيرهم كما تذكر كتب التفاسير وعلوم القرآن .

إنّ دلالة الأفعال المعجمية الستة التي تحصلت لنا من تقاليـــب الفعـــل (بقـــر)، المتحصل من تفكيك عنوان السورة، تشير إلى إمكانية إحالة بعض دلالاتهـــا إحالـــة خارجية، وهذه الإحالة قد تتمثل في القصص التي وردت في السورة ، ومنها قـــصة

---

[1]– الجرجاني: التعريفات/51 .

سيدنا آدم عليه السلام وابنيه ، وكذلك قصة البقرة وغيرها من قصص سيدنا موسى عليه السلام مع قومه، ولعل أهم ما يمكن إحالته خارجياً من دلالة هذه الأفعال ، هي هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وما سبقها من أحداث أدت إلى ذلك، وقد تكفّلت كتب السيرة ببيان هذه الأحداث .

5.1.2 الحروف المقطعة الثلاثة (الـــم):

إذا كانت براعة الاستهلال كما عرّفها (الجرجاني)، بأنّ المتكلّم يجمل فيها مــا يريد أن يقوله في النصّ، فإنّ (الم) وغيرها من الحروف قد أُجْمِلَت فيها كلمــات الله -التي لن تنفد- ي النصّ القرآن كلّه بوصفه نصّاً، وأجمل فيهــا كلمــات الله فــي السورة النصّ من السور ذوات الحروف المقطّعة، وأجمل فيها كلمات الله في السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة (النصّ) كذلك، ولتوضيح ما ذكرناه عــن براعــة الاستهلال بالحروف المقطّعة، وأولها بشكل خاص الحروف الثلاثة (الــم)، يمكــن القول أنّ كلّ كلام البشر إنّما هو معقود على ثمانية وعشرين حرفاً التي يتألف منها الكلام؛ إذ لا تجد كلمة من الكلمات التي تنطق إلا وأصواتها بين الهمزة والــلام، أو بين اللام والميم، أو بين الهمزة والميم، فإنّ دلّت هذه الدلالة التي تحصلت من خلال المستوى الصوتي، الذي يبين مخارج الأصوات وصفاتها، فإنّ الإحاطة بتأليف عدد قد ينتهي من المفردات، إنّما هو ضرب من الميتافيزيقيا، فلا يستطيع امــرؤ مهمــا أوتي من طلاقة اللسان وسحر البيان وقدرته على التعبير والإنشاء، أن يحيط بكلمات يجزم بنهايتها نظماً أو معنىً، أو نظماً ومعنىً، لكنّ المتكلّم أو الكاتب يختــار مــن الكلمات التي تؤدي المعنى الذي يقصده، فقد يختار كلمة مفيــدة أو مجموعــة مــن الكلمات تؤدي المعنى من خلال جملة أو أكثر.

إنّ أهم ما يحقق التماسك النصيّ للنصّ، هو تعالق التراكيب فيما بينهــا علــى مستوى الدلالات، وفي ضوء هذا المستوى التحليلي، فلا مندوحة مــن ربــط هــذه الحروف التي شكلّت الجملة الأولى، أو ما أطلق عليها مصطلح (الجملــة النــواة)، ربطها مع أبنية النصّ دلالياً في المقام الأول، استناداً إلى الموقــع الــذي شــغلته، والصوت الملفوظ الذي نطقت به أعضاء النطق انجازاً لها، والشكل المكتوب الــذي

رمز لصوتها، والوقف الذي حققته الفاصلة القرآنية، تحقيقاً لنظرة نحو النصّ لجميع مكونات النصّ؛ أصواتاً وكلمات وأبنية صغرى وكبرى، مترابطة متعالقة فيما بينها، تحقيقاً للبنية الكليّة الكبرى، وفي ضوء تعدد قراءات المفسرين واللغويين وغيرهم، للحروف المقطّعة، وإمكانية تعدد القراءة لها مع كلّ قراءة، فإنّ لكل حرف منها ثلاثة رموز مرسومة كتابة، وكل ثلاثة حروف مكتوبة لكل منها صوت منها أيضاً، لا تمثل رمزاً كتابياً لصوت واحد من (الم) فحسب، بل رمزاً لثلاثة حروف؛ الأول منها فقط للألف من(الم)، والثاني والثالث للام وللفاء من (ألف)، والأول فقط للام من (الم)، والثاني والثالث للألف والميم من (لام)، والأول فقط للميم من (الم)، والثاني والثالث للياء والميم من (ميم)، وكذلك انفتاح التأويل لكلّ حرف من الحروف الثلاثة من (الم)، في ضوء اعتبار كلّ حرف مقتطع من كلمة أيّ كلمة بشكل عام، وأيّ كلمة في بنيتها حرف من هذه الحروف، هي ليست مشتقة من لفظ معين معروف بذاته، قبل قراءة هذه الحروف قراءة تأويلية، بمعنى أنّ الكلمات (المدلولات) المتأوّلة أظهرتها كثرة التأويل لهذه الحروف، فيُصنّف أغلبها ضمن الدلالات أو المعاني غير اللفظية، شأنها شأن المدلولات الذهنية اللازمة، للفظ (الدّال) قبل أنْ تَدلّ عليه مدلولاته غير اللفظية، فمدلولات هذه الحروف جادت بها أبنية النصّ في مستواها التصوري المفهومي، لذا لا ضابط لتعدد الكلمات (المدلولات)- فردة أو مركبة- لمتأوّلة لكل حرف، إذا ما كان كلّ تأويل منضبطاً، فلا يمكن استبعاده ألبتة؛ لانسجامه وتعالقه مع الدلالة الكلية الكبرى للنصّ، وكذلك آلية التأويل البنيوية للحروف الثلاثة (الم)، وكذلك تأويل ما تفرّع عن كل صوت منها، برمزه الكتابي الثلاثي الشكل رسماً، مع إمكانية تحصيل من كل شكل، ستة أفعال بتقليبه كما هو شأن الفعل (بقر) السابق، فكل ما يتصل باللفظ ويسهم في دلالة النصّ ضمن المجال النسبي أو الذهني، حريٌ به أنْ يكون مدلولاً ماثولياً يُرتَق به صدعٌ، قد يظهر في بناء من أبنية النصّ، وفي هذا السياق يذكر (سعيد يقطين) تعدد العلامات تبعاً للوسائط المترابطة بقوله:" يجري الحديث عن الوسائط المترابطة عندما تكون معلومات النص المترابط متعددة العلامات، أي عندما تجاوز النصوص إلى جانب الصور (الثابتة أو المتحركة) أو الأصوات، والشيء نفسه يمكن قوله عند

"الكلمات المترابطة" التي تستعمل عندما تكون متصلة بغيرها داخل نص معين بروابط محددة، وهكذا دواليك"([1]).

ووضّح أبو هلال العسكري مبكراً دلالة الالتزام أو الاقتضاء، وهو يفرّق بين الدلالة والعلامة بقوله:" الفرق بين الدلالة والعلامة: أنّ الدلالة على الشئ ما يمكن كل ناظر فيها أن يستدل بها عليه، كالعالم لما كان دلالة على الخالق، كان دالا عليه لكل مستدل به، وعلامة الشئ ما يعرف به المعلم له ومن شاركه في معرفته دون كل واحد، كالحجر تجعله علامة لدفين تدفنه، فيكون دلالة لك دون غيرك، ولا يمكن غيرك أن يستدل به عليه، إلا إذا وافقته على ذلك، كالتصفيق تجعله علامة لمجئ زيد، فلا يكون ذلك دلالة إلا لمن يوافقك عليه، ثم يجوز أن تزيل علامة الشئ بينك وبين صاحبك، فتخرج من أن تكون علامة له، ولا يجوز أن تخرج الدلالة على الشئ من أن تكون دلالة عليه، فالعلامة تكون بالوضع والدلالة بالاقتضاء"([2]) .

وفي هذا السياق الدلالي المتعدد للألفاظ، نجد الآمدي يعدد لنا حاملات المحمولات التي يستمدها علم الأصول من العربية بقوله:" وأما علم العربية: فلتوقف معرفة دلالات الأدلة اللفظية، من الكتاب، والسنة، وأقوال أهل الحلّ والعقد من الأمّة، على معرفة موضوعاتها لغة، من جهة الحقيقة، والمجاز، والعموم، والخصوص، والإطلاق، والتقييد، والحذف، والإضمار، والمنطوق، والمفهوم، والاقتضاء، والإشارة، والتنبيه، والإيماء، وغيره، مما لا يعرف في غير علم العربية"([3])، ويظهر من كلام الآمدي اعتباره للمدلولات غير اللفظية، التي تحملها الدّوال؛ المنطوق، والإشارة، والإيماء. وبالجملة نقول: إنّ المعاني غير اللفظية هي معانٍ لازمة محذوفة تفترض التقدير بتأويلها، كما هو المفروض في تقدير المحذوف في التركيب، وإذا كان الحذف للفظ من التركيب أولى من ذكره، فالمعنى المُتَأوّل الذي يسهم في دلالة النصّ، أولى منْ المعنى الظاهر للفظ مفرداً أو متركباً مع

---

[1]– انظر: يقطين: سعيد: (العلامات المترابطة) من النصّ إلى النصّ المترابط، ص/86 وما بعدها، مجلة عالم الفكر،ع/2، مج/32، 2003م.

[2]– العسكري: الفروق في اللغة ، 235 .

[3]–الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام ، 8/1.

غيره، فبعض هذه الدلالات المتأولة للفظ ما لم تتصل داخلة فيه، لكنّها لازمة له، ويبدو أنّ دلالة الالتزام– وهي القسم الثاني لدلالة اللفظ غير اللفظية – لتي جعلها ابن حزم مساوية لدلالة المطابقة، من حيث كمال المعنى الموضوع له اللفظ، وأعم من دلالة التضمن؛ لفقدان دلالة الالتزام معنى لازم، على الرغم من عدم ظهوره أو حضوره، بخلاف حضوره مع دلالة التضمن، قال:"وأما غير اللفظية، فهي دلالة الالتزام، وهي أن يكون اللفظ له معنى، وذلك المعنى له لازم من خارج، فعند فهم مدلول اللفظ من اللفظ، ينتقل الذهن من مدلول اللفظ إلى لازمه، ولو قدر عدم هذا الانتقال الذهني، لما كان ذلك اللازم مفهوما، ودلالة الالتزام، وإن شاركت دلالة التضمن في افتقارهما إلى نظر عقلي يعرف اللازم في الالتزام، والجزء في دلالة التضمن، غير أنه في التضمن لتعريف كون الجزء داخلاً في مدلول اللفظ، وفي الالتزام لتعريف كونه خارجا عن مدلول اللفظ ، ودلالة الالتزام مساوية لدلالة المطابقة ضرورة امتناع خلو مدلول اللفظ المطابق عن لازم، وأعم من دلالة التضمن، لجواز أن يكون اللازم لما لا جزء له"([1]).

وقال الغزالي، ت/505هـ، في تقسيمه الثاني للألفاظ:" إنّ الألفاظ بالإضافة إلى خصوص المعنى وشموله، تنقسم إلى لفظ يدل على عين واحدة ونسميه معيناً، كقولك زيد وهذه الشجرة وهذا الفرس وهذا السواد، وإلى ما يدل على أشياء كثيرة تتفق في معنى واحد ونسميه مطلقا، والأول حدّه اللفظ الذي لا يمكن أن يكون مفهومه إلا ذلك الواحد بعينه، فلو قصدت اشتراك غيره فيه منع نفس مفهوم اللفظ منه، وأما المطلق فهو الذي لا يمنع نفس مفهومه من وقع الاشتراك في معناه ، كقولك السواد والحركة والفرس والإنسان"([2]) .

وفي هذا السياق لتعدد المعاني من دلالات الكلمات اللفظية وغير اللفظية، يبدو أنّ (رولان بارت) قد لحق بما جاء به القدماء من تعدد دلالات اللفظ اللغوي، وذلك من خلال حديثة عن ما سمّاه (هسهسة اللغة)"([3]).

---

[1]– ابن حزم: الإحكام في أصول القرآن، 15/1.

[2]– الغزالي: المستصفى في أصول الأحكام:56/1 .

[3]– انظر: بارت: لذّة النصّ19.

وفي ضوء ما تقدّم فلا بدّ من وقفة دلالية سيميائية للحروف (الم)، علّها تزودنا بدلالات لم تنصّ عليها المعاجم، دلالات تتجاوز المدلول الأول والثاني لهذه الحروف، دلالات قد تتأتّى من إدخال السيميائيات أو نظرية العلامات محوراً في فهم النصّ، وقد نعت أحد الباحثين صاحب هذا الإدخال نعتاً حسناً بقوله: " لقد أحسن صُنعاً منْ اقترح السيميائيات والمنطق، ذلك أنّ السيميائيات الحديثة والمعاصرة بشقيّها الأمريكي والأوروبي، أقيم بناؤها من بين ما أقيم عليه، على أوليات منطقية رياضية، كشأن السيميائيات القديمة والوسطية وامتداداتها "([1])، وبيّن (جيرار دولو دال)، طبيعة العلامة وتعدد موضوعاتها وأقسامها بقوله:" إنّ العلامة نفسها تنتمي على مقولات، وإلى أنماط وأقسام من العلامات مختلفة بحسب النظر إليها، سواء بالنسبة لذاتها كعلامة أولى، أو بالنسبة لموضوعها كعلامة ثانية، أو بالنسبة لمؤولها كعلامة ثالثة، فالبنسبة لذاتها فإنّها كما هي مستقلة عن موضوعها وعن مؤولها، ولكن كعلامة أولى ستكون إمكانية لعلامة؛ أي ستكون علامة وصفية، وكعلامة ثانية، ستكون علامة حقيقية (رسماً، أو نثراً مميزاً)؛ أي ستكون علامة فردية، وكعلامة ثالثة ستكون علامة مقنّنة، أو علامة نموذج مثالي؛ أي ستكون علامة عرفية، وبالنسبة لموضوعها، يمكنها: إمّا أن تشبه، أو أن تشير إليه، أو أن تحده، فهي إذن بالتسلسل: إما أيقونة أو قرينة و/أو رمز، وبالنسبة لمؤولها، لن تكون إلا متصورة أو ممثّلة (فدليل Rhéme)، أي ستكون علامة ثنائية، أو مؤولة باستدلال، بكل ما في كلمة الاستدلال من معنى (برهان Argument)"([2])، وقد ذكر محمد عبد المطلّب أنّ للعلامة طبيعة كليّة شمولية تأخذها، فقال:" وقد تأخذ العلامة طبيعة كليّة يكون التحرك منها على ما تدلّ عليه ذا اتساع وشمول يغطي أبعاداً زمانية ومكانية لا نهائية"([3]).

---

[1]– مفتاح ، محمد: أوليات منطقية رياضية في النظرية السيميائية: عالم الفكر: م 35، ع 3، 2007م.

[2]– دولو دال، جيرار: السيميائيات أو نظرية العلامات، 51،52، ترجمة: عبد الرحمن بوعلي.

[3]– عبد المطلب، محمد ، العلامة والعلامتية/ دراسة في اللغة والأدب، 9،10 .

إن الحروف المقطّعة في رحابة هذه النظرية مثخنة بالمعاني، فالألف تشير إلى أكثر من دلالة، فهي تشير إلى أسماءه الحسنى(الله، الأول، الواحد، العدل...الخ)، كما تشير إلى الوحدانية وإلى الصراط المستقيم واللام رمز الوحدانية والميم لاسمه (العليم)، والألف قد تشير إلى فعل الأمر، إذا ما علمنا بأنّ أول لفظ خوطب الرسول عليه الصلاة والسلام به هو (اقرأ)، وأكثر أفعال الأمر إنما تبدأ بحرف الألف، وبذلك يكون فعل الأمر (اعبد، أو اعبدوا) ، وهو في الوقت نفسه ملازم لتأويل أو تفسير كثير من المفسرين للألف من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وأصحاب التفسير بالمأثور وبالرأي، وتفاسير الصوفية والشيعة والمعتزلة، وهو ـ الألف ـ من الله، وتؤيد هذا دلالتا الالتزام والاقتضاء، من حيث إنّ العبادة هي لله وحده، وإذا ما كان هذا التأويل للألف مقبولاً، فإنّ الجملة التي يمكن أن نتأولها من هذه الحروف الثلاثة هي: اعبدوا الله الذي لا إله إلا هو، وكذلك: اعبدوا ربكم، وقد وردت آيات كثيرة في سورة البقرة تعزّز ذاك هذه التأويلات ([1]) .

ويظهر أنّ هذه الحروف ليست هي حروف قسم، فلو كانت حروف قسم، لما تتالى حرفا قسم، فيكون حرف الواو ـ مثلاً ـ حرفَ قسم وقبله حرف قسم، كما في: ص وق ون، وإنْ كانت حروف قسم والواو حرف عطف، فهل يجوز أنْ يُعطف الاسم الظاهر المقسم به بعد حرف الواو، على حروف القسم (الحروف المقطّعة)، وإنْ لم يجز ذلك إلا بالعطف على اسم محذوف أو ظاهر، فلا بدّ من تأويل للاسم المحذوف إذ هو غير ظاهر، فإنّ جاز التأويل فلا بدّ من حرف قسم قبل هذه الاسم المتأوَّل نحو: والله والقرآن ذي الذكر، قياساً على:" والضحى والليل إذا سجى " و"والتين والزيتون"، فيكون حرف الواو قبل الاسم الثاني حرف عطف لا قسم، ولو جاز وضع حرف قسم قبل الحروف المقطعة لجمعنا كذلك بين حرفي قسم، فلا يصح إذن أن نقول: و(الم) على أنها بذاتها المجردة مقسم بها، ولا ويس وطه، والر وطسم، وكهيعص، كما أنّ البنية التركيبية للآيات التي تلت الحروف المقطّعة وسياقها ـ بشرط عدم وجود حرف (الواو) بين الحروف المقّطعة والآية أو

---

[1]- سورة البقرة: انظر للتمثيل: الآيات، 21، 163، 255، 285، 286.

الكلمة التي بعد حرف (الواو)، لا يشعر بالقسم ألبتة، إلا بتأويل اسم بدلاً من تلك الحروف، لكن الآيات التي وقع بينها وبين الحروف المقطّعة حرف (الواو) مشعرة بالقسم عن طريق العطف بهذا الحرف، وفي ضوء ذلك ـ كما يبدو ـ فإنّ هذه الحروف المقطّعة قد وقعت موقع الاسم المقسم به قلّ أو كثّر، ليبقى حرف العطف (الواو) على وظيفته المختصّ بها وهي العطف، ولقد أشار بعض المفسرين والدارسين لعلوم القرآن، إلى ما يتصل بهذا التأويل من غير تصريح منهم، بأنّ الحرف أو ما فوقه من الحروف المقطّعة التي أُستهلت بها هذه السور، هي واقعة في موقع الاسم المقسم به، ويعضد هذا ما نصّ عليه الطبري في تفسيره بقوله :"... فالتي ابتُدِئ أوائلُها بحُروف المعجم، أحدُ مَعاني أوائلها: أنهنّ فواتحُ ما افتُتَح بهنّ من سُوَر القرآن، وهنّ مما أقسم بهن؛ لأن أحدَ معانيهن أنّهنّ من حروف أسماء الله تعالى ذكُره وصفاتِه، على ما قدَّمنا البيان عنها، ولا شك في صحة معنى القسَم بالله وأسمائه وصفاته"... كما يعضده تأويله للحروف الثلاثة الأولى التي استهلت بها سورة يونس (الر) بالرحمن مقسماً به، قال الطبري:"... عن مجاهد:(تلك آيات الكتاب الحكيم)، قال: التوراة والإنجيل. قال...عن قتادة:(تلك آيات الكتاب)، قال: الكُتُب التي كانت قبل القرآن، وقال آخرون: معنى ذلك: هذه آيات القرآن، قال أبو جعفر: وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، تأويل من تأوّله: "هذه آيات القرآن"، ووجّه معنى(تلك) إلى معنى "هذه"، وإنما قلنا: هذا التأويل أولى في ذلك بالصواب، لأنه لم يجئ للتوراة والإنجيل قبلُ ذكرٌ ولا تلاوةٌ بعدُ، فيوجه إليه الخبر، فإذْ كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: والرحمن، هذه آيات القرآن الحكيم"([1])، ويلاحظ أنّ الطبري قد جاء بحرف الواو ـ وهو ليس مذكوراً أصلاً ـ فوضعه قبل اسم الله تعالى (الرحمن)، وتأويله لاسم الإشارة (تلك) بـ (هذه)، وهذا ما يعزّز ذاك تأويل، من أنّ هذه الحروف هي حروف مقتطّعة من أسماء الله الحسنى، المقسم بها قبل أيّ مقسم به آخر، لكنّها وقعت في موقع المقسم به وهي أسماء الله الحسنى، ثم عطفت الأسماء التي بعد حرف الواو وغيره عليها نحو: ":"ص والقرآن ذي الذكر" و:" ق

---

[1]- الطبري: جامع البيان: 222/1، 15/ 12 .

والقرآن المجيد"، و:" ن والقلم وما يسطرون"، إذ يمكن تأويل أسماء أُقتطعتْ منها هذه الحروف، نحو: والله الحق والقرآن المجيد، والله المانع والمعطي والقلم ، والله القدير والقرآن المجيد.

ولعلّ ما يُقَوّي ذلك ما جاء عند الزمخشري، وهو يُبْعدُ هذه الحروف عن كونها مُقسم بها على أنها حروف قسم، بل عدّ هذه الحروف أسماءً، قال:" اعلم أنّ الألفاظ التي يتهجى بها أسماء، مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم"([1])، وكذلك استبعاده أنْ يكون حرف (الواو)، الذي ورد بعد هذه الحروف، حَرْفَ قسم، بل عدّه حرفَ عطفٍ، قال الزمخشري ــ وهو يجيب عن طرح زعم لزاعم، على أنّ هذه الحروف مقسم بها ــ :" قلت: إنّ القرآن والقلم بعد هذه الفواتح محلوف بهما، فلو زعمت ذلك لجمعت بين قسمين على مقسم واحد وقد استكرهوا ذلك . قال الخليل في قوله عزّ وجلّ:"والليل إذَا يغشى والنهار إذَا تجلى وما خلق الذكر والأنثى"([2])،الواوان الأخريان ليستا لمنزلة الأولى، ولكنهما الواوان اللتان تضمان الأسماء إلى الأسماء في قولك: مررت بزيد وعمرو، والأولى بمنزلة الباء والتاء، قال سيبويه: قلت للخليل: فلم لا تكون الأخريان بمنزلة الأولى؟ فقال: إنما أقسم بهذه الأشياء على شيء، ولو كان انقضى قسمه بالأول على شيء لجاز أن يستعمل كلاماً آخر، فيكون كقولك بالله لأفعلنّ، بالله لأخرجنّ اليوم، ولا يقوى أن تقول: وحقك وحق زيد لأفعلنّ. والواو الأخيرة واو قسم لا يجوز إلا مستكرهاً قال: وتقول وحياتي ثم حياتك لأفعلنّ؛ فثم هاهنا بمنزلة الواو، هذا ولا سبيل فيما نحن بصدده إلى أن تجعل الواو للعطف؛ لمخالفة الثاني الأول في الإعراب، فإن قلت: فقدّرها مجرورة بإضمار الباء القسمية لا بحذفها، فقد جاء عنهم: الله لأفعلن مجروراً، ونظيره قولهم: لاه أبوك؛ غير أنها فتحت في موضع الجر لكونها غير مصروفة، واجعل الواو للعطف حتى يستتب لك المصير إلى نحو ما أشرت إليه، قلت: هذا لا

---

[1]- الزمخشري: الكشاف: 27/1 .

[2]- سورة الليل: الايات (1-3).

يبعد عن الصواب، ويعضده ما رووا عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: أقسم الله بهذه الحروف"([1]) .

ويعزّز هذا أيضاً ما نصّ عليه الرازي وهو يذكر الأقوال فيها بقوله:"...أنّ الاكتفاء من الاسم الواحد بحرف واحد من حروفه عادة معلومة عند العرب، فذكر الله تعالى هذه الحروف تنبيهاً على أسمائه تعالى"([2]) .

ويعزز هذا أيضاً ما جاء عند ابن قتيبه وهو يذكر المسموع للحروف المقطّعة، وكأنه يبيّن أهمية ودور المستوى التداولي ومدى ما يسهم به في فهم النصّ، من خلال معرفة العوالم، بقوله:" ولم نزل نسمع على ألسنة الناس: الألف: آلاء الله، والباء: بهاء الله، والجيم: جمال الله، والميم: مجد الله. فكأنا إذا قلنا:(حم) دلنا بالحاء على حليم، ودللنا بالميم على مجيد، وهذا تمثيل أردت أن أُرِيكَ به مكان الإمكان، وعلى هذا سائر الحروف، ومنْ ذهب إلى هذا المذهب فلا أُراه أراد أيضاً إلا القسم بصفات الله، فجمع بالحروف المقطّعة معاني كثيرة من صفاته، لا إله إلا هو."([3])، ويسنده كذلك ما ذكرته عائشة عبد الرحمن، وذهب إليه مصطفى حميدة أيضاً، عن خروج حرف الواو عن أصل الوضع اللغوي في القسم للتعظيم، إلى معنى بياني([4]). فهي بذلك لا تجعل الأسماء المكتوبة نحو: ص والقرآن ذي الذكر، و" ق والقرآن المجيد"، مقسم بها، مما يدلنا على أنّ حرف الواو حرف عطف لا قسم، إذ يظهر لي بأنّ الأصل أن يكون الخروج من اللازم إلى غير اللازم، أي من خروجه عن اختصاصه إلى غير ما هو له، وبهذا التأويل فلا خروج لحرف العطف عن كونه مختص بالعطف .

فإذا كانت هذه الحروف ــ كما نذهب ــ هي مقتطعة من أسماء الله الحسنى، وهي دالّة سيميائياً أو علامة على محور الوحدانية، وكذلك دلالة أسماء علىالمحور

---

[1]- الزمخشري: الكشاف: 13/1 .

[2]- الرازي: مفاتيح الغيب، مج1، 11/1،12.

[3]- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم: تأويل مُشكل القرآن، 306 . ت/ السيد أحمد صقر .

[4]- انظر: بنت الشاطيء: التفسير البياني للقرآن الكريم، 25/1. وحميدة، مصطفى: أساليب العطف في القرآن الكريم، الصفحات: 366-369.

نفسه، فإنّ الترابط حاصل أيضاً، في أبنية النصّ على المستوى العمودي لنصّ السورة، مما يعني تعالق الأبنية على مستوى دلالات النصّ، وهذا بين في الفقرة التي تتحدث عن موضوع الكفر والشرك، فشكّلت الآيات(113– 123)، هذه الفقرة؛ إذ بدأت بالكلام عن اليهود والنصارى ودعوتهم إلى اتبّاع ما هم عليه من الكفر والشرك، فتصدّت لهم آيات في الفقرة نفسها، فدحضت أقوالهم وحاججتهم بالأدلة والبراهين،قال الله تعالى في سورة البقرة:﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾([1]) .

ويظهر لنا بكلّ وضوح وجلاء، دلالة هذه الآيات على الموضوع المحوري لهذه السورة وهو التوحيد، وذكر هذه الآيات إنما هو تذكيراً لمن آمن من العرب من أهل مكة بالثبات على إيمانهم، وتقريعاً وتعريضاً بكفار(مكة) للاعتبار والعضة، وكذلك تقريعاً وتعريضاً باليهود والنصارى الذين في المدينة، وهذا قاسم محوري تشترك فيه السور المدنية مع السور المكية، وهو محور الوحدانية، وهذه وجه مناسبة في الاستهلال بالحروف المقطعة في السور المدنية الثلاث (البقرة، آل عمران، الرعد) . ويعزّز ما ذكرنا وجه المناسبة بين دلالة الآيات التي تقدّمت آيات الفقرة التي تصدرت بذكر اليهود والنصارى، كما أنّ السياق العام لبعض الآيات، هو سياق الدعوة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، من غير طرح للأسئلة على النبي عليه السلام، أو الاستماع إلى ما يقوله الكافرون، بقصد دعوتهم إلى الثبات على ما أمر به سبحانه وتعالى، وهو ثباتهم على دينهم (الإسلام)، الذي ارتضاه لهم عزّ وجل، فلا يتخذوا سواه ديناً بديلا، قال الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾، وقال الله تعالى:﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ *أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ *وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ

---

[1]– سورة البقرة: الآية/113، وانظر الآيات من السورة نفسها/116،117،120 .

أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

فمن خلال هذه الدلالات المتعالقة فيما بينها حول محور الوحدانيـة، يتحقـق تماسك النصّ بشكل كلّي من أوله إلى آخره، إذ إنّ الآيات التي ذكرناها آنفاً، متعالقة دلالياً مع مع دلالة الآيات الأولى من سورة البقرة إلى هذه الآيـات، فقـد اسـتهلت سورة البقرة بالحديث عن المتقين فبينت صفاتهم من خلال الآيات التي تتحدث عـن المؤمنين، ثم تحدثت عن الكافرين بشكل عام، وخصّت اليهود منهم بالخطاب بشكل مفصّل، وهو واضح بين في سورة البقرة، من خلال قصص اليهـود مـع الأنبيـاء والرسل الذين تتابعوا يدعونهم إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له .

6.1.2 عناصر التماسك النصيّ في سورة البقرة.

ونتناولها من خلال العنوانات الآتية:

أ- الروابط والعلاقات المتحققة ضمن المستوى الدلالي: وتشمل عناصر؛ الإحالـة، المناسبة، عناصر الربط الدلالي الأخرى، وأشير هنـا إلـى إضـافة الـروابط والعلاقات الدلالية التي أثرتنا بها السيميائيات أو نظرية العلامات .

ب- الروابط والعلاقات النحوية: تشمل هذه الروابط والعلاقـات وسـائل الـربط الشكلية واللفظية، والوظائف النحوية التي تحققها هـذه الـروابط، والوظـائف والعلاقات النحوية التي تؤديها الألفاظ من خلال موقعها فـي التركيـب ضـمن المستوى النحوي للنصّ .

3- العلاقات والعناصر المتحققة ضمن المستوى التداولي. وتشمل؛ السياق، نظريـة الأفعال الكلامية، الزمان والمكان وأسباب النزول ومكانه.

أ- العلاقات والعناصر الدلالية:

الإحالة النصيّة في سورة البقرة

ذكرنا في الفصل الأول إلى دور هذا العنصر الدلالي فـي تماسـك الـنصّ، ونذكّر بطبيعة هذه الإحالة؛ إذ تعتبر " علاقة دلالية ومن ثم لا تخضع لقيود نحويـة،

1- انظر: الآيات (104-112) .

إلا أنها تخضع لقيد دلالي وهو وجوب تطابق الخصائص الدلالية بين العنصر المحيل والعنصر المحيل إليه "([1])، ويمكن الوقوف على أهمية هذا العنصر على النحو الآتي:

أ- إحالة أسماء الإشارة.

(ذا): إنّ أول اسم إشارة يطالعنا في سورة البقرة هو (ذا) من قول الله تعالى:﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين﴾، وقد تعددت أقوال المفسرين والنحاة، في إحالته للقريب والبعيد أو لكليهما معاً، لكنّ المهم هو أنّ اسم الإشارة (ذا) يحيل إلى الكتاب (القرآن)، سواء أكانت الإحالة إليه قبلية أو بعدية، داخلية أو خارجية، بعيدة أم قريبة، ويظهر بأنه يشير إلى البعيد والقريب، وهو بذلك يمثّل إحالة قبلية وبعدية، خارجية وداخلية، ولتوضيح هاتين الإحالتين وربطهما معاً، فلا بد لنا من تأول جملة للآية الأولى التي شكلّتها الحروف المقطعة الثلاثة (الم): أنا الله أعلم بهدايتكم للصراط المستقيم الذي سألتموه، فهو في هذا القرآن، هذا القرآن هو ذلك الكتاب المحفوظ الذي وعدت بإنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم وفيه هذه الحروف المقطّعة، وفي هذا التأويل الرابط للآيتين معاً، فإنّ الإحالة القبلية تمثلت في إشارة (ذا) إلى الكتاب في اللوح المحفوظ، وهي إحالة خارجية، وإحالة قبلية داخلية تشير إلى القريب، وهي متمثلة في إحالة اسم الإشارة إلى القرآن، في الجملة التي تأولناها، وإحالة إلى هذه الحروف المشكلّة للآية الأولى من غير تأويل، وهي بحكم علاقة التضمن والالتزام من نصّ القرآن الكريم.

الإحالة البعدية: ذلك أحال اسم الإشارة (ذا) إحالة داخلية بعدية ذاتية متطابقة، إلى الاسم (الكتاب) القريب .

قال الشهاب:" اختلف النحاة فيما وضع له اسم الإشارة، فقيل منها ما وضع للقريب ومنها ماوضع للمتوسط ومنها ما وضع للبعيد، وقيل إنما هي على قسمين دون توسط ... لمّا كانت الإشارة هنا (لألم) فليس ببعيد تبادر الذهن للسؤال عنه، فبيّنه ـ أي البيضاوي ـ بوجهين أردفهما الزمخشري بثالث هو من تتمة

---

[1]- خطابي: لسانيات النصّ :17.

الثاني...الأول: أنّ ذلك لتقضي ذكره والمتقضي كالمتباعد، والإشارة إليه بما يشار به إليه مشهور جار في كلّ كلام، ولذا قيل: ما أبعد ما مضى وما قد فات، وفي المثل: أبعد من أمس، فهو لكونه متقضياً معدّ للعدم في حكم البعيد، لا بعيد عن الوجود كما قيل... والثاني: أنّه لما وصل من المرسل إلى المرسل إليه وقع في حدّ البعد، كما تقول لصاحبك ــ وقد أعطيته شيئاً: احتفظ بذلك، وهذا أمر مطّرد في العرف أيضاً...([1]) .

ويبدو أنّ تفسير أكثر المفسرين لقوله تعالى:"ذلك الكتاب" بأنه هذا الكتاب، وهذا الكتاب هو ذلك الكتاب الذي وعد الله سبحانه وتعالى بتنزيله، أو هو الكتاب الذي في اللوح المحفوظ، كلّها تفسيرات متفقة مع إحالة اسم الإشارة (ذلك) من (ذلك الكتاب)، إلى القريب والبعيد، سواء أكانت إحالة خارجية أم داخلية قبلية وبعدية، إذْ هما إحالتان تحيلان إلى محال إليه واحد، وهو القرآن الكريم، وذكر الرازي في تفسيره أنواع الإحالة التي يحيل إليها اسم الإشارة (ذلك)، إذ أحاله إلى القرآن الكريم من خلال استثماره للمستوى التداولي، فأحاله إحالة خارجية في إطار معرفة العوالم، أو ما لدى المتلقي من خبرات ومعارف، أي أنّ الإشارة بـ (ذلك) إشارة إلى الكتاب المعروف عندهم، قال الرازي:" ...أنه تعالى خاطب بني إسرائيل؛ لأنّ سورة البقرة مدنية وأكثرها احتجاج على بني إسرائيل، وقد كانت بنو إسرائيل أخبرهم موسى وعيسى عليهما السلام، أنّ الله يرسل محمداً صلى الله عليه وسلم، وينزّل عليه كتاباً، فقال تعالى:" ذلك الكتاب"؛ أي الكتاب الذي أخبر الأنبياء المتقدمون بأن الله تعالى سينزّله على النبي المبعوث من ولد إسماعيل...وأنه تعالى لمّا أخبر عن القرآن بأنه في اللوح المحفوظ بقوله:﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا﴾([2]) ، وقد كان عليه السلام أخبر أمته بذلك، فغير ممتنع أن يقول تعالى: ﴿ذلك الكتاب ﴾؛ ليعلم أنّ هذا المنزل هو ذلك الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ . ويتصل بهذا أيضاً كلام الرازي نفسه، وهو يفسّر الآية الأولى من سورة النمل وهو قول الله تعالى:" طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ

---

[1]- انظر: الشهاب: حاشية الشهاب المسمّاة (عناية القاضي وكفاية الراضي) على شرح البيضاوي، 183/1 وما بعدها، دار صادر- بيروت .

[2]- سورة الزخرف: الآية/4 .

وَكِتَابٍ مُبِينٍ"، قال: اعلم أنّ قوله: (تِلْكَ) إشارة إلى آيات السورة والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ" ([1]).

ويعضد هذه الإحالة في ضوء المستوى التداولي، ظاهر الآية التاليــة وســبب نزولها، قال الله تعالى:﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾([2])، ففي هذه الآية ورد الاسم الموصول (الذين)، والضمير:هم، من (آيتناهم)، ومن (منهم)، والبارز المؤكد (هــم)، وضــمير الرفــع (الواو)، من: (يعرفونه)، و(يعرفون)، و(ليكتمون)، و(يعلمون)، وجميعها تحيل إحالة نصيّة خارجية متطابقة، إلى عبد الله بن سلاّم وأصحابه مــن أهــل الكتــاب، قــال الواحدي:" نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلاّم وأصحابه، كانوا يعرفــون رسول الله صلى الله عليه وسلّم، بنعته وصفته وبعثه في كتابهم، كما يعرف أحــدُهم ولدَه إذا رآه مع الغلمان، قال عبد الله بن سلاّم: لأنّا أشدّ معرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم، مني بابني، فقال له عمر بن الخطاب: وكيف ذاك يا ابن سلاّم ؟ قــال: لأنّي أشهد أنّ محمداً رسول الله حقاً يقيناً وأنا لا أشهد بذلك علــى ابنــي؛ لأنّــي لا أدري ما أحدث النساء، فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلاّم"([3])، وأبان سبب نزول هذه الآية كذلك عن الضمير من (يعرفونه)، بإحالته إلى الرسول صلى الله عليه وســلّم، إحالة نصيّة خارجية ذاتية متطابقة، وقد وقع في موقع المفعولية من الجهة النحويــة البحتة، ومرتبطاً مع المسند إليه (أهل الكتاب) بهذه العلاقة النحوية الوظيفيّة، ارتباط المسند (يعرفون) والمسند إليه بعلاقة الإســناد، فالفعــل والفاعــل والمفعوليــة، أو المحمول والموضوع والذيل، ضمّها جميعاً تركيب واحد هو جملة (يعرفونه).

كما أنّ هذا الاسم (ذا) بشكل خاص، هو القادر علــى تأديــة هــذا الــدور الوظيفي، في الربط بين البعيد والقريب، وبين السابق واللاحــق، وبــين الخــارج والداخل، ومما يعضد هذه القدرة له في الربط قبلياً وبعدياً، ما ذكره الطبري وغيره من المفسرين، من تأويل للمشار به، فقد جاء في تفسير الطبري لقــول الله تعــالى:"

---

[1]- الرازي: مفاتيح الغيب،م1، 14/2،15.

[2]- سورة البقرة: الآية/146.

[3]- الواحدي: أسباب النزول: 46 .

ذلك الكتاب": هذا الكتاب، قال: قال ابن عباس: "ذلك الكتاب":هذا الكتاب "([1]).
وقولهم: هذا الكتاب في " ذلك الكتاب " يؤدي إلى ربط آخر سورة الفاتحة بأول سورة البقرة، قال أبو حيان في تفسيره:" وسمعت الأستاذ أبا جعفر بن إبراهيم بن الزبير شيخنا يقول: ذلك إشارة إلى الصراط في قوله: "اهدنا الصراط "، كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم، قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب، وبهذا الذي ذكره الأستاذ تبيّن وجه ارتباط سورة البقرة بسورة الحمد، وهذا القول أولى؛ لأنه إشارة إلى شيء سبق ذكره لا إلى شيء لم يجر له ذكر"([2])، واستغرب الألوسي هذه الإشارة بقوله: "وأغرب ما رأيناه في توجيه الإشارة، أنها إلى الصراط المستقيم في الفاتحة؛ كأنهم لما سألوا الهداية لذلك قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب، وهذا إن قبلته يتبين به وجه ارتباط سورة البقرة بسورة الحمد على أتم وجه وتكون الإشارة إلى ما سبق ذكره، والذي تنفتح له الأذان أنّه إشارة إلى القرآن...([3]).

وبحكم التماسك والترابط والانسجام والاتساق، وتحكيم عناصرها بنية وتركيباً ودلالة وتداولاً، في نصوص القرآن المكي والمدني، وإمكانية التأويل ومنطقيتها للمشار به وللمشار إليه، فلا تناقض ولا تعارض في إحالة اسم الإشارة إلى القريب أو البعيد، سواء أكانت الإحالة إلى ما نزل من القرآن الكريم قبل الهجرة أو بعدها، وكل ما نزل فيهما غير متعارض أو متناقض أيضا كذلك، عند إحالة اسم الإشارة الكتابَ بعده إلى القرآن في اللوح المحفوظ، ويعضد هذه الإحالة ما جاء من آيات في سورة البقرة وغيرها من السور، مكية أم مدنية استهلت بحروف مقطعّة أم لم تستهل، فالمكي والمدني ـــ بقطع النظر عن الناسخ والمنسوخ فيهما ـــ هما القرآن الذي في اللوح المحفوظ، وجمعا في هذا الكتاب، لذلك كانت الإشارة إلى الكتاب لا إلى القرآن، أعمق في الدلالة على الجمع بين ما نزل في مكة وما نزل في المدينة، لأنّ الكتاب متضمن دلالة الجمع؛ أي المجموع، أمّا القرآن فجاء مفرّقاً، وفي لفظ

---

[1]- الطبري: الجامع، 225،226/1 .

[2]- أبو حيان: البحر المحيط: 61/1 .

[3] – الألوسي: روح المعاني: 106،105/1.

(الكتاب) علامةً، أورد لها الألوسي دلالة تنسجم مع دلالة الآية الثانية بعد قوله تعالى:" ذلك الكتاب"، وهو قوله تعالى:"لا ريب فيه هدىً للمتقين"، قال:"ويطلق الكتاب كالقرآن على المجموع المنزل على النبي المرسل صلى الله عليه وسلم،وعلى القدر الشائع بين الكل والجزء، ولا يحتاج هنا إلى ما قيل في دفع المغالطة المعروفة بالجذر الأصم، ولا أرى فيه بأساً إن احتجته، واللام في الكتاب للحقيقة مثلها في أنت الرجل، والمعنى ذلك هو الكتاب الكامل الحقيق بأنّ يخص به اسم الكتاب، لغاية تفوقه على بقية الأفراد في حيازة كمالات الجنس، حتى كأن ما عداه من الكتب السماوية خارج منه بالنسبة إليه، وقال ابن عصفور: كل لام وقعت بعد اسم الإشارة وأي في النداء وإذا الفجائية، فهي للعهد الحضوري وقرئ " تنزيل الكتاب"([1])، ويمكن رصد علامة أخرى تلوح بدلالة أخرى أيضاً، أفصحت عنها الوظائف النحوية التي أدّاها حرف النفي واسمه وشبه الجملة (فيه)، التي اشتملت على ضمير يحيل إلى الكتاب إحالة نصيّة قبلية ذاتية متطابقة، ليحصر نفي الريب عنه تحديداً من خلال ضميره، الذي جاء مسنداً إليه، فنفي الريب مسنداً إلى الكتاب، إشارة إلى أن ريباً قد حصل في كتب سوى هذا الكتاب، وما فيه ريب لن يكون سبباً في الهداية إلى الطريق المستقيم، كذلك أدى الوقف من جهة أخرى وظيفة تداولية، إذ ينبئ النبر مع الوقف للفظ الكلمتين معاً (لا ريبْ) عن معنى تداولي أسلوبي، فإذا ما تكلّم شخص ما أو جاء برأي سديد في موقف ما، فإنّ شخصاً أو أكثر من المتلقين، سيمدح هذا القول أو الرأي، فيقول بنبرة عالية: هذا الكلام أو هذا الرأي ويقف، أو يتبعه ذاكراً نعتاً له فيقول: الصحيح أو الحق ويقف، ليدلّ على أنّ لا كلاماً ولا رأياً غيره أحقٌ وأقوم منه.

أولئك: جاء اسم الإشارة مكرراً في الآيتين، وقد أحال إحالة قبلية إلى من دخل في صفة المتقين، فجاءت الإحالة في ختام الحديث عن صفات المتقين، إحالة إلى عموم المتقين، تأكيداً لقوله "هدىً للمتقين"، أي بمعنى أن كل من دخل بالوصف هو بسبب هذا الكتاب، وهذا الكتاب هو من الله تعالى، فأكد على هذا بقوله:﴿أولئك على

---

[1]- الألوسي : روح المعاني: 109/1،

هدىً من ربهم﴾، ويظهر أن الإشارة للبعيد، لتوزع المسند (الأفعال) وتعددها وتعدد المسند إليه في أكثر من آية، فاقتضى النظم لجمع صفاتهم وجمع المسند إليه، أن تكون الإشارة بـ (أولئك)، ولئلا تكون الإشارة إلى بعيد متوهم غير الذي أحال إليه اسم الإشارة، تُبع اسم الإشارة بإضافة ضمير الخطاب إليه (الكاف: أولئك)، ليحيل إحالة قبلية قريبة إلى كلّ مسند إليه أسند إليه فعل مخصوص، كما أحال اسم الإشارة المكرر (أولئك) إلى ما أحال إليه الأول .

أولئك: وجاء في آخر الآيات التي تتحدث عن الكافرين([1])، إذ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾([2]) فأحال إليهم إحالة ذاتية قبلية متطابقة.

(تلك): تكرر اسم الإشارة المفرد المؤنث (تلك)، في مواضع كثيرة من سورة البقرة، ويمثل في أغلب مواضعه إحالتين؛ إحالة قبلية خارجية إلى الكلام الذي قيل قبل اسم الإشارة، وهو كلام في مجمله عن القصص، وإحالة بعدية خارجية متطابقة ذاتية إلى لفظة (آيات الله) بعده. واسم الإشارة (تلك)، شأنه في دلالته على الغائب والحاضر متطابق مع اسم الإشارة (ذلك) الذي ذُكِرَ في الآية الثانية من سورة البقرة، فلا فرق بين القول: تلك آيات الله ، والقول: هذه آيات الله ، في إشارته إلى الحاضر، ويعضد ذلك ما جاء من تراكيب، يماثل تركيب الجزء الأول من الآية الواحدة في كلّ سورة بعد الحروف المقطّعة، في عدد من السور ذوات الحروف المقطّعة دون غيرها من سور القرآن الكريم، فمن هذه التراكيب جملة (تلك آيات الله) في قوله تعالى:﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾([3]).

إنّ الرابط بين هذه الجملة (آيات الله)، أنّها منزلة من الله تعالى، وقد ذكرها هذا الكتاب (القرآن) المنزل من الله تعالى، وأشار بعض المفسرين إلى هذا التطابق والتماثل، بين أسماء الإشارة مذكر ومؤنثاً غائباً أو حاضراً، وهو يتحدث عن اسم الإشارة (تلك)، إذ نجد الطبري يقول في تفسير الآية السابقة يعني تعالى ذكره

---

[1]– انظر: الايات (6–16) من سورة البقرة .

[2]– سورة البقرة: الاية/16.

[3]– سورة البقرة: الاية/252، وانظر: سورة آل عمران: الآية/108، وسورة الجاثية: الآية/6 .

بقوله:"تلك آيات الله"، هذه الآيات التي اقتصّ الله فيها أمر الذين خرجوا من ديـــارهم وهم ألوف حذر الموت، وأمر الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى الــذين ســألوا نبيهم أن يبعث لهم طالوت ملكا وما بعدها من الآيات إلى قوله :"والله ذو فضل على العالمين"، ويعني بقوله:"آيات الله"، حججه وأعلامه وأدلته"([1])، وكذلك ما جـاء بــه الفخر الرازي من تفسير له بقوله: "اعلم أن قوله :"تِلْكَ إشارة إلى القــصص التـــي ذكرها من حديث الألوف وإماتتهم وإحيائهم وتمليك طالوت، وإظهار الآية التي هي نزول التابوت من السماء، وغلب الجبابرة على يد داود وهو صبي فقير، ولا شــك أن هذه الأحوال آيات باهرة دالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فــإن قيل: لم قال:" تِلْكَ " ولم يقل:(هذه) مع أن تلك يشار بها إلى غائب لا إلى حاضــر؟ قلنا: قد بينا في تفسير قوله:" ذلك الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ "، أن تلك وذلك يرجــع إلـــى معنى هذه وهذا، وأيضاً فهذه القصص لما ذكرت صارت بعد ذكرها كالشيء الــذي انقضى ومضى، فكانت في حكم الغائب فلهذا التأويل قال:" تِلْكَ "([2])، وقد ذكر لهــا أبو السعود معنى التنزيل في تفسيره قال:" تِلْكَ " إشارة إلى ما ســلف مــن حــديث الألوفِ وخبرِ طالوتَ على التفصيل المرقوم، وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلـو شأنِ المشارِ إليه"آيات الله" المنزلةُ من عنده تعالى"([3]).

وفي هذا السياق يمكن أن نعدّ ما وقع مضافاً إلى لفظ الكتاب، بعد الحــروف المقطعة مباشرة ــ سواء أكانت الحروف تشكّل وحدها آية، أم تشكّل معهــا أســماء الإشارة والمشار إليه من المضاف والمضاف إليه آية نحو: قول الله تعالى:" الــــر تلك آيات الكتاب الحكيم "، وقوله تعالى:" الم*تلك آيات الكتاب الحكيم "ــ يمكــن أنْ نعدّها تابعة للكتاب من قوله تعالى:" ذلك الكتاب"، بحكــم علاقــة الجــزء والكـل والتبعية، التي تمثلها علاقة الإضافة بين المضاف والمضاف إليه، وقــد ورد لفــظ الجلالة (الله) عزّ وجلّ، بدلاً من الكتاب في جملة (تلك آيات الله)، لتتعاضــد الآيـــة

---

[1]– الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، 377/5 .

[2]– الرازي: مفاتيح الغيب: م3،ج6،208.

[3]– أبو السعود: محمد بن محمد بن مصطفى العمادي إرشاد العقل السليم إلى مزايــا الكتــاب العزيز:292/1،291.

التي فيها الكلمات الثلاثة: تلك، آيات، الكتاب، مع سائر الآيات التي ورد فيها بنيتها الفاظ (الكتاب، آيات، الآيات وغيرها من الألفاظ التي يتضمنها القرآن الكـــريم، وإن دلّ هذا الاستبدال والتكرار لها باللفظ جزئياً أو كلياً، أو تكرارها بالمعنى على شيء، إنّما يدلّ على تماس نصوص هذه السور دلالياً.

ويتصل بهذا النوع من الإحالات (البعدية والقبلية) إحالةاسم الإشارة (تلك) التـــي تنسجم مع الإحالتين التي أحال إليهما اسم الإشارة (ذلك)، من قوله:" ذلك الكتـــاب"، وقد ورد اسم الإشارة (تلك) في عدد من السور ذوات الحروف المقطّعة([1])، فهـــذه الإحالات المتكررة لفظاً ومعنىً في سائر السور ذوات الحـــروف المقطّعـــة، تـــدلّ وتعزّز من تماسك نصوص هذه السور موضع الدراسة والبحث بشكل خاص.

ب- إحالة الضمائر.

الضمائر التي تحيل إلى الكتاب (القرآن) .

(الكاف) من ذلك: وهي ضمير دال على الخطاب، والخطاب يكون للقريـــب، وهذا يعضد إحالة اسم الإشارة (ذلك) إلى الكتاب إحالة قبلية بعيدة وإحالـــة بعديـــة قريبة .

الهاء: من قوله تعالى:" (فيه هدىً)، فيمثّل هذا الضمير إحالـــة قبليـــة للاســـم (الكتاب)، فهو أقرب اسم له في تتابع الآية الخطي، وعمل فيه حرف الجـــر (فـــي) مؤدياً بذلك دوراً وظيفياً يفيد معنى الظرفية، ويظهر أنّ المعنـــى النحـــوي، لـــيس مقتصراً في إفادته على العلاقة المكانية (المحلية) الذاتيـــة المفهومـــة مـــن الكتـــاب مضموناً فقط، بل أفاد الظرفية المكانية والزمانية مطلقاً أيضاً، فالكتاب (القرآن) فيه الهدى في أي مكان وفي أي زمان، ويعضد هذا الإطلاق نفي الريـــب عنـــه جنـــساً وعنه مكاناً وزماناً، والله سبحانه وتعالى تكفّل بحفظه، وارتبط الجـــار والمجـــرور (في) بالجملة قبله بعلاقة التعليق، إذ تعلّق بالنفي، والذي لا ريب فيه هـــو طريـــق

---

[1]- انظر على الترتيب: سورة يونس: الآية/1. سورة يوسف: الآية/1. سورة الرعد: الآيـــة/1. سورة الحجر: الآية/1. سورة الشعراء: الآيتان/1،2. ســـورة النمـــل: الآيـــة/1. ســـورة القصص: الآيتان/1،2. سورة لقمان: الآيتان/1،2.

الهداية إلى الصراط المستقيم، ويمكن الربط دلالياً وعلى المستوى العمودي، في إحالة الآية " بما أنزل إليك " إلى الكتاب (القرآن).

الهاء من (مثله): في قول الله تعالى:﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾([1]). فالضمير أحال إحالة قبلية إلى القرآن الذي أنزله الله تعالى، وإنْ كان لفظ القرآن لم يصرح به حقيقة، لكنّ دلّ عليه دليلان هما: الآية " وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا "، وهي تحيل إحالة قبلية إلى الكتاب في الآية الثانية من السورة "ذلك الكتاب"، كما أن لفظة (ريب) الواردة في هذه الآية أكّدت بحكم تكرارها، بأنّ الذي نزل على عبده ، هو الكتاب نفسه الذي نفى عنه الريب على وجه الإجمال في أول السورة، فجاء التفصيل بتحديهم على إثبات أو وقوع ريب ما، وقع أو قد يقع لديهم، في أي جزء أو بعض من الكتاب الذي أنزل على محمد عليه السلام، فأدّى حرف الجر (في) معنىً وظيفياً أفاد الظرفية المحلية؛ أي إن كان عندكم أو في نفوسكم محل لريب ما في بعض الكتاب فافعلوا، و(من) أدّى معنىً وظيفياً أفاد التبعيض، فانسجمت دلالة الحرفين وتطابقتا معاً، في نفي وقوع أي ريب كماً وكيفاً لديهم، ونفيه عن وقوعه في الكتاب كلّه إجمالاً، أو في بعضه تفصيلاً، والدليل الآخر على إحالة الضمير (الهاء) في " من مثله"، لفظةُ (بسورة) قبل الجار والمجرور، فالسورة بحكم علاقة الجزء والكل التي أقرها نحو النصّ عنصراً دلالياً ، أحالت إلى الكتاب (القرآن) فالسورة جزء منه.

الضمائر المحيلة إلى غير العاقل: وردت ضمائر كثيرة في سورة البقرة تحيل إلى أسماء غير عاقله، ومن هذه الضمائر ما يلي:

الهاء: من (فوقها و أنّه) في قول تعالى:﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا

[1]- سورة البقرة : الآية:23.

الفاسقين ﴾([1])، فالضمير الهاء من كلمة (فوقها)، يحيل إحالة قبلية ذاتية متطابقة إلى الاسم غير العاقل (بعوضة)، والضمير الهاء من (أنّه) يحيل أيضاً إحالة قبلية ذاتية متطابقة إلى قوله (مثلاً) غير العاقل أيضاً، والضمير الهاء من كلمة: "نتلوها"، يحيل إحالة قبلية داخلية ذاتية متطابقة، إلى كلمة آيات الواردة قبل هذا الفعل من قول الله تعالى:﴿ تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾([2]).

ما يحيل إلى لفظ الجلالة:

من الضمائر التي تحيل إحالة قبلية ذاتية متطابقة إلى لفظ الجلالة (الله)، الضمير المستتر المسند إليه مجموعة من الأفعال نحو: خلق، جعل، أنزل...الخ، من الإحالات الضميرية التي تتصل بالإحالة السابقة إلى لفظ الجلالة أيضاً، الضمائر المستترة التي تحيل إحالة خارجية إلى جبريل عليه السلام، ومنها قوله تعالى:﴿تلك آيات الله نتلوها عليك﴾، إذ أحال الضمير (نحن) المستتر من (نتلوها)، إحالة خارجية إلى جبريل عليه السلام، أي أنّ جبريل هو الذي يتلو آيات الله على محمد عليه السلام، وقد جعل الرازي إسناد الفعل إلى جبريل عليه من باب التشريف العظيم له من الله تعالى قال:" أما قوله تعالى: "نَتْلُوهَا" يعني يتلوها جبريل عليه السلام عليك لكنه تعالى جعل تلاوة جبريل عليه السلام تلاوة لنفسه، وهذا تشريف عظيم لجبريل عليه السلام ، وهو كقوله:﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾([3]).

ما يحيل إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم:

الكاف: من إليك ويحيل إحالة خارجية إلى الرسول عليه السلام، إذ لم يرد لفظ الرسول عليه السلام في نص هذه السورة قبل الكاف أو بعده، ويمكن إحالته إحالة داخليه بعدية متطابقة لاسم الذات (الرسول، النبي) المذكور في نصّ السورة بعده، وبحكم معرفة المخاطِب والمتلقين بصفة النبي عليه السلام وكتابه، والتعريف به بالضمير المضمر (الكاف) في أكثر من موقع من نص السورة، وسياق السورة على أن لا نبي بعده، قال تعالى:" وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ"، مصدقاً لما معهم...الخ" مما يدلّ

---

[1]– سورة البقرة: الآية/26.

[2]– سورة البقرة: الآية/252 .

[3]– سورة الفتح: الآية :10 .

على أن المحال إليه هو محمد عليه السلام، فهو خاتم الأنبياء والرسل، ورسالته هي خاتمة الرسالات، والدين الذي دعا إليه وجاء به الكتاب هو خاتم الأديان وناسخها.

الضمائر التي تحيل إلى الرسل:

ومن أمثلة ذلك الضمير الذي أحال إحالة قبلية ذاتية متطابقة، إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى:﴿الم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربّه﴾ ، قال ابن عاشور:" الضمير الذي اتصل بلفظة (ربّ) عائد إلى إبراهيم، والإضافة لتشريف المضاف إليه"([1]).

الضمائر التي تحيل إلى أسماء ضمن حقل دلالي واحد:

وهذه الأسماء هي (المتقون، المؤمنون، المفلحون...)، إذ أحال ضمير الرفع (الواو) في الأفعال (يُؤْمِنُونَ، ويُقِيمُونَ، يُنفِقُونَ، يُؤْمِنُونَ، يُوقِنُونَ)، إحالة ذاتية متطابقة إلى الاسم المتقين الوارد في الآية الثانية، وهذا الضمير ورد في قول الله تعالى:﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ*وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ*أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾([2])، كما أحال ضمير الفصل (هم) قبل الفعل (يوقنون) وقبل الاسم (المفلحون)، إلى الاسم (المتقين) إحالة قبلية ذاتية متطابقة، كما أنّ إحالة ضمير الفصل (هم) يفيد معنيين نحويين وظيفيين هما التوكيد و الحصر؛ أيّ حصر هذه الصفات بالمتقين وتوكيدها لهم، وأدّى كذلك إلى الربط بين الألفاظ على مستوى الجملة والربط بين الآيات على مستوى الفقرة، ومن الضمائر التي تحيل إلى أسماء ذات حقل دلالي واحد، الضمائر التي تحيل إلى الأسماء التالية: الآيات، البينات، البرهان، الحجج.

---

[1]- ابن عاشور: التحرير والتنوير، 32/3 .

[2]- سورة البقرة :الآيات:5،3،4 .

ما يحيل إلى الكافرين:

أحال الضمير (هم) مستتراً وبارزاً إحالة ذاتية متطابقة، قبلية وبعدية، داخلية وخارجية، ومن ضمن الكافرين فئة المنافقين الذين ذكرتهم الآيات من خلال صفاتهم،

الإحالة البعدية: أول ما أحال إلى الكافرين الاسم الموصول (الذين) المسبوق بأداة التوكيد في جملة (إنّ الذين)، فأحال إليهم إحالة خارجية بعدية ذاتية متطابقة، وجاء ذكر الكافرين من خلال المحتوى القضوي الذي شكلّته جملة (إنّ الذين كفروا)، فهذا المحتوى شكّل (قضية)، هي قضية (الكفر) ويدخل ضمن الحقل الدلالي قضية (الشرك)، وهذه القضية أجملتها الآيتان:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ* خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ([1])، ويظهر أنّ تصدير الآيات التي تتحدث عن الكافرين، بالاسم الموصول وقبله أداة التوكيد، ليشمل جميع الكافرين ومن ضمنهم المنافقين، ومما يعزّز هذا ـ كما يبدو ـ أنّ مجيء اسم الجلالة (محيط) قد ورد سبع مرات في القرآن الكريم " ، وأول ما جاء في سورة البقرة قال تعالى: "والله محيط بالكافرين"، وختم في سورة البروج بقوله تعالى:" والله من ورائهم محيط"، لكنّ الأمر المهم الذي أردت أن أصل إليه من وراء هذا الإحصاء، هو أنّ الظرف (ورائهم) قد جاء مرة واحدة وفي آخر سورة منها، فختامه بهذه السورة وبهذا اللفظ (ورائهم) لعلامة دلالية على إحاطة علم الله سبحانه وتعالى في كلّ شيء حدث في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل وفي اليوم الاخر وما فيه من أحداث والله سبحانه وتعالى أعلم .

ضمير الجمع (هم): في الكلمات التالية:(عَلَيْهِمْ، أَأَنْذَرْتَهُمْ، تُنْذِرْهُمْ ، قُلُوبِهِمْ، سَمْعِهِمْ، أَبْصَارِهِمْ، جاءهم)، إذ أحال هذا الضمير إحالة قبلية ذاتية متطابقة إلى (الكافرين)، فأفاد الضمير التوكيد ، وقد أكد أيضاً بحرف التوكيد (إنّ) في صدر الآية الأولى التي تتحدث عنهم قال تعالى:" إنّ الذين كفروا ".

---

[1]– سورة البقرة :الآيتان/6،7.

وتكرّر الضميران (هم) وضمير الرفع (الواو) ظاهراً في الآيات التي تتحدث عن صفات المنافقين، والتي تبدأ من الآية السادسة، فأحال إلى الاسم (المنـــافقون) إحالة ذاتية خارجية متطابقة، نحو: بهم، ويمدهم، هم المفسدون، يُخـــادعون، ومـــا يشعرون، وفي قوله تعالى:﴿وما هم بمؤمنين﴾ للدالة على التوكيد أيضاً .

الإحالة الخارجية:

الضمائر: وهي الضمائر التي تحيل إلى غير مذكور في الـنصّ؛ أيّ خـــارج النصّ ويدلّ عليه سياق الآية أو الآيات، كما يدل عليه سبب النزول .

ومن الإحالة الخارجية إحالة الضمير المتصل (الهاء)، الذي وقع فـــي موقـــع المفعولية في جملة (اضربوه)، وارتبط بالمسند والمسند إليه بهذه العلاقة.

الجمل التفسيرية: وهي الجمل التي تنهض بمهمة التبيين والتوضـــيح والبيـــان للجمل التي قبلها، فتقوم بدورها النحوي الوظيفي محققة به، معنىً نحويـــاً وظيفيـــاً، يؤدي إلى ربط الجملتين فيما بينهما بسبب هذه العلاقة، سواء أكانت هـــذه الوظيفـــة النحوية متأتية بفعل علاقة البدل أم التوكيد بنوعيه، أم بعطف البيـــان، أم جوابـــاً أم إضافة، وقد أوضح عبد القاهر الجرجاني ــ في باب الفصل والوصـــل ـــ ارتبـــاط الألفاظ بعضها ببعض دون رابط بينها، وكذلك ارتباط الجمل فيما بينها دون وجـــود رابط بينها بقوله:" وأعلم أنّه كما كان في الأسماء ما يصله معنـــاه بالاســـم قبلـــه، فيستغني بصلة معناه له عن واصل يصله ورابط يربطه وذلـــك كالـــصفة التـــي لا تحتاج في اتصالها بالموصوف إلى شيء يصلها به، وكالتأكيد الذي يفتقر كذلك إلى ما يصله بالمؤكد كذلك يكون في الجمل ما تتصل مـــن ذات نفـــسها بـــالتي قبلهـــا، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها، وهي كل جملة كانت مؤكـــدة للتي قبلها، ومبينة لها. وكانت إذا حصلت لم تكن شيئاً سواها، كما لا تكون الـــصفة غير الموصوف والتأكيد غير المؤكد. فإذا قلت: جاءني زيد الظريف وجاءني القـــوم كلهم لم يكن الظريف وكلهم غير زيد وغير القوم"([1]) .

---

[1]- الجرجاني : دلائل الإعجاز ، 64.

ومن الآيات التي وردت في سورة البقرة، وجاءت جملاً مفسّرة، أدّت الوظائف النحوية فارتبطت الجمل فيما بينها بفعل تلك العلاقات، قول الله تعالى:﴿الـم* ذَلِـكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾، إذْ إنّ جملة لا ريب فيه، هي مؤكدة لقوله: ذلـك الكتاب، فأزالت ما يوحي به اسم الإشارة من توهم، وبيّن الجرجاني التـرابط بـين الجملتين من الآية رغم عدم وجود رابط يربطهما ببعض بقوله:" قوله" لا ريب فيه"، بيان وتوكيد وتحقيق لقوله:"ذلك الكتاب" وزيادة تثبيت له، وبمنزلة أن تقول: هو ذلك الكتاب هو ذلك الكتاب، فتعيده مرة ثانية لتثبته. وليس تثبيت الخبر غير الخبـر، ولا شيء يتميز به عنه فيحتاج إلى ضام يضمه إليه، وعاطف يعطفه عليه. ومثل ذلـك قوله تعالى: " إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون. ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم " قوله تعـالى: "لا يؤمنون" تأكيد لقوله﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ وقوله:﴿ختم الله علـى قلوبهم وعلى سمعهم﴾ تأكيد ثان أبلغ من الأول؛ لأنّ من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر كان في غاية الجهل، وكان مطبوعاً على قلبه لا محالة"([1]).

التكرار بالمعنى: وجاء من خلال اللفظة الواحدة أو من خلال الجملـة، ومـن ذلك تكرار لفظة الكتاب التي في قوله تعالى:" أنزل إليك (الكتاب)، تكرارهـا فـي المعنى في قوله تعالى:﴿أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكـم أفـلا تعقلون﴾، والذي فُـتِحَ عليهم هو هذا الكتاب، إذ إن سياق الآيات قبل هذه الآية فـي الحديث عن الكتاب سمعوه وعقلوه ثمّ أخذوا يحرفونه، وفي بعدها أيضاً بدليل قوله تعالى:﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله﴾([2])، ويعـضد إحالة هذه الآية للكتاب ويشد من تماسكها وتعالقها تداولياً، قوله تعالى:﴿فلما جـاءهم ما عرفوا كفروا به﴾([3]).

التخصيص: وتحقق هذا العنصر من خلال موضوع التقديم والتأخير، ولهـذا التخصيص المتحصّل من التقديم، قصدية محصورة على المتكلّم نفسه في الحقيقـة،

---

[1] – الجرجاني: دلائل الإعجاز: 66 .

[2] – سورة البقرة: الآية/79 .

[3] – سورة البقرة: الآية/89 .

وهي قصدية تتصل بالمعنى الكلي للنصّ اتصالاً مباشراً، إنْ لم تكن هـي القـصدية التي ألحت عليها بنى النصّ الصغرى والكبرى، من خلال المعاني الجزئيـة التـي تصرّح بها أو تلمح أو تشير إليها، وتتصل بشكل مباشـر أو غيـر مباشـر بهـذه القصدية الحصرية، فتعددت وتنوعت لأجلها وحدات النصّ بألفاظه وجمله وفقراته، طولاً وقصراً، وتقديماً وتأخيراً، وذكراً وحذفاً، وتكراراً وإحالة ومقابلـة، بـراهين وأدلّة وحججاً وقصصاً وأمثالاً وتذكيراً ووعداً ووعيداً، إلزاماً للمتلقي- رحمة بـه- ليقرّ بهذه القصديّة التي أنكرها المقصود بالخطاب، فيسلك بهـذا الإقـرار طريـق الاستقامة التي تمثّل هذه القصديّة جوهرها، وذلك بأن يأخذ بأسباب استقامته عليهـا، بتنفيذه ما أمر به المخاطِب كما نفّذه المخاطبون على الوجه الـذي أراده المخاطِـب نفسه، فنقلت مضامين ما أمر بتنفيذه المخاطِب برسائل تؤول إلى قصدية واحدة، من خلال عدة مرسلين موحى لهم بهذه الرسائل من المخاطب نفسه.

ورد التخصيص لهذه القصدية الحصريّة، بتقديم صاحبها على ركنـي الجملـة (المسند والمسند إليه)، فصارت التكملة (الفضلة) وهو الضمير الذي وقع مفعـولاً به(إيّاه)، أهم ما في الجملة، فبهذا التقديم كان محور التركيب البؤرة الرئيـسة فـي الآية، قال الله تعالى:" واشكروا لله إنْ كنتم إيّاه تعبدون"([1])، وقد مرّ معنا ـــ وذكـره الطبري لابن عباس ـــ تفسير العبادة بالتوحيد، فالوحدانية المتحققـة يقينـاً بـشهادة التوحيد (لا إله إلا الله)، وهي جوهر الصراط المستقيم ولبّ الربوبية لربّ واحد في الأصل، بخلاف ربّ البيت وغيره من الأرباب والأنداد، قال في البحر:" وإيّـا هنـا مفعول مقدم، وقدم لكون العامل فيه وقع رأس آية، وللاهتمام به والتعظـيم لـشأنه؛ لأنه عائد على الله تعالى، كما في قولك:" وإياك نستعين" وهذا من المواضـع التـي يجب فيها انفصال الضمير، وهو إذا تقدم على العامـل أو تـأخر "([2]). فالربوبيـة والوحدانية هما المحمولان الرئيسان، اللذان ما فتئت أبنية الـنصّ أفقيـاً وعموديـاً تحملهما لفظاً ومعنىً، كما نوّهت هذه الأبنية بالقرآن الكريم المنزّل على محمد عليه

---

[1] – سورة البقرة: الآية/172.

[2]– أبو حيان: البحر المحيط، 2/110.

السلام، فهو المرسَل الداعي لهما حقاً، فأوجب أنْ تكون المحمولات المتصلة بصاحب الرسالة الأول، على قدر قصديّة صاحبها في التأكيد عليها والاحتجاج لها؛ تصديقاً وتسلية وحجة واحتجاجاً. ويظهر التقديم في الآية الكريمة، خصوصية الوحدانية لله تعالى وحده، إذْ قُدِّم المفعول به وهو الضمير (إيّا) البارز مضافاً إليه ضمير الغائب (الهاء)، الذي يحيل إحالة قبلية إلى لفظ الجلالة (الله) قبله، إحالة ذاتية مفردة متطابقة، قدّم على فعل العبادة المسندة للخلق، بدليل إسناد فعل العبادة إلى ضمير الفعل المستتر(أنتم)، ليفيد حصر العبادة وخصوصيتها بالله وحده عزّ وجل، وفي هذا السياق أقف عند ما ذكره اللغويون من كون (إياك) هو الضمير كلّه، أم الكاف وحدها المتصلة بـ (إيّا)، جاء في الدّر المصون:" إذ اختلف النحاة فيه، فمنهم عدّ (إيا ضميراً) ومنهم من عدّ الكاف ضميراً، ومنهم منْ عدّ (إياك كلّها ضميرا)، جاء في حاشية (شرح ابن عقيل):" وذهب الخليل والمازني، واختاره ابن مالك، إلى أن هذه اللواحق أسماء، وأنها ضمائر أضيفت إليها " إيا "زاعمين أن " إيا " أضيفت إلى غير هذه اللواحق في نحو" إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب" فيكون في ذلك دليل على أن اللواحق أسماء، وذلك باطل لوجهين، الأول: أن هذا الذي استشهدوا به شاذ، ولم تعهد إضافة الضمائر، والثاني أنه لو صح ما يقولون لكانت" إيا " ونحوها ملازمة للإضافة، وقد علمنا أن الإضافة من خصائص الأسماء المعربة، فكان يلزم أن تكون إيا ونحوها معربة، ألست ترى أنهم أعربوا "أي" الموصولة والشرطية والاستفهامية لما لازمها من الإضافة؟ وقال الفراء: إن "إيا" ليست ضميرا، وإنما هي حرف عماد جئ به توصلا للضمير، والضمير هو اللواحق، ليكون دعامة يعتمد عليها، لتمييز هذه اللواحق عن الضمائر المتصلة. وزعم الزجاج أن الضمائر هي اللواحق موافقاً في ذلك للفراء، ثم خالفه في "إيا" فادعى أنها اسم ظاهر مضاف إلى الكاف والياء والهاء، وقال ابن درستويه: إن هذا اسم ليس ظاهراً ولا مضمراً، وإنما هو بين بين، وقال الكوفيون: المجموع من " إيا " ولواحقها ضمير واحد"([1]).

---

[1]– السمين الحلبي: الدر المصون: 1/3–5 .

الملابسة أو السببية: ويمثل هذه العلاقة الاسم (الكتاب)، ونتيجته فهو (هدىً للمتقين)، جاء في معترك الأقران:" وقد ضمن الله للمتمسك بكتابه الهدى؛ لقوله:"هدىً للمتقين"، والولاية لقوله:﴿ والله ولي المتقين﴾، والمحبة لقوله:﴿ إنّ الله يحب المتقين﴾، والمعرفة لقوله:﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾، والفلاح لقوله تعالى:" واتقوا الله لعلكم تفلحون"...ودخول الجنة لقوله:﴿ إنّ للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾([1]). ويمكن الربط بين لفظة التقوى وبين بعض المعاني التي تضمنها عنوان السورة، إذ ذكر السيوطي أيضاً أنّ:" درجات التقوى خمسة: أن يتقي العبد الكفر؛ وذلك مقام الإسلام، وأنْ يتقي المعاصي والمحرمات؛ وهو مقام التوبة، وأن يتقي الشبهات؛ وهو مقام الورع، وأن يتقي المباحات؛ وهو مقام الزهد، وأن يتقي حضور غير اله في قلبه؛ وهو مقام المشاهدة"([2]).

التطابق: ونقصد بالتطابق هنا التطابق الإحالي بين الضمائر وأسماء الإشارة وما يحيلان إليه، نحو: ذا مطاقة للاسم الكتاب ، وكذلك الهاء من فيه هدى، والواو من يؤمنون مطابقة للاسم الموصول (الذين) المطابق للاسم (المتقين) .

التضام: وهو وسيلة من وسائل التماسك النصي المعجمي ومن صوره:

التضاد: كلما كان التضاد حاداً غير متدرج كان أكثر قدرة على الربط النصي([3])، ومن الأمثلة على ذلك:المقابلة بين المؤمنين وصفاتهم والكفار وصفاتهم، وجاءت هذه المقابلة في أوائل سورة البقرة، وكذلك التضاد بين نوعي الجزاء:الثواب والعقاب، وقد أبانت أسباب نزول الآيات من البقرة وسياقها عن هذا التضاد، قال الواحدي:" فقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ خطاب لمشركي مكة إلى قوله:﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾([4])، وهذه الآية نازلة في المؤمنين، وذلك أنّ الله تعالى لمّا ذكر جزاء

---

[1]- السيوطي: معترك الأقران:332/2،333.

[2]- المرجع نفسه:333/2.

[3]- انظر: عفيفي، نحو النص،113.

[4]- سورة البقرة: الآيتان/ 21،25.

الكافرين بقوله:﴿النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾، ذكر جـزاء المؤمنين"([1]).

ومن الأمثله على التضاد ما جاء من كلمات متنافرة نحو: الحي/الميت ، بـاع/ اشترى، آمن/ كفر، وكذلك التضاد في الألفظ التالية: المؤمنون، الكفار، أأنذرتهم، أم لم تنذرهم، آمنا، وما هم بمؤمنين.

الاستبدال:

الاستبدال الفعلي: تحقق هذا العنصر في مواقع كثيرة في سورة البقرة، منها استبدال الفعل بجنس الفعل، قال تعالى :" فأتوا بسورة من مثله"، إذ استبدل الفعـل (فـأتوا) بلفظ تفعلوا مرتين، قال تعالى :﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا﴾ أي فإن لم تـأتوا ولـن تأتوا، فجاء بالفعل الدال على الحدث، فالفعل فأتوا متضمن في الفعل نفسه.

ومنه استبدال الفعل (استبدلوا)، بالفعل (اشتروا) ؛لأنّ الضلالة والهـدى لا تجـارة فيهما على وجه الحقيقة، إذْ يذكر الرازي مجاز هذا التركيب متسائلاً ومجيباً:" هـب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال، فما معنى ذكـر الـربح والتجارة وما كان تم مبايعة على الحقيقة، والجواب: هذا مما يقـوي أمـر المجـاز ويحسنه ... لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاكله ويواخيـه، تمثـيلاً لخـسارتهم وتصويراً لحقيقته "([2]).

ومن ضروب الاستبدال: استبدال جملة بفعل: ومنـه اسـتبدال جملـة صـلة الموصول (من الفعل:حاجّ والفاعل (هو) المحذوف، ومعمولي الفعل: (إبراهيم فـي ربّه)، بجملة وقعت صلة للموصول أيضاً (من الفعل: كَفَرَ، وفاعله (هو) المحذوف، ومعموله المجرور المحذوف الذي تعدّى إليه عامله بحرف الجر (البـاء): بـالله، إذ جاء هذا الاستبدال في قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَـاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْـرَاهِيمُ

---

[1]– الواحدي: الشيخ أبي علي بن أحمد، أسباب النزول:32، ت/ السّـيِّد الجميلي .

[2]– الرازي: مفاتيح الغيب، م1،ج79/2،80.

فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّـهُ لَـا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾([1]) .

فجملة (الذي حاج إبراهيم في ربّه) استبدلت بجملة (الذي كَفَرَ)، فسياق الآية يدلّ على أنّ الذي كفر هو الذي حاج إبراهيم في ربّه، ووجه ارتباط الجملتين ببعضهما بعضاً، هو أنّ الجملة الأولى(المُستَبْدَلة) من الآية قد جاءت مفصلّة، والجملة الثانية (المُستَبْدَل بها) من الآية نفسها قد جاءت مجملة بلفظ الفعل (كفر)، أي بمعنى أن الجملتين قد ارتبطتا بحكم علاقة دلالية هي علاقة الإجمال والتفصيل، بقطع النظر عن تقدّم جملة على أخرى أو تأخرها .

التعليل: ومن أمثلته قوله تعالى:﴿ أن آتاه الله الملك ﴾، قال ابن عاشور:" تعليل حذفت منه لام التعليل، وهو تعليل لما يتضمنّه حاجّ من الإقدام على هذا الغلط العظيم الذي سهّله عنده ازدهاؤه وإعجابه بنفسه ، فهو تعليل محض وليس علة غائيّة مقصودةً للمحاجّ من حجاجه"([2]) .

التفريع: يؤدي التفريع دوره في التماسك النصي، من خلال تحقيق العلاقة بين مسألتين أو قضيتين تقوم إحداهما أو تتحقق بناءً على تحقق الأخرى، وكأن التفريع يقضي بوجود شيء ما أو بحدوثه، ومن الأمثله على هذا العنصر: وهكذا، لذلك، من حيث، ولعل، حتى، ولهذا، ما دام، ومن الآيات التي تمثّل هذا العنصر، قوله تعالى:"ولهذا خلقهم"، وقوله تعالى:" ما دامت السموات والأرض"، :" لعلكم تتقون"، و:" لعلكم تعقلون".

الترتيب: اهتمّ علماء النص بمسألة الترتيب، وقد أولاها (فنديك) أهمية ودوراً بارزاً، كما جعل الترتيب عنصراً مهماً من العناصر التي تحقق الانسجام للنصّ، فجعل هذا العنصر على قسمين: ترتيب حرّ، وترتيب مقيّد، واهتم بالقسم الثاني بشكل خاص ؛ لأنه هو الذي يبرز ويظهر قصديّة المتكلّم، وللوقوف على مدى تحقق هذا العنصر في سورة البقرة وفي غيرها من السور ذوات الحروف المقطّعة نذكر

---

[1]- سورة البقرة: الآية/258.

[2]- ابن عاشور: التحرير والتنوير، 32/3 .

بعض الآيات التي التزم فيها هذا النوع من الترتيب وهو الترتيب المقيّد، فمنه قول الله تعالى:﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾([1])، فقدّم السنة التي تسبق النوم ثم عطف النوم عليها .

علاقة الوصل والفصل:

ومن الأمثله على هذا العنصر، انفصال الآيتين التاليتين من سورة البقرة: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ*اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾([2])، انفصلت عن بعضهما رغم اتفاقهما في الخبر والإنشاء، وسبب انقطاع الآيتين عن بعضهما، هو بيان عدم اشتراك الآيتين في الحكم، فانقطعت الآية الثانية عن الأولى لعدم وجود رابط لفظي كحرف العطف مثلاً، إذ لو عطفت الآية الثانية على الأولى، لذهب الفهم إلى أنّ الآية المعطوفة هي من كلام الكافرين، وأوضح البيضاوي أنّ عدم العطف ليكون الفعل على استهزائهم منه عزّ وجل، قال:"وإنما استؤنف به ولم يعطف ليدل على أن الله تعالى تولى مجازاتهم، ولم يحوج المؤمنين إلى أن يعارضوهم، وأنّ استهزاءهم لا يُؤْبَهُ به، في مقابلة ما يفعل الله تعالى بهم ولعله لم يقل: الله مستهزئ بهم ليطابق قولهم، إيماء بأن الاستهزاء يحدث حالاً فحالاً ويتجدد حيناً بعد حين"([3]).

ومن ضروب الفصل، الفصل بين الآيتين المستأنفتين: وارتبطت الثانية بالأولى بعلاقة المفعولية، ومن هذا النوع جاء قول الله تعالى:"ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إنّ الله اصطفى لكم الدين"([4]) .

وقد بيّن ابن عاشور سبب عدم ذكر حرف التفسير بقوله:" وإنما لم يؤت بأنْ التفسيرية التي كثر مجيئها بعد جملة فيها معنى القول دون حروفه؛ لأنّ أنْ التفسيرية تحتمل أن يكون ما بعدها محكياً بلفظه أو بمعناه، والأكثر أن يحكى بالمعنى، فلما

---

[1]- سورة البقرة: الآية:132.

[2]- سورة البقرة: الآيتان/14،15 .

[3]- البيضاوي: ناصر الدين أبو الخير عبدالله بن عمر بن محمد : أنوار التنزيل وأسرار التأويل،35/1.

[4]- سورة البقرة: الآية:132.

أريد هنا التنصيص على أنّ هذه الجملة حكاية لقول إبراهيم بنصه (ما عدا مخالفة المفردات العربية)، عوملت معاملة فعل القول نفسه، فإنّه لا تجيء بعده أنْ التفسيرية بحال"([1]).

التماسك الدلالي من خلال عنصر المناسبة بين الآيات:

تمثّل المناسبة بين الآيات القاسم المشترك لارتباط الكلمات بعضها ببعض داخل الآيات، وارتباط الآيات بعضها ببعض داخل النصّ، وتُظهِرُ هذا الارتباطَ أدوات التحليل التي تنتمي إلى مستويات التحليل (النحوي أو الدلالي أو التداولي)؛ إذ توضّح أدوات التحليل عناصر التماسك النصيّ وتبرزها، ولقد أفصح الزركشي عن بعض العناصر والعلاقات التي تندرج تحت هذه المستويات، قال:" إمّا أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير، أو الاعتراض والتشديد، وهذا القسم لا كلام فيه، وإمّا ألا يظهر الارتباط بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى وأنها خلاف النوع المبدوء به، فإما أن تكون معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف المشترك في الحكم أولا "([2])، وليس شرطاً أن يتحقق عنصر الربط كأحد عناصر التماسك النصي في التتابع الخطي للآيات عن طريق أدوات الربط المتعددة، فالترابط حاصل دون أي أداة من أدوات الربط، ولا يقلل عدم وجود الرابط بين الكلمات أو بين الجمل أو بين الفقرات، من عدم ارتباطها بعضها ببعض، ولا يؤثر أيضاً في تماسك النصّ، والربط بين المتتاليات من غير أدوات ربط، يدخل في إطار الأداء الإنجازي غير المباشر لأدوات الربط، فتؤدي الكلمات دورها بشكل أفضل من تأديتها له بشكل مباشر، وذلك من خلال الربط الوظيفي والسياقي والدلالي، إذ نجد أن الآية اللاحقة هي عين الآية السابقة لها، أو أن تكون الجملة الثانية المتمّمة للآية الواحدة مع الجملة الأولى، هي عين الجملة الأولى، ومن ذلك قوله تعالى:" لا ريب فيه"، إذ ارتبطت مع قوله تعالى:" ذلك الكتاب" بعلاقة التبعية"، فأدّت جملة "لا

---

[1]- ابن عاشور: التحرير والتنوير:39/3.

[2]- الزركشي: البرهان في علوم القرآن،40/1 .

ريب فيه" بحكم موقعها معنىً وظيفياً، أفصح عن علاقة التبعية تلك، وهو معنى التوكيد، وهذا المعنى النحوي هو ما ذكره كثير من المفسرين واللغويين والأدباء، وهم يتحدثون لإثبات تعالق الكلم بعضه ببعض([1])، فالتماسك بين الآية الأولى (الم) والآية الثانية (ذلك الكتاب).، حاصل من خلال الدلالات السيميائية للحروف الثلاثة، فلمّا كانت الجملة الأولى هي المعوّل عليها في النصّ، باعتبارها مفتاح النصّ ووقوع عبء تراكمية المعنى عليها، اقتضى هذا الاعتبار أنْ يكون التماسك النصيّ مبنياً وقائماً على ربط الدلالات المكتنزة في الجملة الأولى (الم)، التي تحمل قيماً تعبيرية وطاقات إيحائية ورمزية وإشارية هائلة، بالدلالات الجزئية المنداحة في الأبنية الصغرى والكبرى للنصّ، التي تعالقت وتماست كلّها في النهاية، ليكون النصّ كلّه ذا بنية كليّة كبرى من عنوانه حتى آخر جملة تضمها بنيته .

فمما في هذه الحروف (الألف) من دلالة على البدء والعدل والاستقامة والتفرد والوحدانية والاستغناء، واللام من دلالة الملكية والنفي والوسطية واللطف، والميم من الأخروية و العلم والنهاية، مرتبطة بقوله تعالى :" ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين"، فهذا الكتاب فيه كلّ تلك المعاني التي وقفنا عليها، وهي منداحة على امتداد فضاء النص، تؤكد عليها وتقرّ لها بها آياتٌ كثيرة في هذه السورة، وتتماسك معها آيات في سائر السور التي ماثلت سورة البقرة باستهلالها بالحروف المقطّعة الأخرى، والتماسك والترابط حاصل بين سورة البقرة وسور القرآن كلّها، ولكننا سنقف عند تماسك نصوص هذه السور ذوات الحروف المقطّعة بشكل خاص في موضعها من هذه الدراسة، ويظهر أنّ وصل قوله تعالى:" هدىً للمتقين " في آية واحدة ليحمل دلالة تربط بكلّ قوة بين آخر آية من سورة الفاتحة " إهدنا الصراط المستقيم"، والآيتين الأوليين من هذه السورة، فالهداية إلى الصراط المستقيم في هذا الكتاب، ولربط هذه الآية " ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين "، بالآية قبلها (الم)، فإنّ الرابط سيكون دلالياً من وجوه كثيرة منها؛ كثرة المعاني المتأوّله لها، نحو:

---

[1]- انظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، 227،228، ت/ محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط/1424،5- 2004م .

تفسير الكتاب (القرآن) بأنه الصراط المستقيم حقيقة أو مجازاً، أو تفسيره بمعنى النعمة ...الخ، فإن المعاني المتأولة من الآية الأولى، يمكن عدّها حلقة وصل بين الصراط الذي ورد في آخر سورة الفاتحة، والصراط المتأول والمُفسّر به (الكتاب)، هذا من حيث المعنى الدلالي التحتي أو العميق، والمتكرر في الوقت نفسه على مستوى النصّ عمودياً أو رأسياً، سواء أكان متحققاً في بنية سورة البقرة بشكل خاص، أم متحققاً في بينة السور ذوات الحروف المقطّعة بشكل عام، وسيبيّن لنا هذين المعنيين العنصر التالي لهذا العنصر، ومن حيث الربط على مستوى بنية النصّ أفقياً، فإنه متحقق في الجانب اللفظي، ولتوضيح هذين الجانبين المعنوي واللفظي، فيمكن تحقيقه إذا ما تأولنا جملة أو أكثر لهذه الحروف الثلاثة (الم) رابطين لمعناها ــ في الوقت نفسه ــ بالمعاني التي نأى بحملها عنوان السورة، ورابطين لها مع معنى الآية الثانية ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين﴾([1])، ورابطين لها كذلك مع آخر آيتين من سورة الفاتحة ، في قوله تعالى:﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّين﴾([2])، فنقول: اعبدوا الله الواحد الحيّ القيّوم، الرقيب عليكم اللطيف بكم، العليم بكل شيء، عالم الغيب والشهادة، عالم بخلقكم وحياتكم وموتكم وبعثكم ومصيركم، سعادتكم وشقاءكم، طريق هدايتكم واستقامتكم، هداية واستقامة من أنعمت عليهم، فأحطت علمي في هذا القرآن البيّن الواضح، وضوح هذه الحروف التي تعرفونها وتتكلمون بها ، فأوحيت به إلى عبدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فنزل به روحنا عليه، ففيه الهداية إلى هذا الصراط المستقيم الذي سألتموه، وهو عبادة الله وحده وتقواه والإخلاص له، وهذه الوحدانية أبانت عنها آيات كثيرة صريحة في هذه السورة ، فمنها قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾([3])، كما وضّحت الآية نفسها بعد هذا النداء هذه العلامة، إذ فسّرت العبادة بالتوحيد عند جلّ المفسرين، قال الطبري: "فأمرَ جل ثناؤه

---

[1]- سورة البقرة : الآية/2

[2]- سورة الفاتحة: الآية/2.

[3]- سورة البقرة: الآية/21.

الفريقين (*)... بالاستكانة، والخضوع له بالطاعة، وإفراد الربوبية له والعبادة دون الأوثان والأصنام والآلهة...وكان ابن عباس: فيما رُوي لنا عنه، يقول في ذلك نظيرَ ما قلنا فيه، غير أنه ذُكر عنه أنه كان يقول في معنى"اعبُدوا ربكم": وحِّدوا ربكم ... والذي أراد ابن عباس ــ إن شاء الله ــ بقوله في تأويل قوله:"اعبدوا ربكم" وحِّدوه، أي أفرِدُوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه([1])، وجعل القاضي عبد الجبار دلالة العقل قرينة مقرونة متصلة، مع أبنية النصّ اللفظية والمعنوية، وهو يتحدث عن هذه الآية بقوله:" والقرائن قد تكون متصلة سمعاً، وقد تكون منفصلة سمعاً وعقلاً، وقد بيّنّا أنّ الدليل العقلي وإنْ انفصل فهو كالمتصل في أنّ الخطاب يترتب عليه، لأنّ قوله:" يا أيها الناس اعبدوا ربكم"، مع الدليل العقلي الدّال على أنه لا يكلّف من لا عقل له، أكّد في بابه من أنْ يقول: يأيها العقلاء اتقوا ربكم"([2])، ويظهر أن الخطاب بــ (أيها الناس) في هذه الآية من هذه السورة ـــ مدنية المكان والزمان ــ هو استمرار في تعالي الخطاب القرآني عن أي اعتبارات وفوارق بين هؤلاء الناس المخاطبين عامة؛ سواء أكانت اعتبارات عقائدية أو لسانية أو شكلية أو ثقافية أو مكانية أو زمنية، فالاعتبار المقصود هو عبادة الله وحده من المخاطبين عامة، وموضوع التوحيد متواصل في القرآن المدني لم يفارقه لفظاً أو معنىً، بحسب ترتيب النزول، لكنّ التركيز عليه في القرآن المكي بحسب ترتيب النزول أيضاً، ضرورة لها الأولوية، وهو يخاطب متلقين اتخذوا أوثاناً تقربهم إلى الله زلفى، تركيز طبيعي ومنطقي ينسجم ويتناسب والدين الجديد، وفي هذا يذكر السيوطي أنّ النداء بأداة النداء (ياء) التي هي في الأصل للبعيد حقيقة أو حكماً، وإنما حصل النداء بها للقريب لنكت منها :" كون المخاطب المتلوّ معتنىً به...وذكر أوجهاً من التأكيد

(*) أراد الطبري بالفريقين: " اللذان أخبرَ الله عن أحدهما: أنه سواءٌ عليهم أأنذروا أم لم يُنذروا، أنهم لا يؤمنون لطبْعِه على قلوبهم وعلى سمعهم، وعن الآخرِ: أنه يُخادع اللهَ والذين آمنوا بما يبدي بلسانه من قيله: آمنّا بالله وباليوم الآخر، مع استبطانه خلافَ ذلك، ومرض قلبه، وشكّه في حقيقة ما يُبدي من ذلك؛ وغيرهم من سائر خلقه المكلَّفين .

[1]- الطبري:جامع البيان: 1/362،363 .

[2]- الهمذاني: متشابه القرآن: 1/34.

وأسباباً من المبالغة لتكرار النداء بـ (يا أيها) عند الزمخشري: منها ما في "يا" من التأكيد والتنبيه وما في "ها" من التنبيه؛ وما في التدرج من الإيهام في (أيّ) إلى التوضيح، والمقام يناسب المبالغة والتأكيد؛ لأنّ؛ كل ما نادى الله عباده من أوامره ونواهيه وعِظاته زوَاجره، ووعْدِه ووعيده، ومن اقتصاص أخبار الأمم الماضية ــ وغير ذلك مما أنطق الله به كتابه ــ أمورٌ عظام وخطوبٌ جسام، ومعان واجب عليهم أنْ يتيقّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهو غافلون، فاقتضى الحال أنْ ينادوا بالآكد الأبلغ "([1])، والمخاطبون ــ عند تعدي الفعل إلى مفعولين، الأول: أنداداً المتأخر: والثاني: لفظ الجلالة الذي قدّم وسبقه حرف الجر؛ فالاسم الموصول في الآية "الذي جعل" متعلقة بما قبلها بعلاقة نحوية هي البدل من قوله تعالى: " الذي خلقكم "، والبدل والمبدل نعت للفظ الجلالة (ربكم)، قال الطبري:" وقوله:" الذي جَعل لكم الأرض فِرَاشًا" مردود على"الذي" الأولى فبقوله "اعبدُوا ربكم الذي خَلَقَكم"، وهما جميعًا من نَعت"ربكم"، فكأنّه قال:اعبدُوا ربكم الخالقكُم، والخالقَ الذين من قبلكم، الجاعلَ لكم الأرض فراشًا"([2]).

ويمكن أنْ نتأوّل جملة قصيرة تفي بمعنى الفقرة السابقة، وهو تأول ــ كما يبدو ــ قد اختزله من قبل ترجمان القرآن، فتفسير ابن عباس لـ (الم) بقوله:" أنا الله أعلم" أو الله، لطيف، مجيد، عليم"، هو مختزل لكل الذي تأولناه؛ إذ أبان عن وحدانية الله وعلمه، قال تعالى:﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾([3])، فإذا كان عنوان السورة جامعاً لهذه المعاني، فإنه لم يأت في بنيته صوت إلا وهو واقع ما بين الهمزة واللام، أو بين اللام والميم: لفظاً ومخرجاً وصفة، فلم يعد هناك صوت مخرجه خارج حدودها، وأصوات القرآن الكريم داخل هذه الحدود، ودلالة العنوان و(الم)، تضمنها نصّ السورة الجامعة هي أيضاً للقرآن، عقيدة وفقهاً وأحكاماً ــ حتى سميت بـ (فسطاط القرآن)([4]) .

---

[1]– السيوطي: معترك الأقران: 1/ 448.

[2]– الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن: 365/1 .

[3]– سورة الأنعام : الآية: 161 .

[4]– انظر الزركشي: البرهان، 269/1.

وارتبط قوله تعالى:﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾([1])، التي ورد فيها أول لفظ لاسم الله تعالى (القدير)، بالآيات التي بعدها ارتباطاً دلالياً، ينسجم مع موضوع الخطاب المحوري.

ومن عنصر المناسبة بين الآيات التي تدل على تماسك وترابط أول السورة بآخرها، ما جاء في الآيات المتقدمة من السورة التي تتحدث عن صفات المتقين، وأواخر آياتها التي تتحدث عن موضوع الإيمان والمؤمنين الذين شملتهم هذه الصفة، قال الفخر الرازي:" أنه بدأ في السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، وبيّن في آخر السورة أن الذين مدحهم في أول السورة هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:﴿ والمؤمنون كُلٌّ آمن بالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾([2])، وهذا هو المراد بقوله في أول السورة ﴿الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب﴾([3])، ثم قال ههنا: ﴿وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾([4])، وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿وَيُقِيمُونَ الصلاة وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾([5])، ثم قال ههنا ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المصير﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة ﴿وبالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ﴾ ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرعهم إلى ربهم في قولهم: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ إلى آخر السورة وهو المراد بقوله في أول السورة ﴿أولئك على هُدًى مِّن رَّبّهِمْ وأولئك هُمُ المفلحون﴾، فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها"([6]) .

ويعلّل البقاعي ختم قصص بني إسرائيل بهذه القصة، تصديقاً للرسالة وللمبعوث بها، ويبيّن من خلال التعليل على أمر التوحيد، الذي هو الموضوع

---

[1]– سورة البقرة: الآية/20.

[2]– سورة البقرة: الآية/285.

[3]– سورة البقرة: الآية/3.

[4]– سورة البقرة: الآية/285.

[5]– سورة البقرة: الآية/3.

[6]– الرازي: مفاتيح الغيب:م4،ج7/ 138،139.

المحوري المحمول في بنية السورة الكليّة الكبرى، قال البقاعي:"ولعل ختام قصص بني إسرائيل بهذه القصة لما فيها للنبيّ صلى الله عليه وسلم من واضح الدلالة على صحة دعواه الرسالة؛ لأنها مما لا يعلمه إلا القليل من حذاق علماء بني إسرائيل ثم عقبها بآية الكرسي التي هي العلم الأعظم من دلائل التوحيد فكان ذلك في غاية المناسبة لما في أوائل السورة في قوله تعالى:﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾، إلى آخر تلك الآيات من دلائل التوحيد المتضمنة لدلائل النبوة المفتتح بها قصص بني إسرائيل فكانت دلائل التوحيد مكتنفة قصتهم أولها وآخرها مع ما في أثنائها"([1]) .

المصاحبات المعجمية وأثرها في تماسك النص (مفاتيح النصّ)

تعدّ المصاحبات المعجمية من أهم المفاتيح التي يُعتمد عليها في تحليل النصّ، ولا سيما عندما يظهر للمحلل أنّ النصّ قد بدأ ينغلق أمامه، فليجأ المحلل إلى كلمات تقع ضمن حقل دلالي واحد، فيجد فيها ما يفتح المواضع التي يظهر فيها انغلاق النصّ، ومما يساعد المحلل في انفتاح النصّ مع المصاحبات المعجمية، سياق الجملة أو الفقرة أو النصّ، فيعمد المحلل في ضوء دلالة السياق إلى اختيار الكلمة التي تنسجم والسياق، فيختار مصاحبة دون غيرها من المصاحبات التي تقع ضمن الحقل الدلالي الواحد، ولو كانت تلك المصاحبة تجود في نسبة من المعنى ينسجم والسياق العام للجملة أو للفقرة أو للنصّ، وقد جاء في سورة البقرة كلمات كثيرة تطابقت فيما بينها في المعنى أو في جزء منه، ومنها الكلمات التالية: (الكتاب/ القرآن)، (الريب/ الشك)، (الظن/ الافتراء)، (اليقين/ الإيمان) .

ب ـ العلاقات والعناصر النحوية:

الحذف: يعد الحذف من أهم العناصر التي تلعب دورا مهماً في تماسك النص، فتقدير المحذوف بدليل، هو رتق لأي خلل قد يمس البنية التركيبية، صوتاً أو صرفاً أو نحواً أو تداولاً، لمعرفة المتلقي بفنون الخطاب البلاغية والأسلوبية، التي يعمد المتكلّم أو الكاتب إلى حذف بعض الألفاظ أو التراكيب، ويدرك المتلقي غاية هذا الحذف؛ اختصاراً أو إيجازاً أو بلاغة، وإذا كان من شأن الحذف أن يؤدي إلى لبس

---

[1]– البقاعي: نظم الدرر في تناسق الآيات والسور:1/396،397 .

أو عدم الفهم، فإنّ المتكلّم أو الكاتب لن يلجأ إليه، أو سيذكر قرينة أو دليلاً يدل على المحذوف من بنية الجملة، ليؤدى به دور المحذوف في تحقيق الترابط والانسجام لبنية النص في مستواها الأفقي، والتقدير للمحذوف جاء اهتماماً للجانب الشكلي الذي يشتمل على المعنى، سواء أكان المعنى ظاهراً أم مضمراً قلّ أو كثُر، وعندما لا يتحقق المعنى من خلال ظاهر اللفظ، فلا بد من تأويل ينسجم ويتعالق مع المعنى الظاهر للفظ، وينسجم ويتعالق مع أي معنى آخر يمكن تأويله إلى جانبه، فمن هنا يمكننا القول: إذا كان التركيب لمبنى ما من البنية المكونة لمبنى الجملة، يفرض تقديراً أو تأويلاً لمحذوف يحقق سلامة التركيب ومعناه، من خلال لفظ أو أكثر قد حذف، فإن أي معنى- قلّ أو تعدد- غير ظاهر من التركيب المكتوب، يفرض هو الآخر أيضاً تأويلاً أو أكثر، على أن ينسجم هذا المعنى المتأوّل، وسياق المعنى التركيبي للجملة أو السياق العام للنصّ، تحقيقاً لتماسك النصّ.

أمّا ضروب الحذف فمنها: (الاقتطاع)، وهو ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقي، كقوله: دَرَسَ المَنا بمتالِعٍ فأبانِ

أي المنازل... وقد جعل منه بعضُهم فواتح السور؛ لأنّ كل حرف منها يدلّ على اسم من أسماء الله تعالى، كما روى ابن عبّاس " الم " معناه أنا الله أعلم وأرى "، و"المص" أنا الله أعلم وأفصّل"،... ومنه أيضاً "(الاكتفاء): وهو أنْ يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط، فيكتفي بأحدهما عن الآخر، ويخصّ بالارتباط العطفي غالباً ... ومنه قوله تعالى:﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾، أي والشهادة؛ لأنّ الإيمان بكل منهما واجب، وآثر الغيب لأنّه أبدع، ولأنّه يستلزم الإيمان بالشهادة من غير عكس"([1]) .

ومن حذف الجملة قوله تعالى ﴿ فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت "، قال الزجاج:"أي فضرب فانفجرت﴾([2]).

---

[1]- انظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن، 3/ 117، 118،120 .

[2]- الزجاج: إعراب القرآن،13/1، ت/ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ط/1420،4هـ-1999م.

حذف المبتدأ: يعدّ حذف المبتدأ ظاهرة شائعة في القرآن الكريم، ومما يؤكّد هذه الظاهرة، ما ذكره عبد الفتاح الحموز بقوله:" يشيع حذف المبتدأ في التنزيل وقراءاته كثيراً، ولعل ما في سورة البقرة من مواطن حُذِف فيها في تأويلات النحويين خير دليل على هذه الكثرة"([1])، ولقد استقصى عبد الفتاح الحموز مسائل الحذف في القرآن الكريم، معزّزاً هذه المسائل بكثير من الشواهد من آي الذكر الحكيم([2])، ومما جاء فيه المبتدأ محذوفاً في سورة البقرة ما يلي:

حذف ضمير الجمع (هم): وهو المبتدأ الذي يحيل إحالة قبلية على الكافرين، وجاء هذا الحذف في قوله تعالى:﴿ صمٌ بكم عميٌ ﴾ قال الزجاج:" ومن إضمار المبتدأ قوله تعالى " صم بكم عميٌ " فأضمر المبتدأ وأخبر عنه بثلاثة أخبار"([3]).

ومنه حذفه " في جملة الجزاء الاسمية المقترنة بالفاء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وما تنفقوا مِنْ خيرٍ فلأنْفُسِكُم﴾ "أي: فهو لأنفسكم"([4]).

وقد جاء الفاعل ضميراً مستتراً في آيات متعددة من سورة البقرة، منها ضمير الفعل (أنبأ) الذي يحيل إلى آدم عليه السلام إحالة قبلية متطابقة، وجاء هذا في قوله تعالى:﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾، قال الزّجاج:" الضمير في (أنبأ) لآدم، وفي (قال) ضمير اسم الجلالة،أي قلنا نحن، وإنّما لم يؤت بفاعله اسماً ظاهراً مع أنه جرى على غير من هو له، أي عقب ضمائر آدم في قوله:"أنبئهم " و "أنبأهم"؛ لأنّ السياق قرينة على أن هذا القول لا يصدر من مثل آدم"([5]).

كما جاء مسنداً إليه في الأفعال: خلق: أربع مرات، وفي الأفعال: يميت، يحيي، رفع، سخر، يرسل...وورد الفعل (جعل) مسنداً إلى الضمير المستتر (هو) في البقرة مرةً واحدة ، وهذه الخصائص متحققة تماماً بين العنصرين، فالله سبحانه وتعالى هو الفرد الصمد الحي القيوم، وهو الخالق والمحيي والمميت والرافع

---

[1]- الحموز: التأويل النحوي في القرآن الكريم، 139/1 ، وما بعدها.

[2]- انظر: المرجع نفسه بالتفصيل، 139 وما بعدها .

[3]- الزجاج: إعراب القرآن:180/1. .

[4]- الحموز: التأويل النحوي في القرآن الكريم: 152،153 .

[5]- سورة البقرة: الآية/31. وانظر: الزجاج: إعراب القرآن، 40/1 .

والمسخر، كما أنّ التطابق الذاتي بين الضمير المستتر في هذه الأفعال ولفظ الجلالة بيّن واضح، فالآيات متماسكة مترابطة؛ إذ "الوقائع التي تشير إليها قضاياها متعالقة في عوالم متعالقة "([1]).

حذف الموصوف: ومن الأمثلة عليه قوله تعالى: ﴿ وبالآخرة هم يوقنون﴾، إذ حذف الموصوف الذي هو الدّار وأقيمت الصفة مقامه، ونُعت بأنّه جائز حسن في العربية، يعد من جملة الفصاحة والبلاغة...والتقدير وبالدار الآخرة هم يوقنون.([2]).

حذف المضاف: ومنه حذف المضاف في قوله تعالى:﴿وإذا واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ أي انقضاء أربعين ليلة، نحو: واسأل القرية.

حذف العائد: عائد الصلة ...(الضمير)، قوله تعالى:﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ*وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾([3])، و" ما " في قوله " بما " بمعنى الذي والعائد محذوف، والتقدير قدمته، وتكون مصدرية ولا تحتاج إلى عائد"([4]) .

حذف المفعول به: قال الزجاج:" فمن ذلك قوله تعالى:﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾؛ أي وما يشعرون أن وبال ذلك راجع إليهم، وكذلك ولكن لا يشعرون أي لا يشعرون أنهم هم المفسدون، ولكن لا يعلمون أي لا يعلمون أنهم هم السفهاء "، ومن ذلك أيضاً؛ أي قوله تعالى :﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾، أي تكتمونه، ومنه قوله تعالى:﴿ إلا إبليس أبى واستكبر أي أبى السجود واستكبر عنه ثم اتخذتم العجل أي اتخذتموه إلهاً ﴾([5]).

العطف: تكرّر العطف بالواو ست مرات في الآيات التي تحدثت عن صفات المتقين، فأشركت الواو المسندَ إليهم ضمير الجمع (الواو)، المحيلة إلى الاسم الموصول (الذين)، وأشركت الاسم نفسه (الذين) في الآية الرابعة ، بإسناد فعل إقامة الصلاة،

---

[1]– مفتاح، لسانيات النصّ :32،33.

[2]– انظر: الزجاج: إعراب القرآن، 62/1 .

[3]– سورة البقرة: الآيتان/ 949،5.

[4]– القرطبي: أبو عبد الله مصنمحمد بن أحمد الانصاري ، الجامع لاحكام القرآن ،33/2 .

[5]– الزجاج: إعراب القرآن، 405/1.

وإنفاق الرزق، والإيمان بالكتاب والكتب قبله، واليقين بالآخرة، في الدخول في صفة المتقين، فأغنى العطف بالواو عن تكرار الصفة (الذين)، إذ كلّ الأفعال آلت في الإسناد إلى الاسم الموصول الذي يحيل إلى الاسم (المتقين) إحالة قبلية ذاتية متطابقة.

التكرار:إعادة صياغة، وضع علماء النصّ التكرار عنصراً أساسياً من عناصر التماسك النصي، وقبلهم أولاه القدماء عناية هامة كذلك، فافردوا له فصولاً خاصة في كتبهم التي خصوها لعلوم القرآن، كما فعل عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، وابن الزبير في ملاك التأويل وغيرهما، أو ما جاء في عنوانات فرعية في كتب أخرى، كما فعل الفيروزأبادي في بصائر ذوي التمييز، والزركشي في البرهان، والسيوطي في الإتقان ومعترك الأقران، وسنمثّل لهذا العنصر من خلال بعض الألفاظ والآيات التي تكررت لفظاً ومعنىً .

أولاً: المفردات.

لفظ الجلالة (الله): يبدو أن كثرة تكرار لفظ الجلالة (الله)، وأسمائه الحسنى التي تؤول إليه، تعضد الدلالة السيميائية للحروف المقطعة وهي أن هذه الحروف في سورة البقرة وفي سائر السور ذوات الحروف المقطعة، مقتطعة من أسماء الله عز وجلّ، ويعضد هذه الدلالة ما جاء من تفسير لها عند أكثر المفسرين على اختلاف مناهجهم ، ولا سيما تفسير ابن عباس، بأن الألف من الله ، كما أن هذه الدلالة متحصلّة في نصوص كل السور المستهلة بحروف مقطعّة، وهذه الدلالة متطابقة ومنسجمة ومتماسكة مع دلالة كل حرف، إذ نجد أنّ الألف متطابقة مع لفظ الجلالة (الله) ، كما تطابقت مع اسم الله (الواحد) لفظاً ومعنىً في آيات كثيرة من سورة البقرة، و(اللام) على أسمائه: الحي، العلي، اللطيف، ، الواسع ، الغفور ، الرحمن، ، الميم : الرحيم، مالك الملك، المحيي، المميت، المحصي، المحيط العليم، القيوم، العظيم ...الخ.

الشفاعة: وردت ألفاظ؛ أسماء وأفعال ضمن حقل هذا الاسم (الشفاعة)، نحو (شفيع، يشفع ...)، وهذه الكلمات تنضوي من خلال المُحْدِث لها المختص بأحداثها، إلى الموضوع المحوري المركزي، الذي أولته سورة البقرة وسائر السور ذوات

الحروف المقام الأول، بل وهو الموضوع الذي أكّدت عليه السور المكيّة قاطبة، ألا وهو محور (التوحيد)، ومن الآيات التي وردت فيها هذه الكلمات في سورة البقرة قول الله تعالى: ﴿ من ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ﴾([1])، وهذه الآية اشتملت على قسم كثير من أسماء الله الحسنى، وكذلك تضمنت الموضوع المحوري، وصيغة المضارع (يَشْفَعُ) المسبوقة بأداة الاستفهام (مَنْ) قبلها، ومعمول الفعل (عنده) وأداة الاستثناء بعده، جميعها دوال على قصور الشفاعة لله وحده، والفعل (يَشْفَعُ) دالّ بنسبة منه على ما في اليوم الآخر من حساب ومغفرة كذلك .

تكرار الآيات: وهي سمة اتسم بها الخطاب القرآني، وذلك لأغراض متعددة تفيد التوكيد والتنبيه والوعظ، وقد جاءت الآيات المكرّرة في مواضع متفرقة في سورة البقرة، ووقوع عنصر التوكيد في نصّ السورة ألفاظاً أو آيات، يؤدي إلى تماسك النصّ وتعالق وتعانق ألفاظه وجمله، كما يؤكد على وحدة الأبنية الصغرى التي يركز عليها الخطاب القرآني في هذه السورة، وهو يخاطب فريقاً مقصوداً بالمقام الأول، ولا سيما إذا ما عرفنا بأن سورة البقرة كانت خطاباً لليهود، فتكررت آيات كثيرة فيها تتحدث عنهم، فمن الآيات التي كررت بألفاظها المكونة لها تقريباً قول الله تعالى:﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين*واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾، إذ ورد تكرار هذه الآية تقريباً في قوله تعالى:﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين*واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون﴾([2])، والتكرار للآيتين الأوليتين، هو للتوكيد على خصوصية بني إسرائيل بتفضل الله عليهم أكثر من غيرهم، والأصل أنْ يكونوا أولى الناس شكراً لهذه النعمة، فكان التكرار لتذكيرهم بها وتنبيههم على المعاصي التي قابلوا بها هذا الفضل، ففي كلّ معصية يرتكبونها يأتي تكرار فضل الله عليه وتنبيههم ووعظهم،

[1]– سورة البقرة: الآية/255.

[2]– سورة البقرة: الآيات: 47، 48 ، 122، 123 .

قال الفيروزأبادي:" وإنما كُررتا لأنّ كلّ واحدة منهما صادفت معصية تقتضي تنبيهاً ووعظاً؛ لأنّ كلّ واحدة منهما وقعت في غير وقت الأخرى"([1]).

التكرار باللفظ: وقد جاء منه تكرار الأفعال المثبتة والمنفية لفظاً ومعنىً فمنها: يؤمنون، لا يؤمنون، من يقول آمنا، وما هم بمؤمنين، آمن الرسول ، كل آمن، بعد إذ هديتنا: هدى للمتقين، إن الذين كفروا ، كفروا به .

ختم: جاء مطابقاً للزمن بصيغة الماضي، فالختم جاء بعد الكفر، لذلك لم يأت الفعل بصيغة المستقبل أو المضارع المستمر نحو: سيختم، يكفرون ليطابق يؤمنون، فالكفر حاصل وهم مستمرون فيه، فلا فائدة في دعوتهم للهداية وإنذارهم، أما منْ آمن بما أمر به عزّ وجل، كما آمن أنبياؤه ورسله، ومنْ يؤمن بما آمن به قبله من المؤمنين، فهو من المتقين الذين أنعم الله عليهم، فالختم جاء بسبب كفرهم واستمرارهم فيه، بدليل الآية: ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾، كما أن تكرار فعل الكفر وبصيغة الماضي، لدليل على أن الكفر قد وقع قبل الختم وما زالوا فيه، والإنذار وعدمه منسجم مع دلالة فعل الختم، فالمختوم لا يدخل إليه شيء ولا يخرج منه شيء، فإنذار الكفار وعدمه سيان.

التكرار بالمعنى:

الكتاب: ورد التكرار الكتاب في آيات كثيرة من هذه السورة، ومنه تكرار للفظة الكتاب بالمعنى، إذ لم يرد في كثير من الآيات، لفظُ الكتاب مصرحاً به، ومن هذه الآيات قول الله تعالى:﴿مما أنزلنا على عبدنا﴾، وقوله تعالى:﴿ ولمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ وقوله تعالى:﴿وهو الحق مصدقاً لما معهم﴾. في جملة (مما نزّلنا)، قال القرطبي:"مما نزلنا"؛ يعني القرآن، والمراد المشركون الذين تحدوا، فإنهم لما سمعوا القرآن قالوا: ما يشبه هذا كلام الله، وإنا لفي شك منه، فنزلت الآية، ووجه اتصالها بما قبلها أن الله سبحانه لما ذكر في الآية الأولى الدلالة على

[1] – الفيروزأبادي: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتب العزيز:147/1،ت: محمد علي النجار.

وحدانيته وقدرته ذكر بعدها الدلالة على نبوة نبيه، وأن ما جاء به ليس مفترى من عنده"([1]).

الصفة: تعدّ الصفة عنصراً من العناصر النحوية التي تربط بين الألفاظ في الجملة الواحدة، أو بين جملة وجملة أخرى، ومن ذلك الاسم الموصول (الذين) في الآية الثانية من سورة البقرة، قال تعالى:﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ومما رزقناهم ينفقون﴾، إذ جاء في موضع الصفة من (المتقين) في الآية قبلها.

ومن ضروب التوابع ما جاء في الجمل التي وُصِفَ بها المفرد، قال أبو حيان:" وقد ينعت المفرد بجملة تابعة له في الجملة نفسها، وقد جاء هذا النوع من النعت في سورة البقرة في قول الله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾([2])، والجملة من قوله: لا بيع، في موضع الصفة، ويحتاج إلى إضمار، التقدير: ولا شفاعة فيه فحذف لدلالة: فيه، الأولى عليه([3])، وواضح أنّ هذه الآية هي داخلة في قسم الجملة التابعة للمفرد، إذ تبعت الآية: لا بيع فيه ولا خلة، والمفرد هو لفظة (يوم) الذي اكتسب التعريف بفعل الجملة التي جاءت صفة له .

البدل: من المواضع التي جاءت فيها الآية بدلاً من الآية، فارتبطت الجملتان اللتان شكّلتا نصّ الآية بفعل هذه العلاقة، وأدّت الجملة الثانية وظيفتها النحوية بفعل موقعها في الآية، ومن ذلك قوله الله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾([4])، فقوله: سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم، جاءت في موضع البدل من قوله: الذين كفروا، وهي من باب الجمل التابعة للجمل التي لها

---

[1]- القرطبي: الجامع لاحكام القرآن/232/2 .

[2]- سورة البقرة: الآية: 254.

[3] _ أبو حيان: البحر المحيط:606/2.

[4]- سورة البقرة: الآية: 6.

محل من الإعراب. وقد عدّ الرازي قوله سواءٌ بالرفع خبراً لأنّ:"أأنـــذرتهم أم لـــم تنذرهم " في موضع الفاعلية منه"([1]).

3- العلاقات والعناصر التداولية.

أولى القدماء والمحدثون على اختلاف مشاربهم ومناهجهم، المستوى التـــداولي عناية مهمة لدوره في تماسك النصّ وفهمه، وذلك مـــن خـــلال ربـــط الملفـــوظ أو المكتوب بعرفية الاستعمال أو بواقع اللغة الاجتماعي، وقد عرف في البلاغة القديمة بمصطلح (سياق الحال)، وقد عبّر عنه بالجملة التي جرت مجرى المثل وهي: لكـــل مقام مقال، ولم تغب هذه التداولية المكتنفة عن ابن خلدون في مقدمته، إذ نصّ فيها:" ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات المحتاجة للدلالة، أحوال المخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حالُ الفعل، وهو محتاج إلى الدلالة عليـــه؛ لأنّـــه مـــن تمـــام الفائـــدة والإبانة"([2])، ولم يخرج النصّ القرآني عن العرف اللغوي المشترك عند المتلقـــين، ولم يخرج أيضاً على أساليبهم، وفي هذا السياق يذكر هيثم سرحان التـــزام الـــنصّ القرآني بهذه الأعراف بقوله:" النصّ القرآني ملتزم بقوانين المواضـــعة والأعـــراف اللسانية للمتخاطبين، وهو بذلك لم ينتهك سلطة اللسان... ويضيف: " تتبلور دلالـــة القصد من خلال نظم المواضعة ذلك:...أنّ استخدامات اللغة جميعاً تكون محكومـــة أخلاقياً ليس بمقاصد المؤلف، وإنما بالأعراف السائدة في مجتمـــع اللـــسانيات" ([3])، ونمثّل لعلاقات هذا المستوى على النحو الآتي:

العنوان والسياق.

يمثّل عنوان السورة عنصراً تداولياً في النصّ ، إذْ قصة البقرة التي أنبأ عنهـــا عنوان السورة معروفة للمخَاطب، وهذه المعرفة هي مراعاة من المخاطِب لأحـــوال المخَاطب؛ لإدراك مقصد الخطاب من خلال العنوان، والتأثير في الجانـــب النفـــسي والاجتماعي للمتلقين، والمعاني التي تحصلت لنا من الفعل (بقر)، والأفعال ومعانيها المتحصّلة أيضاً من تقليباته الستة، هي معروفة للمتلقين بدلالة وجود تلـــك الأفعـــال

---

[1]- الرازي : مفاتيح الغيب :م1،ج45/2. دار الفكر

[2]- ابن خلدون: المقدمة،1135/3.

[3]- سرحان، هيثم: استراتيجة التأويل الدلالي عند المعتزلة:14،15.

ومعانيها، في واقع المتلقين اللغوي والاجتماعي، أي أنها من ضمن الرصيد اللغوي، كما أن بنية الكلمات وتركيبها ودلالتها، من الكلام الحسن المستقيم، فلم تستغرب تلك الكلمات نحو: بقر، قرب، ربق، برق، قبر، رقب...الخ .

وليست هذه الأفعال الستة إلا نموذج للمستوى التداولي في التحليل، ودوره في فهم النصّ، بوصفه حدثاً فنيّاً يشكل نظامه بطريقة لغوية وعبر لغويـة، أي بـصفته نظاماً معرفياً وثقافياً واجتماعيا ونفسياً، ولكننا آثرنا التقديم بهذه الأفعال، تماشياً مـع عنوان السورة الذي عددناه أيضاً عنصراً تداولياً بحكم معرفته؛ بنية ودلالة وقـصة وحواراً .

ويعدّ عنوان السورة (البقرة) عنصر من عناصـر الإحالـة التـي تدرسـها التداولية، بإعتبار عنوان السورة علامة معيّنة يحيل إلى شيء معيّن معروف وهـذا الشيء هو بقرة بني إسرائيل التي أمروا بذبحها وقد طلبوا تعيينها وتمييزهـا مـن سائر البقر، فأحال إليها عنوان السورة معرّفاً لا نكرة .

وللسياق دور بارز في انسجام النصّ وترابطه، وذلك من خلال المعارف العامة والخبرات الحياتية الواقعية، التي يقدمها النصّ وهي معارف ليست غريبة أو مبتدعة فيه، بل إنّها في معظمها خبرات اكتسبها المتلقي أو سمع بها أو تعلّمها في منظومته الاجتماعية، ومن خلال هذه المعارف فإنّ المتلقي لا يجد صعوبة في إدراك المعنى الذي يرمي إليه المتكلّم، وفي هذا يذكر محمد خطابي:" أن لكل خطاب بنيـة كليـة ترتبط بها أجزاء الخطاب، وأن القارئ يصل إلى هذه البنية الكلية عبـر عمليـات متنوعة، تشترك كلّها في سمة الاختزال، على أن البنية الكلية ليست شـيئاً معطـى، حتى وإن كانت هناك بينات متنوعة أو مؤشرات على وجود هذه البنية، وإنما هـي مفهوم مجرد (حدسي) به تتجلى كلية الخطاب ووحدته"([1])، ولعل الحدس أو التصور الذي يقصده هو منطقية التأويل بين العنوان ودلالاته المندّاحة في فـضاء الـنص، كالتصور الكلّي لدلالات الحروف المقطّعة، التي تـضمنت كثيـراً مـن الـدلالات المباشرة وغير المباشرة، بدليل تعدد القراءات لهذه الحروف، مما يدلّ على امـتلاك

[1]- خطابي: لسانيات النص:46.

النصّ سلطة عليا، فالنصّ يستمدّ سلطته من سلطة صاحبه، فلا قراءة تُودي بدلالة نهائية للنصّ، فالنصّ بهذه السلطة ينقض مقولة (رولان بارت) المشهورة (موت المؤلف)، إنْ كان مفهوم دالّها ــ الموضوع والمحمول ــ مدلولاً مختزلاً خاضعاً لسلطة المتلقي، لكنّ سعيد يقطين وضّح مقولة (موت المؤلف) بأنّها في سياق هذه التعدد الدلالي، ويجب عدم فهمها فهماً اختزالياً، بقوله:" سمح القول بانفتاح النصّ بالكشف عن تعدد دلالاته وتعدد قراءاته، وليس على امتلاكه دلالة واحدة يختزنها، ومعنى ذلك أنّ كل قراءة تتيح إمكانية الكشف عن دلالة مختلفة، هذا التعدد جعل القراءة إعادة إنتاج النصّ، ولم تبق تبعاً لذلك استهلاكاً للنصّ، وبذلك مُحيَت الحدود التقليدية بين القراءة والكتابة، وتجلّى هذا التصور بجلاء في مثل هذه المقولات " موت المؤلف"، والتمييز بين الراوي والكاتب، والشخصيات في الرواية في ليست من لحم ودم، وما شاكل هذه المقولات التي فهمت وقتها فهماً تبسطياً واختزالياً"([1]).

إنّ السياق العام لسورة البقرة هو إقرار الربوبية والوحدانية لله وحده عزّ وجل، وذلك من خلال عدة محاور رئيسية؛ يمكن ذكرها على النحو التالي:

1- ذكر أسماء الله الحسنى المتفرد بها وحده سبحانه وتعالى، بدليل إسناد أفعال لا تسند إلا لله؛ لأنّها أسماؤه الحسنى فكلّها تؤول إلى الضمير المتصل(الهاء) من (أسمائه)، وهذا الضمير يحيل إحالة ذاتية متطابقة إلى لفظ الجلالة (الله) جلّ جلاله، والله تقدّست أسماؤه هو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد .

2- إسناد الأفعال: إنّ الأفعال في الحقيقة هي كلّها لله بحكم علمه الأزلي (الّدوني)، وما أفعال العباد إلا من باب المجاز لا الحقيقة، لكن القول بنسبتها إليهم، هي بحكم عقولهم ﴿إمّا شاكراً وإما كفوراً ﴾، ويظهر أنّ تقديم فعل الخلق على سائر الأفعال بعده في الآيتين السابقين، لعلامة على أنّ فاعله هو فاعل ما بعده من أفعال، إذ لم ينكر الكفار أنّ الله هو خالق السماوات والأرض قال تعالى:﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾([2])، كما أنّ سياق الآيات سياق إثبات لأفعال أخرى غير فعل الخلق للسماوات وللأرض وللغيث وللإخراج، ومجيء

---

[1]- خطابي : لسانيات النص: 78.

[2]- سورة الزخرف: الآية/9.

الأفعال صلة للصفة (الذي) في قول الله تعالى:﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾، هي تفسيراً وتبياناً للمعنى المستفاد من تقديم فعل الخلق وإسناده لله تعالى، والإقرار بفعل الخلق لله وحده كافٍ بتوحيده ونافٍ عن مشاركة أحد له في فعل متضمن في فعل الخلق لزوماً، وهو أي فعل من الأفعال الكونية المتعلقة بالسماء والأرض وما بينهما، وهي أفعال متضمنة على سبيل اللزوم فعل الخلق لهذه المخلوقات، وهذه الأفعال التي يسيرها الله وأعملها في مخلوقاته رزقاً لعباده، اعجازية إسناداً؛ حقيقة ومجازاً لمسند إليه غير لفظ الجلالة، أو إلى ما يحيل إلي لفظه إسناداً أو صفة، بفعل معاني الفاعلية أو الصفة أو البدل وغيرها، فما دامت هذه الأفعال تابعة لفعل الخلق وأقل شأناً منه، فلا سبيل إلا نفي إسناد فعل جامع يتضمن دلالة جميع الأفعال التي أسندت بعد فعل الخلق ،وهي الأفعال التي جاءت صلة للاسم الموصول في الآية الثانية،وتقدّمها فعلُ الجعل، فأي فعل من الأفعال بعده هو من باب الجعل، وذلك بدلالة المعنى الوظيفي لحرف الفاء (التعقيب) ومعنى النهي من (لا) الناهية الناصبة، وفعل الأمر الإنجازي المفهوم بدلالة النهي لا بصيغة المضارع وهو المسند لضمير الجماعة (الواو)، ويبدو أن سياق الآيات قبل هذه الآيات هو سياق مَنْ يجعل مع الله إلهاً آخر، أو مَنْ يسند فعلاً حقيقة أو مجازاً لمخلوق هو والمسند من مخلوقات الله، فبإسناد الأفعال المسندة لله وحده إلى مسند إليه هو من مخلوقات الله، يشارك الله سبحانه وتعالى في أفعاله، فالأفعال التي بعد فعل الخلق، متعالقة دلالياً مع فعل الخلق المتقدم، وهي جميعها محمولات لموضوع محوري واحد، هو محور الوحدانية لله سبحانه وتعالى، إذ إنّ فعل الخلق (خلقكم) المسند من المسند إليه نفسه وهو رب العالمين، هو خير شاهد على قصوره لله وحده.

3- الإيمان بالأنبياء والرسل وبما أنزل معهم ودعوتهم إلى عبادة إله واحد .

4- التأكيد على صدق الرسالة والرسول، فالله تعالى هو منزّل القرآن، وهو تعالى الذي بعث محمداً عليه الصلاة والسلام وأنزل عليه هذا القرآن، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وإتباع ما جاء به القرآن ودعا إليه، وهو سبحانه وتعالى الذي

بعث الأنبياء والرسل من قبل ودعوا إلى ما دعا إليه محمد عليه السلام، وأنــزل معهم الكتب التي دعت إلى ما دعا إليه القرآن الكريم، فهي دعوة واحدة تواصى بها وتواصل في تبليغها للناس الأنبياء والرسل، رحمة من ربّ العالمين بهم .

5- الموت والبعث وإثباتها للمنكرين: وذلك من خلال محاججة اليهود والمــشركين وفضح دعواهم وأقوالهم، والرد عليهم بالأدلــة والبــراهين وضــرب الأمثلــة وأسلوب الحوار وذكر القصص التي عرفوها، والعذاب الــذي لحقهــم مــن الله بكفرهم وهو مدركون له في الحال، والعذاب الذي لقيه المتبعون من المتَّبعــين، كما لقيه وسيلقاه الفريقان من الله تعالى، ولن يغني فريق عن فريق من العــذاب شيئاً .

إنّ كلّ ما سجلّناه إنّما هو مردود إلى علم الله سبحانه وتعــالى، فهــو الحــي القيوم، الأول والآخر، المحيي والمميت، مالك الملك، الواسع العليم، الذي وسع علمه كلّ شيء ولا يحيط بشيء منه أحد إلا بمشيئة العلي العظيم .

من خلال هذا الإيجاز لسياق السورة، فإنّه استند إلى كلّ مــا ينــسجم معــه، فاستخدم أفعالاً وجملاً وفقرات، ملائمة لموضوع السورة وللمحاور الرئيسية فيهــا، ومراعياً إلى جانب ذلك أحوال المتلقي وظروفه؛ ثقافته ومعرفته للعــوالم وقدرتــه، بيئته ومكانه وزمانه، فجاءت الألفاظ مفردة ومركبة أحداثاً إنجازيــة، لــذلك كــان السياق التداولي ذا خاصية شمولية مقصودة؛ لغوياً ونفسياً واجتماعياً فــي الجــانبين المعرفي والاستعمالي، وفي هذا السياق يقرِّر منذر عيّاشي مكونات السياق التداولي بقوله:"يتكون السياق التداولي من كل العوامل النفسية والاجتماعية التي تحدد نــسقياً لكي تلائم أفعال اللسان، وتتمثل هذه الأفعال في المعرفــة، والرغبــات، أو الإرادة، والتفضيل، وحكم مستخدمي اللغة وإنجازاتهم الاجتماعية من جهة أخرى (مثل علاقة السلطة والصداقة)... ويمكن تحليل النصوص على المــستوى التــداولي بوصــفها تتابعات من أفعال اللسان"([1]). فلمّا كانت الأفعال هي المحور المشترك والأهم فــي هذا المستوى ـــ بوصفها أحداثاً كلامية ـــ تنسجم وتترابط وتتعالق مع غيرها لتشكل

---

[1]- عياشي، منذر، العلامتية وعلم النص:172.

أبنية نصيّة صغرى وكبرى، فهي إذن خير من يمثّل هذا المستوى التداولي، لـذلك سأتحدث عنه من خلالها؛ ليتبين لنا دور القواعد التداولية التي أضـافها (فنـدايك) وغيره، إلى سائر القواعد التي يمكن لها أن تسهم في إحكام النصّ وتحقيق نصـيّته، وذلك باعتباره أكبر وحدة في التحليل (ذو بنية كليّة كبرى)، قصّر نحو الجملة بسبب هذا الاعتبار أن يحكم النص فيحقق له نصيته.

القصص والأمثال:

ويدخل ضمن هذا المستوى التداولي، ذكر القصص وضرب الأمثال، لما لهما من أثر مباشر في القلوب عند أولي الألباب، فهي صورة حيّـة للواقـع المعرفـي الخاص بجانب اللغة الاجتماعي، وفي هذا السياق يذكر الزمخشري والرازي أهميتها في النصّ القرآني بقول الأول:"ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثـل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عـن الحقـائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبيّ "([1])، وبقول الثاني:"أن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الـشيء فـي نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالـشاهد، فيتأكـد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقاً للعقل وذلك في نهايـة الإيـضاح"([2])، وتتناول التداولية دراسة عنصر (الاقتضاء)، وهو:"مفهوم ارتبط بمفهوم الإحالـة... فإذا كانت العبارة محيلة فهذا يقتضي وجود شخص في العالم الواقعي تحال العبـارة إليه"([3])، ومما يندرج تحت هذا العنصر عبارة (الكتاب) من قولـه تعـالى:﴿ذلـك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين﴾، فقوله الكتاب مع الإشارة إليه وصفته، يقتـضي وجود الكتاب وهو القرآن الكريم الذي تعّهد الله سبحانه وتعالى بحفظه.

---

[1]- الزمخشري: الكشاف: 50،51، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: خليل مأمون شـيحا، دار المعرفة، بيروت-لبنان،ط3، 1426هـ -2005م.

[2]- الرازي:مفاتيح الغيب،م1،ج2: 87.

[3]- حسنين: الدلالة والنحو: 193.

أسباب النزول:

تتصل مناسبة نزول كثير من الآيات بالمقام أو بشاهد الحال، فقد يأتي نزول الآية رداً على سؤال أو رداً على موقف اتّخذه الرسول عليه السلام، أو بياناً لأمر يتصل بحادثة حدثت، أو تبييناً لكيفية حدوث بعض المسائل أو القضايا والأمور الحياتية للمتلقين، التي تتصل بالدين الجديد، فأسباب النزول تعضد في فهم النصّ وحمل المعنى على الظاهر الذي أبانه الموقف الذي نزلت لأجله الآية أو الآيات، ومن المواضع التي تماس فيها سبب النزول مع الوقائع، سبب نزول بعض الآيات الواردة بشأن تبيين صفة المنافقين، وقد جاءت سورة البقرة بآيات تتحدث عنهم بشكل مفصّل، بعد الحديث عن صفة المتقين وصفة الكافرين، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾([1])، قال الشوكاني:"عن ابن عباس قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور للنبي صلى الله عليه وسلم: ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله فيهم:﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا﴾ الآية﴾([2])، و(الحنيف) مأخوذ من الحنف، وهو الاستقامة وقيل هو الميل، ومنه قيل للمائل الرجل أحنف، فالحنيف من الاستقامة معناه المستقيم، ومن الميل معناه المائل عن معوج الأديان إلى طريق الحق...والحنيف في الدين: الذي مال عن الأديان المكروهة إلى الحقّ ، ويجيء الحنيفُ في الدين بمعنى المستقيم على جميع طاعاتِ اللّهِ"([3])، وربط الجصّاص بين المعاني ذات الحقل الدلالي الواحد، التي أنبأ عنه لفظ (الحنيف)، فقال:"...مَعْنَى الْحَنِيفِ الدِّينَ الْمُسْتَقِيمَ؛ لأَنَّ الْحَنَفَ فِي اللُّغَةِ هُوَ الاسْتِقَامَةُ وَالإِسْلامُ هَهُنَا هُوَ الطَّاعَةُ لِلَّهِ تَعَالَى وَالانْقِيَادُ لأَمْرِهِ"([4]) .

---

[1]- سورة البقرة:الآية/135.

[2]- الشوكاني: فتح القدير،146/1،147.

[3]- ابن عطية: المحرر الوجيز،438/1.

[4]- الجصّاص:أحمد بن علي المكني بأبي بكر الرازي الجصاص الحنفي، أحكام القرآن. 413،413/3 .

الترابط بين السور المكية والمدينة من حيث (مكان النزول).

إنّ الخطاب بـ (يأيها الناس) هو معيار للقرآن المكي، كما نقل ذلك بعض المفسرين بقطع النظر عن مخالفته أو موافقته لقول منْ قال بذلك، قال القرطبي:" قال علقمة ومجاهد: كل آية أولها " يأيها الناس " فإنما نزلت بمكة، وكل آية أولها " يأيها الذين آمنوا " فإنما نزلت بالمدينة.قلت (أي القرطبي): وهذا يرده أن هذه السورة والنساء مدنيتان وفيهما يأيها الناس، وأما قولهما في ﴿ يأيها الذين آمنوا﴾([1]) فصحيح، وقال عروة بن الزبير: ما كان من حد أو فريضة فإنه نزل بالمدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة، وهذا واضح﴾([2])، فالذي يهمنّا من هذا القول، أنّ فيه علامة على استمرار الدعوة نفسها إلى إله واحد، في بيئة يقطنها اليهود والنصارى وإلى جانبهم المنافقين، وقد أشرك كلّ منهم بالله سبحانه وتعالى، شأنهم شأن المشركين من العرب في مكّة، الذين اتّخذوا أصناماً يعبدونها من دون الله تقرّبهم إليه زلفى كما يعتقدون، فالخطاب بـ (يا أيّها الناس) هو خطاب للناس كافة مؤمنين وكافرين، وهذا ما فسّره ابن عباسّ وذهب إليه أبو حيان بقوله:"يا أيها الناس: خطاب لجميع من يعقل، قاله ابن عباس..."([3]).

الأفعال الكلامية: مما يتصل بالمستوى التداولي نظرية الأفعال الكلامية، وللوقوف على يتصل بهذه النظرية نمثّل له بنماذج من سورة البقرة على الشكل التالي:

شكّلت الآيات؛ الثالثة والرابعة والخامسة، من سورة البقرة، فقرة محتواها القضوي ذكر صفات من يُوصف بـ(المتقين)، وتحقق هذا الوصف للموصوف، مشروط بأداء مجموعة من الأفعال المسندة إلى الاسم (المتقين)، بصيغة المضارع المستمر (يَفْعلُون: يؤمنون، يقيمون، ينفقون، يوقنون)، فمن أنجز هذه الأفعال في الزمن الماضي، ومن أنجزها وما يزال ينجزها، ومن سينجزُ هذه الأفعال في الزمن المستقبل، فقد دخل في الوصف (المتقين)، وهو هدى من الله في الحقيقة؛ لأنّ أسباب الهداية هي في ذلك الكتاب الذي أنزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، (فيه

---

[1]- سورة النساء: الآية/19.

[2]- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 225/1 .

[3]- أبو حيان : البحر المحيط/ 152/1 .

هدىً للمتقين)، ويمكن ذكر بعض أقسام الأفعال الكلامية والتمثيل عليها على النحو الآتي:

1-الإخباريات: وغرضها الانجازي "نقل المتكلّم واقعة ما (بدرجات متفاوتة) من خلال قضية، يعبر بها عن هذه الواقعة"([1])، فالأفعال التي وضعت تحت هذا العنوان، هي الأفعال التي رأى (أوستن) و(سيرل) بأنّها أفعال يكون اتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، وكلّ الأفعال التي تحت هذا التصنيف تحتمل الصدق والكذب، فالصدق في هذه الأفعال معيارها ــ كما يبدو ــ في المقام الأول المتكلّم، وكذلك مطابقتها للواقع وزمن إنجازها، فالأخبار التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لا تحتمل إلا الصدق، وكذلك الأفعال التي للأخبار عن المسلمات والحقائق الثابتة، لذلك كان إنجاز هذا النوع من الأفعال متحققاً في زمنه الماضي وقد أخبر به بالزمن المضارع أولاً، فدلّ ذلك على الصدق فيها لا غير، قال الله تعالى في أول سورة البقرة في الإخبار عن صفة المتقين:﴿ الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون،أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾([2])، فاقتضى شرط المتقين إنجاز هذه الأفعال التي جاءت بصيغة المضارع المستمر، ولمّا أنجزت هذه الأفعال من المخاطبين: الرسول عليه السلام والمؤمنين، تحقق إنجازها وعدم احتمال غير الصدق لها، فجاء الإخبار عن صدق إنجازها من قبل المخاطِب بصيغة الماضي في آخر السورة، قال الله تعالى:﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه، والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾، ويعضده كذلك إنجاز الأفعال التي جاءت بصيغة الأمر، ومقامها الدعاء بالثبات على إنجازها:"ربنا لا تؤآخذنا ...ولا تحمل علينا إصراً، ولا تحملنا، وأعف عنا وأغفر لنا وأرحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾([3])، ومنهم الكافرون الذين لم ينجزوا هذه

---

[1] – نحلة: نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية:177.

[2]– سورة البقرة: الآيات (3-5).

[3]– سورة البقرة: الآية/286.

الأفعال، بدليل نفي الإيمان عنهم، فعدم الإيمان هو عدم إنجازهم للأفعال التي أخبرت بها الآيات صفةً للمتقين، وإنْ لم تكن صيغتها صيغة الأمر أو الطلب، فذكر صفات المتقين والتعريض بصفة الكافرين، مقامها يستوجب إنجاز هذه الأفعال التي جاءت بصيغة المضارع، ويعضد هذا ــ كما يبدو ــ صيغة المضارع نفسه المسبوق بأداة النفي وقد جاءت صفة للكافرين (لا يؤمنون)، ولم يقل لم يؤمنوا، إذْ لو كان ذاك لكانت الصيغة صيغة ماض بقرينة أداة الجزم، إذ إن المقام هو الإخبار عما سيأتي من قبل الكفار المخاطبين في الحال لا السابقين منهم، وكلاهما لن يؤمنوا؛ لأنّهم أصحاب عقيدة واحدة، فأخبر الله عز وجل عن عدم إنجازهم لأفعال المؤمنين التي هي صفة المتقين، بلفظ الماضي ليطابق فعل الكفر الذي أنجزوه هم قبل الختم، فلا فائدة في إنذارهم، فإنذارهم وعدمه سواء.

ويظهر مما تقدّم بأنّ أمر الصدق أو الكذب في هذه الأفعال، مرهون بإنجازه من قبل المخاطب، ولا يحتمل غير الصدق من قبل المتكلّم؛ لأنّ الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة وسائر أفعال المؤمنين هي مطابقة لصفة المتقين، التي أخبر عنها القرآن الكريم الذي (لا ريب فيه)، ويعضد هذا دخول هذه الأفعال في صنف التوجيهات ، وذلك بربط فعل التحدي لهذا الكتاب بهذه الأفعال .

2-**التوجيهات**: وهي الأفعال التي تتم فيها المطابقة من العالم إلى الكلمات، وتشمل أفعال النصح والإرشاد، والتحدي، ويطلب المتكلّم من المتلقي أن يقوم بها نحو: اعبد، اسجد، وقوله تعالى:" واستقم كما أمرت"، وقوله تعالى:" فأتوا بسورة من مثله"..الخ، فأمر الإنجاز لها مرهون بالمتكلّم، لذا كانت صيغة الأفعال بصيغة المضارع المستمر، فإذا ما أنجز المخاطب فعلاً من هذه الأفعال " يؤمنون ، يقيمون، ينفقون، يوقنون، شمله الوصف الخاص بالمتقين، وهذا الإنجاز لهذه الأفعال عندما تحقق لدى المتلقين المؤمنين حقاً، جاء الإخبار بصيغة الماضي، في الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة؛ وحصل بهذا الإنجاز أيضاً الترابط والتماسك بين أوائل سورة البقرة وخاتمتها.

إنّ الاحتجاج للقرآن وتأكيد مصدر نزوله ونفي الريب عنه والتحدي بسورة من مثله، خير تمثيل على هذه المطابقة، وتشير لنا دلالة التحدي المفهومة من جملة

الشرط المتقدمة:﴿ وإن كنتم في ريب مما أنزلنا على عبدنا﴾، على فعل الإتيان، ومن فعل التحدي (فأتوا بسورة من مثله)، على التأثير في الجانب النفسي والسلوكي للمخاطبين ولاسيما المتشكك أو المنكر منهم، وفعل السلوك المشعر بالتحدي هذا، جعله (أوستن) من صنف أفعال التوجيهات([1])، وليس القصد أو المقام مقام تحد كما يشير ظاهر اللفظ كما يبدو، بل القصد من انجاز هذا الفعل من قبل المتكلّم ودعوة المخاطب إلى انجازه أو محاولة انجازه، ومن ثم الإخبار عن استحالة انجازه من قبل المخاطب وبالنفي، هو أن ينجز المخاطب فعلاً يكون خيراً له، وهذا الفعل الذي يريد المتكلّم من المخاطب انجازه، مرتبط ومتماسك لفظاً ومعنىً بصفة المتقين، ليلحق المخاطب بإنجازه له بهم، وقد حرص المتكلّم على انجازه بلفظه من جذر الاسم نفسه(المتقين) فأنجزه بصيغة الأمر ومسبوقاً بفاء العطف والتعقيب، فقال الله تعالى:﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾، ولعل عدم قصد التحدي من الفعل (فأتوا) هو المعنى غير المباشر للفعل، فقوة الفعل الانجازية خالفت مراد المتكلّم الظاهر، وذلك بقرينة الفعل (فاتقوا)، ومن هنا يتبين لنا مدى صدق القصد والرغبة في انجاز مثل هذا النوع من الأفعال الواردة تحت صنف (التوجيهات)، وفي هذا السياق يذكر (محمود نحلة) أنّ الغرض الانجازي لهذه الأفعال هو:" محاولة المتكلّم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الإرادة أو الرغبة الصادقة، والمحتوى القضوي فيها هو دائماً فعل السامع شيئاً في المستقبل، ويدخل في هذا الصنف: الاستفهام، الأمر،الرجاء، الاستعطاف، التشجيع، الدعوة، الأذن، النصح، بل التحدي أيضاً الذي جعله (أوستن) في أفعال السلوك"([2])، ويظهر لنا في هذا الاقتباس أهمية الزمن في المحتوى القضوي، وهذا ما تحقق في صيغة الأفعال في أول سورة البقرة (يؤمنون، يقيمون، يوقنون...الخ)، وقد وردت أفعال كثيرة في سورة البقرة تمثل هذا النوع من الأفعال،قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ

---

[1]- انظر: نحلة: نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية، 177.

[2]- المرجع نفسه، 177.

وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ*الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾([1])، وكذلك الأفعال التالية من الآيتين التي بعدهما: نزلنا، فأتوا، وادعوا، لم تفعلوا، لن تفعلوا، فاتقوا، أعدّت. نلاحظ بأن هذه الأفعال: متنوعة الصيغة بين الماضي والمضارع والأمر، ومتنوعة كذلك بين الإنشاء والطلب، والمحمول التي تتحدث عنه واحد وهو محور الوحدانية، وذلك من خلال إسناد أفعال ليست خارجة عن عرف المتلقي ورصيده الثقافي، بل لأنّها لا تسند إلا لله وحده .

3-الالتزاميات: وهي الأفعال التي يلتزم المتكلّم فيها بفعل شيء في المستقبل، وذاك الفعل في هذا الزمن هو محتواها القضوي، وهي بهذا الالتزام يكون اتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص فيها القصد، ولقد أشار محمود نحلة إلى وجه التماثل بين صنفي (التوجيهات والالتزاميات) من حيث اتجاه المطابقة فيهما، أي أنها في الصنفين من العالم إلى الكلمات، ولم يدع مجالاً لوضعهما بسبب هذا التماثل في صنف واحد ، مستدلاً بمعيارين الأول: المرجع في الالتزاميات هو المتكلّم، وفي التوجيهات المخاطب، والثاني: عدم التأثير في الالتزاميات من قبل المتكلّم في المخاطب، وحصوله في التوجيهات([2])، وإذا كنت أوافقه في المعيار الأول فإنني لا أوافقه في المعيار الثاني، وذلك بوقوع التأثير من قبل المتكلّم في المخاطب في الالتزاميات أيضاً، وهذا التأثير ظاهر بيّن في الأمثال والقصص وما تخللهما من أفعال وأحداث وتصوير لها.

4-التعبيرات: ويكون التوجّه في هذه الأفعال من الخارج إلى الداخل، وتتمثل في الأفعال التي تصوّر مشهداً أو أكثر للمتلقي، وذلك بنقل ذلك المشهد من اللامحسوس أو اللامدرك إلى إحساسه وإدراكه، بل وكأنه يبث بثاً حياً ومباشراً، بقطع النظر عن وقوعه في الزمن الماضي أو في الزمن المستقبل، وهذا اللامحسوس واللامدرك محسوس ومدرك، (السماوات والأرض، نظام الكون، اعتراف الكفار بأن الخالق هو

---

[1]- سورة البقرة: الايتان/21،22، وانظر الآيات بعدهما .

[2]- انظر : نحلة: نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية:178.

الله، الموت والبعث، إنزال الغيث، إحياء الأرض بعد موتها، أحوال الأمم السابقة، ذكر القصص، ضرب الأمثال، التحدي بأن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن؛ سبيل الهداية للصراط المستقيم، وأيقنته أنفسهم، ربنا أبصرنا وسمعنا، القيا في جهنم، لا تختصموا لدي.

5-**الإعلانيات:** وهي تشمل الأفعال التي يقدّمها المتكلّم على جهة الإخبار فيها للمتلقي، ويكون التوجّه فيها من العالم إلى الداخل أو من الداخل إلى الخارج، وتتضمن أيضاً الأفعال التي ترد في سرد القصص أو ذكر الأمثال، وهي أفعال تنتمي في الوقت نفسه إلى المستوى التداولي، أو داخلة لدى المتكلّم والمتلقي في إطار معرفة العوالم والعرف اللغوي الاجتماعي، أي أنها رصيد معرفي عند المتلقي لجأ إلى استخدامها المتكلّم عن قصد، ومن ذلك على ذلك الآية التي تتحدث عن قصة إبراهيم عليه السلام مع الذي حاجّه في ربّه، وفيها الفعل (ترى) المجزوم بلم المسبوق بهمزة الاستفهام، إذ أُنجزت في هذه الآية الأفعال غير المباشرة بأفعال غير مباشرة، من خلال أسلوب الاستفهام والمراد به التعجب، قال ابن عاشور:" والاستفهامُ في"الم تر "مجازي متضمّن معنى التعجيب، ... وهذا استدلال مسوق لإثبات الوحدانية لله تعالى وإبطال إلاهية غيره لانفراده بالإحياء والإماتة، وانفراده بخلق العوالم المشهودة للناس"([1]).

7.1.2 المواضيع الرئيسة التي تناولتها سورة البقرة:

تناولت سورة البقرة عدداً من الموضوعات الرئيسية التي تؤول جميعها إلى إقرار موضوع مركزي واحد وهو (الإقرار بالوحدانية لله تعالى)، الذي سأقف عنده بعد الحديث هذه الموضوعات الرئيسية الأخرى وهي على النحو التالي:

1- العلم: ويتصل به الحديث عن الغيب، وإحاطة وشمول واتساع علم الله لكل شيء وبكل شيء، وقد جاءت آيات كثيرة في سورة البقرة، تضمنت الحديث والإبلاغ عن علم الله الذي أحاط ووسع كلّ شيء، ومن هذه الآيات قول الله تعالى:﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا

1- ابن عاشور: التحرير والتنوير، 32/2، الدار التونسية.

الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾([1])، كما جاءت آيات في أواخر سورة البقرة، تتحدث من خلال معناها عن علم الله، قرنت بذكر موضوع البعث واليوم الآخر، فما يبديه الإنسان أو يخفيه يعلمه الله أولاً ثم يحاسبه عليه، فحذف الفعل (يعلمه) دالٌّ عليه سياق الآية في قول الله تعالى:﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾([2]).

وقوله تعالى:﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾([3]).

ومما يتصل بعلم الله الذي تأولناه دلالةً من دلالات الحروف المقطّعة، حديث الغزالي عن المعجزات التي أيّد الله بها رسلَه، حيث جعلها مستندة إلى العقل والعرف، بقصد التصديق، قال الغزالي:" بعض العلوم بغير واسطة كالعلم بالذات وصفاتها، وقد يفضي بوسائط، والوسائط ثلاثة الحواس وهي الوسيلة إلى المحسوسات، ونظر العقل وهي الوسيلة إلى العقليات، واطّراد العادات، وبه يعرف معاني الخطاب وقرائن الأحوال، ثم قد لا يفضي الميز إلى العلم إلا بواسطتين، كالمعجزة تتوقف على واسطة العقل والعرف، فيستبان بالعقل كونه فعل مخترع صانع متصرف، ويستبان بالعرف أنه دال على الصدق، إذ لا يناسب انقلاب العصى ثعباناً صدق موسى في كونه رسولاً، وأما السمعيات فإنها معلومات ولكنها لا تظهر في العقل ظهور العقليات، ومستنده قول حق وخبر صدق وقول النبي عليه السلام صدق وكلام الله سبحانه كذلك وقول أهل الإجماع بتصديق الرسول إياهم"([4]) .

---

[1]- سورة البقرة: الآية ،255 .

[2]- سورة البقرة: الآية: 284 .

[3]- سورة البقرة: الآية: 115، وانظر: الآيتين/249، 260.

[4]- الغزالي: المنخول: 110،ت/محمد حسن هيتو،ط/1419،3هـ 1998م، دار الفكر المعاصر بيرت لبنان دار الفكر دمشق – سورية .

2- الكتاب (القرآن): وتحدثت عنه السورة من حيث نزوله من الله تعالى، وتنزيهه عن كل ريب، وهدايته للصراط المستقيم، وما جاء به من ذكر الأنبياء والرسل عليهم السلام وأخبارهم، وأخبار قوم كل رسول منهم، والحال التي آلوا إليها بسبب تكذيبهم لهم وكفرهم بالله تعالى، وقد وظّف الفخر الرازي موضوع الكتاب (القرآن) والاحتجاج له بدلالته على التوحيد، الذي يعدّ المحور المركزي الذي تعانقت لأجله هذه الموضوعات، وذلك من خلال تفسيره للحروف المقطّعة وربط دلالتها بقوله تعالى في سورة البقرة:" ذلك الكتاب" قال الرازي: قوله:﴿طسم* تِلْكَ آياتُ الكتاب المبين﴾([1])، معناه: آيات هذه السورة تلك آيات الكتاب المبين، وتمام تقريره ما مرّ في قوله تعالى:﴿ذلك الكتاب﴾، ولا شبهة في أنّ المراد بالكتاب هو القرآن والمبين، وإن كان في الحقيقة هو المتكلم، فقد يضاف إلى الكلام من حيث يتبين به عند النظر فيه، فإن قيل القوم لما كانوا كفاراً فكيف تكون آيات القرآن مبينة لهم ما يلزمهم، وإنما يتبين بذلك الأحكام؟ قلنا ألفاظ القرآن من حيث تعذر عليهم أن يأتوا بمثله يمكن أن يستدل به على فاعل مخالف لهم كما يستدل بسائر ما لا يقدر العباد على مثله، فهو دليل التوحيد من هذا الوجه ودليل النبوة من حيث الإعجاز، ويعلم به بعد ذلك أنه إذا كان من عند الله تعالى فهو دلالة الأحكام أجمع، وإذا ثبت هذا صارت آيات القرآن كافية في كلّ الأصول والفروع أجمع."([2]).

3- الخلق والحياة والموت والبعث: واشتملت هذه الموضوعات على خلق الإنسان والأطوار التي مرّ فيها، ومن الآيات التي تحدثت عن هذا الموضوع قول الله تعالى:﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آَيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾([3])، وكذلك الحديث عن خلق السماوات والأرض وثبات

---

[1]- سورة الشعراء: الآيتان:1،2.

[2]- الرازي: مفاتيح الغيب، م12،ج24/ 118،119.

[3]- سورة البقرة: الآية/259.

نظام الكون وتدبير أمره، فهذه المخلوقات الكونية وثبات نظامهـا. وظفّهـا النصّ القرآني في الدلالة على محور الوحدانية لله تعالى، فكانت من المشاهدات والمدركات التي لا ينكرها متلق عاقل، فتوّجه النصّ القرآني إلى مخاطبة المشركين من خلالها لعلّهم يعقلونها فيؤمنون بالله الواحد الأحد الفرد الصمد، ربّ السماوات والأرض وما بينهما، وكذلك موضوع نزول الغيث وما يتصل به من إحياء الأرض بعد موتهـا، وهو على تماس بموضوع إثبات البعث، من خلال إسناد فعل الإنزال للغيث وفعـل إحياء الأرض بعد موتها إليه عزّ وجل وحده، قال تعالى:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾([1]) .

كما أنّ مناسبة نزول هذه الآية، قد جاءت في سياق إثبات الوحدانية لله تبـارك وتعالى، فجاءت متقدّمة على الآية التي فسّرتها بعدها، وهي الآية التي تنصّ علـى الوحدانية لله عزّ وجل، قال الواحدي([2]):"أنزلت بالمدينة على النبي صلى اله عليـه وسلّم ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾([3])، فقالت كفّار قريش بمكة: كيف يسع الناس إله واحد فانزل الله تعالى﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾، فأسباب نـزول بعض الآيات جاء مؤكداً على إقرار الألوهية لله وحده عزّ وجل، كما أنّ تجاوبـات الوحي مباشرة، تأكيد على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام وصدق الكتاب الذي أنزل إليه، الله سبحانه وتعالى إليه، وهذا التجاوب من خلال سـبب تـزول بعـض الآيات، تثبيت وتسلية لرسول الله عليه الصلاة والسلام، لما يكون قد سمعه من كفار قريش، محاولين التأثير والتشكيك فيما يدعو إليه عليه السلام، وهذا التجـاوب مـن جهة أخرى كان وفق السياق وما يشمله من حيث موضوع الحديث الذي نزلت فيـه الآية، ومناسباً مع زمان الحديث ومكانه، ووفق أحوال وظروف المخاطبين وثقافتهم، كما هو الحال في قصة إبراهيم مع الذي حاجه في ربّه، قال السيوطي فيما يرويه:"

[1]– سورة البقرة: الآية/164.

[2]– الواحدي: أسباب النزول،48 .

[3]– سورة البقرة: الآية/163 .

الذي حاج إبراهيم في ربّه هو (نمروذ بن كنعان، وأخرج ابن جرير مثله عن مجاهد وقتادة والربيع وزيد ابن أسلم"([1]).

وقد وظّف القرآن الكريم موضوع القصص في دلالته على المحاور الرئيسة التي تحدثت عنها سورة البقرة، فتحدث عن قصة آدم عليه السلام وخلافته في الأرض، وقصة خروجه من الجنّة، وقصة إبراهيم عليه السلام مع الذي حاجّه في ربه، كذلك قصة موسى عليه السلام مع قومه، وقصة البقرة وكيفية إحياء الله سبحانه وتعالى الموتى، فربط هذه القصص بالواقع الثقافي الاجتماعي والعرفي للمتلفقين، له أهمية كبرى في إقناع المتلقي لأن يؤمن بالله وحده، قال تعالى:﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾([2])، كما تناولت سورة البقرة موضوع الموت والبعث، فجعل إحياء الموتى للعاقل وغير العاقل سواء، في الدلالة على أنْ لا خالق ولا مميت ولا محيي إلا هو سبحانه وتعالى وحده، وأنّ هذا الإحياء للموتى دليل على حقيقة البعث بعد الموت، قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾([3]).

8.1.2 المحور الموضوعي المركزي في سورة البقرة .

المعنى الدلالي الذي يمكن استنباطه من بنية النصّ الكلّية الكبرى، فقد جاء منثوراً في بنية النصّ، مضمناً في ألفاظ تنوعت بنيتها الصرفية، وفي معاني ألفاظ اختلفت بنيتها الصوتية عن بنية سابقتها اللفظية، أو من خلال معنى آية أو أكثر،

---

[1]– السيوطي: جلال الدين السيوطي، مفحمات الأقران في مبهمات القرآن، 26، راجعه وقدّم له: طه عبد الرؤوف سعد. المكتبة الأزهرية للتراث، ط/1، 1412ه ــ 1992م .

[2]– سورة البقرة: الآية/258.

[3]– سورة البقرة: الآية/260.

وكان للسياق دور بارز في معناها، وهذا المعنى الدلالي قد أشار إليه النصّ في عنوانه، وذلك من خلال لفظ من ألفاظه تحصّل لنا ونحن نفكك عنوان السورة محللين له .

طالعتنا ألفاظ وجمل وفقرات قصيرة وطويلة امتدت في فضاء النصّ من عنوانه حتى خاتمته، وهي تصرح لفظاً ومعنى بمفردات (القرب والتقرب والتقريب والقربان والاقتراب)، قرب الله عز وجل منا والتقرب إليه، وما القصص القرآني وذكر القرون والأمم السابقة، إلا هدماً للبعد الزمني وتقريباً له، فالحدود الزمنية والمكانية تكاد تنعدم نهائياً، بين زمن الرسول عليه الصلاة والسلام وهذه الأمة خاتمة الأمم، وبين زمن الرسل والأنبياء والأمم السابقة، ولعل ذكر قصة سيدنا آدم عليه السلام في سورة البقرة لعلامة على هذا الهدم للزمن الماضي ووصله بزمانه وزماننا، ولقد ذكر كثير من المفسرين أن نزول سورة البقرة علامة على قرب الساعة، ولعل آخر آية نزلت من القرآن الكريم ووضعت في سورة البقرة لعلامة أخرى على قرب الساعة .

إنّ جميع الموضوعات السابقة والأحداث التي رافقتها واتصلت بها، هي خاصة بالله وحده، فلا يختص بها أحد غير الله عزّ وجل، ولا تتعلق بفاعل لأي حدث أو جزء منه، إلا به وحده سبحانه وتعالى، فدلّت بخصوصيتها على الوحدانية لله تعالى، وعقيدة التوحيد التي يدين بها المسلم لله وحده تبارك وتعالى، جوهرها الإيمان بالغيبات التي تحدث عنها القرآن الكريم، واستدلّ على وجودها ووقوعها في الحقيقة، وهي من الموضوعات المحورية البارزة، التي تناولتها السور ذوات الحروف المقطّعة، وقد عرّف الجرجاني (التوحيد) لغة واصطلاحاً، قال:" التوحيد: في اللغة: الحكم بأن الشيء واحد، والعلم بأنه واحد، وفي اصطلاح أهل الحقيقة: تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الأفهام، ويتخيل في الأوهام والأذهان، وهو ثلاثة أشياء: معرفة الله تعالى بالربوبية، والإقرار بالوحدانية، ونفي الأنداد عنه جملة "([1]).

---

[1]- الجرجاني: التعريفات:،96.

إنّ أول ما تحدثت عنه سورة البقرة موضوع الغيب، وهو موضوع اشتمل على مسائل عدة يجملها قول ابن كثير في تفسيره بقوله:" قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، في قوله:﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ قال: يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره ولقائه، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث، فهذا غيب كلّه"([1]).

ويبدو أن العامل في الغيب وهو فعل الإيمان (يؤمنون)، جاء مناسباً مع بعض الغيبيات التي من جملة الغيب، لأنّ التصديق بما غاب دلّ على وجوده الكون وما فيه من مخلوقات، فلا مناص من التصديق بوجود الله الخالق على الرغم من غيابه عن نظرنا، وهو أمر لم ينكره أحد من كفار قريش وغيرهم، ونصّت آيات كثيرة في القرآن الكريم على تصديق الكفار بذلك، ومن هذه الآيات قول الله تعالى:﴿ولئن سألتهم من خلقهن ليقولنّ خلقهن الله قل أفلا تعقلون﴾([2])، أمّا الآخرة فناسبها فعل اليقين (يوقنون)، فذكرت معمولاً للفعل مقدماً عليه ـــ وهي من الغيب بصريح اللفظ؛ لأنّ لا دليل على اليوم الآخر ظاهر بالنظر والاستدلال، كما هو الحال في الدلالة على الخالق عزّ وجل، إلا ما تحدثّت عنه آيات كثيرة في القرآن الكريم، أو تحدثّت عن بعض ما يقع فيه، بقطع النظر عن وقت حدوثها منه، وما في قصة البقرة ومناسبة نزول الآيات التي تتحدث عنها إلا دليل على حقيقة اليوم الآخر، وكذلك ذكر القصص وضرب الأمثال في القرآن إلا للتأكيد الذي لا يقبل الريب بأنّ اليوم الآخر وما فيه واقع في الحقيقة، إذ نجد الحديث عن البعث والنشور والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار، لذا فإنّ فعل اليقين (يوقنون) لا فعل الإيمان ـــ كما يبدوـــ قد ناسب أنْ يكون عاملاً للآخرة ليكون أقوى في الدلالة على حقيقة اليوم الآخر، على الرغم من أنّ اليوم الآخر وما يقع فيه من جملة الغيب؛ لأنّ اليقين يعني العلم دون الشك، أي بمعنى العالم، لذا فسّر القرطبي قوله تعالى: ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ بقوله:" أي وبالبعث والنشر هم عالمون"([3])، فمعنى اليقين كما يذهب

---

[1]– ابن كثير: تفسير القرآن العظيم،165/1.

[2]– سورة الزخرف: الآية/9.

[3]– القرطبي:الجامع لأحكام القرآن: 180/1.

علماء اللغة وعلماء التفسير أنّه: العلم دون الشك، يقال منه: يقنت الأمر (بالكسر) يقنا، وأيقنت واستيقنت وتيقنت كله بمعنى، وأنا على يقين منه"([1])، وقال الجرجاني:" اليقين: في اللغة: العلم الذي لا شك معه، وفي الاصطلاح: اعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن إلا كذا، مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال"([2])، فالآخرة من الغيبيات ابتداءً من ظهور علاماتها أو ما عُرف بأشراط الساعة، ومن الغيبات الداخلة تحت تأثير العامل (يؤمنون) منها: عذاب القبر، الحشر، النشر، الجنّة، النّار، الحساب، الصراط، الميزان ...الخ.

ومن الآيات التي تؤكّد على محور الوحدانية قول الله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾([3])، ولقد مرّ بنا تفسير ابن عبّاس العبادة التي دلّ عليها الفعل (اعبدوا) بالوحدانية، وما ذكره القرطبي أيضاً لابن عباس بقوله:" كل عبادة في القرآن فهو التوحيد "([4])، ومما يدلّ ويؤكد على هذا المحور أيضاً الآية التي تلت هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾([5])، ويشير إلى هذا المحور ذكر لفظ الجلالة بدلاً من الضمير أي: ولا تجعلوا له، قال أبو السعود في تفسير هذه الآية: "كأنه قيل: إذا أمرتم بعبادة مَنْ هذا شأنه من التفرد بهذه النعوت الجليلة والأفعال الجميلة فلا تجعلوا له شريكاً، وإنما قيل: أنداداً باعتبار الواقع، لا لأن مدارَ النهي هو الجمعية، وقرئ نِدّا، وإيقاعُ الاسم الجليل موقعَ الضمير لتعيين المعبودِ بالذاتِ إثرَ تعيينه

---

[1]- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: 180،181/1.

[2]- الجرجاني: التعريفات/: 332.

[3]- سورة البقرة: الآية/21.

[4]- القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، 193/18.

[5]- سورة البقرة: الآية/22.

بالصفات، وتعيينِ الحُكمِ بوصف الألوهية التي عليها يدور أمرُ الوحدانية واستحالةُ الشِّركة، والإيذانِ باستتباعها لسائر الصفات"([1]).

ويعضد موضوع الربوبية والوحدانية له سبحانه وتعالى، الآية التي فسّرت دلالتي المحمول والموضوع، وهي قول الله تعالى:﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾([2])، وموضوع التخاطب الواحد في نحو النصّ على اختلاف أبنيته المحققة له، تشير إلى تعالق موضوع الوحدانية التي حملت دلالتها الأفعال المسندة إلى لفظ الجلالة، وهذا التعالق أكّده علماء النصّ، إذ يذكر فندايك مفهومه لهذا التعالق بقوله:﴿ إنّ الوقائع التي تشير إليها القضايا تكون متعالقة، بقدر ما تكون مرتبطة بموضوع التخاطب﴾([3])، فالله عزّ وجل هو الخالق للذين من قبلنا والخالق لنا وللذين من بعدنا، وهو خالق ما هو أعظم من خلقنا، فإسناد فعل الخلق له سبحانه وتعالى وحده في كثير من الآيات، وذكر متعلقه المرتبط به بعلاقة التعدية وهو مجموع المفاعيل؛ الإنسان، السماوات والأرض وما بينهما، أو هو المحمول الرئيسي، وذكر الأفعال: جعل، أنزل، أخرج، المسندة إلى ضمير الغائب (هو) المحيل على لفظ الجلالة (ربّ) والمضاف إليه كاف الخطاب ولاحقة بها ميم الجمع، في قوله تعالى:﴿يا أيّها الناس اعبدوا ربكم﴾، لتنسجم جميعها مع دلالة الخطاب الموجه إلى جميع الناس؛ موحدين وغير موحدين، وقد اختار الطبري من التأويلات لقوله تعالى:" وأنتم تعلمون" في الآية السابقة، تأويل ابن عباس بعد أن قدّم رأيه بقوله:" فالذي هو أولى بتأويل قوله:"وأنتم تعلمون" إذْ كان ما كان عند العرب من العلم بوحدانيَّة الله، وأنه مُبدعُ الخلق وخالقهم ورازقهم، نظيرَ الذي كان من ذلك عند أهل الكتابين، ولم يكن في الآية دلالة على أنّ الله جل ثناؤه عني بقوله:"وأنتم تعلمون"

[1]- أبو السعود: للقاضي محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، ت/ 982هـ، إرشاد العقل السليم إلى مزاي الكتاب العزيز، 84/1، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة /1، 1419هـ، 1999م، منشورات محمد علي بيضون.

[2]- سورة البقرة: الآية/22.

[3]- محمد مفتاح لسانيات النصّ :34.

أحدَ الحزبين، بل مُخرَج الخطاب بذلك عامٌّ للناس كافةً لهم، لأنّه تحدَّى الناس كلّهم بقوله:"يا أيّها الناس اعبدُوا ربكم"، أن يكون تأويلُهُ ما قاله ابنُ عباس وقتادة، من أنه يعني بذلك كلّ مكلّف، عالم بوحدانية الله "، وأنه لا شريكَ له في خلقه، يُشرِك معه في عبادته غيرَه، كائنًا من كان من الناس، عربيًا كان أو أعجميًا، كاتبًا أو أميًا، وإن كان الخطابُ لكفار أهل الكتابِ الذين كانوا حَواليْ دَار هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهل النفاق منهم، وممن بينَ ظَهرانيهم ممّن كان مشركًا فانتقل إلى النفاق بمقدَم رسول الله صلى الله عليه وسلم "([1]) .

إنّ التطابق في تعدي الأفعال وفي زمنها وفي مفعولاتها، دليل على عدمية الندية لله عزّ وجلّ في عبادته وفعل أفعاله أولاً وآخراً، ودليل آخر على عجز منْ يرتاب في هذا القرآن الموحى به إلى نبيه محمد عليه السلام، مما يوحي بأن في هذا التحدي معنى إبلاغياً تحصّل بالانتقال من لفظ الغيبة إلى الخطاب، وهو التنبيه على قدر الرسول عليه الصلاة والسلام، والتثبيت والتسلية له، قال أبو حيان:" وفي إضافة العبد إليه تعالى تنبيه على عظيم قدره، واختصاصه بخالص العبودية، ورفع محله وإضافته إلى نفسه تعالى، واسم العبد عام وخاص، وهذا من الخاص"([2])، وعلى شاكلة هذه الإضافة في الآية:" وإنْ كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا "، في قوتها الدالة على الخصوصية، فإنّ إضافة المضمر وعلامة الجمع (كم) من قوله تعالى:" يا أيها الناس اعبدوا ربكم"، تفيد خصوصية الربوبية لله وتفرده بها وحده من جهة، وخصوصية أنْ لا ربّ للناس المكلفين بعبادته إلا هو المتفرد بها وحده سبحانه وتعالى من جهة ثانية، وهذا النوع من الإضافة تكرّر في إسناد الأفعال إلى الله تعالى، فدلّت العلاقات التي في التركيب (الإسناد: المحمول والموضوع، الإضافة:التخصيص والتبعية والتكملة)، على معاني نحوية وظيفية هي الفاعلية بين الفعل والفاعل :خلقكم، لعلاقة الإسناد، والمفعولية لعلاقة التعدية التي أوجبت تكملة ارتقت إلى ركني الجملة، فانتقلت من موقع التكملة (الذيل، الفضلة) إلى موقع المسند

1- الطبري: جامع البيان، 373/1 .

2- أبو حيان: البحر المحيط: ، 168/1، 169.

إليه المحذوف في بنية الآية العميقة، ودلّ عليه اسم الموصول (الذي) محيلاً إليه إحالة قبلية وقد تكرر مرتين، وتعلّق به بعلاقة التبعية، فأدّى معنىً وظيفياً يجسّد لهذه التبعية فعلاً، فوقع صفة للفظ الجلالة (ربّ) من (ربكم)، وأدّت هذه الصفة ـ بوصفها صفة ذاتية لـ (ربّ) ـ دورها الفعلي نيابة عن موصوفها، فلا عبادة إلا للموصوف الآمر هو بها، وذلك من خلال صلة الصفة (الذي)، المتمثّلة بإيقاع الأفعال وانجازها والإخبار بها ونتائجها، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وليس ذلك إلا لمقصد عبادة الله التي خُلِقَ الخَلْقُ لها، حقيقة صفة للموصوف وحده، فهو الخالق الرازق، وفي سورة البقرة كثير من الآيات الصريحة الدالة على محور التوحيد، التي تحدثت عن موضوعات الخلق والعلم والخلافة في الأرض، فمنها قول الله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾([1])، قال الفخر الرازي في تفسير الآية السابقة:" اعلم أنّ هذه الآية دالة على كيفية خلقة آدم عليه السلام وعلى كيفية تعظيم الله تعالى إيّاه فيكون ذلك إنعاماً عاماً على جميع بني آدم فيكون هذا هو النعمة الثالثة من تلك النعم العامة التي أوردها في هذا الموضع"([2])، ويلاحظ أنّ تفسير الرازي لهذه الآية، يتفق وقول بعض المفسرين بأنّ حرف الألف، هو إشارة إلى أول الخلق، وهو خلق آدم عليه السلام، وموضوع الخلق، من الموضوعات التي طرقتها هذه السورة وسائر السور ذوات الحروف المقطّعة، والخالق هو الله سبحانه وتعالى وحده، وقال ابن عاشور:" عَطَفَتْ الواو قصة خلق أول البشر، على قصة خلق السماوات والأرض، انتقالاً بهم في الاستدلال على أنّ الله واحد وعلى بطلان شركهم"([3]).

ويمكن ملاحظة أكثر من محور قد تحدثت عنه سورة البقرة وسائر السور ذوات الحروف المقطّعة، ويمكن تسجيلها من هاتين الآيتين من سورة البقرة، قال تعالى:﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

---

[1]- سورة البقرة: الآية،30.

[2]- الرازي: مفاتيح الغيب: 1 / 174.

[3]- ابن عاشور : التحرير والتنوير : 205/1.

* ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾([1])، فمن هذه المحاور: محور الوحدانية التي كررت بلفظ الآية الأولى مرتين، ويتصل به أسماء الله الحسنى التي يمكن رصدها من الآية الأولى لفظاً أو معنىً، وكذلك محور البعث الذي تضمنته التزاماً واقتضاءً الآية الأولى.

وعقد الرازي في كتابه (أسرار التنزيل وأنوار التأويل فصلاً كاملاً جعله خاصّاً بمحور الوحدانية تحت عنوان " في إقامة الدليل على أنّ الله واحد لا شريك له"([2]) .

وقال البقاعي وهو يفسّر آية (الكرسي):" ولما وحّد سبحانه وتعالى نفسه الشريفة، أثبت استحقاقه لذلك بحياته، وبين أن المراد بالحياة الأبدية بوصف القيومية فقال:(الحي)؛ أي الذي له الحياة، وهي صفة توجب صحة العلم والقدرة؛ أي الذي يصح أن يعلم ويقدر، (القيوم) أي القائم بنفسه المقيم لغيره على الدوام، على أعلى ما يكون من القيام، و(فيعول) ــ وزن قيوم ــ زيدت في أصوله الياء ليجتمع فيه لفظ ما هو من معناه، الذي هو القيام بالأمر مع واوه التي هي من قام يقوم، فأفادت صيغته من المبالغة ما في القيام والقوام على حدّ ما تفهمه معاني الحروف عند المخاطبة بها من أئمة العلماء الوالجين في مدينة العلم المحمدي من بابه العلوي"([3]).

وجعلت الباحثة سعاد رحائم عقيدة التوحيد إنسانية النزعة قبل أنْ تكون إسلامية العقيدة بقولها:" إنّ عقيدة التوحيد التي دان بها المسلمون منذ قيام الحياة على الأرض، أحد الأسباب الرئيسة في قيام الحضارة الإسلامية، التي هي بالدرجة الأولى إنسانية النزعة قبل أنْ تكون إسلامية العقيدة "([4]).

---

[1]- سورة البقرة : الآيتين :28،29.

[2]- الرازي: أسرار التنزيل وأنوار التأويل 167، ت/ عبد الرحمن عميرة وعبد المنعم درويش، ركابي/ للنشر والتوزيع ــ القاهرة، ط/1، 2000م .

[3]- البقاعي: نظم الدرر، 494/1.

[4]- رحائم: سعاد: الحضارة الإسلامية/ جذور وامتدادات؛ كتاب الأمة،ع /121،السنة السابعة والعشرون، 1428هــ ، 2007م، ط1، ص/30.

وفي هذا السياق نذكر ما جاء من معاني لبعض المفردات التي تنسجم وموضوع السورة المحوري، كما تنتمي إلى نظرية الحقول الدلالية كذلك، باعتبار ما جاء من ألفاظ أو معان متأولة لهذه الحروف المقطعة (الم) هي من المصاحبات المعجمية التي جاءت في هذه النظرية، فمن هذه الألفاظ: (الوسط)، والوَسَطُ من كلّ شيء: أعدَلُهُ، قال تعالى:﴿ وكذلكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾([1])، أي عدلاً كما نصّ عليه الجوهري، وقال ابن منظور:" واعلم أنّ الوسَط قد يأتي صفة، وأنّ أصله أن يكون اسماً من جهة أن أوسط الشيء أفضله وخياره، كوسَط المرعى خيرٌ من طرفيه، وكوسَط الدابة للركوب خير من طرفيها، لتمكن الراكب ولهذا قال الراجز:

إِذا ركِبْتُ فاجْعلاني وسَطا

ومنه الحديث: "خِيارُ الأُمور أَوْساطُها" ومنه قوله تعالى:﴿ ومن الناسِ مَن يَعبد اللّهَ على حرف﴾([2])؛ أي على شكّ فهو على طرَف من دِينه غيرُ مُتوسّط فيه ولا مُتمكِّن فلما كان وسَطُ الشيء أَفضلَه وأَعْدَلَه جاز أَن يقع صفة وذلك في مثل قوله تعالى وتقدّس:﴿ وكذلك جعلْناكم أُمّة وسَطاً أي عَدْلاً ﴾([3])، ويتصل بمعنى الوسط أيضاً وصف الأخ الأوسط الوارد ذكره في سورة (القلم) قال تعالى :﴿ قال أوسطهم﴾([4])، وذكر ابن سيده في المخصص أن السّواء والعَدْل والوسَط والنّصَف والقَصْد في حقل دلالي واحد، وهو يذكر رأي أبي علي في معنى السواء من قوله تعالى: ﴿ سَواء عليهِم أَأنذَرتَهم ﴾، فإنّ السّواء والعَدْل والوسَط والنّصَف والقَصْد ألفاظٌ رُبَّ بعضُها من بعض في المعنى"([5]).

ويتّصل بالموضوع المحوري المركزي كذلك لفظة الحنفيّة أو الحنيف، وهي بهذا الاتصال تندرج ضمن إطار الحقل الدلالي للألفاظ السابقة، من حيث الاستقامة

---

[1]- سورة البقرة : الآية : 143 .

[2]- سورة الحج: الآية/11.

[3]- انظر:الجوهري: الصحاح، ابن منظور: لسان العرب (وسط)، وانظر: الأزهري :تهذيب اللغة (وسط).

[4]- سورة القلم: الآية/28.

[5]- ابن سيدة: المخصص: باب (الاستواء).

والعدل وكل ما يؤول إلى معنى التوحيد، ويـدل علـى هـذا الاتـصال والتـرابط والانسجام والتماسك، سواء أكان هذا التماسك متأتٍ لنا في ضوء المستوى الـدلالي أو التداولي، كما أبانت عنهما كتب المعاجم، التي أشارت إلى المعارف العامة التـي عرفها العرب في جاهليتهم، إذ نجد الزبيدي يذكر ما ينبأ عن هذا التعـالق الـدلالي قال:" الحَنَفُ مُحَرَّكَةً: الاسْتِقَامَةُ، نَقَلَهُ ابنُ عَرَفَةَ في تفسيرِ قَوْلِه تعالَى: ﴿ بَـلْ مِلَّـةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾، قال: وإِنَّمَا قِيل للْمَائلِ الرِّجْلِ: أَحْنَفُ تَفَاؤُلاً بالاسْتِقَامَة، قلتُ: وهـو معنًى صَحِيحٌ ... وقال الرَّاغِبُ: هو مَيْلٌ عـن الـضَّلالِ إِلَـى الاسْـتِقَامةِ وهـذا أَحْسَنُ...وقال الأَخْفَشُ: الحَنِيفُ: المُسْلِمُ قال الجَوْهَرِيُّ: وقد سُمِّيَ المُسْتَقِيمُ بذلك كما سُمِّيَ الغُرابُ أَعْوَرَ وقيل: الحَنِيفُ هو المُخْلِصُ وقيل: مَن أَسْلَمَ لأَمْرِ اللهِ ولم يَلْتَـوِ في شَيْءٍ، وقال أَبو زَيْدٍ: الحَنِيفُ: المُسْتَقِيمُ([1]).

ومما يتصل بدلالات الألفاظ السابقة كـذلك دلالات لفظـة (الأمـة)،إذ ذكـر الأزهري دلالاتها المتعددة، التي تتعالق مع دلالات الألفاظ السابقة بقوله:" قال أبـو الهيثم: والأمة: الدين. والأمة: المعلم، وقال الفراء في قوله تعالى: ﴿إنّ إبراهيم كان أمة قانتاً﴾([2])، قال: أمة معلماً للخير...والأمة أيضاً: الملك والنعيم ... وقـال أبـو إسحاق في قوله تعالى:﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين ﴾([3])؛ أي كانوا على دين واحد.قال: والأمة: في اللغة أشياء، فمنها؛ أن الأمة: الدين، وهو هذا "([4]) .

ونجد ما يؤكد على هذا المعنى وهو الدين الواحد الذي عليه الأمة، في سـورة البقرة وغيرها، قال الله تعالى:﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلا لِـنَعْلَمَ مَـنْ يَتَّبِـعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَـانَ

---

[1]– الأصفهاني: الراغب، مفردات ألفاظ القرآن: 260، محمّد بن محمّـد بـن عبـد الـرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي تاج العروس مـن جـواهر القـاموس: (حنف).

[2]– سورة النحل: الآية/120 .

[3]– سورة البقرة : الآية، 213 .

[4]– الأزهري: تهذيب اللغة (أمّ) .

اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾([1])، وتتصل أسماء الله الحسنى بشكل مباشر في دلالتها على محور الوحدانية، وقد بان ذلك من خلال الدلالات المتأولة لأسماء الله الحسنى من الحروف المقطّعة،إنّ " معرفة الله سبحانة وتعالى تتحصل من خلال المعرفة بأسماء الله الحسنى، ومعرفة الله المتفرّد بالإلوهية، تؤلف أكبر جزء من عقيدة المسلم، فمعرفة المعاني التي يتضمنها كلّ اسم من أسماء الله الحسنى، تؤكد على محور الوحدانية لله تعالى، فاسم الله (الجبار) يشعر بالعظمة والقوة، وصاحب العظمة والقوة المطلقة هو الله وحده، فلا يوصف أحد بالجبار إلا الله عزّ وجل، لأنّ وصف غيره هو ادعاء للموصوف بأنه له حجماً وقوة ليست بقوته"([2])، ويبدو أنّ ابن عربي قد عضد دلالة الوحدانية من أسماء الله الحسنى، ومن لفظ الجلالة (الله) عزّ وجل بشكل خاص، وهو يقف معرفاً بأسرار (بسم الله الرحمن الرحيم)، قال:" فالله هو الاسم الجامع للأسماء كلها، والرحمن صفة عامة فهو رحمن الدنيا والآخرة "([3]) .

9.1.2 التناص بين سورة البقرة والسور ذوات الحروف المقطّعة:

لمّا تعاملنا مع سورة البقرة بوضفها نصّاً منجزاً، مستقلاً عن سائر نصوص السور ذوات الحروف المقطّعة الأخرى، فإنّ الحكم على نصّ هذه السورة بالنصيّة، خاضع لمعايير هذه النصيّة التي مثلتها عناصر التماسك النصيّ، إذ إنّ تلك المعايير والعناصر قد عدّت قواعد عامة أو جزئية لنحو النص، لذا فإنّ أهم عناصر التماسك النصيّ لنصّ سورة البقرة، سيكون من خلال البحث عن معيار أو أكثر من معايير النصيّة السبعة، التي ذكرنا من ناحية، ومن خلال البحث عن عنصر أو أكثر من عناصر التماسك النصيّ، التي تمكننا من الربط بين نصّ سورة البقرة ونصوص

---

[1]– سورة البقرة: الآية:143،وانظر الآيات(128–134) من سورة البقرة، والآيتان /104، 105، من سورة آل عمران .

[2]– انظر: الفرقان؛ مجلة شهرية تصدر عن جمعية المحافظة على القرآن الكريم/ الأردن، السنة الثامنة: ص 46– ع/69– شوال 1428 هـ ، تشرين أول– 2007م.

[3]–ابن عربي: الفتوحات المكية، 83/1 .

السور ذوات الحروف المقطّعة الأخرى من ناحية ثانية، وإذا كان التناص في النص يقتضي أن يتضمن لفظاً أو معنى من نص سابق عليه، فهذا يتطلب أن نعثر عليه في سورة البقرة، من خلال نصوص السور التي سبقتها بحسب ترتيب النزول.

إنّ هذا المعيار قد تحقق من خلال شواهد متعددة من الآيات في السور القرآنية بشكل عام والسور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة بشكل خاص، ولإثبات هذا المعيار يمكننا وضع عنوانان فرعية له على النحو الآتي:

1-الاستهلال: تناص استهلال سورة البقرة مع استهلال خمس سور قرآنية كلّها مكية نزلت قبلها، إذ نجد أنّ الحروف المقطّعة الثلاثة (الم)، قد استهلت بها أول سورة منها وهي سورة لقمان، كما استهلت بها على الترتيب نزولاً : سورة السجدة، الروم، العنكبوت، واستهلال سورة البقرة بالحروف المقطّعة هو تناص أسلوبي مع أسلوب الاستهلال في سائر السور ذوات الحروف المقطّعة.

إنّ من أهم ما يجب ذكره بين السور ذوات الحروف المقطّعة (سواء تماثلت الحروف الاستهلالية لها كماً أم كيفاً أم لم تتماثل)، هو وجود تطابق بين بعض الدلالات لفظاً ومعنىً أو لفظاً أو معنى لهذه الحروف، عدا الدلالات الأخرى بين السور مجتمعة، وهي دلالات زودتنا بها نظرية العلامات، عندما تمّ اعتمادها منهجاً في تحليل النص وفهمه، ومن هذه الدلالات العلامتية ما تأولناه لحرف (الألف)، وهو بداية كلّ فعل أمر استقراءً وتعالقاً مع أول لفظ (كلمة) نزلت من القرآن الكريم (اقرأ)، وهذه الألف كما كانت تدل وهي (أيقونة) على الاستقامة، والاستقامة صفة للصراط بصيغة المذكر، وأمر الاستقامة على الأمر الرباني نصّ عليه القرآن الكريم في أكثر من موقع لفظاً ومعنىً ، كما نصّ على أفعال أمر تؤدي إلى السير في طريق الاستقامة، قال تعالى:﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ﴾([1])، ويدخل في معاني هذه الأفعال ومشتقاتها ما يمكن أن يعدّ في حقل دلالي واحد يؤيده السياق أو الاستعمال، ومنه ألفاظ (عدل، أعدل ، سوي ، الوسط ، وسطا...)، وجاء في سورة

---

[1]- سورة الشورى: الآية/14.

القلم: ﴿ فقال لهم أوسطهم لولا تسبحون﴾، علامة منذ البداية على:﴿خير أمة أخرجت للناس﴾.

2-ذكر الكتاب (القرآن): من المواضع التي ورد فيها ذكر الكتاب متطابقاً لفظاً وموضعاً في سورة البقرة، مع وقوعه في السور ذوات الحروف المقطعة، وروده في الآية الثانية من سورتي لقمان والسجدة، وجاء في موقع المضاف إليه فيهما، وورد في متن سورتي الروم والعنكبوت، وورد في الآية الثانية في السور القرآنية التي عرفت بالحواميم ، فجاء مضافاً للمصدر (تنزيل) في السور: (غافر، الجاثية، الأحقاف) ومعطوفاً في سورتي (الزخرف، الدخان)، ومبتدأ بمعنى المفعول دلّ تابعه الواقع بدلاً منه في الآية الثالثة من سورة (فصلّت)، كما ورد في الآية الأولى التي شكلّتها الحروف المقطعة مع الكتاب؛ معرفة أو نكرة، معطوفاً أو مضافاً، في السور القرآنية (يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، ص، ق)، وجاء في الآية الثانية معطوفاً في سوره (يس)، ومنصوباً في سورة (طه)، وجاء في الآية الثانية في مجموعة السور التي عرفت باسم الطواسين (النمل، الشعراء، القصص)، وجاء في الآية الثانية من سورة (القلم) بمعنى النعمة، وجاء في متن سورة (مريم)، ما عدا تكراره لفظاً أو معنى في بنية سائر السور، إذ تكرر بلفظ الكتاب وبلفظ القرآن ، وبمعنى النعمة وبمنعى الصراط المستقيم([1]).

ويضاف إلى ذكر الكتاب أو القرآن لفظاً أو معنىً، ما جاء من آيات يتحدى فيها بأن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن الكريم، وهو من باب تناصّ آيات السورة نفسها مع بعضها بعضاً نحو قوله تعالى في الآية الخامسة من سورة البقرة:﴿ وإنْ كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾، ونجد ألفاظاً ومعاني متكررة قد وردت في سورة يونس في الآية الثالثة منها، تضارع ما جاء في سورة البقرة، وهي قوله تعالى:﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا منْ استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾، ونجد ذلك أيضاً في سورة هود في الآية الثالثة عشرة، قال تعالى:﴿أم يقولون افتراه

[1]- انظر: الآيات في مواضعها من السور، وانظر: السيوطي: الاتقان:176/4.

قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا مَنْ استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾. فكما هو ظاهر نلاحظ الألفاظ التي تكررت في الآيات الثلاث من السور الثلاث جميعها (وإن كنتم، فأتوا، مثله، من دون الله ، صادقين)، كما تكرر المعنى بين سورة البقرة في لفظ (ريب) ولفظ (افتراه)، فبحكم علاقة التضمن وعلاقة الجزء والكل، فإنّ لفظ الافتراء داخل في معنى الريب العام الشامل، ولمّا كان القرآن الكريم قائماً على طريقة الإجمال والتفصيل من جهة، وكانت سورة البقرة أيضاً، شاملة مجملة فيها معنى الإحاطة والشمول من جهة أخرى، اشتملت على لفظ عام هو الريب، ثم فصّل هذا اللفظ في الآيات من السور ذوات الحروف المقطعة الأخرى، ودلالة هذا الشمول أبان وأفصح عنها حرف الجر (من) ، الذي أدى معنى وظيفياً يفيد التبعيض، وجاء في الآية السابقة من سورة البقرة، ولم يأت في الآيتين من سورتي يونس وهود، قبل لفظ (مثله)، لتكون السورة الواحدة وعشر السور التي وقعت قبل لفظة (مثله):" بسورة مثله و" بعشر سور مثله"، بعضاً من القرآن المجموع المنزل كاملاً.

3- ذكر القصص، نحو قصة خلق آدم عليه السلام، وقصته خروجه من الجنّة، كما في سورتي البقرة والأعراف.

4- وحدة الموضوع بين سورة البقرة وسائر السور ذوات الحروف المقطّعة. إذ تبيّن ذلك من خلال المحاور التي اشتملت على محور الوحدانية والتأكيد على نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، والحديث عن البعث،و ذكر الخلق الإنسان وخلق السموات والأرض وما بنيهما، وإنزال الغيث، وذكر القصص وضرب الأمثال.

5- وحدة الإسناد للأفعال الدالة على وحدانية الله تعالى. تكررت أفعال كثيرة في نصوص السور السابقة، فكانت نتيجة الأفعال المسندة إلى لفظ الجلالة هي بسببها، لعلاقة الإسناد بين المسند والمسند إليه، فالمعنى الوظيفي (الفاعلية) متعالق مع المعنى الوظيفي (الابتداء) الذي شغله لفظ الجلالة في كثير من الآيات، فمن الأفعال نحو: خلق، جعل، أنزل، يحيي، يميت، سخر، يرسل، رفع، والقرينة الدّالة عليه وهو الفعل (ترونها)، المشتملة على الضمير المحال إحالة قبلية إلى السموات ومطابق لها أيضاً، كما أنّ علاقة المفعولية المتأتية من الدور الوظيفي من مفاعيل هذه الأفعال،

تشير إلى موضوع الوحدانية والتفرد في فعل هذه الأفعال؛ هي مرتبطة ومتعالقة مع موضوع الوحدانية.

ومن الآيات التي تناصت بها سورة البقرة مع السور القرآنية ذوات الحروف المقطعة، الآية المعروفة باسم "آية الكرسي" ([1])، إذ تضمنت بنيتها ألفاظاً ومعاني، جاءت في آيات كثيرة من نصوص السور ذوات الحروف المقطّعة التي سبقت سورة البقرة نزولاً، وكذلك التي جاءت بعد سورة البقرة بحسب ترتيب المصحف، فمن هذه الآيات: قوله تعالى:﴿ الم* اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾([2])،

ومن المواضع التي تناصّت فيها سورة البقرة مع سورة الأعراف، في المحور المركزي وهو محور الوحدانية ونفي الشرك، قال الله تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾([3]) .

ومن الآيات التي فيها تَناص من سورة البقرة مع سورة الروم، من خلال بعض دلالات عنوان سورة البقرة، لفظة (مهاجر) بصيغة اسم الفاعل من قوله تعالى:﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ*وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾([4])، إذ التماسك من خلال عنصر التناصّ، من خلال لفظة (مهاجر)، ووجه التماسك فيها، وهو المعنى نفسه الذي تحصلّ لنا من خلال عنوان

---

[1]- سورة البقرة: الآية/255.

[2]- سورة آل عمران:الآيتان/1،2.

[3]- سورة الأعراف: الآية/45، وانظر الآيات في السور التالية: يونس: الآيات/11،3،12، هود: الآية/61، الرعد: الآيتان/31،32، سورة إبراهيم:الآية/44، القصص: الآيات/13،12،7، سورة الروم:الآيتان/7،8، العنكبوت: الآيتان/5،6، النّمل: الآية/67، يس: الآيتان/46،47،الشورى: الآيات/19،17،18، ق: الآيات/45،38،43.

[4]- سورة الروم: الآيتان/26،27.

سورة البقرة، وهو ما ذكره ابن القطاع وابن منظور، بأنّه خروج من بلد إلى بلد أو هجرة من أرض إلى أخرى([1]) .

فمن خلال استعراض بعض الآيات التي تثبت تناص سورة البقرة مع سائر السور ذوات الحروف المقطّعة ، تبيّن لنا مدى تحقق هذا المعيار (التناص)، الذي يعد أحد المعايير السبعة التي وضعها علماء النص للحكم بنصيّة (النصّ)، وهذه الآيات التي يعدّ بعضها تكراراً باللفظ وبعضها الآخر تكراراً بالمعنى، قد أكدّت بشكل صريح أو غير صريح، على وحدة موضوع الخطاب، الذي يعدّ هو الآخر معياراً للتعالق بين أبنية النصّ الصغرى والكبرى، مما يعني تحقق التماسك النصيّ للنص، في بنيتيه الصغرى والكبرى من خلال ما أسهم به عنصر التناص، وبفعل هذا التماسك والتعالق والترابط، تحققت البنية الكليّة الكبرى للنصّ، كما كان للترابط المفهومي الذي ينبئ عنه موضوع الخطاب، أو ما يتصل به ضمن التصور المفهومي، دور كبير ومهم في تحقيق هذا التماسك، وذلك من خلال نظرية النسبية أو المعنى النسبي الذي يمكن أن يُستشّف في كثير من التراكيب، إذ إن بعض هذه التراكيب، يوحي بعدم الترابط والتعالق مع تراكيب أخرى في النصّ ذاته، فيشعر المتلقي بأن النص غير مترابط ، لكنّه ــ كما يذكر النصيون ــ ما يلبث حتى يدرك بأنّ النصّ لا يزال منسجماً ومترابطاً، عندما يستهدي بما يلمّح به أو يشير إليه، من خلال دلالاته غير المباشرة أو المباشرة، التي تجبر ما أصاب النصّ من انفصام، عند تغاير موضوع الخطاب أو عند افتقار الجمل إلى أدوات الربط الشكليّة .

2.2 السور ذوات الحروف (الم)

يشمل هذا التحليل السور ذوات الحروف المقطّعة التي استهلت بالحروف الثلاثة (الم) وهي: سورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم وسورة لقمان وسورة السجدة، وتحليل هذه السور في مجموعة واحدة مردّه إلى افتتاحيات هذه السور بالحروف الثلاثة (الم)، وتتابعها في ترتيب النزول وترتيب التلاوة، أما وضع سورة مع السور المستهلة بالحروف (الم)، فمرده عاملان: الأول تماثلها في

[1] – انظر: الفصل الثاني من الدراسة/ تحليل عنوان سورة البقرة.

الحروف الثلاثة الأولى مع هذه المجموعة، والثاني؛ لأنّها إحدى السور الطوال التي قاربت سورتي البقرة وآل عمران، ووقوعها في الترتيب الثالث للسور ذوات الحروف المقطّعة في ترتيب التلاوة .

1.2.2 دلالات الحروف المقطّعة في السور ذوات الحروف(الم).

أورد السمين الحلبي في الدر المصون للجرجاني، وهو رأيٌ ليس بجديد، لكنّه رأي لقي توجيهاً نظمياً من السّمين الحلبي، ربط به آية (الم) – باعتبارها جملةً نواة – بالآيات بعدها، وعنصر هذا الربط كما يظهر من كلام السّمين أن (الحذف؛ أي حذف الخبر) هو عنصر الربط بين الآيتين، قال السّمين:" نقل الجرجاني هنا أنّ (الم) إشارة إلى حروف المعجم كأنه يقول: هذه الحروف كتابك أو نحو هذا ويدل: ﴿لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ على ما ترك ذكره من خبر هذه الحروف وذلك في نظمه مثل قوله تعالى:﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ ([1])، كما استحسن ابن عطية قول الجرجاني هذا فيها، قال السّمين:قال ابن عطية:" يحسن في هذا القول ــ يعني قول الجرجاني ــ أن يكون "نزل" خبر قوله:"الله" حتى يرتبط الكلام إلى هذا المعنى"([2]).

ويظهر أنّه من خلال تأويل من معانٍ لــ (الم)، والاستشهاد بآية (الكرسي)، التي تشابه مطلعها مع مطلع سورة آل عمران بآيتها الثانية، وكذلك تأولينا جملة نواة لــ (الم) البقرة، واستشهادنا على ذاك التأويل بالآية الثانية من سورة (آل عمران)، استناداً إلى تفسير القرآن بالقرآن، أنّ من جاء به الجرجاني واستحسنه ابن عطيه، وما استشهد به السّمين الحلبي لارتباط النظم من خلال عنصر الحذف، بالآية من سورة (الزمر)، قد انسجم مع جملة من الدلالات التي تأولها القدماء للحروف المقطّعة، ومن بينها إشارتها إلى حروف المعجم، وكذلك انسجم رأي الجرجاني مع آراء النحاة في عدّهم (الم) مبتدأ قد تُرك خبره استغناءً ذكره في النظم الذي دلّ عليه

---

[1]– سورة الزمر: الآية/ 22.

[2]– السّمين الحلبي: ، الدُّرُ المصُون،3/2.

وقوع الفعل (نزّل) خبراً للفظ الجلالة (الله). فدلّت الآية (2) من السورة على أسماء الله الحسنى وعلى الموضوع المحوري للسورة وهو الوحدانية بشهادة التوحيد (لا إله إلا هو)، ودلّت الآية الثالثة، وقد تصدّرت بالفعل (نزّل) على موضوع رئيس من الموضوعات التي تعدّ أبنية كبرى من بنى السور ذوات الحروف المقطّعة، وهذا الموضوع قد ورد ذكره في آخر الجملة المتأوّلة ــ نواةً ــ لـ (الم) البقرة، فكانت دلالات للحروف المقطّعة بشكل عام، لفظية وغير لفظية، هي البذور الأولى المغروسة في بنية هذه الحروف؛ صوتاً وخطاً واستهلالاً ودلالة وتداولاً.

أ- دلالتها على أسماء الله الحسنى .

أول ما ورد لفظ الجلالة (الله) في هذه السورة في مطلع الآية الثانية، وتبعته جملة شهادة التوحيد، التي تدل على اسم وأكثر من أسماء الله الحسنى وهي الأحد (الواحد)، الفرد، الصمد، واكتملت الآية الثانية باسمين من أسماء الله الحسنى، وهذه الأسماء الحسنى لله تعالى وتكرر غيرها غ كثيراً في سورتي البقرة وآل عمران وغيرهما من السور، ويظهر أنّ تفسير الحروف المقطّعة بأنها حروف مقتطعة من أسماء الله الحسنى، هو أقرب ما قيل في تفسيرها، اعتباراً لقرائن متعددة اكتسبت قيمها من النصّ نفسه، ويتصل بها ما يعرف بتفسير القرآن بالقرآن، ومن خلال تتابع وتعالق وترابط كلمات القرآن الكريم وآياته بشكل عام، وتتابع الآية الثانية من سورة آل عمران بشكل خاص، لقرينة ترتقي إلى مستوى الدلالة على أنها تفسير للآية الأولى (الم)، وقد ذكر كثير ممن كتبوا في علوم القرآن أنّ ألفاظ القرآن الكريم آخذ أعناقها بأعناق بعض، وصرحوا بأن القرآن الكريم بهذا التعانق لألفاظه كالكلمة الواحدة،([1])، ولقد سبق لنا أنْ استشهدنا بآية الكرسي، تفسيراً للمعاني المتعددة للحروف المقطّعة (الم) التي استهلت بها سورة البقرة، والآية الثانية من سورة آل عمران ــ كما يبدو ــ قد عضدت ذاك التفسير بتفسيرها الآية قبلها (الم) أيما تفسير والله تعالى أعلم، ويضاف إلى هذه القرائن، آراء بعض المفسرين لها ــ لا سيما ابن عبّاس ــ وكذلك رأي الطبري لـ (الر) من سورة يونس، وما يفهم من كلام ابن

[1]- انظر: مقدمة الدراسة/ الدراسات السابقة، مساهمة القدماء في نظرية (نحو النص).

قتيبة في كتابه مشكل إعراب القرآن، أضف إلى ذلك الموقع المتقدم لهذه الحــروف، ومجيء حرف العطف بين الحروف المقطعة والاسم بعده نحــو: (ص والقــرآن) و (ق والقرآن).

لقد أفصحت آيات متعددة عن بعض الدلالات الــسيميائية للحــروف المقطّعــة (الم)، فمن هذه الآيات قول الله تعالى:﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَـشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَــى كُــلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّــتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾([1]).

ومن دلالتها على أسماء الله الحسنى (الأول، الواحد، الأحد، الفــرد، الــصمد، المغني)، وهذه الدلالة لحرف الألف مردّه: دلالتها اللغوية والسيميائية، فلغةً؛ يمكــن نطقها أولاً قبل أي حرف آخر، ورياضياً؛ يتأول منه دلالته علــى اســم الله تعــالى الأول، باعتبار حرف الألف حرفاً رياضياً، وهو أول حرف يبــدأ بــه لفظــاً، أمّــا سيميائياً فتحصل لنا منه، دلالته على اسمي الله تعالى (الفرد المغني)، مــن خــلال التعامل مع صوت الألف على أنها (أيقونة)، فهو منفرد لفظاً ورسماً ومستغن عــن اتصاله بحرف آخر، أما دلالته على أسماء الله الحسنى الأخرى؛ الواحــد، الأحــد، الصمد ، فجاءت من خلال دلالته الرياضية، ونلاحظ بأنّ تلك الدلالات تؤول إلــى دلالة واحدة، فالمعاني كلّها تدور في حقل دلالي واحد، فلا تناقض بينهــا، ودلالــة حرف الألف على أسماء الله الحسنى وردت في آيات كثيرة من سورة آل عمــران، كما جاءت دلالة الوحدانية، في قول الله تعالى:﴿ شَهِدَ اللَّــهُ أَنَّــهُ لا إِلَــهَ إِلا هُــوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾([2]) .

وهذه الدلالات التي تؤول إلى محور التوحيد، هي ردّ على النصارى الــذي اشركوا بالله سبحانه وتعالى، لذا كثرت الآيات التــي تــشير وتؤكــد أن الألوهيــة

---

[1]– سورة آل عمران: الآيتان/ 26،25.

[2]– سورة آل عمران: الآية/18 .

والربوبية لله وحده، كقوله تعالى :﴿الله لا إله إلا هو ﴾ وقوله:﴿ هو الذي صوركم﴾ وقوله:﴿ لا إله إلا هو ﴾.

ب – دلالتها على معاني (الاستقامة، المستقيم، العدل، الوسط، السوّي، الوحدانية).

تردّدت هذه المعاني من خلال كثير من الألفاظ على اختلاف بنيتها (أسماء، أفعال، مصادر ومزيداتها)، ومن الآيات التي تتماس مع دلالة الاستقامة والعدل، الآية التي نصّت على شهادة التوحيد، وكذلك الآية التي تلتها ونصّت على الدين الوحيد المقبول عند الله تعالى، قال الله تعالى:﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾([1])، فجملة (لا إله إلا هو) تؤكد دلالة الوحدانية، ودلّ عليها حرف الألف بعدّه حرفاً مقتطعاً من لفظ الجلالة (الله) الفرد الصمد، وكذلك دلالة حرف اللام من (الم) بعدّها حرفاً مقتطعاً من (لا) النافية أيضاً التي تصدّرت جملة (لا إله إلا هو)، وبعدّ حرف الألف أيقونة وعدداً رياضياً، كما أنّ واحداً (1) ـ عدداً رياضياً ـ منسجم ومتطابق مع حرف الألف، باعتبار العدد والحرف أيقونيتن بشكليهما المرسومين المستقيمين المنعزلين عن ما بعدهما من الأعداد والحروف، فالعدل أو الاعتدال والاستقامة والوحدانية، دلالات غير لفظية مُضمّنة في الحرف (الألف)، والاسمان (العزيز، الحكيم) متضمنان لهذه المعاني، فهما من أسماء الله الحسنى تبارك وتعالى، والاسم (الإسلام) متضمن لهذه المعاني أيضاً ومنهم من قال:" أنّ القرآن الكريم هو سبب الهداية إلى الصراط المستقيم الذي سألوه، وهي من دلالات الحروف المقطّعة في آل عمران وغيرها، ومما جاء من ألفاظ الصراط المستقيم قول الله تعالى في سورة الأعراف:﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾([2])، وقال الطبري:" فإنه يقول: لأجلسن لبني آدم"صراطك المستقيم"،

---

[1]– سورة آل عمران: الآيتان/19،18 .

[2]– سورة الأعراف: الآية/16.

يعني: طريقك القويم، وذلك دين الله الحق، وهو الإسلام وشرائعه"([1])، ومن الآيات الدالة على هذه المعاني، قوله تعالى في سورة الروم:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾([2]) .

وقد ذكر الطبري وابن كثير وغيرهما ما قيل عن تأويل للصراط المستقيم لبعض الصحابة، ما تأوله المفسرون أيضاً، قال الطبري:" أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن "الصراط المستقيم"، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وكذلك ذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخَطَفي:

أميرُ المؤمنين عَلَى صِرَاطٍ... إذا اعوَجَّ المَوَارِدُ مُسْتَقِيمِ

يريد على طريق الحق ... ثم تستعيرُ العرب "الصراط" فتستعمله في كل قولٍ وعمل وُصِفَ باستقامة أو اعوجاج، فتصفُ المستقيمَ باستقامته، والمعوجَّ باعوجاجه. ومن هذه الدلالات للحروف المقطّعة، ما جاء في سائر السور من هذه المجموعة، إذ دلّت على أسماء لله الحسنى، الملكية، الإحاطة والشمول، قال تعالى:﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾([3])، ويظهر أنّ جملة (ناكسي رؤوسهم) من قوله تعالى في سورة السجدة:﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾([4])، يتعالق مدلولها مع مدلول ما مرّ من معانٍ للفعل (بقر) وأحد تقلباته في معاجم اللغة، فقد جاء في كتاب الأفعال ولسان العرب معنىً يطابقها، وهو معنى الفعل (بيقر)؛ أي الرجل عاد منكساً راساً خاضعاً، والسورتان استهلتها بـ (الم).

وفي سياق دلالات الحروف السيميائية الحسابية **(1)** على اسم الله عزّ وجلّ (الأول)، فقد ذكر بعض الفلاسفة دلالات للرقم (1) واحد وغيرها من الأرقام، تتصل وتتماس بموضوع الوحدانية والقدرة لله عز وجل، وأورد هذا القول محمد

---

[1]– الطبري: جامع البيان: 334/12.

[2]– سورة الروم: الاية/30.

[3]– سورة السجدة: الآية/26.

[4]– سورة السجدة: الآية/12.

مفتاح وهو يتناول معطيات الأرقام الرياضية لمعرفة ما تفضي إليه من دلالات تثري النص فهماً وتحليلاً، وقد نقله عن (الموسيقى) لـ (أرستيد كوانتليوس)، قال محمد مفتاح:" أحاد: الذي يعتبر مبدأ التناغم الكوني، والعلة الفاعلة في كل شيء.([1]).

وأورد الشهرستاني قولاً (لفلوطرخيس) يتصل بدلالة الرقم (واحد) قال:" وحكى (فلوطرخيس) في المبادئ أنه قال: أصول الأشياء ثلاثة وهي: العلة الفاعلة، والعنصر، والصورة؛ فالله تعالى هو الفاعل، والعنصر هو الموضوع الأول للكون والفساد، والصورة جوهر لا جسم. وقال: الطبيعة أمة للنفس، والنفس أمة للعقل، والعقل أمة للمبدع الأول؛ من أجل أن أول مبدع أبدعه المبدع الأول صورة العقل. وقال: المبدع لا غاية له ولا نهاية؛ وما ليس له نهاية ليس له شخص وصورة، وقال: اللانهاية في سائر الموجودات لو تحققت لكان لها صورة واقعة ووضع وترتيب، وما تحقق له صورة ووضع وترتيب: صار متناهياً؛ فالموجودات ليست بلا نهاية، والمبدع الأول ليس بذي نهاية؛ ليس على أنه ذاهب في الجهات بلا نهاية، كما يتخيله الخيال والوهم، بل لا يرتقي إليه الخيال حتى يصفه بنهاية ولا نهاية، فلا نهاية له من جهة العقل؛ إذ ليس يحدّه، ولا من جهة الحسّ؛ فليس يحدّه، فهو ليس له نهاية؛ فليس له شخص وصورة خيالية وجودية حسية أو عقلية: تعالى وتقدس"([2]) .

وقد ألمح ابن البناء المراكشي إلى دلالة حرف الألف السيميائية المتأوّلة ـ بكونها أول الأعدد الحسابية ـ لمحور الوحدانية من خلال دلالة العلامتين؛ النطق والرقم فقال:"... والألف تدلّ على الكون بالفعل في الوجود، فهي مفصّلة؛ لأنّها من حيث إنّها أول الحروف في الفصل الذي بين ما يسمع وما لا يسمع متصلة بهمزة الإبتداء، ولذلك جُعلت علامة الاثنين"([3]) .

---

[1]- مفتاح: أولويات منطقية رياضية، مجلة عالم الفكر: ع: 3، مجلد 35، ص134 .

[2]- الشهرستاني: الملل والنحل:122 .

[3]- المراكشي: عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل: 32 .

ج ـ **دلالة الحروف على أفعال الأمر:**

دلّت الألف على أفعال الأمر في مجموعة هذه السور، وقد ورد الفعل (اعبــدوا) نفسه، الذي جاء بمعنى التوحيد عند ابن عباس في ســورة البقــرة، وفــي ســورة العنكبوت مرتين، قال الله تعالى:﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾،وقوله تعالى:﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾([1]). وكذلك دلالتها علــى هــذه الأفعال، إذ وردت أفعال أمر تتعالق مع دلالات الأسماء الحسنى والاستقامة نحــو: اسجد، واستقم.

د ـــ **دلالة محاججة النصّ القرآني للكفار وإقامة الحجة عليهم:** وتتضح هذه الدلالة في آيات متعددة من سورة آل عمران، ومن هذه الآيات قول الله تعــالى:﴿ سَــيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّــنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾([2]).

2.2.2 عناصر التماسك النصيّ في مجموعة هذه السور .

أ- سورة آل عمران.

إنّ أول عنصر من عناصر التماسك النصيّ يتطلب أنْ نقف عنده، هو عنــوان السورة، وهو ـــ كما يبدو ـــ يمثّل رابطاً دلالياً؛ اقتضاءً وتضمناً والتزاماً، وتتحقــق هذه الدلالات من خلال عنصر المناسبة بين عنوان السورة ومضمونها، وبينه وبــين بعض مضامين سور أخرى، تعالقت مــع مــضامين ســورة آل عمــران عنوانــاً وموضوعاً.

1- المناسبة بين عنوان السورة ومضمونها.

يتكون اسم السورة من مورفيمين صوتيين اثنين هما آل و عمران ، ولربط اسم السورة بمضمونها لا بدّ من الوقوف على المعاني التي يدلّ عليها المورفيمان معــاً،

1- سورة العنكبوت: الآية/16، 36.

2- سورة آل عمران: الآيتان/149،148، وانظر الآيتين بعدهما .

وذلك لربط أيّ معنى داخل السورة بأي معنى ينبئ عنه عنوان السورة، كما هو الحال في المعاني التي تحصّلت لنا من معاني عنوان سورة البقرة، إذْ إنّ العنوان جزء هام من منهج التحليل النصي الذي يراعي النصّ كل النص من عنوانه حتى آخر جملة في بنيته.

من خلال استقراء سورة آل عمران، طالعتنا لفظة تضارع لفظة (آل) وهي بهذه المضارعة تقع معها في إطار دلالي واحد، أو في إطار ما سمّي بنظرية الحقول الدلالية، وهذه اللفظة هي (ذريّة) وأهل، ويظهر أنّ التفصيل لعنوان السورة المجمل في لفظة آل التي تفيد العموم، مفصلّة في لفظة ذرية، فالذرية هي جزء من (آل)، ويعضد هذا العموم والتخصيص ما جاء من آيات في سورة آل عمران، تتحدث عن أكثر من ذرية، كلّ ذرية منها مخصوصة بعينها، لكنّ كلّ ذرية متصلّة بذرية سابقة عليها تعدّ أصلاً لها، أيّ بمعنى أنّ كلّ ذرية فرع على ذرية قبلها، تشكلّ كلّها سلسلة متواصلة حتى تنتهي إلى أصل واحد، وهذا الأصل- كما يبدو- هو لفظة (آل)، وقد جاء في سورة آل عمران قول الله تعالى:"ذرية بعضها من بعض"، وجاء معنى آل عند الراغب الأصفهاني([1]):"أنه مقلوب من الأهل ويصغر على أُهَيْلُ إلا أنّه خصّ بالإضافة إلى الأعلام الناطقين دون النكرات، ودون الأزمنة والأمكنة، يقال: آل فلانٍ، ولا يقال: آل رجل ولا آل زمان كذا، ولا يقال: آل الخياط بل يضاف إلى الأشرف الأفضل، يقال: آلُ الله وآل السلطان، والأهل يضاف إلى الكل، يقال: أهل الله وأهل الخياط، كما يقال: أهل زمن كذا وبلد كذا...ويستعمل فيمن يختص بالإنسان اختصاصاً ذاتياً إمّا بقرابة قريبة، أو بموالاة، وقال:"أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب"([2])، وأبان الفيروزأبادي([3])، عن دلالة آل في معناه الثالث، بمعنى الذرية بشكل صريح قال:" بمعنى القرابة والذرية الكلية، قال عزّ وجل:"وآل إبراهيم وآل عمران"([4])، وقال:﴿يرثني ويرث من آل

---

[1]- الأصفهاني، الراغب: مفردات ألفاظ القرآن، 98. .

[2]- سورة غافر:الآية46 .

[3]- الفيروزأبادي: بصائر ذوي التمييز: 162/2.

[4]- سورة آل عمران:الآية33 .

يعقوب﴾([1])، ويظهر الربط بين عنوان السورة، من خلال عنصر التعميم والتخصيص بين لفظة آل ولفظة ذرية، وهذا العنصر من العناصر التي جاءت بها نظرية نحو النص واعتمدته في تماسك النص وترابطه .

ولعل ما في إطار المستوى التداولي للفظة (آل)، ما يكشف عن دلالة اللفظة ضمن العرف اللغوي الاجتماعي، وهذا المعنى في ضوء هذا الإطار هو ما يشير إلى معاني المدح والفخر والرفعة والتميّز، في فعل أفعال يصعب على قوم أو (آل) ما القيام بها، وكأنّ لفظة (آل) تفيد التخصيص لهذه المعاني وحصرها في آل بعينه، ويعضد هذه المعاني التداولية ما جاء عند الأصفهاني سابقاً؛ بأنّه يضاف إلى الأشرف الأفضل بخلاف لفظة أهل.

ويظهر أنّ لفظة (آل البيت) التي وردت في أحاديث لرسول الله عليه الصلاة والسلام، هي من باب تخصيصهم بصفات ومواقف لم تتحقق عند غيرهم، وقد جاء في القرآن الكريم ما يفيد هذا التخصيص مدحاً وثناءً لآل البيت في مواضع كثيرة منه ... فكان عنوان السورة بـ (آل) أتم مناسبة وانسجاماً وتعالقاً بين دلالاته وأسماء الرسل ألأنبياء الذين ذكروا في هذه السورة، ولقد تنبّه أبو هلال العسكري- وهو يفرّق بين الآل والذرية تفريقاً نسبياً- إلى دلالة المدح والتشريف والثناء، من عموم لفظة آل وخصوصية لفظة ذرية، فأدخل الذرية في الآل من باب القرابة بقطع النظر عن درجتها، أمّا الذرية فدرجة القرابة أكثر اتصالاً وقوة لأنها تتعلق بالنسل، قال:" آل الرجل: ذو قرابته، وذريته: نسله، فكل ذرية آل، وليس كل آل بذرية. وأيضا: الآل يخص بالأشراف، وذوي الأقدار، بحسب الدين، أو الدنيا. فلا يقال: آل حجام، وآل حائك، بخلاف الذرية"([2]).

ولمّا كان الإجمال والتفصيل سمة من سمات النصّ القرآني، فقد جاءت آيات في سورة البقرة مجملة تتحدث عن الأصل الذي تفرعت عنه كل ذرية، وفُصِّلَ هذا الإجمالُ في سورة آل عمران، قال الله تعالى في سورة البقرة:﴿ وإذْ ابتلى إبراهيمَ

---

[1]- سورة مريم:الآية 6.

[2]- العسكري: الفروق اللغوية:6 .

ربّه بكلمات فأتمهنّ قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾([1])، وقال الله تعالى في سورة آل عمران:﴿ إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذُرّيّة بعضها من بعض والله سميع عليم﴾([2])، ولمّا كان عنوان السورة آل عمران، جاءت الآيات بعد هذه الآية تتحدث عن ذرية آل عمران، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ* ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ*إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ*فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾([3])، ويلاحظ هنا تكرار اسمي الله تعالى في هذه الآيات، والآيات التي تتحدث عن الذرية في سورة البقرة، وهما في قول الله تعالى: "إنك أنت السميع العليم"، وبعد الحديث عن مريم عليها السلام جاء الحديث عن ذرية أخرى من آل عمران، وهي ذرية زكريا عليه السلام في قول الله تعالى:﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾، وفي سورة مريم جاء ذكر زكريا عليه السلام في أول السورة.

2- العلاقات والعناصر النحوية:

الحذف:

حذف الخبر: نعت القرطبي قول الأخفش بالعرف عندما جعل الخبر محذوفاً، في قوله تعالى:﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾([4])، قال:"وارتفع

---

[1]- سورة البقرة: الآيات/124، وانظر: الآيات (125-133).

[2]- سورة آل عمران: الآيات (33-36).

[3]- سورة آل عمران: الآية/38.

[4]- سورة آل عمران: الآية/97.

المقام على الابتداء والخبر محذوف، والتقدير منها مقام إبراهيم، قاله الأخفش...وقوله معروف في كلام العرب"([1]).

حذف عائد الصلة: قوله تعالى:﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾([2])، قال سيبويه: سألت الخليل بن أحمد عن قوله عز وجل:﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ فقال: لما بمعنى الذي.قال النحاس: التقدير على قول الخليل للذي آتيتكموه، ثم حذف الهاء لطول الاسم.و" الذي" رفع بالابتداء وخبره "من كتاب وحكمة " و" من " لبيان الجنس"([3]).

ومنه حذف رابط الصلة في الجملة المفسِّرة للجملة قبلها في قول الله تعالى من سورة الروم...قال تعالى:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾([4]) .

حذف شبه الجملة من حرف الجر والضمير: قال ابن عاشور:"وجملة " لا تبديل لخلق الله " مبيِّنة لمعنى "فطرة الله التي فطر الناس عليها " فهي جارية مجرى حال ثالثة من (الدّين) على تقدير رابط محذوف، والتقدير: لا تبديل لخلق الله فيه، أي في هذا الدين، فهو كقوله في حديث أم زرع في قول الرابعة: زوجي كلَيْل تهامة لا حرٌّ ولا قُرٌّ ولا مخافة ولا سآمة أي في ذلك الليل، فمعنى "لا تبديل لخلق الله " إنه الدين الحنيف الذي ليس فيه تبديل لخلق الله خلاف دين أهل الشرك"([5]).

التكرار: برز الرابط النحوي (التكرار)، المؤدي بلفظه كلمة أو جملة أو بمعناهما، وظيفة نحوية تدلّ على التوكيد لفظياً أو معنوياً، ومن النوع الأول، تكرار جملة

---

[1]– الألوسي: روح المعاني: 473/15.

[2]– سورة آل عمران: الآية/81.

[3]– القرطبي: الجامع لاحكام القرآن ،124/4، 125.

[4]– سورة الروم: الآية/30.

[5]– ابن عاشور :التحرير والتنوير :73/11.

(الكتاب لا ريب فيه) في الآيتين الثانيتين في سورتي البقرة والسجدة، قال تعالى: ﴿الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾([1]).

العطف: أفاد العطف لجملتي (وَيُنَزِّلُ الغيثُ) و (ويعلم ما في الأرحام)، على جملة (إنّ الله عنده علم الساعة)، الاختصاص، أيّ أنّ الله هو المختص وحده بهذا العلم، قال الألوسي:"... فيفيد الكلام الاختصاص أيضاً، والمقصود تقييدات التنزيل الراجعة إلى العلم لا محض القدرة على التنزيل إذ لا شبهة فيه فيرجع الاختصاص إلى العلم بزمانه ومكانه ومقداره... وقال العلامة الطيبي: دلالة هذه الجملة على علم الغيب، من حيث دلالة المقدور المحكم المتقن على العلم الشامل...وخولف بين (عِندَهُ عِلْمُ الساعة) وبين هذا، ليدل في الأول على مزيد الاختصاص اعتناء بأمر الساعة ودلالة على شدة خفائها، وفي هذا على استمرار تجدد التعلقات بحسب تجدد المتعلقات مع الاختصاص"([2]).

الربط بإنّ: جاء التوكيد بحرف التوكيد (إنّ) في قول الله تعالى:﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ*فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾([3])، قال ابن عاشور:" وقد آذن بكون الكلام تعليلاً موقع (إنّ) في أوله، فإنّ التأكيد بإنّ هنا لمجرّد الاهتمام، وليس لردّ إنكار منكر أو شكّ شاكّ، ومن خصائص (إنّ) إذا وردت في الكلام لمجرّد الاهتمام، أن تغني غَناء فاء التفريع وتفيد التَّعليل والربط... ولِمَا في هذه من إفادة الربط استغني عن العطف لكون (إنّ) مؤذنة بالربط، وبيانُ وجه التعليل أن هذا البيت لمّا كان أول بيت وضع للهُدى وإعلان توحيد الله ليكون علماً مشهوداً بالحسّ على معنى الوحدانية ونفي الإشراك، فقد كان جامعاً لدلائل الحنيفية، فإذا ثبت له شرف الأولية ودوام الحرمة على ممرّ العصور، دون غيره من الهياكل الدينية الَّتي نشأت بعده ، وهو ماثل ، كان ذلك

---

[1]– سورة السجدة: الآيتان/1،2.

[2]– القرطبي: الجامع لاحكام القرآن ، 139/4 .

[3]– سورة آل عمران:الآيتان/96،97.

دلالة إلهية على أنّه بمحلّ العناية من الله تعالى، فدلّ على أنّ الدّين الّذي قارن إقامته هو الدّين المراد لله، وهذا يؤول إلى معنى قوله:﴿ إن الدين عند اللّه الإسلام ﴾([1]) .

ومن دلالة التقديم لإفادة الاختصاص: تقديم لفظ الجلالة والظرف على جملة علم الساعة، في قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، قال الألوسي:"... وتقديم لفظ الجلالة فقيل: إن الله ، ولم يقل إن علم الساعة عند الله مع أنه أخصر لأن اسم الله سبحانه أحق بالتقديم ولأنّ تقديمه وبناء الخبر عليه يفيد الحصر كما قرّره الطيبي، مع ما فيه من مزية تكرر الإسناد، وتقديم الظرف يفيد الاختصاص أيضاً، بل لفظ عند كذلك؛ لأنها تفيد حفظه، بحيث لا يوصل إليه فيفيد الكلام من أوجه اختصاص علم وقت القيامة بالله عز وجل"([2]).

الجمل المعترضة: ومنها جملة (إنّ الذين) من قوله تعالى:﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾([3])، فجملة (إن الذين) معترضة بين الجملة التي قبلها والآية الخامسة التي تلت هذه الآية، وهي ردّ على الكافرين بشكل عام، وعلى النصارى بشكل خاص؛ لأنّ سورة آل عمران خطاب للنصارى كما تذكر كتب التفاسير.

3- العلاقات والعناصر الدلالية:

الإحالة: ونمثّل لها بنوعيها الداخلية والخارجية، من خلال إحالات الضمائر وأسماء الإشارة، متطابقة أو غير متطابقة لفظاً ومعنىً .

الإحالات الضميرية:

من الإحالات الضميرية غير المتطابقة لفظاً، إحالة ضمير الغائب من قوله (لتحسبوه)، فأحال هذا الضمير إحالة قبلية غير مطابقة لمذكور مفرد بيّن قبله، إذ أحال إلى ما يفهم من قول الله تعالى:﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ

---

[1]- سورة آل عمران: الآية/ 19 . انظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير، 3/161،162.

[2]- الألوسي: روح المعاني: 15/473.

[3] – سورة آل عمران: الآية/4.

اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾([1])، أيّ الذي لُوي منـه، أو الملتـوي، وهو تحريف في بنيته؛ حركة أو حرفاً أو كلمة، بقصد تغيير معناه وتناقضه مـع معنى ما قبله وما بعده، فجاء الضمير في (لتحسبوه) مفرداً ليتطابق مع أيّ تحريـف في بنيته، كما تلوح من الفعل (تلوون) دلالة تفيد التضاد؛ لدلالة التـضمن اللفظيـة للفعل، وهي دلالة الاستقامة باعتبارها دلالة غير لفظية؛ عُرِفـت بدلالـة الالتـزام، وبإفادة تماسك النصّ وترابطه في مستواه الخطي والأفقي من خلال التفسير النسبي له، فإنّ تأويل هذه الدلالة غير اللفظية، بعدّها صفةً للكتاب وبصيغة اسـم الفاعـل (المستقيم)؛ لتقابل صفة الكتاب (الملتوي)، فإنّها تسهم في ترابط المتتاليات (الآيات)، في سورتي البقرة وآل عمران أفقياً وعمودياً، وهذا الترابط يحقق للـنصّ تماسـكه على مستوى الدلالات المتعلقة بوحدة موضوع الخطاب، ليكون هذا الالتواء بنـسبة منه في الكتاب، نقيضاً للكتاب الحق الذي أنزل على موسى عليه السلام؛ لأنّ معنى الكتاب في هذه الآية هو (التوراة) كم ذكر بعض المفسرين، وجعله ابن كثير للتوراة والإنجيل ــ وهو ينقل كلام وهب بن منبه ــ فقال:" إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله لم يغير منهما حرف، ولكنهم يُضلّونَ بالتحريف والتأويل، وكتب كانوا يكتبونهـا من عند أنفسهم، "وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ"، فأما كتب الله فإنها محفوظة ولا تحول"([2])، فهما بهذا الثبات هاديان إلى الطريـق المـستقيم، كهدايـة الكتاب الذي نزّله سبحانه وتعالى على سيدنا محمد عليه السلام، قـال تعالى﴿ذلـك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين ﴾، وقال تعالى:﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُـصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾، ويظهر التطابق بـين المعنيـين النحـويين الوظيفيين، اللذين أدّاهما حرفا الجر؛ الباء السابقة (بالكتاب) التي تفيـد الإلـصاق، وحرف الجر(من) الذي ورد أربع مرات، مرة مثبتـاً لفظـاً ومنفيـاً معنـىً فـي: ﴿لتحسبوه من الكتاب ﴾ بقرينتي لام التعليل والفعل (تحسبوه)، بمعنى تظنّـوه مـن الكتاب، ومرة منفياً بكونه ليس من الكتاب، فأثبت وقوعه لفظاً، لمّا أثبت وقوع حدث

---

[1]- سورة آل عمران: الآية/78.

[2]- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم :65/2.

التحريف فيه، بإسناد الفعل (تلوون) إلى ضمير الرفع منه، ليحيل إحالة قبلية ذاتية مطابقة، إلى اسم الذات وهو الفريق الكافر، الذي قُدِّمَ للتأكيد على قيامه بالحدث، وبدليل وجود حرفي التوكيد؛ (إنّ واللام) من (وإنّ لفريقاً)، مثبتاً وبصيغة المضارع المستمر وبلفظ الجمع، فقابل هذا التأكيد على إحداث الفعل منهم خاصة وتحققه، بنفيه عن الكتاب، وارتبطت جملة:﴿ وما هو من الكتاب﴾، بالجملة قبلها بواسطة حرف العطف، لكنّها مع ارتباطها بها جاءت مصدّرة بحرف النفي؛ لئلا يفيد العطف إشراك الملتوي ليكون من الكتاب، فدلّ على هذا الملتوي بضمير الغائب البارزاً تأكيداً ثانياً على المنفي، فالضمير (هو) يحيل إحالة قبلية على ما أحال إليه الضمير من (لتحسبوه)، الذي يعدّ المحمول الرئيسي في الجملة، فعلى الرغم من أنه جاء ذيلاً أو تكملة بحسب مصطلحات النحو الوظيفي، لكنّه ارتبط بما قبله بعلاقة الإسناد؛ أي ارتبط بها مع المسند المذكور(لتحسبوه) والمسند إليه المحذوف (أنتم)، فجاء محمولاً؛ لتوجه الفعل والفاعل إليه، ويظهر أنّ وقوعه موقع المسند إليه، كان من وراء مجيئه محمولاً في الجملة الأولى، ووقوعه ظاهراً عقب حرفي العطف والنفي في الجملة الثانية، فإذا كان الكتاب ناله أو طاله التحريف، فهذا يعني أنّ الكتاب كلّه قد ناله ذلك، وكونه من عند الله فليس فيه ذلك أيضاً، فقد تعهّد سبحانه وتعالى بحفظه.

أسماء الإشارة: ومن أسماء الإشارة التي تحيل إحالة قبلية ذاتية متطابقة للفظة (الكتاب)، ما جاء في سورة العنكبوت:﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾([1])، قال ابن عاشور:" فالإشارة بـ (ذلك) إلى (الكتاب)؛ ليستحضر بصفاته كلها وللتنويه به بما تقتضيه الإشارة من التعظيم . وتنكير (رحمة) للتعظيم ، أي لا يقادَر قدرها . فالكتاب المتلو مشتمل على ما هو رحمة لهم اشتمال الظرف على المظروف لأنه يشتمل على إقامة الشريعة وهي رحمة وصلاح للناس في دنياهم ، فالقرآن مع كونه معجزة دالّةً على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ومرشدة إلى تصديقه مثل غيره من المعجزات وهو

[1]– سورة العنكبوت: الآية : 51.

أيضاً وسيلة علم وتشريع وآداب للمتلو عليهم وبذلك فضل غيره من المعجزات التي لا تفيد إلا تصديق الرسول الآتي بها"([1]) .

الضمير (هم) من:﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾([2]) ، فالضمير (هم) يحيل إحالة خارجية إلى طائفة من المؤمنين لم يشهدوا غزوة بدر، وقد دلّنا سبب نزول الآية على المحال إليه .

السبب والنتيجة:

علاقة السببية علاقة الحرب بالموت فهي سببية؛ لأنّ من أسباب الموت الحرب، فالملاقاة بنيتها الدلالية المباشرة هي بين شخصين أو بين فرقتين، بدليل قراءة (تلاقوه) من المفاعلة التي تكون بين اثنين وما لقيك فقد لقيته، ويجوز أن يكون من باب سافرت والضمير عائد إلى (الموت)، وقيل: إلى العدو المفهوم من الكلام وليس بشيء، كما دلّت لفظة الموت هنا على الموت مقصود به الشهادة، قرينة لفظية يطابق استعمالها في التركيب ما يتمناه المؤمن المتقي وهو تمنيّه الموت شهادةً في سبيل الله، ويظهر بأنّ علامة يمكن رصدها من وراء هذا التركيب، يدلنا عليها المسند والمسند إليه، الموضوع والمحمول من جملة:﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾([3])، وارتبطت الجملة (فقد رأيتموه) بالجملة التي قبل الفاء من فقد، بالجملة السابقة بفاء تفيد جملة (وأنتم تنظرون) من خلال المعنى النحوي الوظيفي الذي أدّته واو الحال والجملة التي تفيد الرؤية في الحال (الحاضر)، وبذلك يتعالى النصّ القرآني على الزمن ومنه زمن المتلقي، تثبيتاً له أو هداية له أو حجة عليه، فهو يراعي أحوال المتلقين بخلاف معتقداتهم ومذاهبهم وأجناسهم وصفاتهم.

وارتبطت جملة (رأيتموه) بجملة (ولقد كنتم تمنون الموت مع جملة تلقوه)، من خلال إحالة الضمير من تلقوه العائد على الموت قبله.

---

[1]- ابن عاشور: التحرير والتنوير:15/11.

[2]- سورة العنكبوت: الآية :143.

[3]- آل عمران: الآية: 143.

كما أنّ الحقل اللغوي يتضمن في حدوده الدلالية، المصاحبات اللفظية التي تتعالق وتتعانق فيما بينها تعالقاً وتعانقاً في اللفظ وفي الدلالة، فيؤثِر المتكلّم استعمال لفظاً بدلاً من آخر، وفي المكان الملائم من تركيب الجملة، قاصداً معنى أو أكثر دون غيرهما من المعاني، تصريحاً بهما أو تلميحاً لهما، وبهذا يكون الجرجاني قد مسّ جانباً مهماً من جوانب هذه النظرية، بنظريته التي عرُفت بـ (النظم) وأظهرها كتابه (دلائل الإعجاز) بشكل خاص.

لقيتموه: لقِي ليس فعلاً دالّ بزمنه على المضي بل على الإغراق فيه، بخلاف رأيتموه، كما لا يتضمن (لاقيتموه) دلالة أخرى تفيد في رؤية الحدث ماضياً أو في الحال، فشهادة الرؤية هي الشهادة المقدّمة يقيناً على أيّ شهادة.

الاستبدال:

لا يتضمن الاستبدال حذفاً إذ لا تقدير للفظ المستبدَل، كما أنّ الاستبدال يُشرك البدل في أنّ يكون اللفظ المستبدل به مكان اللفظ المستبدَل، كما هو البدل مكان المبدل منه بخلاف التعويض، ومن ضروب الاستبدال: استبدال اسم باسم، وجاء هذا الاستبدال في قول الله تعالى من سورة آل عمران:﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾([1])، حيث استبدل الاسم (الثابتين) المفهوم من سياق الآية من خلال بنيتها العميقة، باسم الشاكرين، الشاكرين له على تحقيق ما تمنّوه حقاً، وأرادوه حقيقة، فالشكر ملازم أصلاً لصاحب الشكر حقاً.

الاستبدال الفعلي: ومنه استبدال الفعل (نقتوه)، بالفعل (رأيتموه) الذي لحق به الضمير المنصوب، الذي يحيل إحالة قبلية إلى الاسم (الموت)، وهو خارج إرادة المسند إليه غير متحصلّة في ملّكيته ووقته ومكان حدوثه لدى المتلقي؛ المتمني وغير المتمني له، إنه خارج إرادة الجميع، فالله سبحانه وتعالى هو (المحيي وهو المميت)، وقد دلّ قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي

---

[1]– سورة آل عمران: الآية/144.

الشَّاكِرِينَ﴾([1])، وبهذا الدلالة النسبية التي يمكن رصدها من وراء تركيب الآية، تدل على أسماء الله الحسنى وعلى محور الوحداينة .

الترتيب: ومنه الترتيب بين أقسام الهيئات، فقدّم القيام على القعود والقعود الاضطجاع، وكان هذا الترتيب موجباً مع أداء الصلاة، التي جاء الفعل (يذكرون) بمعناها في قول الله تعالى:﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾([2])، ولم يقع هذا الترتيب في قول الله تعالى في سورة يونس:﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾([3])، قال الزركشي:" لكن وقع بين ترتيب الآيتين مغايرة أوجبتها المبالغة، وذلك أنّ المراد بالذكّر في الأولى الصلاة، فيجب فيها تقديم الاضطجاع، وإذا زال بعض الضرّ قعد المضطجع، وإذا زال كلّ الضرّ قام القاعد، فدعا لتتم الصحة، وتكتمل القوة"([4]) .

ومن أمثلة هذا العنصر قوله تعالى:﴿ وعاداً وثموداً وقد تبيّن لكم من مساكنهم﴾([5]) ، فذكر قوم عاد قبل ثمود لكونها أسبق ، ولعل قرينة (تبين...مساكنهم) قد أقرّت للمتلقي من خلال تبيّنه واطّلاعه على مساكن كل قوم – قدم قوم على قوم.

التفريع: ومنه جملة (ذلك بأنهم) تفريع على جملة (لا يؤده إليك)، وجاء في قوله تعالى:﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾([6]) .

---

[1]– سورة آل عمران: الآية /145.

[2]– سورة آل عمران: الآية/191،

[3]– سورة يونس: الآية/12.

[4]– الزركشي: البرهان: 472/3 .

[5]– العنكبوت:الآية/38

[6]– سورة آل عمران، الآية 75 .

التضاد: ومن الألفاظ الواردة في هذه الآية، التي تنتمي إلى هذا العنصر الذي يسهم في تماسك النصّ (سمعنا، عصينا) إذ فأنبأتا عن صفة الكافرين، بدلالة الآية نفسها بعد هاتين اللفظتين " وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ "، ولم يكن استثناء قليلاً من الإيمان المفهوم من لفظ الفعل (يؤمنون) المسبوق بأداة النفي وقبلها سابقتها فاء التعقيب، تثبيتاً للقليل من الإيمان عندهم حقاً، ولكنّ هذا القليل من الإيمان ــ كما يبدو ــ هو بسبب اللفظ لكلمة (سمعنا)، لأنهم حقيقة قد سمعوا لكنهم عصوا، فاقتضى الإيمان حقاً السمع والطاعة، والإيمان الذي دُعوا إليه هو ليهتدوا، هو الإيمان الذي قال عنه الله تعالى:" فإنْ آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا"، ولفظة (أقوم) ترمز إلى الصراط المستقيم، وبهذا التركيب للكلمات في هذه الآية من سورة آل عمران، يظهر الترابط والتماسك على مستوى الدلالات بين سورتي البقرة وآل عمران من جهة، وترابط جميع السور ذوات الحروف المقطّعة موضع الدرس والتحليل من جهة أخرى .

واستناداً إلى مسألة التفسير النسبي التي يتحقق فيها النص من خلال ظهورها في المتتاليات الخطية لأبنيته، فإنّ لفظة اسم التفضيل (أقوم)، تلزم السمع والطاعة معاً، كما في أواخر سورة البقرة :﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ .

الاختصاص: دلّ الفعل (نزّل) في قوله تعالى:﴿ نزل عليك الكتاب ﴾ على قصر إسناد الفعل لله وحده، فالمحتوى القضوي للجملة السابقة، التي وقعت خبراً للمبتدأ (لفظ الجلالة)، شكلّ قضية هي قضية مصدر الكتاب... قال ابن عاشور:"وجيء بالمسند فعلاً لإفادة تقوية الخبر، أو للدلالة مع ذلك على الاختصاص: أي الله لا غيره نزّل عليك الكتاب إبطالاً لقول المشركين: إنّ القرآن من كلام الشيطان، أو من طرائق الكهانة، أو يُعلّمه بَشَرٌ، والتضعيف في (نَزّل) للتعدية فهو يساوي الهمز في أنزل، وإنّما التضعيف يؤذن بقوة الفعل في كيفيته أو كمّيته، في الفعل المتعدّي بغير التضعيف، من أجل أنّهم قد أتوا ببعض الأفعال المتعدّية، للدلالة على ذلك، كقولهم: فَسَر وفسّر، وفَرَق وفرّق، وكَسَر وكسّر، كما أتوا بأفعال قاصرة بصيغة المضاعفة، دون تعدية للدلالة على قوة الفعل، كما قالوا: مَاتَ وموّت وصَاح وصيّح، فأما إذا صار التضعيف للتعدية فلا أوقن بأنّه يدلّ على تقوية الفعل، إلاّ أن يقال: إنّ العدول عن التعدية بالهمز، إلى التعدية بالتضعيف، لقصد ما عُهد في التضعيف من تقوية

معنى الفعل، فيكون قوله:" نزل عليك الكتاب" أهمّ من قوله:(وأنزل التوراة) للدلالة على عظم شأن نزول القرآن" والخبر (الجملة) هنا مستعمل في الامتنان، أو هو تعريض ونكايةً بأهل الكتاب: الذين أنكروا ذلك"([1]).

الترابط والمناسبة بين الآيات: واستناداً إلى هذا التفسير فإن الرابط بين الآيتين الأوليتين من سورة آل عمران، هو ارتباط دلالي ونحوي، وذلك بعدّ الآية الثانية آية مفسّرة للأولى، فتفسير الآي بالآي يمثل أحد وجوه الربط دلالياً، كما أن ارتباطهما بعلاقة نحوية وظيفية هي علاقة التبعية المؤداة بكونها بدلاً من الآية قبلها .

كما ارتبطت الآية الثالثة بالثانية بعلاقة الإسناد بين الفعل (نزّل) والضمير المحذوف الذي يحيل إحالة قبلية متطابقة، للفظ الجلالة (الله)، أو لاسمه (القيوم) عزّ وجل في آخر الآية، قال ابن عاشور:" ابتدئ الكلام بمسند إليه خَبرُه فِعليٌّ: لإفادة تقوية الخبر اهتماماً به، وجيء بالاسم العلَم: لتربية المهابة عند سماعه، ثم أردف بجملة: لا إله إلاّ هو:﴿الله لا إله إلاَّ هُوَ الحي القيوم * نَزَّلَ عَلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التوراة والإنجيل﴾([2])، وأتبع بالوصفين ﴿الحيّ القيوم﴾؛ لنفي اللّبس عن مسمَّى هذا الاسم، والإيماء إلى وجه انفراده بالألوهية، وأنّ غيره لا يستأهلها؛ لأنّه غير حيّ أوْ غير قيُّوم، فالأصنام لا حياة لها، وعيسى في اعتقاد النصارى قد أميت، فما هو الآن بقيومٌ ولا هو في حال حياته بقيّوم على تدبير العالم، وكيف وقد أوذِيَ في الله، وكُذّب واختفَى من أعدائه.

ومن أمثلة المناسبة بين الآيات: قوله تعالى:﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾([3])، ويلاحظ أنّ خبر إنّ من المضاف والمضاف إليه وهو (سميع الدعاء)، يمثل استبدالاً للفظ الجلالة (الله) عز وجل (السميع)، وذلك للمناسبة بين هذا الخبر ولفظ الدعاء في أول الآية " دعا ربه"، فوجب لفظ سميع الدعاء مناسبة لفعل الدعاء، وهو متضمن لعلم الله بدعوة زكريا، إذ أغنى لفظ سميع الدعاء " السميع العليم"، ويعضد هذا قوله تعالى في الآية التي بعدها

---

[1] – ابن عاشور: التحرير والتنوير، 25/3 .

[2]– سورة آل عمران: الآية/38.

[3]– سورة آل عمران، الآية 75 .

قال تعالى:﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أنّ الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾([1])، ففاء التعقيب التي تصدرت الآية تدلّ على أنّ الاستجابة لدعاء زكريا عليه السلام جاءت وهو في المكان نفسه (المحراب) والزمن نفسه اللذين دعا فيهما ربه، بدليل الآية :" كلّما دخل عليها زكريا " والآية :﴿ هنالك دعا زكريا ربه﴾، وصوت زكريا عليه السلام في الدعاء كان أيضاً خافتاً، فجاء الخبر (سميع الدعاء) يقيناً منه عليه السلام بأنّ الله عز وجل يعلم السر وأخفى، وفاء التعقيب والفعل المسند للملائكة (فنادته الملائكة) جاء مفسّراً ومطابقاً لفعل النداء المسند إلى زكريا عليه السلام، في الآية التي تتحدث عن قصته في أول سورة مريم، قال الله تعالى:﴿ إذْ نادى ربّه نداءً خفيّا﴾([2]).

وجه الارتباط بين سورتي مريم وآل عمران

جاء الحديث عن ذرية مريم، من خلال البشارة بسيدنا عيسى عليه السلام، قال الله تعالى:﴿ إذْ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾([3])، ثم جاءت الآيات التي تؤكد على هذه الذرية الواحدة من إبراهيم عليه السلام إلى محمد عليه السلام، وتؤكد كذلك على الدعوة الواحدة التي دعا إليها كلّ الأنبياء والرسل وتواصوا بها، وهي دعوة الدين الحنيف الذي نسخ كلّ الأديان قبله، هي الحنفية التي كان عليها إبراهيم عليه السلام، التي تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وتبين لأهل الكتاب أنّ أنبياء الله ورسله كلّهم مخلوقون من أصل واحد، فالله لم يلد ولم يولد، ([4])، وقد سبقتها آيات تتحدث في موضوع الربوبية والوحدانية لله عزّ وجل، وطاعته وتقواه، فهذا هو الصراط المستقيم، الذي دعا إليه الدين الإسلامي الذي جاء به القرآن الكريم المنزل على رسوله محمد عليه الصلاة والسلام([5]) .

[1]– سورة آل عمران: الآية/39.

[2]– سورة مريم: الآية/3.

[3]– سورة مريم: الاية/45.

[4]– سورة آل عمران: الآيات (59–68) .

[5] – سورة آل عمران: الآيات (50–53).

4- العلاقات والعناصر التداولية

تمثّل الأفعال الكلامية غير المباشرة نحو:(أأسلمتم) إنجازا غير مباشر لمعنى آخر غير المعنى الذي يؤديه الفعل وهو إفادة الأمر لا الاستفهام، قال السّمين الحلبي:"قوله "أأسلمتم" صورته صورة استفهامٌ ومعناهُ الأمرُ، أي: أسلِموا، كقوله تعالى:" فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ"([1])، أي: انتهوا، قال الزمخشري:" يعني أنه قد أتاكم من البينات ما يوجب الإسلام ويقتضي حصوله لا محالة؛ فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لخصت له المسألة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقاً إلا سلكته: هل فهمتها لا أم لك"([2])، واستحسن السّمين الحلبي هذا الكلام منه بقوله:" وهو كلامٌ حسنٌ جداً"([3]).

وفي الجانب المعرفي التداولي يتبيّن أنّ سبب نزول هذه الآية، منسجم تماماً وتقرير أمر الوحدانية لله تعالى، إذ جاء في هذه الآية أعظم شهادة كما يذكر الواحدي في سبب نزولها قال:" قال الكلبي: لما ظهر رَسول الله صلى الله عليه وسلّم بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام، فلمّا أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان، فلمّا دخلا على النبي صلى الله عليه وسلّم عرفاه بالصفة والنعت فقالا: أنت محمد قال: نعم، قالا وأنت أحمد قال: نعم، قالا: إنا نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا به آمنّا بك وصدّقناك، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلّم: سلاني، فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله، فأنزل الله تعالى على نبيّه: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾، فاسلم الرجلان وصدّقا برسول الله صلى الله عليه وسلّم"([4]).

---

[1]- سورة المائدة: الاية:91.

[2]- الزمخشري: الكشاف،261/1.

[3]- السّمين الحلبي: شهاب الدين ابي العباس بن يوسف بن محمد إبراهيم، الدُّرُ المصُون في علوم الكتاب المكنون،51/2، ت/علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان،ط/1/ 1414هـ، 1994م.

[4]- الواحدي: أسباب النزول، 85 .

سبب النــزول: ومنه قوله تعالى:﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾([1])، تظهر الآية الرصيد المعرفي المشترك عنـد المتلقـين مـن خـلال مخاطبتهم بما هو معروف عندهم، والنصّ نفسه يشاركهم هذه المعرفة، وفي سـبب النول يبرز الربط الذي يؤدي إلى تماسك النصّ والمساهمة في عملية التواصل، قال الواحدي فيما يرويه عن مجاهد:" تفاخر المسلمون واليهود، فقالـت اليهـود: بيـت المقْدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنَّه مُهَاجر الأنبياء وفي الأرض المقدّسـة وقـال المسلمون : بل الكعبة أفضل، فأنزل الله هذه الآية"([2]) .

(ببكّة) اسم مكّة: وهو لغة بإبدال الميم باء في كلمات كثيرة عدّت مـن المتـرادف: مثل لازب في لازم، وأربد وأرمد أي في لون الرماد، وفي سماع ابن القاسـم مـن العتبية عن مالك: أنّ بكة بالباء اسم موضع البيت ، وأنّ مكّـة بـالميم اسـم بقيـة الموضع، فتكون باء الجرّ هنا لظرفية مكان البيت خاصّة"([3]).

ومما يندرج تحت هذا المستوى، الذي يمكن أن تعـدّ أسـباب النـزول مـن تجاوبات الوحي ضمن إطاره المعرفي/ معرفة العوالم، مـا ذكـره البخـاري فـي صحيحه في سبب نزول قوله تعالى:﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾([4])، قال:" إنّ رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه وفرحوا بمقعدهم خلاف رسـول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت الآية"([5]).

---

[1]– سورة آل عمران: الآية/ 96.

[2]– الواحدي: أسباب النزول،98،99.

[3]– ابن عاشور : التحري والتنوير: 3/160،161 .

[4]– سورة آل عمران: الآية/ 188.

[5]– صحيح البخاري: 14 / 26، حديث رقم (4190)، الواحدي: أسباب النزول ،115.

السياق

إنّ سياق الآيات الأربعة الأولى من سورة آل عمران، يدلنا على أنّ الحديث كان عن القرآن الكريم، لذا فإنّ لفظ (الفرقان) الوارد في الآية الرابعة، يرتبط بعلاقة التبعية مع لفظ الكتاب في الآي الثانية، وهذا يعني منطقياً أنّ تتماسك الآية الرابعة مع الثانية، فذكر لفظة الفرقان هو تكرار:" ذكر القرآن بما هو نعت له ومدح من كونه فارق بين الحق والباطل، بعد ما ذكره باسم الجنس تعظيماً لشأنه وإظهاراً لفضله"([1]).

استعمال (أم): ومما يتصل بالروابط والعلاقات التداولية في التواصل، استعمال العرب لـ (أم) المنقطعة، نحو: أعمرٌو عندك أم عندك زيد، فهذا ليس بمنزلة: أيهما عندك، ألا ترى أنّك لو قلت:أيهما عندك عندك، لم يستقم إلا على التكرير والتوكيد، فقال سيبويه مستشهداً على مثاله السابق:" وبمنزلة أم ههنا قوله عزّ وجلّ:"آلم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين. أم يقولون افتراه "، فجاء هذا الكلام على كلام العرب قد علم تبارك وتعالى وذلك من قولهم، ولكن هذا على كلام العرب ليعرّفوا ضلالتهم...

ومثل ذلك قوله تعالى:﴿أم اتّخذ ممّا يخلق بناتٍ وأصفاكم بالبنين ﴾، فقد علم النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون: أنّ الله عزّ وجلّ لم يتخّذ ولداً، ولكنه جاء حرف الاستفهام ليبصّروا ضلالتهم. ألا ترى أنّ الرجل يقول للرجل: آلسعادة أحبّ إليك أم الشقّاء؟ وقد علم أنّ السعادة أحبّ إليه من الشقاء، وأنّ المسئول سيقول: السعادة، ولكنّه أراد أن يبصّر صاحبه وأن يعلمه"([2]).

3.2.2 الموضوعات الرئيسة التي تناولتها مجموعة سور (الم) .

أ ـ القرآن الكريم:وقد نصّت آيات كثيرة من هذه السور على موضوع القرآن الكريم منها قوله تعالى:﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ

---

[1]- الزمخشري: الكشاف، 160/3.

[2]- سيبويه: الكتاب، 172/3،173.

التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾([1])، ويبدو عدم ارتباط الآية الثامنة بالآية السابعة، من حيث كانت السابعة حديثاً عن الكتاب(القرآن)، ثم بدت منفصلة عن السابعة من خلال الألفاظ التي شكّلت الآية الثامنة، بمجيئها مصدرة بالاسم المنادى(ربّنا) المدعو؛ لأنه هو سبحانه وتعالى هو الهادي الرحمن الرحيم الوهاب، لكنّها ارتبطت بالآية قبلها برابط دلالي سيميائي الزامي، وهو أن المدعو المنادى هو الذي أنزل هذا الكتاب الذي فيه الهداية التي هُدي إليها من أنعم الله عليهم من الأنبياء والصدّيقين والشهداء، فدعوا ربّهم بثبات قلوبهم على هذه الهداية، وطلب المغفرة والرحمة معها .

ب- **العلم**: ويمثله قوله تعالى: ويمثّله قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ* هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَـهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ([2]).

ويتصل بهذا الموضوع موضوع (الغيب)، وقد استدلّ الألوسي على هذا الموضوع من سبب نزول قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾([3])، فذكر الحديث المروي عن عكرمة، قال:" إن رجلاً يقال له الوارث بن عمرو جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد متى قيام الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وقد تركت امرأتي حبلى فما تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غداً؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ فنزلت هذه الآية"([4]).

د – **البعث واليوم الآخر**: ويتصل هذا الموضوع بموضوع الغيب من حيث إنّه من المسائل الغيبية، ولا يعلم هذا إلا الله سبحانه وتعالى، لكنّه أمر واقع بحكم اليقين، فهو كالكتاب المنزّل من الله سبحانه وتعالى لا ريب فيه، فلن يخلف الله وعده، قال

---

[1]- سورة آل عمران: الآية/3، وانظر الآيتين/7،8 من السورة نفسها .

[2]- سورة آل عمران: الآيتان/5،6.

[3]- سورة لقمان: الآية/34.

[4]- الألوسي: روح المعاني،473/15، وانظر: الواحدي، أسباب النزول،289.

الله تعالى:﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾([1])، فعلى الرغم من عدم ارتباطها بالآية بعدها، إلا أنّ ارتباطها بها كان بـرابط ذهني ضمني، وهو العذاب الذي وعد الله به الكفار، وهو اليوم الآخر الذي ورد نكرة، ثم عُرِّفَ تعريفاً متطابقاً بالجملة نفسها، التي وردت متعلقة بلفظة (الكتاب) في الآية الثانية من سورة البقرة، وبقطع النظر عن نوع هذا التعالق، سواء أكانت جملة(لا ريب فيه صفة أو خبراً لاسم الإشارة (ذلك) أو خبراً للكتاب، فقد جاءت هذه الجملة مكررة لفظاً في هذه الآية، نافيةً عن ذاك اليوم، الظن والشك والوهم، فلم يبق شيء يرتاب فيه، بل بقي العلم واليقين بمجيء ذاك اليوم الموعود دون ريب، كما هو الحال مع الكتاب الحق المنزّل من عند الله تعالى، فلا شك ولا ظن ولا وهم فيه، وبهذا النفي المطلق له بالتنزيه عن كل ريب، تبيّن أنّ الهداية فيه وهو سببها، والله سبحانه وتعالى هو الذي أنزله، وهو المؤكد على ذاك الموعود الذي استبدل بجملة (لا ريب فيه)، فالريب المنفي عن هذا اليوم الوارد في الآية، هو الريب نفسه المنفي عن الكتاب، لكنّ الكتاب متضمن الهداية وأسبابها، واليوم الموعود متضمن الثواب للمهتدين، ففيه الجنة وما أعدّه سبحانه وتعالى فيها للمؤمنين، ومتضمن العذاب وما أعدّه الله للكافرين، ويلاحظ هنا أنّ الترابط بين سورتي البقرة وآل عمران، هو ارتباط بارزٌ لفظاً ومعنىً، فقد قال الله تعالى:﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾([2])، وقد بيّنت آية أخرى من سورة آل عمران وباللفظ نفسه، ما في ذاك اليوم للفريقين دون ظلم قال الله تعالى:﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾([3]) .

كما تضمن قوله تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾([4])، موضوع البعث واليوم الآخر.

---

[1]– سورة آل عمران: الآية/9.

[2]– سورة البقرة: الآية24 .

[3]– سورة آل عمران: الآية/ 25.

[4]– سورة آل عمران: الآية/ 19.

الخلق: ومن الآيات التي وردت في سورة العنكبوت وأشارت إلى بداية الخلق ونهايته وقد تضمنت هذه الآية اسم من أسماء الله الحسنى وهو (المبدىء)، قال ابن عاشور:"ولم يجيء في أسمائه تعالى إلا المُبْدِيء دون البادئ "([1]) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ سورة لقمان، قد انفردت هذه السورة عن سائر السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة والسور القرآنية التي استهلت بـ (الم)، بموقعها من حيث ترتيب النزول بين هذه السور، فقبلها أربع عشرة سورة وبعدها أربع عشرة سورة، لكنها مع هذا التفرد في الحالتين لم تكن ثاني سور القرآن من حيث ترتيب التلاوة، إذا ما عرفنا أنّ من بين الدلالات التي دلّت عليها هذه الحروف مجتمعة، كانت دلالة الإحاطة والشمول، تلك الدلالة التي تحصلت لنا ونحن نقف على الخصائص الصوتية لهذه الحروف صفة ومخرجاً، وكذلك معاملة هذه الحروف الثلاثة معاملة الفعل على (فعل وأفعل) بمعنى جمع، ليأخذ الكتاب بدلالة هذين الفعلين صفة (مجموع)، وإذا كانت هذه الدلالة (الإحاطة والشمول) وهذه الصفة لهذا الكتاب على أنه (المجموع) توحي أو تشير إلى إحاطة كلمات الله لفظاً ومعنىً بكل شيء، فإنّ هذا المعنى قد أفصح عنه قول الله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾([2]) .

ويبدو ترتيب النزول علامة دالّة تنسجم مع دلالة الآية السابقة فتلتقيان لإفادة معنى الإحاطة الشمول، وقد قال بعض المفسرين بدلالة (الم) على أول الخلق ووسطه وآخره.

6- الموضوع المحوري المركزي في مجوعة سور (الم)

الموضوع المحوري الذي تحدثت عنه مجموعة هذه السور هو إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى، الوحدانية في الألوهية والربوبية، وقد أشارت إليه الآية الأولى من سورة البقرة، من خلال دلالات الحروف التي استنطقناها، فدلّ (الألف)؛

---

[1]- ابن عاشور: التحرير والتنوير،476/10.

[2]- سورة لقمان: الآية/ 27

عدداً ورسماً وابتداءً، على لفظ الجلالةِ (الله) سبحانه وتعالى، وعلى أسمائه الحسنى وصفاته كذلك، ومن (اللام) دلالة نفي وجود إله غير الله سبحانه وتعالى، فأثبتت له الألوهية والربوبية، ونفتها عن أحد سواه عزّ وجل، وكذلك دلالتها علـــى الملكيـــة، ودلالة الحرف على اسم من أسمائه الحسنى نحو: اللطيف، ومن الحـــرف الثالـــث (الميم) تأولنا أسماءً وصفات لله سبحانه وتعالى نحو: العليم، المجيد، مالـــك الملـــك، القيوم، فها هي الحروف الثلاثة نفسها، تكرّرت فاستهلت بها سورة آل عمران، فإذا كانت تلك الدلالات واحدة في الآيتين منْ السورتين دون تصريح، فإن الآية الثانيـــة من سورة آل عمران باعتبارها مفسّره للآية الأولى (الم)، قد أبانت وأفصحت عـــن بعض تلك الدلالات، إذ إنّ اسم الجلالة (الله) سبحانه عز وجل، قـــد تـــصدّر الآيـــة الثانية وتبعه باللفظ شهادة التوحيد بلفظها مباشرة (لا إله إلا هـــو)، وتبـــع شـــهادة التوحيد اسمان منْ أسمائه الحسنى، قال الله تعالى:﴿ الم* اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُـــوَ الْحَـــيُّ الْقَيُّومُ* نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيـــلَ﴾([1])، والاسمان (الحيّ القيوم) ينبآن عن كلّ ما يتصل بصفاته وقدرته التي لا يشركه فيها أحد، وفي هذا السياق نجد (سقراط) الفيلسوف يجعل هذين الاســـمين، خـــصوصية وصف الله تبارك وتعالى نفسه بهما، قال:"إنّ أخصّ ما يوصف به الباري تعالى هو كونه: حياً، قيوماً؛ لأن: العلم، والقدرة، والجود، والحكمة، تندرج تحت كونه حيـــاً، والحياة صفة جامعة للكل، والبقاء، والسرمد، والدوام، وحفظ النظـــام فـــي العـــالم، تندرج تحت كونه قيوماً، والقيومية صفة جامعة للكل، وربما يقول: هو حي نـــاطق من جوهره أي من ذاته، وحياتنا ونطقنا لا من جوهرنا؛ ولهذا يتطرق إلـــى حياتنـــا ونطقنا العدم والدثور والفساد، ولا يتطرق إلى حياته ونطقه تعالى وتقدس"([2])، ولعل هذا الذي قال به سقراط (الموحِد) إنْ جاز نعته بهذه الصفة، ينطبق على آية التوحيد من السورة نفسها، وهي قول الله تعالى:﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾([3]).

---

[1]- سورة آل عمران: الآيات: 1-3.

[2]- الشهرستاني: الملل والنحل: 122.

[3]- سورة آل عمران: الآية 18.

ومما يتصل بموضوع الوحدانية ما جاء من آيات في سورة آل عمران، وقد وردت فيها ألفاظ ذات جذر لغوي واحد، فجاءت في تراكيب وصيغ متعددة؛ أسماءً وأفعالاً ومشتقات، مكونة كلمات نحو: الإسلام، المسلمون، أسلم، أسلمت، سلم، آمن، آمنوا، المؤمنين، يؤمنون...الخ، ويتصل بهذه الألفاظ ألفاظ (المستقيم، وما يشتق منه من أفعال مجردة ومزيدة، القيم، العدل، السوي، سواء)، وفسرت هذه الكلمات بمعنى التوحيد أو الوحدانية، وذلك بحسب موقعها في تراكيب الآيات التي جاءت في متنها أو بحسب السياق العام الذي وردت فيه، فمن هذه المعاني التي فسرت بها الكلمات ذات الجذر (سلم أو أسلم)، ما أورده الأزهري في متن مادة (شكس) قال:" وقال الفراء: رجل شكس عكص، وقال الليث: الليل والنهار يتشاكسان أي يتضادان، وقول الله جل وعز:﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيه شُرَكاءُ مُتَشَاكِسونَ ورَجلاً سَلَماً لِرَجلٍ هلْ يَسْتَوِيان مَثَلاً﴾، وتفسير هذا المثل أنه مصروف لمن وحَّد الله جل وعز ولمن معه شركاء، فالذي وحَّد الله مثله مثل السالم لرجل لا يشركه فيه غيره، يقال: سلم فلان لفلان أي خلص له، ومثل الذي عبد مع الله غيره مثل صاحب الشركاء المتشاكسين، والشركاء المتشاكسون: العسرون المختلفون الذين لا يتفقون، وأراد بالشركاء الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله "([1]) .

وجاء ابن منظور بلفظ وضّح به صفة صاحب القلب، الذي اكتنفت بنيته الصوتية الحروف الأصلية الثلاثة من لفظة "سليم "، في قوله تعالى " إلاَّ مَنْ أَتَى اللَّه بِقَلْبٍ سَلِيمٍ " أي سليم من الكفر وقال أبو إسحق في قوله عزّ وجلّ " ورجلاً سَلَماً لرجل"... والمعنى أن من وحَّدَ اللَّه مثلُه مَثَلُ السالم لرجل لا يَشْرَكُه فيه غيره ومَثَلُ الذي أشرك اللَّه مَثَلُ صاحب الشُركاء المتشاكسينَ"([2])، والكفر ضد الإسلام، قال تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾([3]).

---

[1]- الأزهري: تهذيب اللغة:313/3.

[2]- ابن منظور: لسان العرب (سلم).

[3] – سورة آل عمران: الآية/64، وانظر الآيات 79-85.

ومما يعضد محور التوحيد وحدة الأفعال الدالة والمؤكدة له، فالله سبحانه تعالى هو الواحد الأحد الفرد الصمد، فدعا الأنبياء والرسل البشر إلى الإيمان به إلهاً واحداً ورباً واحداً، منذ سيدنا آدم عليه السلام أول الأنبياء إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فالله عزّ وجل الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، رغم تجدد الزمان وتغير المكان، فالأفعال المسندة لله سبحانة وتعالى وحده دالّة على هذا المحور المركزي، والدّاعين المبلّغين المنفّذين لأوامر الله تعالى تجمعهم صفة واحدة، هي صفة النبوة الأنبياء أو الرسل، وكانت وحدة الهدف والقصد عند جميع الأنبياء والرسل، الهداية لما فيه خير البشرية، فبعث خير الخلق لتبليغ الناس ما هو خير لهم، الله الغني عن عبادة الخلق، الغني عن أي شريك، قائم بنفسه، (الحي القيوم) .

أولاً: الإقرار بالوحدانية لله عزّ وجل، فمنْ أقرّ بهذا الأمر، أقرّ بأن: الخالق هو الله، المحيي هو الله، المميت هو الله، الرازق هو الله، الباعث هو الله، الغفور هو الله، الشفيع هو الله، المعذّب هو الله، مدبر الأمر هو الله، فهذه الأسماء والصفات الخاصة بالله عزّ وجل، أشارت وألمحت ورمزت إليها الحروف المقطّعة التي استهلت بها السور ذوات الحروف المقطّعة جميعها، ولقد كانت هذه الدلالة أو التأويل لها، أحد التأويلات التي ذكرها بعض المفسرين، وهي كذلك إحدى الدلالات التي ذهبنا إليها، مع جملة الدلالات التي تأولها مفسرون عدة، أو تأولنا لها دلالات جديدة في ضوء اعتبار أنّ هذه الحروف المقطّعة هي مقتطعة من كلمات وليست مقتطعة من كلمات معروفة حسب .

الزمان والمكان: المكان هو المكان(الأرض، المعاد حتى لو ارتقى العبد المخلوق لمكان آخر (السماء)، أي هو المكان الذي يعبد اللهَ فيه المخلوق المكلّف، المأمور بإقرار الوحدانية لله تبارك وتعالى، والزمان بالنسبة لأي مخلوق مكلّف بالعبادة، هو عمره الزمني المنقضي من الزمان، فالله عزّ وجل هو منْ يملك المكان والزمان مطلقاً لا يحده مكان ولا زمان، إنما هو منْ يحد ويقيد المكان والزمان، فعبادة الله لا يحدها لا مكان ولا يقيدها زمان، وعبادة الله تعالى هي نفسها رغم تغير المكان وتجدد الزمان، فلمّا كانت العبادة هي نفسها لمعبود واحد لا غيره سبحانه وتعالى،

فلا قيمة للمكان وللزمان مع ثبوت الربوبية والوحدانية لله تعالى، ومع ثبوت العبادة إليه عزّ وجل، والمكان والزمان الذي عاش به وفيه منْ هم قبلنا ومنْ هم بعدنا إلى أنْ يحدث الله أمراً كان مفعولاً، لا قيمة لهما في رؤية خالق الزمان والمكان، :"كألف سنة مما تعدون"، :" إنّهم يرونه بعيداً ونراه قريباً "، ولقد دلّ تعالي الخطاب القرآني على عدم قيمتي الزمان والمكان في كثير من آيات السور القرآنية :" أتى أمر الله فلا تستعجلوه "، وكأنه مقبل علينا ، كالبشير أو النذير الذي أقبل ونودّ أن يستعجل ليحمل إلينا الخبر أو العلم الذي نتلهّف لسماعه .

إنّ كلّ هذه الأحداث بزمنها ومكانها، وظّفتها نصوص هذه السور، لأجل الموضوع المحوري المركزي، ألا وهو الإقرار لله عزّ وجل بالوحدانية، الذي تتحقق عند الإقرار به، لمنْ يحترم عقله فيتفكر لما حوله، كل المواضيع الرئيسية التي كانت أولاً، توظيفاً لأجله عند المتلقي المنكر الجاحد الكافر، بل إنّ من المتلقين المنكرين منْ يستدرجه النصّ القرآني، ليذكرهم بحقائق هم مؤمنون بها سلفاً، وهي حقيقة الخلق؛ الإنسان، السموات والأرض، إنزال الغيث وإحياء الأرض بعد موتها، القصص للأمم السابقة ومصير الكفرة منهم، لتمثل موضوعاً رئيسياً يؤول وهو موضوع (الحياة بعد الموت (البعث)، وهو كذلك ــ بتوظيفه ــ إلى الإقرار بحقائق أخرى، ليتحقق بعقله وبصره وبفعله وعدمه، إلى الحقيقة المحورية الواحدة وهي (الوحدانية) وتمثل كلّها مجتمعة في الأصل موضوعاً، فمنْ آمن بأن الله واحد لا شريك له، آمن بالبعث والحساب والجنة والنار ، فهذه الموضوعات والمحاور الرئيسية، كانت هي الغالبة على نصوص السور ذوات الحروف المقطّعة بشكل خاص والسور المكية بشكل عام ، فهذه الموضوعات والمحاور كانت هي جوهر المحتوى القضوي للأحداث الكلامية التي أنجزتها نصوص هذه السور، ولنقف على هذه الأحداث من خلال نماذج من الآيات التي تضمنتها أبنية مجموعة هذه السور (الــم) .

3.2 دلالات الحروف المقطّعة (المص).

أ ــ أسماء الله الحسنى:

(الله، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، العليم، الأول، الآخر، الغني، اللطيف، مالك الملك، المصور، المجيد)، وقد وردت هذه الأسماء في مواضع متفرقة من السورة .

ب ــ الربوبية والوحدانية:

من الآيات التي تعزز هذه الدلالة المحورية قول الله تعالى:" إنّ ربّكم الله الذي خلق السماوات والأرض"([1])، ورأى الرازي أنّ في هذه الآية علامات عديدة، فقال:" في هذه الآية بشارة عظيمة للعقلاء لأنّه قال:" إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض"، والمعنى أنّ الذي يربيكم ويصلح شأنكم ويوصل إليكم الخيرات ويدفع عنكم المكروهات، هو الذي بلَغ كمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته، إلى حيث خلق هذه الأشياء العظيمة، وأودع فيها أصناف المنافع وأنواع الخيرات، ومن كان له مربّ موصوف بهذه الحكمة والقدرة والرحمة، فكيف يليق أن يرجع إلى غيره في طلب الخيرات أو يعول على غيره في تحصيل السعادات؟ ثم في الآية دقيقة أخرى، فإنّه لم يقل أنتم عبيده بل قال هو ربكم، ودقيقة أخرى وهي أنه تعالى لما نسب نفسه إلينا، سمّى نفسه في هذه الحالة بالرب، وهو مشعر بالتربية وكثرة الفضل والإحسان، فكأنه يقول من كان له مربّ مع كثرة هذه الرحمة والفضل، فكيف يليق به أن يشتغل بعبادة غيره"([2]) .

ونجد في سورة الأعراف آيات أخرى تؤكد عل معنى التوحيد والربوبية لله وحده لا شريك له، منذ أنْ خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان، إذ نجد فيها ما ينبئ عن دلالة التفصيل لحرف الصاد، قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ

---

[1]- سورة الأعراف: الآية :54 .

[2]- الرازي: مفاتيح الغيب : 326/9.

الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ*أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ* وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾([1]).

ج ـ أفعال الأمر:

قال الله تعالى:﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾([2])، وهذا الدعاء من سيدنا نوح لقومه، هي الدعوة نفسها التي نصت عليها سورة البقرة، ولم تجئ على لسان أحد من الرسل، بل جاءت دعوة من الله عزّ وجل لكل الناس، ثم حملها كل رسول إلى قومه قبل محمد عليه الصلاة والسلام، الذي أرسل للناس كافة، فلزم الخطاب بـ " يأيها الناس"، دون التخصيص بـ يا قوم، قال الله تعالى:﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقم والذين من قبلكم لعلكم تتقون...فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾([3])، وتفسير العبادة التي تضمنها وعبّر عنها فعل الأمر (اعبدوا) بالوحدانية قال به ابن عبّاس كما ذكر أكثر المفسرين.

د- الاستقامة: الألف من (الم، المص)، (مستقيم، استقم،فادعوه، سوي، عدل معتدل ودلالة حرف الميم على مستقيم، باعتباره الحرف الأول المقتطع من (مستقيم).

هـ – الملكية: ومن دلالات حرف اللام: الملك، والنفي في إثبات الوحدانية، وكذلك دلالته على أسماء الله الحسنى نحو: الحي، القيوم، ومن دلالات حرف الصاد: اسم الله عزّ وجل (المصور)، والاسم: صدرك، وبعض الأفعال التي تضمنت بنيتها حرف الصاد نحو:صورناكم، نفصل ...الخ.

بعد الوقوف على بعض دلالات الحروف المقطّعة السابقة، أذكر بعض الدلالات السيميائية للحروف المقطّعة، فمن هذه الدلالات، دلالة الحروف المقطّعة على أسماء الله الحسنى، ودلالتها على علم الله الذي أحاط بكل شيء، ودلالتها على اليوم الآخر، ودلالتها على الملك المطلق، فمن الآيات التي تدلّ على المعنى الأول المتأوّل قول

---

[1]– سورة الأعراف: الآيات (172–174) .

[2]– سورة الأعراف: الآية:59.

[3]– سورة البقرة : الآيتين 21،22 .

الله تعالى:﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾([1]).

1.3.2 عناصر التماسك النصي في سورة الأعراف

أ- المناسبة بين عنوان السورة ومضمونها:

هذه السورة هي السورة المكيّة الأولى التي استهلت بأربعة حروف مقطّعة بحسب ترتيب التلاوة وهي (المص)، وبعد سورة (ص) بحسب ترتيب النزول، وقد:" نزلت بمكة إجماعاً "([2])، شكّلت هذه الحروف الآية الأولى من السورة، وافترقت عن السور التي استهلت بـ (الم) بزيادة حرف الصاد، وعدّت من السور الطوال لكثرة عدد آياتها، وانصرف اهتمام بعض المفسرين إلى تأويل الحرف الرابع منها بشكل خاص، فرأوا أنّ وجوده رابعاً بعد (الم) جاء بسبب لفظة واحدة بدأت بحرف الصاد وهي كلمة (صدرك)، قال في البرهان:"وتأمل سورة الأعراف زاد فيها (ص) لأجل قوله:" فلا يكن في صدرك حرج "([3])، وظاهر قول المفسرين هذا، هو الربط بين هذه السورة وسورة ألم نشرح، بينما كان اهتمام ابن عبّاس منصباً على تأويل الحروف كلّها بقوله(أنا الله أُفصّل) و (أنا الله أعلم وأفصل)، ومنهم من رأى أن الحروف الأربعة كلّها تدل على اسم من أسماء الله الحسنى وهو" المُصوِّر"، ولرصد المعاني التي يمكن تأولها من حرف الصاد بشكل خاص ـــ إذ لا أجد ضرورة لتكرار دلالة الحروف الثلاثة قبله، فقد ذكرناها سابقاً في تحليلنا لسورتي البقرة وآل عمران ـــ فلا بد من استقراء الكلمات التي تصدّرها حرف الصاد أو وقع في بنيتها أصلاً من أصولها من جهة، ومنْ ثمّ استقراء أسماء الله الحسنى التي وردت في هذه السورة؛ إذ إننا نوافق من يذهب إلى أنّ هذه الحروف هي حروف مقتطعة من أسماء الله الحسنى، وما قيل في هذه الحروف من معانٍ

1- انظر: سورة الأعراف: الآيات: 180-187.

2- الفيروزأبادي: بصائر ذوي التمييز: 203/1 .

3- الزركشي: البرهان في علوم القرآن: 170/1 .

أخرى، فقد ذكرنا أنها تؤول إلى هذا المعنى أو متضمنة في مجاله التصوّري أيضاً، وهو أنّها حروف مقتطعة من أسماء الله الحسنى.

قال صاحب اللباب:" قال ابن عباس رضي الله عنهما:(آلمص): أنا اللّهُ أَفَصّلُ، وعنه: أنا اللّهُ أعلمُ وأفَصِّلُ، وقال السُّدِّيُّ رضي الله عنه:(آلمص) على هجاءِ قولنا في أسماء اللّه: سبحان المصورُ)، قال القَاضِي رحمه الله: ليس حَمْلُ هذا اللَّفْظِ على قولنا: أنا الله أفصل أولى من حمله على قوله:(أنَّا اللّهُ أصلِحُ)،(أنا الله أمتحن ، أنا الله أملك؛ لأنَّهُ إن كانت العبرةُ بحرفِ الصَّادِ فهو موجودٌ في قوله: أنّا اللّهُ أصلِحُ)، وإن كانت العبرةُ بحرف الميم فكما أنَّهُ موجودٌ في العلم فهو أيضاً موجود في الملك، والامتحان، فكان حَمْلُ قولنا: (آلمص) على هذا المعنى بِعَيْنِهِ محضُ التَّحَكُّم، وأيضاً فإنْ جاء تفسيرُ الألفاظِ بناءً على ما فيها من الحروفِ من غير أنْ تكون تِلْكَ اللفظَةُ موضوعةً في اللُّغَةِ لذلكَ المَعْنَى؛ انْفَتَحَتْ طريقةُ البَاطنيّة في تفسير سائرِ ألفاظ القرآنِ الكريم بما يُشَكِلُ هذا الطريق. وأمَّا قولُ بعضهم: إنَّهُ من أسماء اللَّه – تبارك وتعالى – فأبعدُ؛ لأنه ليس جعله اسْمَاً للَّه أولى من جعله اسماً لبعض رُسُلِه من الملائِكَةِ ، أو الأنبياءِ – عليهم ، وعلى نبيِّنَا أفضلُ الصَّلاة والسَّلام – ولأن الاسمَ إنَّمَا يَصيرُ للمسمَّى بواسطَةِ الوَضْعِ والاصطلاح وذلك مفقودٌ هُنَا ، بل الحقُّ أنَّ قول:(آلمص) اسم لقب لهذه السُّورة الكريمة، وأسماءُ الألقابِ لا تفيد ههنا فائدة في المسمَّيات، بل هي قائمَةٌ مقامَ الإرشاداتِ، وللَّهِ – تبارك وتعالى – سبحانهُ أن يسمِّي هذه السورةَ بقوله (آلمص)، كما أنَّ الواحدَ مِنَّا إذا حدث له ولدٌ فإنَّهُ يسمِّيه بمحمَّدٍ "([1]).

ينبئ اسم السورة (الأعراف) في الجانب المعرفي التداولي، أنّ التسمية به ليس بالاسم الغريب الذي لا يعرفه العرب، قال ياقوت:" الأعرافُ: هي في الأصل ما ارتفع من الرمل الواحد عرفة. قال أبو زياد في بلاد العرب بلدان كثيرة تسمي الأعراف منها أعراف لُبنى وأعراف عَمرة قال: طُفيل بن عوف الغنوي:

جلبنا من الأعراف أعراف غمرة ... وأعراف لبني الخيلَ من كل مَجلب

---

[1]- الحموي: ياقوت، معجم البلدان،150/1 .

وأعراف نَخل هضبات حُمر في أرضَ سهلة، قال الراجز:

يا من لثَورِ لَهقٍ طواف ... أعيَنَ مشاءٍ على الأعراف

ويوم الأعراف من أيامهم وقد ذَكر عدة مواضع يقال لها عرفة في موضعها ذُكرت، والأعراف اسم للجبل المشرف على قُعَيقعان بمكة "([1])، وقال الزبيدي: والأَعْرافُ: سُورٌ بينَ الجَنَّةِ والنّارِ وبه فُسِّرَ قولُه تعالى:﴿ ونادَى أَصْحابُ الأَعْرافِ﴾، وقالَ الزَّجّاجُ:الأَعْرافُ: أعالِي السُّورِ واخْتُلِفَ في أَصْحابِ الأَعْرافِ فَقِيلَ: هم قَوْمٌ اسْتَوَتْ حَسَناتُهم وسَيِّئاتُهم فلم يَسْتَحِقُّوا الجَنَّةَ بالحَسَناتِ ولا النارَ بالسَّيِّئاتِ فكانُوا على الحِجابِ الذِي بينَ الجَنَّةِ والنّارِ قالَ: ويَجُوزُ أَن يَكُونَ مَعْناه والله أعلم: على الأَعْرافِ: على مَعْرِفَةِ أَهْلِ الجَنَّةِ وأَهْلِ النّارِ هؤلاءِ الرِّجالُ وقِيلَ: أَصْحابُ الأَعْرافِ: أَنْبِياءُ وقِيلَ: مَلائِكَةٌ على ما هو مُبَيَّنٌ في كُتُبِ التَّفاسِيرِ، والأَعْرافُ من الرِّياحِ: أَعالِيها وأَوائِلُها وكذلك من السَّحابِ والضَّبابِ وهو مجازٌ([2]).

ولعل تأويل ابن عبّاس:" أنا الله أفصّل " قد أنبأ عنه عنوان السورة نفسه، أيّ أنّ الأعراف هي المكان الذي فصّل الله به للذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم وسمّوا بأصحاب الأعراف، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مكانه فسميّت السورة به، لقوله تعالى:﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾، وكان هذا التساوي سبباً في عدم دخولهم الجنة أو النار، ففصل الله عزّ في أمرهم، ولمّا كان هذا الأمر البارز في السورة، اقتضى تسمية السورة باسم يشير إلى هذا الأمر البارز، فكان المكان "الأعراف" الاسم الأكثر ملائمة ومناسبة للسورة .

2- العلاقات والعناصر النحوية:

علاقة الإسناد: وهي أهم العلاقات النحوية الرابطة في هذا المستوى ، فإذا ما أردنا أنْ نؤكد على ارتباط الحروف المقطّعة (المص) بالآية التي بعدها، فإن المعنى الوظيفي الذي تؤديه هذه الحروف بحكم موقعها هو المبتدأ، والمعنى الذي تؤديه

1- ابن عادل: تفسير اللباب،259/7.

2- الزبيدي: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي تاج العروس: تاج العروس من جواهر القاموس6017/1.

لفظة كتاب في مطلع الآية الثانية هو الخبر له، فبحكم علاقة الإسناد بين المبتدأ (المص) والخبر (كتاب) تم الارتباط بين الآيتين .

العطف: قوله تعالى:"أَوْ هُمْ قَائِلُونَ" من الآية:﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾([1])، عطفٌ عليه أي وقائلين من القيلولة نصفَ النهار كقو شعيب﴾([2]).

الحذف: حذف واو العطف، قال تعالى:(أَوْ هُمْ قَائِلُونَ) قال أبو السعود في تفسيره: وإنما حُذفت الواو من الحال المعطوفةِ على أختها، استثقالاً لاجتماع العاطفَين، فإنّ واو الحال حرفُ عطفٍ قد استعيرت للوصل لا اكتفاءً بالضمير، كما في جاءني زيد هو فارس فإنه غيرُ فصيح"([3]).

حذف الفعل: ويتعالق مع الفعل المحذوف االجار والمجرور عند حذفه، ومنه تعلق الفعل قال السيوطي:" ومثال المتعلق بالمحذوف:﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ الجار والمجرور (إلى ثمود)، بتقدير: وأرسلنا، ولم يتقدّم ذكر الإرسال، ولكن ذكر النبي والمرسل إليهم يدلّ على ذلك"([4]).

التكرار: ومنه تكرار الفعلب (قال) والجمل (فيها تحيون، فيها تموتون، منها تخرجون)، في قوله تعالى:﴿ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ *قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ *قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾([5])، قَالَ: أُعيد الاستئنافُ إما للإيذان بعدم اتصالِ ما بعده بما قبله كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا المرسلون﴾ إثرَ قوله تعالى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إلاَّ الضالّون﴾ وقوله تعالى:﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ بعد قوله تعالى:﴿ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ وإما لإظهار الاعتناءِ بمضمون ما بعده من قوله تعالى: ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ

---

[1]- سورة الأعراف: الآية/4.

[2]- ابو السعود: تفسير أبو السعود، 483/2.

[3]- ابو السعود: تفسير أبو السعود، 473/2.

[4]- السيوطي: الأشباه والنظائر: 224/2،225، ت/ عبدالعال مكرم سالم.

[5]- سورة الأعراف: الآيات (23-25).

وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ أي للجزاءِ كقوله تعالى:﴿مِنْهَا خلقناكم وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أخرى﴾([1]) .

العطف: ومنه عطف جملة على جملة، فجملة (وقالوا الحمد لله) عُطفت على جملة (أولئك أصحاب الجنة)، من قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

التوكيد: ومنه التوكيد بالمعنى، وجاء هذا النوع من التوكيد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾([2])، قوله: (بِغَيْرِ الحق) متعلق بالبغي مؤكدٌ له معنى([3]).

البدل: قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾([4])، فجملة (مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) بدلٌ من الفواحش؛ أي جهرَها وسرَّها"([5]).

التعميم: ومنه ما جاء في لفظة (والإثم)؛ أي ما يوجب الإثمَ وهو تعميمٌ بعد تخصيص، وقيل: هو شربُ الخمر، (والبغى) أي الظلم أو الكِبْر أُفرد بالذكر للمبالغة في الزجر عنه"([6]).

التخصيص: وجاء في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾([7]). قال أبو السعود :"وتخصيصُ الحالتين بالعذاب لما أن نـزولَ المكروهِ عند الغفلة والدعَةِ أفظعُ وحكايتَه للسامعين أزجرُ وأردَعُ عن الاغترار بأسباب الأمن

---

[1]- أبو السعود: تفسير أبو السعود، 480/2.

[2]- سورة الأعراف: الآية/33.

[3]- أبو السعود: تفسير أبو السعود، 483/2.

[4]- سورة الأعراف: الآية/33.

[5]- أبو السعود: تفسير أبو السعود ، 483/2.

[6]- سورة الأعراف: الآية/33، وانظر: تفسير أبي السعود: 483/2.

[7]- سورة الأعراف: الآية/4.

والراحةِ، ووصفُ الكلِّ بوصفي البياتِ والقيلولة مع أن بعضَ المُهلَكين بمعزلٍ منهما لا سيما القيلولةِ للإيذان بكمال غفلتِهم وأمنِهم"([1]) .

الصفة والنعت: ومنه قوله تعالى: ﴿ قليلاً ما تذكّرون﴾([2])، قال أبو السعود:"وقليلاً نُصب إما بما بعده على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ مقدَّمٍ للقصر، أو لزمانٍ كذلك محذوف"([3]).

الحصر: يفيد الحصر في الآية:﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾([4])، يفيد في تحقيق الموضوع المحوري المركزي، الذي تدور حوله آيات سورة (العنكبوت)، قال ابن عاشور :"وأفادت "إنما" قصر النبي عليه الصلاة والسلام على صفة النذارة، أي الرسالة لا يتجاوزها إلى خلق الآيات أو اقتراحها على ربّه، فهو قصر إفراد ردّاً على زعمهم أن من حق الموصوف بالرسالة أن يأتي بالخوارق المشاهدة"([5]) .

التقديم والتأخير: قوله تعالى:﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾([6])، فقوله: (وبآياتنا) متعلقٌ بيظلمون على تضمين معنى التكذيب، قُدِّم عليه لمراعاة الفواصل"([7]).

العلاقات والعناصر الدلالية:

أ ــ الإحالة الداخلية، إحالات الضمائر وتطابقها مع الذوات وتشمل:

الضمائر المحيلة إلى لفظ الجلالة:

نحن: وورد محذوفاً وقد شغل موقع المسند إليه في: أهلكناها، فلنسألنّ، فلنقصنّ، وما كنّا، مكناكم، وجعلنا، لقناكم، صورناكم، قلنا، أنزلنا، إنا جعلنا، نفصّل الآيات، نجزي

---

[1]- ابو السعود: تفسير أبو السعود ، 2/483،482.

[2]- سورة الأعراف: الآية/3.

[3]- أبو السعود: تفسير أبو السعود 2/483.

[4]-سورة العنكبوت: الآية 50.

[5]- ابن عاشور: التحرير والتنوير، 14/11.

[6]- سورة الأعراف: الآية/9.

[7]- أبو السعود: تفسير أبو السعود، 2/486.

المجرمين، نجزي الظالمين، ونزعنا ما في صدورهم، فاليوم ننساهم، جئناهم، فصّلناه، أرسلنا نوحاً، سقناه، فأنزلنا، فأخرجنا، ويتصل به ضمير المتكلّم بصيغة الجمع (نا) من بأسنا، بآياتنا([1]).

الضمائر المحيلة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام:

الكاف من(أنزل إليك، صدرك): ويحيل إحالة خارجية وداخلية ذاتية متطابقة، والإحالة الأولى بحكم السياق، والثاني للنبي الأمي، " أهمية الوصف ودلالتها، ولعل ذكر ضمير الخطاب بدلاً من التصريح به ومطابقته الذاتية للمحال إليه يؤدي معنىً وظيفياً نحوياً يفيد التخصيص والحصر، وجاء الوصف(الأمي) للمحال إليه داخلياً (النبي) مؤكداً لهذا التخصيص والحصر .

أنت: وجاء محذوفاً في:﴿ قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾، وقول الله تعالى:﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾([2]).

ضميرا الفصل (هم) والجمع (الواو): وقد أحال الضميران إحالات ذاتية متطابقة؛ قبلية وبعدية متعددة، المفهوم من سياق الآيات، ومن ذلك ما جاء في الكلمات التالية في آيات سورة الأعراف:(دعواهم، جاءهم، قالوا، أرسل إليهم، عليهم، خسروا، كانوا، اتبعوا، ولا تتبعوا، قليلا ما تذكرون، مكناكم، خلقناكم، صورناكم(أنتم)، يظلمون، تشكرون.

إحالات أسماء الإشارة وتطابقها مع الذوات:

ضمير الغائب الذي يحيل إلى الكتاب (القرآن) :

الهاء من:" حرج منه "، ويحيل هذا الضمير إحالة قبلية متطابقة ذاتياً إلى لفظة (كتاب)، ورغم أنه جاء نكرة إلا أن الضمير دلّ على معرفته لاحقاً، وقد ذكر سيبويه أن الضمير أعرف المعارف، كما دلّ عليه السياق أيضاً فالمقصود هو الكتاب (القرآن) بقرائن متعددة: قرينة ذكر الحروف المقطعة قبله، وقرينة ذكر فعل الإنزال والمنزل عليه والمنذرين به .

1- انظر: سورة الأعراف: الآية/52، وانظر: أبو السعود: تفسيره، 493/2.

2- سورة الأعراف: الآيتان: 28،29.

وكذلك (الهاء) من (لتنذر به)، إذ أحال الضمير المجرور إحالة قبلية متطابقة ذاتياً إلى لفظة " كتاب".

الهاء: في قوله تعالى:﴿وكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (4)، إذ أحال الضمير المنصوب الذي لحق الفعلين (أهلكناها و (فجاءها) إلى الاسم (قرية) إحالة ذاتية قبلية متطابقة.

التكرار بالمعنى: ومنه قول الله تعالى:﴿اتبعوا ما أنزل إليكم﴾، والمنزل إليهم هو الكتاب (القرآن) الوارد في الآية الثانية:﴿ كتاب أنزل إليك﴾، وهذا القرآن هو سبب الهداية إلى الصراط المستقيم، قال ابن الزبير:" ... ولمّا تقدّم في الأعراف قوله تعالى:﴿واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾، والإشارة إلى القرآن؛ لأنّه يوضح الطريق إليه وهو الصراط المستقيم، قال تعالى:﴿وأنّ هذا صراطي مستقيما فاتبعوه﴾، والإشارة بهذا إلى المنزل قرآناً؛ لأنّه مبيّن للصراط المستقيم الذي طمع اللعين في الاستيلاء عليه وقطع سالكه فقيل عبارة عن مرامه من ذلك:" لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم"، إلى آخر المحكي من كلامه، ومراده: لأستولينّ لهم عليه"([1])، ويظهر من خلال هذا التكرار بالمعنى، مدى ارتباط هذه السورة بشكل عام بسورة البقرة وغيرها من السور ذوات الحروف المقطّعة، وارتباط هذه الآية بشكل خاص بالآية الثانية من سورة البقرة:" ذلك الكتاب"، وارتباط الآيتين في السورتين بآخر آيتين من سورة الفاتحة .

ومنه قوله تعالى:﴿ يوم يبعثون﴾، وهو يوم القيامة أو اليوم الآخر، ونلاحظ أنّ إبليس لعنه الله ــ عدو بني آدم ــ لم ينكر أمر البعث ويومه، وفي ذلك الإقرار منه تأكيداً للكافرين على وقوع ذلك اليوم، وهو أشد عداوة لبني آدم، فكان الأولى أن ينكر هو مسألة البعث ووقت الحساب، لكنّه يعلم تمام العلم وقوعه الأمرين في وقت معلوم، وهذا ما فسرته الآيتان المكررتان لفظاً في سورتي الحجر وص؛ قال الله تعالى:" قال ربِّ فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ".

---

[1]– ابن الزبير : ملاك التأويل ،492/1.

ومن ضروب الاستبدال، الاستبدال الفعلي (تعبدون بـ تدعون)، وكذلك الاستبدال الاسمي بين غير العاقل بالعاقل؛ أي استبدال (الأصنام بالاسم الموصول (الذين) في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ (195) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (196) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (189).

استبدل الفعل المضارع على وزن (تفعلون) بـ الفعل (تدعون) المطابق لزمن الفعل (تعبدون) وصيغة، إذ فُسِّر الفعل المستبدل به بمعنى العبادة، ومن المصاحبات المعجمية للاسم (العبادة) الاسم (الوحدانية)، ولقد مرّ بنا تفسير ابن عبّاس لفعل الأمر (اعيدوا) في قول الله تعالى :﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾، بأنّ العبادة التي عبّر عنها الفعل (اعبدوا) هي بمعنى التوحيد أو الوحدانية .

المناسبة بين الآيات: يوضح البقاعي ترابط وتماسك الآيات من خلال هذا العنصر، عند تفسيره للجملة التالية للجملة التي قبلها في الآية نفسها، قال تعالى:﴿ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، بقوله:" ولما كان دعاؤهم لهم إنما هو على سبيل الإشراك، قال مشيراً إلى سفول رتبتهم بإثبات الجار:"من دون الله "؛ أيّ الذي له صفات الكمال والعظمه والجلال (عباد أمثالكم) أي في العجز عن كل شيء، لا سيما عما وقع به التحدي من معارضة القرآن وغيرها، وأنتم تزيدون عليها بالحياة والعقل، والمعبود لا يصح أن يكون مثل العابد فكيف إذا كان دونه؛ ولما كانوا لا يسلمون أنهم أمثالهم، سبب عن ذلك أمرهم بدعائهم لبيان دعوى المثلية بل الدونية فقال:(فادعوهم) أي إلى شيء من الأشياء .

الربط بالفاء: قال البقاعي:"ولما كان الإله الحق يجيب وليه عند التحدي من غير تخلف، أشار إلى ذلك بالربط بالفاء فقال:(فليستجيبوا لكم)، أي يوجدوا لكم إجابة بينة في الإتيان بسورة تماثل شيئاً من القرآن وفي شيء من المنافع ".

الجمل المعترضة: قوله تعالى:﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (3)﴾ والجملة اعتراضٌ تذييليٌ مسوقٌ لتقبيح حالِ المخاطَبين([1])

الترتيب: ومنه تقديم فعل الخلق على الأفعال بعده، في قول تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾([2]). قوله تعالى:"وَلَقَدْ خلقناكم ثُمَّ صورناكم"، تذكيرٌ لنعمةٍ عظيمةٍ... وتأخيرُه عن تذكير ما وقع قبله من نعمة التمكينِ إما لأنها فائضةٌ على المخاطَبين بالذات وهذه بالواسطة، وإما للإيذان بأنّ كلا منهما نعمةٌ مستقلةٌ مستوجِبةٌ للشكر على حيالها، فإنّ رعايةَ الترتيبِ الوقوعيِّ ربما تؤدِّي إلى توهّم عدِّ الكلِّ نعمةً واحدةً كما ذكر في قصة آدمَ"([3]).

ومن ضروب الترتيب الذي يختص به حرف الفاء في الأصل ويفيد التعليل: ما جاء في قوله تعالى:﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾([4])، قال أبو السعود:" والفاء في قوله تعالى:(فاهبط مِنْهَا) لترتيب الأمرِ على ما ظهر من اللعين من مخالفة الأمرِ وتعليلِه بالأباطيل وإصرارِه على ذلك، أي فاهبِطْ من الجنة"([5]).

ومنه قوله تعالى:﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي في الجنة أو في زمرة الملائكة، تعليلٌ للأمر بالهبوط فإن عدمَ صحةِ أن يتكبر فيها علةٌ للأمر المذكور ، وقوله تعالى:(إِنَّكَ مِنَ الصاغرين)، تعليلٌ للأمر بالخروج مُشعرٌ بأنه لتكبره، أي من الأذلاء وأهلِ الهوانِ على الله تعالى وعلى أوليائه لتكبُّرك"([6]).

---

[1]– أبو السعود: تفسير أبو السعود،464/2.

[2]– سورة الأعراف: الآية/11.

[3]–أبو السعود: تفسير أبوي السعود:478/2.

[4]– سورة الأعراف: الآية/ 13.

[5]– أبو السعود: تفسير أبوي السعود: 481،480/2،

[6]– المرجع نفسه: 481،480/2.

ومنه قوله تعالى:﴿اخرج منها مذؤماً مدحوراً ﴾،إذ هو سبب لقوله:" لأقعدنّ لهم " بهدف إخراجهم من الجنّة بأفعالهم التي زينّها لهم إلى النار، فكان العقاب من جنس الفعل؛ فأخرجه الله من الجنة إلى النار، لأنه عصا الله عز وجل ولم يمتثل لأمر السجود.

المناسبة بين دلالات الجمل ودلالات الكلمة (الاسم): الإجابة بصفته ولي أمر تقع الإجابة التي يجب عليها حملها لأنه ولي أو والي (ولي الأمر)، تدبير الأمور الملقاة عليه، فهو بمعنى الخليفة، وهذا المعنى تكرار للاسم (الخليفة):" إنّي جاعل في الأرض خليفة "، وهو استبدال للمخلوق العاقل (الإنسان)، فلا يطلق هذا الاسم إلا على عاقل.

المصاحبات المعجمية:

للمصاحبات المعجمية دور مهم في ترابط النص وفهمه بشكل مستقل، وفي ترابطه وتماسكه مع غيره من النصوص التي يشكل معها نصاً واحداً بشكل عام أيضاً، ومن المصاحبات المعجمية التي أدّت دور الترابط والتماسك بين نص الأعراف ونصوص السور ذوات الحروف المقطّعة الأخرى لفظة (حرج)، إذ إنّ سبب الحرج قد يكون مبعثه الريب أو الشك، ولعل الباعث أصلاً لهما- كما يبدو- ما يقال على مسمع النبي عليه الصلاة والسلام أو ما ينقل إليه- من طعن في ما يوحى إليه بقصد التشكيك به، وحمل النبي عليه الصلاة والسلام على الشك به، وليس مصدر الحرج شكّه عليه الصلاة والسلام فيما يوحى إليه به، لذلك كان توجه الخطاب القرآني بالاستهلال بهذه الحروف المقطعة ولا سيما كثرتها في السور المكيّة، وذكر القرآن الكريم بعدها والاحتجاج له، والتأكيد على مصدر نزوله، والمواضيع المحورية التي تناولتها هذه السور بشكل خاص والسور المكيّة بشكل عام، جاء مناسباً لبدء الدعوة، وتسلية وتثبيتاً للداعي إلى الدين الجديد، فكان الاختيار للفظة (حرج) بدلاً من: فلا يكن في صدرك ريب أو شك أو ضيق، أولى لفعل التنزيل وهدف إنزاله من جهة، وسرّ إنزاله إليه وحده بشكل مخصوص، بدلالة حرف الخطاب المحيل إليه إحالة ذاتية متطابقة، فالكتاب منزّل من الله وقد نفى عنه الريب مسبقاً، والرسول عليه السلام متيقن من هذا، لكنّ المقام- كما يبدو- دعا إلى

ذكر النهي عن الحرج تسلية له عليه السلام وتأكيداً وتثبيتاً لما هو عليه، وعدم المبالاة بما يقع على نفسه، والإعراض عما يختلج صدره من تعرض له ولدعوته وعدم مبالاة قومه له، إذا ما عرفنا أن أمر الدعوة والدين الجديد ما يزال في بدايته، ولا سيما والسورة من السور المتقدمة في النزول في مكة مكان بدء الوحي، ولعل معنى هذه الآية مرتبط بمعنى الآية التي نزلت في أول سورة استهلت بحرف مقطّع وهي سورة القلم ــ وفيها الإشارة إلى عدم الانصياع والمبالاة لما يقوله الكافرون، قال تعالى:﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾، وقوله تعالى:﴿ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ وقوله تعالى:﴿ ليزلقونك لمّا سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾، ومتصل كذلك مع قول الله تعالى:﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾، ومرتبط كذلك مع كلّ آية تحتج للقرآن الكريم وتنوه بعربيته، وفي هذا السياق للمصاحبات المعجمية وترابط معنى هذه الآية:﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ بغيرها من الآيات التي ورد فيها لفظ الشك والريب، يذكر الزمخشري ما نصّه في تفسيرها "، أي: شك منه كقوله: ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك ﴾، وسمّي الشك حرجاً؛ لأنّ الشاك ضيّق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه، أي: لا تشك في أنه منزل من الله و تحرج من تبليغه؛ لأنّه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له، فأمّنه الله ونهاه عن المبالاة بهم"([1])، وليس ما ذهب إليه الزمخشري ــ فيما يظهر ــ يفيد وقوع الشك عند النبي عيه السلام أو أنْ يسند الشك له، بل جاء للتمثيل، فتفسيره للآية التي نزلت في سورة يونس ينفي هذا الإسناد، ويجعله على سبيل الفرض والتخييل، بقوله:" فإن قلت: كيف قال لرسول الله صل الله عليه وسلم:﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾([2]) مع قوله:" وإنهم لفي شك منه مريب " قلت: فرق عظيم بين قوله:" وإنهم لفي شك منه مريب " بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق، وبين قوله:" فإن كنت في

---

[1] – الزمخشري: الكشاف : 478،479، خرّج أحاديثه وعلّق عليه/خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ط/2005،1426،3م.

[2]– سورة الأعراف: الآية،94.

شك " بمعنى الفرض والتمثيل.."([1])، لا يعني هذا نقض معنى الشك الذي أورده الزمخشري للحرج، فالحرج لم يكن مصدره شك النبي عليه السلام، إنما مصدره شك وتكذيب قومه به وتشكيك الرسول صلى الله عليه وسلم به أيضاً .

الجمل المعترضة: للجمل المعترضة دور مهم في إضافة معلومات تفيد في فهم التراكيب، قال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خالدون﴾، فجملة (لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا) جملة معترضة بين المبتدإ والخبر، للترغيب في اكتساب ما لا يكتنهه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل والصالح .

علاقة الحالية: التي أفادت المتلقي مع إفادته بالحال التي يكون عليها اتساق النّظم يقتضي أن تكون جملة: "تجري من تحتهم الأنهار" حالاً من الضّمير في قوله: " هم فيها خالدون "([2]) .

العلاقات والعناصر والتداولية:

معرفة العوالم: يندرج ضمن معرفة العوالم ما يسمّى بالمعارف المشتركة عند المرسِل والمتلقي، ولقد صرّح النصّ القرآني (الرسالة) بمعرفة المتلقي بهذه المعرفة ونوعها، وهذه المعرفة هي معرفة الكافرين (اليهود والنصارى) بالنبي صلى الله عليه وسلّم، وهذه المعرفة كتابية موثّقة في كتبهم التي أنزلت على أنبيائهم، قال الله تعالى:﴿ النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ فبلّغ كلّ نبي منهم قومه بها، فقد أخذ الله ميثاقاً عليهم بهذا التبليغ، كما نصّت على ذلك الآية من سورة آل عمران قال الله تعالى:﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾([3]).

وفي هذا السياق الدلالي التداولي نجد البقاعي يتحدث عن موضوع (الوحدانية) من خلال تفسيره لهذه الآية وربطه للآيات بعنصر (المناسبة) المفهوم من كلامه، قال :"ولما كان اتباع من يدعي أنه أعقل الناس وأبعدهم عن النقائص وأعرقهم في

---

[1] – الزمخشري: الكشاف، 473.

[2]– سورة الأعراف: الآية،42 .

[3]– سورة الأعراف: الآية/157.

معالي الأخلاق وأرفعهم عن سفسافها لمن هذا سبيله أخزى الخزي وأقبح العار، وكانوا مع العلم بهذا الذي وصفت به – معبوداتهم يفعلون في الإشراك بهم وفي خوفهم ورجائهم ما هو عين الجهل؛ كرر تبكيتهم باتباعهم في أسلوب آخر أوضح مما قبله في تبيين النقائص والتنبيه على المعايب ملجيء إلى الاعتراف أو التصريح بالعناد أو الجنون فقال مؤكداً: (إن الذين تدعون) أي أيها المشركون دعاء عبادة ملازمين لذلك، أو أنه أطلق الدعاء على العبادة إشارة إلى أنه لا تصح عبادة من ليس فيه قابلية أن يدعى، والحاصل أن الدعاء يلازم المعبود"([1]).

السياق: إنّ السياق العام الذي يمكن رصده من نصّ سورة الأعراف، هو الحديث عن موضوعات ومحاور عظيمة ظاهرة وغائبة دلت عليها دلائل أم لم تدل، وجاء الكلام عنها وعن غيرها مفصلاً تفصيلاً، وهذا التفصيل ينسجم مع تفسير ابن عباس لـ (المص) أنا الله أفصل، ولقد أفصحت الآية التالية من السورة نفسها عن تفسير ابن عباس، قال الله تعالى:﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، كما أن طريقة الإثبات والتأكيد على كل مسألة أو محور منها، كان خلال دلائل وتعليل لكل ما يتصل بها، يؤيد ويحكم لهذه الأدلة مدة إحداثها وثبات موقعها، وانتظام أنظمة ما يتصل بها من ظواهر، دون أن تتعارض مع المعارف العامة والمكتسبة لدى المتلقين، وهذه المحاور إنما وظّفها النص القرآني لمحور الوحدانية لله تعالى، ومن الآيات التي أكّدت لهذا المحور وأوجبت على المتلقي تحقيقه كما أقرّ به العقل والعلم والمعرفة.

فهذه الآية استندت إلى الجانب المعرفي الذي جاء به المستوى التداولي لفهم النص، أكّدت الآية:﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ([2])، إذ إنّ هذه الآية أمرٌ كان متحصلاً ومعروفاً عندهم سابقاً، وهو أنّ ربهم هو الله، وليس في الغيب

---

[1]– البقاعي: نظم الدرر، 197/2 .

[2]– سورة الأعراف: الآية/54.

والوجود رباً غيره، لكنّهم اتخذوا أرباباً من دونه، ومن ثم ذكّر هم بما عنـــدهم مـــن معارف سابقة قد سمعوها، وهي أنّ الله هو الذي خلـــق الـــسماوات والأرض ومـــا بينهما، وذكر معها ما يؤكد الربوبية لله وحده، وجعلت هذه الأدلة على وحدانيـــة الله تعالى صِلة لاسم الموصول (الذي) ووقع هذا الاسم صفة للفظ الجلالة (الله)، ويبـــدو أنّ الرازي قد أشار إلى هذه المعارف التي توفرت لهم بقوله:" أنّه سبحانه ذكر فـــي أول التوراة أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، والعرب كانوا يخالطون اليهود والظاهر أنهم سمعوا ذلك منهم فكأنه سبحانه يقـــول لا تـــشتغلوا بعبـــادة الأوثـــان والأصنام، فإن ربكم هو الذي سمعتم من عقلاء الناس أنه هو الذي خلق الـــسموات والأرض على غاية عظمتها ونهاية جلالتها في ستة أيام([1]).

التقديم والتأخير:

يتصل هذا العنصر النحوي بالمستوى التداولي من خلال تقديم للفـــظ الجلالـــة (ربكم) في بنية الآية السطحية بعد تحويلها عن بنيتها العميقة التي توجب تقديم لفـــظ الجلالة (الله) قبل دخول (إنّ)، هو تؤكد بهذا المبنى المحوّل وما تضمنه من معـــانٍ ظاهرة أو صامتة مُصَوّتة، على المحور الرئيسي وهو التوحيد، الله ربكم ، إن ربكم الله، فأدت (إن) دورها بوقوعها في الآية المحولّة، من خلال التأكيد على ما اســـتقرّ عندكم من معارف الشرائع السابقة، بأن ربهم حقاً هو الله أولاً دون أن يذكر صفته، ومن ثمّ جيء بذكر الصفة التي تلزمهم بحسب معرفتها لهم سابقاً، بأن الذي خلَق في ستة أيام السماوات والأرض وما بينهما، هو الله رب العالمين الذي دعا إلى توحيده القرآن الكريم، الذي أنزله على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، فـــلا ربّ ولا إلـــه قبله ولا بعده، فما من شيء خُلِقَ ويُخلَق من الخلق إلا هو خالقه، " ألا له الخلـــق"، ففي ضوء المستوي النحوي الحديث القديم (نحو الجملة، النحو التوليدي التحـــويلي) والمستوى التداولي الحديث القديم (معرفة العوالم) البلاغي والأسلوبي، استثمر نحو النص ـــ الاتجاه الجديد في دراسة النصوص وتحليلها ـــ معطيـــات هـــذه العلـــوم

---

[1]- الرازي: مفاتيح الغيب:348/9.

وغيرها التي تفيد في تحليل النص الأدبي وفهمه، فأشركها معه لفهم المعاني الجزئية والكلية لأبنية النص الصغرى والكبرى أيضاً .

المقابلة: استثمر الرازي معطيات أصل من أصولي الفقه والنحو وهو القياس، ليدخل النظير المماثل لنظير آخر- بقطع النظر عن تباين حجم أحدهما عن الآخر- ليدخله مخلوقاً تحت الآية السابقة، بدليل أنّ الخالق لهما واحد قال: " واعلم أن الخلق عبارة عن التقدير، فإذا دللنا على أن الأجسام متماثلة وجب القطع بأن كل صفة حصلت لجسم معين، فإن حصول تلك الصفة ممكن لسائر الأجسام، وإذا كان الأمر كذلك كان اختصاص ذلك الجسم المعين بتلك الصفة المعينة خلقاً وتقديراً فكان داخلاً تحت قوله سبحانه:" إنَّ رَبَّكُمُ الله الذي خَلَقَ السموات والأرض "، وقال الرازي:"اعلم أنّا بينا أنّ مدار أمر القرآن على تقدير هذه المسائل الأربع، وهي التوحيد والنبوة والمعاد والقضاء والقدر، ولا شك أن مدار إثبات المعاد على إثبات التوحيد والقدرة والعلم، فلما بالغ الله تعالى في تقرير أمر المعاد عاد إلى ذكر الدلائل الدالة على التوحيد، وكمال القدرة، والعلم، لتصير تلك الدلائل مقررة لأصول التوحيد، ومقررة أيضاً لإثبات المعاد"([1]).

التعريف والتنكير: ويدخل التعريف ضمن إطار هذا المستوى التداولي، من خلال ما يقدمه (التعريف) من معلومات ومعارف مشتركه بين طرفي العملية التواصلية، مما يعزز الترابط المفهومي للمعلومات الواردة بين أجزاء النص، فأداة التعريف (أل)أفادت العهد الذكري والعهد الذهني، وخير ما يمكن أنْ نستشهد به لهذا العنصر التداولي الذي يسهم في انسجام النص وترابطه وتماسكه، قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾([2])، وكذلك دور التعريف في التماسك النصيّ، بين السور ذوات الحروف المقطّعة مجتمعة — خاصة في دلالة الحروف المقطّعة وارتباط القرآن بها مباشرة، وعلاقة القرآن الكريم بالمنزّل عليه وصفته المذكورة في هذه السورة بشكل صريح، وبمعنى آخر

---

[1]- الرازي: مفاتيح الغيب:349/9، 349. .

[2]- سورة الأعراف: الآية/157.

الوقوف من خلال هذا العنصر، على الدلالة المشتركة بسبب هذا التلازم بين النبي الأمي عليه السلام وصفاته، وبين القرآن الكريم واستهلاله بالحروف المقطّعة، أي هل في هذا التعريف والنعت أو الصفة لهذا النبي الأمي والقرآن الموحى إليه، وما ذكر من معارف مشتركة بين طرفي عملية الاتصال، ما يدلل على أن في الإحالة لهذه الحروف إحالة خارجية سياقية، وكذلك إحالة اسم الإشارة الوارد في أول سورة (الم* ذلك الكتاب)، وإفادة (ال التعريف في الكتاب) العهد الذكري والذهني، والحضوري أيضاً، والعلامة المستفادة من:" لا ريب فيه "، تدل وتحيل إحالة خارجية إلى الكتاب المحفوظ، بحكم دخولها ضمن الإطر المعرفية الخلفية للمخاطب في مستواها التداولي، وجاء الفصل بشكل صريح ومؤكد من خلال قوله تعالى:" النبي الأمي ..."، ولم يوصد الخطاب القرآني طريق الهداية والرحمة، أمام المخاطب المنكر الذي لديه المعرفة الخلفية بالنبي الأمي وصفاته وصفات كتابه الموحى به إليه:" مصدقاً لما معهم"، قال الله تعالى:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾([1])، ولا موصداً أيضاً الباب أمام المخاطب الجاهل لها بحكم ما يقدمه النص من أدلة وبراهين وآيات، كفيلة وحدها على أنْ تلزمه بإتباع هذا النبي الأمي وما يدعو إليه، قال الله تعالى:﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ*الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾([2]) .

---

[1]- سورة البقرة: الآية،91.

[2]- سورة الأعراف: الآيتان: 156،157.

ويدخل ضمن هذا المستوى التداولي المعارف المعلومة المتداولة بين الناس التي لا ينكر معرفتها أحد منهم، وهي من المعارف التي يعتمد عليها المتلقي في حياته اليومية، وقد جاء قول الله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾([1]).

فالمعارف من خلال ظاهر الألفاظ التي في الآية، هي في الحقل الاستعمالي، نحو: الجمل، سم الخياط، وهو الثقب الضيّق في أعلى الإبرة، ويسمّى (الخرت)، فلا مندوحة تُجّوز لمتلقٍ بأنْ يتساءل عن (الجمل) جاهلاً به، فهو معروف من السائل والمسؤول، بل إنّ المسؤول ليستهجن السائل، فكانت المعرفة الكاملة بحجم الفراغ للمكان الذي سيشغله الجمل وهوبحجم خرت الإبرة، مما يفيد بعدم دخول الكافرين الجنة ألبتة .

حتّى يلج: انتهاء غاية، والغاية في هذه الجملة لا نهاية لها، لما تضمنه الحرف (حتّى) من معنى الشرط الذي لن يتحقق البتة في حكمنا المعرفي، ليس لحجم الإبرة حسب، بل معرفتنا بحجم الثقب الذي يتخللها فيشغل فراغاً مكانياً، وهو الفراغ الذي يحتاج إلى دقيق نظر خبير في الصنعة، بأنْ يُدْخلَ خيطاً رفيعاً يعرف درجة سماكته الرفيعة الحائك الخبير، من ثقب بحجم هذا الخيط الرفيع، فلا مقارنة بين حجم الجمل وحجم الخيط، فلما كانت المقابلة بين حجم الإبرة نفسها وحجم الجمل غير واردة ولا يقبلها العقل، فكيف سيقبل العقل مسألةً إنْ تحقق جزء منها ؟ وهو فعل الولوج لا الدخول، فما حدوثه إلا ضرب من اللامعقول، الذي لن يتحقق إلا إذا شاء الله ، فدخول الكفار الجنة من الاستحالة بمكان كاستحالة ولوج الجمل في سم الخياط جزاءً لكفرهم، وكان بمقدورهم النجاة من العذاب ومن الخلود في النّار، إذ كلّ ما يحملهم على هذه النجاة كان ميسراً لهم، فباستعمال النص القرآني ما لدى المتلقين من معارف، فقد راعى سائر أحوال جميع المتلقين، فالجمل والإبرة يعرفهما جميع المتلقين من غير مفاضلة بين مستوياتهم المعرفية، وبهذا اتجهت الآية إلى الجانب

---

[1]– سورة الأعراف: الآية،45 .

العرفي الاستعمالي للمسند والمسند إليه، الذي تطاول أثره إلى الجملة التكملة (الذيل) المحمول الرئيسي في الآية .

ولقد سبق الزمخشري والنّحاس وابن عاشور علماء النصّ المحدثين، في الإفادة من معطيات المستوى التداولي في تماسك النصّ وترابطه وفهمه، وذلك من خلال المعاني والدلالات الملفوظة وغير الملفوظة، التي يستفيد منها المتلقي في فهم النصّ، فلقد صرّحوا بمعرفة العوالم تلك، وهم يفسرون الآية السابقة، قال الزمخشري:"...وعن ابن عباس رضي الله عنه: إنّ الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمَل، يعني أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سمّ الإبرة، والبعير لا يناسبه؛ إلاّ أن قراءة العامّة أوقع لأنّ سم الإبرة مثل في ضيق المسلك، يقال: أضيق من خرت الإبرة، وقالوا للدليل الماهر: خِرّيت، للاهتداء به في المضايق المشبهة بأخرات الإبر، فقيل: لا يدخلون الجنة، حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلاّ في باب واسع، في ثقب الإبرة، وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل، فقال: زوج الناقة، استجهالاً للسائل، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف"([1]) .

وقال النحاس:"...والمعنى لا يدخلون الجنة ألبتة، والعرب تستعمل أمثال هذا كثيراً، وسُئِلَ عبد الله بن مسعود عن الجمل، فقال: هو زوج الناقة، كأنّه استجهل من سأله عما يعرفه الناس جميعا "([2]) .

وقال ابن عاشور:" فقد جعل لانتفاء دخولهم الجنّة امتداداً مستمراً، إذْ جعل غايته شيئاً مستحيلاً، وهو أن يَلِج الجمل في سَمّ الخياط ، أي لو كانت لانتفاء دخولهم الجنّة غايةٌ لكانت غايتُه ولوجَ الجُمل وهو البعير في سَمّ الخِياط، وهو أمر لا يكون أبداً...والجَمَل: البعير المعروف للعرب، ضُرب به المثل؛ لأنّه أشهر الأجسام في الضّخامة في عرف العرب... والقرآن أحال على ما هو معروف عند

---

[1] – الزمخشري: الكشاف، 230/2.

[2]– النحاس: معاني القرآن:35/3.

النّاس من حقيقة الجَمل وحقيقة الخياط، ليعلم أنّ دخول الجمل في خَرْت الإبرة، محال متعذّر ما داما على حاليهما المتعارفين"([1]) .

وقد حمل عبد الفتاح الحموز الانزياح في قراءة ابن عبّاس وسعيد بن جبير وغيرهم، لقوله تعالى:" ولا يدخلون الجنّة حتى يلج الجُمّلُ في سمّ الخياط"، بضم الجيم وفتح الميم مشدّدةً، حمله على المبالغة، فقال:" ويتبدى لي أنّ هذا الانزياح ينبئ عن مبالغة، وهي مبالغة تكمن في ولوج الجمل سمّ الخياط، على أن الجُمّلَ جمْعُ جاملٍ، والجاملَ جَمْعُ جَمَلٍ(اسم جمع)، ويعزّز هذا القول قراءة ابن عباس وغيره (الجُمُلُ) على أنّه جمع جَمَلٍ، وقراءته وقراءة غيره (الجُمْلُ) على أنه مخفّف من الجُمُلِ، على الرغم من أنّ قراءة (الجُمّلِ) أكثر إنباءً عنِ المبالغة، وعن تحدّي الله سبحانه وتعالى لهؤلاء"([2]).

ومن ضروب المستوى التداولي استعمال الفعل والاسم (فطر، فاطر ، فطرة): أنا فطرتها...الخ، فطرة الله التي فطر الناس عليها، قال الله تعالى:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾([3])، ويلاحظ تعالق المستوى الدلالي والتداولي في هذه الآية، من حيث دلالة الحروف المقطعة (الم) في سورة الروم وغيرها، على أفعال الأمر والصراط والمستقيم، ودلالة الفعل (فطَر) على أول الابتداء في الفعل، وهو متعالق دلالياً مع دلالة الألف سيميائياً على الأول، بعدّه أحد أسماء الله الحسنى المتأولة لحرف الألف.

الموضوع المحوري المركزي في سورة الأعراف (المص).

مما يتصل بالموضوع المحوري المركزي في هذه السورة، الدلالات التي أفضت بها الحروف المقطّعة بدلالاتها على معنى الوحدانية أو التوحيد، باعتبار هذا المحور هو الموضوع المركزي، ولعلّ عبد الله دَراز قد لمس هذه الوحدة الموضوعية المحورية، وهو يتحدث عن نقطة الانطلاق أو النواة التي يدور حولها

---

[1] – ابن عاشور: التحرير والتنوير:299/5.

[2]– الحموز: انزياح اللسان العربي الفصيح والمعنى:4.

[3] – سورة الروم: الآية/30.

نظام الإقناع القرآني بقوله:" ونعتقد أنّ نقطة الانطلاق والنواة التي يدور حولها نظام الإقناع القرآني تنحصر في هذه الفكرة الرئيسية: وهي أنّ صانعاً يتصف بالكمال المطلق والقوة المطلقة، والخير المطلق خلق كلّ شيء في الوجود، وأخضعه لإرادته خضوعاً مطلقاً، وسرّ نجاح هذه الفكرة، أنّها من ناحية: تنسجم تماماً مع الوحدة الدينية التي يستهدف الإسلام إعادتها من جديد إلى الوجود، حيث إنّ الفرقة لا تنشأ إلا في التعدد ([1])، ومن ناحية أخرى فإنّ سمو هذه الفكرة فوق كلّ الاعتبارات الضيقة في الديانات المختلفة، تذكّر الناس بالحقيقة الخالدة التي عرفوها أو التي يسهل عليهم معرفتها، والواقع أنّه حتّى العرب المشركين كانوا يعترفون بوجود إله أعظم، خالق للكون ومدبر لشؤونه...ولا يرجع هذا الاعتراف فقط إلى بعض الآثار المحفوظة عندهم من ديانة إبراهيم وإسماعيل، وإنّما توجد نواته في أعماق النفس الإنسانية، ولكن هذا التوحيد الأول أو هذه الديانة الفطرية ـ كما يسميها القرآن ـ لم تكن إلا فكرة نظرية محجوبة ومغمورة في الواقع تحت معتقدات وعبادات كانت تؤدى إلى عدد لا يحصى من الآلة"([2]).

ومما يتصل بالموضوع المحوري، ما جاء من كلمات وجمل نحو: أسماء الله الحسنى، الأمة، تؤمنون بالله ، وهي تتماس مع سائر الألفاظ والجمل والفقرات التي وردت في نصوص السور ذوات الحروف المقطّعة الأخرى، فمن الكلمات التي جاءت في سورة آل عمران كلمة (أمة) التي أُضيفت إلى أفعل التفضيل (خير)، الدّالة على أمة الإسلام، التي فضّلها الله سبحانه وتعالى هذه على سائر الأمم، قال الله تعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾([3])، كما جاءت الآية معرّضة بالكافرين أيضاً، ثم تلت هذه الآية آيات تستثني منْ آمن حقاً من أهل الكتاب، فاليهودي الذي أسلم لموسى عليه السلام والمسيحي الذي اسلم لعيسى عليه السلام، أسلموا بالفطرة التي فطروا عليها، واتبعوا

[1]- انظر الآية (64 من سورة آل عمران، والآية (46) من سورة العنكبوت .

[2]- دَراز: مدخل إلى القرآن الكريم، 73، 74 .

[3]- سورة آل عمران: الآية 110.

أمر أنبيائهم الذين جاءوا بالدين الحق، قال الله تعالى:﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[1] .

وفي سورة الأعراف آياتٌ تفصّل لبعض الموضوعات المحورية، التي شكّلت أبنية صغرى وكبرى في نصوص السور ذوات الحروف المقطّعة، وهذه الموضوعات تؤول في خاتمتها إلى الموضوع المحوري المركزي، وقد اشتملت في بنيتها على لفظة الأمة وغيرها من الألفاظ التي تدلّ على الوحدانية، قال الله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ*يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ*وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ*فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾[2]، فمن الموضوعات المحورية التي أشارت هذه الآيات في المعنى، وتعدّ موطناً للاستشهاد، محور الوحدانية الدال عليه دلالة لزوم، أسماء الله الحسنى المتضمنة في جملة (فإذا جاء أجلهم)، فالله سبحانه وتعالى هو المحيي وهو المميت، وكذلك موضوع تصديق الرسل وما جاء معهم، فقد تضمنته جملة (رسل منكم يقصون عليكم آياتي)، وكذلك موضوع البعث والحشر والحساب الذي تضمنه جملة (أولئك أصحاب النار)، كما تضمنت الآية الأخيرة الالتفات إلى الموضوع المحوري المركزي، وهو إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى من خلال جملة (قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله)، ويلاحظ المتلقي من خلال الدلالة النسبية بعض المعاني، التي تتصل بقسم من المعاني المتأوّلة للحروف المقطّعة ومنها: الله؛ الأول، الآخر، الفرد الصمد، المحيي، المميت، الوحدانية، اليوم

1– سورة آل عمران: الآيتان،113،114 .

2– سورة الأعراف:الآيات ، 34–37 .

حرف أفعال الأمر: اتقِ، أصلِحْ)، والحال كذلك في الاستثناء لمن آمن من قوم موسى، وأفاد هذا الاستثناء حرف الجر التبعيضي (منْ)، قال الله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾([1])، وبيّن سبحانه وتعالى مصير الأمة التي تنهى عن السوء ومصير منْ لم ينه عنه، قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ *فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ *فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾([2]).

5.2 تناصّ سورة الأعراف مع سائر السور ذوات الحروف المقطّعة.

قال تعالى:﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾([3]) (12)، وهذه الآية تمثّل تناصاً لسورة الأعراف مع سورة البقرة بحسب ترتيب المصحف، وفسّر أبو السعود هذه الآية، تفسيراً يتعالق مع ذكرها في قصة آدم وإبليس في سورة البقرة وسورة الحجر وسورة (ص) وغير هذه السور أيضاً، "(قَالَ) استئنافٌ مَسوقٌ للجواب عن سؤال نشأ من حكاية عدم سجود، كأنه قيل: فماذا قال الله تعالى حينئذ؟ وبه يظهر وجهُ الالتفات إلى الغَيبة إذ لا وجهَ لتقدير السؤال على وجه المخاطبة، وفيه فائدةٌ أخرى هي الإشعارُ بعدم تعلقِ المحكيِّ بالمخاطَبين كما في حكاية الخلْقِ والتصوير، (مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ)؛ أي أن تسجُد كما وقع في سورة ص، و (لا) مزيدةٌ مؤكدةٌ لمعنى الفعل الذي دخلت عليه كما في قوله تعالى:﴿ لّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكتاب﴾، منبّهةٌ على أن الموبَّخَ عليه تركُ السجود، وقيل: الممنوعُ عن الشيء مصروفٌ إلى خلافه فالمعنى ما صرفك إلى أن

---

[1]- سورة الأعراف: الآيتان:158،159.

[2]- سورة الأعراف: الآيات: 164-166.

[3]- سورة الأعراف:الآية:12.

تسجد،(إذْ أَمَرْتُكَ) قيل: فيه دلالةٌ على أن مُطلقَ الأمرِ للوجوب والفور، وفي سورة الحِجْر: ﴿قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ الساجدين﴾، وفي سورة ص:﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، واختلافُ العبارات عند الحكاية، يدلّ على أن اللعينَ قد أدمج في معصية واحدة ثلاثَ معاصٍ؛ مخالفةَ الأمرِ ومفارقةَ الجماعةِ، والإباءِ عن الانتظام في سلك أولئك المقرّبين، والاستكبارَ مع تحقير آدمَ عليه السلام، وقد وُبِّخ حينئذ على كل واحدة منها، لكن اقتُصر عند الحكاية في كل موطنٍ على ما ذكر فيه اكتفاءً بما ذكر في موطن آخرَ وإشعاراً بأن كلٌّ واحدة منها كافيةٌ في التوبيخ وإظهارِ بطلانِ ما ارتكبه، وقد تُركت حكايةُ التوبيخ رأساً في سورة البقرة وسورة بني إسرائيلَ وسورة الكهفِ وسورة طه"([1]). ويبدو أنّ هذا الترك بقرينة ذكره في سور أخرى غير التي ذكرها أبو السعود، هو أحد الشروط التي وضعها علماء النصّ للنصّ الظاهر المعلن، وهذا الترك يقابل شرط الاقتصاد في النص.

[1]- أبو السعود، تفسير أبو السعود،2/480.

الفصل الثالث

السّـــور ذوات الحـــروف المقطعة

(الر، المر، كهيعص، طه، يس)

1.3 السور ذوات الحروف (الر، المر)

السور القرآنية التي استهلت بهذه الحروف الثلاثة (الـــر) خمس سور، وهي بحسب ترتيب التلاوة (يونس، هود، يوسف، إبـــراهيم، الحجـــر)، لـــذا ســـنتناولها بالدراسة والتحليل في هذا الفصل الذي خُصّص لها، بالإضافة إلى دراسة وتحليـــل سورة (الرعد) معها ــ آخر السور ذوات الحروف المقطّعة نزولاً حـــسب ترتيـــب النزول ــ التي اشتمل الاستهلال بها على الحرف الأخير من هذه المجموعة وهـــو حرف (الراء)، وعلى الحرف الأخير (الميم) من مجموعة السور التي استهلت بـــ (الم)، التي درسناها قبل مجموعة هذه السور، وستكون دراسة سورة الرعد ــ على الرغم من وقوعها حسب ترتيب التلاوة متقدمة على سورتي (إبراهيم والحجر) ــ الدراسة الأخيرة لسور هذه المجموعة، وذلك للوقوف على العلامات التي يمكـــن أنْ ينبئ عنها نزولها آخر السور ذوات الحروف المقطّعة، وكمية الحروف التي استهلت به، ومكان نزول السورة كذلك.

1.1.3 دلالة الحروف المقطّعة في هذه السور

وردت آيات كثيرة في مجموعة هذه السور قد أكّدت للدلالات التي تأولناه لهذه الحروف، وهذه الدلالات أكتفِي بذكرها مع ذكر الآية التي تدل عليها علـــى النحـــو التالي:

أ- أسماء الله الحسنى: وهي من جملة التأويلات التي قال بهـــا بعـــض المفـــسرين وغيرهم، وهو التأويل الذي ارتضيناه بشكل عام للحـــروف المقطّعـــة؛ إذ إنّ كـــلّ التأويلات الأخرى التي قيلت في هذه الحروف ــ كما يبدوــ تؤول بنسب منها إليها، أو تتصل معها بمعنى من المعاني، ومن أسماء الله الحسنى التي جاءت في نصوص سور هذه المجموعة (الله، السميع، العليم، الكبير، المتعال).

ب- **الوحدانية**: من الآيات التي تؤكد على محور الوحدانية من خلال ذكـر لفظـة الربوبية والألوهية، وما جاء بعدهما من أفعال مسندة إلى لفظ الجلالة جاءت صـلة للموصول (الذي)، نحو أفعال: الخلق وتدبير الأمر والاستواء، وكذلك فعـل الأمـر (اعبدوا) الدّال على معنى الوحدانية كما ذكر ذلك بعض المفسرين، قال تعـالى:﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُـدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَـذَكَّرُونَ﴾([1])، قـال الرازي:" اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم تعجبـوا مـن الـوحي والبعثـة والرسالة، ثم إنه تعالى أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد ألبتة في أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولاً يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب، وعلى الأعمال الباطلة الفاسدة بالعقاب، كان هذا الجواب إنما يتم ويكمل بإثبات أمرين: أحدهما: إثبـات أن لهـذا العالم إلهاً قاهراً قادراً نافذاً الحكم بالأمر والنهي والتكليف. والثاني: إثبات الحـشر والنشر والبعث والقيامة، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبـر الأنبيـاء عـن حصولهما، فلا جرم أنه سبحانه ذكر في هذا الموضع ما يدل على تحقيـق هـذين المطلوبين. أما الأول: وهو إثبات الإلهية، فبقوله تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكُمُ الله الـذى خَلَـقَ السموات والأرض ﴾. وأما الثاني: وهو إثبات المعاد والحشر والنشر. فبقوله:﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ الله حَقّاً﴾([2])، فثبت أن هذا الترتيب في غاية الحـسن، ونهايـة الكمال"([3]).

ومن الآيات التي جاء لفظ الجلالة (الله) مصرحاً به، ودلّت معه على الإقـرار له بالوحدانية المطلقة، قوله تعالى في سورة يونس:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِـي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّـهَ الَّـذِي يَتَوَفَّـاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ*وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَـكَ لِلـدِّينِ حَنِيفًـا وَلا تَكُـونَنَّ مِـنَ

---

[1]- سورة يونس: الآية/3، وانظر الآيتين بعدها/4،5.

[2]- سورة يونس: الآية/4 .

[3]- الرازي: مفاتيح الغيب:200/8 . .

الْمُشْرِكِينَ* وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾([1]) .

كما بانت دلالة الوحدانية في أوائل سورة إبراهيم، جاء في تفسير البقاعي لأوائل سورة إبراهيم:"ولما كان النور مجملاً، بينه على سبيل الاستئناف أو البدل بتكرير العامل فقال:(إلى صراط العزيز) الذي تعالى عن صفات النقص فعز عن أن يدخل أحد صراطه الذي هو ربه، أو يتعرض أحد إلى سالكه بغير إذنه (الحميد) المحيط بجميع الكمال، فهو المستحق لجميع المحامد لذاته وبما يفيض على عباده من النعم التي يربيهم ويتحمد إليهم بها على كل حال ، فكيف إذا سلكوا سبيله الواضح الواسع السهل! . ولما أضاف طريق النجاة إلى وصفين يجوز إطلاق كل منهما على الخلق، بينهما باسمه الشريف العَلَم على الاستئناف في قراءة نافع وابن عامر بالرفع. وعلى أنه عطف بيان في قراءة الباقين بالجر لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لاختصاصه بالمعبود بحق ووصفه بما اقتضى توحيده، فقال:(الله) أي المحيط علماً وقدرة (الذي له ما في السماوات) أي الأجسام العالية من الأراضي وغيرها، ولما كان في سياق الدلالة على الخالق وإثبات توحيده ، أكد بإعادة الموصول مع صلته فقال:"وما في الأرض" أي فويل لمن أشرك به شيئاً منهما أو فيهما ، فإنه لا أبين من أن ما كان مملوكاً لا يصلح لأن يكون شريكاً."([2]) .

ج- الصراط المستقيم:

الألف: من (الر)، وقد مرّ تأويلها بدلالتها على الصراط المستقيم من خلال رسمها في (الم/ البقرة)، ومن الآيات الي تعزّز هذا التأويل قوله تعالى:" وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"([3]).

د-أفعال الأمر: من أفعال الأمر التي تتعالق فيها دلالة الألف والراء من (الر) فعل الأمر: اذكر: وهو خطاب للرسول صلى الله عليه وسلّم لتذكير المشركين في مكة، بما لاقاه الأقوام السابقون الذين كذبوا رسولهم وكفروا بالله العظيم... (وقد ارتبط

---

[1]- سورة يونس: الآيات (104- 106) .

[2]- البقاعي: نظم الدرر،587/3.

[3]- سو رة يونس: الآية/25.

هذا الفعل ودلالاته مع كلّ فعل أو محتوى قضوي فيه تذكير من الرسول عليه السلام لقومه، ويتصل هذا المعنى بقوله تعالى:﴿ إنا أرسلناك هادياً ومبشراً ونذيرا﴾.

ومن أفعال الأمر التي جاءت في هذه السور دالّة على الوحدانية، قوله تعالى في سورة يونس:﴿ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾، في سورة هود:﴿اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾([1])، كما جاءت في سورة الأعراف (4) مرات، ومرتين في سورة المؤمنون/23، 32. (9) مرات، و(7) في السور ذوات الحروف المقطّعة، وهذه الدلالات متعالقة مع دلالة الآية التي جاءت في سورة البقرة، إذ إنّ قوله تعالى:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "([2])، فالمحتوى القضوي للجملتين واحد وهو الإقرار بالوحدانية والعبودية لله سبحانه وتعالى وحده، فجاء الإجمال في آية البقرة وفُصّل في مواضع كثيرة من السور ذوات الحروف المقطّعة، من خلال الجمل التي تبادل فيها المسند والمسند إليه مواقعهما نحو:(الله ربكم) و(ربّكم الله).

وفي سياق موضوع الوحدانية لله سبحانه وتعالى، التي تجاذبتها ألفاظ الألوهية والربوبية والعبادة، وتجاذبتها كذلك دلالات الحروف المقطّعة السيميائية أو العلامتية، ولا سيما دلالة حرف (الألف) على أنّه أول حرف قد أُقتُطِعَ من لفظ الجلالة (الله) ومن جميع أسمائه الحسنى، ودلالتها على اسمه الأول بشكل خاص باعتبار حرف الألف رقماً هو أول الأرقام العددية (1)، ودلالته على اسمه (الغني) بانفصالها واستغنائها عن الحروف المقطّعة بعدها، ودلالتها على الصراط المستقيم بشكلها المرسوم (المستقيم المعتدل) باعتبارها أيقونة، ودلالتها على أفعال الأمر باعتبار أنّ أفعال الأمر ــ ما خلا بعض أفعال منها ــ قد ابتدأت بحرف الألف، ولا سيما نزول أول لفظ من ألفاظ القرآن تنزيلاً، هو فعل الأمر (اقرأ)، وكذاك تردد عدد من أفعال الأمر التي تتعالق مع معنى الاستقامة لفظاً ومعنىً، نحو(استقم) في

---

[1]– سورة هود: الآيات (61،51، 84).

[2]– سو رة البقرة: الآية/21.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾([1]).

هـ- الإشارة إلى الرسل :

هناك ترابط بين عنوان السور وحرف (الراء)، حتّى أنّ سورة الحجر التي لم تسم باسم أحد من الرسل قد اشتملت على هذا الحرف، وهذه الدلالات كلّها، تؤول إلى الدلالة الأولى وهي دلالة الحروف المقطعّة على أنها حروف مقتطّعة من أسماء الله الحسنى، فالله سبحانه وتعالى هو الواحد الفرد الصمد، الخالق، الرازق الآخر، إليه المصير، وهو مرسل الرسل والأنبياء ... بحكم الدلالة اللفظية وغير واللفظية؛ دلالة التضمن ودلالة الإلتزام، ما عدا الدلالات السيمائية المتعددة .

7- الإنذار التحذير التذكير: إنّ الكلمات التي في بنيتها حرف الراء تحتمل أن تكون من دلالات هذا الحرف، فدلالة هذه الكلمات ودلالة فعل الأمر (اذكر)، هي منسجمة ومتعالقة بنسب منها، مع أسماء الرسل عليهم السلام التي جاءت أسماءً أو عنوانات لسور هذه المجموعة، فهم مبشرون برحمة الله وما أعدّه الله لمن آمن به واتبعهم، ومنذرون من عذابه من كفر بالله .

2.1.3 عناصر التماسك النصي

أ- العلاقات والعناصر النحوية .

الحذف: ومنه حذف المبتدأ والخبر: قد يحذف أحدهما إنْ قُدِّر الآخر، فمن هذا الضرب، ما جاء في قوله تعالى:﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾([2])، ذكر القرطبي أنّ النحاة اختلفوا في رفع " مثل " في قوله تعالى:"مثل الجنة التي وعد المتقون"، فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء والخبر محذوف، والتقدير: وفيما يتلى عليكم مثل الجنة، وقال الخليل: ارتفع بالابتداء وخبره " تجري من تحتها الأنهار " أي صفة الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار، كقولك: قولي يقوم زيد،

1- سورة هود: الآية/112 .

2- سورة الرعد: الآية/35. .

فقولي مبتدأ، ويقوم زيد خبره، وأنكره أبو علي ... وقال الفراء: المثل مقحم للتأكيد، والمعنى: الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار، والعرب تفعل ذلك كثيرا بالمثل، كقوله: " ليس كمثله شيء"([1])؛أي ليس هو كشيء"([2]) .

حذف أداة الاستفهام والمستفهم عنه: وجاء هذا الحذف في قوله تعالى:﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾([3]) .

ذكر القرطبي في قوله تعالى:﴿ قل أرأيتم أن أتاكم عذابه بياتا أو نهاراً﴾ أنّه " ظرفان، وهو جواب لقولهم:﴿ متى هذا الوعد﴾ وتسفيه لآرائهم في استعجالهم العذاب، أي إن أتاكم العذاب فما نفعكم فيه، ولا ينفعكم الإيمان حينئذ، وقوله تعالى: ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم، أي ما أعظم ما يستعجلون به، كما يقال لمن يطلب أمرا يستوخم عاقبته: ماذا تجني على نفسك ! والضمير في " منه " قيل: يعود على العذاب، وقيل: يعود على الله سبحانه وتعالى"([4]) .

حذف الخبر: قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾: أي غير هذا القرآن .

التقديم والتأخير: ومنه تأخير شبه الجملة (لكم) التي وقعت مفعولاً به للفعل أنزل في قوله تعالى:﴿الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾([5])، وقد جاءت جملة (لكم) مع لفظ الفعل نفسه في سورة النمل قال تعالى:﴿ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾([6])، وأجاب ابن الزبير عن الحالتين بقوله:" أنّ آية إبراهيم قد تقدّمها قوله

---

[1]– سورة الشورى: الآية/11 .

[2]–القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 324/9.

[3]– سورة يونس: الآية/50 .

[4]– القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 350/8.

[5]– سورة إبراهيم: الآية/32.

[6]– سورة النمل: الآية/61.

تعالى:﴿قُلْ لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾، وقد علم المؤمنون أنّ الله غني عن العالمين، وأنّ المنزّل من ماء السماء إنّما هو رحمة للعباد وإحيــاء لــلأرض بعــد موتها، ليخرج ما بث فيها سبحانه من أنواع الحبوب والثمرات وغير ذلك ممــا بــه صلاح أحوال العباد وتتميم معائشهم، ولم يغب عن المؤمنين المــذكورين قبــل أن ربهم غني ذلك كله ومنفرد بخلقه والإنعام به، فلم يحتج هنا إلى تنبيههم بأن ذلك لهم إذ حالهم التذكر وموالاة الاعتبار لا الغفلة، وأخّر ذكر ذلك إلى ذكر الرزق ليجــري مع قوله في الزينة والطيب من الرزق:﴿قُلْ هي للذين آمنُوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة﴾، أمّا آية النّمل فقد تقدّمها قوله تعالى:﴿ءَآللهُ خيرٌ أمَّا يشركون﴾، فلمّــا تضمنت تعنيفاً للمشركين على سوء مرتكبهم وعماهم عن التفكر والاعتبــار قــصد تحريكهم وإيقاضهم من رقدة الغفلة، فقيل:﴿وأنزل لكم﴾، فحصل تنبيههم وإعلامهــم أن إنزال الماء من السماء إنما هو لهم وإنه لا حاجة به سبحانه إليه، فاستجر الكلام تعنيفهم، ويشهد لهذا قوله تعالى عقب الآية:﴿ما كان لكم أنْ تُنْبِتُوا شجرها أإله مــع الله بل هم قومٌ يعدلون﴾؛ أي يعدلون بربهم غيره ويعدلون بعبادته إلى عبادة غيــره، وكلّ هذا شرك لا فلاح معه"([1])، ويلاحظ أنّ ابن الزبير في إجابتــه عــن التقــديم والتأخير في الآيات التي تشابهت أو تكررت ألفاظها، قد لجأ إلى ربط الآيات بعضها ببعض من جهة، وربط السور ذوات الحروف المقطّعة خاصّة من جهة أخرى، كما أنه وضّح الآيات المتقدمة بالآيات التالية، وكأنه يفسّر القرآن بالقرآن من خلال هــذا الربط، ولعل أهم ما جاء عند ابن الزبير في تعليله للتقديم والتأخير هو التأكيد علــى الموضوع المحوري المركزي في السور ذوات الحروف المقطّعة وهو (الوحدانيّة)، سواء أكان هذا المحور واضح بلفظ الآية السابقة من سورة النّمل أم من خلال كلام ابن الزبير نفسه .

التكــرار: تكرار حرف الراء في مجموعة هذه المجموعة:(عنصر تماسك)؛ إذ أقرّ القدماء والمحدثون أنّ السورة والنصّ إنما يبنيان على الحروف المستلهة بها السورة أو الجملة الأولى في النص.

---

[1]- ابن الزبير: ملاك التأويل، 2/ 716،717 .

تكرار الكلمات: أرسل، أرسلنا، المرسلون، أرى، الرؤيا، بشير، البشرى، إذ جاءت هذه الكلمات في نصوص كثير من مجموعة هذه السور، وتكرار أسماء الله الحسنى: الغفور، الرحيم، حكيم، عليم، المحيي المميت، الوارث، وقد تكررت هذه الكلمات في نصوص هذه السور بكثرة.

العطف: و(ضائق) عطف على (تارك) فهو وفاعله جملة خبر عن (لعلّك) فيتسلط عليه التفريع([1]).

البدل: ومن العلاقات النحوية الرابطة البدل، ومن ضروبه بدل جملة من جملة: قال تعالى:﴿ قَالَ الكافرون إنّ هذا لساحر مُّبِينٌ ﴾، قال ابن عاشور:"هذه الجملة بدل اشتمال من جملة:﴿ أكان للناس عجباً﴾ ، ووجه هذا الإبدال: أن قولهم هذا ينبئ عن بلوغ التعجب من دعوى الوحي والرسالة من نفوسهم مزيد الإحالة والتكذيب حتى صاروا إلى القول:﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾([2]) أو﴿إن هذا لساحِر مبين﴾ فاسم الإشارة راجع إلى ما تضمنته جملة:﴿أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا﴾ .

وقرأه الجمهور (لسِحْر) بكسر السين وسكون الحاء على أن المراد به الحاصل بالمصدر، أي أن هذا الكلام كلام السحرِ ، أي أنه كلام يُسحر به، فقد كان من طرق السحر في أوهامهم أن يقول الساحر كلاماً غير مفهوم للناس يوهمهم أن فيه خصائص وأسماء غير معروفة لغير السحرة، فالإشارة إلى الوحي"([3]) .

ب- العلاقات والعناصر الدلالية:

المناسبة بين سور هذه المجموعة .

إنّ أول ما سنقف عنده من عناصر التماسك النصيّ ضمن المستوى الدلالي لمجموعة هذه السور من خلال العنوانات التالية:

المناسبة بين عنوان السور ومضمونها:

إنّ أهم ما يميّز هذه المجموعة من السور باستهلالها بهذه الحروف بالإضافة إلى تماثلها في نوع الاستهلال وكميته أمران، الأول: أنّ هذه الحروف شكلّت في

---

[1]- ابن عاشور:التحرير والتنوير: 10/16،17.

[2]- سورة يونس:الآية/76 .

[3]- ابن عشور التحرير والتنوير: 6/421.

مستهل كل سورة مع ما يليها من كلمات الآية الأولى منها، أي أنها لم تشكل وحدها آية كما شكلّت مجموعة (الم) وغيرها من السور ذوات الحرفين والخمسة، والأمر الثاني: أنّ هذه السور قد عنونت باسم رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام، ما خلا سورة واحدة منها سميت بسورة (الحجر)، فرغم أنها تماثلت مع هذه المجموعة بهذه الحروف، إلا أنها اختلفت معها في التسمية، ويظهر أن عدم تسميتها باسم أحد الرسل لا يعني أنها مختلفة معها، إذا ما عرفنا أنّ أصحاب الحجر – وهم قوم ثمود – قد أرسل الله عزّ وجل نبيّه صالحاً عليه السلام، وقد خُصّوا بآية بيّنة أتاهم بها رسول الله عليه السلام، وهم الذين طلبوا هذه الآية (الناقة) بألسنتهم، فأخرجها الله لهم بدعاء نبيهم عليه السلام من صخرة صمّاء، إلا أنهم ظلموا أنفسهم بتكذيب رسولهم وقتلهم لها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنهم اختصوا دون غيرهم من الأمم بالقوة، فلجأوا إلى نحت بيوت في الجبال دون حاجة إلى ذلك، فهم آمنون مطمئنون، لكنهم فعلوا ذلك أشراً وبطرا وعبثاً ([1])، فكان ما كان من عقابهم على فعلتهم التي فعلوا . فلمّا كذّبوا رسولهم حُمِلَ التكذيب على تكذيب جميع الرسل؛" لأنّ منْ كذّب واحداً منهم فكأنما كذّبهم جميعاً، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين"([2]). ولهذا كان الانصراف إلى تسمية السور باسم (الحجر)، لما تميز به أصحاب الحجر من تكذيب للرسل وعقر للناقة ونحت للبيوت من الصخر (الحجارة)، وفي هذا تناغم وانسجام بين اسم السورة وطبيعة الجبال التي ينتحون منها لا فيها، بدلالة الآية من السورة نفسها، قال الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ*وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ*وكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴾([3])، ومن هنا يظهر أنّ تسمية السورة يراعى فيه الحدث الأبرز، كما في تسمية سورة البقرة بالبقرة، ولقد ذكر الزركشي وغيره مراعاة الأحداث البارزة، التي كانت معتبرة في عنوان السورة ([4]) .

---

[1]– انظر: ابن كثير : تفسير القرآن العظيم: 545/4.

[2]– الزمخشري: الكشاف، 564، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: 545/4 .

[3]– سورة الحجر: الآيات:80–82.

[4]– الزركشي: البرهان في علوم القرآن/269–272.

كما أنّ ورود قصص لكثير من الرسل في هذه السورة، كان له دور في عدم تسمية السورة باسم سيدنا صالح، فاجتمع الأمران: أمر أصحاب الحجر، وأمر ذكر الرسل وقصصهم في السورة ، فكان الانصراف إلى تسمية السورة بهذا الاسم أولى وأنسب من تسميتها باسم صالح عليه السلام، أو تسميتها باسم رسول آخر، فالتسمية بأصحاب الحجر متضمنة لمعنى تسميتها باسم صالح عليه السلام، فماثلت ــ كما يبدو ــ هذه المجموعة في الاستهلال من هذا الباب .

وقد تميزت هذه المجموعة من السور، في نوع الاستهلال (الر) وعنوان أربعة سور منها وهو اسم رسول من الرسل، ويبدو أنّ دلالة حرف الراء على معنى (رسول) مجرداً من أل التعريف، أو مستحضراً فحذف لدلالة اسم الرسول عليه لتسميتها باسمه؛ (الرسول؛ يونس، إبراهيم، هود، يوسف، عليهم السلام)، فحصلت المطابقة والتماسك بين عنوان السورة والمعنى المتأوّل بدلالة الالتزام أو التضمن لفظة رسولٍ، وهذا المعنى الأول المتأوّل (رسول) وهو ما عنونت السورة باسمه، يبدو وارداً من الجانب التصوّري، وهو تأويل منسجم مع تفسير ابن عبّاس وغيره لحرف الميم في سورة البقرة، بأنه من رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الرسل والأنبياء، وكذلك انسجام حرف الراء الأخير من اسم السورة (الحجر) مع الراء في (الر) تطابقاً لفظاً وموقعاً، أم أنّ هنا أمراً مشتركاً لهذه المجموعة وراءه اشتراكها بالحرف الثالث منها بشكل خاص، (أرى، رؤية، بشير، بشرى، نذير...ولقد تأوّل ابن عباس رضي الله عنهما لهذه الحروف، جملة تضارعت في عدد كلماتها الثلاثة، وفي تطابق اللفظتين الأولى والثانية، مع الجملتين اللتين تأولهما لفواتح سورتي البقرة والأعراف؛وهما (أنا الله أعلم و أنا الله أفصل)، إذ تأوّل لـ (الر) جملة (أنا الله أرى) ومن المحدثين منْ تأوّل كلمات لحرف الراء نحو: البشرى، الرؤيا([1]).

---

[1]– انظر :عبد الجليل، براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور،211-223 .

المناسبة أو التماسك بين مضمون السور واستهلالها بالحروف المقطّعة.

ما نقصده بالمناسبة بين مضمون هذه السور واستهلالها بالحروف المقطّعة، هو المناسبة بين المعاني الكثيرة؛ اللفظية وغير اللفظية التي تُؤّلتْ للحروف المقطعة، وبين المعاني التي تضمنتها بنى نصوص هذه السور، ولقد مرّ بنا معنى الإحاطة والشمول لهذه الحروف، ودلالتها على أسماء الله الحسنى، ودلالتها على الوحدانية، ودلالتها العلم والغيب، ودلالتها على أفعال الأمر، ولعل كلام البقاعي يعضد ما ذُكر لهذه الحروف من تأويلات من خلال تفسيره لآخر آية من سورة (هود) بقوله:" ولما تضمن هذا التهديد العلم والقدرة، قال عاطفاً على ما تقديره: فلله كل ما شوهد من أمرنا وأمركم وأمر عالم الغيب والشهادة كله ما كان من ابتداء أمورنا (ولله) أي المحيط وحده بكل شيء مع ذلك (غيب السماوات والأرض) أي جميع ما غاب علمه عن العباد فهو تام العلم، ومنه ما ينهى عنه وإن ظن الجهلة أنه خارج عن قدرته لما أظهر من الزجر عنه ومن كراهيته "([1]) .

وهذه المعاني تضمنها بعض الألفاظ في الآيتين الأوليتين من سورة (إبراهيم)، فقد أشار البقاعي إلى قسم منها من خلال قوله تعالى:﴿ إلى صراط العزيز ﴾ الذي تعالى عن صفات النقص فعزّ عن أن يدخل أحد صراطه الذي هو ربه، أو يتعرض أحد إلى سالكه بغير إذنه (الحميد) المحيط بجميع الكمال، فهو المستحق لجميع المحامد لذاته وبما يفيض على عباده من النعم التي يربيهم ويتحمد إليهم بها على كل حال ، فكيف إذا سلكوا سبيله الواضح الواسع السهل، ولما أضاف طريق النجاة إلى وصفين يجوز إطلاق كل منهما على الخلق ، بينهما باسمه الشريف العَلم على الاستئناف في قراءة نافع وابن عامر بالرفع . وعلى أنه عطف بيان في قراءة الباقين بالجر لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لاختصاصه بالمعبود بحق ووصفه بما اقتضى توحيده ، فقال(الله) أي المحيط علماً وقدرة (الذي له ما في السماوات)

---

[1]- البقاعي: نظم الدرر، 592/3 .

أي الأجسام العالية من الأراضي وغيرها، ولما كان في سياق الدلالة على الخالق وإثبات توحيده"([1]) .

وقد أشار البقاعي إلى هذه المعاني وهو يفسّر أواخر سورة (إبراهيم) ويربطها بأولها بقوله:" ولما تمّت الإشارة إلى الدين أصلاً وفرعاً، نبّه على المواعظ والأمثال بتذكر ما له من الآيات والمصنوعات، والبطش بمن خالفه من الأمم، وأشار إلى أن أدلة الوحدانية والحشر لا تحتاج إلى كبير تذكر، لأنها في غاية الوضوح ولا سيما بعد تنبيه الرسل، فأدغم تاء التفعل، فقال:(وليذكر) أي منهم (أولوا الألباب) أي الصافية، والعقول الوافية، فيفتحوا عيون بصائرهم فيعلموا أنّه لا وصول لهم مع الغفلة فيلزموا المراقبة فلا يزالوا في رياض المقاربة، ويعلموا ـ بما ركز في طبائعهم وجرى من عوائدهم ـ أن أقل حكامهم لا يرضى بأن يدع رعيته يتهارجون لا ينصف بينهم ولا يجزى أحداً منهم بما كسب، فيكون ذلك منه انسلاخاً من رتبة الحكم التي هي خاصته، فكيف يدعون ذلك في أحكم الحاكمين، فقد تكفلت هذه الآية على وجازتها بجميع علم الشريعة أصولاً وفروعاً، وعلم الحقيقة نهايات وشروعاً، على سبيل الإجمال وقد انطبق آخر السورة على أولها، لأن هذا عين الخروج من الظلمات إلى النور بهذا الكتاب الحامل على كل صواب "([2]) .

المناسبة بين فواتح السور وخاتمة السور التي قبلها:

إنّ ارتباط أوائل سورة (يونس) بخواتيم السور التي قبلها، ليس مقصوراً على ارتباطها بالسورة التي قبلها فحسب، بل لا بدّ من ربطها بسورة أُستهلت بحروف مقطّعة أولاً وهي سورة الأعراف؛ لأنّها السورة التي أُستهلت بحروف مقطعة، ولم يأتِ بعدها سورة أُستهلت بحروف مقطّعة مباشرة، بل جاءت بينها وبين سورة يونس التي أُستهلت بحروف مقطّعة، سورتان لم تستهلا بحروف مقطّعة، وهما سورتا الأنفال والتوبة، فأهم ما يمكن الاستشهاد به في ارتباط سورة يونس بالسور الثلاثة قبلها، ما ذكره البقاعي في نظم الدرر فقال:" لما قدم في أول الأعراف الحث

---

[1]- البقاعي: نظم الدرر: 166/4.

[2]- المرجع نفسه: 394/4 .

على إبلاغ النصيحة بهذا الكتاب وفرغ مما اقتضاه السياق من التحذير من مثل وقائع الأولين ومصارع الماضين، ومما استتبع ذلك من توصيل القول في ترجمة هذا النبي الكريم مع قومه في أول أمره وأثنائه وآخره، في (سورتي الأنفال وبراءة) وختم ذلك بأنّ سور الكتاب تزيد كل أحد مما هو ملائم له متهيئ لقبوله وتبعده عما هو منافر له بعيد من قبول ملاءمته...أعاد سبحانه القول في شأن الكتاب الذي افتتح به الأعراف وختم سورة التوبة، وزاده وصف الحكمه وأشار بأداة البعد إلى أن رتبته فيها بعيدة المنال بديعة المثال فقال: " تلك "، أي الآيات العظيمة جداً التي اشتملت عليها هذه السورة، أو السور التي تقدمت هذه السورة، أو هذه الحروف المقطعة المشيرة إلى أن القرآن كلام الله، وإلا لما أعجز القادرين على التلفظ بهذه الأحرف" آيات الكتاب" أي الذكر الجامع لكل خير"([1]).

ومن أمثلة الربط عن طريق المناسبة بين الآيات، ارتباط أوائل سورة (يوسف) بسورة (هود) ما ذكره البقاعي بقوله:"وأما مناسبة الأول للآخر، فإنّه تعالى لمّا أخبر في آخر تلك بتمام علمه وشمول قدرته، دلّ على ذلك أهل السبق من الفصاحة والفوت في البلاغة في أول هذه بما فعل في كلامه، من أنّه تعالى يقدر على أن يأتي بما تذهب الأفهام والعقول ـــ على كرّ الأزمان وتعاقب الدهور وتوالي الأيام وتمادي الليالي ـــ في معناه كل مذهب وتطير كل مطار مع توفر الدواعي واستجماع القوى، ولا تقف من ذلك على أمر محقق ولا مراد معلوم، وعلى أن يأتي بما يفهم بأوائل النظر أدنى معناه فهما يوثق بأنه مراد، ثم لا يزال يبرز منه من دقائق المعاني كلما كرّر التأمل وتغلغل الفهم إلى حد يعلم أنه معجوز عن كل ما فيه من جليل معانيه ولطيف مبانيه فقال تعالى:﴿الر﴾([2]) .

المناسبة بين فواتح السور وخواتيمها:

إنّ خواتيم سورة يونس ليست مرتبطة ومتعالقة مع فواتح السورة حسب، بل مرتبطة ومتعالقة دلالياً لوحدة موضوع التخاطب مع مضمون السورة، سواء أكان

---

[1]- البقاعي: نظم الدرر: 411/3، 412.

[2]- سورة يوسف: الآية/1، البقاعي: نظم الدرر، 498/3.

هذا الترابط والتعالق من خلال الحديث عن الموضوعات التي تحدثت عنها السورة وغيرها من السور ذوات الحروف المقطّعة، أو تعالقها في مضمون ما تفضي إليه، فتؤول إلى محور رئيسي وهو الإقرار بالوحدانية لله تعالى بالربوبية والإلوهية، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾([1]) .

إنّ محور الوحدانية الذي تضمنته خواتيم سورة يونس، قد دلّت عليه كلمات وأفعال لفظاً ومعنىً، فمن هذه الكلمات (ديني، أعبد، الله، الذي يتوفاكم"، فالدين المعرّف بإضافته إلى ضمير (الياء)، الذي يحيل إحالة خارجية إلى الرسول عليه السلام دلّ عليه السياق، والدين الذي يقصده بإضافته إليه هو دين الإسلام .

المناسبة بين الآيات.

قال الله تعالى: ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ*إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ*وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾([2])، تبين تناسب قوله تعالى:(إنّ الذين حقت)، مع التي قبلها بما من خلال معنى التشكيك الذي تضمنته الفعل المسند إلى ضمير الرفع الذي فسّره الاسم (الخاسرين)، إذ:" لما سبق التعريض إلى المشركين الشاكّين في صدق النبي صلى الله عليه وسلم والاستشهاد عليهم في صدقه بشهادة أهل الكتاب أعقب ذلك بأنهم من زمرة الفرق الذين حقت عليهم كلمة الله أن لا يؤمنوا، فهم لا تجدي فيهم الحجة لأنهم أهل مكابرة، وليسوا طالبين للحق؛ لأنّ الفطرة التي فطرت عليها عقولهم غيرُ قابلة لحقائق الإيمان، فالذين لم يؤمنوا بما يجيء من الآيات هم ممن علم الله أنهم لا يؤمنون، تلك أماراتهم"([3]).

---

[1]- سورة يونس: الآية/104، وانظر: الآيات (105- 109) .

[2]- سورة يونس: الآيات/96،،95،97.

[3]- البقاعي: نظم الدرر:127/6.

إحالات أسماء الإشارة والضمائر في هذه السور.

تشمل هذه الإحالات إحالات الضمائر وإحالات أسماء الإشارة، ويظهــر أنّ عناصر الإحالة الضميرية أو عناصر الإحالة الإشارية لكل عنصر مــن عناصــر الصنفين، يتمع بالقوة حضوراً في بنية النصّ- بقطع النظر عن مكان تواجده منها- ما تجعله يحيل للسابق وللاحق أو للقريب أو للبعيد، أما العناصر الشكلية وما تؤديه من معاني نحوية وظيفية للقريب كصور التوابع والإضافة، بعــضها لا يــؤدي إلا وظيفة إما للاحق وإما للسابق.

أ ــ أسماء الإشارة:

تلك: قال الله تعالى:"الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ "([1])، يحيل اسم الإشارة (تلك) إحالة قبلية وبعدية كما هو الشأن في إحالة اسم الإشارة (ذلك) في أول سورة البقرة؛ أيّ إلى القرآن الكريم كلّه حتّى، جعلوه يحيل إلى القرآن الذي في اللــوح المحفــوظ وهو الذي وُعد به سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وفي هذا السياق الإحالي نجــد الرازي يقرر هذا بشكل صريح، إلى الاحتمالات الإحالية التي تحصلّت له من اســم الإشارة، الاحتمال الأول:أن يقال:المراد من لفظة (تِلْكَ)، الإشــارة إلــى الآيــات الموجودة في هذه السورة، فكان التقدير تلك الآيات هي آيات الكتاب الحكيم الذي هو القرآن، وذلك لأنه تعالى وعد رسوله عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليه كتابــاً لا يمحوه الماء، ولا يغيره كرور الدهر، فالتقدير أن تلك الآيات الحاصلة فــي ســورة (الر) هي آيات ذلك الكتاب المحكم الذي لا يمحوه الماء، والاحتمال الثاني، أن يقال: المراد أن تلك الآيات الموجودة في هذه السورة هي آيات الكتاب المخزون المكنون عند الله، الاحتمال الثالث والرابع: أن يقال: لفظ " تِلْكَ " إشارة إلى مــا تقــدم هــذه السورة من آيات القرآن، والمراد بها: هي آيات القرآن الحكيم، والمراد أنهــا هــي آيات ذلك الكتاب المكنون المخزون عند الله تعالى، أن قوله: الر"إشارة إلى حروف التهجي، فقوله:"الر تِلْكَ آيات الكتاب" يعني هذه الحروف هي الأشياء التــي جعلــت علامات لهذا الكتاب الذي آيات به وقع التحدي، فلولا امتياز هذا الكتاب عن كــلام

---

[1]- سورة يونس: الآية/1 .

الناس بالوصف المعجز، وإلا لكان اختصاصه بهذا النظم، دون سائر الناس القادرين على التلفظ بهذه الحروف محالاً "([1])

وفي سورة الحجر نجد اسم الإشارة (تلك) أيضاً وقد أحال إلى ما أحال إليه اسم الإشارة في سورة يونس، ولقد كرر هذه الإحالة الرازي وهو يربط إحالة اسم الإشارة (تلك) ودلالة لفظة الكتاب في سورة الحجر، بالذي أحال إليه اسم الإشارة (ذلك)، وبدلالة لفظة الكتاب التي وردت في سورة البقرة :"ذلك الكتاب"، قال الرازي:"اعلم أنّ قوله: "تِلْكَ " إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات. والمراد بالكتاب والقرآن المبين الكتاب الذي وعد الله تعالى به محمداً صلى الله عليه وسلم وتنكير القرآن للتفخيم، والمعنى: تلك الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل في كونه كتاباً وفي كونه قرآناً مفيداً للبيان"([2]) .

ذلك: ورد اسم الإشارة وقد أحال كما يبدو إحالتين ذاتيتين إلى لفظي الجلالة (ربّ و الله)، فالإحالة الأولى إحالة اسم الإشارة إلى لفظ ربّ المضاف إليه كاف الخطاب وضمير الجمع (الميم)، إحالة قبلية متطابقة إلى اللفظ وهو في بنيته المذكورة (ربكم) في أول الآية من قوله تعالى:" إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ"([3]) . وأحال إحالة بعدية متطابقة إلى لفظ الجلالة (الله) بعده، فالمبتدأ والخبر في جملة (ربكم الله) قبول (إنّ)، وجملة (الله ربكم) محتواها القضوي واحد، وورد الجمع بين اللفظين في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى :" إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ"([4]).

---

[1]- الرازي: مفاتيح الغيب: 194/8، 195.

[2]- الرازي: مفاتيح الغيب:267/9 .

[3]- سورة آل عمران: الآية/ 51، وانظر السور التالية: الأنعام: الآية/102، مريم: الآية/36 الزخرف: الآية/64 .

[4]- سورة يونس: الآية/3 .

ب ــ إحالات الضمائر.

ما يحيل إلى لفظ الجلالة:

(نا): ضمير المتكلّم بصيغة الجمع في قوله تعالى:﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾([1])، أي أوحينا نحن .

(هو): وقد ورد محذوفاً وورد مذكوراً، في مواضع كثيرة في هذه السورة، ومن ذلك قوله تعالى:" هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ "([2])، أحال الضمير (هو) المسند إليه، إحالة قبلية ذاتية متطابقة إلى لفظ الجلالة (الله)، ست مرات في الأفعال المسندة إليه وهي: خلق، استوى، يدبر، يبدأ، ليجزي، يعيده، جعل، قدّره، يُفصّل)، وذلك ابتداءً من قوله تعالى:" إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ "([3]).

ضمير الغائب (الهاء): وورد مذكوراً؛ مضافاً إليه ومفعولاً به واسماً لـ (إنّ) في عدد من الكلمات، وقد أحال إحالة قبلية ذاتية متطابقة إلى لفظ الجلالة (الله)، وهذه الكلمات هي(إذنه، فاعبدوه،إليه، إنّه).

ومن ضمير الغائب في قوله تعالى:" فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ"([4])، ومعظم المفسرين جعلوا ضمير (به) عائداً إلى (بعض ما يوحى إليك)، على أن ما يوحى إليه سبب لضيق صدره، أي لا يضيق له صدرك، وجعلوا (أن يقولوا) مجروراً بلام التعليل مقدرة، وعليه فالمضارع في قوله:(أن يقولوا) بمعنى المضي لأنهم قالوا ذلك، واللام متعلقة بـ (ضائق) وليس المعنى عليه بالمتين، وإنزاله: إتيانه من مكان عَالٍ أي من السماء .

---

[1]– سورة يونس: الآية/2 .

[2]– سورة يونس: الآية/3.

[3]– سورة يونس: انظر: الآيات ، 3–6.

[4]– سورة هود: الآية/12.

أنت: جاء هذا الضمير محذوفاً في عدد من الآيات وهو يحيل إحالة خارجية ذاتية منطابقة، إلى المخاطب المفهوم من سياق الآيات، والمخاطب هنا هو (الرسول عليه السلام) .

أنا: وورد كذلك محذوفاً في قوله تعالى:" قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون"([1])، إذ ورد مضمراً مسنداً إليه في الفعلين (تلوته، لبثتُ).

ما يحيل إلى الكتاب (القرآن). تنوعت أسماء الإشارة والضمائر التي تحيل إلى لفظة الكتاب أو القرآن، فأحالت إليه أسماء الإشارة والضمائر ملفوظة ومحذوفة، ومن ذلك ما يلي:

هذا: جاء في قوله تعالى:"ائتِ بقرآن غير هذا"، وقد أحال اسم الإشارة إحالة قبلية ذاتية متطابقة إلى الاسم (قرآن) المذكور قبله، وكذلك ضمير الغائب (الهاء) في الأفعال (تلوته، به، قبله) ويحيل الضمير إحالة قبلية إلى القرآن في قوله تعالى:" ائت بقرآن غير هذا أو بدّله".

الإحالة الخارجية: تعددت الضمائر التي تحيل إحالة ذاتية خارجية متطابقة، إلى غير مذكور في النصّ، كما جاء ذكر الاسم الموصول (التي) قبل هذه الضمائر فأحال إلى ما أحالت إليه الضمائر، وجاء هذا التعدد في الآيات التالية من سورة يوسف، قال تعالى:﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ *وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾([2]).

---

[1]- سورة يونس: الآية/16.

[2]- سورة يوسف: الآيات (23–27) .

فالاسم الموصول (التي) والضمائر المذكورة والمحذوفة التي في الأسماء والأفعال (بيتها، وغلّقت، وقالت، همّت، بها، وقدّت، سيدها، قالت، هي، أهلها، فصدقت، فكذبت)، كلّها تحيل إحالة ذاتية خارجية إلى امرأة العزيز، التي لم يرد لها ذكر صريح في النصّ، قال السامرائي:" قد يستغنى عن المفسَّر في اللفظ بما يدل عليه حساً، واستشهد على ذلك بقوله تعالى:" قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي"، وقوله تعالى:" وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا"، فالضمير يعود على امرأة العزيز ولم يتقدّم لها ذكر صريح فهو مدلول عليه حساً"([1]).

إحالة الأسماء الموصولة:

ومن ذلك الاسم الموصول (الذي) الذي يحلي إلى خارج النصّ، إذ لم يرد للمحال إليه ذكر صريح ، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى:"وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ"([2]) .

وذكر السيوطي إحالة الاسم الموصول إلى ذاك المذكور بقوله:" قال ابن عباس كان اسمه قطفير وقال ابن اسحاق اطفير"([3]).

كما أنّ الضمير (الهاء) في (لامرأته) يحيل إحالة ذاتية متطابقة خارجية إلى الاسم الذي أحال إليه الاسم الموصول نفسه.

الاستبدال: لقد تعددت صور الاستبدال بين المفردات اللغوية على اختلاف بنيتها الصوتية وصيغتها الصرفية ومعانياها النحوية، ولمعرفة بعض صور هذا التعدد لهذا العنصر نمثّل على النحو التالي:

الاستبدال بين المشتقات التي صيغت من أفعال مجردة ومزيدة: ومما جاء منه استبدال اسم المفعول بالصفة المشبهة، ففي سورة يونس أكثر من موضع لهذا الاستبدال، إذ استبدل في الآية الأولى منها اسم المفعول المُحكَم من أحكم بالصفة

---

[1]- السامرائي: معاني النحو، 59/1.

[2]- سورة يونس: الآية/106 .

[3]- السيوطي: مفحمات الأقران في مبهمات القرآن، 61.

المشبهة الحكيم من حكَمَ، قال الطبري:" ومعنى (الحكيم)، في هذا الموضع، "المحكم"، صرف "مُفْعَل" إلى "فعيل"، كما قيل:(عَذَابٌ أَلِيمٌ)، بمعنى مؤلم"([1]).

ومنه الاستبدال بالفعل الدّال على عموم الأحداث، ومنه ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾([2]).

إذ استبدل الفعل (تدعُ) في صيغة النهي بوزن الفعل نفسه، (فعلت) المسبق بأداة الشرط، ويلاحظ ظهور ضمير الخطاب (التاء) من (فعلت)، وقد استتر مع (تدعُ)؛ أي بتقدير (أنت)، مما يُعزّز مسألة الحروف التي قد تنبىء عن كلمة أو معنى عندما يقتطع منها حرف أو أكثر، (أنت) المستتر دلّت عليه (التاء) ضمير (فعلت) .

ومنه استبدال اسم المفعول بالصفة المشبهة بصيغة (فعيل) في قول الله تعالى:﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾([3])، إذْ استبدل لفظة محموم وهي اللفظة الأصل على وزن مفعول، بلفظة حميم ووزنها فعيل، والحميم بمعنى المحموم ، قال الطبري:" و"الحميم" هو الحارّ، في كلام العرب، وإنما هو"محموم" صرف إلى"فعيل"([4])، ويبدو من خلال هذا الاستبدال جعل صفة هذا الشراب وهو شدة الحرارة صفة ثابتة له، قال الراغب الأصفهاني :" الحميم: الماء الشديد الحرارة ...

ومنه استبدال الصفة المشبهة (ضيّق) باسم فاعل (ضائق) ، نحو استبدال ضيّق بـ (ضائق) اسم فاعل من ضاق، في قوله تعالى:﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى

---

[1]- الطبري: جامع البيان: 12/15.

[2]- سورة يونس: الآية/3.

[3]- سورة يونس: الآية/ 4.

[4]- الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، 448/11 .

إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾([1]) .

قال ابن عاشور:" وإنما عدل عن أن يقال (ضيّق) هنا إلى (ضائق) لمراعاة النظير مع قوله: (تارك)؛ لأنّ ذلك أحسن فصاحة، ولأنّ (ضائق) لاَ دَلالَة فيه على تمكّن وصف الضيّق من صدره بخلاف ضيّق، إذ هو صفة مشبهة وهي دالة على تمكن الوصف من الموصوف، إيماء إلى أنّ أقْصَى ما يتوهّم توقعه في جانبه صلى الله عليه وسلم هو ضَيْق قليل يعرض له، والضيق مستعمل مجازاً في الغم والأسف، كما استعمل ضده وهو الانشراح في الفرح والمسرة"([2]).

ومنه استبدال الاسم العلم بالاسم الموصول: نحو استبدال اسم امرأة العزيز بالاسم الموصول (التي)، في قوله تعالى:﴿التي في بيتها﴾.

ومنه الاستبدال بين(فاعل ومفعول): إذ استبدل اسم المفعول (معصوم) باسم الفاعل (عاصم)، وجاء في قوله تعالى:﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾([3])، أي لا معصوماً من عذاب الله إلا نوحاً عليه السلام ومن معه؛ لأنّ الله هو وحده العاصم، فلا (عاصم) يعصم أحداً عندما يأتي أمر الله، ولا أحد يلطف بأمره إلا هو سبحانه وتعالى، وفي الآية معنىً يؤكد على محور الوحدانية لله تعالى.

وجعل ابن جنّي مثل هذا الاستبدال، إنّما هو تفسير على المعنى، قال في الخصائص:" فأما تفسير أهل اللغة أن استاف القوم في معنى تسايفوا فتفسير على المعنى، كعادتهم في أمثال ذلك، ألا تراهم قالوا في قول الله عزّ وجل " من ماء دافق ": إنه بمعنى مدفوق، فهذا – لعمري – معناه، غير أنّ طريق الصنعة فيه أنه ذو دفق كما حكاه الأصمعي عنهم من قولهم: ناقة ضارب إذا ضربت، وتفسيره أنها ذات ضرب أي ضربت"([4]) .

---

[1]– سورة هود: الآية/12 .

[2]– ابن عاشور: التحرير والتنوير: 7/ 103.

[3]– سورة هود:الآية/43 .

[4]– ابن جني: أبي الفتح عثمان، الخصائص،152/1، ت/ محمد علي النجار، المكتبة العلمية.

علاقة الملابسة أو السببية: جملة (إنّمَا أنْتَ نَذير) في موقع العلّة للتحذير من تركه بعض ما يوحى إليه وضيق صدره من مقالتهم، فكأنه قيل لا تترك إبلاغهم بعض ما يوحى إليك ولا يضق صدرك من مقالهم لأنك نذيرٌ لاَ وَكيل على تحصيل إيمــانهم، حتى يترتب على يأسك من إيمانهم تركُ دعوتهم"([1]).

العطف: ومنه عطف جملة على جملة بحرف الواو، ومنه قوله تعالى:﴿ وَاللّه عَلَــى كُلّ شَيْء وَكِيل﴾، قال ابن عاشور:"... معطوفة على جملة ﴿ إنمــا أنــت نــذير﴾؛ لينتقل من ذلك العموم إلى تسلية النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله مطلع على مكر أولئك، وأنه وكيل على جزائهم وأن الله عالم ببذل النبي جهده في التبليغ([2]) .

وكذلك العطف بـــ (أم) وجاء في الآية بعدها:" أم يقولون افتراه ".

التفريع:وجاء هذا التفريع بواسطة حرف (الفاء)، قال ابن عاشــور:" تفريــع علــى قولِه:﴿وَلَئِنْ قُلْت إنّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْد الْمَوْت إلَى قوله يَسْتَهْزِئُون﴾([3])، مــن نكــر تكذيبهم وعنادهم، يشير هذا التّفريع إلى أنّ مضمون الكلام المفــرع عليــه ســبب لتوجيه هذا التوقع لأنّ منْ شأن المفرع عليه اليأس من ارعوائهم لتكــرر التكــذيب والاستهزاء يأساً قد يَبْعَثُ على ترك دعائهم ، فذلك كله أفيد بفاء التفريع([4]) .

الأفعال الكلامية: من الأفعال الكلامية غير المباشرة التي تم انجازها بأفعال مباشرة، وشكلّت مع غيرها محتوى قضوياً، جملة (لعلك تارك)، وجاء هــذا الانجــاز عــن طريق أسلوب التمني الذي يفيد التحذير، قال ابن عاشور:"والتوقع المستفاد من (لعل) مستعمل في تحذير من شأنه التبليغ، ويجوز أن يقدّر استفهام حذفت أداته، والتقدير: ألَعَلّكَ تارك، ويكون الاستفهام مستعملاً في النفي للتحذير، وذلك نظير قوله تعــالى: ﴿لَعَلّكَ بَاخِعٌ نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين ﴾([5]).

---

[1]- ابن عاشور: التحرير والتنوير: 7/ 65.

[2]- المرجع نفسه 7/ 73.

[3]- سورة هود:الآيتان/ 7،8

[4]- ابن عاشور: التحرير والتنوير: 7/ 81.

[5]- سورة الشعراء: الآية/ 3.

ويظهر من كلام ابن عاشور الآتي، صنف الأفعال الكلامية (التوجيهات) التي عدّها (سيرل)، الأفعال المتضمنة الطلب من المستمع أن يفعل شيئاً، إذ إنّ جملة (التحريك من همة المخاطب وإلهابُ همته لدفع الفتور عنه) هي بمعنى طلب فعل شيء من المستمع، قال ابن عاشور:"...والاستفهام كناية عن بلوغ الحالة حداً يوجِبُ توقع الأمر المستفهَم عنه حتى أنّ المتكلّم يستفهم عن حصوله، وهذا أسلوب يقصد به التحريك من همة المخاطب وإلهابُ همته لدفع الفتور عنه، فليس في هذا تجويز ترك النّبي صلى الله عليه وسلم تبليغ بعض ما يوحى إليه، وذلك البعض هو ممّا فيه دعوتهم إلى الإيمان وإنذارهم بالعذاب وإعلامهم بالبعث كما يدل عليه قوله تعالى في آية أخرى:﴿ وإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا﴾([1])، والمعنى تحذيره من التأثّر بعنادهم وتكذيبهم واستهزائهم، ويستتبع ذلك تأييسَ المشركين من تركه ذكر البعث والإنذار بالعذاب ، فالخطاب مستعمل في حقيقته ومراد منه مع ذلك علم السامعين بمضمونه"([2]).

الجمل المفسِّرة:

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى:﴿ أن أنذر الناس﴾ تفسير لفعل (أوحينا)، "وإنما اقتصر على ذكر هذا الموحى به لأن ذلك هو الذي حملهم على التكذيب إذ صادف صرفهم عن ضلاله دينهم وسمعوا منه تفضيل المؤمنين عليهم، وأيضاً في ذكر المفسِّر إدماج لبشارة المؤمنين بهذه المزية "([3]).

الجمل المعترضة: ومن ذلك قوله تعالى: "ذلكم الله ربكم " جملة "معترضة بين تلك الجمل وبين الجملة المفرعَة عليها، وهي جملة:(فاعبدوه)، وتأكيد لمضمون الجملة الأصلية وهي جملة:(إن ربكم الله) .

الجمل الاستئنافية: ومن ذلك قوله تعالى﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ

---

[1]- سورة الأعراف:الآية/ 203 .

[2]- ابن عاشور: التحرير والتنوير: 102/7.

[3]- المرجع نفسه: 6/ 420.

هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾([1])، قال ابن عاشور:" الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ لأنّ؛ جملة (تلك آيات الكتاب الحكيم)، بما فيها من إبهام الداعي إلى التوقف على آيات الكتاب الحكيم تثير سؤالاً عن ذلك الداعي فجاءت هذه الجملة تبيّن أن وجه ذلك هو استبعاد الناس الوحي إلى رجل من الناس استبعادَ إحالة، وجاءت على هذا النظم الجامع بين بيان الداعي وبين إنكار السبب الذي دَعا إليه وتجهيل المتسببين فيه، ولك أن تجعله استئنافاً ابتدائياً، لأنه مبدأ الغرض الذي جاءت له السورة ، وهو الاستدلال على صدق الرسول وإثبات البعث .

الزمن النحوي: ومنه صيغة الماضي للفعل (كان) المسبوق بهمزة الاستفهام التي أدّت معنى غير مباشر وهو التعجب، قال ابن عاشور:" وصيغة المضي من الاستقرار تحقيقاً لوقوع الوحي المتعجب منه وتجدده وذلك ما يزيدهم كمداً ... فالهمزة للاستفهام المستعمل في الإنكار، أي كيف يتعجبون من ذلك تعجب احالة، وفائدة إدخال الاستفهام الإنكاري على (كان) دون أن يقال: أعجِبَ الناسُ، هي الدلالة على التعجيب من تَعَجُّبهم المراد به إحالة الوحي إلى بَشر، والمعنى: أحدث وتقرر فيهم التعجب من وحينا؛ لأنّ فعل الكون يشعر بالاستقرار والتمكن فإذا عبر به أشعَرَ بأن هذا غير متوقّع حصوله"([2]).

الترتيب: وجاء من خلال الأفعال المسندة إلى لفظ الجلالة؛ لإقرار محور التوحيد، الإله الواحد الحق أولاً، بالمخلوقات التي أسند فعل الخلق إليه وحده، فلا خالق لها غيره كما أقرّ بذلك كلّ المتلقين، ثم إثبات أمر البعث والحشر ثانياً، وفي هذه الإثبات والترتيب يصرّح الرازي في تفسيره لقوله تعالى:" سورة يونس: الآيتان: 3،4. بقوله:" اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة، ثم إنه تعالى أزال ذلك التعجب بأنّه لا يبعد ألبتة في أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولاً يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب، وعلى الأعمال الباطلة الفاسدة بالعقاب ، كان هذا الجواب إنما يتم ويكمل بإثبات أمرين: أحدهما: إثبات أن لهذا

---

[1]- سورة يونس: الآية/1.

[2]- ابن عاشور: التحرير والتنوير 6/ 423.

العالم إلهاً قاهراً قادراً نافذاً الحكم بالأمر والنهي والتكليف. والثاني: إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء عن حصولهما، فلا جرم أنه سبحانه ذكر في هذا الموضع ما يدل على تحقيق هذين المطلوبين. أما الأول: وهو إثبات الإلهية، فبقوله تعالى:{ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض}. وأما الثاني: وهو إثبات المعاد والحشر والنشر. فبقوله:{ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ الله حَقّا "، يونس: 4، فثبت أن هذا الترتيب في غاية الحسن، ونهاية الكمال "([1]).

ومن أمثلة عنصر (الترتيب) قوله تعالى:﴿والجآنَّ خلقناه من قبل من نار السموم﴾ "(الحجر:27)، فسياق الآيات بقرينة (من قبل) تدلّ على الخلق المبكر للجآنّ قبل خلق الإنس.

التعريف والتنكير: قال ابن عاشور:"والكتاب: القرآن، فالتعريف فيه للعهد، ويجوز جعل التعريف دالاً على معنى الكمال في الجنس، كما تقول: أنتَ الرجل "وقوله:" واختيار وصف (الحكيم) من بين أوصاف الكمال الثابتة للقرآن؛ لأنّ لهذا الوصف مزيد اختصاص بمقام إظهار الإعجاز من جهة المعنى بعد إظهار الإعجاز من جهة اللفظ بقوله: "الر تلك آيات الكتاب الحكيم"، ولِما اشتملت عليه السورة من براهين التوحيد وإبطال الشرك، وإلى هذا المعنى يشير قوله بعد هذا:﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾([2]) .

الحذف: وفي الكلام حذف، والتقدير: أتأمنون أن ينزل بكم العذاب ثم يقال لكم إذا حل: الآن آمنتم به ؟ قيل: هو من قول الملائكة استهزاء بهم"([3]) .

ج- العناصر والعلاقات التداولية:

مما يتصل بهذا المستوى مخاطبة النصّ القرآني للمتلقين بما هو معروف عندهم، وقد جاء هذا الخطاب في قول الله تعالى:" اُذكرني عند ربّك"، قال

---

[1]- الرازي: مفاتيح الغيب:200/8 .

[2]- سورة يونس: الآية/16، وانظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير: 318/5،319.

[3]- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: 351/8.

القاسمي موضحاً للآية :" فإنّه خاطبه على المتعارف عندهم وعلى ما كانوا يسمّونهم به"([1]).

قال الطبري([2]):" وأصل"الزعيم" ، في كلام العرب: القائم بأمر القوم ، وكذلك"الكفيل" و"الحميل"، ولذلك قيل: رئيس القوم زعيمهم ومدبِّرهم. يقال منه:"قد زَعُم فلان زعامة وزَعامًا"، ومنه قول ليلى الأخيلية:

حَتَّى إِذَا بَرَزَ اللِّوَاءُ رَأَيْتَهُ... تَحْتَ اللِّوَاءِ عَلَى الخَمِيسِ زَعِيمَا

من قصيدة لها تعرض فيها بابن الزبير، وقبل البيت:

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ القَمِيصُ تَخَالُه ... وَسْطَ البُيُوتِ مِنَ الحَيَاء سَقِيمَا

3.1.3 الوحدة الموضوعية للسور ذوات الحروف المقطّعة (الر والمر).

سأذكر المحاور الرئيسة التي تحدثت عنها في هذه السور، وهي المحاور التي تتماس وتتعالق من خلال المحتوى القضوي، الذي يشكلّ به كل محور من المحاور قضية مركزية ذات موضوع واحد، إذْ يشكل كلّ محور يُنجز من خلال المحتوى القضوي، المتحقق بالحامل والمحمول والموضوع الجزئي، من خلال أداء وانجاز آية أو آيات أو فقرات، تؤدي إلى تحقيق محتوىً قضوياً يشكل قضية معينة، فذلك المحتوى وتلك القضية، ما كان لأحدهما أن يبرز ويتشكل لولا وجود النصّ (الرسالة) الذي تم تأدية وإنجازها لفظاً وتركيباً ودلالة، ويراعي النصّ في أدائه وانجازه لهذه المكونات أحوال المخاطب وظروفه وثقافته وأعرافه ومعارفه العامة والمكتسبة، فيكون النصّ أكثر تداولية وبراغماتية مع المتلقي ليحقق الغرض من رسالته ليقف المتلقي على قصديّة المتكلّم أو النصّ، من خلال الإلمام بالقضية التي يطرحها من خلال محتواها القضوي، بهدف التواصل والتفاعل مع تلك القضية لمعرفة قصدية النصّ .

---

[1]- القاسمي ، دلائل التوحيد، 70 .

[2]- الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن: 180/16

الموضوعات الرئيسة التي عالجتها هذه السور

الموضوع المحوري المركزي لمجموعة هذه السور

من خلال ما تقدّم من تحليل للسور القرآنية التي ذكرت قبل هذه السور، فإنّ محور (الوحدانية) هو المحور الذي يعدّ موضوعاً مركزياً لنصوص هذه السور، ولقد أقرّ المشركون من العرب بالوحدانية والربوبية لله وحده لا شريك لأحد فيها معه، وهذا المحور عبّرت عنه آيات كثيرة من مجموعة هذه السور، فمن هذه الآيات قول الله تعالى في سورة يونس:" قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ(31) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ" (32) .

والآية التالية للأولى فسّرت ذلك بكلّ جلاء ووضوح، فصرّحت بالإلوهية من خلال لفظ الجلالة (الله) الذي جاء مسنداً إلى اسم الإشارة (ذلك أي خبراً له)، وكذلك لفظ الجلالة (ربكم) مسنداً إليه ثانياً وصفته (الحق)، فقدّم كلّ ما يسند إليه تبارك وتعالى من أفعال، أفعال؛ الرزق، الإخراج والتدبير، من غير أن يصرّح بهذا الإسناد في اللفظ، ثمّ أسند فعل الإقرار بأن هذه الأفعال هي لله وحده عزّ وجلّ، أسنده لضمير الرفع (الواو) الذي يحيل إحالة خارجية للمتلقين المنكرين بالذي أقرّوا به بألسنتهم قولاً (فسيقولون)، وفي هذا السياق يقول القاسمي :" لهذا كانت شؤون الربوبية كلّها من الخلق والرزق والملك والتدبير والتصريف، مختصة به سبحانه لا يشاركه فيها أحد من خلقه، وهذا أمر مركوز في الفطرة لا يكاد ينازع فيه أحد، حتّى إنّ المشركين الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلّم كانوا يقرّون بذلك ولا ينكرونه، ولا يجعلون أحداً من آلهتهم شريكاً لله في ربوبيته ... ويضيف: ـ معلقاً على الآيات السابقة ـ إلى آخر ما هنالك من الآيات التي تفيد لإقرار المشركين من العرب بتوحيد الربوبية وانفراد الله عزّ وجلّ بجميع شؤونها من خلق ورزق وإحياء وإماتة وتدبير وتصريف، ولم يعرف أحد من طوائف العالم نازع في هذا إلا الدهرية الذين يجحدون الصانع، وهم الشيوعيون الآن والملاحدة ويزعمون أن العالم يسير بنفسه ويقولون ما حكاه عنهم القرآن:" مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ

وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ"، وكذلك التنويه من المجوس الذين يجعلون للعالم خالقين، خالقاً للخير وهو النّور، وخالقاً للشر وهو الظلمة، وأهل التثليث من النصارى الذين يجعلون الآلة ثلاثة: الآب، والابن والرّوح القدس"([1]).

والآيات التي جاءت فيها البراهين والأدلة وما اشتملت عليه من أفعال أسندت إلى لفظ الجلالة، كلّها كانت في سياق إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى، فهو الخالق وهو الرازق وهو منزل الكتاب، وهو المحيي وهو المميت ومدبر الأمر.

وفي ضوء المحور الرئيس استدل الشهرستاني على ثبات محورية هذا الموضوع عند جميع الأنبياء والرسل، منذ الحنفيّة التي اتصف بها إبراهيم عليه السلام وأبناؤه من بعده، حتى خاتم الأنبياء والرسل محمد عليه الصلاة والسلام، قال:" ولما كان الخليل عليه السلام مُكلّفاً بكسر المذهبين على الفرقتين، وتقرير الحنيفيّة السمحة السهلة: احتج على عبدة الأصنام: قولاً، وفعلاً: كسراً من حيث القول، وكسراً من حيث الفعل، فقال لأبيه آزر: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟...حتى: جعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم، وذلك إلزام من حيث الفعل، وإفحام من حيث الكسر. ففرغ من ذلك كما قال الله تعالى:﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربّك حكيم عليم﴾، وابتدأ بإبطال مذاهب عبدة الكواكب على صيغة الموافقة: كما قال تعالى:﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض﴾، أي كما آتيناه الحجة كذلك نريه المحجة؛ فساق الإلزام على أصحاب الهياكل مساق الموافقة في المبدأ، والمخالفة في النهاية؛ ليكون الإلزام أبلغ، والإفحام أقوى؛ وإلا فإبراهيم الخليل عليه السلام: لم يكن في قوله: هذا ربي: مشركاً، كما لم يكن في قوله: بل فعله كبيرهم هذا: كاذباً، وسوق الكلام من جهة الإلزام، غير سوقه على جهة الالتزام. فلما أظهر الحجة وبين المحجة: قرر الحنيفيّة التي هي الملة الكبرى، والشريعة العظمى، وذلك هو الدين القيم. وكان الأنبياء من أولاده كلهم يقررون الحنيفيّة؛ وبالخصوص صاحب شرعنا

---

[1]– القاسمي، دلائل التوحيد، 70،71 . والآية المذكورة من سورة الجاثية (24) وهي بتمامها :" وَقَالُوا مَا هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ" .

محمد صلوات الله عليه: كان في تقريرها قد بلغ النهاية القصوى، وأصحاب المرمى وأصمى. ومن العجب! إنّ التوحيد من أخص أركان الحنيفيّة؛ ولهذا: نفـي الـشرك بكل موضع ذكر الحنيفيّة: حنيفاً وما كان من المشركين، حنفاء لله غيـر مـشركين به"([1]) .

ومن الآيات التي تدلّ على المعنى المتأوّل الثاني قول الله تعـالى فـي سـورة يونس:﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَـالَى عَمَّـا يُشْرِكُونَ*وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُـضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ* وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْـبُ لِلَّـهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾([2]) .

إنّ ارتباط هذه الآيات وتماسكها مع الآيات السابقة في السور السابقة بيّن وجلي لفظاً ومعنىً، ولا سيما ما أفاده المعنى النحوي الوظيفي من (ما النافية وإلا الملغاة) وهو دلالة الحصر، لترتبط بقوله تعالى:﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين﴾، الآية السابقة من سورة البقرة، فالمتلقي يلاحظ بكل جلاء من خلال ظـاهر الألفـاظ بشكل مباشر، أو من خلال مسألة التفسير النسبي أو الدلالة النسبية، مدى الارتبـاط والتماسك بين المعاني التي يضمنها محور الخطاب لجميع الآيات التي استشهدنا بها على الموضوع المحوري المركزي في السور ذوات الحروف المقطّعة، فالألفـاظ: (الكتاب،القرآن)، وأمة، والصراط، ويتّبع الرسول، وتنزيه الله لنفسه عزّ وجل عـن أن يكون له شريك، ومسلمون، وغيرها، لبّها يؤول في النهاية إلى إقرار (التوحيـد) لله تعالى، والوحدانية جاءت متقدمة في الآية الثانية من سورة هود قال الله تعـالى:" الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ* أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُـمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ"([3]) .

[1]– الشهرستاني: الملل والنحل:232/1،233.

[2]– انظر: سورة يونس: الآيات:16–20 .

[3]– سورة هود: الآيتان،1،2..

ومن الآيات التي تدلّ على معنى اليوم الآخر وعلى اسم من أسماء الله الحسنى (العليم)، قوله تعالى:﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾([1])، وظهرت دلالات الحروف أيضاً في قوله تعالى:﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾([2])، وقوله تعالى:"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾([3]).

وكذلك في قول الله تعالى:﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)([4]) .

ونجد هذه الدلالات في سورة يوسف عليه السلام، قال الله تعالى:﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾([5]).

والمعاني التي تؤول إلى موضوع مركزي واحد نجدها في سورة الرعد أيضاً، قال الله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾([6]) .

وفي سورة الحجر نجد ذكر للفظة أمة وقد قرنت بموضوع الوحدانية التي دعا إليها كلّ نبي قومه قبل محمد عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى:﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ

---

[1]- سورة هود: الآيتان/4،5.

[2]- سورة هود: انظر: الآيات: 4-8.

[3]- سورة هود: الآيتان، 13،14 .

[4]- سورة هود: الآيات،112،123 .

[5]- سورة يوسف: انظر: الآيات 38-40 .

[6]- سورة الرعد: الآيتان،30،13 .

هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾([1])، ويلاحظ كذلك هنا بعض الدلالات اللفظية وغير اللفظية التي تحصلّت لنا من الحروف الاستهلالية في مطالع هذه السور، ويظهر بأنّ السور ذوات الحروف المقطّعة بشكل خاص والمكيّة بشكل عام، قد أولت الموضوعات المحورية مثل الغيب والبعث والقرآن والموت والحياة والخلق والرزق والملك والعلم المطلقين وغيرها من المواضيع المماثلة، التي تؤول إلى الموضوع المحوري المركزي الواحد وهو (التوحيد)، ومن السور التي يمكن الاستشهاد ببعض آياتها أنموذجا دالاً على هذا الترابط والتماسك بين السور ذوات الحروف المقطّعة والسور المكية التي لم تستهل بحروف مقطعة، آيات من سور لأنعام والنحل والأنبياء والمؤمنون. قال الله تعالى في سورة الأنعام:﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ•﴾([2]).

وقال الله تعالى في سورة النحل:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾([3]). وفي سورة الأنبياء قول الله تعالى:﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾([4]). وقول الله تعالى في سورة المؤمنون:﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾([5]) .

كما يتصل بهذه الدلالات دلالات لفظة (إمام والإمام وما يدور في فلكهما)، ومن الآيات التي جاءت في السور ذوات الحروف المقطّعة وفيها هذه الألفاظ وأمثالها، التي تترابط مع غيرها في دلالتها على محاور الصراط والتوحيد والربوبية، ما جاء به الأزهري وغيره، من معانٍ تعضد وتؤيد ارتباط وتماس دلالات هذا البناء اللفظي المتعدد، ودلّ عليها السياق الذي وردت فيه هذه اللفظة

---

[1]- سورة الحجر: الآيتان/4،5.

[2]- سورة الأنعام:انظر: الآيات، 95-106 .

[3]- سورة النحل: انظر: الآيات: 38-35

[4]- سورة الأنبياء: الآية،95 .

[5]- سورة المؤمنون: الآية، 52 .

وسائر مشتقاتها، قال الأزهري:" والقرآن: إمام المسلمين.وقال ابن الأعرابي في قول الله تعالى:﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾([1])، قالت مخائفة، بإمامهم. وقالت طائفة: دينهم وشرعهم.وقيل: بكتابهم الذي أحصى فيه عملهم. وقول الله تعالى:﴿ فقاتلوا أئمة الكفر﴾([2])؛ أي: قاتلوا رؤساء الكفار وقادتهم الذين ضعفاؤهم تبع لهم ... وقال الفراء في قوله تعالى:﴿ وإنّهما لبإمام مبين﴾([3])، يقول: في طريق لهم يمرّون عليها في أسفارهم.فجعل الطريق إماماً، لأنه يؤم ويتبع ...ويكون الإمام رئيساً، كقولك: إمام المسلمين...ويكون: الكتاب؛ قال الله تعالى:" يوم ندعو كل أناس بإمامهم، ويكون"الإمام":الطريق الواضح،قال تعالى:﴿وأنهما لبإمام مبين﴾([4]).

التناص بين سور هذه المجموعة وسائر السور ذوات الحروف المقطعة

أولاً: التماسك في وحدة موضوع الخطاب: ويتحقق هذا التماسك من خلال المستوى الدلالي، الذي يثبت الوحدة الموضوعية بين السور، وهو الموضوع الذي شكّل المحور الرئيس في مجموعة هذه السور.

ثانياً: التعالق التكراري:

التكرار اللفظي: ويشمل

أ- الاستهلال بالحروف المقطعة:

ب - تكرارالكلمات لفظاً ومعنىً: فمن ذلك تكرار الكلمات التالية: وهب، أنجينا، بشرناه، البشرى، إذ تردّدت هذه الألفاظ في نصوص كثير من السور ذوات الحروف المقطّعة، وكذلك تكرار الكلمات (شفيع، شفاعة، يشفع) وما يتخرج من جذرها الثلاثي في كثير من هذه السور، ومن الأمثلة عل ذلك ورود لفظة (شفيع) ثلاث مرات في ثلاث سور من السور ذوات الحروف المقطعة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا

1- سورة الإسراء، الآية، 71 .

2- سورة التوبة: الآية،12.

3- سورة الحجر الآية، 79 .

4- الأزهري: تهذيب اللغة : (أم).

شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، وقال الله تعالى: وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾([1])، وقال الله تعالى:﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾([2]).

نجد في سورة يونس الحديث عن البعث من خلال الصفة المشبهة(شفيع على فعيل)، بدلاً من الفعل (يشفع) الوارد في سورة البقرة وتضمنته آية الكرسي منها.

وباستقراء الآيات التي وردت فيها هذه الكلمات ومن خلال السياق الذي وردت فيه أيضاً، نلاحظ أنّ هذه الكلمات قد انسجمت مع الزمان والمكان الذي يجب أنْ تكون فيها الشفاعة، وهو اليوم الآخر وما فيه من الحساب والثواب والعقاب، لتدلّ هذه الآيات من جهة أخرى على موضوع من الموضوعات الرئيسية التي وظفتها هذه السور للتأكيد على محور التوحيد، وهذا الموضوع هو موضوع غيبي وهو موضوع اليوم الآخر وما يتخلله أو يسبقه من بعث ونشور، ولعل الآية الرابعة التي تلت الآية السابقة من سورة (يونس)، خير من يعضد هذا الاستقراء والأمر بفعل الإنذار، وكذلك يعضده سياق الآيات، قال الله تعالى:﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾([3]).

التكرار بالمعنى: ومما جاء منه قوله تعالى في سورة هود:" فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾([4])، وهو تكرار للآية الثانية من سورة الأعراف:" كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾([5]).

---

[1]- سورة غافر: الآيتان/18،51.

[2]- سورة يونس: الآية/3.

[3]- سورة يونس: الآية/4.

[4]- سورة هود: الآية/12.

[5]- سورة الأعراف: الآية/2.

ثالثاً: التماسك من خلال المناسبة بين أوائل سور هذه المجموعة وخواتيمها:

تماسكت أوائل هذه السور مع وخواتيم السور التي قبلها وبعدها، وقد مرّ هــذا فــي دراسة موضوع المناسبة أول هذا الفصل .

رابعاً: التماسك بحسب مواقف الرسل:

يتضح التماسك بين هذه السور من خلال العقاب الذي لقيه من كفر من أقــوام الرسل عليهم السلام بما جاء به المرسلون، كما تماسكت وتعالقت هذه الــسور مــن خلال توظيف القصص والأمثال وأخذ العبر .

الزمن النحوي في هذه السور:

للزمن النحوي دلالات متعددة منها ما جاء من الجمع بين الماضي والمــضارع في قوله تعالى:﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَــانُوا بِآيَاتِنَــا يَظْلِمُونَ﴾([1])، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدّلالة على استمرار الظلــم في الدنيا أي فأولئك الموصوفون بخفة الموازينِ خسروا أنفــسَهم بــسبب تكــذيبهم المستمر بآياتنا ظالمون، والتّعبير عن المستقبل بلفظ الماضي للتّنبيــه علــى تحقّــق وقوعه، أي: وننزع ما في صدورهم من غلٍ، وهو تعبير معروف في القرآن كقوله تعالى:﴿أتى أمر الله﴾([2])، وهذا القول يحتمل أن يكونــوا يقولونــه فــي خاصــتهم ونفوسهم، على معنى التّقرب إلى الله بحمده، ويحتمل أن يكونوا يقولونه بيــنهم فــي مجامعهم([3]).

2.3 التحليل النصي لسورة مريم

1.2.3 دلالة الحروف المقطعة

استهلت سورة مريم بخمسة حروف مقطّعة هي (كهيعص)، وقد تفــرّدت هــذه السورة بعدد الحروف عن سائر السور التي شكلّت الآية الأولى مــن كــلّ ســورة،

---

[1]- سورة الأعراف: الآية/9.

[2]- سورة النحل: الآية/1.

[3]- أبو السعود: تفسير أبي السعود: 483/2.

وتماثلت معها سورة الشورى بعدد حروفها الخمسة، واختلفت عنها بأن شكلّت حروفها الخمسة الآيتين الأوليتين من السورة وهي : "حم*عسق".

الدلالة المعجمية:

الكاف: الكبير من الإبل الذي ذهبت أسنانه، (علامة على الكِبَر)،([1])، وهذا المعنى اللغوي المعجمي منسجم مع حالة الكِبَر التي وصل إليها زكريا عليه السلام، وجاء في بصائر ذوي التمييز أنّ:" الكاف في اللغة: الرجل المصلح بين القوم"([2])، وهذا المعنى ربما يكون منسجماً مع دعوة زكريا عليه السلام؛ ليكون وريث النبوة رجلاً صالحاً، والدعاء بالذرية الصالحة ورد كثير في كتاب الله على لسان الأنبياء والرسل والصالحين .

أسماء الله الحسنى:

تكاد قراءات المفسرين للحروف التي استهلت بها سورة مريم التي بدأت بها واحدة؛ وهذا التأويل لها كان أكثر تأويلات المفسرين لهذه الحروف بأنها حروف مقتطّعة من أسماء الله الحسنى، إذ ذكروا بأن كل حرف منها مقتطع من اسم من أسماء الله الحسنى، فمن أسماء الله الحسنى التي تأولّها بعض المفسرين لهذه الحروف (الكاف من/ الكبير، الكافي، الهاء من الهادي، والياء من الحكيم، والعين من / عالم، عدل، والصاد من صادق. وهو التأويل الذي ارتضيناه باعتباره تأويلاً تؤول إليه كلّ التأويلات الأخرى للحروف المقطّعة، إذ إنّ هذه الدلالات للحروف المقطعة متعالقة ومنسجمة ومرتبطة مع الدلالات التي تضمنتها أبنية السورة في مستوى النصّ الأفقي والعمودي، وكذلك تعالق دلالة الكاف معجمياً بدلالتها على معنى الكبير مع اسم الله عزّ وجل (الكبير)، وكذلك تعالق الدلالة المعجمية لحرف الكاف مع حالة الكبر الذي لحق زكريا عليه السلام مع اسم الله تعالى، كما تعالق صدق مريم وعيسى عليهما السلام مع اسم الله تعالى (الصادق)، وقال بعضهم الياء من (يمين) ومن (يا من يجير ولا يجار عليه) ([3]).

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، (كبر) .

[2]- الفيروزأبادي: بصائر ذوي التمييز، 319/4.

[3]- الطبري: جامع البيان، 139/18 .

أمّا المفسرون الشيعة فنجد أنّ منهم من جعلها تشير إلى أهل البيت، وقد غالى بعضهم في توظيف الحروف القطعة لمذهبه التشيع ([1]) .

دلالتها على أفعال الأمر:

جاءت أفعال كثيرة بصيغة الأمر، وقد تعدد المخاطبون المسندة إليهم هذه الأفعال في المعنى، فمن هذه الأفعال (واذكرْ؛ وقد تكرر خمسة عشر مرة في القرآن الكريم، منها خمس مرات في سورة مريم ، خذْ، وهزي، فكلي، واشربي، وقرّي، فقولي، فَاعْبُدُوهُ، فاتبعني...الخ) .

2.2.3 عناصر التماسك النصي في سورة مريم.

أ- العلاقات والعناصر الدلالية.

المناسبة بين عنوان السورة ومضمونها .

ورد اسم (مريم) عليها السلام في هذه السورة، بمعنى أنّها كانت من ضمن (الآل)، وأسماء زكريا ويحيى ومريم وعيسى عليهم السلام، قد وردت في سورة مريم، وجاء التفصيل في عيسى وأمه عليهماَ السلام في هذه السورة أكثر مما هو في سورة آل عمران، ومريم هي ابنة عمران وعيسى عليه السلام ابنها، فجاء التفصيل لهذه الذرية من خلال ذكر زكريا واستجابة دعائه بمولد ابنه يحيى، ثم ذكر قصة مريم وعيسى عليهما السلام، ثم ذكر الأنبياء والرسل وتقديم الفعل (واذكر) معطوفاً على المصدر (ذكر) رحمة ربك عبده زكريا، وقرئ ذكر على الأمر، قبل ذكر النبي، وختم بعد ذكرهم بآية تذكر هذه الذرية من آدم عليه السلام، قال الله تعالى:" أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا "([2])، ولعل ما يشد من تماسك هاتين السورتين وذكر القصتين فيهما إجمالاً أو تفصيلاً، تماثل الأحداث والوقائع لفظاً ومعنى من حيث:

1- البشارة لزكريا ومريم بمولودين ذكرين جعلهما الله عز وجل من المرسلين.

---

[1]- انظر: مواقف المفسرين من الحروف المقطّعة/الفصل الأول من هذه الدراسة .

[2]- سورة مريم : الآية: 58.

2- المكان الذي بُشرا فيه..

3- تماثل الموقف النفسي لزكريا ومريم في تعجبهم من تحقق البشارة، المتأتية من أن أمر وقوعها عرفاً يكون بين ذكر وأنثى قادرين على الإنجاب، إذ لا يقع بين ذكر معترف بعجزه عن ذلك بسبب كبره، وإقراره بذلك، بدلالة الفعل كان المستغرق في المضي الدال على صفتها تلك، ولا يقع من امرأة قادرة ليست عاقراً دون أن يواقعها ذكر .

4- وحدة موضوع الآية (العلامة) التي طلبها زكريا والتي ألهمها الله مريم: هي الصوم عن الكلام إلا بالإشارة، فكان أمر البشارة يتطلّب آية ليس لزكريا ومريم فهما مؤمنان بتحققها ، بل آية تنسخ عرفاً وتؤكد لعرف آخر، فالعرف المنسوخ هو عرف حدوث الإنجاب، والعرف المؤكد هم معرفة قوم زكريا به، فخلقه سوي قادر على الكلام، ليس به صم أو بكم، كما أن الإشارة على عدم وجود اسم يحيى لأحد قبله داخل في هذا العرف كما يبدو، والعرف المؤكد لمريم عليها السلام إقرار قومها بوجوب أن يكون خلقها حسناً كخلق أبيها وأمها، فأكد الصبي (عيسى عليه السلام) هذا الخلق، بآية أخرى وهو رده ـ قولاً ـ مجيباً بدلاً من أمه التي أشارت له وفاءً لنذرها.

إن الغاية التي ننشد الوصول إليها من تماثل هذه الأحداث والوقائع، هي أنّ مولديّ يحيى وعيسى كانا آيتين كفيلتين وكافيتين لقومهما، ليؤمنوا بما دعا إليه عليهما السلام إلى عبادة الله إله واحد لا شريك له .

وتماسكت هذه السورة مع سورة آل عمران من خلال الآية التي تُخاطب أهل الكتاب، بإتباع دعوة الأنبياء الواحدة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإتباع خاتم الأنبياء الذي يدعو بالدعوة نفسها التي دعا إليها إبراهيم عليه السلام الذي زعم اليهود والنصارى أنه منهم ، فأول نبي ذكر في سورة مريم بعد ذكر قصتي زكريا ومريم، إبراهيم عليه السلام.

المناسبة بين دلالة الحروف المقطّعة ومضمون السورة

يبدو أنّ المناسبة قد تحققت بين دلالة الحرف (الكاف) المعجمية أول حروف (كهيعص)، وبين هذه الكلمات لفظاً ومعنىً، قال في البصائر:" فالكاف في اللغة:

الرجل المصلح بين القوم"([1])، وهذا المعنى المعجمي ارتبط وتعالق مع تفسير أغلب المفسرين للآية الخامسة والسادسة من السورة قال تعالى:﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾([2]) ، وخاصة لفظتي (الموالي و ورائي و آل) من الآيتين قال الرازي:" وأما الآل فهم خاصة الرجل الذين يؤول أمرهم إليه ثم قد يؤول أمرهم إليه للقرابة تارة وللصحبة أخرى كآل فرعون وللموافقة في الدين كآل النبي صلى الله عليه وسلم، واعلم أن زكريا عليه السلام قدم على السؤال أموراً ثلاثة: أحدها: كونه ضعيفاً والثاني: أن الله تعالى ما رد دعاءه ألبتة. والثالث: كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين. والمختار أن المراد من الموالي الذين يخلفون بعده إما في السياسة أو في المال الذي كان له أو في القيام بأمر الدين فقد كانت العادة جارية أن كل من كان إلى صاحب الشرع أقرب فإنه كان متعيناً في الحياة"([3]) .

الحقول الدلالية (المصاحبات المعجمية): المسلم، المخلص، الحنيف، المؤمن، المتقي، قال الله تعالى:﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾([4]) .

قال الزمخشري :"المخلِص ــ بالكسر ــ الذي أخلص العبادة عن الشرك والرياء، أو أخلص نفسه وأسلم وجهه لله، وبالفتح: الذي أخلصه الله، الرسول: الذي معه كتاب من الأنبياء: والنبيّ الذي ينبيء عن الله عز وجل وإن لم يكن معه كتاب كيوشع"([5]).

الأفعال: ومن الأفعال ذات الحقل الدلالي الواحد الفعلان(يتفطرن، تنشق) .

---

[1]- الفيروزابادي: بصائر ذوي التمييز: 319/4 .

[2]- سورة مريم: الآيتان/5،6.

[3]- الرازي: مفاتيح الغيب، 265/10.

[4]- سورة مريم: الآية:51 .

[5]- الزمخشري: الكشاف 4 /92 .

الإحالات الضميرية والإشارية: وسأمثل لها من خلال ما يلي:

ما يحيل إلى لفظ الجلالة:

ضمير المتكلّم بصيغة الجمع: (فأرسلنا، روحنا، ولنجعله، الكاف (ربك)، قال تعالى:"فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا" وقوله تعالى في

الآيات التي تتحدث عن قصة عيسى وأمّه عليهما السلام، قال تعالى:﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا *فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا* قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا *فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا*قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾([1]).

أ- ما يحيل إلى عيسى عليه السلام :

كل الضمائر التي أحالت إلى عيسى عليه السلام جاءت محيلة إليه إحالة بعدية ذاتية متطابقة، من أول السورة حتى قوله تعالى:﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾([2])، فأحال اسم الإشارة (ذلك) إلى عيسى عليه السلام إحالة بعدية ذاتية متطابقة.

---

[1]- سورة مريم: الآيات(16-33).

[2]- سورة مريم: الآية/34.

هو: قال: هو / الصبي الذي في المهد// ذلك عيسى ابن مريم، لا ابن غيرها، فهي المتهمة، كلمة من الله// قول الحق ...كن فيكون: فكان عيسى...

ضمير الغائب (الهاء): وجاء في الكلمات التالية (به، تحمله، إليه...)

ما يحيل إلى مريم عليها السلام:

أحال إلى مريم عليها السلام مجموعة من الضمائر الظاهرة والمحذوفة، وهي على النحو التالي:

هي: في الكلمات التالية (انتبذت، فاتخذت، قالت/وتكرر ثلاث مرات، فانتبذت، فحملته، تحمله، فأشارت) (الياء) الضمير المضاف : وجاء في الكلمات التالية (وهزي)،

الكاف: وجاء في الكلمات التالية (إليكِ، ضمير الغائب (الهاء): وجاء في الكلمات التالية (أهلها، إليها، لها، فأجاءها، فناداها، تحتها، قومها).

الإحالة الخارجية: أحال الضمير المستتر (هو) المسند إليه فعل القول (قال)، الذي تصدر الآية التي وقعت جملةً استئنافية تفسيرية للجملة التي قبلها، فأحال الضمير إلى مذكور خارج النصّ، وهو (جبريل) عليه السلام كما يفهم من سياق الآية، ومن القرائن اللفظية التي جاءت في جملة (فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً)، قرينة الفعل المسند إلى ضمير الجمع، الذي يحيل إلى لفظ الجلالة (فأرسلنا)، دلالة على أنّ المرسِل هو الله عزّ وجل، وقرينة الاسم (روحنا) المسند إليه الفعل (فتمثّل) دلالة على أنّ المرسَل ليس بشراً بل ملَكاً، وفاعله ضمير مستتر (هو) أي (الملَك) .

أنا: كما أحال الضمير المستتر المسند إليه الفعل المسبوق بلام التعليل (لأهب)، إلى (جبريل) إحالة خارجية ذاتية متطابقة.

الواو: أحال ضمير الرفع في الفعل (سيكفرون) المسند إليه، أحال إحالة خارجية ذاتية متطابقة إلى الآلهة المتعددة التي يعبدونها من دون الله، قال ابن عاشور:"

والضميران في قوله:﴿سيكفرون ويكونون﴾([1])، يجوز أن يكونا عائدين إلى آلهة، أي سينكر الآلهةُ عبادةَ المشركين إيّاهم"([2]).

ومن صور الإحالة الخارجية، الإحالة بالاسم الموصول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾([3]) .

وجعله ابن عاشور من باب الاستبدل كما هو ظاهر كلامه، فقال:" وعبّر عن الأصنام بطريق الموصولية بقوله: ما تدعون من دون الله، للإيماء إلى وجه بناء الخبر وعلّة اعتزاله إياهم وأصنامَهم: بأن تلك الأصنام تعبد من دون الله وأن القوم يعبدونها ، فذلك وجه اعتزاله إياهم وأصنامهم"([4]).

إحالة أسماء الإشارة :

اسم الإشارة (ذلك) في جملة "وما بين ذلك"، فاسم الإشارة يحيل إحالة نصيّة خارجية ذاتية متطابقة، إلى محذوف لم يذكر في النصّ، لكنّه مفهوم من الجملتين اللتين وردت فيهما لفظتا (أيدينا وخلفنا)، الدّالتان على جهتين من الجهات الأربعة هما الأمام والخلف، فدلّ اسم الإشارة المفرد (ذلك) على ما بقي من الجهات الأربعة، وهما اليمين والشمال، قال ابن عاشور موضحاً إحالة اسم الإشارة (ذلك):" والمراد ... بـ (وما بين ذلك) ما كان عن أيمانهم وعن شمائلهم، لأنّ ما كان عن اليمين وعن الشمال هو بين الأمام والخلف، والمقصود استيعاب الجهات"([5]) .

المناسبة بين الكلمات في الآية الواحدة وفي الآيات التي في السياق نفسه: ومنه المناسبة بين الفعل (نادى) ومصدره (نداءً) في قول الله تعالى:﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾([6])، وكذلك المناسبة بين كلمة (خفياً) والكلمات التي وصفت حال (زكريا) عليه السلام وما أصابه من الوهن والضعف والكبَر، وهي قول الله تعالى:" قَالَ رَبِّ

---

[1]- سورة مريم: الآية:82.

[2]- ابن عاشور: التحرير والتنوير: 163/16.

[3]- سورة مريم: الآية:48.

[4]- ابن عاشور: التحرير والتنوير: 163/16.

[5]- المرجع نفسه: 497/8 .

[6]- سورة مريم: الآية/3.

إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا"([1])، المناسبة بين كلمة (خفياً) والكلمات (وهن العظم، الشيب) وبين الدلالة غير اللفظية للفعل (يرثني) بصيغة المضارع الدّال بزمنه على قرب الأجل لزكريا عليه السلام ، في قوله تعالى:" يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6)، وكذلك المناسبة بين هذه الكلمات وبين لفظة (الكِبَر) في قول الله تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾([2]).

الاستبدال:

استبدال: اسمي: ولداً / شريكاً، رَداً يناسب قولهم اتخذ الله ولداً، إذ إنّ المفهوم من فعل الاتخاذ (اتخذ) المسند لفظاً إلى الله سبحانه وتعالى، هو أنّ له شريكاً، والجملة التي تصدّرها الفعل (اتّخذ) هي جملة مقول القول من (قالوا) المسند إلى ضمير الرفع الذي يحيل إحالة ذاتية خارجية متطابقة إلى الكافرين، فارتبطت الجملتان؛ القول ومقوله، بوقوع الثانية مقولة للأولى مفسّرة لقولهم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾([3])، فوقع الفعل (اتّخذ) مسنداً إلى الكافرين، هذا الاسم الذي أُستبدِلَ باسم يدلّ على هول الفعل الجرمي الذي ارتكبوه، وهو قولهم: اتّخذ الله ولداً، فناسب وصفهم بـ (المجرمين) بدلاً من الكافرين في الآيتين 86و87، فذكر في الأولى ظاهراً وفي الثانية مضمراً، وارتبطت الآيتان بالآية 85 قبلها من خلال عنصر المقابلة أو التضاد، فقابل بعلاقة التضاد بين المتقين والمجرمين، وارتبطت الآية 88 بالآيات التي تتحدث عن نسبة وادّعاء الألوهية والعبادة إلى ملائكة وبشر مع الله، والله هو خالقهم، قال الله تعالى:﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا • أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾([4]) .

---

[1]- سورة مريم: الآية/4.

[2]- سورة مريم: الآية/8.

[3]- سورة مريم: الآية/88.

[4]- سورة مريم: الآية/67.

إنّ إنكار البعث هو أثر من آثار الشرك، فلمّا تضمن قوله:﴿ فاعبده واصطبر لعبادتهھلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾([1]). إبطالَ عقيدة الإشراك به ناسب الانتقالُ إلى إبطال أثر من آثار الشرك، وهو نفي المشركين وقوع البعث بعد الموت حتّى يتمّ انتقاض أصلي الكفر، فالواو عاطفة قصة على قصة ، والإتيان بفعل (يَقُول) مضارعاً لاستحضار حالة هذا القول للتعجيب من قائله تعجيب إنكار.

استبدال فعل: ومنه استبدال الفعل (سيجحدون) بالفعل (سيكفرون)، إذ إنّ سياق الآيات الموضوعي، يلائمه الفعل (سيكفرون)، كما أنّ دلالة الفعل (كَفَرَ) اللفظية وهي يغطي، تتداخل مع دلالة الفعل (جحد) في الحقل الدلالي المشترك، فالتغطية تكون لما هو مكشوف واضح بيّن، وتغطية المكشوف إنّما هو جحود وإنكار له، ودلالة الاسم منه (الكفر)، قال أبو هلال العسكري:" أمّا التأويل فإنه يستعمل تارة عاما، وتارة خاصا نحو الكفر المستعمل في الجحود المطلق، وتارة في جحود الباري خاصة "([2])، فناسبت صيغة الفعل المضارع مسبوقاً بحرفَ التسويف السين الدال على زمن الفعل وهو المستقبل، على وقوع الفعل حقيقة في وقته المناسب الذي تحدث عنه سبحانه وتعالى، مع تجدده عندهم مطلقاً في كل زمن يعيشون منه، وأكدّ على وقوع الفعل (سيكفرون) كذلك، بقرائن متعددة، منها قرينة وقوع الآية وهي قول الله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾([3]) بعدها جملة معترضة، تضمنت حصول أفعال بحق الكافرين، وبقرينة الأفعال (فلا تعجل عليهم، نحشرهم، ونسوق)، وبقرينة الأسماء (ويوم نحشرهم / اليوم الآخر/ إثبات البعث والحساب، جهنم، العذاب..

ومن الاستبدال الفعلي، الفعل (دعا) المستبدل بالفعل (نادى)، في قوله تعالى: ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾([4])، ويبين هذا الاستبدال قرينة الاسم المجرور (بدعائك)، وكذلك ما جاء في سورة آل عمران؛ إذ جاء التصريح بلفظ الفعل الدّال على الدعاء

---

[1]– سورة مريم: الاية/65.

[2]– العسكري: الفروق اللغوية، 132.

[3]– سورة مريم: الآية/83.

[4]– سورة مريم: الآية/3.

وفي أحد أسماء الله الحسنى وهو السميع الذي أجاب الدعاء:﴿ إنّك أنت السميع العليم﴾([1]).

الاستبدال: ومن الاستبدال الفعلي: استبدال الفعل: قالوا بالفعل (دعوا)، فالقول المسند إليهم من قالوا ومقوله هو نسبة الشرك لله سبحانه، فكان الفعل (دعوا) موضحاً لهذا القول المنسوب إليهم، قال ابن عاشور:" ومعنى(دَعَوا): نسبوا"([2]).

استبدال ظرفي: وجاء في استبدال جملة ظرفية مكانية، بجملة تفيد معنى الظرفية، وذلك بقرينة كلمة (بين) الدالة على الظرف، وهي جملة (له ما أمامنا) بجملة " له ما بين أيدينا"، وكذلك استبدال جملة ظرفية بجملة ظرفية أخرى، وهي جملة:" وما خلفنا " بدلاً من (وما وراءنا)، وكذلك استبدال جملة (وما هو عن يميننا وشمالنا)، التي تمثل البنية العميقة لجملة (وما بين ذلك)، بهذه الجملة نفسها، وكأن الاستبدال في هذه الجمل، هو استبدال جمل أولى أصلية، بجمل ثانية محوّلة، استناداً إلى قواعد النحو التحويلي التوليدي، الذي استثمرته نظرية نحو النصّ في تحليل النصّ وفهمه.

الجمل التفسيرية:

جملة:(قَالَ ربِّ إنِّي وهَنَ العَظمُ مِني) مبنية لجملة: نادى ربه"([3]) ، وهي وما بعدها تمهيد للمقصود من الدعاء وهو قوله: (فَهَب لِي مِن لَّدُنكَ ولِيّاً)([4])، وإنّما كان ذلك تمهيداً لما يتضمنه من اضطراره لسؤال الولد، والله يجيب المضطر إذا دعاه، فليس سؤاله الولدَ سؤال توسع لمجرد تمتع أو فخر، ووصَفَ من حاله ما تشتد معه الحاجة إلى الولد حالاً ومآلاً، فكان وهن العظم وعموم الشيب حالاً مقتضياً للاستعانة بالولد مع ما يقتضيه من اقتراب إبان الموت عادة، فذلك مقصود لنفسه ووسيلة لغيره وهو الميراث بعد الموت، والخبران من قوله:(وهن العظم مني

---

[1]- سورة آل عمران: الآية/35 .

[2]- ابن عاشور: التحرير والتنوير:17/9.

[3]- سورة مريم: الآية/3.

[4]- سورة مريم: الآية/5.

واشتعل الرأس شيباً)، مستعملان مجازاً في لازم الإخبار، وهو الاسترحام لحاله؛ لأنّ المخبَر بفتح الباء عالم بما تضمنه الخبران([1]) .

ويظهر الانزياح الاسنادي في جملة (وهن العظم)، إذ لم يُسْنَدْ الفعل إلى الجسم الذي تظهر فيه حالة الضعف، وهو زمنه النحوي (والعظم هو عماد الجسم وقوته)، والوهن: الضعف، وإسناده إلى العظم دون غيره مما شمله الوهن في جسده لأنه أوجز في الدلالة على عموم الوهن جميع بدنه؛ لأنّ العظم هو قوام البدن وهو أصلب شيء فيه، فلا يبلغه الوهن إلاّ وقد بلغ ما فوقه"([2]) .

التعريف والتنكير: والتعريف في (العظْمُ) تعريف الجنس دال على عموم العظام منه ومن فوائد التعريف بالألف واللام لا بالإضافة، ما ذكره الجرجاني في تعريف (الرأس) من قوله تعالى:" واشتعل الرأس شيباً، واعلم أن في الآية الأولى شيئاً آخر من جنس النظم، وهو تعريف الرأس بالألف اللام، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة، وهو أحد ما أوجب المزية، ولو قيل: واشتعل رأسي. فصرح بالإضافة لذهب بعض الحسن فاعرفه " .

التكرار بالمعنى: صراطاً مستقيما، صراطاً سوياً، وجاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ"([3])،
مع قوله تعالى: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ ([4])

الجمل المعترضة:

ويؤتى بها للبيان والتوضيح والتسلية والتأكيد على أنّ فعلاً سيحدث في المستقبل، وقع مثله وأشد منه قبله، ومنها قوله تعالى: ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما متّ لسوف أخرج حياً ﴾([5])... وهي معترضة بين جملة: ﴿ واتخذوا من دون الله

---

[1]- ابن عاشور: التحرير والتنوير: ،483/8.
[2]- المرجع نفسه:489/8.
[3]- سورة مريم: الآية/ 36.
[4]- سورة مريم: الآية/(43.
[5]- سورة مريم: الآية/66،

آلهةليكونوا لَهُمْ عِزًّا﴾([1])وجملة" يوم نحشر المتقين"([2])، وأيضاً هي كالتذييل لتلك الآيات والتقرير لمضمونها؛ لأنها تَستخلص أحوالهم، وتتضمن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم عن إمهالهم وعدم تعجيل عقابهم»([3]) .

ب- العلاقات والعناصر النحوية

الحذف:حذف المبتدأ:

العطف: ومنه عطف جملة على جملة، قال الله تعالى:﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾([4])، جملة (وأعتزلكم) عطف على جملة (سأستغفر لك ربي)، أي يقع الاستغفار في المستقبل ويقع اعتزالي إياكم الآن، لأنّ المضارع غالب في الحال، قال ابن عاشور:"وأظهر حرصه على هداه فقال:"سأستغفر لك ربي"، أي أطلب منه لك المغفرة من هذا الكفر، بأن يهديه الله إلى التوحيد فيغفر له الشرك الماضي، إذ لم يكن إبراهيم تلقى نهياً من الله عن الاستغفار للمشرك، وهذا ظاهر ما في قوله تعالى:﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه﴾([5])، واستغفاره له هو المحكي في قوله تعالى:﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾([6]).

إحالة الضمير: وضمير جماعة المخاطبين عائد إلى أبي إبراهيم وقومه تنزيلاً لهم منزلة الحضور في ذلك المجلس، لأن أباه واحد منهم وأمرهم سواء ، أو كان هذا المقال جرى بمحضر جماعة منهم، (وكأن هذه الآية فيها تسلية وإخبار أو إعلام مسبق لنبينا عليه الصلاة والسلام باعتزاله أهله ووطنه لاحقاً) .

العطف: جاء العطف بالواو وقبل اسم الموصول (ما)، قال ابن عاشور:" وعُطف على ضمير القوم أصنامُهم؛ للإشارة إلى عداوته لتلك الأصنام إعلاناً بتغيير

---

[1]- سورة مريم: الآية/81،

[2]- سورة مريم: 85.

[3]- ابن عاشور: التحرير والتنوير:14/9.

[4]- سورة مريم: الآية/48.

[5]- سورة التوبة:/ 114،

[6]- سورة الشعراء: الآية/86.

المنكر ....والدعاء: العبادة، لأنّها تستلزم دعاء المعبود، وزاد على الإعلان باعتزال أصنامهم الإعلان بأنه يدعو الله احتراساً من أن يحسبوا أنه نوى مجرد اعتزال عبادة أصنامهم، فربما اقتنعوا بإمساكه عنهم، ولذا بيّن لهم أنه بعكس ذلك يدعو الله الذي لا يعبدونه، وعبّر عن الله بوصف الربوبية المضاف إلى ضمير نفسه؛ للإشارة إلى انفراده من بينهم بعبادة الله تعالى فهو ربّه وحده من بينهم ، فالإضافة هنا تفيد معنى القصر الإضافي، مع ما تتضمنه الإضافة من الاعتزاز بربوبية الله إياه والتشريف لنفسه بذلك"([1]).

الجمل الحالية: جملة "عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً"([2]) في موضع الحال من ضمير (وادعوا) أي راجياً أن لا أكون بدعاء ربي شقياً..وفي إعلانه هذا الرجاء بين ظهرانيهم تعريض بأنهم أشقياء بدعاء آلهتهم"([3]) .

وقال تعالى:﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾([4])، قال الزمخشري:" لما أطلعه على سماجة صورة أمره، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات، أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل "يا أبت" ب (يا بنيّ) ، وقدّم الخبر على المبتدأ في قوله:"أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يا إبراهيم "؛ لأنه كان أهمّ عنده وهو عنده أعني، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد. وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يلقى من مثل ذلك من كفار قومه، (لَأَرْجُمَنَّكَ) لأرمينك بلساني، يريد الشتم والذمّ، ومنه (الرجيم) المرميّ باللعن، أو لأقتلنك، من رجم الزاني، أو لأطردنك رمياً بالحجارة. وأصل الرجم: الرمي بالرجام، (مَلِيّاً) زماناً طويلاً من الملاوة: أو ملياً بالذهاب عني والهجران قبل أن أثخنك بالضرب ، حتى لا تقدر أن تبرح . يقال : فلان مليّ بكذا ، إذا كان مطيقاً له مضطلعاً به، فإن قلت:

---

[1]- ابن عاشور: التحرير والتنوير:486/8.

[2]- سورة مريم: الآية/48 .

[3]- ابن عاشور: التحرير والتنوير: 487/8.

[4]- سورة مريم: الآية/46.

علام عطف (واهجرني) ؟ قلت: على معطوف عليه محذوف يدل عليه (لأَرْجُمَنَّكَ) أي فاحذرني واهجرني، لأنّ(لأَرْجُمَنَّكَ) تهديد وتقريع "([1]).

الزمن النحوي في سورة مريم:

الفعل الماضي (وهن) في جملة (وهن العظم)، يبين دلالة الكبر الذي وصل إليه زكريا عليه السلام، وجاء في زمنه الماضي خدمة لمعناه النحوي الوظيفي، وكذلك الفعل (اشتعل) في جملة (واشتعل الرأس شيباً)، فزمن الفعل النحوي بدلالته على الاشتعال، دال على الشيب لم يقع على نسبة من الشعر، بل شمل الرأس كلّه، فكان سريانه في شعر الرأس سريان النار في الهشيم فتأتي عليه كلّه، ويوضح لنا الجرجاني مزية النظم في اختيار الألفاظ ووضعها حيث تقتضي معاني النحو فيه، وطبيعة بنيتها التي تأتي فيها؛ تعريفاً أو تنكيراً أو تقديماً أو تأخيراً، وكأنّه يشرح جوهر نظرية نحو النصّ وعناصر التماسك النصيّ، من خلال حديثه عن ترابط الألفاظ وتعالقها فيما بينها، فقال:" ومن دقيق ذلك وخفيه، أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: " واشتعل الرأس شيباً " لم يزيدوا فيه على ذكر الاستعارة، ولم ينسبوا الشرف إلا إليها، ولم يروا للمزية موجباً سواها، هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم، وليس الأمر على ذلك، ولا هذا الشرف العظيم، ولا هذه المزية الجليلة، وهذه الروعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة، ولكن لأن يسلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء، وهو لما هو سببه فيرفع به ما يسند إليه، ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى، منصوباً بعده مبيناً أن ذلك الإسناد، وتلك النسبة إلى ذلك الأول، إنّما كان من أجل هذا الثاني، ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة، كقولهم: طاب زيد نفساً، وقر عمرو عيناً، وتصبب عرقاً، وكرم أصلاً، وحسن وجهاً، وأشباه ذلك مما تجد الفعل فيه منقولاً من الشيء إلى ما ذلك الشيء من سببه، وذلك أنا نعلم أن اشتعل للشيب في المعنى، وإن كان هو للرأس في اللفظ. كما أن طاب للنفس، وقر للعين، وتصبب للعرق، وإن أسند إلى ما أسند إليه، يبين أن الشرف كان لأن سلك فيه هذا المسلك، وتوخي به هذا المذهب، أن تدع هذا

---

[1]- الزمخشري الكشاف: 4/ 89 .

الطريق فيه، وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحاً فتقول: اشتعل شيب الرأس والشيب في الرأس. ثم تنظر: هل تجد ذلك الحسن وتلك الفخامة؟ وهل ترى الروعة التي كنت تراها؟ فإن قلت: فما السبب في أن كان اشتعل إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل؟ ولم بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة؟ فإن السبب أنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول، وأنه قد شاع فيه، وأخذه من نواحيه، وأنه قد استغرقه، وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لم يبق منه إلا ما لا يعتد به. وهذا ما لا يكون إذا قيل: اشتعل شيب الرأس، أو الشيب في الرأس. بل لا يوجب اللفظ حينئذ أكثر من ظهوره فيه على الجملة، ووزان هذا أنك تقول: اشتعل البيت ناراً، فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه، وأخذت في طرفيه ووسطه. وتقول: اشتعلت النار في البيت. فلا يفيد ذلك، بل لا يقتضي أكثر من وقوعها فيه وإصابتها جانباً منه. فأما الشمول، وأن تكون قد استولت على البيت، وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة."([1]).

ج- العلاقات والعناصر التداولية

من العناصر التي أولاها التماسك النصيّ اهتماماً بارزاً في هذا المستوى، عنصر المقام الذي نزل فيه قسم كثير من الآيات، وهذا المقام متضمن عنصري الزمان والمكان والسياق التي قيلت فيه هذه الآيات، ونمثّل لهذا المستوى على النحو الآتي:

أ- أسباب النزول: تسهم مناسبة النزول في ترابط النص وتماسكه، من خلال تجاوب الوحي مع تساؤل عن موضوع ما أو مع موقف، سواء أكان التساؤل أم الموقف من الرسول عليه الصلاة والسلام أو من الصحابة رضي الله عنهم، أو من المشركين، فمن تجاوب الوحي مع موقف الرسول عليه السلام عندما تأخر عنه الوحي، قول الله تعالى:﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا

---

[1]- الجرجاني: دلائل الإعجاز، 100،101.

وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾([1])، فقال جمهور المفسرين: إن سبب نزولها أنّ جبريل عليه السلام أبطأ أياماً عن النزول إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنّ النبي ودّ أن تكون زيارة جبريل له أكثر مما هو يزوره فقال لجبريل: " ألا تزورنا أكثر ممّا تزورنا " فنزلت: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إلا بِأَمْرِ رَبِّكَ } إلى آخر الآية؛ أي إلى قوله (نَسِيًّا)، رواه البخاري والترمذي عن ابن عبّاس. وظاهره أنه رواية وهو أصح ما روي في سبب نزولها وأليقه بموقعها هنا . ولا يلتفت إلى غيره من الأقوال في سبب نزولها "([2]).

ب ـ معرفة العوالم: قال:" وقد استعمل العدّ مجازاً في قصر المدّة لأن الشيء القليل يُعدّ ويحسب . وفي هذا إنذار باقتراب استئصالهم .

ج ـ استعمال كلمة (وفداً) بمعنى (وافدين) وقد دلّ المعنى النحوي الوظيفي الذي أدّته هذه الكلمة وهو (الحال)، على عرف استعمالي للكلمة عند العرب، قال ابن عاشور:"ولذلك أتبع فعل (نحشر) بقيد (وَفداً)؛ أي حَشْر الوفود إلى الملوك، فإنّ الوفود يكونون مُكرمين، وكانت لملوك العرب وكرمائهم وفود في أوقات ... وقد اتّبع العرب هذه السنّة فوفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم لأنّه أشرف السادة، وسنةُ الوفود هي سنة تسع من الهجرة تلت فتحَ مكة بعموم الإسلام بلاد العرب"([3]).

ويظهر أنّ الآية السابقة على الآية التي ورد فيها استعاذة مريم عليها السلام، أنها تنتمي إلى المعارف المشتركة والمكتسبة في ضوء الاستعمال اللغوي الاجتماعي لبعض المعتقدات التي تتأتي عن طريق الوحي، فالفعل أوحينا المسند إلى لفظ (الجلالة) بإحالة ضمير الجمع له الدّال بصيغته على التعظيم إليه عزّ وجل، هو حدث مؤثر في الحدث الذي سيقوم به الموحى إليه أصلاً، لكنّ هذا الحدث (أوحينا) يبدو أنّ فيه علامةً يعرف السائلون أنّ دالّها ومدلولها حقيقة واقعة؛ ترمز أو تشير إلى معارف اكتسبتها مريم من حولها، وهي معارف لا تقبل الشك عند من يعتقدها،

---

[1]- سورة مريم:الآية/64 .

[2]- ابن عاشور: التحرير والتنوير: 497/8 .

[3]- المرجع نفسه:15/9 .

فكأن عدم الكلام علامة على أمر جلل فيه خير قد عرفه كلّ قوم، فلا بدّ من سائل سيسأل صائماً عن الكلام أو سيتوقع نتيجة من وراء هذا الحدث، لكنّ نتيجة الحدث المتأثرة به مريم، وحدث البشارة المتأثر بنتيجته زكريا، تطلبا علامة (آية)، فكانت علامة الصمت عن الكلام واحدة لكليهما، فمريم صامت عن الكلام، والصوم الامتناع لغة، واصطلاحاً:" الامتناع عن الطعام والشراب"، فأتتها الآية دون أن تطلبها، بدليل (فقولي) قال تعالى:" فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا"([1])، وزكريا امتنع عن الكلام ثلاث ليالٍ سويا، فأجابت بالإشارة لا بالكلام، وكأنّ الإشارة هنا وحي أيضاً، لكن على تقدير محذوف أي فأوحينا إليها فأشارت، قال ابن عاشور:" والوحي: الإشارة بالعين أو بغيرها "، وهو يفسّر قوله تعالى:" فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا"([2]). وقال تعالى:" قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثاً سوياً"([3])، صمت، وتجاوبت مريم مع علامة الصمت بحدث غير لغوي أيضاً لكنّه دالّ،:" فأشارت إليه"، فالإشارة رمز كما هو الصمت رمز، وكما هو الصوم رمزاً للعبادة، وتجاوب ووجدت أنّ ابن عاشور قد نصّ على أنّ الصوم عن الكلام كان عبادة في بعض الشرائع السالفة فقال:" وكان الانقطاع عن الكلام من ضروب العبادة في بعض الشرائع السالفة، وقد اقتبسه العرب في الجاهلية "([4]).

وفي الجانب التداولي يمكن القول: إنّ الحدث غير اللغوي الذي أنجز بقوله تعالى على لسان مريم عليها السلام:﴿ فاشارت إليه﴾ ، هو حدث من حيث دوره وطبيعته الاتصالية، فأغنى عن حدثٍ لغوي هو كلام من مريم ردّاً على قولهم: فكأنّها بحدث الإشارة تقول لهم: هو يجيبكم أو اسألوه هو، إذا ما عددنا ذلك بنية عميقة لحدث الإشارة، فهو حدث ينم عن قصدية من مريم عليها السلام، إلى استحالة أن تقوم بحدث من شأنه أن يثبت عفّتها، بديلاً عن حدث الإشارة، فلربما لو كان كلاماً

---

[1]– سورة مريم: الآية/26.

[2]– سورة مريم: الآية/11.

[3]– سورة مريم: الآية/10.

[4]– ابن عاشور: التحرير والتنوير:8/464.

لردّ عليها بكلام، فهي لا تريد أنْ تتكلّم فترد على سؤال السائل تسفهياً له، ولسرعة التجاوب من مريم عليها السلام حتى يدرك السائل (المتلقي)، أنها لا تريد الكلام أو أن تصدر الإجابة منها، فانجزت فعلاً غير لغوي، يناسب المقام، التي هي ومن حولها فيه، فكان الفعل الملائم مقاماً وإبلاغاً هو الفعل (فأشارت)، فعدم الكلام (الصمت) هو علامة أو رمز، وهو حدث غير لفظي كما هو حدث الإشارة؛ لأنّ الإشارة لا تعني الكلام بل عدم الكلام، لكنّها تعني دلالة ما أو أكثر، تسهم في الإفصاح أو في التعبير ـــ بنسب منها قد تتفاوت بين دلالة وأخرى ـــ عن قصدية المرسل، فما دام أن قصدية أراد فعلاً المرسل إرسالها من خلال نصّ تتباين أحداثه عن أحداث نصّ آخر، أو تتباين مواقع الحامل الذي يشارك غيره من مكونات المحتوى القضوي، في تأدية موضوع هذا المحتوى القضوي/ القضية، التي حمل شعارها الحامل، وأنجزت بمؤازرة بمكونات هذا المحتوى التي ضمّها التركيب الإسنادي (فأشارت إليه)، أي أشارت إليه ليتكلم مجيباً عنها.

فالقرآن خاطب العرب بما لديهم من معارف ومكتسبات سواء أكانت ثقافية أم اجتماعية أم عقائدية؛ تقريعاً وإلزاماً لهم بالحجة الداحضة، التي تؤكد على صدق كتابه وصدق رسوله، رحمة بهم فيؤمنوا بما جاء به ودعا إليه، فكان الصمت رمزاً يقينياً، بفعل المعارف العقائدية؛ معرفة العوالم، عالم الوحي والإلهام، بدليل:" فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً"، أدركت مريم إنّه وحي، ويبدو أنّه من باب المعقولات التي تدرك مريم أن الذي أشارت إليه، هو وحده من سينوب عنها في إجابة السائل الذي بدا مكذباً من استغرابه بالفعل الذي وقع من مريم، وقد أبانت أداة النداء:"يا" والنبر الصوتي الذي وقع على المقطع الصوتي الذي شكلّته، أبانت عن هذا الاستغراب، فعرّفها أولاً بأخيها؛ إذ لم يقل: يا مريم عندما استغربوا مما فعلت مريم، فالإنكار على ما جاءت به مريم، كان بالتعريف بأخيها النبي هارون التي انتسبت إليه بالذرية؛ ذرية النبوة، إذ لم يكن لمريم عليها السلام أخ، وبأبيها (عمران) الذي لم يكن امرأ سوء، وبأمها، الموصوفة بالعفة، فدّل على هذه الصفة بضدها المنفي، أي بنفي البغاء عنها، فعندما أجابهم المشار إليه (عيسى)، تحققوا شهادة

وسمعاً أنّ ما أضفوه على مريم من صفات أهلها، كان كافياً وكفيلاً ككفاية جواب عيسى عليه السلام لهم بعفتها .

ونصّ ابن عاشور على أنّ الذي أوحي إلى مريم هو (عيسى) نفسه، قال:" هذا من بقية ما ناداها به عيسى، وهو وحي من الله إلى مريم أجراه على لسان الطفل، تلقيناً من الله لمريم وإرشاداً لقطع المراجعة مع من يريدُ مجادلتها، فعلّمها أنْ تنذر صوماً يقارنه انقطاع عن الكلام، فتكون في عبادة وتستريح من سؤال السائلين ومجادلة الجهلة "([1]). كما أبان ابن عاشور عن معنى الإشارة وعن معنى الاستفهام وعن معنى كان الزائدة، فقال:" ... أو أشارت إلى أن يسمعوا منه الجواب عن توبيخهم إياها وقد فهموا ذلك من إشارتها... والاستفهام: إنكار؛ أنكروا أن يكلموا من ليس من شأنه أن يتكلم، وأنكروا أن تحيلهم على مكالمته، أي كيف نترقب منه الجواب أو كيف نلقي عليه السؤال؛ لأنَّ الحالتين تقتضيان التكلم، وزيادة فعل الكون في (مَن كَان في المَهدِ) للدلالة على تمكن المظروفية في المهد من هذا الذي أحيلوا على مكالمته، وذلك مبالغة منهم في الإنكار، وتعجب من استخفافها بهم، ففعل (كان) زائد للتوكيد، ولذلك جاء بصيغة المضي؛ لأنّ (كان) الزائدة تكون بصيغة الماضي غالباً "([2]).

فكما أن حدثاً كلامياً أنجز في مستواه اللغوي الصوتي أو الكتابي، فظهر مسموعاً أو مكتوباً للمتلقي بتركيب ما، فإن أحداثاً غير لغوية تنجز فتؤدي المعنى الذي أدّاه الحدث اللغوي، لكن تأدية المعنى جاءت بشكل غير لغوي؛ (صمت، فأشارت، ألا تكلّم)؛ ليكون أبلغ من تأديته بشكلٍ لغوي، فالحدث تلازمه دلالة كما تلازم الحدث اللغوي دلالة مطابقة أو تضمين أو التزام، والدلالة تأتي أبلغ أيضاً وهي تؤدى بحدث لغوي كذلك، أي بمعنى أن لا تفاضل بين حدث وحدث، عندما يؤدي كل واحد منهما دلالةً أكثر إبلاغاً، من بين دلالات بنى النصّ سطحية أو

1- ابن عاشور: التحرير والتنوير، 471/8. .

2- المرجع نفسه:472/8.

عميقة، سواء أكان على مستواه الأفقي أو على مستواه العمودي، لكن منْ يحدد الحدث الذي ينجز المهمة الدلالية، إنّما هو المبدع الذي يعرف مقام القول .

ومن ضروب المستوى التداولي، استعمال الألفاظ على سبيل العرف اللغوي، نحو قوله تعالى:"ألم تر"، فالاستفهام تعجيبي، ومثل هذا الاستعمال قد ألفه العرب في عرفهم اللغوي التواصلي، قال:﴿ مثله شائع في كلام العرب يجعلون الاستفهام على نفي فعل، والمراد حصول ضده بحثّ المخاطب على الاهتمام بتحصيله، أي كيف لم تر ذلك ، ونزّل إرسال الشياطين على الكافرين لاتضاح آثاره منزلة الشيء المرئي المشاهد، فوقع التعجيب من مَرآه بقوله: ألم تر ذلك .

3.2.3 الوحدة الموضوعية في السورة

موضوع السورة المحوري الذي شكّل البنية الدلالية الكبرى لبنيتها هو محور الوحدانية لله تعالى، وقد تضمنته أبنية السورة، سواء أكان هذا المحور مصرحاً به في بعض الآيات، أم مفهوم من خلال ذكر الأنبياء والرسل قبل عيسى عليه السلام، أو من خلال المحتوى القضوي لآية أو مجموعة آيات، تتحدث عن موقف بعض مخلوقات الله تعالى الغاضب ضد منْ ادّعى أنّ عيسى عليه السلام هو ابن الله، أو أنة إله يُعْبد مع الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيرا، أو من خلال الحديث عن محاور تؤكد على محور الوحدانية نحو: إقرار هذا المحور من خلال تفرّده سبحانه وتعالى باسمه (الله)، الذي لم يسم به أحد لا قبله ولا بعده، ومن ذكر علمه سبحانه الذي وسع كلّ شيء، فهو عالم الغيب والشهادة، وذكر الخلق والموت والبعث والثواب والعقاب، فمن الآيات التي تناولت إثبات المحاور الرئيسة التي تؤكد للموضوع المحوري المركزي وهو (التوحيد)، قول الله تعالى:﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا*رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا*وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا متُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا*أَوَلا يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا*فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾([1])، فالآية الأولى متضمنة

---

[1]– سورة مريم: الآيات (64–68) .

محور الوحدانية، من خلال المحتوى القضوي الذي يمثل قضية أو موضوع التنزيل، وهذا المحتوى القضوي تحقق من خلال الفعل المضارع المسند لفظاً لضمير الجمع المحذوف (نحن)، الذي يحيل إحالة خارجية ذاتية متطابقة للملائكة، إذ الملائكة كلّهم داخل الأمر، فليس الأمر خاصاً بجبريل وحده عليه السلام، فجاء الفعل دّال بإسناده إلى جميع الملائكة، لئلا يكون مدخلاً لأحد يدّعي بأنّ أحداً من الملائكة أو كلّهم إلا جبريل خارج مدلول فعل الأمر، فينزل من غير أن يأمره الله عزّ وجل، فجاء نفي فعل النزول عن الملائكة مباشرة بعد الفعل، بجملة الاستثناء التي أضيف فيها الاسم النكرة المجرور (بأمر)، إلى لفظ الجلالة (ربك)، فعُرّف الاسم بإضافته إلى صاحب الأمر ومالكه في الحقيقة، فدلّت الجملة من الآية على وحدانية الله بالألوهية والربوبية، ثم أكّدت الجمل بعدها: له ما بين أيدينا، وما خلفنا، وما بين ذلك، على هذا المحور، فتقديم الضمير على الحرف المصدري (ما/ له ما) الذي يحيل إحالة خارجية ذاتية متطابقة إلى لفظ الجلالة قبله(ربك)، ومسبوقاً بحرف اللام الدّال على الملكية (له)، اللذان ربطا الجملتين قبلهما وبعدهما، فهذا التقديم والاسم الموصول بعده(ما) بعده، دلّ على إحاطة علمه بكلّ شيء، وهذه الإحاطة دالّة على المحور المركزي للسورة، وكذلك التقديم للرابطين (له) المحذوفين من بنية الجملتين سطحياً، المذكورين في بنيتهما العميقة أي: وله ما خلفنا، وله ما بين ذلك، تفصيل لهذه الإحاطة التي شملت الغيب والشهادة، ولقد تكررت الإحاطة لفظاً ومعنىً في السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة كثيراً، فمنها قول الله تعالى:﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾([1])، فذكرت في أول سورة من هذه السور، ومنها ما ذُكرَ بعد سورة مريم قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾([2])، وهذا يدلّ على التماسك

---

[1]– سورة البقرة: الآية: 255 .

[2]– سورة طه: الآية: 110 .

النصي على مستوى الدلالات، سواء أكان التماسك متحققاً عن طريق التفسير الكلّي أم عن طريق فكرة التفسير النسبي .

فكلام الملائكة المنفي منهم (وما نتنزل)، والمعنى الإنجازي غير المباشر من جملة الاستفهام (هل تعلم)، الذي يفيد نفي الشرك عن الله سبحانه وتعالى، بنفي أنْ يكون له شريك معه في الاسم (الله)، تدلّ على موضوع السورة المحوري وهو (التوحيد)، ولم يعتدّ الرازي بظاهر الآية بأنْ تفردّه بالاسم علّة العبادة قال: "أما قوله تعالى:﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ فالظاهر يدل على أنه تعالى جعل علة الأمر بالعبادة والأمر بالمصابرة عليها أنه لا سمي له، والأقرب هو كونه منعماً بأصول النعم وفروعها وهي خلق الأجسام والحياة والعقل وغيرها فإنه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه، فإذا كان هو قد أنعم عليك بغاية الإنعام وجب أن تعظمه بغاية التعظيم وهي العبادة "([1]) .

لم يجعل الرازي العبادة هي بسبب تفرده بالاسم، بل جعل أنّ المستحق للعبادة هو منْ له صفة الربوبية حقاً، وهو الله عزّ وجل اسمه المتفرّد بهذا الاسم؛ لفظ الجلالة (الله)، وغاية التعظيم له سبحانه وتعالى هي العبادة، ويلاحظ معنى الإحاطة المفهوم من كلام الرازي، بإسناده أفعال القدرة؛ الخلق، الحياة، العقل، لله سبحانه وتعالى وحده .

واستصوب الرازي الرأي الأول في دلالة السؤال غير المباشرة، التي أفادتها جملة الاستفهام المنجزة، وهي إفادة النفي لا الاستفهام، فالجملة من الفعل (تعلم) وأداة الاستفهام قبله،(هل تعلم)، ليس القصد منها سؤال نبيّه عليه السلام عن شيء قد سُمّي باسم (الله) يعلمه نبيّه أو لا يعلمه، بل نفى أنْ يكون له شريك في اسم (ربّه) الله سبحانه وتعالى، فالسؤال أفاد معنىً إنجازياً غير مباشر وهو أنه: ليس له شريك في شيء ألبتة:" ليس كمثله شيء"، حتى في اسمه عزّ وجل، ولا في اسم من أسمائه ولا في صفة من صفاته في الحقيقة مطلقاً، ولا في بعض أسمائه إلا أنْ يكون المقطع الأول دالاً على العبودية له عزّ شأنه، فسمّوا: عبد الله و عبد الرحمن وعبد

---

[1]– الرازي: مفاتيح الغيب، 148/10.

الصمد...الخ. ولم يُسمّوا:الله، ولا الرحمن، ولا الصمد...الخ. قال الرازي:"ومن الناس من قال: المراد أنه سبحانه ليس له شريك في اسمه وبينوا ذلك من وجهين: الأول: أنهم وإن كانوا يطلقون لفظ الإله على الوثن فما أطلقوا لفظ الله على شيء سواه وعن ابن عباس رضي الله عنهما لا يسمى بالرحمن غيره،الثاني: هل تعلم من سمي باسمه على الحق دون الباطل؟ لأن التسمية على الباطل في كونها غير معتد بها كلا تسمية، والقول الأول هو الصواب، والله أعلم"([1]) .

وأقسم الله تبارك وتعالى باسمه وقد أضاف إليه ضمير الخطاب (الكاف)، محالاً إحالة نصيّة خارجية ذاتية متطابقة إلى الرسول عليه السلام، أقسم على بعثهم أحياءً، ردّاً على استنكار واستبعاد الكافرين خروجهم أحياءً من الأرض بعد زوالهم منها وفنائهم فيها، فقد أثبت لهم الله هذا الإخراج بإخراج أقرّوا به، كان أولى بهم لأن يستنكروه ويستبعدوه وهو خلقهم من لا شيء، قال تعالى:﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا*ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾([2])، والإخراج يكون من شيء وهذا الشيء هم أنفسهم، فكأن الإخراج مسألة أهون وأسهل من مسألة الخلق، فكيف يقع التعجب على سبيل الاستنكار والاستبعاد، من إخراجهم من شيء، ولم يقع هذا التعجب من خلقهم ولم يكونوا شيئاً، والخالق والمخرج إله واحد هو الله رب السموات والأرض، فجاءت الآيات التي تتحدث عن الخلق والبعث، لتؤكد على أمر العبادة لإله واحد لا شريك له التي جاءت في الآية قبل هذه الآيات قال الله تعالى:" رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ".

كما أنّ محور التوحيد قد دلّت عليه جملٌ من السورة دلالة سيميائية علامتية غير لفظية، ومن هذه الجمل (من دون الله) في قول الله تعالى:﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا "([3]) قال ابن عاشور:"وفي قوله:" من دون الله "، إيماء

---

[1]- الرازي: مفاتيح الغيب: 329/10 .

[2]- سورة مريم: الآيتان/68،69.

[3]- سورة مريم: الآية/81 .

إلى أنّ الحق يقتضي أن يتّخذوا الله إلهاً، إذ بذلك تقرّر الاعتقاد الحق من مبدأ الخليقة، وعليه دلّت القول الراجحة"([1]) .

كما أنّ محور الوحدانية لله تعالى بالألوهية والربوبية، قد دلّت عليها الأفعال المنجزة في الآيات التالية، وشكّلت في إسنادها إلى مخلوقات من مخلوقات الله، (انزياحاً إسنادياً)، لتدلّ بهذا الانزياح الإسنادي إلى لفت نظر المتلقين إلى تنزيهها وإقرارها بأنّ الله سبحانه وتعالى لا شريك له في الألوهية والربوبية، وهذا التنزيه والإقرار منها، مثّله وصوّره الموقف الغاضب الذي اتخذته هذه المخلوقات، ومصرّحة بهذا الغضب وعدم الرضا من قول الشرك، فأوشكت السماوات والأرض أن تتشقق والجبال أن تسقط هدّاً، وفي هذا السياق يذكر ابن عاشور :" والكلام جار على المبالغة في التهويل من فظاعة هذا القول بحيث إنه يبلغ إلى الجمادات العظيمة فيُغيّر كيانها .

والهدّ: هدم البناء، وانتصب (هَدّاً) على المفعولية المطلقة لبيان نوع الخرور، أي سقوط الهَدم، وهو أن يتساقط شظايا وقطعاً .

و"أن دَعوا للرحمن ولداً " متعلّق بكل من "يتفطرن، وتنشق، وتخرّ"، وهو على حذف لام الجرّ قبل (أنْ) المصدريّة وهو حذف مطرّد"([2]) .

ففي آخر سورة مريم نقرأ الآيات التي تؤكد على محور الوحدانية، التي تدلّ على أنّ الله غني عن شريك له سبحانه، فهو خالق السماوات والأرض وما بينهما، فما ينبغي أن يكون لله شريكاً، فمخلوقاته عزّ وجلّ دالة على وحدانيته وهي صامتة، قال الله تعالى:﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا *أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا*وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾([3]) .

---

[1]– ابن عاشور: التحرير والتنوير"430/8 .

[2]– المرجع نفسه:47/4 .

[3]– سورة مريم: الآيات (88–92).

هـ ـ الموضوع المحوري المركزي في سورة مريم

شكّل موضوع الوحدانية الموضوع المحوري المركزي الذي تناولته سورة مريم، وقد جاء التركيز على هذا المحور من خلال كثير من الجمل التي توزعت في بنى النصّ الصغرى والكبرى، على مستوى النصّ الأفقي والعمودي، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ*وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾([1])، فالإقرار بالوحدانية والربوبية لله وحده، أقرّتها هاتان الآيتان بشكل صريح، وجميع الجمل التي شكّلها اللفظان الجليلان؛ لفظ الجلالة (الله)، ولفظ الجلالة (ربّ مضافاً إليه ضمير الجمع نحو: ربكم، أو ضمير الإضافة المفرد نحو: ربي)، سواء أتقدم لفظ منها على الآخر أم لم تقدم، فهي جمل متعالقة فيما بينها على مستوى الدلالات، مع قوله تعالى في سورة الفاتحة:" الحمد لله ربّ العالمين"، ومع غيرها من الآيات التي تضمنت هذه الجمل لفظاً أو معنىً، كما تضمنت الآية معنى التوحيد الذي تضمنه فعل الأمر (فاعبدوه)، وهذه العبادة ـ كما ذكرنا في أكثر من موضع ـ أنّ معناها الإقرار بالوحدانية لله سبحانه وتعالى بالإلوهية والربوبية، وهو التفسير الذي ذهب إليه ابن عباس أين ما ورد اللفظ الذي يشير إلى العبادة كما ذكر الطبري وغيره من المفسرين، وذلك عندما فسّر قوله تعالى من سورة البقرة: (اعبدوا ربكم)، وهذا مما يعضد التماسك النصيّ، ليس على مستوى السورة الواحدة من السور ذوات الحروف المقطّعة فحسب، بل على مستوى هذه السور جميعها كذلك .

لقد جاء التركيز على هذا المحور من خلال ذكر الأنبياء والرسل في السورة، وقد رافق هذا الذكر مدح الأنبياء والرسل بشكل صريح في آيات هذه السورة، فكان من نتائج ما قاموا به من تنفيذ أمر الله سبحانه وتعالى، دعوتهم إلى عبادته إلهاً واحداً وربّاً واحداً، وكذّبهم كثير من أتباعهم حتّى أقرب الناس إليهم، وأوذوا في سبيل دعوتهم إلى عبادة الله وتبليغهم أوامره، فصبروا وتحملوا واعتزلوا أهليهم وأقوامهم، الذين أصرّوا على الشرك بالله سبحانه وتعالى، فكان جزاؤهم من الله عزّ

---

[1]– سورة مريم: الآيتان/ 35،36.

وجل جزاءً حسناً وعاجلاً أولاً، إذ وهبهم الله خيراً كثيراً وفتح لهم فتحاً مبيناً، فعذّب سبحانه وتعالى من كفر وأنجى رسله ومن تبعهم وآمن لهم، وقد صرّحت آيات كثيرة بهذا الجزاء الحسن في سورة مريم وفي غيرها من السور، وقد تنوع هذا الجزاء الحسن، فمنه الجزاء الذي مثّله الفعل (وهب)، وهو الفعل الذي تكرر كثيراً في سورة مريم، محققاً بتكراره تماسكاً وتعالقاً دلالياً بينه وبين دلالة لفظ الجلالة (الوهاب) من جهة، وتماسكاً وتعالقاً دلالياً مع حرف الهاء الذي جاء ثانياً في الحروف المقطّعة (كهيعص) من جهة أخرى، وكان مجيء هذا الفعل في سياق محور الوحدانية الذي تضمنته السورة، ولمعرفة هذا السياق من خلال هذا الفعل (وهب)، من المناسب أن أجعل الحديث عنه، محوراً رئيساً في التأكيد على موضوع السورة المحوري من جهة، ومحوراً رئيساً في إثبات التماسك النصيّ من خلال عنصر التناص، بين سورة مريم وسائر السور ذوات الحروف المقطّعة، لذا جعلت العنوان التالي متصلاً بموضوع هذه السورة المحوري وهو الإقرار بالوحدانية لله سبحانه وتعالى .

ونجد في سورة مريم آيات يمكن أن نحيل مبناها ومعناها إلى جميع المستويات اللغوية، التي تتعاضد وتتداخل عناصرها من أجل فهم نصّ السورة ودلالته على موضوعه المحوري (الوحدانية)، باعتبار هذه الآيات فقرة تشكل نصّاً، يثبت أنّ الكفاية اللغوية تتحقق عبر إنتاج أكبر عدد من النصوص، كما هي الكفاية اللغوية التي يُعبّر عنها بإنتاج أكبر عدد من الجمل، فنهاية قصة ولادة مريم لعيسى عليهما السلام، انتهت بجواب عيسى الذي أجلى كلّ شيء يشوبها، بقدرته على الكلام الذي أنكر وقوعه السائلون أولاً، ثم ما ما ذكره هو تعريفاً بنفسه، فهو ليس عيسى أولاً بل هو عبد الله بإضافة صفته البشرية إلى اسم الله، (عبد لله)، قال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام:﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾([1])، وقوله

[1]- سورة مريم: الآية/30.

تعالى:﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ*وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾([1]) .

فلفظة عبدنا كررت في آيات كثيرة منها:﴿ مما أنزلنا على عبدنا ﴾،:" واذكر عبدنا..."، كما كررت لفظاً ومعنى لفظة الصراط المستقيم، وهو هو الصراط المستقيم نفسه المتقدم في أول النصّ القرآني، فطلب المتلقي أن يهدى إليه :" اهدنا الصراط المستقيم"، وتتجاوب مع هذه اللفظة (عبدنا)، ألفاظ الأفعال المتنوعة في أبنيتها المتفقة في صيغتها الأمرية نحو(اعبدوا، عبدنا، من عبادنا، العبد)، فإذا ما كانت هذه الألفاظ قد فسّرت بانها تعني الوحدانية أو التوحيد، فإنّ دلالة شهادة التوحيد ونفي الشرك وأسماء الله الحسنى التي له وحده كما قال تعالى:﴿ ولله الأسماء الحسنى﴾، المتضمنة دلالتها على الوحدانية له في الألوهية والربوبية، فإنّ هذه الكلمات كلها تتعالق فيما بينها ضمن إطار البنية الكليّة الكبرى التي يشكلّها النصّ .

و- التماسك النصيّ بين سورة مريم وسائر السور ذوات الحروف المقطّعة

لقد تقرر عند كثير من علماء النصّ أنّ التماسك النصيّ يتحقق من خلال التعالق على مستوى دلالات النصّ، لذا فإنّ النتائج المتحققة من تعالق الأفعال وإسنادها لفاعل واحد، من خلال المحتوى القضوي الذي تشكّله مع غيرها من الألفاظ، يسهم في تحقيق تماسك النصّ، فمن الأفعال التي أدّت هذا الدور الفعل (وهب)، الذي تكرّر في سورة مريم ، لذا سنجعله مثالاً لعنصر التناص الذي تتناص به سورة مريم مع غيرها من السور ذوات الحروف المقطّعة، بالإضافة إلى بعض الأفعال التي تدخل مع الفعل (وهب) في حقل دلالي واحد نحو: وأنعم، وأنجى، وبشّر .

من خلال استقراء هذا الفعل في نصوص هذه السور، ظهر كما يبدو ــ أنّ الفعل (وهب)، كان أكثر مجيئه بعد موقف رسول من الرسل عليهم السلام مع قومه، أو مواجهة داخلية نفسية حرصاً على الدين والعبادة، ، فكان في اعتزال أحد الرسل

---

[1]- سورة مريم: الآيتان/35،36.

لقومه، لرفضهم دينه وعدم استجابتهم لما يدعوهم إليه ومحاربتهم لــه، كــان فــي اعتزاله لهم خيراً له ولمن اتّبعه، فإبراهيم عليه السلام وهبه الله ســبحانه وتعــالى ذرية صالحة، لمّا اعتزل أباه وقومَه وما يعبدون، وموسى عليه السلام وهبه أخــاه هارون عليه السلام فشدّ عضده به... ومحمد عليه الصلاة والسلام خرج من مكــة وهو كاره لذلك، فمن المناسب الاستشهاد بالآيات التي تبيّن هذه المواقف وما وهــب الرسل بسببها.

فعلى لسان إبراهيم قال تعالى: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُــو رَبِّي عَسَى أَلا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا *وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾([1])، فالفعل (وهب) جاء مسنداً إلى ضمير الجمع (نا)، الدّال علــى التعظــيم، فأحال إلي اسم من أسمائه الحسنى، المتأولــة لحــرف (الهــاء) مــن (كهــيعص) وهو(الوهّاب).

وفي شأن موسى وعزلته بخروجه من مصر، قال تعالى:﴿ وَوَهَبْنَا لَــهُ مِــنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾([2])، وأجملت الآية الآتية من خلال لفظــة واحــدة هــي (أنعم)، أحالت إلى جميع الرسل والأنبياء الذي ورد ذكرهم والذين لم يرد لهم ذكــر ومعهم ممن هدى الله، علامة على نعم الله لن تنفد ألبتة، سواء في حياتنــا أو عنــد مماتنا أو عند لقائه في اليوم الذي لا ريب فيه، قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّــهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْــرَاهِيمَ وَإِسْــرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾([3]).

أمّا محمد عليه الصلاة والسلام، فأسّس دولة الإسلام في المدينة، ثم فتح الله له فتحاً مبيناً، ففتح له مكة أحبَّ أرض الله إلى الله عزّ وجلّ، جاء في مسند الإمام أحمد وغيره:" حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ أَخْبَرَنَا أَبُو سَــلَمَةَ بْــنُ عَبْــدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَدِيِّ بْنِ الْحَمْرَاءِ الزُّهْرِيَّ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّــهُ

---

[1]- سورة مريم: الآيات (48-50).

[2]- سورة مريم: الآية:53.

[3]- سورة مريم: الآية:58 .

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ وَاقِفٌ بِالْحَزْوَرَةِ فِي سُوقِ مَكَّةَ وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَوْلا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ"([1])، وقد يكون الفتح رحمة وعذاباً، فالفتح الذي طلبه نوح عليه السلام كان رحمة به وبمن معه وعذاباً مهلكاً لمن كفر بما دعا إليه، قال تعالى:﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾([2]) .

وتبدو العلاقة منسجمة بين الفعل (وهب) والفعل (بشّر)، والفعل (أنجى)، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾([3]).

وردالفعل (فوَهَبَ)، مسبوقاً بحرف الفاء مرة واحدة ، قال تعالى:﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (20) فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾([4]).

الفعل (وهبنا)، قال تعالى:﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، وقال تعالى:﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾([5])، والسياق الذي وردت فيه هذه الأفعال، هو في سياق الموضوع المحوري المركزي هو (الوحدانية ونفي الشرك .

الفعل (وَهَبَ) قال تعالى:﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾([6])، وقال تعالى:﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾([7])، وقال تعالى:﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا

---

[1]- ورد الحديث بنصّه في: مسند الإمام أحمد:155/38، والسنن الكبرى للنسائي:479/2، وسنن الترمذي:434/12، وسنن ابن ماجه:235/9 وفي غيرها .

[2]- سورة الشعراء:الآية:119 .

[3]- سورة العنكبوت: الآيتان:14،15.

[4]- سورة الشعراء: الآيتان/20،21.

[5]- سورة ص الآيتان/30،43.

[6]- سورة إبراهيم: الآية/39.

[7]- سورة آل عمران: الآية.(9)

وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾([1])، وقال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾([2])، وقال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾([3])، وقال تعالى:﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ*رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ*فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾([4]).

إنّ سياق توالي ذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم، اقتضى عذاب الكفار أولاً ثم نجاة نوح عليه السلام ومن معه، لكنّ قوله تعالى:﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾([5]) ـ مع أنه في السياق نفسه، كما بدأت الآية بحرف الجر واسم قوم الرسول، في البنية المحولة لها (السطحية)، أو بحذف الفعل قبل حرف الجر في البنية العميقة كذلك (وأرسلنا إلى) ـ لكنّه لم يذكر الفعل (فأنجيناه) ـ المقابل لفعل العذاب ـ بعده بنجاة للرسول، فجواب الطلب اقتضى جواباً للطلب، وهو فعل العذاب وما بعده، ليكون مقابلاً للفعل المسبوق بلا الناهية (ولا تمسوها)، تعقيباً وتأكيداً على دعوة وأمر الحق الذي جاء به الرسل جميعاً، إلا أنّ الفع (فأنجاه) لم يرد في الآية كما هو الحال في آيات من هذه السورة وغيرها، ويبدو أن الفعل عندما وقع في زمن المستقبل (فيأخذكم)، كان جواباً مقتضياً لفعلي الطلب (الأمر والنهي):﴿ فذروها ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾، فسياق الأفعال الطلبية بصيغة الأمر لم يذكر له جواباً مناقضاً بعدم إجابتها، فلو منعوا الناقة من الأكل أو أصابوها بسوء، لأخذهم العذاب أولاً، ثم ذكر عقيب هذا الجزاء جزاء الرسول (صالح) عليه السلام وهو النجاة :" فأنجيناه، أي: فأخذهم العذاب فأنجيناه، في بنية الجملة العميقة، ولقد فسّرت هذه الآية الآيات الآتية من سورة الشعراء، قال تعالى:﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ*وَلَا

---

[1]- سورة الشعراء: الآية/ 83.

[2]- سورة ص: الآية/35 .

[3]- سورة الأنبياء: الآية/74.

[4]- سورة الصافات: الآيات (99-101).

[5]- سورة الأعراف: الآية/73.

تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ*فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ* فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ*وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾([1]) .

وكذلك تعالق الآيات من سورة النمل معها، فزادت في تفسيرها، بأن ذكرت الفعل (أنجينا) مسبوقاً بالواو، قال الله تعالى :﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ*فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ*وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾([2]).

وجاءت آيات أخرى في هذه السور وغيرها دون ذكر المقابل لعذاب الكفار ونجاة الرسل ومن معهم ، لكنّها ذُكرت في آيات سور أخرى، ففسّرتها بذكر كيفية العذاب للكفار، وذكر المقابل له وهي النجاة .

فقد ذكر المسند إليه واضمر المفعول به، بخلاف الآيات السابقة التي لم يذكر فيها المسند إليه فمحذوف، وهو ضمير الغائب (هو)، الذي يحيل إلى لفظ الجلالة (الله)، فذكر مع الفعل (أنجاه) مسبوقاً بفاء التعقيب، ولعل مردّ الذكر للمسند إليه هو طول الفصل بالآيات بين قصة إبراهيم عليه السلام وقومه، إذ موضوع الخطاب خاص بالوحدانية ونفي الشرك، وهذه الوحدانية فُسِّرَ بها فعل الأمر بلفظ الجمع وملحقاً به الضمير (فاعبدوه) الذي يحيل إحالة قبلية ذاتية متطابقة للفظ الجلالة (الله) الذي دلّت عليه الآية التي قبلها، قال الله تعالى:﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾([3]).

كما تناصت سورة مريم مع سورة آل عمران في لفظة ذرية، وقد سبق في سورة (آل عمران) دلالة (آل) على الذرية، ومريم عليها السلام، التي سمت السورة باسمها كما سميت سورة آل عمران، وكأنها خاصّة بآل عمران، فمريم نفسها هي ابنة عمران الذي أضيف اسمه إلى لفظة (آل).

---

[1]– سورة الشعراء: الآيات (155–159).

[2]– سورة النمل: الآيات(51–53).

[3]– سورة العنكبوت: الآيتان/16،17.

3.3 التحليل النصي لسورتي طه ويس .

سورتا طه ويس من السور التي استهلت بحرفين، وقد بلغ عدد السور المستهلة بحرفين مُقَطَّعَيْن تسع سور، وهي بحسب ترتيب التلاوة (طه، النمل ، يس، غـــافر، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف)، وقد استثنينا من حيث العدد ســورة الشورى على الرغم من استهلالها في آيتها الأولى بحرفين؛ إذ الاعتبار كان لعــدد الحروف، بقطع النظر عن تشكيل حروف الاستهلال للآية الأولى أو للآيتين الأولى والثانية من السورة ، كما هو الحال في سورة الشورى التي استهلت بخمسة أحرف، لذا فإنني سأعتمد في تحليل هذه السور بتوجيه الاعتبار فيها إلى الأسماء التي مَيّزت كل مجموعة من هذه السور، أي بإضافة السور التي خالفتها في عدد الحروف التي استهلت بها واشتركت معها في التسمية، فدخلت بهذا الاعتبار سورة الــشورى مــع مجموعة السور التي سميت بـــ (الحواميم)، ودخلت سورة النمل مع الــسور التـــي سميت باسم (الطواسين).

يتضح لنا بهذا التصنيف أنّ أول مجموعة من مجموع هــذه الــسور ـــ مــع مراعاة موقع أول سورة من كل مجموعة في ترتيب القرآن تلاوة ـــ هـــي ســورتا (طــــه و يــــس) ولعل الجامع بينهما ـــ استئناساً برأي بعض المفسرين ـــ أنهما من أسماء النبي عليه السلام، وهو الرأي الذي لا أذهب إليه، أمّا المجموعة الثانيــة فتشمل السور التي عرفت باسم (الطواسين) وتشمل الــسور: الــشعراء، النمــل ، القصص، أما المجموعة الثالثة من هذه السور فتشمل السور التـــي عرفــت باســم (الحواميم) وتشمل السور: غافر، فصلّت، الشورى، الزخرف، الــدخان، الجاثيــة، الأحقاف) .

1.3.3 سورة طه.

1.1.3.3 الدلالات المتأوّله للحرفين (الطاء والهاء):

دلالتهما على أفعال الأمر:

استهلت سورة طـــه بهذين الحرفين (الطاء والهاء) لفظاً وتركيباً وعنوانـــاً، وسميّت السورة بهما، وشكّل الحرفان نفسهما الآية الأولى منها أيضاً، وقــد تباينــت

قراءات المفسرين لهذين الحرفين منفصلين ومجتمعين ، فمنهم من جعل الطاء حرف مقتطع أول فعل الأمر (طأ) مأموراً به محمد عليه السلام أي: طأ الأرض بقدمك؛ ويظهر هذا التأويل الاستئناس بأنّ الطاء قد وقعت حرفاً متقدماً في بنية فعل أمر، ليتجاوب هذا التأويل مع دلالة حرف (الألف) من (الم)، أنّه مقتطع من أفعال أمر كثيرة، ومن الدلالات التي تأولها بعض المفسرين للحرفين اللذين استهلت بهما هذه السورة، دلالتهما على فعل الأمر المخاطب به محمد عليه الصلاة والسلام، ويبدو أنّ الآية الثانية هي القرينة الي قادت من تأوّل لهما هذه الدلالة، وهي قوله تعالى:﴿طه*مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾([1])، وأورد الألوسي رواية عن علي بن أبي طالب والربيع بن أنس رضي الله عنهما، وجزم بعدم وقوفه على الطعن في روايتها، ولعل هذه الرواية تعضد دلالة فعل الأمر، باعتبارها إحدى الدلالات للحروف المقطّعة، قال الألوسي:"...وقد روي عن علي كرم الله تعالى وجهه، والربيع بن أنس أنهما فسّرا (طه) بطأ الأرض بقدميك يا محمد، ولم أقف على طعن في الرواية والله تعالى أعلم"([2]).

فعل أمر: طأ الأرض بقدمك، أطع طع: أمري، قال الله تعالى:﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾([3]) .

طال العهد:

قال الله تعالى:﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾([4])، ويتصل بمعناه أيضاً الفعل (طوى) الدّال بنسبة منه على البعد، ليتعالق دلالياً مع دلالة جملة (طال العهد).

[1]- سورة طه: الآيتان/2،1 .

[2]- الألوسي: روح المعاني،87/12 .

[3]- سورة طه: الآية/90.

[4]- سورة طه: الآية/86 .

دلالتهما على الصراط المستقيم:

جاء هذا المعنى من خلال لفظة (السوي) صفة الصراط في آخر السورة، قال تعالى:﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾([1])، وهذه الصفة اشتركت مع صفة المستقيم في حقل دلالي واحد.

طريق هداية واستقامة:

أنبأ عن هذا المعنى قوله تعالى:﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾([2])، وأورد ابن عاشور بعض الأقوال التي قيلت في تأويل هذين الحرفين بقوله:"...وذهب بعض المفسرين إلى اعتبارهما كلمة لغة (عك) أو (عُكل)، أو كلمة من الحبشية أو النبطية وأنّ معناها في لغة:(عك) يا إنسان، أو يا رجل، وفي ما عداها: يا حبيبي، وقيل: هي اسم سمّى الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وأنّه على معنى النّداء، أو هو قسم به وقيل: هي اسم من أسماء الله تعالى على معنى القسم "([3]). واستناداً إلى اعتبار الحروف المقطعة جملة نواة أو بؤرة رئيسة، فلا بد من تأويل لهذين الحرفين في جملة تتعالق مع ما بعدها من جمل، ولمّا كان تأويل الحروف المقطّعة المتعدد يؤول إلى أسماء الله الحسنى، وأنّ هذه الحروف واقعة موقع المقسم به، فإنّ الجملة التي يمكن تأويلها لهذين الحرفين باعتبار حرف الطاء من اللطيف والهاء من الهادي، هي: والله اللطيف بك وبأمتك الهادي إليك ولأمتك ما أنزل هذا القرآن لتشقى به يا محمد أنت وأمتك لكنه أنزله هداية ورحمة وتذكيراً بخشية الله سبحانه وتعالى في السرّ والعلن، وهو الهادي إلى الصراط المستقيم.

---

[1]- سورة طه: الآية/135.

[2]- سورة طه: الآيتان/2،1 .

[3]- ابن عاشور: التحرير والتنوير، 13/9.

2.1.3.3 عناصر التماسك النصي في سورة (طه)

أ- العلاقات والعناصر النحوية.

الحذف: **حذف المبتد:**

ومنه ما جاء في قوله الله تعالى:﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾([1])، ابن عاشور:" تذييل لما قبله لأنّ ما قبله تضمن صفات من فعل الله تعالى ومن خلقه ومن عظمته فجاء هذا التذييل بما يجمع صفاته، واسم الجلالة خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هو الله، جرياً على ما تقدّم عند قوله تعالى:﴿الرحمن على العَرْشِ استوى﴾([2]) .

حذف المفعول به: ومنه حذف ضمير الجمع (هم) في قوله تعالى:﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾([3])، فتقدير الضمير المحذوف (وما هداهم)، فقد جاء الحذف للاختصار ولغرض إبلاغي أيضاً، قال السامرائي:"...غير أنّ الحذف هنا له غرض لطيف علاوة على الإيجاز، وذلك أنّه أخرجه مخرج العموم؛ أي أنّ فرعون لم يتصف بصفة الهداية البتة، وذلك أنّه لو قال: (وما هداهم) لكان عدم الهداية مقيداً بقومه إذ يحتمل أنّه هدى غيرهم، لكنّه قال: (وما هدى) أي ما هدى أحداً، ومثله قوله تعالى:﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾([4])،أي وهداه، غير أنّه أخرجه مخرج العموم، فلم يقصر الهداية على آدم عليه السلام "([5]) .

التقديم لإفادة التوكيد: ومنه تقديم الرابط (كذلك)، من قوله تعالى:﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾([6]) قال أبو السعود:" فقدّم على الفعل لإفادة القصرِ وعدّت الكافُ مقحمةً

---

[1]- سورة طه: الآية/8 .

[2]- سورة طه: الآية/5. وانظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير،9/ 28 .

[3]- سورة طه: الآية/ 79.

[4]- سورة طه: الآية/ 122.

[5]- السامرائي: معاني النحو، 2/ 81 .

[6]- سورة طه: الآية/96، وانظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير،9/ 28 .

لإفادة تأكيدِ ما أفاده اسمُ الإشارةِ من الفخامة فصار نفسَ المصدرِ المؤكّدِ لا نعتاً له، أي ذلك التزيينَ البديعَ زينت لي نفسي ما فعلتُه، لا تزييناً أدنى منه ولذلك فعلتُه"([1]).

علاقة الحالية: وتمثلها جملة (لا إله إلاَّ هُو) فهي حال من اسم الجلالة، وكذلك جملة (لهُ الأسماءُ الحسنى) والأسماء: الكلمات الدالة على الاتّصاف بحقائق وهي بالنسبة إلى الله: إما علَم وهو اسم الجلالة خاصةً. وإما وصف مثل الرحمان والجبّار وبقية الأسماء الحسنى .

ب- العلاقات والعناصر الدلالية:

الإحالة: إحالات الضمائر :

الهاء: من كلمة (نفسه)، وجاء في قوله تعالى:﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾([2])، فالهاء من (نفسه) ضمير يحيل إحالة بعدية ذاتية متطابقة إلى موسى عليه السلام، قال السامرائي:"... وقد يعود على متأخر في اللفظ متقدّم في الرتبة... فالضمير في الآية عاد على موسى، وهو متأخر لفظاً متقدّم رتبةً"([3]) .

هو: يحيل إلى لفظ الجلالة (الله) إحالة ذاتية قبلية متطابقة، وهو في موقعه قد ربط بين موضوعين محوريين، قد أنبأت عنهما بعض دلالات (الم) سيميائياً، فاسم (الله) أوحى به صوتاً؛ نطق ألفه همزةً أولاً، وألمح إليه سيميائياً شكله المرسوم أيقونة واقفة معتدلة(|)، على الرغم من تفردها وحدها، بانعزالها قراءة وكتابة، لئلا يتصل بها صوت وخط من شأنهما أنْ يؤثرا في قصديتها المحورية، هذه المحورية التي أقرّت بها دلالة الألف عدداً رياضياً (1) أيضاً، إنّ تحليل ما ألمح إليه ابن عاشور في تفسيره هذه الآية، تحليلاً نصيّاً يتّجه ليشهد للجملة النصّ، ولينشد نصّاً متماسكاً دلالياً، تحقيقاً وتطبيقاً لتماسك النصّ على مستوى موضوع الخطاب، بفعل تعالق الدوّال دلالياً لتدل على الموضوع المحوري الذي مثّل جوهر البنية الكليّة الكبرى للنصّ .

---

[1]- أبو السعود: تفسير أبي السعود:381/4 .

[2]- سورة طه: الآية/67.

[3]- السامرائي: معاني النحو، 1/ 59 .

قال ابن عاشور:" هذه الجملة من حكاية كلام موسى عليه السلام، فموقعها موقع التذييل لوعظه، وقد التفت من خطاب السامري إلى خطاب الأمّة إعراضاً عن خطابه تحقيراً له، وقصداً لتنبيههم على خطئهم ، وتعليمهم صفات الإله الحق، واقتصر منها على الوحدانية وعموم العلم؛ لأنّ الوحدانية تجمع جميع الصفات، كما قرر في دلالة كلمة التوحيد عليها في كتب علم الكلام. وأما عموم العلم فهو إشارة إلى علم الله تعالى بجميع الكائنات الشاملة لأعمالهم ليرقبوه في خاصتهم. واستعير فعل :" وَسِعَ" لمعنى الإحاطة التامة، لأن الإناء الواسع يحيط بأكثر أشياء مما هو دونه... وانتصب (عِلْماً) على أنّه تمييز نسبة السعةِ إلى الله تعالى، فيؤول المعنى: وسع علمه كل شيء بحيث لا يضيق علمه عن شيء، أي لا يقصر عن الاطلاع على أخفى الأشياء، كما أفاده لفظ (كل) المفيد للعموم، وتقدم قريب منه عند قوله:﴿ وسع كرسيه السموات والأرض﴾([1]).

إحالات أسماء الإشارة:

ذلك: من:"وكذلك سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي"، يحيل اسم الإشارة (ذلك) إحالتين قبليّة وبعدية، وهو بهذه الإحالتين قد ربط بين الجملتين قبله وبعده، فأحال في الأولى إلى الفعلين المسندين إلى السامري: فقبضتُ، فنبذتُ، المذكورين في الجملة قبله، وأحال في الثانية إحالة ذاتية متطابقة إلى الاسم المصدر المحذوف (التسويل) المتضمن حدوث الفعلين قبضتُ ونبذت، قال أبو السعود في قوله تعالى:" وكذلك سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي " أي ما فعلتُه من القبض والنبذ فقوله تعالى :" ذلك " إشارةٌ إلى مصدر الفعلِ المذكور بعده ، ومحلٌ كذلك في الأصل النصبُ على أنه مصدرٌ تشبيهيٌ أي نعتٌ لمصدر محذوف والتقديرُ سولت لي نفسي تسويلاً كائناً مثلَ ذلك التسويلِ"([2]) .

التخصيص: يعدّ هذا العنصر عنصراً دلالياً إذ أفاد معنى التخصيص، وقد تأتّى هذا المعنى بفعل التركيب الذي تقدّم في الجار والمجرور (له)، ويبدو أنّ هذا

---

[1]– وانظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير،9/ 33.

[2]– أبو السعود: تفسير أبي السعود:381/4 .

الاختصاص يضارع الحصر في الإفادة، وبالعودة إلى أحد التأويلات لحرف اللام من (الم) في البقرة وغيرها، وهو دلالة الملك لله وحده .

وتقديم المجرور في قوله:"له الأسماءُ الحُسْنى " للاختصاص، أي لا لغيره لأنّ غيره إما أن يكونَ اسمه مجرداً من المعاني المدلولة للأسماء مثل الأصنام ، وإما أن تكون حقائقها فيه غير بالغة منتهى كمال حقيقتها كاتصاف البشر بالرحمة والملِك ، وإما أن يكون الاتّصاف بها كَذباً لا حقيقة، كاتصاف البشر بالكبْر، إذ ليس أهلاً للكبر والجبروت والعزّة .

ووصف الأسمَاءُ بالحسنى؛ لأنّها دالة على حقائق كاملة بالنسبة إلى المسمى بها تعالى وتقدس، وذلك ظاهر في غير اسم الجلالة، وأما في اسم الجلالة الذي هو الاسم العلَم فلأنه مخالف للأعلام من حيث إنّه في الأصل وصف دال على الانفراد بالإلهية؛ لأنّه دال على الإله، وعُرّف باللام الدالة على انحصار الحقيقة عنده، فكان جامعاً لمعنى وجوب الوجود، واستحق العبادة لوجود أسباب استحقاقها عنده . وقد تقدم شيء من هذا عند قوله تعالى:﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾([1]).

المصاحبات المعجمية ومفاتيح النصّ: بصُرْتُ من البصيرة، قال الطبري:" وقوله:"بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ" يقول: قال السامريّ: علمت ما لم يعلموه، وهو فعلت من البصيرة: أي صرت بما عملت بصيراً عالما" الطبري:. ومن البصر: أبصر: أي رأى، ذكر الطبري بعض الروايات له فقال :" عن قتادة (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ) يعني فرس جبرائيل عليه السلام" الطبري .

ويظهر أنّ بنية الفعل (بَصُرَ) على وزن (فَعُل)، منسجمة ومتطابقة مع دلالة الصفة المشبهة (بصير)، التي اكتسبها السامريّ بما علِم به كما ذكر الطبري، فبنية (فعُل) تدل على الثبات، ولم يتعدّ فعلٌ على وزن فعُل ألبتة إلى مفعول به، إلا في فعل واحد تعدى إلى مفعوله المضمر، بعد أنْ ضُمِّنَ معنى فعل آخر على وزن (فَعِلَ)، الدّال أيضاً على اللزوم والثبات في الأصل، وهو قولهم: رَحُبَتْكُم الدار،

---

[1]– سورة الأعراف: الآية/180، ابن عاشور: التحرير والتنوير:163/16.

بمعنى وَسِعَتكُم، فدلالة الثبوت واللزوم في الصفة الثابتة متطابقة مع دلالة الثبوت واللزوم لبنية فعُل، وليست صفة (بصير) صفة ثابتة على الإطلاق للسامري كما توحي به دلالة فعيل وفعُل، لكنها صفة ثَبُتت مؤقتاً للسامري وحده، كما يبدو، وهي بمعنى عالم لا عليم، إذْ إنّ صفة بصير وعليم وغيرهما من الصفات الثابتة، ليست إلا لله سبحانه وتعالى على الإطلاق، ومعنى الإبصار عند أبي عبيده هو العلم، وهو قول نسبه الرازي إلى ابن عبّاس، وبمعنى بصير عالم عند الزجاج أيضاً، وذكر الرازي القولين في الإبصار فقال:" في الإبصار قولان : قال أبو عبيدة : علمت بما لم يعلموا به ومنه قولهم : رجل بصير أي عالم وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وقال الزجاج في تقريره: أبصرته بمعنى رأيته وبصرت به بمعنى صرت به بصيراً عالماً، وقال آخرون: رأيت ما لم يروه فقوله بصرت به بمعنى أبصرته وأراد أنه رأى دابة جبريل عليه السلام فأخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب ثم قال:﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرسول فَنَبَذْتُهَا﴾([1]) .

ج- العلاقات والعناصر التداولية:

يبدو أنّ السياق العام لقصة موسى عليه السلام مع قومه، كان لها سياق خاص بقرينة المكان والزمان، فالسياق العام كان سياق ترقب وانتظار من قوم موسى له، في ضوء سياق ميقات موسى مع ربّه، وقوم موسى في أثره لكنّه تعجّل قبلهم مرضاة لله سبحانه وتعالى كما بدا لموسى عليه السلام، بمعنى أن تزامناً لحادثتين قد وقعتا فيه، الأول ميقات موسى مع الله سبحانه وتعالى، والثاني ما أحدثه للسامري عند رؤيته فرس الرسول (جبريل)، بعد أنْ قبض قبضة من أثره، فكان إبصار السامري لما هو متعلق بجبريل (فرسه أو أثرها أو أثر جبريل عليه السلام نفسه كما في بعض التفاسير)، دوراً في مخالفة السامري لأمر موسى عليه السلام، فعذر السامري لموسى بما بصُر به قبل أن تسول نفس السامري له فعل ما فعله؛ كان كافياً لأن يصفح عنه موسى، وكأنّه يوافق قوم موسى على ما طلبوه وهو آلهة تشبه الأصنام التي رأوها وتزينوا لها القوم الذين مرّ بهم موسى وأخوه والسامري ومنْ

---

[1]- الرازي: مفاتيح الغيب: 462/10 .

معهم من بني إسرائيل، لكن السؤال الذي يتبدأ في ضوء ما بصُر به السامري، وفي ضوء إسناد فعل إخراج العجل للسامري، هل استوحى شكل العجل الذي أخرجه السامري لمن عنده، من خلال الأصنام التي رآها السامري عند القوم الذين مروا بهم، أم استوحى شكل العجل من خلال الصورة الذهنية، التي علقت به لحظة الإبصار التي لم تكتمل عنده، فما كان له تأكيد ما أبصره إلا القبضة التي قبضها من أثر الرسول، فنبذها في العجل الذي استخرجه لمن عنده من بني إسرائيل، ثم أسند الألوهية له كما هو ظاهر قوله تعالى:" هذا إلهكم وإله موسى".

ولعل هذا السياق الذي يجعلنا نتأول: أنّ السامري فعل ما فعل، كان بعد الحدث الخاص بالسامري نفسه، وهو حدث البصيرة الواضح من ظاهر الآية:" بصُرت بما لم يبصروا به"، وفي هذا السياق التأويلي وفي ضوء سياق القصة وما فيها من ترقب وانتظار، يقرر ابن العربي شيئاً يعضد هذا التأويل في أحد جانبيه، بقوله : "...كَمَا جَعَلَ السَّامِرِيُّ مَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ سَبَبًا لِاتِّخَاذِ الْعِجْلِ إلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ"([1])، ويفهم من كلام ابن العربي أنّ ما بصُر به السامري كان سبباً لدى السامري قد حمله على الشرك، فاتخذ العجل إلهً دون الله سبحانه وتعالى، فانتهزها علماً له، كما انتهز القبضة بنبذها في العجل ــ علماً له ــ علّها بنبذها فيه، تجعله عجلاً حيّاً له خوار لا عجلاً جسداً له خوار.

ولعل ما جاء عند الطبري في (تاريخ الرسل والملوك)، ما يعضد التأويل،:"... عن ابن عباس قال كان السامري رجلا من أهل باجرما، وكان من قوم يعبدون البقر فكان حب عبادة البقر في نفسه وكان قد أظهر الإسلام في بنى إسرائيل، فلما فصل هارون في بنى إسرائيل وفصل موسى عنهم إلى ربه تبارك وتعالى، قال لهم هارون: إنكم قد حملتم أوزارا من زينة القوم آل فرعون وأمتعة وحليا فتطهروا منها فانا نجس وأوقد لهم ناراً وقال: اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها قالوا: نعم فجعلوا يأتون بما كان فيهم من تلك الحلي وتلك الأمتعة فيقذفون به فيها حتى إذا انكسرت الحلي فيها رأى السامري أثر فرس جبرائيل، فاخذ ترابا من أثر حافره ثم أقبل إلى

---

[1]– ابن العربي: أحكام القرآن،52/1.

الحفرة فقال لهارون يا نبي الله ألقي ما في يدي قال نعم ولا يظن هارون إلا أنه كبعض ما جاء به غيره من تلك الأمتعة والحلي فقذفه فيها وقال كن عجلا جسدا له خوار فكان للبلاء والفتنة فقال هذا إلهكم وإله موسى فعكفوا عليه وأحبوه حبا لم يحبوا مثله شيئا قط فقال الله عز وجل فنسي أي ترك ما كان عليه من الإسلام يعني السامري ..." ([1]).

د- التماسك النصي بين سورة (طه) وسائر السور ذوات الحروف المقطّعة

إنّ كثير من الكلمات التي وردت في سورة (طه)، قد تكررت لفظاً في السور ذوات الحروف المقطّعة، ولئلا تكثر الآيات التي نستشهد بها لإثبات هذا الرابط (التكرار) النحوي والدلالي، فإنني أقتصر على ذكر آيات من سورتي طه والأعراف، تؤكد على تعالق نصوص السور جميعها، ونمثّل لهذا العنصر من خلال العناصر الآتية:

التكرار اللفظي: ومن أمثلة هذا العنصر الذي يسهم في ترابط وتعالق سورة طه مع غيرها من هذه السور، الكلمات (هدى، الصراط المستقيم، شهادة التوحيد (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ)، ومنه ما جاء مطابقاً لفظاً في سورة الأعراف وهي تتحدث عن قصة موسى مع قومه، ولا سيما بعد رجوعه إليهم من الميقات الموعود، قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾([2])، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾([3]) .

---

[1]- انظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف- القاهرة، 1963م، 1/299، 298، 297، 296.

[2]- سورة طه: الآيتان/86، 98.

[3]- سورة الأعراف: الآية/150.

التكرار بالمعنى: وتمثّله الأسماء الحسنى بحك علاقة التضمن والالتزام، التي توجب أن يكون في إطارها جميع أسماء الله الحسنى، أو بما هو في معناها من الجمل، التي تتحدث عن الخلق والقدرة والعلم والشمول والإحاطة والتوبة والرحمة والهداية ...الخ).

قال البقاعي مستدلاً من الأسلوب ومن القصص القرآني على دلالة علامتية، تدلّ دلالة التزاميّة على موضوع السورة المحوري، من خلال جملة (الذي لا إله إلا هو) الواردة في الآية السابقة، فقال:" ولما تمت هذه القصة على هذا الأسلوب الأعظم ، والسبيل الأقوم ، متكفلة بالدلالة على القدرة على ما وقعت إليه الإشارة من البشارة أول السورة بتكثير هذه الأمة ورد العرب عن غيهم بعد طول التمادي في العناد، والتنكب عن سبيل الرشاد ، إلى ما تخللها من التسلية بأحوال السلف الصالح والتأسية، مفصلة من أدلة التوحيد والبعث، وغير ذلك من الحكم "([1]).

ولعل تلوين الخطاب عند أبي السعود يقابل الأسلوب والقصص عند البقاعي، وكلاهما استقرأ دلالة علامتية (غير لفظية) تدل على موضوع السورة المحوري وهو الوحدانية، قال في تفسيره لقوله تعالى:"إنَّمَا إلهكم الله " استئناف مَسوقٌ لتحقيق الحقِّ إثرَ إبطالِ الباطل بتلوين الخطابِ وتوجيهِه إلى الكل، أي إنّما معبودُكم المستحقُّ للعبادة الله (الذى لا إله) في الوجود لشيء من الأشياء (إلاَّ هُوَ) وحده من غير أن يشاركَه شيءٌ من الأشياء بوجه من الوجوه التي من جملتها أحكامُ الألوهية، وقرىء الله لا إله إلا هو الرحمن ربُّ العرش وقوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً﴾ أي وسع علمُه كلَّ ما من شأنه أن يُعلم بدلٌ من الصلة ، كأنه قيل : إنما إلهكم الله الذي وسع كلَّ شيءٍ علماً لا غيرُه كائناً ما كان فيدخل فيه العِجْلُ دخولاً أولياً، وقرئ وسّع بالتشديد فيكون انتصابُ عِلْماً على المفعولية؛ لأنّه على القراءة الأولى فاعلٌ حقيقةً، وبنقل الفعل إلى التعدية إلى المفعولين صار الفاعل مفعولاً أولاً ، كأنه قيل:

---

[1]- البقاعي: نظم الدر137/13 .

وسِع علمُه كلَّ شيء وبه تم حديثُ موسى عليه السلام المذكورُ لتقرير أمر التوحيد حسبما نطقت به خاتمتُه "([1]) .

2.3.3 سورة يس

1.2.3.3 دلالة الحروف المقطّعة في سورة (يس):

استهلت سورة (يس) بحرفي الياء والسين، وسميت السورة بهذين الحرفين المركبين، وشكلا الآية الأولى من السورة، وقد تعددت دلالات هذين الحرفين كثيراً عند المفسرين شأنهما شأن سائر الحروف المقطّعة الأخرى في فواتح السور، وقد انفرد تأويل فواتح سورتي طه و يس، عن بقية الحروف الأخرى، عند بعض المفسرين، وهذا التفرد جاء بتأويلين يقضي بأنّهما (طه و يس) من أسماء النبي صلى الله عليه وسلّم، والتأويل الآخر على أنّ (طه) معناه: يا رجل، و(يس) يا إنسان، وهما معنيان تأتيا لمنْ تأولهما من خلال دلالتهما في اللغة السريانية.

إذا ما استقرأنا الكلمات التي في سورة (يس) إحصاءً، فإننا نجد أنّ أكثر حرفين تكررا فيها هما الياء والسين، كما أنّ إمكانية تأويل كلمة أو أكثر معنىً لهذين الحرفين هو احتمال وارد، إذا ما كان أيّ معنىً هو تأويل منطقي ومقبول، يعضده ويقرّ بمنطقيته وقبوله في نصّ السورة من جهة، وانسجامه مع الدلالات الأخرى في تشكيل المعنى العام للسورة، دون تعارض مع غيره، يؤدي إلى الإخلال به من جهة أخرى.

من المعاني التي يمكن تأولها للحرفين معاً(يس)، وينتمي هذا التأويل إلى الجانب العرفي أو الاجتماعي للغة، هو لفظنا للحرفين نطقاً كاملاً (ياسين)، يدلّ على استحضارنا لأمر بعيد نتأمل عكسه، فالراحل عنّا عندما نتأمل عودته أو رجوعه إلينا ليحقق هو لنا شيئاً، صعب المنال حصوله وقد أصبح من الماضي الذي لنْ يعود، إنّه الماضي الذي يستحضر بالوجد ، ولا أدلّ على هذا الاستحضار إلا بلفظ هذين الحرفين (يا سين)، وهذان اللفظان لم نزل نسمعهما في واقعنا

---

[1]– أبو السعود: تفسير أبي السعود:385/4 .

اللغوي الاجتماعي، ولا سيما منْ قبل من هم متقدمون في السن، وغالباً ما يأتي لفظهما في تذكر عزيز قد رحل ورحل معه، ما فقده اللافظ لهما وهو يسترجع ذكرياته ومواقفه، لكن هيهات أنْ يعود إليه، وهما يفيدان ويدلان على الحسرة والألم لذاك الماضي، وهذا المعنى المتحقق على المستوى التداولي، قد جاء مصرّحاً به في نصّ السورة نفسها، وهو قول الله تعالى :" يا حسرة على العباد ما يأتيهم منْ رسول إلا كانوا به يستهزئون"([1])، وجاءت آيات من السورة تفصح لنا عن ذاك الزمن وعدم رجوع منْ انقضوا ورحلوا فيه، وانّ رجوعهم إلى الله في يوم يعلمه وحده، قال الله تعالى:" ألمْ يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنّهم إليهم لا يرجعون* وإن كلٌّ لمّا جميع لدينا محضرون"([2]). وقد جاء الحديث عن هذه القرون الخالية في أوائل السورة قال الله تعالى:﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾([3]) .

إنّ السياق العام لسورة يس، ينسجم ودلالات الحرفين (الياء والسين)، إذ نجد الحديث عن مسائل وقصص قديمة بصيغة الماضي، ودلالة الزمن الماضي تضمنتها دلالة (ياسين) في عرف اللغة الاستعمالي الاجتماعي، والحديث عن المخلوقات وتدبير الكون واستمرار نظامه كما هو، والإخبار بخلق الإنسان وموته وبعثه حيّاً من جديد، عن طريق فعل الإحياء :" قل يحييها الذي أنشأها أول مرة "، :" وهو بكل خلق عليم".

2.2.3.3 عناصر التماسك النصي في سورة يس

العلاقات والعناصر النحوية

التكرار: القرآن الحكيم ، تنزيل العزيز الرحيم.

أسماء الله الحسنى: العليم، الصراط المستقيم، صيحة ، محضرون، يرجعون، الوعد؛ وعد، توعدون، ونفخ في الصور.

1- سورة يس: الآية/30.

2- سورة يس: الآيتان/31،32.

3- سورة يس: الآيتان/31،32.

التقديم: ومن ذلك تقديم جملة (وجاء من أقصى المدينة) على لفظة (رجل) للاهتمام بالمقدم على المؤخر، قال ابن عاشور:" وفائدة ذكر أنه جاء من أقصى المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة؛ لأنّ قلب المدينة هو مسكن حكامها وأحبار اليهود، وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليه الرسل، وعامة سكانها تبع لعظمائها لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف سكان أطراف المدينة، فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكتراثٍ بالآخرين؛ لأنّ سكان الأطراف غالبهم عملة أنفسهم لقربهم من البدو، وبهذا يظهر وجه تقديم (من أقصا المدينة) على (رجل) للاهتمام بالثناء على أهل أقصى المدينة، وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء؛ لأنّهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة ، قال أبو تمام:

كانت هي الوسطَ المحميّ فاتصلت بها الحوادث حتى أصبحت طرَفا

وأما قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى﴾([1])، فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحاً ولم يكن داعياً للإيمان" ([2]).

العلاقات والعناصر الدلالية

إحالات الضمائر: جاء في أوائل سورة يس عدد من الضمائر الملفوظة والمحذوفة فمنها:

الضمائر التي تحيل إلى لفظ الجلالة: جاء الضمير (نحن) في الآية الثانية عشرة، بلفظ الجمع الذي يفيد التعظيم، غير مطابق للفظ الجلالة لفظاً، وورد مرة واحدة ملفوظاً :" إنا نحن " وثلاث مرات محذوفاً في الأفعال (نحيي، ونكتب، أحصيناه).

وقد ورد الضمير في قوله تعالى:" إنّا جعلنا ".

1- سورة القصص: الآية/20.

2- ابن عاشور: التحرير والتنوير.239/16.

ومن الضمائر التي إحالة خارجية إلى مذكور خارج النصّ، ضمير الغائب (هو) الذي يحيل إحالة ذاتية متطابقة إلى لفظة (رجل) الوارد في قول الله تعالى:﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ([1]). كما جاء هذا الضمير محذوفاً ومذكوراً في الكلمات التالية (يسعى، قال، قومه، بعده).

الضميران (أنا، أنت): أحال هذان الضميران إحالة خارجية إلى ما أحال إليه ضمير الغائب (هو) السابق، وقد جاء هذان الضميران في الكلمات التالية من السورة (أعبد، أأتخذ، آمنتُ، ادخل)،

ضمير (الياء): في (وما لي، فطرني، يردنِ، عنّي، إنّي، قومي، لي، ربّي، وجعلني). وهو ضمير يحيل إلى ما أحالت إليه الضمائر السابقة.

وقد أحالت إلى الرسول علية السلام، وهذه الضمائر هي:

الكاف من (إنّك)، وهو يحيل إحالة خارجية ذاتية متطابقة إلى الرسول عليه السلام، وهو غير مذكور في نصّ السورة، لكنّ السياق قد دلّ عليه.

أنت: وقد جاء محذوفاً في موقع المسند إليه في الأفعال (لتنذر، أأنذرتهم، تنذرهم، تنذر، فبشّره)، وقد أحال إحالة نصيّة خارجية ذاتية متطابقة إلى الرسول عليه السلام.

ضمير الرفع (الواو): أحال هذا الضمير إحالة خارجية ذاتية متطابقة إلى الكافرين، وقد وقع في موقع الفاعلية من الجهة النحوية البحتة، وقد برز في الأفعال التالية (غافلون، لا يؤمنون، مقمحون، لا يبصرون، لا يؤمنون)، وقد توافق بإحالته مع الضمير (هم) المذكور تالياً.

ومن الإحالات الضميرية التي جاءت بكثرة في أوائل السورة، وقد أحالت إلى قوم من الكافرين، كما يدلّ سياق السورة ونفي الإيمان عن هؤلاء القوم الكافرين كما تنصّ الآية "لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ "([2])، الضمير (هم)، في الكلمات التالية: " آباؤهم، فهم، أكثرهم، فهم، أعناقهم، فهم، أيديهم، خلفهم،

---

[1]– سورة يس: الآية20 .

[2]– سورة يس: الآية7 .

فأغشيناهم، فهم، عليهم، أأنذرتهم، تنذرهم)، فضمير الجمع هذا يحيل إحالة نصيّة خارجية إلى الكافرين، وهو عنصر غير مذكور في النصّ بلفظ الكافرين في هذه الآيات، وقد أحال هذا الضمير إلى لفظة قوم الواردة في قول الله تعالى:" لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ "([1])، ولفظة (قوماً) الواردة في الآية، هي استبدال اسمي بدلاً من لفظة الكافرين .

التعريف والتنكير: جاء لفظة (رجل) في قوله تعالى:" وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ"([2])، فكلمة (رجل) نكرة تفيد الواحد، قال السامرائي:" إذا أطلقت النكرة دلّت على أحد أمرين: إرادة الوحدة أو إرادة الجنس"([3]).

الاستبدال:أكثرهم (قوماً)، اثنين: (رسولين)، ثالث (رسول)، فطرني (خلقني)، القرون (كل): الشمس والقمر (كل).

الآيات المفسّرة: ومنه قول الله تعالى:﴿ وأن اعبدوني﴾، فهذه الجملة تفسير وتبيين للآية التي قبلها التي تتحدث عن موضوع العبادة .

مراعاة النظير: إنّ تحقق وقوع النظير بين آية وآية سواء أكان في السورة الواحدة أم في أكثر من سورة، يعد من أهم العناصر التي تسهم في تماسك النص، وجوهر هذا التماسك هو تعالق النظيرين دلالياً؛ ولب هذا هوالتعالق من خلال تعالق دلالات أبنية السورة في موضوع الخطاب نفسه، فمن المواضيع التي تناولتها السورة وآلت إلى الموضوع المحوري المركزي لها، موضوع ثبات نظام الكون ونظام المخلوقات التي فيه، فمن ذلك ثبات تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر، قال الرازي:" واعلم أنه سبحانه وصف هذه الحركة بالسرعة والشدة ، وذلك هو الحق؛ لأنّ تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم ، وتلك الحركة أشد الحركات سرعة ، وأكملها شدة ، حتى أن الباحثين عن أحوال الموجودات، قالوا: الإنسان إذا كان في

---

[1]– سورة يس: الآية6 .

[2]– سورة يس: الاية/20.

[3]– السامرائي: فاضل صالح السامرائي: معاني النحو، 38/1، دار الفكر– عمان، ط3، 2008م–1429هـ..

العدو الشديد الكامل، فإلى أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل ، وإذا كان الأمر كذلك كانت تلك الحركة في غاية الشدة والسرعة ، فلهذا السبب قال تعالى:﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾، ونظير هذه الآية قوله سبحانه:﴿ لاَ الشمس يَنبَغِى لَهَا أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾([1]).

الموضوع المحوري المركزي في سورتي (طه ويس)

تشكل الآيات التي تحدثت عن فتنة قوم موسى نصاً؛ إذ السياق سياق الوحدانية كما جاء على لسان موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾([2])، كما إنّ السياق الموضوعي الذي تتحدث عنه آيات السورتين التي ذكرناهما، إنمّا هو في سياق إثبات الإلوهية لإله واحد لا شريك له، وينبأ ذكر اسم من أسماء الله الحسنى في هذه آيات السورتين وهو (الرحمن) بعد ذكر لفظة (ربكم)، على اختلاف الدلالة عليه بالبناء الاسمي أو الفعلي مفرداً أو جملة، ينبأ عن قصدية أخرى إلى جانب القصدية المحورية التي تمثل الوحدة لموضوعية للسورة، وهو قصدية الرحمة الثابتة عند ربنا عز وجل، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾([3]) .

ويربط ابن عاشور بين سورتي البقرة وطه موضوعياً، من خلال المحتوى القضوي للآية السابقة، وهو محور الوحدانية، الذي شكلّه محمول الآية الأول، وموضوع الإحاطة دلالياً؛ محمول الآية الثاني، كما عضد هذا المحور تقديم لفظ الجلالة الدّال على الألوهية في جملة (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ)، فحصر الخبر في المبتدأ في البنية العميقة، فأفاد التقديم الاهتمام بصاحب الخبر أولاً، فلّما قدّم الخبر في البنية السطحية (المحولة الأولى): إلهكم الله: لم يفد التقديم معنى الحصر أو التوكيد ، فاحتاج ذلك إلى تحويلها ثانية لتفيد في بنيتها السطحية، فائدة ودلالة تنسجم وتتعالق مع سياق الآيات قبلها، وهو سياق تقرير الألوهية (العبودية) لله سبحانه وتعالى،

2- الرازي: مفاتيح الغيب. 31،32/11.

[2]- سورة طه: الآية/98.

[3]- سورة طه: الآية/90.

ويعزّزه قوله تعالى على لسان السامري، مخاطباً ضالاً مَنْ ضلّ من قوم موسى عليه السلام:﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾([1])، فاحتاج لفظ (إلهكم) إلى جانب تقديمه، إلى توكيد الألوهية له ونفيها عن غيره، فكان الجمع بين التوكيد والنفي في لفظة واحدة مركبة، محققة هذا المعنى، فمعنى الحصر الذي أفادة التقديم من خلال معناه النحوي الوظيفي في جملة: الله إلهكم، أفاده تقديم أداة الحصر التي انضمت مع المسند والمسند إليه في جملة واحدة (إنما إلهكم الله). ومن ثم أثبت الوحدانية التي هي جوهر الإلوهية المثبتة المقررة أولاً، أثبتها بأن جاءت دالة على نفسها بلفظها في جملة (الله لا إله إلا هو)، صلة لاسم الموصول (الذي) الذي ارتبط بلفظ الجلالة قبله بعلاقة التبعية، فوقع صفة له، ثم احتج إلى رابط ليربط به موضوعاً متصلاً يدل على أنّ المتفرد بالوحدانية هو المحيط بعلمه كلّ شيء إذن، فكان الرابط الإشاري (هو) بديلاً لفظاً دالاً على خبر محذوف قرينة، هو المقدّم على غيره من أدوات الربط النحوي نظماً والربط الدلالي إحالة ومجاورة، فأحال دلالياً وربط نحوياً وهو مذكور، وأحال وربط وهو محذوف :أي وسع هو، فالوحدانية المطلقة والعلم المطلق هما حقاً، لإلهه دلّ خلق الكون وتدبيره على معنى الألوهية الحقة لواحد أحد، له ما في السماوات وما الأرض، أحاط علمه بكلّ شيء، ولم يحط ولن يحط بشيء من علمه أحد إلا بمشيئته، تعاليت سبحانك عمّا يقول الظالمون علواً كبيرا .

إنّ الموضوع الذي يمكن وضعه بشكل مجمل لسورة يس أيضاً، هو الدعوة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، وهذا التوحيد الذي جعلناها جوهر الصراط المستقيم، الذي دعا المتلقون المؤمنون الحامدون ربّهم أن يهديهم إليهم، وقد تضمنت آيات من سورة (يس) هذا الموضوع المحوري المركزي، من خلال تنوع تراكيب الاستفهام الإنكاري التعجبي، والاستفهام التقريري، والتراكيب الانشائية الطلبية من أمر أو نهي، متضمنة دلالة التوحيد لفظاً ومعنىً، فدلّت الآية التالية على الوحدانية من خلال نفي الشرك عن الإله المعبود الحق، وهي قول الله تعالى :" أأتخذ من دونه

---

[1]- سورة طه: الآية/88.

آلِهةً إنْ يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا هم ينقذون"، كما دلّ على معنى الوحدانية لفظتا العبادة اللتان تضمنهما نسبياً الفعلان اللذان شكّلا جملتين إنشائتين طلبيتين؛ الأولى بصيغة النهي والثانية بصيغة الأمر، ومثّلت كلّ جملة قضية ذات محتوى قضوي بحسب نظرية الأفعال الكلامية، ولقد ذكرنا تفسير ابن عبّاس للفعل (اعبدوا)، بأنّ العبادة هي التوحيد أو الوحدانية، قال تعالى:﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم أنْ لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين* وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾([1])، وقد تناولت السورة لتحقيق هذا الهدف المتمثّل بهذا الموضوع، محاور عدة هي المحاور نفسها التي تناولتها السور ذوات الحروف المقطّعة، فمنها: الاحتجاج للقرآن الكريم وللموحى إليه به، وقد تحقق هذا المحور في أول آيتين بعد الحرفين المُقطّعين (يس) من السورة، والحديث عن الصراط المستقيم وهو تابع للمحور الأول، لكن التصريح به يحمل علامة تدل على الصراط المستقيم، وهي أنّ الصراط المستقيم هي عبادة الله وحده، التي جاء بها القرآن الكريم وعليها الرسول عليه السلام ويدعو لها، قال تعالى:﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾، وقوله تعالى: ﴿ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون﴾([2]) .

وقد تحدثت السورة عن موضوع إثبات البعث في أول السورة ووسطها وخاتمتها، قال تعالى:﴿فسبحان الذي بيده ملكوت كلّ شيء وإليه يرجعون﴾، ﴿ قل يحييها الذي أنشاها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾([3])، والحديث عن الأمم الماضية، وضرب الأمثال، والمصير الكافرين ومصير المؤمنين، قال تعالى: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلُهم بما كانوا يكسبون﴾([4])، وخلق الإنسان وخلق السماوات والأرض:﴿ أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أنْ يخلق مثلهم بلى وهو الخلاّق العليم﴾([5])، وكذلك الآية التي أخبرت بوحدانية الله سبحانه

---

[1]- سورة يس: الآية/61.

[2]- سورة يس: الآية/22 .

[3]- سورة يس: الآية/83 .

[4]- سورة يس: الآية/65 .

[5]- سورة يس: الآية/81 .

وتعالى عن طريق تضمنها هذا المعنى، وهي:﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾([1])، فالله عزّ وجل هو المنشيء وهو الخالق، العليم (بكل خلق)، وكذلك دلالة لفظة العموم (كلّ) التي أُضيف إليه المصدر (خلق) نكرة، لدليل على معنى الإحاطة والشمول والعلم والمعرفة بأي مخلوق، صغيراً و كبيراً عاقلاً وغير عاقل، والآية منسجمة مع تأويل الحروف المقطّعة عند بعض المفسرين كذلك، وهي الإشارة إلى أول الخلق. لله تعالى:﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ *وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ* لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾([2]) .

---

[1]- سورة يس: الآية/79 .

[2]- سورة طه: الآيات/39،38، 39،40.

الفصل الرابع

السور القرآنية ذوات الحروف

(طسم، طس، حــــم،ص،ق،ن)

1.4 السور القرآنية ذوات الحروف (طسم، طس).

استهلت سورتا الشعراء والقصص بالحروف المقطّعة الثلاثة (طسم)، وشــكلّت هذه الحروف الثلاث في السورتين الآية الأولى منها، وكما تماثل الاســتهلال بــين السورتين كماً وكيفاً وتشكيلاً (فاصلة)، فقد حصل التماثل كذلك في الآية الثانية مــن السورتين بشكل متطابق، وهي قول الله تعــالى:﴿ طــسم* تلــك آيــات الكتــاب المبين﴾([1]). أما سورة النمل فقد استهلت بالحرفين ﴿طس﴾ ولم يشكّل هذان الحرفان الآية الأولى من السورة؛ إذ تشكلّت الآية الأولى بإلحاق اسم الإشارة وما بعده مــن كلمات إلى هذين الحرفين، والملاحظة التي يمكن أنْ نسجلها؛ لتتماسك الآية الأولــى من سورة النمل مع الآيتين في سورتي الشعراء والقصص، استئناســاً بتماثــل أول حرفين في السور الثلاث، هي تكرار اسم الإشارة نفسه (تلك) بعد الحرفين، وتكرار لفظتي الكتاب وصفته المبين، معطوفاً على خبر اسم الإشارة النكرة (آيات)، وعرّفه المضاف إليه (القرآن)، وقد وقعت سورة النمل برزخاً بــين الــسورتين؛ الــشعراء والقصص، بحسب ترتب التلاوة في القرآن الكريم، ولعل موقعها علامــة تماســكية وترابطية للسور الثلاث، تضاف إلى تماسك وترابط سورة النمل بسورتي الــشعراء والقصص، بفعل تماثل حرفيها الأولين (طس) مع (طس في الــسورتين)، وتماثــل الألفاظ في الآية الأولى منها مع الآيتين الأولى والثانية في السورتين، وكأنّ موقعها بين السورتين قد أضفى عليها تماثلاً تاماً معهما كما أضفت الحروف المقطّعة فيهــا كلّها وحدة الاسم لها (الطواسين).

---

[1]– سورتا: الشعراء، القصص، الآيتين:1،2 .

1.1.4 دلالات الحروف المقطّعة في هذه السور

أ – دلالتها على أسماء الله الحسنى: إنّ مردّ هذه الدلالة للحروف المقطّعة هو تأويل تلك الحروف بأنّها الحروف الأوائل المقتطعة من أسماء الله الحسنى، فمن ذلك ما روي عن ابن عباس أن: طس مقتضب من طَاءِ اسمه تعالى اللطيف، ومن سين اسمه تعالى السميع. وأن المقصود القَسَم بهاذين الاسمين، أي واللطيف والسميعِ تلك آيات القرآن المبين"ابن عاشور .

ب – الدلالات الأخرى: وذلك بقبول تأويل كلمات بدأت بحرف الحاء أو الميم أو كلاهما، أو وقع أحدهما أو كلاهما أصلاً من أصولها، أي أكثر من غيرها من سائر الألفاظ الأخرى التي تضمنتها بنية السورة، وذلك باعتبار قاعدة مهمة وهي قيام بنية نص السورة على الحرف أو الحروف التي استهلت بها.

وقد جاء عند الفخر الرازي ما يتصل بطريقة تفاسير الصوفية لهذه الحروف، بعض الكلمات، التي اقتطعت الحروف منها، من حيث المصطلحات التي جاءت في تفسيره للحروف المقطّعة الثلاثة التي استهلت بها سورة الشعراء(طسم)، قال:" الطاء إشارة إلى طرب قلوب العارفين، والسين سرور المحبين، والميم مناجاة المريدين"([1])، وكذلك الحال عند البقاعي في تأويله لـ (طسم) قال:" طسم " مشيراً بالطاء المليحة بالطهر والطيب إلى خلاص بني إسرائيل بعد طول ابتلائهم المطهر لهم عظيم، وبالسين الرامزة إلى السمو والسنا والسيادة، إلى أن ذلك يكون بمسموع من الوحي في ذي طوى من طور سيناء قديم، وبالميم المهيئة للملك والنعمة إلى قضاء من الملك الأعلى بذلك كلّه تام عميم"([2]).

2.1.4 عناصر التماسك النصي في هذه السور

العلاقات والعناصر الدلالية

1–المناسبة بين عناوين السور ومضامينها.

---

[1]– الرازي: مفاتيح الغيب، 460/11 .

[2]– البقاعي: نظم الدرر، 460/5.

جاءت بعض المواد اللغوية في معاجم اللغة تتصل دلالتها مع الحروف المقطّعة في مجموعة هذه السور، فمن الألفاظ التي جاء في بنيتها حرفان أصليان هما الطاء والسين لفظة (الطيس)، وهما الحرفان اللذان استهلت بهما السور الثلاث (الشعراء، النّمل القصص)، قال ابن منظور:"... وقال بعضهم بل هو كل خَلْقٍ كثير النَّسْلِ نحو النمل والذباب والهوامّ، وقيل يعني الكثير من الرَّمْلِ وحِنْطة طَيْسٌ كثيرة...والطَّيْس ما على الأرض من التراب والغَمام وقيل ما عليها من النمل والذباب وجميع الأنام"([1]) .

ومما يتصل بالمناسبة بين أسماء السور ومضمونها ولا سيما اتصالها بدلالات الحروف المقطعة، مجيء بعض الألفاظ ذات الحقل الدلالي الواحد في السور الثلاث، فمن هذه الألفاظ لفظتي (الهيام، والوادي) وغيرهما من الألفاظ التي تؤدي معنى البعدّ نحو: الضياع والتيه وما يمكن أن يعدّ ـ بحكم دلالة التضمن أو الالتزام ـ ضمن الحقل الدلالي لهذه الألفاظ، جاء في اللسان:...والهُيَّامُ المُوَسْوِسُون ورجل هائمٌ وهَيُومٌ والهُيُومُ أَن يذهبَ على وَجْهِه وقد هام يَهِيمُ هُياماً ... والهَيْمُ هَيَمانُ العاشق والشاعرِ إذا خلا في الصحراء وقوله عزّ وجلّ: "في كلِّ وادٍ يَهِيمونَ"، قال بعضهم هو وادِي الصَّحراء يَخْلُو فيه العاشقُ والشاعرُ ويقال هو وادي الكلام والله أعلم"([2]).

والتكرار للفظة الوادي تردد في مجموعة هذه السور ففي سورة الشعراء: (في كلّ وادي يهيمون، وفي سورة النّمل: (وادي النّمل) وفي سورة القصص (إنّك بالواد المقدّس طوى)، ومفهوم البعد والهيام متكرر إمّا لفظاً أو معنى في نصوص هذه السور أيضاً، ويتصل به وقت المجيء بعرش سبأ (الزمن المستغرق)، بالرغم من بعده، وادي النمل، قال تعالى:﴿أنا آتيك به قبل أنْ يرتدّ إليك طرفُك﴾، ومما يتصل بعنوان السورة (النّمل) المكان الذي مرّ به سليمان، وهو مكان بعيد منسجم مع البعد المفهوم من سياق الآيات: قال تعالى:﴿ حتى إذا أتوا على واد النّمل﴾ .

---

[1]- ابن منظور: اللسان (طيس) .

[2]- ابن منظور: اللسان (طيس) .

2ـــ الإحالة:

أ ـــ الضمائر التي تحيل إلى لفظ الجلالة :

وتشمل: أنا، نحن، هو، أنت، للغائب والحاضر، مذكورة ومحذوفة، وغالباً ما تقترن مع الأفعال التي تأتلف في تأكيد الربوبية والوحدانية لله تعالى، وفي استجابة الله عزّ وجل لأقوام طلبوا من رسلهم آيات تأكيداً لدعوتهم، وفي العذاب الذي حلّ بالأقوام السابقين، وحقيقة هذه الأفعال وانجازها وصدق مصدرها، اقتضى كلّ ذلك تطابق الضمائر تطابقاً ذاتياً في إحالتها إلى لفظ الجلالة، وتنوع التطابق فيها إفراداً وجمعاً كلما اقتضى مقامهما وتركيبها وانسجامهما، فقد يقتضي التطابق إفراداً؛ لأجل غرض منها، أو يقتضي الجمع لإفادة التعظيم. ومن الآيات التي وردت في هذه السور الثلاث وأحيلت فيها الضمائر إلى لفظ الجلالة ما يلي:

الإحالة الداخلية:

هو: أحال هذا الضمير إلى لفظ الجلالة "ربك" إحالة قبلية ذاتية متطابقة، في قول الله تعالى:﴿ وإنّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

هو :﴿ الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين،وإذا مرضت فهو يشفين، والذي يميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾.

وفي سورة النمل نجد وحدة إحالة الضمائر إلى لفظ الجلالة : مفرداً وجمعاً، تكلّم، خطاب، غيبه، وتمثلت في مجموعة من الضمائر نحو: هو، ونحن، وأنا، والكاف ، وضمير الجمع (نا)، ونمثّل لها على النحو التالي:

هو:قال تعالى:﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ سورة النمل: الآية/9. أحال الضمير (هو) إحالة بعدية وقبلية في آن واحد، قبلية: المنادي: المتكلم : مناديك أو مكلمك .

وكذلك ضمير الكاف في قوله تعالى:﴿ أن أشكر نعمتك ﴾، ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾، وكذلك الضمير (الياء) من الكلمات التالي:(إني، لديّ، فإني غفور رحيم) .

نحن ، نا :﴿ زينّا لهم أعمالهم ﴾، ﴿ فلمّا جاءتهم آياتنا ﴾، ﴿وما كنّا ﴾

أنا:﴿ أنا الله العزيز الحكيم ﴾، والضمير (أنا)، أحال الضمير (أنا) إلى لفظ الجلالة بعده إحالة بعدية ذاتية متطابقة، وكذلك في قوله تعالى:﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم﴾ .

وفي سورة القصص إحالات بالضمائر وبأسماء الإشارة إلى لفظ الجلالة: جمعاً وإفراداً وخطاباً غياباً وحضوراً، وهي على الشكل التالي، معززة ببعض الآيات من هذه السورة، فمنها:

هو: ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلوا عليهم آيتنا وما كنّا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾([1])، والضمير غير مذكور لكنّه مقدّر في اسم الفاعل (مهلك) و(يبعث)، وهو يحيل إحال قبلية إلى لفظ الجلالة (ربك) المذكور قبله.

الإحالة الخارجية: وهي الإحالة المقامية: تعددت الضمائر التي تحيل إلى لفظ الجلالة (الله) في سور هذه المجموعة مفردة وجمعاً غائبة وحاضرة، ومن هذه الضمائر:

نحن: في سورة الشعراء قال تعالى:﴿ إن نشأ ننزّل ﴾ و﴿ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا ﴾، ﴿ أفبعذابنا يستعجلون﴾، ﴿ أفريت إن متعناهم سنين ﴾، (نتلو، ونريد، أنّ نمن، ونجعلهم، ونمكّن، ونُرِيَ)

نا (نحن) (وأوحينا، إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين، ربطّنا، وحرّمنا، فرددناه، آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين)، " فأخذناه، فنبذناهم، ما أهلكنا،

أنت: " رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين، واجعل لي لسان صدق في الأخرين، واجعلني من ورثة جنة النعيم ، ولا تخزني يوم يبعثون ".

ما يحيل إلى لفظ الجلالة من ضمائر، وأسندت إليها الأفعال الخاصة به دلالة على الوحدانية لله تعالى بإسنادها: وجاءت الآيات التي أكدت ذلك تفسيراً للآيات المستفهم بها، بعدم وجود إله غير الله يقلب ويتصرف ويغير النظام في آيتين من آياته هما، الليل والنهار.

---

[1]- سورة القصص: الآية 59 .

ومن الإحالة الخارجية

أ- وتحيل إلى قوم محمد عليه الصلاة والسلام: فمنها: الضمير (هم) المستتر في عدد من الأفعال نحو: في (ألا يكونوا مؤمنين)، (ألا كانوا)، (فقد كذبوا)، (يستهزئون)، (أولم يروا)، والهاء في (ننزل عليهم) و(أعناقهم)، (وما يأتيهم)، (إلا كانوا عنه معرضين)، (سيأتيهم)، (أكثرهم).

وفي سورة النّمل جاء الضمير (هم) ليحيل إحالة نصيّة خارجية ذاتية متطابقة، إلى الكافرين المعروفين من خلال الوصف لهم، قال تعالى:" أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ "([1])، قال ابن عاشور:" فالضمائر في قوله لهم} وقوله : { وهم في الآخرة هم } عائدة إلى { الذين لا يؤمنون بالآخرة } [النمل: 4] بمراعاة ذلك العنوان الذي أفادته الصلة فلا دلالة في الضمير على أشخاص مُعَيّنين ولكن على موصوفين بمضمون الصلة فمن تنقشع عنه الضلالة ويثوبُ إلى الإيمان يبرأ من هذا الحكم، وصيغ الخبر عنهم بالخسران في صيغة الجملة الاسمية وقرن بضمير الفصل للدلالة على ثبات مضمون الجملة وعلى انحصار مضمونها فيهم كما تقدم في قوله : { وهم بالآخرة هم يوقنون } [النمل 3]، وجاء المسند اسم تفضيل للدلالة على أنهم أوحدون في الخسران لا يشبهه خسرانُ غيرهم ، لأن الخسران في الآخرة متفاوت المقدار والمدة وأعظمه فيهما خسران المشركين "

ب ـ الإحالات الإشارية: وتشمل أسماء الإشارة المذكورة في النصّ، وأسماء الإشارة المحذوفة، فمن أسماء الإشارة المذكورة التي تحيل إلى لفظ الجلالة ما يلي:

وسأكتفي ببعض الإحالات؛ الضميرية والإشارية، التي تحيل إلى ثلاثة من الرسل إحالة داخلية أو خارجية، وأول منْ تحدثت عنه السور سيدنا موسى عليه السلام، ويمكن ذكر بعض ما أحيل إليه بأحد الضمائر أو أسماء الإشارة، من خلال بعض آيات السور الثلاث على النحو التالي:

---

[1]- سورة النمل : الآية/5.

ما يحيل إلى محمد عليه الصلاة السلام:

فمن الضمائر التي تحيل إحالة خارجية إلى محمد عليه السلام، الكاف من لعل و(أنت) المقدر في باخع، في قول الله تعالى في سورة الشعراء :" لعلك باخع نفسك"، وكذلك ضمير (الكاف) المضمر المضاف إلى لفظ الجلالة قال تعالى:" وإنّ ربك لهو العزيز الرحيم "، و:﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ﴾، إذ أحال الضمير (الكاف) إحالة نصيّة خارجية ذاتية متطابقة، إلى محمد عليه الصلاة والسلام، فسياق الآيات دلّنا على أنّ المخاطب هو الرسول عليه السلام، كما في أول سورة نزلت قال تعالى:" اقرأ باسم ربك" .

ما يحيل إلى موسى عليه السلام:

أنا: ضمير الفعل (أشكر) المستتر في قوله تعالى :﴿ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني ﴾، فأحال إلى موسى عليه السلام إحالة ذاتية متطابقة.

ومن الإحالات في سورة القصص :

ضمير الغائب الهاء: ورد هذا الضمير خمسة مرات في آية واحدة من سورة القصص، وجاء في أربعة منها متصلاً بأربعة أفعال متعدية، فوقع مفعولاً به ، ومرة واحدة منفصلاً عن الفعل، فاتصل بحرف الجر الذي تعدّى به الفعل ليرتبط به المسند إليه بعلاقة المفعولية، وهذا الضمير جاء في قول الله تعالى:﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾([1]) .

وضمير الغائب يحيل إحالة قبلية ذاتية متطابقة إلى سيدنا موسى عليه السلام، وقد ورد مصرحاً به مرتين قبل ذكر ضميره الذي أحال إليه، الأولى في الثانية:" من نبأ موسى وفرعون "، والثانية بذكره ابناً لأمه نسبة إليها، فكان الوحي لأم موسى، بلفظ الأم واسم ابنها بدلاً من اسم أمه:" وأوحينا إلى أم موسى "، شهرة له ولأمه بهذا اللفظ، أكثر مما هو تصريحاً بذكر اسم أمه واسم موسى أو (ابنك)، أو مولودك،

---

[1]– سورة القصص : الآية 7 .

فكان هذا التركيب من (أم موسى) كان أكثر تخصيصاً وتوضيحاً وإيجازاً، من أي تركيب ثانٍ تخاطب به أم موسى وحياً ، أي بدلاً من (وأوحينا إلى أمه)، إذ لم يصرح باسم موسى عليه السلام منفرداً قبل هذه الآية، فلو كان الخطاب لأمه دون إضافة موسى إليها، لأختلط الأمر عند المتلقي الذي لم يسمع أو يعرف بقصة موسى عليه السلام مع فرعون، فيذهب إلى أن الضمير من لفظة (أمه) يحيل إلى فرعون أو إلى هامان .

ما يحيل إلى غير العاقل:

وقد جاءت ضمائر متعددة في مجموعة سور (الطواسين)، وقد أحالت هذه الضمائر إلى أسماء غير عاقلة، وهذه الإحالات تؤدي إلى تماسك هذه السور فيما بينها من جهة وفيما بينها وبين سائر السور ذوات الحروف المقطّعة الأخرى، وهذا التماسك ينتمي إلى التماسك في مستوى تماسك النصّ على مستوى الدلالات في نسب متعددة منها، فذكرُ معجزات الرسل وقصصهم، هي من هذه النسب التي تؤدي إلى تماسك النصّ دلالياً، إذ تؤدي إلى الترابط والتماسك بين السّور ذوات الحروف المقطّعة من خلال مسألة التفسير النسبي، فمن الضمائر التي أدّت هذا الدور التماسكي في نصوص هذه السور، بإحالتها إلى الأسماء غير العاقلة ما يلي:

النار: (من في النار ومن حولها) : فالضمير (الهاء) في (حولها)، يحيل إحالة نصيّة قبلية ذاتية إلى (النار) المذكورة قبل الظرف،

النملة: وأحال إليه الضمير المذكور في (قولها) قال تعالى:" فتبسم ضاحكاً من قولها"، فأحال إلى الاسم غير العاقل (النّملة) إحالة قبلية ذاتية متطابقة .

الطير (الهدهد): الضمائر المذكورة والمحذوفة في الآيات التالية في قوله تعالى: ﴿لأعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ*فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ*إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[1].

---

[1]– سورة النّمل: الآيات/21،22،23، وانظر: الآيات بعدها (24-37).

ولو أحصينا الضمائر التي تحيل إلى طائر (الهدهد) في هذه الآيات، لوجدنا أنها قد كثُرت تنوعاً وعدداً وإعراباً، وكلّها تحيل إلى الاسم (الهدد)، إحالة نصيّة داخلية قبلية ذاتية متطابقة، فجاء متصلاً (الهاء) مفعولاً به في (لَأُعَذِّبَنَّهُ و لَأَذْبَحَنَّهُ)، وفاعلاً (هو) محذوفاً في (فَمَكَثَ وفَقَالَ و لَيَأْتِيَنِّي)، وفاعلاً متكلّماً (التاء) في (أَحَطتُ) وَ (وجِئْتُكَ) و (وَجَدتُ)و (وَجَدتُهَا)، وفاعلاً في المعنى مفعولاً به مخاطباً في اللفظ، بضمير (التاء) في (أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ)، ومفعولاً به في اللفظ وفاعلاً في المعنى أيضاً، فجاء ضميراً محذوفاً مخاطباً في (اذْهَبْ و (فَأَلْقِهِ) و(تَوَلَّ)و(فَانْظُرْ) و(ارْجِعْ)، إذ التقدير لهذا الضمير المحذوف فيها هو(أنت)، الذي يحيل إلى الهدهد إحالة نصيّة ذاتية متطابقة .

عصا موسى: فمن الضمائر التي أحالت إليها إحالة قبلية ذاتية متطابقة، الضمير الظاهر المتصل بالفعل (رآها) في قوله تعالى:" فلّما رآها تهتز"، وكذلك الضمير المستتر من (تهتز).

مكة: (أم القرى): ومن ذلك إحالة الضمير (الهاء) في (أمها) في قوله تعالى:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾([1])، قال الطبري: يقول تعالى ذكره:(وَمَا كَانَ رَبُّكَ) يا محمد(مُهْلِكَ الْقُرَى) التي حوالي مكة في زمانك وعصرك(حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا) يقول: حتى يبعث في مكة رسولا وهي أمّ القرى، يتلو عليهم آيات كتابنا، والرسول: محمد صلى الله عليه وسلم "([2]).

3 ـــ المناسبة بين الآيات: من خلال المناسبة بين الآيات، يظهر وجه ارتباط الآية بالآية التي قبلها وبعدها، إذ يظهر التماسك والترابط بين الآية السابقة واللاحقة والمكلمة والمستقلة، ومن ذلك ذكر قصة سيدنا موسى عليه السلام لمّا ذكر في الآية السابقة لها، تكذيب قريش لسيدنا محمد عليه السلام، فبيّن في الآيات التي تحدثت عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه، العذاب الذي لحقهم بكفرهم

---

[1]– سورة النّمل: الآية/59.

[2]– الطبري: جامع البيان 603/19.

واستهزائهم، فكأنّ ما أتى فرعون وقومه من عذاب من الله تعالى، لمّا كذبوا الرسل فكفروا بما دعوهم إليه، سيأتي الله بعذاب الكافرين من قوم محمد عليه الصلاة والسلام، فما سيأتي به الله تعالى من عذاب، إنّما هو في حكم المأتي، فكأنّ ما أوتي فرعون وقومه، هو مفسر لقوله الله تعالى:﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6)"، وقد جاء استدلال النصّ القرآني بالأرض وما أُنبت فيها كماً ونوعاً، آية أولى لمنْ آمنْ من قوم محمد عليه السلام، والله عليم بهم، قال تعالى:" أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (7) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾(9) " ثمّ ذكر العذاب الذي حاق بفرعون وقومه مجملاً، بقوله تعالى:﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾(68)" فجاء ذكر النجاة لموسى عليه السلام وعذاب فرعون وقومه، آية أخرى للمخاطبين المؤمنين بالدين الجديد الذي أمر الله محمداً بإبلاغه للناس، فما عليه إلا البلاغ؛ إذ هو منذر للناس كافة من عذاب الله إنْ لم يؤمنوا به وحده لا شريك له، ويؤمنوا بما جاء به القرآن الكريم، من حديث عن البعث والحساب والثواب والعقاب، فناسب قوله تعالى:﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ*وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾(5)" ذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون، فلم يضر كفره الله تبارك وتعالى، ولم يجعله الله تعالى كفر أقوامهم سبباً في قتل وهلاك الرسل لأنفسهم، فهم مبلغون منذرون داعون دعوة واحدة، هي الإيمان بالله تعالى وحده، واتباع ما جاءوا به من ربهم.

وناسب استعمال الاسم(العزيز)، الدّال من سياق الآيات على القوة والقدرة المطلقتين، اللتان لا تكونان إلا صفة لله سبحانه وتعالى، قال الطبري:(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ) في انتقامه ممن كفر به وكذّب رسله من أعدائه،(الرَّحِيمُ) بمن أنجى من رسله، وأتباعهم من الغرق والعذاب الذي عذب به الكفرة... وعن ابن جُريَج قال: كلّ شيء في الشعراء من قوله(الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) فهو ما أهلك ممن مضى من

الأمم، يقول عزيز، حين انتقم من أعدائه، رحيم بالمؤمنين، حين أنجاهم مما أهلك به أعداءه"([1]).

ومن المناسبة بين الآيات الحذف بدليل مذكور أو بقرينة: قوله تعالى:﴿ وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"([2])، قال ابن عاشور:"هذا متصل بقوله:﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾([3])، لأنّ الإنذار يكون بين يدي عذاب .

3ـ الآيات المفسرة: ومنه قول الله تعالى:﴿ وإذ نادى ربُّك موسى أن إئت القوم الظالمين ﴾، فسرّه بقوله تعالى :﴿ قوم فرعون ألا يتقون ﴾، والعلاقة الرابطة لهاتين الآيتين هي علاقة التبعية، إذ أدى التركيب من المضاف والمضاف إليه (قوم فرعون) دوراً نحوياً وظيفياً أفاد عطف البيان أو التفسير على رأي منْ يجعل عطف البيان تفسيراً من النحاة .

وفي سورة النّمل قال تعالى:﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾(24)، فالآية الأولى (الإحاطة) أبانت عنها الآية بعدها التي بيّنت الذي أحاط به الهدهد، وكأن الهدهد قد أنكر ما وجده واستعظم أمره، فكيف يحكم غير سليمان وقد قال تعالى في حقّه وحقّ أخيه:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (16)، وقال تعالى في حقّ نبيّه سليمان:" وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) وشعر بنزوة (نفسية) تمثلت ببلوغ إحاطته، بأكثر من الذي أعطي لسليمان من العلم، وجاء لأجله رسول الله سليمان، وهو الدعوة إلى عبادة الله، لكنّه يعلم بأن ما أخبر سليمان عليه السلام

[1]ـ الطبري: جامع البيان: 19/ 361،336 .

[2]ـ سورة القصص: الآية/47.

[3]ـ سورة القصص: الآية/46 .

به، فسليمان عليه السلام هو منْ أوتي وأخوه داوود علماً، وسليمان هو منْ عُلِّم منطق الطير وهو منْ أوتِي من كل شيء، فكيف يكون هذا؟!وما أخبر به الهدهد يناقض ما ذكره سليمان نفسه، فالمرأة: تملك قومها، وأُتيت من كلّ شيء، لكنّها تسجد هي وقومُها لمخلوقات الله من دون الله، والآية الأخيرة منها تفسير للآية قبلها التي صدرت بجملة (إني وجدت).

والآيتان(71،72) من سورة القصص، توحي بإشراك قوم موسى لإله وأكثر مع الله، إذ فسر بعد أن أثبت عز وجل وحدانيته، ادعاء هذا الشرك منهم بقوله تعالى:﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون*ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾([1]) .

4- **الاستبدال:**

الاستبدال بين الاسمين: المصدر واسم المفعول، في قوله:﴿وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين﴾([2])، إذ أفاد هذا الاستبدال لاسم المفعول وهو (منزّل)، بالمصدر الدّال على المبالغة (تنزيل)، تأكيداً على أنّه منزّل من عند الله عزّ وجلّ.

الاستبدال الفعلي: ومنه استبدال الفعل (أمر) بالفعل (نادى)، إذْ إنّ سياق الآية ينبأ عن هذ الاستبدال، وهذا السياق هو سياق خطاب لموسى عليه السلام، والفعل (نادى) أناب عن أداة النداء، وأسلوب النداء طلبي كما هو أسلوب الأمر، وصيغة الفعل (إئت) صيغة أمر، كما أنّ جملة (أنْ إئت القوم الظالمين)، جاءت مفسِّرة لجملة (وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى)، كما أنّ بنية النداء قد تكون وحياً أو صوتاً؛ بلفظ اسم الشخص المنادى، أو بلفظ صوت أو أكثر ، بحيث يعلم أنه هو المقصود بالنداء، فناسب استعمال الفعل (نادى)؛ لأنّ كيفية النداء ليست معلومة إلا لموسى عليه السلام، أو لأن النداء نوع من القول على رأي الزمخشري، ولعل رأي المعتزلة الذي أورده الرازي في نوع النداء مقدّم على غيره فقال:"أما المعتزلة فقد اتفقوا على

---

[1]- سورة القصص: الآيتان:74،75 .

[2]- سورة الشعراء: الآيتان/192،193 .

أن ذلك المسموع ما كان إلا حروفاً وأصواتاً ، فعند هذا قالوا إن ذلك النداء وقع على وجه علم به موسى عليه السلام أنه من قبل الله تعالى ، فصار معجزاً علم به أن الله مخاطب له فلم يحتج مع ذلك إلى واسطة، وكفى في الوقت أن يحمله الرسالة التي هي (أنِ ائت القوم الظالمين)؛ لأنّ في بدء البعثة يجب أن يأمره بالدعاء إلى التوحيد، ثم بعده يأمره بالأحكام ، ولا يجوز أن يأمره تعالى بذلك إلا وقد عرفه أنه ستظهر عليه المعجزات إذا طولب بذلك"([1])، وذهب ابن عاشور إلى ما أجمع عليه المعتزلة بقوله:"ونداء الله موسى الوحيُ إليه بكلام سمعه من غير واسطة ملَك"([2]).

وهذه الآية (العاشرة) من سورة الشعراء، التي شكّلتها الجملتان المُفَسَّرَة والمُفَسِّرة، متضمنتان الموضوع المحوري المركزي للسورة، وهو محور التوحيد الذي ينسجم وبدء البعثة لأي نبي ورسول .

ومن الاستبدال الفعلي: استبدال الفعل يعبدون بالفعل (يفعلون)، وهو فعل لا يدل على استبدال الفعل يعبدون وحده فقط ، بل استبدال يتضمن كلّ الأفعال التي تدخل ضمن حدث فعل العبادة .

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾(74)، وهو استبدال عام بالأفعال الواردة في الآيات التي قبل هذه الآية، وهذه الأفعال هي (تعبدون، عاكفين، يسمعون، تدعون، ينفعون، يضرون)، كما أنّ الزمن النحوي الذي أفادته صيغة الفعل وأداة الربط قبله (كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)، دال على التجدد والاستمرارية في هذه الأفعال .

ومن ضروب الاستبدال: الاستبدال بين الاسم والضمير، إذ استبدل ضمير الجمع(الواو): الذي وقع اسماً للفعل الناسخ ظل، في قول الله تعالى :" إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين "، بالاسم (الأعناق)، إذ أصل الكلام: فظلوا لها خاضعين، فأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وترك الكلام على أصله، كقولهم: ذهب أهل اليمامة، كانّ الأهل غير مذكور"([3])، ويظهر أنّ

---

[1]- الرازي: مفاتيح الغيب:463/11 .

[2]- ابن عاشور: الحرير والتوير:140/10 .

[3]- أبو حيان : البحر المحيط : 140/8.

تأويل الزمخشري لمعنى خاضعين بأنهم:"رؤساؤهم ومقدموهم، شبهوا بالأعناق كما قيل لهم: هم الرؤوس والنواصي والصدور([1])، فيه تكلّف إذ الخطاب لعامة القوم، فقد آمن له من رؤوس القوم ولم يؤمن له من عامتهم، كما أنّ الدعوة لعامة الناس وشريفهم، وحمل النصّ على الظاهر أولى من حمله تكلّفاً، إذ لم يظهر في نص السورة ولا في سياقها، ما يدلّ على حمل هذه الدلالة للأعناق، إلا من جهة واحدة يمكن عدها قرينة لها، وهو ما ذكره أبو حيان عن ابن عباس في مناسبة نزول هذه الآية، الذي يمكن أن يحمل تأويله وتأويل الزمخشري عليها.

ولعل قرينة أخرى تدل على هذا المعنى المتأوّل لها وهي قرينة ذكر فرعون (سيد قومه)، وهي بعيدة كما يظهر، إذ جاء ذكر قوم فرعون في الآية (11) بيان للقوم الظالمين في الآية (10)، والأعناق هي أهم جزء في التكوين العضوي لمن يعقل، فهي العضو الوسط بين الجسم والرأس، والحاملة له المتحكمة بحركته، وقتل الإنسان فعلاً يتوجه إلى قطع العنق منه؛ فقطعه موت له حقيقة على سبيل التأكيد، بخلاف قطع غيرة من الأعضاء مع عدم التأكيد، فكان التوجه في الآية إلى أهم عضو في الإنسان، في عضو حياته ومماته، وفي موضع رفعته وشموخه (ناصيته).

ولم تحصل المطابقة في النوع والجنس والعدد بين الاسم البديل وخبره، إذ الأصل خاضعة للمطابقة، حملاً على لفظ تأنيث غير العاقل(الآية)، وقيل على حذف المضاف: أي أصحاب الأعناق، قال أبو حيّان:" وروعي هذا المحذوف في قوله: (خاضعين)، حيث جاء جمعاً للمذكر العاقل، أولاً حذف، ولكنّه اكتسى من إضافته للمذكر العاقل وصفه، فأخبر عنه إخباره... أولاً حذف، ولكنه لما وضعت لفعل لا يكون إلا مقصوداً للعاقل وهو الخضوع، جمعت جمعه كما جاء:" أتينا طائعين"([2]) .

---

[1]- أبو حيان، البحر المحيط: 140/8، 141.

[2]- سورة فصلت: الآية/ 11، أبو حيان: البحر المحيط: 140/8، 141.

ومن استبدال الاسم بالاسم: النبي بالشهيد، قوله تعالى:﴿ونزعنا من كل أمة شهيدا﴾([1])، قال أبو حيان:" (شهيداً): وهو نبي تلك الأمة، لأنّه هو الشهيد عليها، كما قال:﴿ فكيف إذا جئنا من كلّ أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾([2]) .

ومن الاستبدال الاسمي استبدال لفظة (ملكة) باسم نكرة (امرأة):" إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ"(23)، ودلّنا على اللفظ (الاسم المستبدل) هو (ملكة) بقرينتين مذكورتين في الآيات التي تتحدث عنها وهي: الأولى؛ قرينة الفعل (تملكهم)، والثانية قرينة ذكر العرش في ثلاث آيات قال تعالى:" قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ "([3]) فأحال الضمير (الهاء) في (ولها عرش عظيم) وفي (عرشها) والكاف في (عرشك) إلى الاسم النكرة (امرأة) التي أسند إليها الفعل (تَمْلِكُهُمْ)، ويظهر أنّ ذكر لفظة (امرأة) نكرة بدلاً من (ملكة) لغرض إبلاغي، يفيد أنّ الملك الحق هو (الله) تعالى، وإنّما جاء إسناد الفعل (تَمْلِكُهُمْ) إليها توسعاً بمعنى (تحكمهم) .

ولعل من العلاقات التي يمكن أنْ نضيفها إلى علاقات الربط النحوي وإلى عناصر المستوى الدلالي، التي تؤدي إلى تماسك النصي هو عنصر (العدول)، إذ يتم العدول في تراكيب النصّ ومكوناته، عن حذف لفظ بدلاً من ذكره، أو عن ذكره بدلاً من حذفه، أو عدولاً عن إضماره بدلاً من إظهاره أو عن إظهاره بدلاً من إضماره، ومن ذلك العدول عن إضمار لفظ الجلالة (ربي) مضافاً إليه الضمير (الياء) الذي يحيل إلى سليمان عليه السلام، قال تعالى:﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾([4]) .

---

[1]- سورة القصص: الآية/75، أبو حيّان: البحر المحيط :176،173.

[2]- سورة النساء: الآية/41، وانظر سورة النحل: الآية/ 89.

[3]- سورة النّمل الآية/38، وانظر: الآيتين/41،42 .

[4]- سورة النّمل: الآية/40 .

فأظهر لفظ الجلالة في أول الآية (هذا من فضل ربي)، ثمّ أظهره مرة أخرى بعد أن سبقته أداة التوكيد وفاء الجواب، وكان إضماره مع أداة التوكيد في بنية الجملة العميقة، هو الغالب في مثل هذا التركيب، إلا أنّ الإضمار يُحدث لبساً أو مدخلاً إليه عند متلقٍ جاحد كافر، عندما يتأول أنّ الضمير عند الإضمار في قوله: (فإنّه غني كريم)، بدلاً من: (فإنّ ربي غني كريم)، عائد إلى أحد المخاطبين قبله وهما: الشاكر والكافر من قوله: ومنْ شكر و منْ كفر.

ويظهر أنّ الإظهار هو توكيد بعد توكيد، فالتوكيد الأول بالأداة (فإنّ)، والثاني باللفظ الظاهر (ربيّ)، مما يوحي بأنّ التوكيد بالاسم أقوى من التوكيد بالضمير في هذه الآية، ومما يعضد هذا التوكيد، ما ذكره ابن عاشور وهو يتحدث عن مسألة العدول في تفسيره لهذه الآية بقوله:" والعدول عن الإضمار إلى الإظهار في قوله: (فإن ربي غني كريم) دون أن يقول: فإنه غني كريم، تأكيد للاعتراف بتمحض الفضل المستفاد من قوله:" فضل ربي "([1]) .

الترتيب: تقديم صفة العزة على الرحمة، في قوله تعالى:﴿ وإنّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾([2])، إذ إن المقام مقام بيان القدرة، قدّم صفة العزة على الرحمة، فالرحمة إذا كانت عن قدرة كانت أعظم وقعاً، والمعنى: أنّه عزّ في نقمته من الكفار ورحم مؤمني كلّ أمة"([3]) .

المقابلة والترتيب: الليل والنهار: الليل قبل النهار: (الآيات: 71-73القصص):" "ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" القصص(73). فلما ذكر الليل قبل النهار ذكر الفعل (لتسكنوا الخاص بالليل، ثم عطف الفعل ولتبتغوا ومتعلقه من فضله، الخاص بالنهار)، وأبانت إحالة الضمير بعد الفعل (فيه) عن إحالته إلى الليل، وكذلك قرينة الفعل (لتسكنوا) واختصاصها بالليل، كما أبانت الآية قبلها " بليل تسكنون فيه" .

---

[1]- ابن عاشور: التحرير والتنوير،147/10.

[2]- سورة الشعراء: الآيات:9، 68، 104، 122، 140، 159، 175، 191 .

[3]- أبو حيان: البحر المحيط: 142/8.

التعريف والتنكير: قال ابن عاشور فالتعريف باللام في (القوي الأمين) للجنس مراد به العموم...وفي المعرّف باللام هنا العموم في كليهما ، فأوثر بالتقديم في جزأي الجملة ما هو أهم وأولى بالعناية وهو خير أجير؛ لأنّ الجملة سيقت مساق التعليل لجملة (استأجره)، فوصف الأجير أهم في مقام تعليلها ونفسُ السامع أشد ترقباً لحاله.

ومجيء هذا العموم عقب الحديث عن شخص معين يؤذن بأن المتحدث عنه ممن يشمله ذلك العموم فكان ذلك مصادفاً المحز من البلاغة إذ صار إثبات الأمانة والقوة لهذا المتحدث عنه إثباتاً للحكم بدليل . فتقدير معنى الكلام: استأجره فهو قوي أمين وإن خير من استأجر مستأجر القوي الأمين . فكانت الجملة مشتملة على خصوصية تقديم الأهم وعلى إيجاز الحذف وعلى المذهب الكلامي، وبذلك استوفت غاية مقتضى الحال فكانت بالغة حد الإعجاز "ومنه التعريف أيضاً التعريف في لفظة (القصص)، وهو عوض عن المضاف إليه، أي قصصه، أو للعهد، أي القصص المذكور آنفاً" ([1]).

التضاد: أفلا تسمعون: استدلال بالتضاد؛ بحدوث السمع عندهم باعتبار أن النائم حقيقة لا يسمع، بدليل قوله(أفلا تبصرون)، وهي من نعم الله تعالى لذا أوجب مقابل هذه النعم الشكر.

الإجمال والتفصيل: ذكر الطير ثمّ فصلّه وبيّنه بنوع واحد منها وهو (الهدهد)، في الآية نفسها، قال تعالى:"وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ"(20)

حسن التخلص: ومن عناصر الربط الدلالي (حسن التخلص)، وهو من وسائل الربط التي أولاها علماء المعاني أهمية عند التحول من موضوع إلى موضوع آخر، ولقد اهتم به المحدثون في دراسة موضوع حبك النصّ، أحد المحدثين بعنوان خصه لهذا العنصر، باعتباره أحد عناصر (الحبك) .

[1]– ابن عاشور: التحرير والتنوير،153/10.

ومما جاء من هذا الضرب في نصوص السور ذوات الحروف المقطّعة ما ذكره الزركشي بقوله:" وقوله تعالى:﴿ قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون انتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين الذى خلقني فهو يهدين﴾، وذلك أنه لما أراد الانتقال من أحوال أصنامهم إلى ذكر صفات الله قال إن أولئك لي أعداء إلا الله فانتقل بطريق الاستثناء المنفصل"([1]) .

المناسبة الجامعة بينها من حيث: أسباب نزول بعض الآيات فيها؛ الجو العام أو السياق الذي يمكن أنْ يعدّ قاسماً مشتركاً بينها، فكان سبباً في نوع الاستهلال وكميته ومحاور السور الرئيسة الواحدة، فمن الألفاظ التي اشتركت بين سور هذه المجموعة ممثلة بسورتي الشعراء والقصص، وأدّت إلى الترابط الدلالي فيما بينهما لفظتا (ثعبان وجان)، وجاءت اللفظتان في موضع الخبر، قال تعالى في سورة الشعراء:﴿ فإذا هي ثعبان﴾([2]) والكلام عن عصا موسى عليه السلام، وقال تعالى في سورة القصص:﴿تهتز كأنها جان﴾الآية:31، والكلام أيضاً عن عصا موسى عليه السلام، قال السيوطي:" والجان الصغيرُ من الحيّات، والثعبان الكبير منها؛ وذلك لأنّ خَلْقَهما خلْقُ الثعبان، واهتزازهما وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وحركته وخفته"([3]).

الزمان والمكان: إن أهم ما يمكن تسجيله من هذين العنصرين، هو تعالي النص القرآني على الزمان والمكان، بعُد أم قرُب .

ويمكن أن نضيف إلى هذا المستوى (التداولي)، التنوع في طريقة سرد القصص؛ تركيباً؛ ألفاظاً ومعاني تنداح في إطار المعنى الواحد الكلّي للقصة نفسها التي الكلام عنها، إيجازاً أو تفصيلاً، وذلك تعالياً وتفاضلاً وتميزاً للنصّ، الذي يطوع اللغة لنظامه الخاص؛ تركيباً ودلالة وتداولاً، ترفاً علمياً ولغوياً، لا ترفاً لذاته بل ترفاً هادفاً ومقصوداً، حقّق الكفاية اللغوية بإنتاجه أكبر عدد من النصوص .

---

[1]- الزركشي: البرهان في علوم القرآن: 44/1 .

[2]- سورة الشعراء: الآية/32.

[3]- السيوطي: معترك الأقران،101/1.

وقالت نملة: هذا الإسناد يشكل انحرافاً إسنادياً بحكم عدم سماع قول من لا يعقل، فإنّ مصدر الخلق لمنْ يعقل ولمنْ لا يعقل واحد، وكما أنّ الإنس والجن مخلوقان للعبادة، فكل المخلوقات تشترك بهذه العبادة بطريقتها التي أفهمت له وتعلمتها، وقد نصّ القرآن الكريم على عبادة الله من قبل منْ لا يعقل، قال تعالى:﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ .

العلاقات والعناصر النحوية.

1ـ الحذف: تعددت ضروب الحذف في هذه السورة ومن هذه الضروب ما يلي:

حذف المبتدأ: قال الله تعالى:﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾([1]).

قال ابن عاشور:"وقوله:(فإن أتممت عشراً فمن عندك)... و(من) ابتدائية و(عند) مستعملة في الذات والنفس مجازاً، والمجرور خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: فإتمام العشر من نفسك، أي لا مني، يعني: أنّ الإتمام ليس داخلاً في العقدة التي هي من الجانبين فكان مفهوم الظرف معتبراً هنا"([2]) .

حذف الفعل: ومن المواضع التي حُذفَ فيها الفعل الماضي، قوله تعالى على لسان الهدهد:﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾([3])، قال: إنّي وجدت، بقرينة ذكر الفعل نفسه في صيغة الماضي في الآية قبلها:"فقال أحطت بما لم تحط به".

حذف الجمل: ومنه ما جاء في قوله تعالى:﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾([4]).

---

[1]– سورة القصص: الآية 27 .

[2]– ابن عاشور : التحرير والتنوير:380/10. .

[3]– سورة النمل: الآية/ 23 .

[4]– سورة النمل: الآية/40 .

فأتاه به قبل أن يرتد طرفه، فحذت الجملة بدلالة ما بعدها: فلمّا رآه، وكـذلك حذف جملة جواب الشرط (ومن كفر)، إذ التقدير: فإنما يكفر على نفسه، أو فكفـره على نفسه، بدليل: فإنّما يشكرُ لنفسه .

حذف المصدر ونعته مذكور: ومنه ما جاء في قوله تعالى:﴿ قَالُوا بَلْ وَجَـدْنَا آَبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾([1])، فقوله:"كذلك يفعلون " تشبيه فعل الآباء بفعلهم، وهو نعـت لمصدر محذوف، والتقدير: يفعلون فعلاً كذلك الفعلِ، وقدم الجار والمجرور علـى " يفعلون" للاهتمام بمدلول اسم الإشارة .

حذف جواب لولا: ومنه حذف جواب لولا: في قول تعالى:﴿ وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولا فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ([2])، قال البغوي (ت/ 516 هـ) :" وجـواب "لـولا" محـذوف، أي: لعاجلناهم بالعقوبة، يعني: لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم. وقيل: معناه لما بعثناك إليهم رسولا ولكن بعثناك إليهم لئلا يكـون للنـاس على الله حجة بعد الرسل"([3]) .

2ـ العطف: ذكر الزركشي فائدة العطف في ربط الآي بالآي بقوله:" فائدة العطـف جعلهما كالنظيرين والشريكين وقد تكون العلاقة بينهما المضادة، وهذا كمناسبة ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة، وعادة القرآن العظيم إذا ذكر أحكامـا ذكر بعدها وعدا ووعيدا؛ ليكون ذلك باعثا على العمل بما سبق، ثـم يـذكر آيـات التوحيد والتنزيه ليعلم عظم الآمر والناهي"([4]) .

ومن ضروب العطف عطف جملة على جملة، فقد تحقق العطف بينهما علـى الرغم من وجود أكثر من آية بين الجملتين المتعاطفتين، ومنه قوله تعالى:﴿ وَإِنَّـكَ

---

[1]- سورة الشعراء: الآية/74 .

[2]- سورة القصص: الآية/47.

[3]- البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود: معالم التنزيل،212/6، ت: محمد عبد الله النمـر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، الناشـر: دار طيبـة للنـشر والتوزيـع، ط/1417 هـ – 1997م .

[4]- الزركشي: البرهان في علوم القرآن،40/1 .

لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾([1])، عطف على جملة:﴿ تلك آيات القــرآن﴾([2])، قال ابن عاشور:" انتقال من التنويه بالقرآن إلى التنويه بالذي أنزل عليه بأن القرآن آيات دالة على أنه كتاب مبين، وذلك آية أنه من عند الله، ثم بأنه آية على صدق من أنزل عليه إذْ أنبأه بأخبار الأنبياء والأمم الماضين التي ما كان يعلمها هو ولا قومــه قبل القرآن، وما كان يعلم خاصة أهل الكتاب إلا قليلاً منها أكثره محرف "([3]).

ومن ذلك ارتباط الآيتين العاشرة والحادية عشر بعلاقة التبعية (العطف)، على الرغم من عدم وجود روابط لفظية نحوية شكلية، وهذه العلاقة تحصلّت من خــلال المعنى النحوي الوظيفي الذي أتته الجملة الثانية، عندما اشتملت على تكرار لفظــة (قوم) التي عُرّفت بالاسم بعدها (فرعون)، فاستبدلت جملة (القوم الظالمين) المعرفة أصلاً، بجملة أكثر بياناً منها، وهي جملة (قوم فرعون)، فجاء الخاص مبّينــاً للعــام على الرغم من تعريف الذيل أو التكملة (المفعول به وصفته؛ القوم الظالمين)، الذي ارتبط بعلاقة المفعولية مع المسند وهو الفعل(إئت) والمسند إليه(موسى)،

قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَــوْمَ الظَّــالِمِينَ (10) قَــوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾(11)، قال الرازي:" أما قوله: (قَوْمِ فِرْعَوْنَ) فقد عطــف (قــوم فرعون) على (القوم الظالمين) عطف بيان ، كأن القوم الظــالمين وقــوم فرعــون لفظان يدلان على معنى واحد" ([4]).

قال الله تعالى:" إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" (85)

قال في المغني:" ويجوز أنّ يكون بين متعاطفيها تقاربٌ أو تراخٍ، نحــو (إنــا رادّوهُ إليكِ وجاعلوهُ من المُرسلين) فإن الرد بُعيدَ إلقائه في اليم والإرســال علــى رأس أربعين سنة، وقولُ بعضهم إن معناها الجمع المطلق غيرُ سديد، لتقييد الجمــع بقيد الإطلاق، وإنما هي للجمع لا بقيد، وقولُ الــسيرافي إن النحــويين واللغــويين

---

[1]- سورة النّمل: الآية/6 .

[2]- سورة النّمل: الآية/1 .

[3]- ابن عاشور: التحرير والتنوير، 43/11. .

[4]- الرازي: مفاتيح الغيب: 463/11 .

أجمعوا على أنها لا تفيد الترتيب، مردودٌ، بل قال بإفادتها إيـــاه قُطــرب والرّبعــيّ والفراء وثعلب وأبو عمر الزاهد وهشام والشافعي، ونقل الإمام في البرهـــان عــن بعض الحنفية أنها للمعية.

وتنفرد عن سائر أحرف العطف بخمسة عشر حكماً: أحدها: احتمالُ معطوفها للمعاني الثلاثة السابقة "([1]).

3ـ التكرّار: ولعل أبرز مظاهر التكرار هو تكرار قصة سيدنا موسى فــي الــسور الثلاث، ففي سورة الشعراء تحدث قسم من الآيات عنها، وفي سورة النمل كانت أقل منها في سورة الشعراء، أما التفصيل فيها فكان أكثر في سورة القصص.

كما جاء في هذه السور ذكر لعدد من الرسل بأسمائهم، وكرّرت هذه الأســماء نفسها في هذه السور، بقطع النظر عن عدد الآيات التي شغلت كلّ قصة، إذ مجــرد تكرّار اسم النبي يؤدي تحقق هذا العنصر بين هذه السور، إذ إن دلالــة الاقتــضاء والتلازم بين الرسول المذكور وقصته تدلّ عليها .

وفي سياق تحقق التماسك النصي من خلال عنصر التكرار؛ أي بذكر الرسول عليه السلام وقصته، يذكر الفقي قوته بقوله:" فالتماسك القائم بين مواقــف القــصة المذكورة في أكثر من سورة، يعد سبباً قوياً في تحقيق ذلك التماسك بين هذه السور؛ إذ كيف تكون هذه القصة متماسكة فيما بينها، ولا تكون السور التي تشتمل على هذه القصة متماسكة؟!"([2]) .

ومنه تكرار لفظتي الكتاب وصفته المبين، اللتان جاءتا متتاليتين فــي هــذه السور الثلاث، ومن صور التكرار اللفظي المتطابق لفظاً، ما جاء في سورة الشعراء من تكرار لأربع آيات، وهي قوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ *وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، وقال تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَــانَ أَكْثَــرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾([3]).

---

[1]ـ ابن هشام: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (باب الواوالمفردة،17/1، منــشورات محمــد بيضون، بيروت–لبنان، دار الكتب العلمية.

[2]ـ الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: 177/2.

[3]ـ سورة الشعراء: الآيتان: 68،9.

وحدة الإسناد: تحققت وحدة الإسناد، اي إسناد الأفعال إلى مسند واحد في هذه السور، وجاءت في الآيات التي شكّلت أبنية نصية صغرى وكبرى، وموضوعاتها اشتملت على: التأكيد على موضوع الخلق، البعث، الاحتجاج للقرآن الكريم وللرسول عليه السلام، وهذه الموضوعات جاء إسناد الأفعال فيها إلى لفظ الجلالة، سواء أكان إسنادها بشكل مباشر من الله تعالى، أم جاء إسنادها على لسان الرسل عليهم السلام، ويمكن هنا تسجيل ملاحظة عامة ألا وهي مجيء الإسناد واحداً في موقف قوم كل رسول من الرسل، كما أنّ هذه الوحدة في الإسناد تماست وتطابقت في كل السور، لفظاً وتركيباً وتصديراً، نحو: " كذبت قوم "، وكذلك ذكر العذاب نفسه لبعض الأمم :" الصيحة " "الخسف ".

العلاقات والعناصر التداولية

الأفعال الكلامية: من الأفعال الكلامية التي شكّلت بتضامها مع الألفاظ قضية أو قضايا مشتركة (المحتوى القضوي) لها، وسأكتفي بنماذج من آيات هذه السور تمثّل لأصناف الأفعال الكلامية لمعرفة أغراضها الإنجازية وهي على الشكل التالي:

1 ــ الإخباريات: وغرضها نقل الواقع نقلاً أميناً ، ليتحقق شرط الإخلاص بصفة هذا النقل، ومن ثم يتحقق إنجاز هذه الصنف من الأفعال، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، ففي سورة الشعراء نقرأ قول الله تعالى:﴿ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم *إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾([1])، فلنقف عند الفعل (أنبتنا) ومتعلقه الظرف (فيها)، الذي أدى معنى نحوياً وظيفياً يفيد أماكن متعددة داخلة في مكان يحيط بها كلّها وهو الأرض، وهذا المكان دلّ عليه معمول الظرف؛ أي ضمير الأرض المجرور، فالمتكلّم انطلق في لفظ الفعل (أنبت) المسند إلى ضميره اللاصق بالفعل ، هذا الفعل الذي يعرفه المخاطب ويعرف أن المزارع عليه أن يمارس أفعالاً تؤدي إليه ؛ ليجني من الأرض ثمرة تعبه؛ حراثة الأرض وزراعتها ببذرة النبات الذي يريد وسقايتها، لتخرج الأرض النبات أو الثمر الذي وضع المزارع بذرته ، فهذا لم يكن ليتحقق لو لم يفعل المزارع ما يجب فعله

---

[1]- سورة الشعراء: الآيتان/7،8.

لقطف ثمر النبات الذي أراده، فدلت نتيجة الأفعال إلى رؤية النتيجة التي أرادها المزارع، ولمّا كان شرط هذه النتيجة هذه الأفعال ، فإن إنجازها لا يمكن إلا في عالم مكاني وهو عالم الأرض، وبحكم العلاقة المعرفية الخاصة بحقل (الزراعة) بين المتكلم والمخاطب؛ فعل الإنبات وما يتطلب من أفعال قبله لإحداثه، ومعرفة مكان حدوث الفعل والأفعال قبله، فقد تم النقل لهذا الواقع نقلاً أميناً، ولمّا كان سياق الآيات سياق دعوة للإيمان بما جاء به النبي والأنبياء عليه السلام قبله وعدم تكذيبه، دعا المتكلّم المخاطب المنكر المكذب، إلى النظر إلى العالم الذي يعيش عليه ويعتاش منه، وإلى ما فيه من أصناف متعددة من النباتات(من كل زوج كريم)، التي تطلبت فعلاً واحداً كافياً للمخاطب، أن يستدل به على كل ما يدور في حقله من أفعال وأسماء، تؤدي إليه، كل ذلك بحكم معرفة المخاطب لعوالم هذا الحقل (النباتي أو الزراعي)، وهي المعارف والخبرات التي تعلمها في منظومته الاجتماعية والثقافية، ولمّا كانت الأرض وما فيها من أصناف ماثلة للمخاطب، بفعل المتكلّم الذي لا يستطيع المخاطب أن ينكره له (إنزال الغيث، إحياء الأرض بعد موتها، ظهور النباتات على اختلاف أصنافها)، فتأتى شرط الإخلاص من شرط النقل بأمانة، فأدى كل ذلك إلى النجاح التام في إنجاز الأفعال والمحتوى القضوي الذي تشكله، ولم يكن هذا الإنجاز مقصوداً لذاته في المقام الأول، إنما كان إنجازه بكل أمانة وإخلاص، تمهيداً للمخاطب المنكر لأنّ يعدل عن تكذيبه لما جاء به هذا القرآن ودعا إليه الرسل جميعاً، فهذه القضية المشتركة (المحتوى القضوي) الذي تحدث عنه الآية، هو آية لا تقل قوتها عن قوة سائر الآيات والمعجزات الإلهية الأخرى، تأثيراً في المخاطب بحمله على التصديق بالكتاب وما جاء فيه والنبي الموحى إليه به والداعي لما فيه، (عبادة الله وحده وعدم الشرك به)، فهو منزل الغيث ومحيي الأرض ومخرج نباتها بأصنافه المتعددة، فجاءت الآية بعدها وهي تحيل بمجملها إلى الغرض الإنجازي المتحقق، وتحقيق شروط إنجازه من أمانة في النقل والإخلاص، لتؤكد على هذا الإخلاص في إنجازها، بعدّه آية من آيات الله، ودليلاً على الإيمان، لأن يؤمن المخاطَب:﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ .

وفي هذا السياق يقول ابن عاشور:" فالمذكور في هذه الآية أنواع النبات الدّالة على وحدانية الله؛ لأن هذا الصنع الحكيم لا يصدر إلاّ عن واحد لا شريك له، وهذا دليل من طريق العقل، ودليل أيضاً على إمكان البعث لأن الإنبات بعد الجَفاف مثيل لإحياء الأموات بعد رفاتهم كما قال تعالى:﴿وآية لهم الأرض الميتة أحيَيْناها﴾([1])، وهذا دليل تقريبي للإمكان فكان في آية الإنبات تنبيه على إبطال أصلي عدم إيمانهم وهما: أصل الإشراك بالله، وأصل إنكار البعث "([2]) .

ونجد ما يماثل هذا المحتوى القضوي (القضية التي يشكلّها الفعل ومقام إنجازه وشروطه)، متحققاً في آيات سور هذه المجموعة (الطواسين)، بل نجده متحققاً في سائر السور ذوات الحروف المقطعة، بقطع النظر عن الاختلاف في أبنية الأفعال وصيغها وزمانها ومكانها، ما دام أنها تشكل المحتوى القضوي الواحد، ذا المقصد الدلالي الواحد، المترابط المتماسك مع دلالات النصّ المتعددة، وإنْ اختلفت الأفعال الإنجازية ومحتوياتها القضوية من خلال تنوع القضايا التي تشكلّها الأفعال الإنجازية، نحو: مسألة البعث، الخلق ، القصص، الأمثال ...الخ)، إذ أنجزتها أفعال متباينة في أبنيتها وأصنافها ... الخ .

وما يماثل المحتوى القضوي لهذه الآية (إنبات الأرض) ما جاء من آيات في سورتي النمل والقصص ، ففي سورة النمل نقرأ قول الله تعالى:﴿ أمّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾([3]).

ومن الأفعال الكلامية (الإخبارية) التي أنجزت ووظِّفت؛ للتأكيد على محور الوحدانية الرئيس، الذي تحدثت عنه السور ذوات الحروف المقطّعة، الانجاز غير المباشر لمعنى النفي غير المباشر، المنجز من معنى الاستفهام المباشر، وذلك من خلال اسم الاستفهام (أين)، الذي ظاهره الاستفهام :"عن المكان الذي يوجد فيه

---

[1]- سورة يس: الآية/33.

[2]- ابن عاشور: التحرير والتنوير، 138/10 .

[3]- سورة النمل: الآية/60 .

الشركاء ولكنه مستعمل كناية عن انتفاء وجود الشركاء المزعومين يومئذ، فالاستفهام مستعمل في الانتفاء"([1]).

2 ـ **التوجيهات:** الطلبيات: وهي الأفعال الدالة على الطلب بقطع النظر عن صيغتها، وغرضها الإنجازي:" محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات"([2]) .

معرفة العوالم: ومن هذه المعارف ما جاء في قوله تعالى:﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أنباء مَا كَانُواْ به يستهزئون ﴾، قال الرازي مبيناً معرفتهم لما سيأتيهم :"... وذلك إما عند نزول العذاب عليهم في الدنيا أو عند المعاينة أو في الآخرة ، فهو كقوله تعالى:﴿ وَلَتَعلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينِ﴾ ([3])، وقد جرت العادة فيمن يسيء أن يقال له سترى حالك من بعد على وجه الوعيد"([4]).

ومنها المعارف التي آمن بها فرعون وهامان وجنودهما، والمتمثلة في خوفهما وحذرهما من تحقق أقوال المنجمين التي آمنوا بها فصدقوها، وهي ولادة مولود سيكون سبباً في ذهاب ملك فرعون، فكانت ولادة موسى عليه السلام أول هذه العلامات والنتائج، فكانت تلك المعارف التي اكتسبها فرعون هي التي أخبرت بها الآية السادسة من سورة القصص، قال الله تعالى:﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾([5]).

بعد الكلام السابق عن أصناف الأفعال الكلامية وأمثلتها، فتبدو إمكانية الربط بين المستويين النحوي والتداولي، من خلال أصناف الأفعال الكلامية، إذ إنّ اشتراط أداء الفعل عند إسناده، أو عند إسناد الخبر للمبتدأ، ليشكل الإسناد المحتوى القضوي من خلال هذه العلاقة، وعلاقة الإسناد بين الركنين (المسند والمسند إليه)، أخبر بها سيبويه مبكراً بقوله:"وهما ما لا يغنى واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه

---

[1]– ابن عاشور: التحرير والتنوير، 143/10.

[2]– نحلة: نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية: 177 .

[3]– سورة ص: الآية/88 .

[4]– الرازي: مفاتيح الغيب:120/23.

[5]– سورة القصص: الآية/6 .

بداً، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه، وهو قولك عبد الله أخوك، وهذا أخــوك، ومثل ذلك يذهب عبد الله، فلا بدّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بــدّ مــن الآخر في الابتداء، ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك: كان عبد الله منطلقاً، وليت زيداً منطلق؛ لأن هذا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى مــا بعــده"([1])، فــالمحتوى القضوي يتحقق بين ركني الجملة وحدهما، وقــد ينــضم معهمــا مــن المكمــلات (الفضلات) التي تتمم الإفادة، لكنّ جوهر نظرية الأفعال الكلامية، تشترط أن يكــون الفعل المنجز في الجملة، من ضمن الرصيد اللغوي المشترك (العرف الاستعمالي)، فهذا الجوهر يهدف إلى تحقيق المعنى القضوي من خلال معناه الإنجازي المتــصل بأي وسيلة لغوية في إطار مقامي يراعي المخاطب؛ ثقافته، حضور وغياب فكــره، إنكاره، بمعنى أن إنجاز المحتوى القضوي مقيد بمدى طبيعة العلاقــة بــين ركنــي العملية التواصلية (المتكلّم والمخاطب)، فيظهر لنا النصّ (الركن الثالــث)، بأبنيتــه وسياقه ومعرفة ركنيه لعوالم النصّ عن طبيعة هذه العلاقة، وتؤكــد لهــذه العلاقــة الدلالة الكلية للنصّ، من خلال النظر إليه بكونه ذا بنيــة كليّــة كبــرى، تتــضمن المحتوى القضوي الكلي، وتتضمن أبنيته الصغرى والكبرى، معاني قضوية متعددة، خادمة للمعنى القضوي الكلي، الذي يشكل الإطار الذي يشمل بنى النصّ الــصغرى والكبرى .

3.1.4 الوحدة الموضوعية في هذه مجموعة سور (الطواسين)

وحدة السياق: السياق العام لهذه السور واحد؛ وهو الحديث عن الكفــر وعــدم الإيمان وعبادة غير الله تعالى وتكذيب الرسل، ومقام هــذا الحــديث عــن الكفــر والتكذيب والشرك يتسق مع مقام دعوته عليه الصلاة والسلام لعبادة إله واحد، وهي دعوة جميع الأنبياء والرسل قبله، ولقد وضّفت قصة سيدنا موسى مع فرعون فــي السور الثلاث، حتى أنها تماثلت بها ابتداءً قبل غيرها من القــصص، ثــم توالــت قصص الأنبياء في هذه السور، وختمت بالمآل الذي آلت إليه قوم كل رسول، ففــي سورة الشعراء ذكرت قصص الأنبياء على الترتيب (إبراهيم، نوح، هود، صــالح،

---

[1]– سيبويه: الكتاب: 23/1.

لوط، شعيب)، ثم جاء بالتنويه بالقرآن الكريم والاحتجاج له وللرسول عليه السلام، قبل تكرار التأكيد على الإنذار بإرسال الرسل قبل محمد عليه السلام، والعذاب الذي لحق قومهم، فجاء الكلام في آخر السورة مختصراً بتكراره للمعنى المقصود الذي فهم من سرد تلك القصص ونتائجها لفظاً، وكأنه إجمال بعد تفصيل؛ ليبقى ذهن المتلقي متعلقاً بمقصد واحد، هو تأكيد العبادة لإله واحد بإتباع الرسول عليه السلام، الداعي والمنذر للدعوة نفسها التي دعا إليها الرسل من قبله، والمنذر الإنذار نفسه الذي أنذره كلّ رسول منهم أيضاً ، فجاء الخطاب في آخر السورة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، لإبلاغ دعوة التوحيد والتزامه هو بها أولاً ، وإنذار قومه؛ عشيرته ثانياً وعامة الناس ثالثاً .

وفي سورة النمل وردت قصص الأنبياء على الترتيب (موسى، داوود، سليمان، صالح، لوط)، وجاءت هذه القصص موجزة، اكتفاءً بذكر اسم الرسول فقط (داوود)، أو ذكر أحداثها مجملة بحدث واحد يدل على سائر أحداثها، وذكر نتيجتها أو حدثاً يدل على نتيجتها؛ العذاب الذي لحق منْ كفر بما أرسل به الرسل، ثم انتقلت آيات السورة تؤكد على موضوع الوحدانية، من خلال الأدلة والبراهين، التي جاء بها القرآن الكريم، ودعا إليها الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكان الاحتجاج لهما ملازماً لموضوع الوحدانية، ولسائر المواضيع التي تؤكد لموضوع الوحدانية .

وفي سورة القصص لم تذكر إلا قصة سيدنا موسى عليه السلام، وجاء التفصيل فيها أكثر وأدق لما في السور السابقة، إذ جاء فيها ذكر لقصة قارون، ولم تختلف السورة؛ سياقاً وموضوعاً وترتيباً عن سور المجموعة، إذ بدأت بذكر الإيمان (يؤمنون) الذي سببه القرآن فتقدم ذكره، وأشير إليه ببعض من حروف (المقطّعة)، ثم ذكر قصة موسى بالتفصيل، ثم التأكيد على موضوع الوحدانية، بخطاب الرسول عليه السلام بما يكرّس لهذا الموضوع ، بإخبار قومه عن فضل الله عليهم، ومساءلة قومه منْ هو صاحب هذا الفضل ، فجاء الإخبار بالالتفات إلى ذكر قارون والخير الذي أوتيه، لمّا أسند الفضل والنعيم الذي هو فيه لنفسه، وجعل مصدر هذا الفضل، العلم بأسباب وأساليب جمع هذا الفضل، ثم ذكر ما آل إليه من العذاب (خسفاً له ولداره في الأرض)؛ لتوافق طريقة العذاب بهذا الخسف، الدال على إذلاله

وانهزامه، وعدم إتباع نصح قومه له ، بالرغم من اتكاله على قوته ونصرة قومه له من دون الله، (وما كان من المنتصرين) :" فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين"، فكان الإخبار عن الهزيمة بنفي الانتصار استبدالاً به عن لفظها، فكأن السياق والقرائن دوال على وجود حذف للفظ الانتصار أو النصر، وهو العلو الذي أراده قارون كما يشير سياق الآيات، قد صرّح به قارون في الآية التي أسند القول له فيها وهي قول الله تعالى:" قال إنما أُوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون منْ هو أشدّ منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون "، فكأن الحذف قد جاء بعد لفظة عندي: أي وسأنتصر، أو والنصر لي، وقرينة الإخبار التي تصدرت بلفظ الاستفهام التقريري وإفادة التعجب وإسناد فعل العلم (المعرفة بأحوال من قبله)، وفعل الهلاك كلّها تفيد بأن قارون قد صرّح بالنصر وضامن لحدوثه، كما أنّ سياق الآيات قبل هذه الآية وبعدها، ليؤكد على وجود موضوع الانتصار والهزيمة، وذلك بنصح قومه له:" لا تفرح، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض "، والمقابلة بين منْ تمنوا أن يأتيهم ما أوتي قارون، وبين (العلماء حقاً) الذين يردون ثواب الله ، هو الثواب الذي دعي إليه قارون لامتثاله والسعي إليه، فكان عذاب قارون عبرة للمتمنيين لمثل ما أوتي قارون .

إنّ ذكر القصص وُظِّف كما وظفت القضايا المحورية: الخلق، الظواهر الكونية، البعث، خدمة لمقصد الإيمان، فالقصص عِبَرٌ تضاف إلى سائر العبر والآيات، التي تحمل المتلقي على الإيمان، وقد صرّح النصّ القرآني بذلك في أكثر من موضع، وجاء هذا التصريح بعد الآيات التي تحدثت عن قصة قوم لوط عليه السلام، والعذاب الذي نالهم، ومن ذلك الآيات التي وردت في سورة الشعراء (103،66، 120-121، 139، 189،190،158)، قال الله تعالى: وقال الله تعالى:﴿ربِّ نجني وأهلي مما يعملون*فنجّيناه وأهله أجمعين*إلا عجوزاً في الغابرين*ثم دمرنا الآخرين* وأمطرنا عليهم مطر المنذرين*إنّ في ذلك لآيةً وما

كان أكثرهم مؤمنين﴾([1]). إذ تماثلت الآية الأخيرة مع الآية التي تدعو المتلقي إلى أخذ العبرة من مخلوقات الله الماثلة أمامه، وهي الآيات التي تتحدث عن الأزواج المتعددة التي أنبتها الله في الأرض، قال الله تعالى:﴿أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم * إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين﴾([2])، ويلاحظ التطابق لفظاً ومعنىً في الآية التي تلي آية العبرة، في كل الآيات التي تتحدث عن العذاب للأقوام المكذبة للرسل، وفي آية الإنبات للأزواج، قال الله تعالى:﴿ وإنّ ربك لهو العزيز الرحيم﴾([3]) .

ولعل الاكتفاء بقصة سيدنا موسى وحدها، وتفصيل أحداثها في هذه السورة بشكل خاص ــ بالإضافة إلى تماسكها مع السور قبلها، وتضمنها كافة المواضيع التي تؤول إلى الموضوع الرئيس (الوحدانية)، التي أكدّت عليه السور السابقة ــ ووقوعها آخر سورة في (الطواسين)، لتتماسك مع السور التي قبلها بشكل عام من جهة ، ولتتماسك مع السورة التي بعدها وهي سورة (العنكبوت) وما فيها من الأحداث والمواقف التي تعرّض لها محمد عليه الصلاة والسلام بشكل خاص من جهة أخرى، وبيان ذلك التماسك؛ استهلالاً، ومحاور متعددة، وأحداثاً متطابقة تعرض لهما موسى ومحمد علهما السلام؛ أذى ونجاة ونصرة ووعداً، وموضوعاً كلياً واحداً في كلا السورتين.

الموضوع المحوري المركزي في سور (الطواسن).

إنّ الموضوع المحوري الذي تتمركز حوله المواضيع التي تحدثت عنها هذه السور، هو محور(الوحدانية لله عز وجل)، وقد تحقق هذا المحور من خلال الحديث الذي شكلّته الأبنية النصية الصغرى والكبرى التالية:

العلم (الغيب والشهادة).

---

[1]- سورة الشعراء: الآيات:169ــ174.

[2]- سورة الشعراء: الآيتين 7،8.

[3]-انظر: سورة الشعراء: الآيات:(9،67، 104، 122، 140، 159، 175، 191) .

البعث: وجاء مضمناً في قوله تعالى من سورة الشعراء:﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾([1])، وفسّره الطبري بقوله:"يقول تعالى ذكره: إن في إنباتنـــا فـــي الأرض من كلّ زوج كريم لآية. يقول: لدلالة لهؤلاء المشركين المكذّبين بالبعـــث، على حقيقته، وأن القدرة التي بها أنبت الله في الأرض ذلك النبات بعد جدوبتها، لـــن يُعجزه يقول: وما كان أكثر هؤلاء المكذبين بالبعث، الجاحدين نبوتـــك يـــا محمـــد، بمصدقيك على ما تأتيهم به من عند الله من الذكر"([2]).

ويبرز الموضوع المحوري من خلال الآية التالية، التي تتحـــدث عـــن اســـمه تعالى العزيز (الولي) الحق، القادر وحده على أن يحي ويميت، فأسند فيهـــا اســـمه العزيز (الولي)، للضمير الذي يحيل إحالتين: إحالة قبلية على لفـــظ الجلالـــة (الله)، وإحالة بعدية على المسند (الخبر)، وأحال الضمير (هو) إلى لفظ الجلالة إحالة قبلية مرتين، عندما جاء بواو العطف التي أغنت عن تكرار لفظ الجلالة مرتين؛ أي: وهو يحيي ... وهو على كل شيء قدير، فأثبت الوحدانية والعبـــادة لله وحـــده، بحقيقـــة الوالي الحق والمحي الحق والمبيت الحق، والقدير الحق على كلّ شيء ، فانتفى أن يشركه أو يشبهه شيء، قال لله تعالى:﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُـــوَ الْـــوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾([3]). وفي سياق الإحاطة والقدرة ونفي الشرك ، يقول البقاعي:" ولما كان ما فعلوه عظيم البشاعة، اشتد التشوق إلى جزائهم عليه فأخبر عنه سبحانه بقوله معبراً بالاسم الأعظم، إشارة إلى وضـــوح ضـــلالهم وعظم تهديدهم معرياً له عن الفاء؛ لئلا يتوهم أن الحفظ مسبب عن الاتخاذ المذكور عادلاً إلى التعبير بالجلالة تعظيماً لما في الشرك من الظلم وتغليظاً لما يستحق فاعله من الزجر:(الله) أي المحيط بصفات الكمال(حفيظ عليهم) أي رقيـــب وراع وشـــهيد على اعمالهم، لا يغيب عنه شيء من أحوالهم ، فهو إن شاء أبقاهم علـــى كفـــرهم وجازاهم عليه بما أعده للكافرين ، وإن شاء تاب عليهم ومحا ذلك عيناً وأثراً ، فلـــم

---

[1]– سورة الشعراء: الآية/8 .

[2]– الطبري: جامع البيان، 336/19 .

[3]– سورة الشورى: الآية/9.

يعاقبهم ولم يعاتبهم ، وإن شاء محاه عيناً وأبقى الأثر حتى يعاتبهم {وما أنت علـــيهم بوكيل "([1]).

دلالة الزمن في مجموعة هذه السور (الطواسين)

الأفعال الماضية الناقصة المغرقة في زمن الماضي:

(كنّا): وهي تدلّ دلالة غير لفظية على اسمين من أسماء الله الحسنى وهما (الرحمن والرحيم)، وهي أسماء تتجاوب فيها صفة الرحمة التي اتّصف عزّ وجل بها وكتبهــا على نفسه، وهي دلالة تتجاوب كذلك من خلال التصور المفهومي الذهني، مع جملة الدلالات التي تأولناها للحروف المقطعة في سورة البقرة، وهي أنّ الله تبارك وتعالى العليم بما هو خير لعباده، فلم يُعذّب أمة من الأمم، قبل أن يبعث إليهم نذيراً يبشّرهم بإتباع ما يدعو إليه وينذرهم بتكذيب وعدم إتباع ما أمر الله به، وجاء به المرســلون من الله عزّ وجل، فرحمة الله بعباده حاصلة قبل أن يخلق الله خلقه، فــالله ســبحانه وتعالى رحمن رحيم قبل أنْ يخبر بأسمائه وصفاته أنه رحمن رحيم، وعليم وخبيــر ورازق قبل أي اسم من أسمائه وصفة من صفاته أيضاً .

التناص بين سور الطواسن والسور القرآنية الأخرى.

منْ مظاهر هذا المعيار النصيّ وصوره الفعلية الممثلة له، التناص المتحقق من خلال وحدة موضوع القصة، وهو ما تحقق في سورتي القــصص والعنكبــوت، إذْ تناصّت سورة العنكبوت مع سورة القصص، من خلال ذكر الــسورة الأولــى لمــا تعرّض مع سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، عندما عزم المشركون من العرب في مكة على قتله، فأخرجه الله منها سالماً، ووعده بأن يرده إليها بموعد يكون أفــضل من زمن خروجه منها عليه السلام، وهذه القصة ذكرت في سورة القصص مرتين، وهي تتحدث عن خروج سيدنا موسى عليه السلام مرتين؛ الأولى بفقدان أمه له وهو وليد عندما أمرت وحياً بإلقائه في البحر خوفاً عليه، ووعدت تأكيداً منــه ســبحانه وتعالى بأن يردّه إليها، والثانية عندما خرج من مصر لئلا يقتله فرعــون وجنــوده، ووعد بالرجوع إلى مصر، فعاد بعدها رسولاً من الله ليتحقق بهذه العودة الوعــدان:

---

[1]- البقاعي: نظم الدرر،9،8/7.

وعد الله لأمه بأنه جاعله من المرسلين ووعده موسى بالرجوع إلى مصر ففي طريق عودته أوحيَ إليه من ربه، فعاد إلى مصر رسولاً نبياً ...الخ .

قال تعالى:﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ (63).

2.4 السور ذوات الحرفين (حم/الحواميم)

بلغ عدد هذه المجموعة سبع سور، وكلّها استهلت بحرفين هما الحاء والميم(حم)، وشكّل الحرفان الآية الأولى في كلّ سورة منها، وتفرّدت سورة الشورى عن سور الحواميم، على الرغم من دخولها معها في التسمية، وتماثلها معها في استهلالها بـ (حم)، وتفردها عن سائر سور القرآن الكريم، بأن شكلّت حروفها المقطّعة الآيتين إستهلت الآية الأولى بحرفين واستهلت الثانية بثلاثة حروف قال تعالى:﴿حم *عسق﴾([1])، مشكلّة بهذه الحروف آيتين منفصلتين، كما ضارعت سورة مريم في عدد حروفها المقطّعة، لكنّ حروفها (كهيعص)، شكلّت مجتمعة الآية الأولى.

1.2.4 دلالات الحروف المقطّعة في هذه السور.

أ- دلالتها على أسماء الله الحسنى:

من أسماء الله الحسنى التي جاءت باللفظ في هذه السورة هي (الحي، العليم، العزيز، الحكيم، الحميد، الرحمن، الرحيم، الغفور، ذي الطول، الولي...الخ)، أمّا أسماء الله الحسنى التي جاءت بالمعنى في آيات هذه السور فمنها: الواحد، الخالق، المصور، الرازق، المستجيب): ومن الآيات التالية قد دلّت عليها، قال تعالى:﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ

---

[1]- سورة الشورى: الايتان/1،2.

الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ*هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾([1]) .

فقوله تعالى:(هو الحي لا إله إلا هو) الذي تصدرّه الضمير (هو)، ينسجم مع كون الألف واللام من لفظ الجلالة (الله)، فلو استبدلنا الألف واللام بالضمير (هو)، فإنّ التركيب سيصير (هو لله)، والألف تسقط في درج الكلام حتّى لو كانت مرسومة، فالضمير يحيل إحالة نصيّة قبلية ذاتية متطابقة إلى لفظ الجلالة (الله)، الذي تصدّر الآية التي قبل هذه الآية([2]) .

وبناءً على تأويل الحروف المقطّعة بأنّها مقتطعة من أسماء الله الحسنى، فإنّ الجملة التي ستكون جملة نواة أو بؤرة، ستكون مبدوءة بلفظ الجلالة (الله) ومتبوعاً بأكثر من اسم من أسمائه تعالى، باعتبار هذه الجملة هي تأويل لهذين الحرفين من جملة التأويلات التي قيلت فيها، ويمكن أن تكون هذه الجملة على النحو التالي: والله الحي القيوم العزيز الحكيم الحميد المجيد، أنّ هذا القرآن المجيد هو الحق من الله وحده، أنزله على نبيّه محمد عليه الصلاة والسلام ليبشركم برحمته ومغفرته إن اتبعتموه، وينذركم ويحذركم من عقابه إن كفرتم به، ففيه الحكمة والهداية إلى الصراط المستقيم فاتبعوه تهتدوا .

ب- الدلالات الأخرى للحروف المقطّعة.

وذلك بقبول تأويل كلمات بدأت بحرف الحاء أو الميم أو بكلاهما، أو وقع أحدهما أو كلاهما أصلاً في بنيتها، أي كثرة الكلمات التي تضمنها نصّ السور، وذلك باعتبار قيام نص السورة على الحرف أو الحروف التي استهلت بها، كما ذكر جلّ المفسرين وعلماء النصّ المحدثين، فمن الدلالات التي يمكن قبولها دون أن تتعارض مع دلالة أخرى، سواء أكانت مباشرة أو غير مباشرة ما يلي:

إن حرف الحاء مع نطق صوت الألف (حا)، يدل على فعل أمر مختص بزجر الماشية، فتعالق المعنى اللغوي المعجمي لحرف الحاء وهو الزجر، مع

---

[1]- سورة غافر: الآيات (64-65) .

[2]- انظر: ابن منظور: لسان العرب (أله).

المعنى المفهوم من استمرار جدال الكفار وكفرهم بما أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام تطلّب زجرهم، وقد ألمح البقاعي إلى التعالق بين المعنيين من خلال ذكر لفظ الجلالة (الله) بشكل خاص، في تفسيره لقوله تعالى:﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾([1])، قال البقاعي:"ولمّا كان ما فعلوه عظيم البشاعة، اشتد التشوف إلى جزائهم عليه، فأخبر عنه سبحانه بقوله معبراً بالاسم الأعظم، إشارة إلى وضوح ضلالهم وعظم تهديدهم"([2]).

وهذا المعنى ينسجم مع رأي عائشة عبد الرحمن وهي تعلل نزول قسم كبير من السور ذوات الحروف المقطّعة بشكل متتابع، وهذه السور (الحواميم) الأكثر عدداً من بين سور القرآن الكريم، من حيث استهلالها بالحروف المقطّعة، كما جاءت هذه السور متتابعة في ترتيب النزول والمصحف، قالت عائشة عبد الرحمن:"...ثم نزلت الحواميم السبع متتالية في ترتيب نزولها، متتالية كذلك في ترتيب المصحف...وفيها جميعاً احتجاج للقرآن ردّاً على جدل المكذبين، فهي تستهل بعد الأحرف المقطّعة، بتقرير نزوله من العزيز الحكيم، كتاباً عربياً مبيناً فُصّلت آياته لقوم يعلمون، وتنذر من جادلوا فيه بالباطل، بمثل ما حاق بالذين كذبوا من قبلهم بآيات الله وجادلوا فيها فأخذهم، وتردُّ عن المصطفى تهمة الافتراء ودعوى السحر، فما كان عليه الصلاة والسلام بِدْعاً من الرسل، وإنّما يتبع ما أوحى إليه فليصبر على عنت المجادلين وتكذيب الضالين"([3]). 2-(**الحميم**): ومن الكلمات المتأوّلة للحرفين (حم)، باعتبارهما حرفين مقتطعين من كلمة، كلمة (الحميم)، الدّال على طبيعة العذاب الذي أعدّه الله للكافرين، فطابق لفظ الحرفين بنية الكلمة رسماً، فالحرفان (الحاء والميم) وما تبعهما من حركات وحروف، طابقتهما الكلمات (حاميم، حَميم، الحميم)، فدخل المعنى مع الكلمة الدّالة على العذاب وهي (النار)، في حقل دلالي واحد، وقد وصُفت النار بأنّها (حامية)، والعذاب بالحميم، قال الراغب

---

[1]- الشورى:الآية/ 9.

[2]- البقاعي: نظم الدرر، 8/7.

[3]- بنت الشاطئ: عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق/دراسة قرآنية لغوية وبيانية:1/ 171، 172، دار المعارف ـ القاهرة، ط3-2004م.

الأصفهاني:" الحميم: الماء الشديد الحرارة...وقيل للماء الحار في خروجه من منبعه: حمَّة "([1]).

3- **حكمة محمد:** وتأول البقاعي دلالتين بكلمتين للحرفين، فاقتطع حرف الحاء من أول الكلمة الأولى وهي (حكمة)، والميم من الثانية من اسم الرسول (محمد صلى الله عليه وسلم)، فقال:"(حم) أي هذه حكمة محمد صلى الله عليه وسلم، التي خصّه بها الرحمن الرحيم الحميد المجيد، مما له من صفة الكمال"([2]).

فمن خلال ما قيل من معاني لـ (حم) فإنّ التعالقت مع بعضها بعضا بيّن في إطار حقلها الدلالي الواحد، نحو: (الدخان، الظلام، الحميم، الماء الحار...) تعالقاً دلالياً نسبياً فيما بينها.

4- **العلم والإحاطة والشمول:** ومن الدلالات التي يمكن تأولّها للحروف المقطّعة في مجموعة الحواميم، باعتبار هذه الحروف داخلة ضمن إطار (الم)، دلالتها على الملكية، ودلالتها على العلم، ودلالتها على الإحاطة والشمول، وهي بهذه المعاني تعالقت مع دلالات الحروف في سائر السور ذات الحروف المقطّعة، قال تعالى:﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ*وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ*هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾([3]).

5- دلالة الحروف المقطّعة على أفعال الأمر:

تعالقت دلالة بعض أفعال الأمر المتأولة للحروف المقطّعة، مع دلالات لكلمات تنتمي إلى حقل دلالي واحد، فمن هذه الأفعال (ادع، استقم، أمرت، قُلْ، أُمرت،)، وجاءت هذه الأفعال في قوله تعالى:﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾([4]).

---

[1]- الراغب: مفردات ألفاظ القرآن:254،255.

[2]- البقاعي: نظم الدرر، 7/ 89.

[3]- سورة الجاثية: الايات (27-29).

[4]- سورة الشورى: الآية/15.

6- ومن حيث دلالة حرف (الحاء) السيميائية عند اللغويين المحدثين ، فنجد أنّ منهم منْ يعطي الحرف دلالة سيميائية مبنية على شكله بقولهم:" أنّ معنى هذا الحرف هو السياج ، وجعل البعلبكي كلمة (حيط) التي في السريانية هي داخلة في حقل ما تــدل عليه لفظة السياج، ولفظة (حيط) هي عربية أيضاً"([1])، وقد رُسِمَ الحرف على شكل سياج كذلك.

2.2.4 عناصر التماسك النصيّ في سور (الحواميم)

العلاقات والعناصر الدلالية.

1- المناسبة بين عنوانات السور ومضامينها.

يبدو أنّ السياق الدلالي العام لمضمون هذه السور، هو الحديث عن موضــوع العذاب، فسورة (غافر) التي تصدّرت هذه السور، تبيّن أنّ المغفرة والرحمــة همــا المقدمّتان على العذاب، وهو ما جاء ظاهراً في الآية الثالثة من سورة غــافر، قــال تعالى:﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّــوْلِ لا إِلَــهَ إِلا هُــوَ إِلَيْــهِ الْمَصِيرُ﴾([2])، قال:"...هذه الآية مشعرة بترجيح جانب الرحمة والفضل؛ لأنّه تعــالى لما أراد أن يصف نفسه بأنه شديد العقاب ذكر قبله أمرين كل واحد منهما يقتــضي زوال العقاب، وهو كونه غافر الذنب وقابل التوب، وذكر بعده ما يدل على حصول الرحمة العظيمة، وهو قوله:"ذي الطول"، فكونه شديد العقاب لما كان مسبوقاً بتينــك الصفتين وملحوقاً بهذه الصفة، دل ذلك على أن جانب الرحمة والكرم أرجح"([3]) .

وبيّنت سورة (فصلت) موقف الكفار من النبي عليه الــسلام، ومــوقفهم مــن القرآن الكريم ومصدر نزوله، وجاء ذلك في أكثر من موضع من الــسورة ومنهــا قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ*لا يَأْتِيهِ الْبَاطِــلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ*مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيــلَ لِلرُّسُــلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ*وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَــالُوا لَــوْلا

---

[1]- انظر : البعلبكي: (الحاء) حيط.

[2]- سورة غافر: الآية/3.

[3]- البقاعي: نظم الدرر : 11/7 .

فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آَذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾([1]).

وفي سورة الشورى نجد في قول البقاعي ما يمكن أن نعدّه تعالقاً بين عنوان السورة ومضمونها، قال:" ولما كان الإيحاء السابق أول السورة للبشرى؛ لأنّها المقصود بالذات وكانت البشرى مقتضية تلويحاً ورمزاً بالأحرف المقطعة؛ لاجتماع أهل الدين وغلبتهم على سائر الأديان، وأن دينهم يعم سائر الأمم ويحيط بجميع الخلق، ولا يريد أحد بأهله سوءاً، إلا كان له فيه رفعة...وكانت رمزاً؛ لأنّ المقام للانذار بما تشهد به السورة الماضية، وكان المراد بها التكرار حتى لا تزال لذاذتها في أذن المبشر وحلاوتها في قلبه"([2]).

ويظهر معنى العذاب المتضاد مع معنى الرحمة، التي حلّت محل النبوة والتكريم، من قوله تعالى في سورة الزخرف:﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾([3])، إذ أشار الطبري والبغوي([4])، إلى الحقل الدلالي الذي تنتمي إليه الكلمات (النبوة والتكريم والرحمة)، ولفظة الرحمة في دلالتها على النبوة جاءت في قوله تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾([5]) .

وذكر الخليل الفراهيدي لـ (حم) دلالة لغوية معجمية تعالقت مع عنوان السورة تعالقاً تكرارياً لفظياً، إذ أعطى لفظة (يحموم) في قوله تعالى:﴿ وظِلٌّ من يَحْمُوم﴾، هو الدُخان، والحُمام: حُمَّى الإبِلِ والدَوابِّ وتقول: حُمَّ هذا لذاك أي قُضِيَ وقُدِّرَ﴾([6])، وفسّر الرازي كلمة الدخان في قوله تعالى:﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ

---

[1]- سورة فصلت: الآيات (41-44).

[2]- البقاعي: نظم الدرر: 23/7 .

[3]- سورة الزخرف: الآية/32.

[4]- انظر: الطبري، جامع البيان، 595/21، البغوي: معالم التنزيل،211/7.

[5]- سورة الأنبياء: الآية/107.

[6]- الفراهيدي: معجم (العين)، (حم).

دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾([1])، فسّره بمعنى الظلام، فقال:"فالله سبحانه وتعالى لما خلق الأجزاء التي لا تتجزأ ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء كانت مظلمة عديمة النور، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمساً وقمراً، وأحدث صفة الضوء فيها فحينئذ صارت مستنيرة، فثبت أن تلك الأجزاء حين قصد الله تعالى أن يخلق منها السموات والشمس والقمر كانت مظلمة، فصح تسميتها بالدخان؛ لأنّه لا معنى للدخان إلا أجزاء متفرقة غير متواصلة عديمة النور، فهذا ما خطر بالبال في تفسير الدخان، والله أعلم بحقيقة الحال"([2]) .

وكذلك دلالة الفعل (جثى) من عنوان السورة (الجاثية)، ووقته ومكان حدوثه وحالة فاعله، والحال التي يصير إليها الكون وما فيه، قال الطبري:" مجتمعة مستوفزة على ركبها من هول ذلك اليوم"([3]) .

كما تضمن عنوان السورة (الأحقاف) معنى العذاب، فعنونت باسم المكان الذي سكنه قوم هود عليه السلام، وجاء ذكر اسم السورة في قول الله تعالى:﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾([4])، فعنوان السورة يشير إلى نوع العذاب الذي حلّ بقوم عاد، فأنبأت عنه منازلهم وهي (الأحقاف)، وإنذاراً به كفار مكة، إنْ صاروا على ما صار عليه الكفار من قبلهم، قال البقاعي:" ولما كان الظاهر في هذه السورة الإنذار كما يشهد به مطلعها، قال ذاكراً بعض ما يبكت به المجرمون يوم البعث، الذي كانوا به يكذبون ويكون فيه توفية جزاء الأعمال، عاطفاً على ما تقديره: اذكر لهم هذا لعلهم يأنفون أن يكونوا المسيئين فيكونوا من المحسنين"([5]).

وذكر صاحب القاموس دلالات لكلمة الأحقاف والحقف وغيرهما ممن اشتركت في مادة (حقف)، تعالقت بالتضاد مع لفظة المستقيم، وتعالقت بالتضام مع دلالة

---

[1]– سورة فصلت: الآية/ 11.

[2]– الرازي: مفاتيح الغيب: 27/ 138 .

[3]– الطبري: جامع البيان22/82.

[4]– سورة الزخرف: الآية/21.

[5]– البقاعي: نظم الدرر، 7/127.

الفعل (مال)، الذي تحصّل بتقليب الحروف المقطّعة الثلاث (الم)، قال الفيروزأبادي:" الحِقْفُ، بالكسرِ المُعْوَجُّ من الرَّمْلِ، ج أَحْقافٌ وحِقافٌ وحُقوفٌ، واحْقَوْقَفَ الرَّمْلُ، والظَّهْرُ، والهِلالُ: طَالَ واعْوَجَّ "([1])، ودلالة الاستقامة في هذه السورة نصّ عليها قوله تعالى من السورة نفسها، قال تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾([2]).

فبهذه الدلالات تتضح المناسبة بين عنوان السورة ومضمونها، ويظهر التعالق بين عنوان السورة، ودلالة الحروف المقطّعة في سائر السور ذوات الحروف المقطّعة، بعدّ الحروف الثلاثة (الم) إطاراً تضم حدوده الحروف المقطّعة التي استهلت بها هذه السور، فالكافرون مالوا وانعوجوا عن الحق وطريق الهداية، فظلّوا الصراط المستقيم، فناسب العنوان (الأحقاف)، الموضوع المحوري وهو (التوحيد)، من خلال دلالته على الاستقامة أوالعدل، بدلالة التضاد وهي الميل والإعوجاج والانحناء وغيرها من المعاني الدالّة، من خلال النسبة التي تشير إلى محور السورة المركزي .

ويبدو أنّ ما جاء عند عائشة عبد الرحمن من تفسير لتوالي السور المكية (الحواميم) متتابعة في النزول دون فصل بينها بسور لم تستهل بحروف مقطعة، هو بسبب زيادة الكفر والعناد والإفراط فيهما من جانب الكفار والمشركين، ليتفق مع دلالة كلمة (الحمّى)، وسبب تسميتها بذلك، وقد شكلّ الحرفان (الحاء والميم) بنية الكلمة، وهذه الدلالة المفرطة ذكرها الراغب في مفردات ألفاظ القرآن، سبباً متقدماً على غيره من أسباب التسمية للحمّى بقوله:" والحمّى سميت بذلك إما لما فيها من الحرارة المفرطة، وعلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم:"الحمّى من فيح جهنم"، وإما لما يعرض فيها من الحميم، أيّ العرق، وإما لكونها من أمارات الحِمام لقولهم: الحمّى بريدُ الموت، وقيل باب الموت"([3]).

---

[1]- الفيروزأبادي: القاموس المحيط، (الحقف) .

[2]- سورة الأحقاف: الآية/13.

[3]- الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن:254،255.

فكلّ هذه الدلالات كما يبدو لا تناقض بينها بحكم دلالة التضمن والالتزام، فهي ضمن الحقل الدلالي الواحد الذي يفضي إلى ألوان من عذاب الكافرين يوم القيامة، وذلك من خلال المعنى التركيبي للآية وسياقها، ومن خلال السياق العام للسورة، كما أن علاقة اللون وعلامته التي تضمنها اسم السورة (الدخان)، متعالق مع الاسم الحميم وأصله، وهو الدخان الشديد السواد .

2- الإحالات الضميرية والإشارية: وسنمثّل لنوعيها الإحالة الداخلية والخارجية، بشواهد من آيات سور هذه المجموعة .

إحالة الضمائر:

وردت بعض الضمائر التي تحيل إلى عنصر غير مذكور في النصّ، سواء أكان ذلك العنصر قبل الضمير الذي يحيل إليه أو بعده، ولم يدلنا على العنصر أو الاسم الذي أحال إليه الضمير، إلا بتقدير هذا الاسم المفهوم من سياق الآية، فهذا الضمير قد ورد في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً﴾ فالضمير المنصوب في (رأوه) لم يحل إلى اسم ظاهر بين في السورة، لكنّ مجيء لفظة (عارضاً)، دلّت بمعناها النحوي الوظيفي على وجود صاحب للذي حاله (عارضاً)، فأنبأ هذا الحال عن صاحب الضمير، وهو راجع إلى (ما) في قوله:﴿ بِمَا تَعِدُنَا﴾، وقال المبرّد، والزّجّاج:"الضمير في (رَأَوْهُ) يعود إلى غير مذكور، وبينه قوله:(عَارِضاً)، فالضمير يعود إلى السحاب، أي: فلما رأوا السحاب عارضاً، فـ (عارضاً) نصب على التكرير، يعني: التفسير وسُمّي السحاب عارضاً لأنه يبدو في عرض السماء، قال الجوهري: العارض: السحاب يعترض في الأفق، وذكر الشّوكاني أنّ (عارضاً) انتصب على الحال أو التمييز([1]).

إظهار الاسم دون الضمير: في قوله تعالى من سورة غافر:﴿ ما يجادل في آيات الله﴾.

---

[1]- الشوكاني: فتح القدير،28/5 .

وإظهار اسم الجلالة في قوله:﴿ ما يجادل في آيات الله ﴾دون أن يقول: في آياته، لتفظيع أمرها بالصريح لأن ذكر اسم الجلالة مؤذن بتفظيع جدالهم وكفرهم وللتصريح بزيادة التنويه بالقرآن .

التعريف والتنكير:

يؤدي التعريف والتنكير دوراً مهماً في تماسك النصّ وترابطه، من خلال ما تنبيء عنه أدوات التعريف، وما يفيده التنكير كذلك بحسب المقام الذي يؤدى فيه، فمن دلالات التنكير للفظة (تنزيل)، التي استهلت بها الآية الثانية في بعض سور (الحواميم) الدلالة لإفادة التعظيم، وجاء التنكير في سورة (فصّلت)، وقد تنبّه ابن عاشور إلى أهمية دلالة هذا المصدر وهو نكرة فقال:" افتتح الكلام باسم نكرة لما في التنكير من التعظيم، والوجه أن يكون" تَنزِيلٌ "مبتدأ سَوَّغ الابتداء به، لما في التنكير من معنى التعظيم، فكانت بذلك كالموصوفة وقوله:﴿ مِنَ الرحمن الـرَّحِيمِ﴾ "خبر عنه، وقوله:" (كتاب) بَدل من تنزيل، فحصل من المعنى: أن التنزيل من الله كتاب، وأن صفته فُصّلت آياته، موسوماً بكونه قرآناً عربياً، فحصل من هذا الأسلوب، أن القرآن منزّل من الرحمان الرحيم مفصلاً عربياً".

الصفة: جاءت الصفتان (الرحمن الرحيم) متتاليتين في قوله تعالى:﴿ مِنَ الـرحمن الرَّحِيمِ﴾([1])، وإيثار الصفتين (الرحمن الرَّحِيم)، على غيرهما من الصفات العليـة، للإيماء إلى أن هذا التنزيل رحمة من الله بعباده ليخرجهم من الظلمات إلى النـور، كقوله تعالى:﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة﴾([2])، وقوله تعالى:﴿ ومـا أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾([3])، وقوله:﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلـى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾([4]) .

المناسبة: تبدو المناسبة بين ذكر (أخا عاد) آخر المنذِرين ومحمد عليه السلام آخر الرسل (المنذِر الأخير من حيث كونه آخر الرسل)... مناسبة رابطة بين إنذار الكفار

---

[1]– سورة فصلت: الآية/ 2.

[2]– سورة الأنعام : 157 .

[3]– سورة الأنبياء: 107.

[4]– سورة العنكبوت: الآية/51. وانظر: ابن عاشور: التحرير والتنوير،22: 225.

في مكة من خلال ذكر عذاب قوم عاد، فتمت المقابلة: بين موقف كفار مكة وموقف قوم هود منه، ثم ذكر الحال التي آل إليها قومه؛ لتكون عبرة لمشركي مكة، قال ابن عاشور:" سيقت قصة هود وقومه مساق الموعظة للمشركين الذين كذبوا بالقرآن كما أخبر الله عنهم من أول هذه السورة في قوله:﴿والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾([1])، مع ما أعقبت به من الحجج المتقدمة من قوله:﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾([2])، الذي يقابله قول هود:﴿أن لا تعبدوا إلا الله ﴾([3])، ثم قوله:﴿ قل ما كنت بِدْعا من الرسل﴾([4])، الذي يقابله قوله:﴿وقد خلَت النذُر من بين يديه ومن خلفه﴾([5])، ذلك كله بالموعظة بحال هود مع قومه، وسيقت أيضاً مساق الحجة على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى عناد قومه بذكر مثال لحالهم مع رسولهم بحال عاد مع رسولهم، ولها أيضاً موقع التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم على ما تلقاه به قومه من العناد والبهتان لتكون موعظة وتسلية معا يأخذ كل منها ما يليق به وقال أيضاً:" ولا تجد كلمة أجمع للمعنيين مع كلمة (اذكر)؛ لأنّها تصلح لمعنى الذكر اللساني بأن يراد أن يذكر ذلك لقومه، ولمعنى الذُكر بالضم بأن يتذكر تلك الحالة في نفسه وإن كانت تقدمت له وأمثالها؛ لأنّ في التذكر مسلاة وإسوة. كقوله تعالى:﴿ اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾([6])، وكلا المعنيين ناظر إلى قوله آنفاً قل ما كنت بدعاً من الرسل } فإنه إذا قال لهم ذلك تذكروا ما يعرفون من قصص الرسل مما قصّه عليهم القرآن من قبل وتذكر هو لا محالة أحوال رسل كثيرين ثم جاءت قصة هود مثالاً لذلك، ومشركو مكة إذا تذكروا في حالهم وحال عاد وجدوا الحالين متماثلين فيجدر بهم أن يخافوا من أن يصيبهم مثل ما أصابهم...والاقتصار على ذكر عاد لأنهم أول الأمم العربية الذين جاءهم

---

[1]- سورة الأحقاف: الآية/3.

[2]- سورة الأحقاف: الآية/4.

[3]- سورة هود: الآية/26.

[4]- سورة الأحقاف: الآية/9.

[5]- سورة الأحقاف: الآية/3.

[6]- في سورة ص: الآية/17 .

رسول بعد رسالة نوح العامة وقد كانت رسالة هود ورسالة صالح قبل رسالة إبراهيم عليهم السلام ، وتأتي بعد ذكر قصتهم إشارة إجمالية إلى أمم أخرى من العرب كذبوا الرسل في قوله تعالى:﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾([1]).

التضاد:

وجاء هذا العنصر لربط فقرتين متناقضتين من حيث محمول كلّ فقرة منهما، على الرغم من أنّ الفقرتين موضوعهما واحد، وهو اليوم الآخر (يوم الفصل)؛ لأنّ الإيمان بالله لا يتحقق إلا بالإيمان به، فالفقرة الأولى تتحدث عن مآل الكافرين (الممترين)، وهي قوله تعالى:﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾([2])، وقوله تعالى في الفرة التي بعدها:﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾، إلى قوله تعالى:﴿ فَضْلا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾([3])، فقابل بـ (بالتضاد) بين مقام الكافرين الذي مثّله لفظ الاسم؛(الأثيم)، والعذاب الذي سيلقونه في يوم الفصل، ومقام المتقين وما سيلقونه من نعيم في ذلك اليوم أيضاً.

وجاء الربط بهذا العنصر عند الرازي وهو يفسّر ذكر حرف العطف (الواو) وعدم ذكره، على الرغم من أنّ المتعاطفات هي من أسماء الله الحسنى، فقال:" لقائل أن يقول ذكر الواو في قوله:﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب﴾،ولم يذكرها في قوله:" شَدِيدُ العقاب " فما الفرق؟ قلنا إنه لو لم يذكر الواو في قوله:" غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب" لاحتمل أن يقع في خاطر إنسان، أنّه لا معنى لكونه غافر الذنب إلا كونه قابل التوب، أما لمّا ذكر الواو زال هذا الاحتمال؛ لأنّ عطف الشيء على نفسه محال، أما كونه شديد العقاب فمعلوم أنه مغاير لكونه ﴿غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب) فاستغنى به عن ذكر الواو"([4]) .

---

[1]– سورة الأحقاف: الآية/27، وانظر: البقاعي، نظم الدرر: 138/7.

[2]– سورة الدخان: الآيتان/40،50 وانظر الآيات (41–50).

[3]– سورة الدخان: الآيتان/51،57 .

[4]– الرازي: مفاتيح الغيب:13/ 394–396.

التقديم: ومنه تقديم لفظ الجلالة (ربي) على لفظ الجلالة (الله)، فأدى هذا التقديم إلــى تخصيص وحصر الربوبية الحقة بالله وحده عزّ وجل، وسياق الآيات سياق إقــرار الوحدانية في قوله تعالى:﴿ ربي الله﴾ .

الترتيب: وجاء في قوله تعالى:﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِــي كُــلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيــزِ الْعَلِــيمِ﴾(12)، على أن الترتيب: هو للإيجاد، قال أبو السعود:"... فعلى ما قُررَ مــن التفــصيل لا دلالةَ في الآيةِ الكريمةِ على الترتيب بين إيجادِ الأرضِ وإيجــادِ الــسماءِ، وإنمــا الترتيبُ بين التقديرِ والإيجادِ، وإما على تقديرِ كونِ الخلقِ وما عُطــفَ عليــه مــن الأفعالِ الثلاثةِ على معانيها الظاهرة، فهيَ وما في سورةِ البقرةِ من قولــه تعــالى: ﴿هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ثُمَّ استوى إِلَى الــسماء فَــسَوَّاهُنَّ سَــبْعَ سموات﴾، تدلانِ على تقدم خلقِ الأرضِ وما فيها على خلق السماءِ وما فيها "([1]).

التعليل: ﴿ لِيَجْزِىَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، اللام السابقة للفعل الذي تصدّر الآيــة، هي تعليلٌ للأمرِ بالمغفرةِ .

والمرادُ بالقومِ المؤمنونَ، والتنكيرِ لمدحِهم والثناءِ علــيهم، أي أُمــروا بــذلكَ ليجزيَ يومَ القيامةِ قوماً أيَّما قومٍ قوماً مخصوصينَ بما كسبوا في الدُّنيا من الأعمالِ الحسنةِ التي من جُملتها الصبرُ على أذيةِ الكفارِ والإغــضاءُ عــنهم بكظــمِ الغــيظِ واحتمالِ المكروهِ ما يقصرُ عنه البيانُ من الثوابِ العظيمِ، هذا وقد جُوِّزَ أنْ يــرادَ بالقومِ الكفرةُ وبما كانُوا يكسبونَ سيئاتُهم التي من جُملتها ما حُكِيَ من الكلمةِ الخبيثةِ، والتنكيرُ للتحقيرِ، وفيهِ أنَّ مطلقَ الجزاءِ لا يصلحُ تعليلاً للأمرِ بالمغفرةِ لتحققه على تقديريْ المغفرةِ وعدمِها فلا بُدَّ من تخصيصِه بالكلِّ بأنْ لا يتحققَ بعضٌ منــه فــي الدُّنيا أو بما يصدرُ عنه تعالى بالذاتِ وفي ذلكَ من التكلفِ ما لا يخفى وأنْ يرادَ كلا الفريقينِ وهو أكثرُ تكلفاً وأشدُّ تمحلاً، وقُرِىءَ لِيُجْزَى قومٌ وليُجْزَى قوماً أي ليُجْزَى الجزاءُ قوماً ، وقُرِىءَ لنَجْزِي بنونِ العظمةِ"([2]) .

---

[1]– أبو السعود: تفسير أبي السعود52/6.

[2]– المرجع نفسه، 125/6.

الاستبدال: ومنه استبدال الاسم المفرد باللقب (الصفة): ومن ذلك استبدال الاسم (هود) عليه السلام، بـــ (أخا عاد)، وذكر الصفة عرف استعمالي معروف عند العرب .

زمن نزول السورة وترتبها في المصحف: حاصلة بين ترتيب هذه السورة نزولاً وتلاوة، وبين مجيء الإنذار بالعذاب فيها، وكأنها الإنذار الأخير كما يبدو؛ إذ لم يأت بعدها سورة بدأت بـــ (حم).

وجاء استبدال الاسم مركب باسم مركب آخر أيضاً: قال تعالى:﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ الزخرف(4)، قال أبو السعود مبيناً (أم الكتاب):" أي في اللوحِ المحفوظ ، فإنَّه أصلُ الكتبِ السماويةِ"([1]).

الجمل المعترضة: جاء الجمل المعترضة للتأكيد على أمر قد تقدمها، مما يدل على الاهتمام بهذا الأمر من قبل المتكلّم ودعوته المتلقي للإهتمام به أيضاً، فمنها جملة (وقد خلت من قبله النذر)، في قوله تعالى:﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلا تَعْبُدُوا إِلا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾([2])، قال أبو السعود:" (وَمِنْ خَلْفِهِ)؛ أي مِنْ بعدِه، والجملةُ اعتراضٌ مقررٌ لما قبلَهُ مؤكدٌ لوجوبِ العملِ بموجبِ الإنذارِ، وُسِّط بينَ أنذرَ قومَهُ وبينَ قولِه: (أن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ الله)، مسارعةً إلى ما ذُكِرَ من التقريرِ والتأكيدِ وإيذاناً باشتراكِهم في العبارةِ المحكيةِ، والمَعْنى واذكُرْ لقومِكَ إنذارَ هودٍ قومَهُ عاقبةَ الشركِ والعذابِ العظيمِ ، وقد أنذرَ مَنْ تقدمَهُ من الرسلِ ، ومن تأخرَ عنْهُ قومَهُم مثلَ ذلكَ فاذكُرهم"([3]).

الاقتضاء: أنّ الكتاب المنزل يقضي بمنزل له ومنزل عليه، وهي ما عبّرت عنها الآيات التي تحدثت عن الكلمات؛ مصادر، أفعال، مشتقات، ومن ذلك جملة (مِنَ اللَّهِ)، من قوله تعالى:﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾([4])، ومن قوله تعالى:

---

[1]– أبو السعود: تفسير أبي السعود، 90/6.

[2]– سورة الأحقاف: الآية/21.

[3]– أبو السعود: تفسير أبي السعود، 75/6.

[4]– سورة غافر: الآية/2138.

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾([1])، قال:" فاعلم أنه لما ذكر أن ﴿حم* تَنزِيلُ الكتاب﴾، وجب بيان أن المنزل من هو؟ فقال:(مِنَ الله)، ثم بيّن أن الله تعالى موصوف بصفات الجلال وسمات العظمة ليصير ذلك حاملاً على التشمير عن ساق الجد عند الاستماع وزجره عن التهاون والتواني فيه، فبين أن المنزل هو "الله العزيز العليم"([2]) .

العلاقات والعناصر النحوية

الحذف:

حذف الفعل: ومنه ما جاء في قوله تعالى:﴿ ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون*وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾([3])، قوله تعالى: " ولبيوتهم أبواباً " أي ولجعلنا لبيوتهم، وانتصب "زخرفا " على معنى وجعلنا لهم مع ذلك زخرفا، وقيل: بنزع الخافض، والمعنى فجعلنا لهم سقفا وأبوابا وسررا من فضة ومن ذهب، فلما حذف " من " قال " وزخرفاً فنصب"([4]) .

حذف مقول القول: وجاء هذا الحذف في قول الله تعالى:﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آَمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾([5])، فحُذفَ المقولُ وهو: قل لهم اغفروا، ودلّ عليه قرينة فعلية هي الفعل (يغفروا)، وجعل أبو السعود هذه القرينة جواباً "للأمر باعتبار تعلقه به لا باعتبار نفسه فقطْ "([6]).

حذف العامل: ومنه حذف حرف الجر، ومن ما جاء في سورة الجاثية في قول الله تعالى:﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾([7]) .

---

[1]– سورة الجاثية وسورة الأحقاف: الآية/2.

[2]– الرازي: مفاتيح الغيب، 17: 354.

[3]– سورة الزخرف: الآيتان: 34،35.

[4]– القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 87/16.

[5]– سورة الجاثية: الآية/14.

[6]– أبو السعود: تفسير أبي السعود، 125/6.

[7]– سورة الجاثية: الآية/5.

حذف حرف الجر: ومنه حذف حرف الجر (في) في تعالى في الآية السابقة:﴿واختلاف اليل والنهار﴾؛ أي: في الليل وفي النهار، قال أبو السعود:"...بالجرِّ على إضمارِ الجارِّ المذكورِ في الآيتينِ قبلَهُ، وقد قُرِىءَ بذكرِه، والمرادُ باختلافِهما إمَّا تعاقبُهما أو تفاوتُهما طولاً وقِصَراً"([1])، وقد دلّ على حذف (حرف الجر في) قرينة ذكره في الآيتين قبلها، وهما قول الله تعالى:﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ*وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ([2]).

حذف المفعولين: في قوله تعالى:"واذكر أخا عاد" أيْ لكُفَّارِ مكةَ تفسير أبي السعود 142/6﴾ فالذكر واقع في اللفظ على أخا عاد وعلى إنذار هود لقومه بالعذاب.

وتقديرهما (المحذوفين)بحسب البنية العميقة قد جعله هو المعنى أبو السعود في تفسيره فقال:" والمَعْنى واذكُرْ لقومِكَ إنذارَ هودٍ قومَهُ عاقبةَ الشركِ والعذابِ العظيمِ، وقد أنذرَ مَنْ تقدمَهُ من الرسلِ ، ومن تأخرَ عنْهُ قومَهُم مثلَ ذلكَ فاذكُرهم "([3])، وظاهر الآية يدل على أنها جملة محوله عن جملة هي محولة أيضاً، مما يعني أنّ النحو التوليدي التحويلي، يشير إلى الكفاية اللغوية في انتاج أكبر عدد من الجمل كما نصّ على ذلك علماء اللغة المحدثين.

الصفة: وما جاء مثالاً لهذا المعنى النحوي، صفتا الله سبحانه وتعالى المجتمعتان في تركيب واحد دون فصل بينهما، والجمع بين صفتي: " الرحمن الرَّحيم "؛ للإيماء إلى أنّ الرحمة صفة ذاتيَّة لله تعالى، وأن متعلقها منتشر في المخلوقات كما تقدم في أول سورة الفاتحة والبسملة، وفي ذلك إيماء إلى استحماق الذين أعرضوا عن الاهتداء بهذا الكتاب بأنهم أعرضوا عن رحمة، وأن الذين اهتدوا به هم أهل المرحمة لقوله بعد ذلك: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى﴾([4])، ومعنى:" فُصِّلَتْ آياته" بُينت، والتفصيل: التبيين والإخلاء من

---

[1]- أبو السعود، تفسير أبي السعود: 56/6.

[2]- سورة الجاثية: الآيتان/3،4.

[3]- أبو السعود، تفسير أبي السعود 142/6.

[4]- سورة فصلت: الآية/44.

الالتباس. والمراد : أن آيات القرآن واضحة الأغراض لا تلتبس إلا على مكابر في دلالة كل آية على المقصود منها ، وفي مواقعها وتمييز بعضها عن بعض في المعنى باختلاف فنون المعاني التي تشتمل عليها"([1]) .

التوكيد: من العلاقات والعناصر النحوية التي تؤدي إلى ارتباط الكلام بالكلام علاقة التوكيد، ومن ضروب هذه العلاقة التوكيد المعنوي، فمنه ما جاء في قوله تعالى:﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾([2])، إذ جاء لفظ (جميعاً) توكيداً لجملة (ما في السماوات)، وهو توكيد أيضاً لجملة (ما في الأرض) التي ارتبطت بالجملة قبلها بواسطة حرف العطف بين الجملتين.

العطف: جاء العطف بالواو بين الأفعال الثلاثة، في قوله تعالى:﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ*وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾([3]).

ومن ضروب العطف، العطف بـ (ثّم) ودلالته: وجاء في قوله تعالى:﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾([4])، فالبينات من الأمر تشمل (شريعة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام)، فالأصل أنّ الدين الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام من عند ربّه، أن يعطف بالواو لإفادة التشريك في الحكم، لكن بكونه الدين المقبول دون سواه عند الله سبحانه وتعالى، فضّل عليها كلّها، بدلالة حرف العطف (ثم)، الذي أدّى معنىً نحوياً وظيفياً، يفيد التراخي عن إشتراكه في كافة أحكام ما في الشرائع التي شرّعت في الكتب التي نزلت قبل القرآن، وبدلالة حرف الجر (على) الدّال على الاستعلاء، قال ابن عاشور:" وهذا التراخي يفيد أن مضمون الجملة المعطوفة بحرف (ثم)، أهم من مضمون الجملة المعطوفة عليها، أهمية الغرض على المقدمة والنتيجة على الدليل،

---

[1]– ابن عاشور: التحرير والتنوير، 22/229،230، 231.

[2]– سورة الجاثية: الآية/13.

[3]– سورة فصلت: الآية/10.

[4]– سورة الجاثية: الآية/18.

و(على) للاستعلاء المجازي، أي التمكن والثبات على حد قوله تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربّهم﴾([1]) .. ويظهر من كلامي ابن عاشور السالف والآتي، دلالة سيميائية تأولها بقوله:"وفي هذا التراخي تنويه بهذا الجعل وإشارة إلى أنه أفضل من إيتاء بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوءة والبيّناتِ من الأمر، فنبوءة محمد صلى الله عليه وسلم وكتابُه وحُكمه وبَيناته أفضل وأهدى مما أوتيه بنو إسرائيل من مثل ذلك"([2]).

ويعضد هذا أيضاً كما يبدو، وصفُ الدين الذي هو من الشريعة، بالقيم، والأمة: مسلمة، والدين: الحنيف، حنيفاً مسلما، وسطا، العدل، السوي...الخ، بمعنى أنها متعالقة في المحتوى القضوي الذي وردت فيه هذه الكلمات ذات الحقل الدلالي الواحد في سائر السور ذوات الحروف المقطّعة.

وتأول ابن عاشور ـ كما يبدو ـ دلالة سيميائية من تنوين كلمة (شريعةٍ)، مستدلاً لها بحرف العطف نفسه ومعناه النحوي الوظيفي، فقال:"وتنوين (شريعةٍ) للتعظيم بقرينة حرف التراخي الرتبي([3]).

العلاقات والعناصر التداولية:

1- السياق:

من العناصر التداولية التي تعضد المحور الرئيس، الذي يمثل القضية الكبرى لنصوص هذه السور، السياق العام الذي دارت في فلكه نصوص هذه السور، وحقّقه له فضاء النص بأبنيته الصغرى والكبرى أفقياً ورأسياً، وتضمنته بنية النص الكلية الكبرى.

فسياق نصوص هذه السور هو إثبات الوحدانية لله تعالى، فقد جاءهم من الآيات التي تحملهم إلى علم اليقين، ولا سيما في إثبات الوحدانية لله تعالى، ودعوة الرسل أقوامهم عدم الشرك بالله، والتأكيد على وقوعه حقيقة أمام المتلقي قد جاء مبثوثاً بشكل مباشر للمتلقين المؤمنين، وللمتلقين المنكرين، بأسلوب قرآني تعالى في نقله حقيقة الأحداث للمتلقين في الزمن الذي سيقولِ فيه المتلقون المنكرون: أنهم موقنون،

---

[1]- سورة البقرة: الآية/ 5.

[2]- ابن عاشور: التحرير والتنوير:27/1.

[3]- المرجع نفسه:235/24.

فطلبوا أن يعود الزمن بهم ليفعلوا ما أمروا به، وقد أنكروه دون ما سبب يبرر لهم كفرهم، وقد تفضّل سبحانه وتعالى على بني إسرائيل دون سواهم من العالمين، فضلاً عن تفضيلهم بالرسل الذين أرسلوا إليهم مبشرين لهم ومنذرين، فقد أحيا سبحانه وتعالى الميت أمامهم، ثم كفروا كفراً، صورّته قسوة قلوبهم التي أشد قسوة من الحجارة التي تتفجر منها الأنهار .

2- الأفعال الكلامية:

مما ينتمي إلى المستوى التداولي في الجانب الاستعمالي للغة، ما سمّي بنظرية الأفعال الكلامية، ومن أقسامها الأفعال الإنجازية غير المباشرة، فالمتكلّم ينجز فعلاً مباشراً لكنّه لا يريده في الحقيقة بل يريد إنجاز فعلاً آخر غيره، وللتمثيل على ذلك من نصوص هذه السور، وعلى تناص هذه المجموعة مع سائر السور ذوات الحروف المقطّعة كذلك، نستشهد بقوله تعالى:﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾([1])، ويبدو أنّ انجاز هذه الجملة (الآية) من مجموع الآيات (الفقرة) من سورة الدخان، التي تتحدث عن مصير الممترين المكذبين يوم الحساب، ومصير المؤمنين المتقين... فظاهر الجملة الإنجازي يدلّ بحسب "سبب نزول الآية وسياق الآيات (الفقرة)، التي تتحدث عن الكافرين، والفقرة التي بعدها في حديثها عن المتقين، فهذه الجملة تدلنا على إنجاز معنى غير مباشر، فليس القصد من الجملة الظاهرة الإخبار بأنه (الأثيم) هو العزيز الكريم، إذ لا يستقيم معنى الآية مع سياق الآيات التي قبلها والتي بعدها، فالمعنى الإنجازي غير المباشر المقصود من (محتوى الجملة القضوي)، إنّما هو السخرية من الأثيم وعزتّه وكرمه اللذين كان يدعيهما وهو بين قومه، وكان منهم منْ يقرّ له بهما، فكانوا تبعاً له، وهذا المعنى الدلالي غير المباشر، ينسجم مع الآيات التي جاءت في سورة البقرة ومنها قوله تعالى:﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾([2])، فالزمان الذي يتبرأ

---

[1]- سورة الدخان: الآية/ 49.

[2]- سورة البقرة: الآيات (165-167) البقاعي: نظم الدرر، 138/7.

فيه المتبَعَون من المتبَعين، هو: يوم الفصل، وهذا اليوم لم يكفر به إبليس أو ينكره، قال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾([1]).

تماسكت نصوص هذه السور فيما بينها من جهة، وتعالقت كلّها مع نصوص سائر السور ذوات الحروف المقطعة، وقد جاء هذا التماسك؛ نحوياً ودلالياً وتداولياً، في مستويي النص؛ الأفقي والعمودي، فمن سور هذا التماسك، تماسكها وتعالقها مع عدد من الآيات من سورة إبراهيم(21)، وغافر(47)، وفي سورة الجاثية قال تعالى:﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾([2])، وقوله تعالى:﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ *وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾([3])، وقوله تعالى في سورة الشورى:﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾([4]).

الموضوعات الرئيسة والموضوع المحوري المركزي في سور (الحواميم)

يمكن أن نوجز الموضوعات تناولت سور (الحواميم)، بعد دراسة عناصر التماسك النصيّ في نصوصها على النحو الآتي:

1 ــ الغيب: موضوع الغيب من الموضوعات التي تعدّ بنى نصيّة كبرى؛ إذ لم تفوّت سورة من هذه السور الحديث عن محاور تتصل بالغيب، نحو:

2ــ العلم: علم الله:" إنا كنّا نستنسخ " لاية.

3 ــ البعث واليوم الآخر.

---

[1]- سورة ص: الآية:36.

[2]- سورة الجاثية: الآيتان:18،19.

[3]- سورة الأحقاف: الآيات(33-35) .

[4]- سورة الشورى: الآية:7.

4 ـــ الخلق: السماوات والأرض وما بينهما، الإنسان،

5 ـــ القرآن الكريم والاحتجاج له والتحدي به.

وقد مضى الاستدلال على هذه الموضوعات، من خلال عناصر التماسك النصيّ.

لقد أولت مجموعة السور (الحواميم) محور الوحدانية الأهمية الكبرى في نصوصها، وذلك من خلال الحديث عن محاور رئيسة تؤكد على الموضوع المحوري المركزي، فمن المحاور التي اهتمت بها هذه السور هو محور (البعث)، إذ إنّ وقوع حدث من الأحداث التي تتصل بهذا المحور، فقد تفّرد الله سبحانه وتعالى وحده بقدرته على البعث، فلم يشركه ولن يشركه أحد فيه ، فجاءت إحدى علامات هذا الحدث عنواناً أو اسماً للسورة، وهي سورة (الدخان)، فسياق نصوص هذه السور كلّها، هو الدعوة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، فلم يكن كل من العقاب والثواب واقعين بالفريقين، إلا نتيجة للكفر أو للإيمان بإله وحده لا شريك له، هو الذي يحيي ويميت ويغفر ويرحم ويعذّب، فلمّا كان إنكار أمر البعث من قبل الكافرين، من نتائج الكفر، كان تأكيد السور على صدق وقوعه، محوراً رئيسياً في هذه السور، فأكدّت له بالأدلة والبراهين، وبذكر العذاب الذي لحق بالأقوام السابقة؛ ليتفكر ويعتبر كل منْ يكفر، ليقرّ أنّ البعث حق لا ريب فيه، فسورة غافر ـــ أول سور هذه المجموعة ـــ تضمنت الموضوعات الرئيسية التي تؤول إلى الموضوع المحوري المركزي وهو موضوع (الوحدانية)، وقد جاءت تراكيب في السورة تبيّن الوحدانية المطلقة لله سبحانه وتعالى، ومن ذلك قول الله تعالى في سورة غافر: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾([1]).

إنّ محور الوحدانية قد جاء من خلال بعض الجمل التي وقعت في بنية آية بعينها، وليس طبيعةِ اللفظ أو اللفظين وحدهما دالّة على هذا المحور ـــ على الرغم من كفاية أحدهما في الدلالة على محور الوحدانية في الوقت نفسه ـــ بل إنّ للسياق الذي قيلت فيه جملة ما، وعدد ورودها على نحو خاص من التركيب، قد عضدا

---

[1]– سورة غافر: الآية: 3، وانظر: الآية/28.

محور الوحدانية الذي ينبيء عنها اللفظ أو اللفظان منفردين أو مركبين، ويبدو أنّ جملة (ربي الله) من قوله تعالى:﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ ([1])، أنها دلّت على هذا الموضوع المحوري المركزي، سواء في نصّ السورة نفسها أم بتعالقه مع الدلالة نفسها، في نصوص السور ذوات الحروف المقطّعة كلّها، فسياق الآيات سياق إثبات الربوبية لله وحده، ويعضد دلالتها تلك، تقدم لفظ (ربي) أولاً، ثم إنها لم ترد إلا مرة واحدة في النصّ القرآني؛ إذ المقام مقام الدعوة إلى عبادة رب واحد، وتتعالق مع هذه الدلالة المحورية، دلالات الجمل الواردة في قسم كبير من الآيات، التي ضمّت في بنيتها جملاً من لفظة واحدة أو أكثر، سواء أكانت هذه الجمل فيها لفظة بصيغة الجمع أو الإفراد مثبتة أم منفية أم مؤكدة([2])، وقد جعل الرازي دلالة التوحيد، الوجه الأول لجملتي (جاءكم بالبينات وربي الله) فقال:"...قوله:" رَبِّىَ الله " إشارة إلى التوحيد، وقوله:" وَقَدْ جَاءكُمْ بالبينات" إشارة إلى الدلائل الدالة على التوحيد"([3]).

وفي ضوء السياق الموضوعي المحوري لنصوص سور (الحواميم)، قال البقاعي:"ولما كان الثبات على التوحيد ومصحّحاته إلى الممات أمراً في علو رتبته لا يرام إلا بتوفيق ذي الجلال والإكرام، أشار إليه بأداة التراخي فقال:﴿ ثم استقاموا﴾، طلبوا وأوجدوا القوام بالإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب ولم يشركوا به صنماً ولا ثناً ولا آدمياً ولا ملكاً ولا كوكباً ولا غير بعبادة ولا رياء، وعملوا بما يرضيه وتجنبوا كل ما يسخطه وإن طال الزمان، امتثالاً لما أمر به أول السورة في قوله:﴿ إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه ﴾([4])، فمن كان له أصل الاستقامة في

---

[1]- سورة غافر: الآية/28 .

[2]- انظر: المنهج الإحصائي/ الفصل الأخير من الدراسة .

[3]- الرازي: مفاتيح الغيب: 327/13.

[4]- سورة فصلت: الآية/6.

التوحيد، أمِن من النار بالخلود، ومن كان له كمال الاستقامة في الأصول والفروع أمن الوعيد "([1]).

وجاء في نصوص هذه السور ما يدلّ على الموضوع المحوري المركزي لفظاً ومعنىً، فمن ذلك آية الوحدانية: استبدلاً لصفته (أحد)، الذي لم يأت ذكره بـ (أحد أو واحد) إلا خبراً أو صفة لاسم ذكر قبله، فورد على هذين الوصفين النحويين والبنيتين الصوتيين أحد، واحد، جاء عند إخوان الصفا:" فالواحد يقال على الوجهين إما بالحقيقة وإما بالمجاز، فالواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له ألبتة ولا ينقسم، وكلّ ما لا ينقسم فهو واحدٌ من تلك الجهة التي بها لا ينقسم، وإنْ شئت قلت الواحد ما ليس غيره، بما هو واحد"([2]) .

التناصّ بين نصوص هذه السور والسور المستهلّة بالحروف المقطّعة

لقد اتضّح هذا العنصر بشكل صريح بالموضوعات الرئيسة والموضوع المحوري لنصوص هذه السور، ومثّلت له آيات كثيرة تحت عنوان (عناصر التماسك النصيّ) فيها، كما جاءت كلمات وآيات تحمل دلالات لفظية وغير لفظية، كانت قواسم مشتركة بين نصوص هذه السور وسائر نصوص السور ذوات الحروف المقطّعة، لذا نوجز هذا العنصر النصيّ بالنقاط الآتية:

أ- التكرار باللفظ: ومنه تماثل دلالة اسم الفاعل (قابل) مع دلالة الفعل بصيغة المضارع (يقبل)، فكلاهما دال على التجدد.

ب- التكرار بالمعنى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾([3]).

ج – ومما يتعالق مع دلالة هذه الجمل دلالة الجمل التي وردت ألفاظ (لفظ الجلالة (الله) إله، إلهكم، البينات، بينات، بينة...الخ)، وقد تنوعت آليات النظم في وضع هذه الكلمات حيث تقتضيها معاني النحو، كمال تنوعت الأساليب؛ إخباراً

---

[1]- البقاعي، نظم الدرر، 547/6.

[2]- رسائل إخوان الصفا وخلاّن الوفاء، مج/1ص:4،ط/1، 1412هـ-1992م، الدار الإسلامية بيروت.

[3]- سورة الشورى: الآية/52.

ونفياً وإثباتاً وحصراً ...الخ، بحسب السياق الملائم الذي يلائمه أسلوب منهـا: المقالي، المقامي، النفسي، العقائدي، الاجتماعي، الثقافي، نحـو:"وإلهكـم إلـه واحد" :" وما من إله إلا الله" :" ما لكم من إله غيره"، :" إنّما إلهكم الله ".

3.4 السور ذوات الحرف الواحد (ص،ق،ن).

السور القرآنية التي استهلت بحرف واحد هي ثلاث سور، وهي بحسب ترتيب المصحف (ص، ق، القلم/ن)، لكنّها في ترتيب النزول بدأت بـالعكس أي؛ (ن، ق، ص)، ولمعرفة مدى تحقق عناصر التماسك النصي في هذه السور، وتسجيل القواسم المشتركة بينها، وإثبات تعالق موضوعاتها، ضمن المستوى الدلالي فيما بينهـا أولاً، وكذلك تعالقها مع السور الأخرى التي استلت بحروف مقطّعـة ثانيـاً، فـسندرس نصوصها من خلال العنونات الآتية:

1.3.4 دلالات الحروف المقطّعة في هذه السور.

إنّ القول الذي ارتضيناه لدلالة الحروف المقطّعة كلّها، هو أنّها مقتطعـة مـن أسماء الله الحسنى، ولا تتضاد هذه الدلالة المتأولة مع الدلالات الأخرى المتأوّلة لها، إذ إنّها تؤول جميعها إلى تلك الدلالة، استناداً إلى دلالتي التضمن والإلتزام، فالكلمات كلّها كلمات الله سبحانه وتعالى، كما جاء في أول سورة استهلت بالحروف الثلاثـة (الم) نزولاً وهي سورة (لقمان)، ونصّت الآية السابعة والعشرون منها على ذلـك، كما أنّ موقع السورة وسطاً بين السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعـة، لعلامـة على اشتمال (الم) على كلّ الكلمات المتأوّلة دلالة لجميع الحـروف المقطّعـة، أي بمعنى أنّها شاملة محيطة للكلمات ولمعانيها، كما أنّ قرينة أخرى تعضد ذلك، وهي أنّ سورة البقرة أول سورة بحسب ترتيب المصحف، وهي أول سورة نزلت بالمدنية استهلت بالحروف الثلاثة (الم).

ويمن أن نضيف إلى القرائن السابقة قرينتين أيضا، القرينــةالأولى: هــي أنّ آخر سورتين نزلتا في مكة، قد استهلتها بـ (الم) أيـضاً، وهمـا سـورتا الـروم والعنكبوت، مما يشير إلى ترابط النصّ القرآني الذي نزل في العهـدين، ويعـضده استهلال أول سورتين في القرآن الكريم نزولاً وترتيباً، بذكر اسم (الله) جلّ جلالــة، وكذلك موقع حرف العطف (الواو) المشعر بالقسم، بعد ثلاثة حروف مقطّعة استهلت بها السور الثلاثة (ص، ق ، ن/ القلم).

ويمكن توضيح دلالات هذه الحروف على النحو الآتي:

أ- دلالتها على أسماء الله الحسنى:

من أسماء الله الحسنى التي يمكن تأولها من هذه الحروف ودلّت عليها آيـات من السورة، ما يلي: فم سورة ص: نجد اسمه تبارك وتعالى: الـصادق، الـصبور، ومعناه متسق مع سياق سورة (ص)، ومع ذكر (أيوب) عليه السلام الموصوف بهذه الصفة، ومنها أسماؤه(العليم، القدير، الحق، العدل، القوي، المحيي، المميـت، فمـن الآيات التي دلّت على هذه الأسماء، قوله تعالى:﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِـي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ *ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾، وقوله تعـالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِـيصٍ﴾، وقوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾، وقوله تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَـيْهِمْ بِجَبَّـارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾([1]).

وكذلك دلالة حرف النون على أسماء الله الحسنى: المعطي الوهـاب، المـنعم (نعمة)، المانع. وأسماء الله الحسنى: لا يقتصر الحرف في دلالته على واحد منهـا فقط، بل إنّ آيات كثيرة جاءت تشير إليها وتؤكد على أكثر من اسم منهـا، فخلـقُ السماوات والأرض وما بينهما، وخلق الإنسان، وغيرها من الأفعال التـي المـسندة إلى لفظ الجلالة (الله) أو إلى اسم من أسماءه الحسنى، نحـو: الخـالق، المـصور،

---

[1]- سورة ق/ الآيات على الترتيب: 15،16، 36، 38، 43، 44، 45.

المحيي، المميت، العدل، العزيز، الحكيم ...الخ، تدلّ على أسماء الله الحسنى وصفاته الذاتية، فأسماءه تبارك وتعالى وصفاته، هي ثابتة له قبل أن نعلمها وغير قابلة للتجدد والتحول، فالله سبحانه وتعالى عليم قبل أن يكون عليم، وسميع قبل أن يكون سميع، ورحيم قبل أن يكون رحيم ... فهو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء، وهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، وهو عزّ من قائل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾([1]) .

ومن الدلالات المعجمية لهذه الحروف، نذكر دلالة حرف (القاف)، إذ تظهر من خلال تقليب اللفظ له كما ننطقه (قاف)، بعض الكلمات التي ينسجم معناها مع المعنى الكلّي لنصّ السورة، فمن هذه الكلمات ما يلي:

اسم الفاعل من قاف، (القائف) متتبع الأثر، ويدخل في حقله الدلالي الاسم (الوسواس)، وهو ما توسوس به نفس الإنسان، ويعضد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾، ويدخل معه أيضاً (فعيل)، بلفظ (قرين: قال قرينه، ويتصل به: ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد .

ومما يؤكد على اهتمام هذه السور بالقرآن الكريم بعدّه أحد الموضوعات المحورية في نصوصها، والاحتجاج له وبنزوله من عند الله عزّ وجلّ، دلالة الفعل المتحصّل من تقليب عنوان السورة (ق)، وهو (فاق)، ودلالة الاسم (الأفق) من (قاف)، وما يدخل في حقله الدلالي من لفاظ نحو: (السمّو والعلو)، إذ يمكن تأويل هذا الفعل بجملة (فاق الكتاب/ القرآن، فاق كل الكتب، فذكر القرآن/ ن يخاف وعيد، ودين الإسلام فاق ما سواه من الديانات، أفق: الأفق: العلو، السمو، وهو متصل بمعنى الفعل (فاق)، ليتعالق مع صفته المذكورة في أول سورة البقرة وفي غيرها من السور، وهي المذكورة بجملة (لا ريب فيه)، فصفات هذا الكتاب المتحصّلة من هذه الأفعال، ساهمت في تعالق سورة (ق).

---

[1]– سورة الشورى: الاية/11.

ب- الدلالات الأخرى للحروف المقطّعة

أ- **أفعال الأمر:** جاءت في سورة (ص)، أفعال أمر متعددة منها: اصبر، واصبروا، قال تعالى: ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾ في سورة ص (17)، قال الألوسي فيما يرويه للحسن:"...أنه أمر من صادي أي عارض ، وقيل هو أمر من صادى أي حادث([1]).

ويمكن أن نجد في سورة (ق): فعل الأمر (قِ): إذ ورد هذا الفعل الحرف نفسه من أوقي...فذكرّ بالقرآن ...ألقيا في جهنم، فالقيا، وتعالقت هذه الآية مع قوله تعالى:﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين﴾.

ب- ومن الكلمات التي يمكن تأولها لهذه الحروف، وقد ظهر تعالقها مع دلالاتها الأخرى ما يلي:

الخصام: بين آدم وإبليس، بقطع النظر عن الوسيلة التي نهجها إبليس في إظهار خصومته من آدم عليه السلام، (وفي سورة (ص) ورد معنى الخصام للحرف نفسه عند كثير من المفسرين والدارسين، وبينّت قوله تعالى هذا المعنى المتأول: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُاْ الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب﴾

منّاع: منسجم مع اسمه تعالى (المانع) في (ن: القلم)، ومنسجم مع المعنى المتضاد للاسم (المانع) وهو (الوهاب)، وهو الاسم الذي يقع في الحقل الدلالي للاسم المتأول من حرف (ن)، وهو (المعطي) المتضاد مع الاسم (المانع)، وهذه الأسماء متعالقة مع قصة أصحاب (الجنّة/ البستان)، عندما منعوا المساكين من الزكاة والصدقة، التي كان بهما البستان جنّة قبل أمر الدخول والمنع، قال تعالى:﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ*وَلا يَسْتَثْنُونَ*فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ* فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ*فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ*أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ*فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ﴾([2]).

---

[1]- الألوسي: روح المعاني:282/17 .

[2]- سور القلم: الآيات (17-24) .

ج- دلالتها على الصراط المستقيم:

إنّ تكرار هذا المعنى وما يقع في حقله الدلالي من ألفاظ نحو: العدل، السوي، المستقيم، يؤدي إلى تماسك نصوص هذه السور مع بعضها بعضاً من ناحية، وتماسكها مع سائر السور ذوات الحروف المقطّعة الأخرى، وقد جاء هذا المعنى من خلال اللفظ والمعنى، فمن الأول قوله تعالى:﴿ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ واهدنآ إلى سَوَآءِ الصراط﴾، ومن الثاني لفظة (الوسط) من جملة (قال أوسطهم) أي أفضلهم، ومنه " أمّة وسطاً، ويتصل به أيضاً دلالة السطر المفضية إلى الاستقامة، من خلال جملة (وما يسطرون)، وقد فسّرتها كلمة (بنعمة)، وهي إحدى لكلمات المتأولة للقرآن الكريم، والتعالق بين هذه الألفاظ كلّها هو تأويل القرآن الكريم بالصراط المستقيم، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾،([1])، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾([2]).

د- دلالتها على (العلم)والإحاطة والشمول.

لمكانة العلم الرفيعة التي رمز لها بالقلم ، فهو أداة التعليم :" علّم بالقلم "، جاءت تسمية السورة باسمه، وثنّى ذكره في الآية الأولى من السورة مقسماً به وبما يسطر به، ولم تغب مكانة القلم عن العرب القدماء، بل وسائر أدوات ووسائل العلم والمعرفة، إذ مدح الجاحظ شتى سبل ووسائل المعرفة والبيان فقال: "... فلذلك وضع اللّه عزّ وجلّ القلم في المكان الرفيع، ونوّه بذكره في المنْصب الشريف حين قال " ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ " فأقسَمَ بالقَلَم كما أقسمَ بما يُخَطُّ بالقلم؛ إذ كان اللسانُ لا يتعاطى شأوَه، ولا يشُقُّ غبارَه ولا يجري في حلبته، ولا يتكلف بُعْدَ غايته، لكنْ لما أنْ كانت حاجات الناسِ بالحَضْرة أكثرَ مِنْ حاجاتهم في سائرِ الأماكن، وكانت الحاجَةُ إلى بيانِ اللسانِ حاجةً دائمة واكدة، وراهِنةً ثابِتة، وكانت الحاجةُ إلى بَيانِ

---

[1]- سورة : الزخرف: الآية/ 43، الأحقاف: الآية/

[2]- سورة: الأحقاف: الآية/13.

القلم أمراً يكونُ في الغيبة وعند النائبة، إلاّ ما خُصّت به الدواوين؛ فإنّ لسانَ القلم هناك أبسَطُ، وأثرَهُ أعَمُّ، فلذلك قدَّموا اللسانَ على القلم "([1]).

ويربط (أرسطاليس) بين الدلالة السيميائية للرقم (1) الذي ذكرناها (للألف) من "الم"، وبين الدلالات الالتزامية والسيميائية (للقلم وللمداد وللخط وللمخطوط) بقوله:" القلم العلّة الفاعلة، والمداد العلّة الهيولانية، والخط العلّة الصورية، والبلاغة العلّة المتمّمة "([2]) .

وقال البقاعي:" لما ختم سبحانه الحجرات بإحاطة العلم قال أول هذه:(ق) إشارة إلى أنه هو سبحانه وحده المحيط علماً وقدرة بما له من العلو والشدة والقوة القيومية والقهر ونافذ القضاء والفتح لما أراد من المغلقات ، بما أشارت إليه القاف بصفاتها وأظهرته بمخرجها المحيط بما جمعه مسماها من المخارج الثلاث : الحلق واللسان والشفاه" .

2.3.4 عناصر التماسك النصيّ في هذه السور

العلاقات والعناصر الدلالية

أ- المناسبة بين أسماء السور ومضامينها.

سمّيت سورة (ص) باسم الحرف الذي استهلت به وهو الصاد ، فشكّل مع الاسم (القرآن) المعطوف عليه، وصفته (ذي الذكر)، شكّل الآية الأولى من السورة.

وتأوّل الحسن جملة لحرف (الصاد) ذكرها الألوسي بقوله:"...والمعنى عارض القرآن بعملك أي إعمل بأوامره ونواهيه....وقوله أيضاً: والمعنى حادث القرآن، (الألوسي: روح المعاني:282/17).

وسمّيت سورة (ق) باسم الحرف الذي استهلت به، وشكّل مع لفظ القرآن وصفته المجيد الآية الأولى من السورة، والمستقرئ لكلمات السورة يجد أنّ أكثر الكلمات التي تضمنتها بنية السورة، كلمات وقع حرف (القاف) أصلاً في بنيتها، ولا

---

[1]- الجاحظ : الحيوان ، 16/1 .

[2]- ابن النديم: أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحاق النديم المعروف اسحاق بأبي يعقوب الورّاق، كتاب الفهرست، 12، ت/ رضا تجدد، د.ط .

قصد بهذه الكثرة إلى مسألة نسبية في تكرر كلمات فيها حرف القاف أكثر من غيرها بالرغم من تحققها فعلاً، بل قصدت إلى أنّ المعاني التي ينبئ عنها حرف القاف باعتباره مفتاح النصّ، هي وجود حرف القاف في بنية بعض الكلمات التي تحمل المعاني المتأولة لحرف القاف، وأجد من المناسب أنْ أحصيَ تلك الكلمات ليتبين لنا مدى التماسك بين اسم السورة ومضمونها لفظاً ومعنىً ، وليتأكد لنا تحقق هذا التماسك بفعل عنصره (التكرار) للحرف نفسه قبل أي تكرار لمنطوق آخر في النصّ.

(ق، القرآن، فقال، قد تنقص،بالحق، فوقهم، وألقينا، باسقات، رزقا، قبلهم، قوم2، بالخلق، خلق، ولقد، خلقنا، أقرب، يتلقى، المتلقيان، قعيد، قول، رقيب، بالحق، سائق، لقد، وقال، قرينه، ألقيا، فألقياه، قال، قرينه، قال، وقد، قدّمت، القول، نقول، وتقول، للمتقين، بقلب، قبلهم، قرن، فنقبّوا، قلب، ألقى، خلقنا، يقولون، قبل، وقبل، قريب، بالحق، تشقق، يقولون، بالقرآن.

ليس كما ذكرنا سابقاً دلالة معينة للحرف من حيث هو حرف مبني وليس حرف معنى، فإمكانية التأويل لهذه الحرف باعتباره حرف مقتطع من كلمة أو كلمات واردة وبشكل منطقي ومقبول، وهو ما ذهب إليه الطبري، فليس هنا ما يمنع من أنْ يكون حرف القاف مقتطعاً من أيّ كلمة في السورة، وبقطع النظر عن موقعه من بنيتها، على أن يكون المعنى المتأوّل منسجم مع المعنى الكلّي للسورة ومنسجم مع السياق العام لها.

ق/ والله الحق الخالق القدير الرزاق العليم والقرآن المجيد الذي أوحي إليك، أنّ ما جئت به قومك وأخبرتهم به من رجوعهم أحياءً بعد موتهم هو الحق والصدق، فلم يتعجبوا من قدرة الله عز وجل الذي خلقهم من العدم وقدرته على إماتتهم، وهم يعرفون أنّ ما أخبرتهم به هو الصدق، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم يقول لهم كذا وكذا بعد الموت، لم يتعجبوا من محمد عيه السلام؛ لأنّهم أقروا له بالصدق والأمانة قبل أن يُبعث عليه الصلاة والسلام، فتعجبوا من حقيقة البعث بعد الموت، ولم يتعجبوا من حقيقة ماثلة أما أعينهم، تنسخ كفرهم بالبعث، وهي خلق السماوات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها.

أما سور (القلم) فقد انفردت هذه السورة عن سورتي (ص و ق)، بأنها لم تسمّ باسم الحرف الذي استهلت به أول آية منها كما في السورتين السابقتين، إذْ سمِّيَت باسم الاسم الذي عطف على حرف النون قبله، وهو (القلم) على الرغم من أنّ العطف لاسم القرآن جاء في السورتين السابقتين بعد حرفي (ص و ق) ، إلا أنّ السورتين لم تسميا باسم القرآن، بل جاءت التسمية لهما باسم الحرف الذي استهلت كلّ واحدة منهما به ، وماز الحرفان اسم كلّ سورة ، كما ماز حرفا (طه و يس) اسم كلّ سورة منهما، ولم يمز الحرفان (حم) الذي تكرر في مستهل السور التي سميت بالحواميم ، وذلك بخلاف كلّ السور ذوات الحروف المقطعة التي استهلت بالحروف المقطّعة الأخرى، إذ جاءت أسماء السور بأسماء عاقلة وغير عاقلة، ومن خلال استقراء تلك السور جميعها، كان القاسم المشترك فيها، هو ذكر القرآن الكريم في الآية الأولى أو في الثانية، وإن خلا من اثنتين منها، فإنّه ذكر في أكثر من موضع منهما ، لكنّ ذكر القرآن أو الكتاب في سورة القلم، لم يرد مصرّحاً به في الآية الثانية من هذه السورة ، ويظهر أنّ الذكر له جاء بلفظ أنبأ عنه بالمعنى، وهو لفظ عُرِّف بالإضافة إلى لفظ الجلالة (ربّ)، مضافاً إليه ضمير الكاف (ربّك) ليحيل إحالة خارجية إلى ـــ الذي أنزل عليه القرآن الكريم ـــ محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا اللفظ الدّال على القرآن هو لفظ (نعمة)، وقد ورد مسبوقاً بحرف الجر (الباء) في قول الله تعالى:﴿ما أنت بنعمة ربّك بمجنون ﴾، وورد لفظ الجلالة مضافاً إليه الضمير نفسه في السورة التي سبقت سورة القلم نزولاً وهي سورة العلق، قال الله تعالى:﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾، وهذه النعمة هي إكرام من الله عزّ وجل لنبيه عليه السلام وللأمة التي بعث فيها، وهذه النعمة هي من المنعم الأكرم تفضل علينا بها، فكان اسم التفضيل الذي جاء نعتاً للفظه الجليل سبحانه (ربك)، متطابقاً مع تفضله بالإنعام علينا، قال الله تعالى:" اقرأ وربك الأكرم"، ويظهر لنا من خلال هذا الربط بين السورتين المتتاليتين نزولاً، مدى التعالق والترابط لفظاً ومعنىً بينهما، فسياق السورتين في أول ثلاث آيات فيهما واحد، هو الحديث عن القراءة والقلم والنعمة والإكرام ، ويتبين ـــ كما يظهر لي ـــ أنّ ارتباطاً وتعالقاً بين تسمية سورة القلم بهذا الاسم والآيات التي وردت في أوائل سورة العلق، وهذه العلاقة مرجعها،

تعالق وترابط الألفاظ الواردة بين أوائل السورتين، إذ نجد فعل الأمر للمخاطب بالقراءة المكرر مرتين، ولا سيما أنه ورد في أول سورة، وارتبط ضمير الخطاب بعلاقة الإضافة بلفظ الجلالة (ربك) فوقع مضافاً إليه، وكرر في أول الآية الثالثة وتبعه اسم الجلالة وضمير الخطاب أيضاً واسم التفضيل، ومن مستلزمات القراءة القلم، ومن علامات تعلمها وتعلم الكتابة التهجي وقراءة المكتوب وكتابة الخط، وهذه المستلزمات نجدها في أوائل سورة القلم، فحرف (النون) يشير إلى حرف تهجٍ، فهو علامة على بدء تعلّم القراءة والقلم من مستلزمات القراءة والكتابة معاً، من نتائج التعلم للقراءة والكتابة هي كتابة الخط، ويشير إليه الفعل (يسطرون)، وهذا العلم (القراءة) هو نعمة من الله، وجاءت الآية الثالثة من سورة القلم لتؤكد على هذه النعمة، التي أنعم الله بها على نبيه عليه السلام، وهذه النعمة هي قراءة القرآن من النبي عليه السلام ولم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة، وعدم معرفته لهما مقرّ له بها الكافرون، وكلّ من يعرفه في بيئته وخارجها، وقد حُسد عليها بدليل الآية قبل الأخيرة من السورة، وهذه النعمة هي القرآن الكريم، وقد تأولّ بعض المفسرين واللغويين، أنّ الصراط المستقيم هو القرآن الكريم، قال النحاس:" حدثنا محمد بن جعفر الأنباري ...عن علي قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الصراط المستقيم كتاب الله، وروى مسعر عن منصور عن أبي وائل عن عبد الله في قوله تعالى اهدنا الصراط المستقيم قال كتاب الله وروى عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر قال هو الإسلام، والصراط في اللغة الطريق الواضح وكتاب الله بمنزلة الطريق الواضح وكذلك الإسلام"([1]) .

وقد وردت لفظة النعمة مفسّرة بنصّ السورة نفسها في آخر آيتين منها، وجاء اسم القرآن فيهما بأحد أسمائه المتعددة التي وردت في النصّ القرآني نفسه، وهذا الاسم هو الذكر ، قال الله تعالى:﴿ وإنْ يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمّا سمعوا الذكر ويقولون إنّه لمجنون*وما هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾([2])، وبذكر أسماء

---

[1]- النحاس : معاني القرآن: 1 / 67 .

[2]- سورة القلم : الآيتان/51،52.

القرآن في نهاية السورة، هو تكرار في المعنى لأول آيات السورة وهو قوله تعالى:' ن والقلم وما يسطرون*ما أنت بنعمة ربّك بمجنون، فأدى عنصر التكرار المشترك في المستويين النحوي والدلالي، إلى ربط آخر السورة بأولها، مما يعد إسهاماً في شد أزر نصّ السورة وترابطها في تتابعها الخطي الأفقي على المستوى التركيبي، وتحقيق التماسك النصيّ لها في تتابعها الرأسي على المستوى الدلالي، ولقد أفردت عنوانات لأسماء القرآن الكريم في كتب كثير من العلماء الذين ألفوا في علوم القرآن، فأوصلوا أسماءه إلى أكثر من مائة اسم([1]).

وتبدو المناسبة منسجمة بين عنوان سورة القلم ومضمونها، ويمثل هذا الانسجام العلاقة التي بين الاسم (القلم) والحرف (ن)، على الرغم من عدم تسمية السورة به، فبين النون والقلم علاقة ورابط، إذ لم تسمّ السورة باسم (نون) ، قياساً على اسمي السورتين (ص و ق)، والتعالق بين حرف النون والقلم، متحقق من دلالة الحرف (ن) الأيقونية المرسومة على شكل دواة للحبر، وقد قال كثير من المفسرين واللغوين بأنّ النون هي (الدواة)، فلربما قد تأتّى لهم هذا المعنى من الصورة التي يحكيها حرف (ن) لغة، وربما تحكي النقطة التي في صحن الدواة صورة أخرى تؤكد على هذا التعالق والانسجام بين الحرف وعنوان السورة القلم، ولعلّ ما يعضد هذا التعالق من باب نحوي وظيفي ينسجم مع تعالق النون والقلم، وهي الوظيفة المشتركة بين الدواة والقلم، إذ لا يسطر بالقلم دون أن يكون فيه مداد، ولا يُسطر بالدواة دون توفر ناقل لمدادها وهو القلم، والمسطور بهما هو نعمة من الله لخلقه أجمعين، :" صراط الذين أنعمت عليهم"، :" أنعم عليهم"، وقد مدح سبحانه وتعالى العلماء في أكثر من موضع من كتابه العزيز، وأشرك أولو العلم منهم في أداء شهادة التوحيد، كما جاء في الآية الثامنة عشر من سورة آل عمران.

إنّ المعنى الذي يمكن تأولّه لحرف النون وترتبط وتتعالق معها معاني أغلب الألفاظ التي تضمنتها بنية السورة، وكما يدلّ عليه السياق العام السورة أيضاً، هو اسم الله جل جلالة الذي بمعنى المنعم نحو: الأكرم والكريم والوهاب والمعطي،

---

[1]- انظر : الزركشي: البرهان: 273/1.

وبناءً على هذا التأويل فلابد من تأويل جملة (نواة)، تعطي معنىً يرتبط ويتعالق ويتماسك مع ما بعد حرف النون الذي استهلت به السورة، وهي (والله الأكرم الذي أنعم عليك يا محمد صلى الله عليه وسلّم بنعمة القراءة لما يتنزل عليك به جبريل مما يكتبه الملائكة من علمنا، لهو نعمة من الله ما أنت بها بمجنون كما يقول الكفار الذين يريدون مداهنتك لتكفر بما يوحى إليك فستعلم أنهم هم المفتونون بها .

ب- الإحالة:

وتشمل إحالة الضمائر وإحالة أسماء الإشارة، سواء أكانت الإحالة داخلية أو خارجية، قبلية أو بعدية، ويمكن الوقوف على بعض النماذج من سورة القلم التي تحقق فيها وجود هذا العنصر الهام من عناصر التماسك النصيّ:

إحالات الضمائر:

ما يحيل إلى الكافرين:

ضمير الجمع (هم): وجاء هذا الضمير في عدة كلمات في هذه السور (ص،ق، ن)، وهي ضمائر تحيل إحالة نصية خارجية ذاتية متطابقة إلى الذين كفروا، الذين أنبأ عنهم وصفهم بـ(الكافرين) الوارد في مواضع متعددة في هذه السورة، وقد أحال الضمير (هم) إليهم إحالتين قبلية وبعدية، يكمن توضيحهما على النحو الآتي:

أحال ضمير الجمع (هم) في الكلمات (قبلهم، جاءهم، منهم)، في قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾([1])، إحالة خارجية قبلية ذاتية متطابقة، إلى من كفر، المفهوم من الاسم الموصول وصلته في الآية الثانية من سورة (ص)، قال تعالى:﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾([2])، كما تعالق مع الضمير (هم) في سورة (ق) في الكلمات (جاءهم، منهم، فوقهم)، في قوله تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾([3])، مع الضمير (هم) نفسه في سورة

---

[1]- سورة ص: الآيتان:3،4.

[2]- سورة ص: الآيتان:1،2..

[3]- سورة ق: الآيتان:5،6.

(ص) من حيث إحالته إلى من كفر أيضاً، ويمكن أن نعدّ الإحالة التي أحال إليها الضمير (هم) في في الكلمات (قبلهم، جاءهم، منهم)، من سورة (ص)، نعدّها إحالة بعدية إلى الاسم (الكافرون)، وكذلك الحال للضمير نفسه في الكلمات (جاءهم، منهم) من سورة (ق).

الواو: أحال ضمير الرفع (الواو) في الكلمات (كفروا، فنادوا، وعجبوا)، التي جاءت في سورة (ص) ، إحالة بعدية إلى الاسم (الكافرين)، وكذلك الحال في إحالة ضمير الرفع (الواو) في سورة (ق) في قوله تعالى:﴿" بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾([1])، إذ تعالق الضميران في السورتين في إحالتهما إلى المسند إليه نفسه (الكافرين)، ه إحالة بعدية ذاتية متطابقة.

وكذلك الحال في تعالق ضمير الرفع (الوو) في الكلمات (وَيُبْصِرُونَ، فيدهنون، وَدُّوا) من سورة القلم، في قوله تعالى:﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾([2])، إذ تعالق هذا الضمير مع الضميرين (الواو) في سورتي (ص وق).

إحالة أسماء الإشارة:

هذا: إحالة بعدية في سورة (ق) إلى الاسم الوعد المفهوم من سياق الآيات قبل وبعد هذه الآية، وهو دخول الجنة، من قوله تعالى:" هذا ما توعدون"، الذي فسّره قوله تعالى بعده :" ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود".

1-الضمائر: وتشمل الإحالة الخارجية: ويمثّله ضمير الرفع المسند إليه (الواو): وهو أول ضمير يطالعنا من الضمائر التي تحيل إحالة خارجية إلى مرجع غير مذكور في النصّ، وأسند إلى هذا الضمير فعلٌ بصيغة المضارع المستمر (يسطرون)، وفي هذه العلامة من الفعل ببنيته ودلالته، وفاعله الذي يحيل إلى مرجع

---

[1]- سورة ق: الآية:2.

[2]- سورة القلم: الآيات (5-9).

أو إلى شخص أو أكثر في العالم الخارجي، يتأكد للمتلقي أنّ موضوعاً سيتحدث عنه المتكلّم .

إنّ إحالة ضمير الجمع (الواو) المسند إليه الفعل يسطرون، يدلّ بقرينة وسيلة الكتابة (القلم)، وبقرينة الشيء الذي يُسْطر، دون تحديد للزمن الذي بدأ بتسطيره أو تحديد الزمن الذي سينتهي به، بقرينتي تغييب الفاعل والإحالة إليه بضمير يدلّ على أنه خارج النصّ، وقرينة التعميم للمفعول به وهو الحرف المصدري (ما) على الإطلاق، وكأن الحامل والمحمول (المسند والمسند إليه) والمكمل لهما (الذيل) الذي قدّم عليهما، هي في الحقيقة مسألة مسندة للمتكلّم وواقعة تحت سلطته، فهو الآمر لمن يسطرون بالقلم ومتى، وما يسطرون به ولماذا، فهو الأكرم الذي علّم بالقلم، وهو الذي أمر منْ يسطر بالقلم، أن يسطر نعمةً للعالمين، حُسد عليها المرسل بها والمكلّف بتبليغها وبثها، من أناس أصيبوا هم بالجنون، لمّا سمعوا هذه النعمة وهي تلقى ذكراً للعالمين .

أنت: ورد هذا الضمير في مواضع كثيرة من السورة، وأكثر ما ورد مقدراً غير ملفوظ به، وورد مصرّحاً به مرة واحدة في الآية الثانية:﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾، وهو يحيل إحالة خارجية(مقامية) إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم، إذْ لم يصرّح بلفظه داخل النصّ، وإنما يفيد سياق السورة أو مقامها الإحالة إليه، ويفيد هذا النوع من الإحالة في ربط النصّ بالمقام الذي قيل فيه، وهذا الربط تحقق بفضل المستوى التداولي، الذي مثّله المقام ومعرفة العوالم المشتركة، التي يعلمها المتكلّم ويعرفها المتلقي ونقلها النصّ، وهذه المعرفة التي نقلت إلى المتلقي لا سبيل له لئن يتجاهلها، فهو مؤمن بحقيقة معرفتها من خلال المقام المقالي والمكاني والزمني المشترك للمتكلّم وللمتلقي، وهذا المقام تحقق في الضمير والصفة المنفية عنه، وهي الصفة التي ادعاها المتلقي الثاني (المنكر)على المتلقي الأول (الباث الأول) (أنت)، لذلك اتّجه النصّ إلى تسلية وتثبيت المتلقي الأول بالتصريح بالصفة التي وصفه به المتلقي الثاني (الكافرون) المتلقي الأول للنصّ، وذلك عن طريق مخاطبته مباشرة تعالياً من النصّ القرآني على المسافة والزمن، فكان الخطاب بـ (أنت)، وفي نفي الصفة عنه، وتكرارها مقولة للمتلقي المنكر في آخر السورة ، تأكيداً علي أنها نتيجة

عجزهم أمام ما يلقيه المتلقي الأول (المرسل الأول) الذي فاقهم علماً وهو أميّ لم يعرف القراءة والكتابة، وهذه الأميّة مقرّ بها المتلقي المنكر، فكان قولهم له بالجنون إفرازاً لما وقع في نفوسهم من الذي سمعوه من المتكلّم، وهذه الصفة هي الصفة الوحيدة التي كان يملكها المتلقي المنكر، للتنفيس عن نفسه وما يعتريها من حسد وتكبر وأنفة، (سنسمه على الخرطوم) وخوف على معتقده الذي تربى عليه، وحرصاً منه على مكانته الاجتماعية وتبعية منْ يتبعونه، لئلا يتبعوا ديناً جديداً بكل تعاليمه، لذلك لم يصفوه بصفة (الكذب) مثلاً،إذْ لا تسعفهم هذه الصفة التي أقرّ بعكسها المتلقي المنكر نفسه وغيره من المتلقين الذي عرفوه بالصادق الأمين، وإنما كان الوصف لهم بهذه الصفة، إذ أرادوا منه عليه الصلاة والسلام أن يطيعهم ، قال الله تعالى: " فلا تطع المكذبين "، وذكر الزمخشري في تفسيرها ما نصّه :" تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم وكانوا قد أرادوه على أنْ يعبد الله مدّة وآلهتهم مدّة ويكفوا عنه غوائلهم" وفي مقابل هذا كان الاتجاه في الخطاب القرآني اتّجاه يهدف إلى تثبيت نفس المتلقي وتصديقه ، وتصديق لما يوحى إليه من جهة، وإظهاراً للقلق والاضطراب لذي يختلج نفس المتلقي المنكر من جهة أخرى .

أما الضمير (أنت)، الذي لم يرد مصرحاً به، فقد جاء مستتراً في مواضع متعددة من السورة، وهو يحيل إلى ما أحال إليه الضمير في الآية الأولى، ومن أمثلته (فَستَبْصِرُ، تدهن، ولا تطع، سلهم أيّهم، فاصبر، ولا تكن...)، وكلّها تحيل إحالة خارجية متطابقة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.

ضمير الخطاب (الكاف): وقد تكرر في مواضع متعددة من السورة، وهو يحيل إلى ما يحيل الضمير أنت الملفوظ به المحذوف، إذ تحيل الضمائر الثلاثة إلى محال إليه واحد، إحالة خارجية مقامية ، ويمكن ذكر هذه الإحالات على النحو الآتي(ربك، لك لأجراً، ليزلقونك)، وهو يحيل إحالة خارجية متطابقة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً.

ضمير الغائب (هو) المحيل إحالة خارج النصّ(مقامية)، إلى يونس عليه السلام، وقد ورد تسع مرّات مذكوراً ومستتراً في ثلاث آيات متتاليات:(إذْ نادى، وهو مكظوم، تداركه، ربه، لنبذ بالعراء، وهو مذموم، فاجتباه ربه فجعله من

الصالحين([1])، فمقام الضمير الذي يحيل إلى سيدنا يونس عليه السلام، المفهوم من خلال عنصر الاستبدال الذي مثّلته جملة (كصاحب الحوت)، تذكيراً للنبي عليه الصلاة والسلام بأن لا ييأس من صدّ قومه عنه في زمنه الحاضر وزمنه المستقبل، وهذا تلميح من النصّ القرآني، بأنّ من قومه عليه الصلاة والسلام لن يستجيب لدعوته، فعليه الاستمرار بها والدعوة لهم وإنذارهم، والإشارة إلى صاحب الحوت لفت إلى أنّ سيدنا يونس قد تسرب إلى نفسه اليأس من استجابة قومه له، فتركهم ولم يصبر على حكم ربّ العالمين بهم.

الاستبدال:

الاستبدال الاسمي: ومنه استبدال الاسم الذات (رسول) باسم الفاعل مفْعِل (منذِر)، قال ابن عاشور:"وعبّر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف المنذر : ووُصف بأنّه منهم؛ للإشارة إلى سوء نظرهم من عجبهم لأنّ شأن النذير أن يكون من القوم ممن ينصح لهم، فكونه منهم أولى من أن يكون من غيرهم"([2]).

استبدال فعيل بـ فُعال: ومنه استبدال(عجيب) بـ (عُجاب)، ابن عاشور:"و { عُجاب }: وصف الشيء الذي يتعجب منه كثيراً؛ لأن وزن فُعال بضم أوله يدل على تمكن الوصف مثل: طُوال، بمعنى المفرط في الطول، وكُرام بمعنى الكثير الكرم، فهو أبلغ من كريم"([3]).

الجمل الاستئنافية: ومن الجمل الاستئنافية ما جاء في قوله تعالى من سورة (ص) :" أجعل الآلهةَ إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب "، قال ابن عاشور:" استئناف ابتدائي للاستدلال على تفرد الله تعالى بالإلهية. وإنما أوقع هنا لأن أقوى شيء بَعثَ المشركين على ادعاء أن ما جاء به النبي سحر هو أنه أبطل الشركاء لله في الإلهية ونفاها عن آلهتهم التي أشركوا بها، فلا جرم أن أعقب إنكار إحالتهم ذلك بإقامة

---

[1]- انظر: سورة القلم: الآيات:48 ، 49، 50 .

[2]- ابن عاشور: التحرير والتنوير: 191/12.

[3]- المرجع نفسه: 193/12،

الدليل على ثبوته"([1])، قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

الجمل التفسيرية: جملة: (أَجَعَلَ الآلهة إلهاً واحداً)، بيان لجملة (هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ) ، أي حيث عدوه مباهتاً لهم بقلب الحقائق والأخبار بخلاف الواقع"([2]).

ومن الآيات المفسرة: قوله تعالى:﴿ما أنت بنعمة ربّك بمجنون﴾ ،فسياق الآية يفضي إليه القلم والتسطير، هو معرفته القراءة والكتابة، وهي نعمة وكرم من الله عزّ وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام ، ويعضد هذا ما جاء في الآية الثالثة من السورة التي نزلت قبل هذه السورة، وهي قوله تعالى: ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم﴾، وفي هذا السياق يذكر السيوطي لقوله تعالى:" علّم بالقلم" أنه:" تفسير للأكرم المذكر قبله، فدلّ بهذا على أن نعمة التعليم أكبر نعمة، وخصّ من التعليمات الكتابة بالقلم، لما فيها من تخليد العلوم، ومصالح الدنيا والدين، وقرأ ابن الزبير علّم الخط بالقلم"([3]).

التعليل: ومنه ما جاء في جملة (إن هذا لشيءٌ يُرادُ)، قال ابن عاشور:" تعليل للأمر بالصبر على آلهتهم لقصد تقوية شكّهم في صحة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بأنها شيء أرادهُ لغرض أي ليس صادقاً ولكنه مصنوع مراد منه مقصد كما يقال: هذا أمر دُبِّر بليل، فالإشارة بـ (هذا) إلى ما كانوا يسمعونه في المجلس من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إياهم أن يقولوا: لا إله إلا الله"([4]) .

التعريف والتنكير: ومنه تنكير لفظة الاسم (كتاب)، في قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾([5])، لكنّه عُرّف بعلاقة الإسناد بين المسند إليه وهو الضمير من (نزلناه)، الدّال على المنزّل له، و(التكملة) وهو ضمير الغائب الذي يحيل إحالة قبلية إلى الاسم كتاب، المتقدّم نكرة في موقع البؤرة، قال

---

[1]- ابن عاشور: التحريروالتنوير، 191/12،

[2]- المرجع نفسه، 191/12،

[3]- السيوطي: معترك الأقران:657/2.

[4]- ابن عاشور: التحريروالتنوير، 192/12.

[5]- سورة: ص، الآية/29.

ابن عاشور في تنكيره:"وتنكير كِتابٌ للتعظيم؛ لأنّ الكتاب معلوم فما كان تنكيره إلا لتعظيم شأنه، وهو مبتدأ سوغ الابتداء به وصفه بجملة (أنزلناهُ) و(مُبارَكٌ) هو الخبر، ولك أن تجعل ما في التنكير من معنى التعظيم مسوغاً للابتداء وتجعل جملة (أنزلناهُ) خبراً أول و(مُبارَكٌ) خبراً ثانياً و(لِيدَّبَّرُوا) متعلق بـ (أنزلناهُ)، ولكن لا يجعل (كِتابٌ) خبر مبتدأ محذوف وتقدّره: هذا كتاب، إذ ليس هذا بمحَزّ كبير من البلاغة"([1]).

الاقتضاء: ويتصل بموضوع الإحالة في إطار المستوى التداولي ما يعرف بالاقتضاء، فإحالة العبارات؛ ضمائر وموضوعات ومحمولات ومكملات، كلّها تشير إلى اقتضاء وجود مرجع تحال إليه تلك العبارات، وهذه العبارات لا بد لها من أن تحتوي على مجموعة من المعلومات الإخبارية، سواء أكانت معلومات معروفة بين طرفي العملية التواصلية أو معلومات جديدة للمتلقي، وهي التي يتحدث عنها المتكلّم من خلال الرسالة التي سيتلقاها السامع أو القارئ، ويستطيع المتلقي بحكم مراعاته للموقف الاتصالي؛ مقالياً أو مقامياً، من معرفة غرض الرسالة والوقوف على قصد المتكلّم أو مغزى كلامه.

المصاحبات المعجمية: وهي تخصّ الجانب الدلالي من حيث تعدد المعاني، ومن ذلك كلمة (حرد) من قوله تعالى:﴿ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾([2])، قال أبو عبيدة:"ومن مجاز ما جاءت له معانٍ غير واحد، مختلفة فتأولته الأئمة بلغاتها فجاءت معانيه على وجهين أو أكثر من ذلك، ففسروه على ثلاثة أوجه؛ قال بعضهم: على قَصْدٍ، وقال بعضهم: على مَنْعٍ، وقال آخرون: على غضبٍ وحِقْد"([3]).

علاقة الجزء والكل: ونمثّل الهذه العلاقة من خلال أوائل سورتي (العلق) وسورة (القلم)، ليتبين مدى تعالق وتماسك السورتان معاً، إذْ هي بسبب ما هو المسبّب لها، وذلك بحكم دلالات التضمن والالتزام وعلاقة الجزء والكل والسبب والمسبب

---

[1]- ابن عاشور: التحرير والتنوير/ 221/12.

[2]- سورة القلم: الآية/ 25.

[3]- التيمي: أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن:265/2، علّق عليه محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي- القاهرة .

والنتيجة، فالنعمة هي من اسم الفاعل (المنعِم)، ويدخل في حقله الدلالي اسم الفاعل (الأكرم، الكريم، المغني)، وضد هذين الاسمين اسم الفاعل(المانع)، فالمنعم والمانع من ثلاثة أحرف شكلّت بنيوياً لفظة (نعمة) الواردة في الآية الثانية، وهذه النعمة هي التي تجلّت في الفعل (أنعمت)، ووضع في فاتحة الكتاب، فمن خلال هذا التكرار لهذا للفعل ومشتقاته، في السور القرآنية بحسب ترتيب النزول كما في سورتي (العلق والقلم) وترتيب التلاوة كما في سورة (الفاتحة) وغيرها من السور التي جاء بها هذا اللفظ أو مشتق من مشتقاته أو ما هو في حقله الدلالي ، لدليل على التماسك بين آيات القرآن وسوره، بقطع النظر عن ترتيب النزول وترتيب التلاوة، من جهة وعلامة على أنّ الهداية للصراط المستقيم، هي في هذا القرآن الذي أنعم الله علينا به، ففيه العلم والهداية والرحمة والشفاء، هذا العلم الذي أكرمنا الله به، ونصّ عليه بقرائن تنتمي إلى حقله المعرفي والدلالي:ن والقلم وما يسطرون، علّم بالقلم، علّمَ الإنسان ما لم يعلم، فمَنْ هدي ويطلب أنْ يهتدي إلى الصراط المستقيم، كان بسبب العلم، وسبب هذا العلم هو هذا القرآن الكريم، فمن هدي إليه دخل حقّاً مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً، ولا أدل على أنّ هذه النعمة هي العلم الذي تضمنه هذا القرآن، ما جاء من آيات تذكر الرسول صلى الله عليه وسلّم بهذا العلم، نحو:" من بعد ما جاءك من العلم"، وقد كثر تكرارها في سورة البقرة وغيرها من السور ذوات الحروف المقطّعة، وهذا العلم الذي يفهم من ذكره معرفاً، وما دلّ عليه من ألفاظ في سائر سور القرآن الكريم، والتذكير بعدم العمل بضد ما أوجب هذا العلم، أو اتخاذ هذا العلم بغياً بين المتلقين، قد تضمنه عنوان أول سورة بعد الفاتحة في ترتيب التلاوة، وأول سورة نزلت في المدينة بحسب ترتيب النزول، وهذا العنوان هو البقرة، إذْ وقفنا في موضع متقدم من هذه الدراسة على دلالة الفعل (بقر) وهي التوسع في العلم، وجاء الذكر لهذا العلم في نصّ سورة البقرة بشكل متكرر لفظاً ومعنىً .

المناسبة بين الضمائر المضافة والمخاطب

وحدة الإضافة: الاسم والضمير: ربك، ربه، ربنا، ما أنت بنعمة ربك، ربهم، آياتنا، فالضمائر المضافة إلى لفظ الجلالة (رب) بكثرة في سورة القلم، تبدو دلالتها تقرير

وحدانية الربوبية لله وحده عزّ وجلّ، ربّاً واحداً، فالخطاب له عليه السلام بالمقام الأول، وهو يتناسب وبدء الوحي، بقصد تثبيته، بذكر صفاته، جزاؤه، إخباره بالقصص الهادفة وبما قاله الكافرون، الأحداث التي رافقت القصص من عذاب: نحو طائف من ربك ، صاحب الحوت: نعمة من ربه.

العلاقات والعناصر النحوية

الحذف: حذف المبتدأ: قال تعالى:﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ([1]).قال ابن عاشور:" فقوله: (كِتابٌ) يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هذا كتاب ، وجملة(أنزلناهُ) صفة (كِتابٌ)"([2]).

حذف المبتدأ أو الخبر: قال الألوسي:" { قَالَ } أي الله عز وجل { فالحق والحق أَقُولُ } برفع الأول على أنه مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدأ ونصب الثاني على أنه مفعول لما بعده قدم عليه للقصر أي لا أقول إلا الحق ، والفاء لترتيب مضمون ما بعدها على ما قبلها أي فالحق قسمي"([3]) (الألوسي، روح المعاني، 405/17).

حذف المصدر (المفعول المطلق):

قال تعالى:﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾([4]) .

قال ابن عاشور:"وانتصب (اثنتين) في الموضعين على الصفة لمفعول مطلق محذوف والتقدير : موتتين اثنتين وإحياءتَيْن اثنتين فيجيء في تقدير موتتين تغليب الاسم الحقيقي على الاسم المجازي عند من يُقيِّد معنى الموت"([5]).

حذف الظرف: قال الله تعالى:﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ([6]) .

---

[1]– سورة ص الآية (29)،

[2]– ابن عاشور، التحرير والتنوير:221/12.

[3]– المرجع نفسه 221/12.

[4]– سورة ص الآية(11).

[5]– ابن عاشور: التحرير والتنوير:406/12 .

[6]– سورة ق: الآية : 31.

قال ابن عاشور :"وانتصب (غير بعيد) على الظرفية باعتبار أنه وصف لظرف مكان محذوف . والتقدير : مكاناً غير بعيد ، أي عن المتقين" ([1]).

الجمل المعترضة: قوله تعالى: "هذا ما توعدون" معترضة ، فلك أن تجعلها وحدها معترضة وما بعدها متصلاً بما قبلها فتكون معترضة بين البدل والمبدل منه وهما " للمتقين" و "لكل أواب" وتجعل "لكل أواب" بدلاً من { للمتقين } وتكرير الحرف الذي جُرّ به المبدَل منه لقصد التأكيد"([2]) .

العطف: ومنه قوله تعالى: ﴿ واذكر عبدنا داوودَ﴾، قال ابن عاشور:"... يجوز أن يكون عطفاً على قوله:﴿اصبر على ما يقولون﴾، بأن أُتبع أمره بالصبر وبالائتساء ببعض الأنبياء السابقين فيما لَقُوه من الناس ثم كانت لهم عاقبة النصر وكشف الكرب . ويجوز أن يكون عطفاً على مجموع ما تقدّم عطفَ القصة على القصة والغرض هو هو . وابتدىء بذكر داود لأن الله أعطاه مُلْكاً وسلطاناً لم يكن لآبائه ففي ذكره إيماء إلى أن شأن محمد صلى الله عليه وسلم سيصير إلى العزة والسلطان، ولم يكن له سلف ولا جند فقد كان حال النبي صلى الله عليه وسلم أشبه بحال داود عليه السلام"([3]).

العطف: ومنه عطف جملة على جملة: ومنه قوله تعالى:﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الخصم إِذْ تَسَوَّرُواْ المحراب * إِذْ دَخَلُواْ على دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بغى بَعْضُنَا على بَعْضٍ فاحكم بَيْنَنَا بالحق وَلاَ تُشْطِطْ واهدنآ إلى سَوَآءِ الصراط * إِنَّ هَذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ واحدة فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخطاب * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلى﴾، إلى آخرها معطوفة على جملة (إنَّا سخرنا الجبال معه)([4]).والإنشاء هنا في معنى الخبر، فإن هذه الجملة قصّت شأناً من شأن داود مَع ربه تعالى فهي نظير ما قبلها([5]).

---

[1]– ابن عاشور: التحرير والتنوير / 221/12.

[2]– المرجع نفسه:73/14 .

[3]– المرجع نفسه: 204/12.

[4]– سورة:ص:الآية/18 .

[5]– ابن عاشور: التحرير والتنوير: 207/12.

العلاقات والعناصر التداولية:

ونمثّل لهذا المستوى من خلال حرف (النون/ ن)، في سورة القلم، السياق العام للسورة: وهو التأكيد على صدق الرسالة وعدم اليأس في تبليغها مهما حاول الكفار الوقوف في طريقها، الاحتجاج للرسالة، وتذكيرهم بقصة أصحاب الجنة تعالياً على الزمن، وعبرة لهم، ويسهم هذا المستوى في دلالة نصّ السورة من خلال ما يقدمه من معارف هي من ضمن ما سمّي بـ (معرفة العوالم)، فمن هذه العوالم المشتركة التي خاطبهم بها النصّ القرآني حرف (ن)، إذ ذكرت أغلب المعاجم وكتب التفاسير واللغة، أنّ النون هي (الدواة)، ومما يعضد هذا ما ذكرته (آن ماري شيمل) في بحثها المعنون بـ (التورية بالكتب في الآداب الإسلامية*)، دلالة شكل الحرف عند الصوفية، وهي تتحدث عن الأهمية الدينية للكتب بقولها:" وتتضح الأهمية الدينية في إشارات الصوفية ومن تابعهم، فنبي الإسلام كان أميّا لا يقرأ ولا يكتب، ولذا لم يعتمد في معرفته على الكتب، وتلقّى معارف لم تكتب قط، مما أغرى الصوفية بأن يحاولوا فهم كتاب الخلق وأن يتدبروا آياته ودلالاته، ألم يقل الله سبحانه:﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾([1])؟ لذا نجد شيخ الصوفية (ابن عربي الأندلسي) ينظر إلى الكون كلّه على أنّه كتاب مفتوح ليقرأه البشر، وهذا التشبيه معاصره القريب في إيران (عزيز الدين النسفي) وكثيرون غيره من المفكرين والشعراء، كما أننا نجد سورة القلم (رقم 68) تبدأ بقول الحق سبحانه:﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾([2])، مما دفع بعض الصوفية الذين تابعوا ابن عربي إلى القول بأن الحرف "ن" بشكله المرسوم به يمكن

---

*– هو بحث من ضمن الأبحاث التي حررّها (جورج عطية) وترجمها (عبد الستار الحلوجي) ونشرها في العدد رقم (297) في شهر اكتوبر سنة/2003م من سلسلة عالم المعرفة .

[1]– سورة فصلت: الآية/53.

[2]– سورة القلم : الآية/1.

أن يفسر على أنّه المحبرة الأولى التي استخدمها القلم الأول في كتابة كل ما يحدث في اللوح المحفوظ "([1]) .

ومما يؤكد التماثل بين شكل حرف (ن) وشكل الدواة، ما نصّ عليه عبد العزيز الدّالي رسماً لشكل الدواة في كتابة (الكتابة العربية)، إذْ خصّص في آخر كتابة صفحة لأشكال الأدوات الكتابية عند العرب"([2]).

ذكر كلمة (سنسمه): العلامة (الوسم) المفهوم من الفعل ومكانه (الخرطوم)، من قوله تعالى:" سنسمه على الخرطوم"؛ فهو المكان البارز الملائم للعلامة، فالوسم ومكانه كعلامتين ــ هما من الرصيد الثقافي العرفي المعروف عند العرب.

السياق:

إنّ السياق العام لهذه السور يتحدث عن أموضوع الوحدانية من خلال بعض الموضوعات الأخرى، وأكثر ما تحدثت عنه هذه السور هو إقرار أمر البعث بعد الموت، وتحقيقاً لهذا القصد توالت الآيات التي تدعو الكفار لأن يتفكروا في أمر، الأصل فيه أنْ يكون هو محطّ الإعجاب ، ففوقهم السماوات وتحتهم الأرض الحية بعدما ماتت، وقبلهم الأقوام الذين يعرفون ما صاروا إليه بكفرهم، قال تعالى: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشدُّ منهم بطشاً فنقّبوا بالبلاد هل من محيص﴾([3])، وأكثر من ذلك خلقهم ومعرفة ما يسرون وما يعلنون، وما توسوس به شياطينهم وأقرانهم، والله سبحانه وتعالى له ملائكة مكلفون باقتفاء أثر كل ما يلفظ به الإنسان وما يوحي به قرينه إليه، حتى أن هذا القرين يتبرأ مما فعله صاحبه، لأنه عرف أنّ الله عزّ وجل يعلمه، بقرينة إسناد فعل البراءة (طغى) منفياً إليه ومضافاً إليه ضمير الغائب الذي يحيل على اسم الذات (الإنسان) أحالة قبلية متطابقة :" ربنا ما أطغيته"، وذلك

---

[1]- الكتاب في العالم الإسلامي/ الكلمة المكتوبة كوسيلة للاتصال في منطقة الشرق الأوسط، ضمن بحث (التورية بالكتب في الآداب الإسلامية/ بقلم (آن ماري شيمل) ص/67، تحرير جورج عطية، ترجمة: عبد الستار الحلوجي، عالم المعرفة: ع 297، اكتوبر 2003م .

[2]- الدّالي: عبد العزيز، الخطاطة/ الكتابة العربية، ط/3، 1416هـ-1996م، مكتبة الخانجي- مصر، 119 وما بعدها.

[3]- سورة ق: الآية/36 .

بصورة حيّة مباشرة تتعالى على الزمن المستقبل، وكأنّ المشهد أمامنا المتقي وهو يسمع الجدل الذي دار بين القرين وصاحبه، فيأتي الحسم بفضّ هذا الجدال الذي لا فائدة منه، فكل نهما يتحمل وزر عمله، ولم يكن تحملهم إياه بظلم من الله عزّ وجل، فهو تبارك وتعالى قد أرسل إليهم ما ينذرهم لقاء يومهم هذا الذي تعجبوا منه، وقدّم لهم من الأدلة والبراهين وأحوال الأمم قبلهم وما آلوا إليه علّهم يعتبروا ويتبعوا ما جاء به المرسَل إليه والمرسل به، فما كان منهم إلا الكفر والظلال والتكذيب والعجب، من كل ما جاء به القرآن وأبلغهم إياه الرسول الذي يعرفون حقّ المعرفة ؛ أمانته ، صدقه، تواضعه، إنه منذر منهم ليس من غيرهم.

إنّ سياق الآيات التي شكلّت نصّ السورة (ق) هو سياق دالّ على قدرة الله سبحانه وتعالى، سياق سورة (ق) سياق القدرة والخلق، سياق علم وإحاطة بكل شيء حتى بنفس الإنسان وما توسوس به، فهي الأولى بأن يتفكر بها قومك ويتعجبوا منها، لا أن يتعجبوا بأنّك رسولاً منذر إليهم وأنت معروف عندهم بالصادق الأمين.

ومن خلال هذا التقديم للتعريف بالسورة، يمكن لنا أنْ نتعامل مع الحرف الذي استهلت به السورة للوقوف على دلالة واحدة له، أو للوقوف على أكثر من دلالة له إذا ما عرفنا أنّ هذا الحرف وسائر الحروف المقطعة التي استهلت بها السور ذوات الحروف المقطعة تحمل طاقات تعبيرية هائلة وتكتنز من الدلالات المنداحة في فضاء نصّ كلّ سورة، وهذه الدلالات المنداحة تضم الكلمات التي في بنيتها الحرف أو الحروف التي استهلت بها السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة، فقد ذكر كثير من المفسرين بأن الحرف أو الحروف المستهل بها هي أكثر الحروف تكرراً في السورة التي بدأت بها، وهذا يدلنا على أنّ هذه الحروف هي مفتاح النصّ، وبتأول معنىً أو أكثر لها بشرط انسجام وتآلف المعاني فيما بينها بحيث لا تؤثر في دلالة النصّ الكلية، فإنّ التأويل لها بجملة أو بأكثر، يعدّ الجملة التي تبنى عليها الجمل بعدها، أي بمعنى أنها تمثل البؤرة الرئيسية، ولم تكن عناية علماء النصّ بالجملة الأولى إلا تأكيد على أهمية المعنى الإجمالي عند المبدع، ومنّ ثم اهتمامه بالمبنى المتمثل في بنية النص أفقياً ورأسياً، ومن خلال هذا المبنى الذي تتجزأ فيه الدلالة الكلية للنصّ، يتحقق للنصّ تماسكه واتساقه بفضل ترابط وتماسك الألفاظ فيما بينها

داخل الجملة الواحدة، وترابط وتماسك الجمل فيما بينها. وأدوات هذا الربط وعناصر هذا التماسك والاتساق، تتحقق للنصّ بفضل تعاضد المستويات النحوية والدلالية والتداولية، في إقامة التعالق بين وحداته الصغرى والكبرى، وذلك بمساهمة كلّ مستوى منها، بأدوات الربط وعناصر التماسك والاتساق التي تنتمي إلى مستوى من تلك المستويات بعينه وذلك بهدف تحقيق الترابط للنصّ من عنوانه حتى آخر جملة فيه ، وفي هذا السياق يذكر عفيفي: " أنّ الاتساق يعني الترابط الكامل بين بداية النصّ وآخره دون الفصل بين المستويات اللغوية المختلفة حيث لا يعرف التجزئة، ولا يحدّه شيء "([1])، ويضاف إلى عدم الفصل بين المستويات اللغوية التي أشار إليها، مستوىً لا يقلّ دوره عن دور المستويات اللغوية، وهو مستوىً غير لغوي مثّله المستوى التداولي الذي أضافه علماء النصّ إلى المستويات اللغوية؛ لفهم النصّ وللمساهمة في تحقيق تماسكه وترابطه .

الربط بالفاء: فستبصر (فاء التعقيب) تأكيد على الإبصار ومعرفة الحق بقرينة حرف التسويف الدال على تأكيد وقع الحدث في الزمن القريب .

3.3.4 الموضوعات التي تناولتها هذه السور والموضوع المحوري فيها.

1- نوع الاستهلال وكميته: إذ استهلت السور الثلاث بحرف واحد : ص ، ق، ن .

2- ذكر لفظ القرآن: ص والقرآن ذي الذكر، ق والقرآن المجيد، ن والقلم وما يسطرون، بعد الحروف الثلاث مباشرة، فالموضوع هو القرآن الكريم، وقرينته الجمل (وما يسطرون، بنعمة ربك، لمّا سمعوا الذكر، وإنه لذكر للعالمين)، فكأن البؤرة الرئيسة ـ وهي المعلومة الجديدة ـ هو القرآن الكريم الذي مثّله الحرف المصدري (ما) وما بعده، الذي قُدِّم على ركني الجملة أصلاً وهما المسند والمسند إليه، فاحتل بذلك موقع المبتدأ، (وما يسطرون).

3- لم يشكل كل حرف منها آية بمفرده .

4- وحدة الموضوعات الرئيسة فيها، فتناولت مثلاً موضوع (البعث)، من خلال ذكر الآخرة والعذاب للكفار والنعيم للمؤمنين.

---

[1]- عفيفي: نحو النصّ:96.

5- الحديث عن الصراط المستقيم: ففضلاً عن التصريح به في نصوصها، فقد ذكرت آيات هذ السور من الكلمات التي تتعالق بنسب منه لتدل على هذا الموضوع، فمن ذلك ذكر الاسم: المسلمين، وذكر الصفة (أوسطهم)، لأحد الأخوة أصحاب البستان، ففي الاسم دلالة التزام الدين المقبول عند الله، وعل الأمة الوسط، خير أمّه أخرجت للناس، أما الصفة (أوسطهم)، في قوله تعالى:﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾([1]) . ففضلاً عن تعالقها مع دلالة صفة الأمة (الوسط) .

الموضوع المحوري في هذه السور

خلق السماوات والآرض، إنزال الغيث وإحياء الأرض، وإخراج الزرع وسائر أنواع الثمار، آثار الأقوام السابقة، فكلّ هذه الوقائع المسندة إلى (الله) سبحانه وتعالى، هي دلالات قاطعة على المحور الموضوعي المحوري المركزي في هذه السور وهو محور (التوحيد)، وقد جاءت الكلمات التي تدلّ على الربوبية، أداة هذا المحور، وهي معلومة مشتركة بين المتكلّم والسامع، وتحدثت سورة (ص) عن مجموعة من الموضوعات التي تحدثت عنها سائر السور ذوات الحروف المقطّعة، فتعالقت جميعها بهذه الموضوعات المحورية تعالقاً دلالياً نصياً، وهذه الموضوعات هي:

1ـ القرآن الكريم: وقد جاء التنويه بالقرآن الكريم في أول السورة ووسطها وآخرها، وهذا التكرار في ذكر القرآن والاحتجاج له، يؤكد على تحقق عنصر هام من عناصر التماسك النصي وهو التكرار، وذكر القرآن بعد هذا الحرف تتابعاً ـ كما هو متماثل مع سائر السور ذوات الحروف المقطّعة ـ لدلالة على ارتباط القرآن الكريم بهذا الحرف وبسائر الحروف التي وردت قبل ذكره بعلاقات متعددة ، ولعلّ أولها المعنى المباشر الذي قال به كثير من المفسرين ، وهو أنّ هذا القرآن من هذه الحروف التي تتكلمون بها ، ومنها حرف (الصاد) هذا .

---

[1]- السيوطي: معترك الأقران:2/657.

تكرار الحرف: ويمثّله كثرة الكلمات التي جاء في نصوص السور الثلاث، ففي سورة القلم (ن)، جاءت ـ للتمثيل لا لحصر ـ الكلمات التالية: (بنعمة، بمجنون، تدهن، فيدهنون، المفتون، وبلغت الكلمات التي جاء في سورة (ص) ثمان وعشرين كلمة هي:

مناص، واصبروا، أصحاب الأيكة، صيحة، اصبر، فصل الخطاب، الخصم، خصمان، الصراط، الصالحات، الصالحات، الصافنات، أصاب، غوّاص، الأصفاد، بنُصب، صابراً، الأبصار، أخلصناهم، بخالصة، المصطفين، قاصرات، يصلونها، صالوا، الأبصار، تخاصم، يختصمون، المخلصين.

وجاء حرف القاف في :القهار، الرقيب، القرآن .

فمن خلال هذه الألفاظ، فإنّ تأويل الحروف بواحدة من هذه الكلمات هو أمر وارد، ما دام أنّ هذه الحروف قد وقع أصلاً في بنية كلّ لفظة منها،على أن تكون دلالة الكلمة متسجمو ومتعالقة مع غيرها من الدلالات الأخرى المتأولة لهذه الحروف .

ومن خلال الاستفادة من المنهج الإحصائي في تحليل السورة، فقد تبيّن لنا كثرة الكلمات التي تضمن بنيتها حرف (القاف)، وهذا يدل على تحقق التماسك النصي للسورة من خلال عنصر التكرار الذي حقّقه حرف القاف، بالإضافة إلى تكرار بعض الكلمات في السورة نحو:القرآن ، قال ، قرين ، خلقنا ، ...الخ، كما جاء عدد من الكلمات التي تعدّ من المصاحبات المعجمية نحو: قرين ، يوسوس، قرينه ...الخ.

تنبئ بعض الكلمات مفردة ومركبة مع ألفاظ أخرى عن معنىً يمكن تأوله لهذا الحرف، وهذا المعنى تؤل إليه في الحقيقة ألفاظ ومعان أخرى يمكن تأولها من النصّ إلى المعنى المقصود الأول للحرف، بحكم دلالات التضمن والالتزام والاقتضاء وعلاقة الجزء والكل، ومن خلال تعالق المحمولات في موضوع التخاطب، وهذا المعنى المقصود للحرف هو أنه: اسم من أسماء الله الحسنى؛ القادر أو القوي أو الحق، فيكون التأويل لهذا المعنى حتى ترتبط الآية الثانية بالأولى هو: لم يتعجب الكافرون من قدرة الله الحق القادر القوي، وما جاء به هذا النبي الذي

يعرفونه، فيعلّمهم المصير الذي يصيرون إليه كما علمناه إيّاه في هذا القرآن المجيد ويذكرهم به.

الفصل الخامس

المنهـــج الإحصـــائي وأثره في دلالة النصّ

يمكن القول إنّ العملية الإحصائية ليست مستقلة عن الطبيعة اللغويـــة للـــنصّ القرآني، بل إنّ هذه العملية الإحصائية ترد إلى الطبيعة اللغوية في القرآن، فـــالنصّ القرآني شامل وجامع لكل العلوم، وليس مختزلاً في علم ما من العلوم، أو في قضيه ما أو في مسألة ما أو في موقف ما، أمّا موضـــوع الاختـــزال المعرفـــي بحـــسب موضوع دراسة ما، وفي ضوء منهج ما، فقد ورد أو سيرد عنـــد واحـــد وأكثـــرا، فالتفصيل في علم من العلوم أو في أكثر من علم، تحقق عنـــد كثيـــر ممـــن درس موضوعاً مستقلاً في ضوء النصّ القرآني، فما استقرّ لدى كثير من الدارسين لعلوم القرآن، من دراسات وأبحاث وُضِعَ عنوان لها أحد العلوم أو المعارف، فقد تضمنها النصّ القرآني، نحو: الإعجاز العلمي في القرآن، الإعجاز اللغوي، العددي، فالنصّ القرآني لم يطرح موضوعاً بشكل خاص فيفصل فيه، أو يتناول قـــضية أو مـــسألة خاصة بشكل دقيق، بل كان ينطلق من منظور واسع وشمولي، بحيث يكون التأويـــل مقبولاً وملائماً مع كل عصر، فليس من قصديّة النصّ القرآني في إشارته إلى سائر العلوم، إلا قصدية واحدة ، تمثّل جوهر البنية العليا للنصّ القرآني، وهي عبـــادة الله وحده والإيمان بما أمر به أو أخبر عنه في كتابه العزيز، أو دعا إليه نبيّـــه الأمـــي محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

إنّ أول ما نؤكده في استثمار معطيات هذا المنهج، هو أننا سنتعامل مع الـــرقم الصفري (الصفر)، على أنّه لا يحمل قيمة عددية في موقعه إلى جانب الأرقام التي ينضم معها، بمعنى أنّه لا يحمل قيمة عددية بالاقتران مع غيره، فقيمة الرقم (10أو 100 أو 140 مثلاً، هي: (1) للعددين (10و100)، و(14) للعدد 14، إذ إن الدلالات السيميائية المتحصلة لدينا؛ وهي دلالات لا تحتمل التأويل بفـــضل نتـــائج المـــنهج الحسابي القاطعة، وبفضل القيمة العددية للـــرقم(1)، وبفـــضل الدلالـــة الـــسيميائية الأيقونية التي جاد بها شكل الرقم(1)، وهو مسطور قائم مستقيم، إذ تتعالق كلّ هذه الدلالات الرياضية والسيميائية، مع الدلالة الكليـــة الكبـــرى للـــنصّ، التـــي مثّلهـــا

الموضوع المركزي الكلي لنصوص السور القرآنية ذوات الحروف ألا وهو محور (الوحدانية أو التوحيد).

كما تجدر الإشارة أيضاً أننا لن نعطي هذه القيمة التي للصفر رقم (1)، إذا ما اقترن مع العدد(1) مثلاً، بمعنى أن القيمة هي لرقم واحد منهما فقط، فالرقمان (11أو111) ستكون قيمتها مختزلة في الرقم (1) فقط؛ أي بتقديم الدلالة الوحدوية الأيقونية لشكل العدد وهو مرسوم بهذه الاستقامة والاعتدال استقامة واعتدال (الألف) من (الم)، التي لا تجد فيها عوجاً ولا أمتاً، واستقامة وتوسط واعتدال سورة (لقمان) بوقوعها مركزاً جامعاً وسطاً بين السور، بكونها أول سورة نزلت مستهلة بـ (الم)، فاحتلت الرقم الخامس عشر الذي جاء وسطاً بين ثمانٍ وعشرين سورة استهلت بحروف مقطّعة. فآلية التحليل ـ في ضوء المنهج الإحصائي ـ لهذين الرقمين بشكل خاص وما آلت إليه نتائج الأرقام الأخرى بشكل عام، كانت هي الطريقة المناسبة في تعزيز الموضوع المحوري المركزي للسور ذوات الحروف المقطّعة، وذلك من خلال ما وقفنا عليه من نماذجٌ متعددة ومتنوعة؛ للحروف والكلمات والجمل وأرقام الآيات والسور، التي نذكرها على النحو الآتي:

1- لفظ الجلالة (الله):

تكرر لفظ الجلالة (الله) (1567)، والنتيجة التي يؤول إليها هذا الرقم هي العدد (واحد/1)، إذ مجموع هذه الأرقام هو (19)، ومجموع هذين الرقمين هو (10)، 9+1= (10)، ومجموع هذين الرقمين هو (واحد/1) أي: صفر+1=1.

وعدد تكراره في سورة البقرة بلغ (140) مرة، ويلاحظ أنّ مجموع الأرقام الثلاثة هو (14) نصف عدد الحروف الهجائية، وهو عدد الحروف المقطّعة بعد حذف المكرر منها، بإضافة ذكره أولاً في البسملة من سورة الفاتحة، مما يعزّز رأي من عدّ البسملة آية من السورة، فعدّ لفظ الجلالة (الله) في الفاتحة يقوّم ويعضد دلالة النتيجة للرقم (140) فهو (5) بعدد حروف لفظ الجلالة باعتبار اللام المدغمة، وإن لم تعد فالعدد (139) وهو عدد تكرار لفظ الجلالة في سورة البقرة وحدها، فلا يحقق النتائج السابقة وهي (14) و(7) نصفها وهي عدد آيات الفاتحة، ولا يعضد دلالة نتيجة العدد للفظ الجلالة في القرآن كلّه.

وورد لفظ الجلالة (و/الله) مسبوقاً بالواو(230) مرة في النصّ القرآنـــي، فمجمـــوع أرقام هذا العدد تتطابق مع مجموع عدد تكرار لفظ الجلالة (الله) في سورة البقرة.

2- عدد الكلمات الدّالة على أسماء الله الحسنى:

بلغ عدد الكلمات في الآيات التي تصدرتها شـــهادة التوحيـــد(لا إلـــه إلا الله)، (100/مائة) كلمة بإضافة لفظ الجلالة إليها، قال عزّ شأنه في ســـورة آل عمـــران: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ*إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾([1]).

فشهادة التوحيد تلك، شهِدَ بها الله الواحد الأحد وأشرك معه فيها ملائكته وأولي العلم، وشهد بها عدد كلمات الآيات نفسها التي يؤكد سياقها الموضوعي على محور الوحدانية، وهي الآيات التي شكلّت فقرة واحدة من بينها الآيـــة الـــسابقة، إذ نجـــد مجموع عدد كلمات الآيات التي شهد الله عز وجل وملائكته وأولو العلم قـــد بلغـــت (99) كلمة، مطابقة لعدد أسماء الله الحسنى المذكورة بإضـــافة لفـــظ الجلالـــة (الله) إليها، أي من الآية(18) إلى الآية (22) .

3- مجموع أرقام الآيات: إنّ مجموع أرقام الآيات التي تصدرتها شهادة التوحيد من سورة آل عمران، من الآية/ 18 إلى الآية/ 22، يساوي العدد (100) بإضافة لفـــظ الجلالة (الله) إليها([2])، ومجموع رقمي الآية (19) ورقمي الآية (18) هو (19) أي 10+9 يساوي (19)، والنتيجة النهائية التي تؤول إليها هذه الأرقام هي (واحد/1) .

وكذلك الآيات التالية من سورة آل عمران:

عدد كلمات الآية الأولى: 18، مساوٍ لرقم الآية في السورة، وتكرر حـــرف الألـــف (19) مرة في الآية الأولى....؟ وتكرر (26) مرة في الآية الثانيـــة مـــساوٍ لعـــدد كلمات الآية نفسها أيضاً.

---

[1]- سورة آل عمران: الآية/18، وانظر: سورة البقرة: الآية: 255، 163.

[2]- انظر: الآيات (18-22) من سورة آل عمران.

ويمكن ملاحظة أكثر من محور قد تحدثت عنه السور ذوات الحروف المقطّعة، وهذه المحاور يمكن تسجيلها من هاتين الآيتين، وهذه المحاور ثلاثة هي: الوحدانية التي كررت بلفظ الآية الأولى مرتين، وأسماء الله الحسنى التي يمكن رصدها من الآية الأولى لفظاً أو معنىً، والحديث عن البعث الذي تضمنته التزاماً واقتضاءً الآية الثانية، وهذه المحاور الثلاثة يمكن رصدها أيضاً من الآيتين التاليتين من سورة البقرة، قال تعالى:﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ* هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾([1]) .

عدد الحروف:

الألف/7، اللام:3، الميم:9، الناتج:19، والألف مع الهمزة في الثانية/14، واللام/8، والميم/6، وناتج عدد هذه الحروف هو (28) حرفاً.

وفي الآية الثانية: عدد حرف الألف بلغ أحد عشر حرفاً/11، واللام/8، والميم/6، وعدد كلمات الآية الأولى: 13، والثانية:19، ومجموع رقم الآيتين هو (57) وهو نصف سور القرآن الكريم، كما أن مجموع عدد الحروف الثلاثة في الآية الثانية هو (25) مضافاً إلى مجموع عدد الكلمات في الآيتين وهو (32) يساوي مجموع رقم الآيتين وهو (57)، ويشكل المجموعان عدد سور القرآن الكريم وهو (114).

العلم: ورد (28) ومجموع الرقمين يساوي (10)، وهو دالّ رياضياً وسيميائياً على محور الوحدانية .

4- تكرار الجمل:

أ- **(لا إله إلا هو):** وردت هذه الجملة (29) مرّة، ومنها قوله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾([2]).

---

[1]- سورة البقرة : الآيتان :28،29.

[2]- سورةالأعراف: الآية/158.

ومجموع أرقام هذه الآية وهو (158)، يساوي (14)، مطابق لعدد حروف لفظ الجلالة عند جمع الرقمين (4+1)، والعدد (14) مطابق لعدد الحروف المقطّعة بعد حذف المكرّر منها.

ب ــ جملة (لا إله إلا الله): وردت هذه الجملة مرتين، مرة في سورة الصافات: 35، ومرة في سورة محمد 19.

ج ــ جملة(الله لا إله إلا هو): وردت (8) مرات، خمسة منها سور ذوات حروف مقطّعة .

د- (أنا الله): ووردت في ثلاث سور والآية مخاطب موسى عليه السلام، ومخبر بها، ولم ترد جملة (لا إله إلا أنا) وفعل الأمر (فاعبدني) بعدها إلا في سورة طه، قال تعالى﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾([1])، بينما وردت بعدها في سورتي (النّمل والقصص) جملتان الأولى:(أنا الله العزيز الحكيم) والثانية (أنا الله رب العالمين)([2])، قال أبو حيان:"...فذكر العبادة عقيب التوحيد ، لأن التوحيد هو الأصل ، والعبادة فرعه"([3])، ففي هذه الآية تعالقت دلالة عدد الكلمات في هذه الآية وهو (11)، مع دلالة مجموع عدد رقمي الآية وهو (5)، فكلاهما يشير إلى الوحدانية في الألوهية،

5- تكرار الأرقام كتابة:

أ- أحد: مرة واحدة، ووردت في سورة الإخلاص.

ب- واحد: موصوف به الله عزّ وجل، ورد (11) مرة ،

ج- الله ربي: وردت (7) مرات في: آل عمران/51 ، هود/56 ، مريم 36، الشورى/10 ، المائدة 72، 117، الكهف/38.

د- ربي الله: مرة واحدة في سورة غافر، قال تعالى:﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾([4])، ومجموع رقم الآية وهو (28) يساوي (1) أي: 8+2 ، وهذه الجملة وردت

---

[1]- سورة طه: الآية/(14).

[2]- انظر الآيتين/9، 30، من سورتي/ النّمل والقصص على الترتيب.

[3]- أبو حيان، البحر المحيط، 44/1.

[4]- سورة غافر: الآية/28.

على لسان رجل من قوم فرعون يكتم إيمانه، قالها في سياق إثبات الربوبية والوحدانية لله عزّ وجل، وهو ما كان يدعو إليه موسى عليه السلام.

هـ- **(ربكم)**: تدلّ هذه الكلمة على أن لا ربّ للعالمين إلا الله، وكلمة (العالمين) رمز إليها كاف الخطاب وحرف الميم الدّال على الجمع، فدلّ بهذه الإضافة على تقرير الربوبية لله وحده، وهذه اللفظة تحمل المعنى نفسه في جملة (ربّ العالمين) في سورة الفاتحة، فجاء فيها لفظ (ربّ) متعالقاً مع لفظ الجلالة (الله)، بوقوعه بدلاً منه في الجملة التي قبلها وهي (الحمد لله)، وجاء لفظ (العالمين) في موقع المضاف إليه من لفظة (ربّ)، فكأنّ الإضافة تعالقت مع اللفظين (الله وربكم) على حد سواء، بتعالق (ربّ) مع لفظ الجلالة، من خلال المعنى النحوي الوظيفي الذي أدّاه، وهذا المعنى النحوي الوظيفي هو نفسه الذي أدّاه (الضمير المضاف إلى لفظة ربّ من (ربكم).

فدلالة هذه الجملة على موضوع السورة المحوري المركزي، قد بان بأدوات متعددة وأساليب متنوعة منها: حصر الربوبية والإقرار بها، عن طريق صيغة الجمع (ربكم)، ومنها أسلوب التقديم والتأخير نحو:(ربي الله)، وكذلك عن طريق السياق الموضوعي للآيات، وهو سياق إقرار الربوبية لله وحده، وعضده أيضاً أسلوب التكرار العددي لهذه الجملة وهو ورودها مرة واحدة في القرآن الكريم .

ربكم الله: وورد مرتين، في سورة الأعراف/54، وسورة يونس/3، وقد سبق لفظ ربكم في الآيتين/ بأداة التوكيد (إنّ)...عدد التكرار منسجم مع سياق الآيات التي تتحدث عن الشرك، قال الله تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾(54)، فسياق الآيات سياق إثبات الوحدانية لله عزّ وجل ونفي الشرك.

و- **الله ربكم**: ورد هذا التركيب (9) مرات، الأنعام/ 102، يونس/ 3، 32، فاطر/13، الصافات/ 126، الزمر/ 6، غافر/ 62،64، الطلاق/ 1، فالتركيب الذي تتقدم فيه لفظة (رب، ربكم) أقل من التركيب الذي يتقدمه لفظ الجلالة (الله) .

المجموع الكامل للتراكيب الأربعة يساوي (46) تركيباً، وحاصل مجموع الرقمين له يساوي (10)، وحاصل مجموع الرقمين (1) .

(إلهكم) ورد (7) مرات (3) سورتان منهما ذوات أحرف مقطّعة هما: طـه تكرر مرتين//88،98، فصلت (6).

(الله ربكم) (ورد 9 مرات) ألف لام ميم...(تسعة مكتوبة كما هي منطوقة ملفوظة...(ربكم الله 2) 9+2= 11. (لا يجمع: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ " الأنبياء:(22)) قال تعالى:" مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ " سورة المؤمنون: الآية (91)"، مجموع رقميها (10) واحد ....

ـ (ربكم) ورد 100 مرة فالله (ربّ العالمين).دلالة ميم الجمع...(المجموع:1)، إنّه الله ربّنا) (واحد أحد، قل هو الله أحد) .

(إلهكم إله واحد): ورد (11) مرة ... تطابق مع مجموع رقم عدد جملتي (الله ربكم وربكم الله)، فربنا الواحد هو الله ، والله الواحد هو ربنا، (إلهنا واحد).

(الله ربنا/2)، (ربنا الله/3)= 5 عدد أصوات لفظ الجلالة (الله).

وأختم الحديث عن محور الوحدانية من خلال المنهج الحسابي، بالاستشهاد بالآية الدّالة على وحدانيته سبحانه وتعالى وتنزّه عن أن يكون أحداً شريكاً له، من خلال رقم هذه الآية (100) من سورة الأنعام وقد جاء في الحديث أنها نزلت دفعة واحدة وشيعها سبعون ألف ملك، وما جاء فيها من ألفاظ صريحة وغير صريحة على وحدانية الله عزّ وجل، وما جاء من تبيين لها فيما بعدها من آيات نورد لثلاث آيات منها، قال تعالى:﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

---

[1]- سورة الأنعام: الآيات (100–103).

لقد عزّزت النتائج التي زودنا بها المنهج الإحصائي، الموضوع المحوري المركزي الذي مثّل نصّ السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة، وهو الموضوع الذي ركزّت عليه السور القرآنية المكيّة أيضاً، وهذا الموضوع المحوري هو تنزيه من الله العزيز الحكيم لنفسه، عن وجود شريك له في كلّ شيء، وهو القائل: ﴿ ليس كمثله شيء﴾، لقد تآزر ذكر المصدر بلفظ (سبحانه)، والمعنى من سياق الجمل التي قبله في الآية نفسها، ما قبله من (مجموع رقم الآية (1)، كيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة (صاحبة) زوجة غير زوجة، وهو وحده سبحانه وتعالى خالق كلّ شيء وبكل شيء عليم، (قدّم /وبكلّ للأهمية الدّالة على عموم علمه وإحاطته بأحوال كلّ ما خلق ....، تكرار:" خلق كل شيء، خالق كل شيء، (خلق ماض وخلق متجدد/ اسم فاعل: دالّ على الذات الفاعلة الحيّ القيوم، مدبر الكون: المتحرك فيه والساكن، العاقل فيه وغير العاقل، العالم فيه والجاهل، فاعل في كلّ شيء ورقيب على كلّ شيء والسميع بكلّ شيء، والبصير، العليم الخبير.

الله: هو الاسم الذات التي تؤول إليه أسماؤه ....، :" رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا" مريم (65)، فرقم الآية دلّ أيضاً التوحيد/ فهو الله رب السماوات والأرض وما بينهما، 5+6=11

كما تعالقت لفظة العلم من (هل تعلم) مع لفظة العلم، التي هي إسم من أسمائه وصفة له/ العليم ، فأسماؤه وصفاته سبحانه وتعالى ذاتية متطابقة .

اسم الإشارة في جملة (تلك آيات الله): إن المنهج الإحصائي لاسم الإشارة والمشار إليه، المتكرران في السور ذوات الحروف المقطّعة ودوره في التماسك النصي، سأقف عنده من خلال رصد وتسجيل وجمع رقم السورة، أو الآية أو الآيات أو مجموع عدد الكلمات فيها، أو مجاميع ما يتصل بها كلّها، بمعنى القيام بأي آلية حسابية تخص قسماً من هذه السور أو كلّها، بشرط وقوع التركيب الإشاري " تلك آيات "، وتطابقه في نصوصها كذلك، بهدف الوقوف على تحقق التماسك النصي في هذه السور بشكل خاص، وتتحققه فيها كلّها بشكل عام، فمن خلال عملية استقراء أسماء الإشارة التي أعقبت الحروف المقطّعة لفظاً، فشكلّتا مع غيرهما من الكلمات الآية الأولى من السور، وكذلك أسماء الإشارة التي استهلت بها الآية الثانية في

السور ذوات الحروف المقطّعة، كانت السور التي جاء فيها اسم الإشارة مؤنثاً مفرداً (تلك) والمشار إليه مؤنثاً مجموعاً قريباً (آيات) تسع سور :" تلك آيات" ، والسور التي تكرر فيها اسم الإشارة والمشار إليه نفسهما، وتأخرا في متن السورة، سورتا البقرة وآل عمران ، وبطريقة إحصائية حسابية ألمح إلينا مجموع رقم كل آية من السورتين، عن الإعجاز في النظم القرآني المتمثل في تحقيق التماسك النصي ؛ اتساقاً وانسجاما، حبكاً وترابطاً، إذ نجد أنّ مجموع رقم الآية التي ورد فيها تركيب " تلك آيات" في سورة البقرة هو (9) وهو (252)أي مساوٍ لعدد السور الذي تقدم فيها اسم الإشارة سواء أجاء في متن الآية الأولى أو الثانية، ومجموع رقم الآية في سورة آل عمران (9) أيضاً وهو (108) ، كما أنّ هاتين الآيتين في السورتين، قد أقرتا التماسك النصي لهذين السورتين أولاً وللسور التسعة ثانياً ، وللسور الإحدى عشرة ثالثاً، فعنصر التكرار ـــ وهو أحد عناصر التماسك النصي ـــ بين الآيتين في سورتي البقرة وآل عمران حقق هذا التماسك لفظاً ومعنىً ، إذ إن عدد كلمات الآية في سورة البقرة هو تسع كلمات قال الله تعالى:" تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252) ، وعدد كلمات الآية في سورة آل عمران هو إحدى عشرة كلمة قال الله تعالى :" تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (108) " ، وعضد هذا التماسك المتحقق بتعالق الآيتين ألفاظاً ودلالات وموضوع خطاب، نتائج المنهج الإحصائي الحسابي ، فتكرار بعض الألفاظ نفسها في الآيتين قد وقع فيهما (البقرة 252، آل عمران 108)، قال تعالى:﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾([1]). (29)

إنّ مجموع عدد كلمات الآيتين (32) وجمع العددين مساوٍ لعدد حروف لفظ الجلالة (الله) تبارك وتعالى .

---

[1]– سورة البقرة : الآيتان :28،29.

التطابق بين عدد كلمات الآية ورقمها.

وقد تطابق رقم الآية (19) مع عدد كلماتها:﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (29) البقرة.

آخر آية: قال الله تعالى:﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (48)، عدد كلمات الآية (19)، وقد تكررت معظم ألفاظ هذه الآية ثلاث مرات وكلها في سورة البقرة في الآيات/ 48، 123، 281، ومجموع عدد رقمي الآيتين (29+19) مطابق لرقم آخر آية من القرآن نزولاً وهي (48)، كما أنّ مجموع أرقام الآيات (48، 123، 281)، مطابق لعدد السور ذوات الحروف المقطّعة، أي(12+ 6+11)، ويساوي (29)، وهو يفضي إلى دلالة الرقم (11) أي: 9+2.

ومما يؤازر هذا التماسك الموضوعي للسور ذوات الحروف المقطّعة بشكل خاص والسور المكيّة بشكل عام، هو تطابق العدد لجملة (آيات الله)، مع عدد كلمات الآية(29) من سورة البقرة وهو (19)، إذ وردت جملة (آيات الله) تسعة عشر مرة في القرآن الكريم، منها (15) مرة في السور ذوات الحروف المقطّعة، موزّعة على النحو التالي: وردت في سورة البقرة/2 مرتان، وفي سورة آل عمران/3مرات، وفي سورة الأعراف/1، مرة واحدة، وفي سورة القصص/1 مرة، وفي سورة غافر/5 مرات، وفي سورة الجاثية/3 مرات، ومرة واحدة في سور/ النساء، الكهف، الأحزاب، الطلاق.

الآيات ذات الرقم (57) في سورتي البقرة وآل عمران.

إنّ اختيار هذا الرقم بشكل خاص، كان مردّه معيار مسألة النصف، فهذا الرقم هو نصف عدد سور القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(57) البقرة، ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(1) .

إن مجموع كلمات الآيتين ذات الرقم(57) في سورتي البقرة وآل عمران هو (29)، وهو بعدد السور ذوات الحروف المقطعة، كما أنّ هذا الرقم (57) هو نصف عدد سور القرآن ومن مضاعفات العدد 19، والآيات التي قبل وبعد كلمات هذه الآية ذات الرقم 57 متعالقة مع الآيات السابقة مع سورتي البقرة وآل عمران وغيرهما في موضوع الخطاب، وهو الوحدانية لله تبارك اسمه، نافية أن يكون له شريكاً .

ومحور الوحدانية تضمن معناه الاسم (العبادة) الذي أنبأت به بعض الأفعال نحو: (اعبد، اعبدوا، اعبدني، وبضع الأسماء نحو: عبدي، عبدنا، العبد)، بحسب تفسير ابن عبّاس رضي الله عنهما لمعنى العبادة فيها.

وقد جاء عقب بعض هذه الأفعال، جملة (الصراط المستقيم)، ووردت في خمس سور من السور ذوات الحروف المقطّعة، وهي على النحو التالي:
قال الله تعالى في سورة آل عمران:﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾(2). إنّ مجموع كلمات الآية مع مجموع رقمي الآية يساوي (14) وهو مساوٍ لعدد الحروف المقطّعة بعد حذف المكرر منها وهو (14).
لفظة (الشريعة/ الدين): ونمثل لها بالآيات التي تحدثت عنها في سورة الجاثية، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ*إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾(3)، مجموع الكلمات في الآيتين (28)، ويؤول إلى العدد (1) بجمع الرقمين، ودلالة تفضيل شريعة محمد صلى الله على ما سواها من الشرائع، حقّقه معنى الاستعلاء الذي أدّاه وظيفياً حرف الجر (على)، فدلالة الرقم (1) منسجمة ومتعالقة مع الشريعة الوحيدة (الدين)، التي قبلها سبحانه وتعالى فلن يقبل غيرها .

1- سورة آل عمران:الآية: 57.

2- سورة آل عمران : الآية/51، وانظر: السور: مريم/36، يس/61، الزخرف/61،64،

3- سورة الجاثية:الآيتان:18،19.

عدد كلمات الآية الأخيرة:

عدد كلمات الآيتين الأخريين من سورتي الشعراء والقصص، تسعة عشر(19) كلمة في كلّ منهما، وحاصل مجموع رقم الآيتين هو(27)، وهو مطابق لرقم سورة (النمل) بحسب ترتيب المصحف، وحاصل ضرب رقمي آخر آية من سورة النّمل وهو (93)، هو (27) أيضاً، وحاصل مجموع عدد كلمات الآيتين الأخريين من سورتي (العنكبوت والروم هو (19)، وهو مطابق لعدد كلمات الآية الأخيرة من سورة القصص التي قبلهما، فعدد كلمات الآية الأخيرة من سورة العنكبوت هو (9) وعدد كلمات الآية الأخيرة من سورة الروم هو (10)، عدد كلمات آخر آية من سورة لقمان هو (27)، وهو مطابق لرقم الآية التي تحدث عن كلمات الله من السورة نفسها وهي آية رقم (27)، وعدد كلمات الآيات (27و28و29 من سورة لقمان هو (57) ، وهو نصف عدد سور القرآن الكريم، وتطابق عدد كلمات الآية الأخيرة من سورة الأحقاف وهو (27)، مع عدد كلمات الآيات الأخيرة من السور السابقة أيضاً.

عدد آيات السور: تطابق عدد آيات سورتي القصص وص، وهو (88).

والحديث عن هداية القرآن الكريم للصراط المستقيم، جاء في الآية التاسعة من سورة الإسراء، قال الله تعالى:"إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9) سورة الإسراء .

إنّ سورة الإسراء هي السورة رقم (17) في ترتيب التلاوة ، وإذا تم طرح هذا الرقم من (114) ــ وهو عدد سور القرآن الكريم ــ كان الناتج هو (97)، وهذا الرقم هو لسورة (القدر) حسب ترتيب التلاوة أيضاً، وفي هذه السورة أخبرنا سبحانه وتعالى، أنه أنزل القرآن الكريم في ليلة القدر وسميت السور باسم المضاف إليه (القدر) لمعرفة المضاف المحذوف من آيات السورة نفسها، وإنّ دلّ هذا على شيء فإنما يدل على مسألة الإعجاز العددي ليس مختصاً بالرقم (19) وحده، بل هو موجود في الأرقام (1، 3، 5، 7، 9 ، 11 ، 13، 15، 17، 21،19 ... ولربما تكون الأرقام الفردية لها خصوصية موضوعية، وهذه الخصوصية تتعلق بمحاور رئيسة، تناولتها السور ذوات الحروف المقطّعة بشكل خاص، وهي: الوحدانية وكل

ما يتصل بها فيؤول إليها مثل: الموت، البعث، اليوم الآخر، الخلق، الرزق، الاحتجاج للرسول عليه الصلاة والسلام، الاحتجاج للقرآن الكريم، الحروف العربية وعلاقتها مع السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة وما يتصل بها؛ من حيث عددها ونصف عددها، ودلالات الحروف فيها، موقع بعض السور القرآنية في ترتيب التلاوة وترتيب النزول، ذكر ألفاظ الكتاب أو القرآن أو يتصل بهما بعد هذه الحروف، فكل هذه المواضيع راعتها هذه السور: محاور رئيسية، بكل ترابط وانسجام وتعالق فيما بينها؛ موضوعات ومواقع وأرقاماً، من حيث الاستهلال مروراً المتن ، حتى خواتيم كل سورة .

ترتيب النزول:

احتلت سورة لقمان بترتيب نزولها الخامس عشر، موقعاً وسطاً بين السور ذوات الحروف المقطّعة، فقبلها أربع عشرة سورة وبعدها أربع عشرة سورة أيضاً، وفي ترتيب نزول سورة لقمان علامة دالّة على معنى الشمول والإحاطة، وبقوعها وسطاً تعالقت مع دلالات الوسط والعدل والاستقامة، إذا ما علمنا أنّها أول سورة نزلت مستهلّة بـ (الم) وفيها الآية/27 التي أفصحت عن دلالة العلم والإحاطة والشمول. (الم) لقمان: (15)=6. الآية الدالة على الإحاطة والشمول والكثرة (انظر الطبري: إذ ذكر حديثاً عن معنى الكثرة في الآية). (27)=9 = عدد الأصوات المنطوقة من (ألف،لام،ميم)، 15+27= 42=6 أي أن (مجموع رقمي نزول الآية بحسب ترتيب النزول هو نفسه مجموع الرقمين للسورة والآية = (6) .

ترتيب المصحف أو التلاوة:

ومن الدلالات السيميائية التي يمكن أن نستشفها من المنهج الرياضي الحسابي، التي تصل هذا الحرف بالحروف المقطعة بعد حذف المكرر منها، هو مجموع رقمي السورة بحسب ترتيبها في المصحف، إذ هو الرقم (68)، ومجموع هذين الرقمين يساوي (14)، مع العلم أنّ هذه السورة هي أول سورة نزلت في القرآن الكريم مستهلة بحرف مقطّع.

اسم الفاعل/محيط:

من الأمثلة التي جاء فيها أحد المشتقات (اسم الفاعل) وفيه دلالة للوحدانية لفظا ومعنىً وعدداً اسمه العزيز (المحيط)، فقد وردت جملة (والله محيط) بهذا الشكل مرة واحدة في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ البقرة:(19) = (10 =1)، وورد ذكر محيط أكثر من مرة في القرآن، لكنّ لفظة الإحاطة ممثلة بجملة (من ورائهم) قد ورد مرة واحدة في القرآن الكريم وجاءت في آخر السور التي ورد فيها الاسم (محيط)، قال تعالى:﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ البروج: الآية/(22)، مجموع أرقام الآيات (82=10=1)، وكأن علامة تلوح من جملة (من ورائهم) وهي إحاطة شاملة بكل شيء وفي كل شيء، فأحاط بكل الكافرين منذ أن خلق آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فاسب لفظ جملة من ورائهم وقوعها مع الاسم محيط وفي آخر سورة ذُكر فيها اسم الله العزيز (المحيط) .

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)

مجموع رقم الآية 7+3=10،،، عدد كلمات الآية (11)...

ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب" سورة ق: الآية. إنّ لفظة (مُحيط) بدلالتها الصرفية (اسم فاعل)، مقصورة على الله وحده، فالله أحاط بكل شيء علما، قال تعالى:﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه﴾، والمنهج الإحصائي قد عضد تفسير ابن عباس رضي الله عنهما للحروف الثلاثة (الم) وهو قوله: أنا الله أعلم، إذ إنّ صفة (العليم) مسبوقة بلفظ (كل) الدالة على العموم والشمول، قد وردت ثلاث مرات في ثلاث آيات من سورة البقرة، ليتطابق عدد تكرارها مع عدد هذه الحروف الثلاثة (الم)، وهذه الآيات الثلاثة هي:

1 ـــ قال الله تعالى:﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(29) وقال تعالى:﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا

أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (231) "وقال تعالى:﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282)".

مجموع أرقام الآيات هو نفسه رقم الآية الأولى منها وهو (29)، وهو الرقم نفسه لعدد السور ذوات الحروف المقطّعة، كما أنّ لفظة **(كلّ شيء)** الدالة على الإحاطة والشمول، قد تطابق عدد تكرارها عدد السور القرآنية التي نزلت في مكة، ومجموع العددين (29) و(85) تطابق مع عدد سور القرآن الكريم كاملاً .

كما أنّ قوله تعالى " **بكل شيء** " الذي ورد خمساً وعشرين مرة في القرآن الكريم، مجموع رقميه، وهو (7) سبعة، عدد آيات سورة الفاتحة، التي عدّت مجملة للقرآن الكريم، لينسجم هذا معنى الإجمال للقرآن، مع تكرر قوله تعالى :" بكل شيء"، في القرآن كلّه، أيّ الانسجام بين سورة الفاتحة من خلال عدد آياتها وإجمال معاني ألفاظ وتراكيب آياتها السبعة مذكورة ومحذوفة، مع عدد تكرار (بكل شيء) التي وردت (25) مرة في القرآن الكريم كلّه، بعدد الأنبياء والرسل الذي ورد ذكرهم في القرآن الكريم.

كما أنّ مجموع رقم عدد الآية الأخيرة التي ورد فيها قول الله تعالى:﴿ كلّ شيء﴾([1])، ــ وهو (14) ــ مطابق لعدد الحروف المقطعة بعد حذف المكرر منها، ويعضد هذا التماسك أيضاً، مجموع كلمات الآية ذات الرقم (284)، وهو (28) كلمة بعدد الحروف الهجائية، ويعزز محور الوحدانية كذلك عدد تكرار جملة:(على كل شيء قدير)، عشر مراتٍ في القرآن الكريم، منها ست مرات في سورة البقرة وأربعة في سورة آل عمران، ومجموع الرقم (10) هو واحد، أي صفر + 1=1.

وتعالق المعنى الذي يفيده عدد الكلمات نحو الكلمات: مسلمون، مسلمين، أسلم، مسلمة، الإسلام..الخ. في تعزيز محور (الوحدانية) في السور ذوات الحروف المقطّعة، فقد وردت كلمة الإسلام أربع مرات منها مرتان في آل عمران وواحدة في المائدة وواحدة في الصف. وأسلمت مرتان في البقرة وآل عمران، ورد كلمة المسلمين (11) مرة منها (6) مرات في ست سور استهلت بحروف مقطعة،

---

[1]– سورة البقرة: الآية/284.

ووردت كلمة مسلمين (9) مرات كلها في سور استهلت بحروف مقطعة، والفعل أسلم ورد (7) مرات في القرآن، أربع منها في سور ذوات حروف مقطّعة.

وكلمة (مسلمون) وردت(14) مرة منها (11) مرة في السور المقطّعة التي استهلت بـ (الم) 7 مرات في أربع سور منها 4 مرات في سورة آل عمران ، الر في سورة هود، وطس النمل، وفي التوبة :" وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آَمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آَمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (111).13 كلمة، وفي الأنبياء مرة واحدة: " قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ "(108) 11 كلمة.

وكلمة مسلمة مرة في البقرة الآية (128) (مجموع الأرقام/11)، وكلمة (سلام) وردت 19 مرة 9 في السور ذوات الحروف المقطعة:

أفعال الأمر:

ومما يتجاوب مع هذه الأرقام الدّالة على الوحدانية بالنظر إليها سيميائياً، أنّ تأويلنا هذه الحروف المقطّعة بأنها تشير إلى أفعال الأمر، كأحد التأويلات المتعددة لها، فإنّ أفعالاً بذاتها قد خُوطب بها الرسل عليهم السلام، قد تطابق عدد تكررها في القرآن الكريم مع دلالة الوحدانية في الأرقام الأخرى نحو: (1) و(100) و(11) و(10) و(19) وغيرها، فأول هذه الأفعال الفعل الدّال على الوحدانية، وأول فعل بصيغة الجمع ورد في سورة البقرة وهو الفعل (اعْبُدُوا)، وقد نصّ قوله تعالى على مقولة الرسل الواحدة بالفعل نفسه، قال تعالى:﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾([1])، فقد تطابق مجموع عدد رقمي هذه الآية وهو (تسعة/9)، مع مجموع عدد الحروف (الم)، وهي مرسومة كما هي منطوقة، وتطابق عدد كلمات هذه الآية مع عدد الحروف العربية الهجائية وهو (28)، وقد تعالقت دلالة مجموع هذين الرقمين (1)، مع دلالة حرف الألف السيمائية الدّالة على الوحدانية بشكلها المرسوم المسطور (العدد، كما تعالقت دلالته مع تأويل

---

[1]– سورة النحل: الآية/36.

الحروف المقطّعة ـــ وتمثّلها (الم) ـــ عند كثير من المفسرين واللغويين، بأنّ هذا القرآن هو من هذه الحروف التي يتخاطب بها العرب .

ومن هذه الأفعال هو (فاصبر) فقد تكرّر (11) مرة في القرآن الكريم، منها (٥) مرات في سبع سور قرآنية استهلت بحروف مقطّعة، إذ لم يرد هذا الفعل في سورة لم تستهل بحروف مقطعة فتفصل بين هذه السور السبع بحسب ترتيب المصحف، وهذه السور هي (هود، طه، الروم، غافر/ و تكرر فيها مرتان، ابتداءً من سورة وتكرّر مرتان في سورة (غافر) مرتين، وهذه الأعداد علامة دالّة على المحور الموضوعي المركزي في السور القرآنية ذوات الحروف المقطعة)، فعدد السور وعدد تكرار الفعل منسجمان متعالقان في دلالتهما السيميائية على محور الوحدانية (10 عدد السور) (11)، عدد تكرار الفعل، ومجموع العددين وهو (21)، هو نفسه رقم الآية (21) من سورة البقرة، التي فسّر ابن عبّاس ـــ فيما نقله الطبري وغيره ـــ لفظ العبادة فيها ممثّلة بفعل (الأمر) وبصيغة الجمع (اعبدوا)، بأنّها (الوحدانية)، قال الله تعالى:" "، وهذه الدلالات متعالقة تماماً مع الدلالات السيميائية للحروف المقطّعة (الم) التي ذكرناها، وهذا يؤكد على أن (الم) هي جملة (نواة) أو هي البؤرة الرئيسة؛ التي تحمل وافراً من المعلومات المتأوّلة إذا ما نُعتت بأنها جديدة، وعدد الحروف الثلاثة مكتوبة كما هي منطوقة يساوي تسعة حروف (9)، كما هو العدد نفسه في مجموعة (الر) و(طسم)،

الفعل (واستغفر) ورد سبع مرات في القرآن الكريم، وتنبّه بوكاي إلى الرقم سبعة قائلاً:"... والرقم سبعة ورد في القرآن أربعاً وعشرين مرة لمعدودات مختلفات، ومعناه في الغالب هو الكثرة، دون أنْ نتأكد من معرفة سبب هذا الاستعمال بهذا المعنى، ويبدو أن الرقم سبعة عند اليونان والرومان يحمل أيضاً معنى الكثرة غير المحددة، ولقد ورد هذا الرقم في القرآن سبع مرات مضافاً إلى السماوات، ومرة بمعنى السماوات المضمرة، ومرة أخرى مع الطرائق التي هي فوقنا"([1])، واستدلّ الكاتب على هذا المعنى من خلال السور الآيات التالية: (سورة

---

[1]– بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، 172.

البقرة/29، السورة 23/ 17، السورة 3/67، السورة 16،15/71// السورة 12/78)، ولقد اتفق المفسرون جميعاً، على أنّ معنى الرقم سبعة في هذه الآيات الكثرة المطلقة وليس العدد بالذات"([1]) . ودلالة العدد (7)، كما ذكر محمد مفتاح – نقلاً عن كتاب الموسيقى لـ (أرستيد كوانتيلورس) ـ:" سباع: ويوسم بأنه عدد نقي([2]) .

الفعل (أدعو) دلالة الوحدانية من خلال دلالة (التضمن من الاسم المسبوق بما النافية بعد أن اسند عدم الانتماء إليهم (وما أنا من المشركين) (أدعو الله وحده لا غيره)، كما جاء هذا المعنى من خلال الآية التالية في سورة (الرعد) قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ .(36)

إنّ مجموع أرقام الآية الأولى هو (9)، ومجموع رقمي الآية الثانية هو (9) أيضاً، وحاصل مجموع العددين هو (9) أيضاً، إذ مجموع العددين هو (18) للآيتين، ومجموع هذا الجمع هو (9) أي: 8+1.

ويتجاوب مع هذه الدلالة على محور الوحدانية دلالة رقم الآية التي تضمنت في بنيتها التركيبية الفعل (أدعو) من سورة (الجن) وهي قوله تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ (20)، ولعل سائلاً يسأل عن هذا التعالق الدلالي من خلا رقم الآية (20)، فنقول: إنّ لفظة أحداً قد تضمنت نفي أن يكون إله مع الله سبحانه وتعالى، وهي نفي خاص شامل لعموم ما يعبدون، وقد صرّحت آيات بنفي أن يكون مع إله آخر، فالمسألة منصبّة على نفي أن يكون إله آخر مع الله، مما يعني عدم الاهتمام بنفي أن يكون في الوجود إلهين أو أكثر مع الله ، قال تعالى:﴿ أإله مع الله"، وقال تعالى:﴿لذهب كلّ إله بما كسب﴾، والسياق قبلها سياق الحديث عن عدمية ونفي أن يكون لله ولد، والسور الثلاث مكيّة، لكنّ جاء التقديم لسورة البقرة (الم) على الرغم من نزول سور قبلها استهلت بهذه الحروف؛ لأنّ سورة البقرة عدّها جلّ

---

[1]– بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم: 172.

[2]– مفتاح: أوليات منطقية رياضية في النظرية السيمائية، 135.

المفسرين، السورة الشاملة المجملة لكتاب الله العزيز، وسمّيت بـــ (فسطاط القرآن)، وفي هذا السياق قال ابن العربي في فضل سورة البقرة في كتابه أحكـــام القـــرآن:" اعلموا ـــ وفقكم الله ـــ أنّ علماءنا قالوا: إنّ هذه السورة من أعظم ســـور القـــرآن؛ سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر"([1]).

إنّ حاصل مجموع رقمي الآيتين من سورة الأعـــراف (157،158)، التـــي تتحدث عن: موضوع الإيمان والرسول النبي الأمي، وهو (27) ، وهو حاصل جمع عدد كلمات الآية ذات الرقم (285)، وجاء حاصل مجموع رقم كلّ آية متسلـــسل : 13،14،15 ، فـــ (13) حاصل جمع رقم الآية (157) و14 حاصل جمـــع الآيـــة (158) وهما من سورة الأعراف، و15 حاصل جمع (258)، الآية قبل الأخيرة من سورة البقرة ، ما عدا تكرر الرقم (5) في الآيات الثلاثة: عدد حروف لفظ الجلالـــة (الله)، و(1)و(8) في آيتين، و(7) في آية، وعنصر الترتيب قد تحقق كذلك.

إنّ حاصل مجموع أي رقمين متسلسلين من الرقام السابقة ينبأ عن مسائل:

أ- 13+14= 27: ليلة القدر في شهر رمضان الذي أنزل فيها القرآن الكريم :" إنا أنزلناه في ليلة مباركة ": (5) كلمات .

ب ـــ (9) هو حاصل مجموع (7+2)، وهو مجموع عدد الحروف لفظاً أو رســـماً (ألف لام ميم)، ـــ 13+15=28 : عدد حروف العربية

ج ـــ 14+15=29 : عدد السور ذوات الحروف المقطّعة .

عدد الرسل: الرسل عليهم السلام الذي ورد ذكرهم في القرآن الكريم، بلغ عـــددهم خمساً وعشرين رسولاً كما هو معروف، وقد تطابق هذا العدد مع رقم الآيـــة التـــي يدل سياقها على المرسلين، وجاءت هذه الآية في سورة الأنبياء التي دخل عنوانهـــا مع الاسم الرسل في حقل دلالي واحد، قال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ([2]) .

---

[1]- ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي/ (468-543هــــ)، أحكـــام القرآن، تحقيق/عبد الرزاق المهدي// المجلد الأول/32، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان/ الطبعة الأولى/1421هـــ – 2000م، وانظر الزركشي، البرهان، 269/1.

[2]- سورة الأنبياء: الآية/25.

وفي سياق هذا المنهج الإحصائي تكرّر موضوع محوري في النصّ القرآني، وهو (الحوار في القرآن الكريم)، وهذا الموضوع قد شكّل بنية كبرى في النصّ القرآني، ومما يؤكد محورية هذه الموضوع وبنيته الكبرى، هي ما يمكن أن يشتق من الجذر اللغوي للفعل (ق و ل)، القول: قول /1722 مرة، مما يشير إلى المادة علاقة بالحوار، يأتي بعدها المقول، نحو: قال، قلنا، قلت، قل، يحق (تعود إلى صوت الوحي)،إنّ كثرة مادة (قول)؛ فعلاً واسماً ومشتقاً في النصّ القرآني ، تؤكد على قوة الحوار وصدقيته، (القول مسند إلى الرجل والمرأة .

(كتاب): ونمثّل له بقوله تعالى:﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾([1])، فعدد كلمات الآية مطابق لعدد الحروف (الم) وكل حرف منها منطوق، كما تطابق رقم الآية مع عدد السور ذوات الحروف المقطّعة، ومجموع عدد رقمي الآية متعالق مع دلالة الوحدانية.

إنه لجدير بالتوقف ـ ونحو النصّ يستفيد من كل العلوم ـ أنّ نتأول ـ قرينة رقم الآيتين الواردتين في سورة البقرة وآل عمران، وهما في سورة البقرة مطابقاً لعدد للحروف الهجائية، إذا لم نعد الألف حرفاً في الآية الأولى أو حرفاً في الآية الثانية، ومطابقاً أيضاً لعدد السور ذوات الحروف المقطّعة، ثم الوحدانية التي قضى وألزم بها لفظ الجلالة (الله) والشهادة التي في سورة آل عمران، والبعث والحياة، وأسماء الله تعالى المتضمنة دلالتها الآيات التزاماً واقتضاءً أيضاً، فمن خلال هذا الاستقراء لموضوع الوحدانية، وجدنا أنّه حديث هذه الآيات في تلك السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة، التي تماسكت فيما بينها في وحدة موضوع الخطاب، وتماسكت كذلك فيما بينها من حيث، التماثل والتطابق لأرقام السور والآيات والكلمات التي شكّلت الآية الواحدة .

---

[1]– سورة ص: الآية/29.

خاتمة الدراسة ونتائجها

إنّ أهم ما يجب ذكره ــ في خاتمة الدراسة، وعطفاً على ما قِيل في تحليل السور ذوات الحروف المقطّعة ــ هو أنّ المعنى الكلّي الذي تضمنته البنية الكليّة لنصّ هذه السور، هو المعنى المتمثّل ــ كما يبدو ــ بمحور إقرار الوحدانية لله وحده سبحانه وتعالى، محور أفصح عنه تأويل الحروف المقطّعة بأنّها حروف مقتطعة من أسماء الله الحسنى، فعدّت هذه الحروف الجملة الأولى (النواة)، التي شغلتها تلك الحروف، على أنها أسماء الله الحسنى المقسم بها، قبل أنْ يقسم بغيرها، فالخالق للكون المدبر لأمره، المحيي والمميت، الحي القيوم، العليم الخبير، الرازق الوارث المعطي المانع ،الملك الحق، مالك الملك، هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد المعبود المستعان، الذي لا يشركه في وحدانيته الإلهية والربوبية أحد، فلا معبود بحق سواه.

وهذه المعاني الخصوصية التي أنبأت بها أسماء الله الحسنى سبحانه وتعالى، هي أسماء لله وحده قد قصرها الله له وحده وأمرنا أن ندعوه بها، كما أن أفعال هذه الأسماء مؤكدة بإسنادها إلى الله وحده تأدية وإنجازاً مباشرة وغير مباشرة، جوهر الوحدانية متحقق فيها، وقد مثّلها المحتوى القضوي للآية الكريمة في قول الله تعالى:" فلله الأسماء الحسنى فادعوه بها"، فأي اسم من هذه الأسماء التي ذكرت والتي لم أذكر، فإنّ معنى الوحدانية لله عزّ وجل لفظاً ومعنىً ــ وبكل جلاء ــ متجليّ فيها، كما أثبتت المعاني الجزئية؛ معجماً أو تركيباً أو سياقاً أو علامة، من خلال الحرف أو أكثر من الحرف، أو الآية الواحدة أو الآيتين أو الآيات، سواء أشكّلَت هذه الآيات جملة (نواة) أم جملاً أم فقرات، هذا المعنى (الوحدانية) من خلال أبنية نصوص كل سورة منها صغرى أو كبرى وفي مستوى النص أفقياً أو رأسياً، أبنية نصوص تعالقت على مستوى الدلالات المتأتية من الحرف والآية والآيتين والآيات (الفقرات)، بفعل تفعيل كل مستويات التحليل النصي النحوي والدلالي والتداولي، أبنية مكّنت المتلقي من أن يشرك معطيات كلّ العلوم الأخرى ــ تحقيقاً لخاصية الشمولية التي يتمتع بها علم لغة النص، وتدليلاً على النظرية (نحو النص) التي تمثل جوهر هذا العلم وتحتج لعلميته ــ مكّنته ليستفيد منها ما يساعده

على فهم النص، ويعمل على تنحية وتحييد ما لا يستفاد منها، فالعلوم: الكون: الفلك، الأرض، النجوم، الأجرام...، الطب ، الأحياء، الكيمياء ، الأنثروبوجيا، النفس ، الاجتماع، عنوانات نضعها لآية أو أكثر تتحدث في مجال من مجالاتها، وكذلك علوم القرآن: الفقه ، التفسير بأنواعه، العبادات، الأحكام على تنوعها، تأخذ مكانها عنوانات كذلك لآية أو أكثر من آيات هذه السور، وعلم الصوت، الصرف، النحو، الدلالة ، نظرية السياق ، عنوانات لغوية جزئية وكلية وخاصة، أفردت لها مؤلفات مؤلفة وتزيد، كانت آيات القرآن الكريم خير مبان ومعان في نصوصها، استعمالاً؛ أسلوباً وأمثالاً وحكماً وقصصاً وتصويراً ترغيباً وترهيباً ، وعِبَرٍ وحجج وبراهين وأدلة وآيات معجزات، رحمة من رب العالمين الذي هدى الإنسان إلى سبيل واحد كفيل بمن يسلكه، أن يهتدي إلى الصراط المستقيم الذي سأله الله، فبصيغة الأمر وبلفظ الجمع، أمر تبارك وتعالى الداعي والداعين طلب الهداية إلى هذا السبيل الذي لا يهدي إليه إلا إله واحد لا شريك له ولا معبود بحق سواه ، إيماناً وتصديقاً وإقراراً بهذه الربوبية والوحدانية له عزّ وجل، وهذا ما آمن به الرسول عليه الصلاة والسلام وجميع الرسل من قبل، وهذا ما دعت إليه الكتب السماوية بشرائعها المتعددة ، فمن أراد الهداية فعليه الإيمان بمثل ما آمن به الرسول والمؤمنون، وهذا المعنى المتحقق للوحدانية وللربوبية والإيمان بالله المتصف وحده بهما، هو المحتوى القضوي الذي عالجته الآية الكريمة من قول الله تعالى في سورة البقرة :" فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا "، فالأيمان الحق الذي أقرّته هذه الآية وغيرها طريقه واحدة وإن تعددت طرق هذا الإيمان وصفات من يتصف به، :﴿ فلم تقتلون أنبياء الله﴾ ، هذا ليس من الإيمان في شيء.

إنّ محاور النصّ التي نقلتها محتوياته القضوية؛ التوحيد، الإيمان بالغيب، الاحتجاج للكتاب وللرسول عليه السلام والخلق وتدبير الكون والرزق الموت والبقاء والبعث والحساب، الشفاعة والعذاب، مآل المؤمنين ومآل الكافرين، هي موضوعات شكّلت قواسم مشتركة عالجتها السور ذوات الحروف المقطّعة، فهذه الموضوعات إنّما هي محتويات قضوية شكّل كلّ محتوى منها قضية بعينها، ما انفكت بنية السور القرآنية ذوات الحرّوف المقطّعة، تتجاذبها في مستويي نصوصها الأفقية والعمودية،

فكانت موضوعات محورية، تحمل المتلقي المؤمن على الثبات على الصراط المستقيم والسير فيه، لمّا سلك سبل الهداية التي قادته فهدته إلى الصراط المستقيم، فقد أنعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان بوسائل وأسباب الهداية التي لا أمتاً فيها ولا عوجاً، وفي الوقت نفسه اتجهت إلى خطاب المتلقي الكافر، ليسلك طريق الهداية المؤدية إلى الصراط المستقيم، الذي سلكه منْ أسلم لسائر الأنبياء والرسل عليهم السلام، إذ إنّ رسالاتهم جميعاً حملت القصدية الواحدة، التي تدعو أن يسلم المتلقي للفطرة التي فطر الله الناس عليها، فكانت دعوة الرسل للمرسلين إليهم وهي عبادة الله وحده لا شريك له، هي جوهر الصراط المستقيم الذي طلبه المتلقي، فجاء نعمة من الله ورحمة للعالمين، أفضل مرسل وخير داعٍ، بأشمل نصٍ يهدي للتي هي أقوم.

فلا تكاد تمر آية أو أكثر من آيات السورة ذوات الحروف المقطّعة، إلا وتتحدث عن محور منها لفظاً أو معنى أو لفظ ومعنى، وهي بهذا التماس الموضوعي، جزئياً أو كلياً في أبنية نصوص السورة الصغرى أو الكبرى أفقياً أو رأسياً، وبترابطها فيما بينها عن طريق روابط لفظية ظاهرة أو مقدرة ، وعن طريق معان سطحية وعميقة، يعضد التصريح بها أو عدمه قرائن متعددة تنتمي إلى الجانب التداولي، ولعل أهم هذه الجوانب هي معرفة العوالم والخبرات لدى المتكلم والمتلقي، وقرينة عدم اللبس وصفة الموصوف أو حاله التي هو عليها، نحو قوله تعالى:﴿ فوجد فيها جداراً يريد أنّ ينقض فأقامه﴾، فكان إسناد الفعل يرد إلى فاعل غير عاقل، الذي شكل بهذا التركيب انزياحاً إسنادياً، لا لإفادة المتلقي عن أداء الفعل وإنجازه عن طريق فاعل غير عاقل، بل للتأكيد على أنه في حكم الواقع الذي لا يستفاد منه، وتغيير حالته بإقامته لئلا ينقض، الأصل أن يؤجر عليها، وفي هذا تدخل علوم المعاني التي اهتدت بها البلاغة القديمة من المجاز والبيان لتكون طبعتها تداولية كما عبّر عن هذا المعنى أحد البلاغيين في هذه النظرية النحوية الشمولية التي راعت الشكل والمعنى، وقد عبّر عن كل ذلك أحد المصلحات النصية (التماسك النصي)، بفعل مستويات التحليل النصي نحوياً ودلالياً وتداولياً ؛ من خلال الروابط المختلفة، والمعاني النحوية الوظيفية، وعلاقات التضمن والالتزام، والإحالات الضميرية والإشارية، والسياق العام للآيات أو للسورة أو للسور جميعها، وأسباب النزول

وزمانه ومكانه، فحققت بذلك تعالقاً دلالياً فيما بينها، على مستوى بنية نصوص هذه السور الصغرى والكبرى من جهة، وتعالقها على مستوى البنيــة الكليــة الكبــرى للنص.

إنّ كل هذه الموضوعات ــ بقطع النظر عن قلة الآيــات أو كثرتهــا ــ التــي عالجتها، آيات السورة الواحدة أو آيات السور ذوات الحروف المقطّعة، قد تحققــت في نصوص هذه السور مجتمعة، وإذا ما أمكننا تأول كلّ المعاني التي يمكن أنْ تقبل للحروف المقطعة ، سواء أدلّ الحرف الواحد على معنى واحد أم دلّ علــى أكثــر معنى، إنّما هو منسجم ومتسق ومتماسك، مع المعاني الجزئية والكلية، التــي تمثــل لهذه المحاور الموضوعية الواحدة في نصوص هذه السور، فالتعالق الــدلالي بــين الأبنية الصغرى والأبنية الكبرى في نصوص هذه السور أفقياً وعمودياً، كوّن بنيّــة كليّة كبرى، أي وحدة موسّعة أطلق عليها(فندايك) مصطلح (آجرومية النصّ)، يمكن اعتمادها لمعرفة بعض القواعد التي تحكم (النصّ)، فتجعله كالبنيــان المرصــوص، النصّ: المترابط المتعالق المتعانق بفعل بنيته المرصوصــة المــسبوكة المحبوكــة، المتسّقه المنسجمة، مما يجعل النصّ كلاً واحداً قائماً بذاته، ليكون مفهومــه ــ كمــا يبدو ــ حدثاً فنيّاً علمياً معرفياً، يتصف بالشمولية، ينجز بأحداث لغوية وغير لغوية، تتعالق مكوناته فيما بينها؛ لتكون بنيته الكليّة الكبرى، المتضمنة معنى النصّ الكلــي الذي تعالقت لأجله كلّ معانية الجزئية.

أمّا أهم نتائج الدراسة التي حاولت ما وسعتها المحاولة أن تخرج بهــا، يمكــن ذكرها في النقاط الآتية:

1-بيّنت الدراسة أنّ القرآن الكريم هو النصّ الذي امتاز عــن جميــع النــصوص بوصفه نصّاً أُطلِق عليه، إذ تحققت فيه جميع معايير النصيّة التي وضعها علمّاء النصّ، وقد أثبتنا هذه النصيّة من خلال تحليل جميع عناصر التماسك النــصيّ، التي تمت دراستها وتحليلها ضمن إطار جميع مستويات التحليل اللغوية وغيــر اللغوية.

2-أكّدت الدراسة أنّ النصّ القرآني نصّ مفتوح ومستمر ومتواصل مع متلقيه، فــي كلّ زمان وفي كل مكان، فعلى الرغم من طول عهده الذي أُنزل فيه، إلا أنه لــم

يشكلّ انحرافاً أو خرقاً لشتى أنواع العلوم والمعارف الإنسانية، التي تم التوصل إليها على اختلاف مناهجها وآليات تحليلها وطرق فهمها، وسيظل كذلك ــ طبقاً لذاك التواصل وهذا التوافق ــ دون انحراف أو مخالفة، إذ لا يزال يشكلّ محوراً هاماً ورئيساً ومركزياً للدراسة والتحليل، فكثير من العلوم والمعارف التي تم التوصل إليها، قد تبيّن سبق القرآن الكريم لها، فلا مبالغة إذا ما ذهبنا إلى أنّ نظرية علمية قد يتم تأطيرها في القادم من الأيام، سيظهر سبق القرآن إلى نتائجها إذا ما تم تمحيصها به، أو تم عرض نتائجها على النصّ القرآني، فالعلم الذي أوتي منه البشر لم يكن إلا قليلاً.

3-انطلقت الدراسة مع الحروف المقطّعة باعتبارها الجملة النواة أو البؤرة الرئيسة في النصّ، لما تحمله من معلومات جديدة، الأمر الذي كان سبباً رئيساً في تعدد قراءاتها عند المتلقين منذ نزول القرآن الكريم ولا تزال، وكان ذاك الاعتبار لها متمثلاً بتأويل الجملة الأولى النواة لتلك الحروف .

4-اهتمت الدراسة بالموقع الذي شغلته الحروف المقطّعة، فلم تعتد لذلك بالرأي الذي عدّ هذه الحروف هي حروف قسم، بل عدّت هذه الحروف حروفاً مشعرة بالقسم بالاسم الذي شغلت هي موقعه، ولم تعتد كذلك بمن عدّ حرف (الواو) ــ الوقع بعد بعض هذه الحروف ــ حرف قسم، بل عدّته حرف عطف لم يخرج عن اختصاصه ووظيفته النحوية، فكان وجوده بعد هذه الحروف قرينة استثمرتها الدراسة في تأويل الحروف المقطّعة التأويل الذي ذكرناه .

5-خرجت الدراسة بدلالات تأويلية للحروف المقطّعة تضاف إلى ما قيل في دلالاتها عند المفسرين واللغويين والدارسين لعلوم القرآن، وهذه الدلالات المتأوّلة لم تجد ــ في حدود العلم والإطلاع على ما قيل من آراء في هذه الحروف ــ منْ نصّ عليها في دراسة خاصة بها أو عامة فشملتها، ومن هذه الدلالات؛ تأويلها بأنّها حروف مقتطعة من أفعال أمر متعددة، وليست محصورة في فعل واحد قد وقع أحد الحروف المقطعة في بنية فعل واحد كما جاء في أحد الأبحاث الذي أشرنا إليه تحت عنوان الدراسات السابقة للحروف المقطّعة. إذ تعددت الأفعال التي تأولناها لهذا الحروف، لا سيما الأفعال التي تنسجم مع

الموضوع المحوري لنصوص السور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة نحو: اعبد، اعبدوا، استقم، أقم، آمن، آمنوا، اصبر، اصبروا، اذكر، ادعو، استغفر، استغفروا، ...الخ.

6-خرجت الدراسة بدلالات جديدة لبعض الحروف المقطّعة، نحو: دلالة حرف (اللا)، على الملك التي دلّ عليها قوله تعالى:" لله ما في السماوات والأرض"، وغيرها من الآيات، ودلالة هذا الحرف أيضاً على النفي الذي وقع في صدر الآية شهادة التوحيد (لا إله إلا هو)، وكذلك (فلا أعبد، لا أعبد، ... الخ).

7-كما خرجت بدلالة حرف اللا على النهي، الذي تصدر عدداً من الأفعال في صيغة المضارع لينسجم مع دلالتي الحرف على الأمر والنفي، واستدلينا على دلالة النهي بآيات من نصوص هذه السور نحو قوله تعالى:"ولا تدع، فلا تكونن"

8-كذلك تأويل هذه الحروف بأنّها قد وقعت في موقع المقسم به وليست هي حروف قسم، وقد كان تأويل المقسم به هو أسماء الله الحسنى أو أحدها.

9-من الأسس التي اعتمدتها الدراسة في تحليل نصوص السور ذوات الحروف المقطّعة، هو ربط عنوان السورة بمضمونها، إذ نهجت الدراسة هذا النهج باعتباره نهجاً تحليلاً جديداً لم أجد ـــ في حدود العلم والإطلاع أيضاً ـــ أحداً قد لجأ إليه من المفسرين أو الدارسين لعلوم القرآن .

10-ربطت الدراسة دلالات عنوانات السور ذوات الحروف المقطّعة، التي تم الوقوف عليها في معاجم اللغة، ثم ربطها بدلالات كثيرة جاءت في نصوص هذه السور، فكان هذا الرابط بين عنوانات السور مستنداً إلى نظرة نحو النص للنص باعتباره النصّ كلاً متكاملاً من عنوانه حتى آخر لفظة فيه.

11-سلكت الدراسة مسلك ابن جني في الحصول على دلالات متعالقة عن طريق تقليب الجذر اللغوي الواحد كما بيّنا ذلك في تقليب جذر الفعل (بقر) الذي تحصلنا عليه بعد تفكيك عنوان سورة البقرة .

12-لجأت الدراسة إلى التعامل مع الحروف المقطعة (الم) باعتبارها مجموعة من الأفعال تشمل (ألم ، أمل، لأم، لمأ، مال، ملأ، لمّ، ألمّ)، كما استفادت من المعاني

التي تمّ تأويلها من هذه الحروف باعتبارها أسماء من (الألفة، الأمــل، الألــم، الميل) .

13-استندت الدراسة في عضد ما جاء من دلالات سابقة للحروف المقطّعــة عنــد المفسرين واللغويين ودارسي علوم القرآن، وما خرجت هـــي بـــه مـــن دلالات إضافية، إلى ربط هذه الدلالات بنصّ السورة ذات الحروف المقطّعة وبنصوص السور كلّها ذوات الحروف المقطّعة .

14-استثمرت الدراسة معطيات كثير من العلوم في الوقوف علـــى بعــض دلالات الحروف المقطّعة وبعض آيات السور القرآنية التي استهلت بهـــا، ومـــن ذلــك استثمارها لمعطيات نظرية السيميائيات أو العلامات، التي جادت بمعانٍ جديـــدة لهذه الحروف .

15-من خلال استخدام المنهج الإحصائي الحسابي، بيّنت الدراسة أنّ هذا المنهج قد عضد النتائج التي توصلنا إليها في إثبات الوحدة الموضوعية للسورة الواحدة من السور ذوات الحروف المقطّعة، وكذلك الحال عن طريق استخدام مناهج التحليل اللغوية وغير اللغوية، وعن طريق الاســـتفادة مـــن ســـائر العلـــوم الأخـــرى ومعطياتها.

16-أظهرت الدراسة أنّ للعرب القدماء جهوداً متقدمة وإسهامات كبيرة في دراســـة النصوص، تتصل بالدراسات الحديثة للنصّ بعدّه كلاً واحداً ذا بنية كليّة كبـــرى، تعالقت مفرداته وجمله وفقراته في تحقيق هذه البنية، فقد بيّنـــت الدراســـة هـــذه النظرة النصيّة عند المفسرين من خلال دراستهم للنصّ القرآني، فوصفوه بأنـــه كالكلمة الواحدة وأنّ كلماته آخذ أعناقها بأعناق بعض.

17-أثبتت الدراسة انفتاح النصّ القرآني أمام المتلقي الواحد له وأمام كلّ مـــنْ رام تلقيه، وثراءه الدلالي الذي لا ينضب، ولا أدلّ ذاك الانفتاح وهذا الثراء إلا تعدد القراءات عند المتلقي الواحد نفسه، فترجمان القرآن ابـــن عبّـــاس رضـــي الله عنهما، قد جاء بأكثر من تأويل للحروف المقطّعة، فمع كل قراءة جديـــدة دلالـــة جديدة لا تتناقض مع دلالة الأولى، كما تعددت القراءات للحروف المقطّعة عنـــد المفسرين واللغويين كذلك.

18-راعت الدراسة في تحليلها نصوص السور ذوات الحروف المقطّعة ضرورة ربط أول سورة من القرآن الكريم بحسب ترتيب المصحف، وهي سورة الفاتحة، وكذلك أول سورة بحسب ترتيب النزول وهي سورة العلق، وكذلك آخر ثلاث سور في القرآن الكريم بحسب ترتيب المصحف، وهي سورة الإخلاص أو التوحيد وسورتا الفلق والناس أو المعوذتان، حيث تم الربط بين هذه السور نحوياً ودلالياً وتداولياً؛ لإثبات التماسك والتعالق بين هذه السور التي تشكّل مفاتيح النصّ القرآني وخواتيمة، لاعتبارين هما: الأول: باعتبار النصّ القرآني نصّاً خطابياً شفوياً، والثاني باعتبار النصّ القرآني نصّاً مكتوباً ظاهراً معلناً .

19-اهتمت الدراسة بالوحدة الموضوعية للسورة النصّ أولاً، وإثباتها للسور ذوات الحروف المقطّعة النصّ ثانياً، فشكلّت موضوعاتها بنى نصيّة صغرى وكبرى، إنّ تماسك النصّ إنّما يكون من خلال تعالق دلالات النصّ بما فيها العلاقة النسقية بين دلالة النصّ وتداولية كما ذكر (فندايك)، من خلال تماسك النصّ على مستوى دلالات أولاً ومن ثَمَّ تحقق نصيّة النص، قد تحصلت بفعل التعالق على مستوى الدلالات، ولم يكن هذا التعالق متحققاً في أبنية سورة واحدة فحسب، ولا متحققاً كذلك على مستوى مجموعة السور ذات الحروف المقطعة ما خلا واحدة منها، بل إنه تحقق على مستوى النص القرآني لهذه السور كلّها، ولا أجد مندوحةً في ضوء هذا التعالق الدلالي، لنصوص تسع وعشرين سورة قرآنية، شكلّت مع سائر نصوص السور النص القرآني كاملاً، وفي ضوء ما توصل إليه وأقرّه جلّ المفسرين له والدارسون لعلومه على اختلافها وتعدد مناهجها، عن القول بترابط وتماسك النصّ القرآني من أول لفظ في بنيته إلى آخر لفظ .

20-اهتمت الدراسة بالمصاحبات المعجمية في إطار نظرية الحقول الدلالية، باعتبارها مفاتيح هامة في النصّ؛ إذ وقفت على كثير من الألفاظ التي تؤول إلى دلالة واحدة سواء أكانت تتضمن دلالة جزئية في إطار مسألة التفسير النسبي أو تتعالق مع غيرها من الألفاظ في إطار المعنى الدلالي الواحد، ومن أمثلة ذلك

ألفاظ: الصراط ، المستقيم، القيم، السوي،العدل، الوسط، الحنفية، الحنيف، الأمة، الإمام ...الخ .

21–اعتمدت الدراسة في تحليلها للسور القرآنية ذوات الحروف المقطّعة، على المستوى التداولي، فبيّنت أهمية مساهمة هذا المستوى في فهم النصّ وتحقيق تماسكه، وذلك من خلال المعارف المشتركة التي أخبر بها النصّ وخاطب بها المتلقي، كما كانت أسباب النزول خير تمثل لهذا المستوى، من خلال تجاوبات الوحي مع المتلقين بالرد على أسئلتهم أو إخبارهم بالإجابة قبل أنْ يسألوا عنها، أو بتكبيت المتلقي المنكر ودحضه بالحجج والبراهين والأدلة القاطعة، وإلى جانب أسباب النزول ومناسبته، كان لأسلوب القصص القرآني وضرب الأمثال أهمية بالغة في الجانب التداولي للنصّ القرآني، فهما من باب المعارف العامة والرصيد المشترك لدى المتلقين .

22–من أهم النتائج التي يمكن عدّها توصية للدراسة، هي اعتماد نظرية نحو النصّ لدى من رام أنْ يحلّل نصّاً ما ـ بوصفه نصّاً ـ تحليلاً شمولياً كلياً، مما يعني اهتمام الباحث بكل ما يفيد من معطيات ومعارف العلوم الأخرى، وكذلك إشراك كافة مستويات التحليل اللغوي وغير اللغوي، فالمقام الذي قيل فيه النصّ ليس مستقلاً عن الأحداث والمعلومات التي تضمنها النصّ، وإنّما أنجزت في مقامه الخاص الذي يفيد ويحكّم في مقام عام تماثلت أحداثه أو أسبابه، أو قيل في مقام عام يفيد مقاماً خاصاً كذلك، ولم يفت المفسرون واللغويون أنْ قالوا: بإطلاق الخاص يراد به العام وبإطلاق العام يراد به الخاص، ويدخل ضمن هذا السياق قولهم: العبرة في عموم اللفظ لا في خصوص السبب، لكن ليس على الإطلاق كما يبدو؛ إذ قد يماثل موقف ما موقفاً، قيل فيه لفظٌ كانت المعتبرة فيه جملة: درء مفسدة خير من جلب ضرر .

المراجع

الآمدي: علي بن أبي محمد بن سالم بن محمد التغلبي، ت:631هـ،(د.ت)، **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي.

إخوان الصفا: 1412هـ - 1992، **رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء**، الطبعة الأولى، الدار الإسلامية ، بيروت.

الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد بن طلحة الأزهري اللغوي، ت: 370 هـ، 1964م **تهذيب اللغة**، تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، والدار المصرية للتأليف والرجمة، القاهرة.

ابن أبي الأصبع: عبد العظيم بن عبد الواحد القيراوني المعري ت 654 هـ، 1960م، **الخواطر السوانح في أسرار الفواتح**، تحقيق. حفني شرف، مطبعة الرسالة.

الأصفهاني: أبو القاسم، حسين بن محمد بن المفضل المعروف : بالراغب الأصفهاني، ت: 502 هـ، (2002م)، **مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم_دمشق الدار الشامية _ بيروت. الطبعة الثالثة.

الألوسي: **روح المعاني**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان. ودار الفكر العربي.

بارت: رولان 1992، **لذّة النص**، ترجمة: منذر عياشي، دار لوسي ــ باريس.

الباقلاني: أبو بكر محمد بن الطيب، 1964م، **إعجاز القرآن**، ت. السيد أحمد صقر، ت(403هـ) دار المعارف، القاهرة.

بحيري: سعيد حسن 1997م، **علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات**، الشركة المصرية العالمية للنشر-لوجمان، الطبعة الاولى.

البخاري: أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن إسماعيل، (د.ت)، **صحيح البخاري**، مؤسسة النتاريخ العربي، لبنان - بيروت.

البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود 1417 هـ - 1997م، **معالم التنزيل**، ت: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة.

البقاعي: برهان الدين أبي الحسن إبراهيم، (د.ت)، **نظم الدرر**، دار الكتب العلمية بيروت– لبنان، خرّج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه، عبد الرزاق غالب المهدي .

البقاعي: برهان الدين أبي الحسن إبراهيم، 1969م، **نظم الدرر**، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعةالأولى.

بنت الشاطئ: عائشة عبد الرحمن، (د.ت)، **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق**، دار المعارف، الطبعة الثالثة.

البيضاوي: ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي: 1408هـ،1988م، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان.

الترمذي: محمد بن عيسى بن سوره، ت/ 279هـ، (د.ت)، **سنن الترمذي**، تحقيق أحمد شاكر وإبراهيم عوض عطوه ، النمكتبة الإسلامية، بيروت .

التستري: الإمام محمد أبي سهل بن عبدالله المتوفي سنة (283هـ)، 2002، **تفسير التستري**، علق عليه ووضع حواشيه محمد باسل عيون السود، الطبعة الأولى، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

حسان: تمام (1427هـ–2006م)، **اللغة العربية: معناها ومبناها**، الطبعة الخامسة، عالم الكتب، القاهرة .

الجاحظ: أبوعثمان عمرو بن بحر بن محبوب، (د.ت)، **كتاب الحيوان**، تحقيق: عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، لبنان –بيروت.

الجرجاني: أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد المتوفي سنة 471، 2004، **التعريفات**. علق عليه محمود محمد شاكر، الطبعة الخامسة، مكتبة الخانجي، القاهرة.

الجرجاني: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد: 2004، **دلائل الإعجاز**، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، الطبعة الخامسة، مكتبة الخانجي، القاهرة.

جمعية المحافظة على القرآن الكريم: **الفرقان:** مجلة شهرية تصدر عن جمعية المحافظة على القرآن الكريم / الأردن، السنة الثامنة:ع/69- شوال 1428 هـ، تشرين أول- 2007م.

الجصّاص: أحمد بن علي المكني بأبي بكر الرازي الجصاص الحنفي، (د.ت)، **أحكام القرآن.**

الجنابي: أحمد نصيف، 1984م، ظاهرة المشترك اللفظي ومشكلة غموض الدلالة، **مجلة المجمع العلمي العراقي** مج 35، ج 4، محرم 1405 هـ تشرين الأول.

ابن جني: أبو الفتح عثمان، (د.ت)، **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية.

ابن جني: أبو الفتح عثمان ابن جني **(د.ت)، سرّ صناعة الإعراب**، تحقيق حسن هنداوي .

الجوهري: إسماعيل بن حماد، الصحاح: 1956م، **تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق**:احمد عبد الغفور عطار، الطبعة الأولى، القاهرة.

ابن حزم: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، (د.ت)، **الإحكام في أصول القرآن.**

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد(د.ت)، **المقدمة** .ت(808هـ) **تحقيق** علي عبد الواحد وافي.

حسنين: صلاح الدين صالح، **(د.ت)، الدلالة والنحو**، الطبعة الأولى، مكتبة الآداب.

حماسة: محمد عبد اللطيف 1996، منهج في التحليل النصي للقصيدة، **مجلة فصول**، مج/ 15.

حماسة: محمد حماسة عبد اللطيف، 1996م، **بناء الجملة العربية**، دار الشروق- القاهرة، الطبعة الأولى.

الحموز: عبد الفتاح، 1984، **التأويل النحوي في القرآن الكريم**، رسالة دكتوراه، الطبعة الأولى، مكتبة الرشد، الرياض.

الحموز: عبد الفتاح، 2008م، **انزياح اللسان العربي الفصيح والمعنى**، دار عمار للنشر والتوزيع.

الحموز،عبدالفتاح 2009م، **القطع نحوياً والمعنى**، الطبعة الاولى، دار عمار للنشر والتوزيع.

حمودة: طاهر، 1983م، **ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي**،الدار الجامعية للطباعة والنشر – الاسكندرية.

الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومـــي البغــدادي، ت/626هــ، 1986م، **معجم البلدان**، دار صادر – بيروت.

حميدة ، مصطفى: 1997م، **نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية**، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان. الطبعة الأولى.

حميدة: مصطفى 1999، **أساليب العطف في القرآن الكريم** ،الطبعة الأولى، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان .

خطابي، محمد 1991، **لسانيات النص/ مدخل إلى انسجام الخطاب**، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت.

دَراز: محمد عبد الله، 1404 هــ، 1984م، **مدخل إلى القــرآن الكــريم/ عــرض تاريخي وتحليل مقارن**. ترجمة: محمد عبد العظيم علي، مراجعة: السّيد محمد بدوي. دار القلم ـــ الكويت.

دولو دال: جيرار، (د.ت)، **السيميائيات أو نظرية العلامات**، ترجمة: عبد الــرحمن بوعلي.

دي بوجراند، رويرت1998، **النصّ والخطاب والإجراء**، ترجمـــة: تمـــام حـــسان. الطبعة الأولى، عالم الكتب، القاهرة .

الذهبي: محمد حسين1976م، **التفسير والمفسرون**، دار إحياء التــراث العربـــي، الطبعة الثانية.

الرازي: أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الــرازي الملقـــب بفخر الدين المتوفي 660هــ، (د.ت)، **مفاتيح الغيـــب**. الطبعـــة الثانيـــة، دار الكتب العلمية ودار الفكر.

الرازي: أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين المتوفي 660، 2000، **أسرار التنزيل وأنوار التأويل**، تحقيق عبد الرحمن عميرة وعبد المنعم درويش ، ركابي – للنشر والتوزيع ، القاهرة.

رحائم: سعاد 1428هـ ، 2007م، **الحضارة الإسلامية/ جذور وامتدادات**، كتاب الأمة، ع /121، السنة السابعة والعشرون، ط1، ص/30 .

الرويني: عنتر، **من إشراقات الحروف المقطّعة**.

زاهدة: عطية، 1980، هكذا حدثني القرآن / **فواتح السور والحروف السبعة**، الخليل.

الزبيدي: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، (د.ت)، **تاج العروس من جواهر القاموس**، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، سلسلة تصدرها وزارة الإرشاد والأنباء.

ابن الزبير: أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي، 1983، **ملاك التأويل**، ت. سعيد الفلاح، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي.

الزجاج: 1999م، **إعراب القرآن**، تحقيق ودراسة إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، الطبعة الرابعة.

الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله، (د.ت)، **البرهان في علوم القرآن**. ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم.

الزركلي، خير الدين، 1980، **الأعلام**، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة.

الزمخشري: أبو القاسم، 1966، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، الطبعة الأخيرة، مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

الزمخشري: أبو القاسم، 1426هـ –2005م، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت–لبنان، الطبعة الثالثة.

الزناد: الأزهر: 1993، **نسيج النص**: بحث فيما يكون به الملفوظ نصاً، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء .

أبو زيد: نصر حامد(د.ت)، **الخطاب والتأويل/ سلطة السياسة وسلطة النصّ**.(الطبعة الثانية) المركز الثقافي العربي. الدارالبيضاء-المغرب.

أبو زيد: نصر حامد1998م، **مفهوم النصّ: دراسة في علوم القرآن**، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدارالبيضاء-المغرب، الطبعة الرابعة.

السامرائي: فاضل صالح، **التعبير القرآني/ دراسات بيانية في الأسلوب القرآني**، دار عمار، ط/4، 1427هـ- 2006م .

السامرائي: فاضل صالح ، **معاني النحو** ، دار الفكر- عمان، ط3، 2008م-1429هـ..

سرحان: هيثم ، **استراتيجة التأويل الدلالي عند المعتزلة**، الطبعة الأولى ، 2003 ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية .

أبو السعود: للقاضي محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي، ت/ 982هـ، **إرشاد العقل السليم إلى مزاي الكتاب العزيز**، 84/1، وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة/1، 1419هـ، 1999م، منشورات محمد علي بيضون.

السّمين الحلبي: شهاب الدين ابي العباس بن يوسف بن محمد إبراهيم، **الدُرُ المصُون في علوم الكتاب المكنون**، تحقيق:علي محمد معوض وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان،ط/1/ 1414هـ، 1994م.

سيبويه: عثمان بن بحر بن قنبر، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي-مصر، الطبعة الثالثة.

ابن سيدة: أبو الحسن علي بن اسمعيل النحوي اللغوي الاندلسي، ت:458 هـ، **المخصص**، تحقيق: الشنقيطي ومعاونة عبد الغني محمود، المطبعة الأميرية ببولاق،1318هـ.

السيوطي:جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **الاتقان في علوم القرآن** ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث ، القاهرة .

السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي .

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **طبقات المفسرين**. دار الكتب العلمية. بيروت– لبنان. ط1/1403 هـ، 1983م. مراجعة وضبط/ بإشراف لجنة من العلماء.

السيوطي: جلال الدين، **مفحمات الأقران في مبهمات القرآن**، راجعه وقدّم له: طه عبد الرؤوف سعد. المكتبة الأزهرية للتراث، ط/1، 1412ه ـ 1992م .

الشامي: محمد بن يوسف الصالحي ت / 942 هـ، **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى 1414 هـ – 1993 م.

شبلنر: براند شبلنر، **علم اللغة والدراسات الأدبية**، دراسة الأسلوب، البلاغة، علم اللغة النصي، ترجمة: محمود جاد الرب، القاهرة، الدار الفنية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى–1987م.

شتراوس:كلود ليفي ، **مقالات في الأناسة**، اختارها ونقلها إلى العربية، حسن قبيسي، بإشراف فؤاد زكريا، سلسلة الفكر المعاصر، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع– بيروت، ط/2، 2005 م .

شرارة: عبد الجبار حمد، **الحروف المقطّعة في القرآن الكريم**، الطبعة الثانية 1414 هـ ، مكتب الإعلام الإسلامي – قمّ .

شيمل: آن ماري، التورية بالكتب في الآداب الإسلامية، عالم المعرفة: الكتاب في العالم الإسلامي/ الكلمة المكتوبة كوسيلة للاتصال في منطقة الشرق الأوسط. تحرير: جورج عطية، ترجمة: عبد الستار الحلوجي. ع 297، اكتوبر 2003م .

الشهاب الخفاجي: أحمد بن محمد بن عمر المصري القاضي شهاب الدين ت:1069هـ، **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، المسمّاة **(عناية القاضي وكفاية الراضي)** على شرح البيضاوي، دار صادر– بيروت .

الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، **الملل والنحل**، دار الفكر، لبنان – بيروت.

الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، **فتح القدير**، مكتبة تحقيق العلوم.

صبحي الصالح: **مباحث في علوم القرآن**، الطبعة السادسة والعشرون، دار العلم للملايين ـ بيروت.

أبو صعيليك: سليمان، **الحروف المقطّعة في القرآن الكريم؛ تفسيراً**، لغة، إعراباً، ومذهباً، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك .

صفا: فيصل إبراهيم: **نحو النصّ في النحو العربي**: دراسة في مجموعة من العبارات النحوية الشارحة، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، ع: 92:

الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن بن الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، تصحيح وتحقيق وتعليق/ السيدد هاشم الرسولى المحلاتي و السيد فضل الله اليزدي الطباطبائي، دار المعرفة للطباعة والنشر. الطبعة الأولى: 1406هـ، 1986.

الطبري:أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب، ت/ 310هـ ، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى1420 – 2000م .

الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف–القاهرة، 1963م.

ابن عادل: عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، أبو حفص، ت:بعد 880 هـ،بعد 1475م، سراج الدين، **اللباب في علوم الكتاب**، دار الكتب العلمية.

ابن عاشور: الطاهر محمد ، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر/1984.

عبد البديع: لطفي، **التركيب اللغوي للأدب/ بحث في فلسفة اللُّغة والاستطيقيا**، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان، 1997 م.

عبد الجليل، محمد بدري، **براعة الاستهلال في فواتح القصائد والسور**، الطبعة الثانية، 1980 ، المكتب الإسلامي ، القاهرة .

عبد المطلب: محمد ، **العلامة والعلامتية**/ دراسة في اللغة والأدب.

العبد: محمد :حبك النص "**منظورات من التراث العربي**: مجلة الدراسات اللغوية مج 3، ع2 ، 2001م .

أبو عبيدة: معمر بن المثنى التيمي :ت 210 هـ، **مجاز القرآن**،عارضه بأصوله وعلق عليه: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة.

العدل: سعد عبد المطلب، **الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم، شرح ما يسمى بالحروف المقطعة**، 2002 ، مكتبة مدبولي .

ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي/ (468-543هـ)، **أحكام القرآن**، تحقيق/عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان/ الطبعة الأولى/1421هـ - 2000م.

العسكري:أبو هلال، **الفروق اللغوية**. تحقيق مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، الطبعة: الاولى: 2000م .

ابن عطية: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي ، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** ، تحقيق؛: المجلس العلمي بفاس. وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية المغربية

عفيفي: أحمد: **نحو النص/اتجاه جديد في الدرس النحوي** . الطبعة الأولى 2001 ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة .

العك: خالد عبد الرحمن، **أصول التفسير وقواعده** ، دار النفائس: ط3، 1414هـ، 1994م.

عمر: أحمد مختار عمر، **علم الدلالة**، دار العروبة للنشر والتوزيع-الكويت، الطبعة الأولى-1402هـ.

عياشي: منذر، **العلامتية وعلم النص**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب، الطبعة الأولى2004م.

الغزالي: أبو حامد، **المستصفى في أصول الأحكام**، المطبعة الأميرية ببولاق-مصر، الطبعة الأولى:1324هـ.

الغزالي: أبو حامد ، **المنخول**. ت/ محمد حسن هيتو الطبعة الثالثة 1419 هـ 1998 م دار الفكر المعاصر بيروت ـ لبنان دار الفكر دمشق - سورية .

ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، **الصاحبي في اللغة**، تحقيق/عمر فاروق الطباع، دار المعارف - بيروت،ط/1، 1414هـ-1993م .

فضل: صلاح ، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، الطبعة الأولى/1996م .

الفقي: صبحي، **علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق** .الطبعة الأولى ، 2000 ، دار قباء للنشر، القاهرة .

فندايك، تيون، **النص والسياق استقصاء البحث الدلالي والتداولي**، ترجمة عبدالقادر قنيني ، أفريقيا الشرق – المغرب – الدار البيضاء ، 2000 م .

فندريس: **اللغة**، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية–1950م.

الفيروزأبادي: **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، ت: محمد علي النجار.

القاسمي: محمد جمال الدين ت / 1332 هـ ، **دلائل التوحيد** ، ضبط وتعليق وتخريج خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى 1412 هـ - 1991 .

ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم: **تأويل مُشكل القرآن**. ت/ السيد أحمد صقر، 2006 ، مكتبة دار التراث ، القاهرة .

القرطاجني: حازم: **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق محمد الحبيب بن خوخه، بيروت ، 1989 .

القشيري: **لطائف الإشارات**، ت: إبراهيم بسيوني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة .

ابن القطّاع :أبو القاسم علي بن جعفر السعدي،المتوفى سنة(515هـ) **الأفعال**، الطبعة الأولى (1983م) عالم الكتب، بيروت.

القلقيلي، محمد عادل، **نظرات جديدة في القرآن المعجز**، الطبعة الاولى، دار الجيل ـ بيروت ،1997.

ابن القيم: الجوزية، **بدائع الفوائد** ،المتوفى سنة(751هـ) ت:سيد عمران وعامر صلاح، دار الحديث القاهرة.

ابن كثير: عماد الدين ابو الفداء إسماعيل بن عمرو البصري الدمشقي ، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، 1999 .

المراكشي: أبو العباس أحمد بن البناء المراكشي ت /721هـ – 1326م، **عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل**، حققته وقدّمت له: هند شلبي، الطبعة الأولى 1990، دار الغرب الإسلامي ، بيروت .

مصلوح: سعد، **من نحو الجملة إلى نحو النص** – الكتاب التذكاري لقسم اللغة العربية – جامعة الكويت – عبد السلام هارون معلما ومؤلفا ومحققا، إعداد وديعة طه النجم وعبده بدوي ، 1989– 1990.

مفتاح: محمد: أوليات منطقية رياضية في النظرية السيميائية: عالم الفكر: م 35، ع 3، 2007م.

المليجي: محمد أحمد عبد الوهاب، **الظواهر الإعجازية في فواتح السور القرآنية عند المفسرين والنحاة**، 1421 هـ 2000 م .

ابن منظور: أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي 630 – 711 هـ ، **لسان العرب**: دار صادر .

موسى: حسن لحساسنة، **الحاكمية في الفكر الإسلامي**، كتاب الأمة: ص/131،132 ، ع/118، ط1، 1428 هـ/ 2007 م .

الناصري: محمد المكي الناصري: **التيسير في أحاديث التفسير**: الطبعة الأولى/ دار الغرب الاسلامي، بيروت – لبنان.

النحاس: أبو جعفر توفي 330 هـ ، **معاني القرآن** ، ت / محمد علي الصابوني ، مركز إحياء التراث الإسلامي ، مكة المكرمة، الطبعة الأولى 1408 هـ – 1988 م .

نحلة: محمود أحمد، **نحو نظرية عربية للأفعال الكلامية** ، مجلة الدراسات اللغوية ، المجلد الأول ، العدد الأول ، يونيو 1999 ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية .

ابن النديم: أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحق المعروف بالوراق ، **الفهرست**، تحقيق رضا- تجدد.

النسائي: **السنن الكبرى**، ت: عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن.

نصر: سيد حسين: **الرواية الشفهية والكتاب في التعليم الإسلامي**، عالم المعرفة، (الكتاب في العالم الإسلامي/ لـ (جورج عطية)، ترجمة:عبد الستار الحلوجي، ع/297، اكتوبر/ سنة 2003م .

هاينه من: فولفجانج وفيهفيجر، ديتر، **مدخل إلى علم لغة النصّي**، ترجمة فالح بن شبيب العجمي، النشر العلمي والمطابع ، جامعة الملك سعود ، 1419 هـ .

ابن هشام:جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن هشام، (ت761هـ). **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** (ط1)،ت(مازن المبارك محمد علي حمد الله)، دار الفكر، بيروت،1992م.

الهمذاني: عبد الجبار بن أحمد، توفي سنة(415 هـ)، **متشابه القرآن**، ت/ عدنان محمد زرزور، المجلد الأول والثاني ، مكتبة دار التراث.

الواحدي: أبي الحسن علي بن أحمد النيسابوري، ت:468هـ ، **أسباب النزول** ، تحقيق السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، 1406هـ-1986م.

يقطين: سعيد: **من النصّ إلى النصّ المترابط**، مجلة عالم الفكر: م/ 32، ع/ 2003م.